
الدار المصرية للتأليف والترجمة
ثلاثة كتّاب سُود
ثلاث قصص من إفريقيا السوداء
تأليف : إزا بوتو
جان مالونجا
أبدولاي سادجي
ترجمة : يحيى سعد
مراجعة : الدكتور علي درويش

ثلاثة كتّاب سُود

أو

ثلاث قصص من إفريقيا السّوداء

١ - المدينة القاسية : إزابو دتو
٢ - قلب آرية : چان مالونجا
٣ - نيني / خلاسية السنغال : أبدولاى سادچى

ترجمة : يحيى سعد
مراجعة : الدكتور علي درويش

هـذه ترجمـة كاملة لـكتاب :

Trois Ecrivains Noirs

Eza Boto

Jean Malonga

Abdoulaye Sadji

إعـداد :

Présence Africaine

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة

تليفون ٩٠٥٢٩٦

المدينة القاسية

بقلم : ازا بوتو

« إزا بوتو » كاتب حديث السن لم يكتب شيئاً من قبل اللهم إلا بحثا أسماه « دون ما كراهية ودون ما حب » نشرته دار الوجود الإفريقي فى عدد سابق و « الطلبة السود يتكلمون » .

نشأ المؤلف فى افريقيا السوداء الفرنسية وهو يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً ويتابع دراسته فى إحدى كليات الآداب .

الفصل الأول

لم يحدث لفتاة أن كانت فى مثل شقائى . فكر فى هذا الأمر « يابااندا » . إن النساء يسخرن منى طوال النهار فى أغانيهن ، والشيوخ ينظرون إلى فى إشفاق . أما الشبان فهم لايكادون يلتفتون إلى عندما أمر بجانبهم ، أما الأطفال فيتضاحكون من خلف ظهرى . وأنا مع ذلك لا أحمل لك فى قلبى أية ضغينة ولكنى فى حاجة إلى معرفة السبب الذى حدا بك إلى أن تفعل بى مافعلت . لم ترض بى « يابااندا » ؟ لست أسألك إلا تفسيراً لهذا ...

ما إن سمع « باندا » تلك الكلمات التى كان يتوقعها ويخشاها حتى رفع بصره نحو صديقته وكان الألم يرتسم فى عينيه : ونظر إليها بمزيج من الحسرة والشفقة . كان يبدو عليه بوضوح أنه نهب لشتى الانفعالات وكانت كل سماته وفمه على الأخص تفصح عن الاشمئزاز الذى يعترى النفوس الكريمة التى تنزع إلى الشرود أمام حقيقة الدنيا ...

وأدار بصره بنفس البطء الذى كان قد رفعه به ثم أخفى رأسه فى الوسادة القذرة التى اصفر لونها وكأنه يبحث عمن يبثه همه ... وبقى مستلقياً على الفراش بين طيات الأغطية التى يشك فى نظافتها . لقد كان جسده الطويل النحيل يذكر بتلك الحيات الضخمة الحالكة السواد التى يصادفها النساء أحياناً وهن مستلقيات فى حقولهن ، عندما يكن فريسة لسوء هضم مؤلم .

كانت بعض الحجلات المتخلفة عن الركب ما تزال تتناجى وهى تتباعد بين الأغصان المتشابكة المجاورة وكانت أشعة الصباح الزاخر بالحياة تنفذ خلال السقف وفتحات الباب . أما فى الخارج فالديكة تضطرب وتصيح بملء حناجرها وتتناجى بعبارات رقيقة . لقد أغلق باندا عينيه وكأنه ينشد النسيان وتجاهل كل مايدور من حوله ، أما هى فقد عاودت استجوابها له بصوت خفيض مرتجف وإن اتسم بالإصرار :

— قل لى ، لماذا رفضت أن تتزوجنى ؟ كيف أمكنك أن تفضل هذه الطفلة

الصغيرة التي لن تعرف أبداً كيف تمد لك طعامك ؟ بينما إن كنت معى ... فأولا لن تكون مطالباً بدفع أى شىء ...

وفجأه انفجر « باندا » صائحاً :

— إنك تشعريننى بالسأم !

كان مبعث هذه الصيحة اليأس أكثر منه الغضب ... وكانت هى جالسة على حافة السرير تنظر بفضول وقلق إلى هذا الفتى الضخم ، إلى هذا الرجل الذى بدا لها فجأة فى صورة جديدة تماماً بالنسبة إليها . أيكون الذكور إذن قساة جميعاً ، متبلدى العاطفة لا فرق بين أحدهم والآخر ؟ وخيم بينهما سكون مثقل بشتى الانفعالات ثم قال « باندا » :

— ولكن ماذا تتصورين ؟ أيجب أن أتزوجك لأنك تطعميننى بلحم الثور ؟ وأنا أتساءل مع ذلك عن كيفية حصولك على هذه اللحوم ، ولكنى أفضل أن أجهل هذا السر — أو لأنك تتيحين لى النوم فى فراشك ؟ إنك تفعلين ذلك بمقابل ، على حد تصورى . لماذا لم تخبرينى بذلك منذ اليوم الأول ؟

وسكت فجأة وتنهد . لربما أسف على أنه نطق بتلك الكلمات وعلى أنه تمادى فى الأمر . وربما أيضاً شعر بالراحه إذ قد أزال مابين وجهتى نظرهما من تباين مؤسف .

وقطع صوتها حبل الصمت . كان مازال مرتجفاً وينم عن إصرار :

— لم أعد أطلب منك أن تتزوجنى ولكنى أطلب أن تشرح لى الأسباب التى حدت بك إلى أن تهجرنى بهذه الطريقة . كيف نسيت كل ما عشناه من وقت معاً ، وكل تلك العبارات الجميلة التى كنت تسمعنى إياها ؟ كنت تقول إننى جميلة وإننى المرأة الوحيدة فى هذا العالم التى ترتاح إليها حقاً . هل بدر منى ما أشعرك بالاشمئزاز ؟ هل ... أفصح ، إنى فى حاجة إلى أن أفهم ...

كان « باندا » ساكناً لايجيب . ولكنه بعد هنيهة نطق فجأة بهذه الكلمة ، قالها غاضباً دون ماتبصر :

— أمى

— ماذا عن أمك ؟

— إن أمى هى السبب فعلا . كانت تخشى أن تـكونى عاقراً لأنك قد ضاجعت الـكثير من الرجال فيما يبدو .

كان يتحاشى نظرتها التى يحس بها تلفح وجهه كالسوط . وتمتمت بصوت خفيض وهى تزم شفتيها .

— كان عليك يا باندا أن تشعر بالخجل مما تقول . لقد قالت أمك هذا الـكلام وأصغيت أنت إليها دون ماتحرج . هل ستبقى طفلا على الدوام ؟ سوف تموت أمك قريباً . ألا ترى هذا الأمر ؟ ...

كانت تشعر فى أعماق قلبها بفرحة كبيرة إذ أن اعتراف الشاب قد كشف لها أن هذه الطفلة الصغيرة لاتشكل عائقاً فى أفق آمالها . إلا أن النظرة الثاقبة الباردة كالثلج التى ألقى بها « باندا » قضت على تحفزها للهجوم . وصارحها فيما يشبه الأسف قائلا :

— أترين ! إن أمى بالنسبة إلى ، إنها ... أوه ! فيما يجدى الـكلام ؟ ... إنك لن تفهمى هذا أبدا ... أتعرفين إنى أكاد لاأعرف أبى ...

كان راقداً على ظهره ونظرته لاتتحول عن السقف المصنوع من الحصير الذى سوده الدخان . وكانت تتخلل عبارته المتقطعة فترات من الصمت المفعم بالانفعال . ثم استطرد قائلا :

— لم يكن لى سوى أمى .

فسألته فى تحد :

— والآخرون ؟

— أى آخرون ؟

— الفتيان الآخرون الذين فى سنك ...

— ماذا تعنين ؟

— إن أكثرهم لم يعرفوا آباءهم ولم يكن لهم سوى أمهاتهم وهم مع ذلك فهم لايعبدونهن كما لو كن قد خلقن العالم . ألا ترى هذا ؟

وتنهد « باندا » عميقا ... هل سيخبرها بكل شىء ؟ . لقد انتابه الآن شعور

بالسأم يصحب وصفه كما هى حاله فى كل مرة يضطر فيها إلى عمل شىء يتبين له بوضوح عدم جدواه . قال وفى نظراته توسل : — لا ، إن الأمر بالنسبة إلى يختلف . أنصتى إلى ما سأقوله لك . وكان قد استدار نحوها وهو يستند على مرفقه ، وأخذ يلوح بيده الأخرى وكأنه يريد أن يؤكد وجاهة زعمه . ولكنه تبين بعد لحظة ، من نظراتها القاتمة الملتهبة ، أنها لن تفهم أبداً فاستلقى من جديد على ظهره وتمطى وتمدد بطوله وهو يعقد ذراعيه على صدره وينظر فى شرود الى حصير السقف الذى اسود لونه من الدخان . كان يبدو وكأنه يحدث نفسه ، اللهم إلا إن كان يحدث أناساً غير مرئيين .

— إننى أحب أمى . أى ! لا يمكن أن تتصورى كم أحبها . هل أحببت أحداً أنت ؟ كنت أبلغ من العمر بضع سنوات عندما مات أبى فتكفلت أمى بتربيتى ، وتفانت فى هذا السبيل وفعلت كل ما تستطيعه من أجلى . هل تسمعين ؟ لقد فعلت كل ما ارتأت ضرورة فعله لصالحى . كانت تحشونى بالطعام ، بالطعام الجيد ، وتغسل أمعائى كل أسبوع بحقنة فى الشرج ، وفى كل مساء كانت تغسلنى فى قدر كبير ملىء بالماء الدافىء تدلك فيه جسدى كله تدليكاً طويلاً . وكانت ترسلنى ثلاث مرات كل أسبوع إلى حيث استمع إلى دروس فى الدين المسيحى . كانت ملابسى أفضل من تلك التى يرتديها الصغار الذين كانوا فى مثل عمرى ممن لم يفقدوا آباءهم . كنا ننام على أسرة من الخيزران على جانبى النار التى كانت أمى لا تكف عن تحريكها ليزداد اشتعالها فى الليل ، وهى تقص على الأساطير الخرافية أو تحدثنى عن أبى ، وعن طفولتى وعن البلد الذى ولدت فيه ، وعن جدتى التى توفيت قبل ولادتى ... وفى بعض الليالى كنا نسمع صوت بومة تنعق أو قرد يصرخ ، الأمر الذى كان يجعلنى أنكمش فى فراشى ويجعل أمى تقول لى ضاحكة :

لا تخف هكذا يا ابنى ، لن يأتى إليك هنا أمامى ... وفى ليال أخرى كانت الأمطار ترتطم بسقف بيتنا بينما تهب رياح عنيفة تجرف ما فى الفناء وتهز الأشجار البعيدة القائمة خارج القرية ، فكانت أمى تقول عندئذ : يا إلهى ! أصغ إلى صوت حبات الانجو التى تسقط . هناك شخص سوف يسعده ذلك غداً ، وهذا الشخص هو أنت ، أليس كذلك ؟ — أوه ، كثيراً ما كانت تعاقبنى مع ذلك دون رحمة ولكن

ذكرى هذا العقاب نفسها تزيد من إعزازى لها — وأنا لم أدرك مكانتها بالنسبة إلى إلا فى ذلك اليوم الذى شعرت فيه بالألم لأول مرة فى حياتى :

كانت فى هذا اليوم قد ذهبت لتسجل اسمى فى المدرسة بالمدينة ومعنى هـذا أن أنفصل عنها خمسة أيام من سبعة كل أسبوع . لقد بكيت فى ذلك اليوم بكاء لن أقوى على مثله فى يوم من الأيام (وانحنى وبصق على الأرض) ثم انتهى بى الأمر إلى أن ألفت هذا النمط الجديد من الحياة ، إلا أن الأيام الأولى كانت عسيرة للغاية ، فأمى — بسبب غيرتها على — لم تكن قد عودتنى أن أخالط أطفالاً فى مثل سنى — وكنت فى المدرسة أبدو متجهماً ، حزيناً ، خجولا — على أهبة البكاء لأوهى سبب ، الأمر الذى كان يضايق زملائى كما كان مبعث مضايقاتهم لى .

كانت أمى تحضر إلى المدينه فى أيام السبت وتصطحبنى يوم الأحد إلى الكنيسة لحضور القداس الذى كان يثير تثاؤبى ، ثم تنصرف آخر النهار بعد أن تهوّن على بألفاظ مشبعة بالحنان : أنها تحبنى وأنها دائمة التفكير فى ، وأنها تطلب إلى الله فى صلواتها أن يحمينى من كل سوء ولكنى كنت لاأفطن إلى أنى أشب وأخشوشن واستحيل تدريجياً إلى رجل . لقد بدأ تفكيرى فى أمى يتضاءل شيئاً فشيئاً بسبب مشاغلى الأخرى ، بل إن زياراتها وكلماتها وتدينها قد بدأ يسبب لى ما يشبه الضيق . ولم يغب عنها أبداً هذا التحول الذى اعترانى ، إلا أن حياءها كان يمنعها — بسبب حداثة سنى — من أن توجه إلى بعض اللوم . كم تألمت أمى ولا شك ! إننى لم أتبين كل هذا إلا بعد فترة طويلة .

كنت أعمل بجد منذ ثمانية أعوام فى مدرستهم تلك ، أعمل فى الزراعة وأنتزع البطاطس من الأرض ، ولم أكن أعمل أبداً ما اعتاد التلاميذ أن يعملوه فى المدرسة — وحين أدركوا ذات يوم أنى قد كبرت فعلاً كثيراً ، طردونى دون أن أحصل على أية شهادة بطبيعة الحال . ولم أكن قد رأيت أمى منذ فترة ما لأنها كانت قد كفت عن زيارتى . وعندما التقيت بها من جديد وجدت عناء فى التعرف عليها . كانت قد أصيبت بذلك المرض الغريب الذى لم يلبث أن استفحل .

كانت قد بذلت من نفسها الكثير من أجل تربيتى فى حين أننى لم أكن أعيرها إلا القليل من الاهتمام . وإذا كانت لم ترحل عن هذا البلد الذى ناصبها فيه العداء

أخوة غير أشقاء لوالدى ، يحنقون عليها أشد الحنق بسبب احتقارها لهم ، فقد فعلت هذا من أجلى أنا (وانحنى من جديد وبصق على الأرض) . كان فى مقدورها أن تعود إلى مسقط رأسها ، وطالما أبدت رغبتها فى العودة إليه حتى أرث ذات يوم مالها هناك . ولـكن لم يكن من حقها أن ترحل ، أن تنتزعنى من أرض أجدادى ، وخلاصة القول بدأ ضميرى يعذبنى .

وعندما أعود بذاكرتى القهقرى أتخيلها تحت وهج الشمس المحرقة وهى تعمل فى الأرض بجد ممسكة بفأس صغير أو تمثلها وهى ذاهبة إلى السوق تحمل على ظهرها سلة ملأى بالخضروات — كانت تفعل كل هـذا من أجلى أنا الذى نسيتها بهذه السرعة ...

لقد أردت أن أصحح وضعى نحوها فاختلقت المشاجرات مع كل من كنت أحملهم مسئولية شقاء أمى بعد وفاة والدى — كنت قوى البنية ... فترتب على ذلك أن كرهنى جميع أهل قريتى ، الأمر الذى يسعدنى . ولست أتصور شيئاً فى هذا العالم يمكن أن يعدل حب الأم لابنها — وربما كنت مغالياً ولـكن حب أمى لى كان من العنف بحيث لا يمكننى أن أتصوره على نحو آخر .

واسترخى باندا استرخاء طويلاً وانتفخ صدره انتفاخاً غير عادى ثم زفر زفرة طويلة . أما هى فـكانت جالسة على حافة فراشه تدقق النظر فيه بفضول يشوبه نوع من التحفظ .

— حقا إن أمى سوف تموت وشيكاً وعندئذ أرحل إلى المدينة — لست أعنى بهذا أنى أتمنى موت أمى ، لأنى حقيقة لا أتمناه ، ولـكن منيتها ستحين عما قريب على أى حال ، الأمر الذى سيحول بينى وبين استمرار حياتى هنا لأنه لن يكون هناك ما يبرره ... سوف أغادر بلدى — أترك قريتى لأذهب إلى المدينة حيث أدبر شئونى .

— وماذا ستفعل فى المدينة ؟

— سأحاول أن أجد عملا. ولـكن لا تنخدعى فمن المؤكد أننى لن أتزوجك . لن أعصى أمى حتى بعد موتها . إن الموتى يظلون دائما بيننا — حقاً إننى لم أكن مثالا للابن الطيب ، ولـكنى على الأقل فى هذا الشأن ...

— والفتاة الصغيرة ؟ هل تحبها ؟

— عندما جاءت لزيارتنا قالت أمي بعد أن رأتها : إنها امرأة حملة . ثم لم تقل عنها شيئاً بعد ذلك فهي لا تختصها بحبها .

كانت أنفاسها تتلاحق في رفق كما لو كانت قد جرت — كانت تشعر بأنها تحاول اللحاق بياندا الذي تشعر بأنه يفلت منها إلى الأبد . إن هذا الرجل الذي كانت تعتبره دائماً كطفل كبير ، ها هو الآن يسحقها . وتلاقت نظراتهما — وقالت في لهجة تنم عن عدم اقتناع :

— هل توافق حقا على بذل كل هذا المال من أجل هذه الصبية التعسة ؟

فأجابها وهو ينظر إليها نظرة حادة تكاد تنطق بالاحتقار :

— تصوري أنها تعجبني ... إنك لم تفهمي شيئاً مما قلته لك يابنيتي فإن زواجي يحقق رغبة أمي التي تأمل أن يتم قبل موتها ليكفل لها آخر سعادة في حياتها . وليس في استطاعتي على كل حال أن أرفض لها هذا الطلب ... ولما كانت هذه الفتاة هي الوحيدة التي لم ترفضها أمي صراحة ...

كان الصباح في الخارج مشرقاً والسماء صافية .

ووقف باندا فجأة وهم بالرحيل وقال :

— غداً أذهب إلى المدينة لأبيع محصولي من الكاكاو لليونانيين وآمل أن يعطيني أبناء اللصوص هؤلاء من المال ما يفي بمطالبي وإذا ما أعوزك شيء ما ...

وفهمت أن كل شيء قد انتهى بينهما ، ولم تنبس ببنت شفة .

وبقيت بمفردها ولكنها لم تستطع أن تحول بين نفسها وبين الإشفاق عليه إذ كانت تعتقد أن الفتاة الأخرى لم تكن من نوع النساء اللاتي يناسبنه .

الفصل الثانى

ماذا آلت إليه مدينة طنجة منذ الأحداث التى تحكيها هذه القصة ؟ كان من الممكن أن يحدث فيها أى تغيير ملحوظ فى مثل هذا العدد القليل من السنين ، فكل شىء اليوم فى إفريقيا يتغير بسرعة فائقه .كان بودنا أن يكون قد شملها تغير عميق إذ أنه يصعب علينا أن نفكر فى مصير قوم سيئى الحظ دون أن نتخيلهم وقد لحقوا بالتطور السريع ليحسنوا احوالهم .

وكانت طنجة فى تلك الفترة تشبه الكثير من مثيلاتها: ألواح من الصاج المموج ، جدران بيضاء ، شوارع مغطاة بالحصى الأحمر ، وساحات مغطاة بالعشب ، ويشاهد على بعد ، بعض أكواخ صغيرة مصنوعة من الطين الجاف مبعثرة دون ما نظام ، مغطاة بضفائر من الحصير بهتت ألوانها ، وأطفال عراة يلعبون فى الطين وغبار الافنية ، ونسوة يثرثرن على عتبات الأبواب . ومع ذلك فإن المسافر ليدهش عند وصوله إلى طنجه ، وقد يحبس دهشته فى نفسه ، ويقول إن هذه المدينة ليست كالأخريات بالضبط ، وربما كان لطنجة طابع خاص .

تخيل بقعة شاسعة مجردة من الأشجار فى قلب غابات بلادنا ، هذه الغابة الاستوائية العذراء كما يسميها المستكشفون وعلماء الجغرافيا والصحفيون . تخيل أكمة عالية فى قلب هذه البقعة الجرداء ، أكمة تحيط بها آكام أخرى صغيرة . إن مدينة طنجة إنما تقوم على سفحى هذه الأكمة المتقابلين ، تقوم حيث النشاط التجارى والسلطة الإدارية ، أما طنجة « الآخرين » ، طنجة الغربية فى ديارها ، فهى تحتل السفح الآخر الجنوبى ، وهو ضيق شديد الانحدار يفصله عن الغابة القريبة منه نهر ترتطم فيه أمواج سوداء عميقة ويربط بين ضفتيه جسر مشيد من الأسمنت المسلح . كان هذا النهر أحد الأشياء الملفتة للنظر فى طنجة ، فهو يشبه « سيركاً » ينبض بالحركة دواماً . لم يكن على المرء إلا أن يرتكز عرفقه على سور الجسر وأن ينتظر — ها هو كوخ عائم يجرفه التيار يظهر فى عرض النهر وهو ينساب برفق على الماء ، وترى رجلين ، أحدهما فى القدمة والثانى فى المؤخرة يمسك كل منهما بعود من الخشب مفرط فى الطول ، وهما يغمسانه فى الماء كل بدوره حتى يلمس قاع النهر وعندئذ يضغطانه بكل قوتهما ويدفعان المركبة

العائدة . أما فى داخلها فإنك ترى أكياساً مستديرة منتفخة مكدسة تلتصق بالجدران المصنوعة من الغاب وامرأة جالسة القرفصاء على الأرضية الخشبية تغسل حبالا بالقرب من بؤرة نار يتصاعد منها الدخان . والناس المتجمعة فوق هذا الجسر لا يملون من مشاهدة هذه الأكواخ الطويلة المثبتة على زورقين أو ثلاثة ، تلك الزوارق المترابطة التى قطعت مئات من الكيلومترات ، وكانت هذه الزوارق تأتى لترسو بكل ثقلها على الرمال وتتراص بعضها بجانب بعض .

وها هى عروق ضخمة من الخشب قد ربطت على شكل مسطحات تطفو على الماء . كانت هذه المسطحات تأتى من بعيد . وأنت ترى رجالا عراة عادة يقفون فوقها فتعجب من عدم مبالاتهم بالأصوات الصادرة من الجسر وهم يعملون فى غير عجلة فى ربط المسطحات بالرصيف المخصص لرسو عروق الخشب ، عندئذ تتحرك الرافعتان المثبتتان على الرصيف وتهتز فى عنف وتتقدم فى صخب على قضيبين شطر النهر ثم تتوقف وتهبط بشكل مخيف وتنتصب بعد ذلك حاملة بين فكيها عرقاً طويلا من الخشب ثم تدور على أعقابها وتعود من حيث أتت . كانت الرافعة كالمارد العملاق وكانت فى حركتها التلقائية بغيضة لا يتصور شيء أبغض منها ولو أن الفيل وقف بجانب هذه الآله لبدا كلعبة صغيرة .

أما الرافعة الثانية فهى تحمل عروق الخشب لتكدسها على أرض يسمع فيها صخب الفؤوس المسعورة التى تقطعها على شكل مربعات أو تدير جوانبها أو تشكلها فى الأحجام والنسب التى يتطلبها المصنع والحضارة . وكان هناك قطار صغير بصاف ، قبيح الهيئة قادم من محطة صغيرة مجاورة تقوم فى العراء ، ليحمل عروق الخشب بمجرد تشذيبها ، وبعد أن ابيض لونها وبعد أن رقمت ، وهى ترقد فى استسلام فى عربات طويلة تنقلها إلى مكان لا يعلمه إلا الله .

وفى هذه الجهة من المدينة كان يبدو أن كل شيء لا يحيا إلا من أجل هذه العروق الخشبية حتى تصل إلى مخارط الأخشاب الموجودة هناك والتى ترى مداخنها غير المنتظمة وهى تلفظ دخانها فى السماء فى زفرات متقطعة متلاحقة . وكانت هذه الجهة هى مملكة الخشب .

وإذا ما صعدت قليلا دخلت طنجة المدينة التجارية بالمعنى الصحيح ، أو « المركز

التجارى » كما يسمونها ، وكان الأجدر بهم أن يسموه « المركز اليونانى » فإن اللافتات على جانبى الشوارع لم تكن تحمل إلا أسماء يونانية : « كارا مقاليس »، «ديسبوتا كيس» «بالوجا كيس»،«مافروماتيس»، «ميكاليديس» ،«ستافيريديس»، « نيكيتومولوس » ويغفل كاتب القصة أسماء كثيرة غيرها . إن حوانيتهم كانت تقوم فى الأدوار الأرضية من البيوت وقد ألحقت بها شرفات يجلس عليها الحاشكون من الوطنيين بصحبة معاونيهم من الصبية . كانت هذه الحوانيت تبيع كل شيء ... ومن خلف رفوف المعروضات كان يقف البائعون ومساعدوهم من السود الذين يدعونك بحرارة ، بحرارة مفرطة لشراء سلعهم ، فقد كانت سلعهم أجود السلع وأثمانها أكثر الأثمان اعتدالا .

لم يكن صاحب الحانوت اليونانى يرى إلافيما ندر، اللهم إلا فى موسم الكاكاو ، وهو يمتد من شهر ديسمبر إلى شهر فبراير (وإذا كان الخشب يعتبر ملكا فى المنطقة السفلى فإن الكاكاو فى هذه المنطقة هو الذى يسود) . وعند حلول هذا الموسم ترى السيد « بالوجا كيس » بمجرد أن تدق الساعه معلنة الثامنة ، تراه مفرطاً فى التأنق، زيتونى اللون منتعشاً ، مرتدياً الملابس البيضاء الناصعة ، جامداللامح، محدودب الأنف متظاهراً بأبوية زائفة — تراه وقد جلس أمام ميزان قبانى ، محاطاً برجاله وهم صيادوه الذين كانوا يصيحون ويصرخون ملء حناجرهم ويضربون الأرض بأقدامهم فى صخب عنيف كما كانوا يضربون أفخاذهم بأيديهم . كان هؤلاء الرجال يسمعونك على بعد ألوان المديح التى يخلعونها على سيدهم فى كلمات مقتضبة منمقة مفعمة بالإيحاء . وإذا مابدا عليك بعض الاستخفاف نزلوا إلى الشارع وأمسكوا بتلابيبك وقالوا لك « ألق بحملك هنا ، على إفريز الطريق فسوف نعينك على حمله على رأسك إذا ما اقتضى الأمر . أصغ إلينا : ستون فرنكاً ثمناً للكيلو ... فكر فى هذا الأمر أيها الأخ . أين تجد مثل هذا العرض ؟ »... ويلى هذا الكلام كلام آخر من هذا القبيل لاينتهى... كان السيد « بالوجا كيس » يستهل يومه بسعر مرتفع عن السعر الرسمى. وينتشر الخبر كالنار فى الهشيم فيهرول الفلاحون بما يحملون ويتكتلون أمام سليل الشرق. وكلما زاد عددهم أتى غيرهم فيسهل على السيد بالوجا كيس تخفيض سعره تدريجياً وبشكل غير محسوس واقتراف ألوان أخرى من السرقات .

إن مرور الناس بطنجة لا ينتهى وهو يضفى على هذه المدينه طابعاً مثيراً للغاية .

لم يكن يمر يوم دون أن تدهم سيارة رجلاً ودون أن يشاهد المارة صداماً بين سيارات النقل يلهب حواسهم . كان يبدو أن سيارات النقل بنوع خاص فائقة العدد بطنجة وربما كان يرجع ذلك إلى أن الكثير منها يصل إليها من جميع البقاع : فكل مصنع يرسل واحدة على الأقل تمثله ق المدينة . وكنت ترى منها سيارات مفرطة فى الطول تبرز عظامها كهيكل حيوان كتلك التى عرفت قبل التاريخ وكان بعضها هائلا تصدر عنه ضوضاء كفيلة بأن تفقدك صوابك ، وكان البعض الآخر صغيراً متنفخاً متضائلا . وكانت هذه السيارات تأتى من الشمال أو من الجنوب ، من الشرق أو من الغرب منطلقة كالسهم . كانت تقتحم المدينة كالغازى المظفر دون أن تبطىء من سرعتها تاركة وراءها سحابة من الغبار تطفو فى الجو أو تصيب الناس والأشياء بالطين والرمال الحمراء إذ لم تكن شوارع طنجة مغطاة بالأسفلت فى تلك الحقبة .

كانت المدينة التجارية تنتهى عند أعلى الأكمة بمجموعة من المبانى الحكومية ناصعة البياض صارخة فى تباهيها وكانت هذه المبانى تسطع فى الشمس وتترك رؤياها فى النفس شعوراً بالضيق لا يمكن دفعه أو معرفة كنهه .

أما طنجة الأخرى ، طنجة التى لا تتميز بشىء ، هذه المدينة التى كانت المبانى الحكومية تدير لها ظهرها — وربما كان مرد هذا إغفال شأنها — أى مدينة سكان البلاد الأصليين ، طنجة الأكواخ ، فكانت تشغل السفح الشمالى وهو قليل الانحدار ممتداً على شكل مروحة . طنجة هذه كانت تنقسم إلى عدد لا حصر له من الأحياء الصغيرة ، تحمل جميعاً أسماء معبرة وهى فى حقيقتها سلسلة من الأحياء الدنيا: والأكواخ هنا هى نفس الأكواخ التى يمكن أن تصادفها فى الغابة على امتداد الطرق إلا أن هذه الأكواخ كانت هنا أكثر انخفاضاً ، وأشد فقراً وانكماشاً إذ كانت مبنية من خامات الغابة وكان يندر وجودها كلما اقتربت من المدينة .

كانت هناك طنجتان ... كان هناك عالمان ... مصيران : وكانت كل من هاتين المدينتين تجذب ساكن البلاد الأصلى . فى الصباح كانت طنجة السفح الجنوبى ، التجارية ، مدينة المال والعمل المدر تستوعب ما فى طنجة الأخرى من نوع بشرى وكان السود يملأون « طنجة الآخرين » حيث يقومون بأعمالهم كعمال أو تجار صغار

أو فى سلك الوظائف المتواضعة أو كمنادين ، كلصوص ، كما كان منهم الحاملون والأيدى العاملة المأجورة ممن تزخر بهم الشوارع .

كان الفلاحون يتوافدون فى كل صباح من الغابة المجاورة فيتضاعف عدد السود. وهم قد جاءو إما للبحث عن آفاق أوسع أو لتصريف إنتاج عملهم . ولهؤلاء الناس عقلية مميزة ، نمط من التفكير شديد العدوى فإن من اعتاد المجيء من الغابة بانتظام يلبث تحت تأثير هذا التفكير بالقدر الذى تطول فيه اقامته بطنجة — وكانوا كغيرهم ممن بقوا قابعين فى الغابات البعيدة المحتفظين بطبيعتهم الأصلية ، يتميزون بالرخاوة والتفاهة وشدة المرح والإسراف فى الحساسية ، ولكنهم فوق ذلك قد أصبحوا الآن يتميزون بشىء جديد عليهم ، ألا وهو الميل إلى أن يحسبوا حساب كل شىء بعيار يتسم بالحقارة ،كانوا قدأ صبحو اسريعى التأثر ، مدمنى الخمر وكلما يلهب الحواس،يزدرون القيم الانسانية كما يحدث فى كل البلاد التى تتصارع فيهاالصالح المادية. وكانت مدينتنا قد ضربت رقماً قياسياً فى جرائم القتل ... وحالات الانتحار — كان الناس يرتكبون جرائم القتل ويتقاتلون لأتفه الاسباب بل ومن أجل امرأة. لقد لقى بعض اليونانيين حتفهم فيها بسبب لهفتهم عل مغازلة نساء على قدر ضئيل من الجمال كن قد قصدن حوانيتهم . وكان الزوج يقتحم الحانوت مسلحاً ببندقية الصيد أو إذا ما أعوزته هذه بسا طور يرسل به التاجر ببساطة إلى العالم الآخر ...

إن حبهم للمشاجرات وإسالة الدماء كان يزداد على مر الأيام ، وعندما كانوا يزهدون فى التشاجر فيما بينهم يتصدون للتجار الأجانب الذين تزخر بهم هذه المدينة . وكانوا قد أدركوا بسرعة أن ممارسة هـذه اللعبة لا تعرضهم للعقوبة وكان الجميع يعرف أصولها وفنونها ، دون التعرض مع ذلك لأى مستوطن فرنسى .

ولـكن إذا ما حدث وتعرضت له فها أنت تعرف مقدما ما ينتظرك — وهذا هو الأهم . كان البعض يجازف على سبيل التفاخر ورجال الشرطة يهاجمونهم فى الحال وينتهى الأمر إذ يختفون ويطويهم النسيان ، اللهم إلا إذا أصابهم ما يمكن أن يذكر الناس بهم عشرات السنين . أما الموظفون المدنيون الذين يعملون فى سلك الوظائف العليا بالمستعمرة فكان يبدو أن الدولة تدفع لهم مرتبات بشرط ألا يشتركوا فى الحكم وأن يلمعوا بسلبيتهم .

كان هؤلاء السكان قد جاءوا من كل صوب ولـكنهم ينزعون إلى اعتبار أنفسهم من سكان طنجة الأصليين أكثر مما يعتبرون أنفسهم من أبناء الجنوب أو الشرق ، أو من أبناء الشمال أو الغرب ، وكنت تراهم فى الشارع وهم يضحكون ويتناقشون ويتشاجرون ويلوحون فى حركات عـكن أن تحتضن العالم بأسره : كانوا يجرون ويسيرون ويتدافعون ويسقطون من فوق دراجاتهم ويقومون بـكل هذا بشىء من التلقائية ، وهى كل ماتبقى لهم من حقيقة منبتهم المجهول . كانوا ينشطون تحت وهج الشمس ويرقصون ويغنون ، تتابعهم نظرات رجال الشرطة فى قلق وهم يسيرون جماعات كما يحدث فى مدينة فى حالة الطوارىء .

أما فى الليل فإن الحياة بطنجة تنتقل بضجيجها إلى حى آخر وتسترد مدينة السفح الشمالى ذويها وتموج عندئذ بفورة عجيبة . كانت المدينة تحتفى كل ليلة بأبنائها الذين كانوا قد هجروها فى الصباح وكانت تبدو وكأنها تطلب منهم أن ينهلوا فى رحابها حتى الثمالة ، شيئاً ربما إفتقدوه بعد قليل وإلى الأبد : ألا وهو البهجة ، البهجة الحقيقية ، البهجة المجردة من الزخرف ، البهجة العارية ، البهجة التى منحها الإنسان منذ بداية الخليقة . إلا أن هذه الحقيقة كانت تفوق إدراكهم ، فإذا ما تـكلموا عن مكان وفاتهم ذكروا مسقط رأسهم مصحوباً باسم قبيلتهم ، وكانوا يجهلون إلى أين هم ذاهبون أو سبب ذهابهم إلى مكان بالذات : وهم إذ يجدون أنفسهم فى هذه الجماعات الـكبيرة يذعنون لهـــذه العزلة العجيبة التى فرضتها عليهم الغابة العذراء حيث يشعرون بفرديتهم .

كنت تجد فى طنجة الشمالية كوخاً من بين كل خمسة أكواخ معداً ليـكون مخزناً للخمور : كالنبيذ الأحمر المخلوط بماء ردىء أو نبيذ البلح وكثيراً ما يساء تخزينه ، وجعة الذرة وهى أفضل مشروباتهم جميعاً ، كل ذلك كان يسيل بغزارة . وكان رواد هذه الأماكن يعرفون إلى جانب ذلك أين وكيف يحصلون على مشروب « الأفريقاجين » ، وهو مشروب محلى شهير ، يحتوى على نسبة عالية من الـكحول . وكانت الإدارة المحلية قد منعت هذا المشروب منعاً باتاً ... كما منعت صنعه — وهذا لمجرد إظهار سطوتها — وقد نتج عن ذلك قيام شبكة كاملة تعمل فى الخفاء فى عمليات توزيع وبيع ونقل وشراء هذه السلعة النادرة . وعلى أى حال لم يـكن من الممكن بداهة منع صنع هذا المشروب مادام أن أحداً لم يكن يذهب الى قلب الغابة أبداً ليرى

ما يجرى بداخلها . وكان لبيوت الرقص سحر عجيب على السكان من الجنسين . وكانت هذه البيوت مضاءة بالكهرباء إضاءة قوية كما كانت صاخبة تبعث من داخلها نغمات عذبة أحياناً ومنفرة للأذن غالباً ، فيها صخب الطبل ، وكانت هذه الأماكن مليئة بفصيلة بدائية عجيبة من البشر — تنغمس رقابها فى ياقات منشاة ، أو أجساد محشورة فى أثواب وملابس رديئة التفصيل ، أو هى تتسم بالتكلف على أى حال ، ملابس فضفاضة تنم عن التقليد والزيف . وكانت هذه البيوت ، لحسن الحظ ، تكلف روادها مبالغ باهظة ولذا كان من المألوف أن يجتمع شخصان أو ثلاثة أو أكثر فى كوخ من الأكواخ حول إناء ملىء بالنبيذ ، وأن يطبلوا بأيديهم على صناديق جوفاء إذا لم يجدوا طبلا ، وأن يعزفوا على أوتار قيثارة أو عود ، وأن يرتجلوا حفلا راقصاً يكون شعاره ارتكاب كل غريب شاذ بالرغم من ضيق المكان .

لم تكن شوارع طنجة مضاءة بالمصابيح وهذا أمر بديهى . واستغل سيئو السلوك من الشبان — وهم كثيرون فى هذه المنطقة — هذا الظلام ليجعلوا من الشارع مسرحاً يصفون فيه منازعاتهم . وهذا يفسر كيف أن الظلام كان مبعث كل ما يحدث فى الشارع من أعمال مريبة كوقع الخطوات المتسللة والمطاردات العنيفة والصفعات التى لا تخفى صوت طلقات المسدسات. كانت هذه الحوادث الوحشية ظاهرة تعود عليها الناس ولم يعد يبالى بها إلا المحترفون لأن سكان الأكواخ أصبحوا لا يبالون بها على الإطلاق . ولربما تراءى للغريب أن هذه الأعمال تدوم وقتاً طويلا لاينتهى بسبب افتقار هذه الشوارع إلى إشراف بوليسى ليلى ، مبعثه ما تفرضه كل مبادىء الحيطة والاقتصاد التى يمكن أن نتصورها .

ترى كم عدد سكان طنجة الشمالية ؟ ربما كان عددهم ستين أو ثمانين أو مائة ألف . إن حصراً واحداً لم يجر ، ثم إن عدد هؤلاء السكان كان دائماً فريسة لعدم الاستقرار بشكل فريد فى نوعه فالرجال كانوا يهاجرون من الغابة لأسباب عاطفية أو مادية ، وكثيراً ما كانوا يهاجرون أيضا رغبة فى التجديد . كانوا يقيمون بالمدينة بعض الوقت على سبيل التجربة وكان فى رأى البعض ، وهم قلة ضئيلة ، أن من غير المعقول أن يرقص الناس فى كوخ بينما يبكى آخرون على موت عزيز لم يوار التراب بعد : وهؤلاء يعودون إلى قريتهم والتقزز يفعم نفوسهم . وكانوا لا يذكرون المدينة إلا بلهجة حزينة ويتساءلون فى تعجب عما سيؤول إليه مصير العالم وهناك نفر آخر منهم يتصورون أنهم سيألفون هذه العادات الشاذة مع مرور الوقت

ولذا يقيمون بالمدينة نهائياً ثم يحضرون زوجاتهم وأولادهم ، فإن كانوا فى مقتبل العمر أو عزاباً صحبوا أخواتهم وشقيقاتهم ليكونوا بمثابة ذكرى حية ودائمة لمسقط رؤوسهم الذى ربما لن يقدر لهم أن يعودوا إليه من جديد . كانوا فى بادئ الأمر يفكرون عادة فى قراهم ثم تصل بهم الحال إلى أن ينسوها شيئاً فشيئاً على مر السنين ، لانشغالهم كلية بأمور من نوع مختلف تماماً .

كان بعض هؤلاء عاجزين عن تحقيق ألوان طموحهم الاجتماعية فى هذه المدينة ولذا فقد كانوا يرحلون إلى مدينة أخرى يتذوقون فيها طعم الحياة . إلا أن عدم حصر السكان لم يكن مرجعه عدم استقرارهم ، إذ كانت السلطات تتجاهله تماماً كما كانت تتجاهل كل شيء يتعلق بأنصاف البشر هؤلاء وبمباهجهم ، وآلامهم وآمالهم التى كانت ولا بد ستدهشهم أيما دهشة لو أنهم عرفوها . ولكن الإدارة لم تحاول أبداً أن تتكهن بما يصبو إليه هؤلاء الناس ولا أن تتفهمه . وعندما كانت السلطة الحاكمة ترتضى الاهتمام بهم كانت لا تبالى على الأخص إلا بفئتين منهم : فئة الذين أمكنهم ، بعد أن وفقوا فى التسلل عبر حواجز لا حصر لها ، أن يحققوا لأنفسهم نوعا من الصعود فى السلم الاجتماعى ، وتكون إدارة الضرائب قد تنبهت فجأة إلى أن فى إمكانها أن تفرض عليهم دفع بعض المال ولو كان ضئيلا ، حتى ولو فرضوها على غيرهم ، وفئة من يمكن أن تشكل أقوالهم أو أعمالهم عن عمد أو عن غير عمد ، من بعيد أو من قريب ، نوعاً من التهديد لأوضاع معينة لنظرة معينة ترى بها هى أحوال الدنيا ، وهو فهم لا غنى لها عنه تفرضه بعض الأسباب أو بمعنى أصح بعض احتياجاتها : ولم يكن الأمر عسيراً إذ كانت السلطات تعزلهم فى مكان ما وينتهى الأمر وهى تفعل هذا من أجل مجد الإنسانية .

كانت حالة طنجة ، وأعنى بها طنجة الشمالية كحال أى طفل إفريقى ، فهو بمجرد أن يولد يجد نفسه وحيداً فى أحضان الطبيعة ، يترعرع ويتكون بسرعة مذهلة ، يختار طريقه تبعاً لدفعات الصدفة ، شأنه فى ذلك شأن الأطفال الذين يهيمون على وجههم . ومثل طنجة كمثل هؤلاء الأطفال ، إذ لم تكن توجه لنفسها أية أسئلة بالرغم من شعورها بأنها إنما تضل الطريق . ولم يكن فى وسع كائن من كان أن يقول وأن يؤكد ما ستصير إليه ، لا علماء الجغرافيا ولا الصحفيون ولا المستكشفون بنوع خاص .

الفصل الثالث

ذات صباح من فبراير سنة ١٩٣٠ ، فى كوخ منخفض شديد الضيق ، سىء التهوية يملؤه دخان حى « موكو » وهو من أحياء طنجة الشمالية ، كنت ترى فتى وفتاة حديثى السن ، وهما يستعدان لمجابهة يوم جديد كما سبق لهما أن جابها أياماً عديدة ، ولعلهما كانا يأملان فى أن تمكنهما ظروف الحياة من مجابهة أيام أخرى . كانا لا يتشابهان فى شىء بالرغم من كونهما شقيقين . كان هو فى مقتبل العمر يميل جسمه إلى الطول والامتلاء ، وكان بذراعيه الفارعتين وصدره العالى وساقيه المائلتين إلى القصر يمثل أحد نماذج الفتيان المألوفة فى هذا البلد ... كما كان لونه المشرب بالحمرة يميزه تمييزاً بارزاً عن الآخرين . كان شعره كذلك ذا لون قد يدهش له الغريب ، ولكنك مع هذا إذا ما نظرت إليه عن قرب ، لا يمكنك أن تشك فى أنه من أبناء المنطقة فإن عينيه شديدتا الصفاء بحركتهما الدائمة ، وهما اللتان تفصحان عن السر الكامن وراء هذا اللغز : كان يتميز ببعض صفات من يسمون بعباد الشمس[1] . أما هى

فكانت توحى إليك ، لأول وهلة ، أنها ذات جمال متألق . كانت متناسقة الأعضاء ، تميل إلى الامتلاء وإن كان جسمها اللدن يتميز بنتوء فى بعض أجزائه كما كان صدرها الممتلىء يشد ثوبها القطنى الردىء التفصيل ، وهو يوحى بأنها قروية . كان لونها أكثر دكانة من لون أخيها كما كانت ملساء البشرة كتلك الفتيات اللاتى يستحممن كل يوم . وكانت وجنتاها منتفختين بعض الشىء وعيناها واسعتين تنطقان بالحزن وشعرها غزيراً مجدولا فى ضفائر تمتد على رقبتها . وإذا أمعنت النظر إلى ما تأتى به من حركات بدت لك صفات الأمومة الكامنة فى نفسها .

أما هو فقد ارتدى زى العمال الميكانيكيين الكاكى اللون الملوث المشبع بالزيت... واستند بمرفقه على الفتحة الصغيرة التى تقوم مقام النافذة . كان يدير ظهره لشقيقته ولم يكن يبدو أنه يعيرها أى اهتمام . كان يصفر لحنا يتغنى بالنساء ، وينظر إلى النساء اللاتى

---

(١) وهم من يفتقر جلدهم وشعرهم إلى المادة الملونة وينتج عن هذا تميز بشرتهم ببياض باهت وهم يتميزون كذلك باحمرار لون عيونهم .

يجتزن الطريق المليء بالغبار وهن ذاهبات إلى السوق فى جماعات متلاصقة ثرثارة . كان من حين إلى حين ينادى على إحداهن، يختارها من بين الجميلات ويخلع عليها اسماً يستمده من لون و نوع ثوبها، كأن يقول مثلا « أيتها البوبلين الأزرق» وإذا ما استدارت إحداهن نحوه داعبها بكلمات تحمل فى طياتها معنى خفياً جريئاً ، فتجيبه الفتاة بكلمة تناسب المجال وينفجر الاثنان فى الضحك . وأحياناً يكف عن الدعابة وعن الصفير — وكانت نظرته عندئذ تتوه فى الأفق البعيد ، إلا أن هذا الشرود لم يكن ليدوم ، وسرعان مايجمع شتات نفسه من جديد لشعوره أن أخته ترقب حركاته .

وانطلق صوت صفارة على بعد فاستدار بتلكؤ واتجه نحو المنضدة الخشبية الصغيرة ليلتقط قبعته العتيقة . وهنا لاحظ أن المنضدة قدأعدت لتناول الطعام وكانت أخته المستندة إلى الحائط تنظر إليه من ركن عينها وفى نظراتها تساؤل ، فأسرع قائلا لها :

— « أوديليا » يا أختى .

فتمتمت بلفظ يدل على تحفظها .

ربما كان سيحدثها فى أشياء لا قيمة لها لـكى يتهرب .

وأردف :

— « أوديليا » ، كيف تتصورين أن فى إمكانى أن أدرك حقيقة ما يجرى هنا؟ ها هى فترات طويلة قد مضت ونحن لا نملك نقوداً ، ومع ذلك فنحن نجـــد دائما ما نمسك به رمقنا ... ماذا عساك تفعلين لتوفقى فى ذلك ؟ اشرحى لى الأمر يا صغيرتى ...

كان يضحك بملء فمه فتظهر أسنانه كلها ...

فأجابت بلهجة من يتهرب من الإجابة : إن القرى المجاورة ملأى بالناس الطيبين ...

قال معلناً وهو يواصل طعامه : لابد أن العناية الإلهية تسهر على السود البؤساء وأضاف بسرعة :

— يقينا أن الحصول على الطعام ليس بمشكلة على أى حال : ويمكنك الذهاب

إلى قريتنا لإحضار بعض منه . ثم إنى لا أبالى بذلك ، لقد بقيت أسابيع دون أن أمضغ شيئاً ، وكنت لا أشرب إلا الماء . أما أنت فلا بد من أن تأكلى وأن وتنالى كفايتك من الطعام .

وسكت ، وربما كان السبب فى سكوته أن فمه ممتلئ بالطعام إذ كان يأكل بسرعة حتى لا يتأخر عن عمله ، وربما كان السبب هو خوفه من أن يسترسل فيخوض فيما لا يريد قوله . كانت تفحصه بنظرات تنم عن ريبتها ، فهذا الحلم الذى رأته فى منامها ... ترى هل تبدو عليه حقاً ملامح من سيقضى نحبه اليوم ؟ كانت تحاول أن تركز فى مخيلتها ملامح أخيها فى صورة جامدة كالجثة ولكنها لم توفق فى ذلك . كانت تقول لنفسها إن هذا لا يمكن حدوثه فليس فى أخيها مايشبه الجثة . يا له من سخف أن نبالى بالأحلام ! إلا أن هذه الفكرة كانت تلح عليها بالرغم من أنها فكرة حمراء . كم حاولت طردها ! كانت تشعر بالرغبة فى البكاء ، فى أن تحطم قلبها ، كما فعلت فى تلك الليلة فى حلمها ...

ـــ سوف أجد عما قريب عملا عند شخص أفضل من هذا السيد « ت ...... » ولكن ليس فى وسعى أن أتركه هكذا ببساطة وأرحل .

ـــ ولم لا ؟ قالتها فى توسل ، فى صوت باك .

وصاح قائلاً وهو يضرب بقبضته على المنضدة ...

ـــ لا لن يحدث هذا أبداً ... فإذا ما حلا للناس أن يدفعوا ما عليهم فى الوقت الذى يروقهم فماذا عسانا نفعل لنعيش؟ إنى أطلب إليك أن تجيبينى عن هذا السؤال. أوه ، سوف يدفع لنا ، سوف يدفع ، ثم ... كفانا كلاماً ... لم الحديث فى هذا الأمر هنا ؟

وكانت هى فى هذه الأثناء قد استندت بظهرها إلى الحائط فى مواجهة أخيها . وكان فى عينيها بريق من التحدى وانطلقت محذرة :

ـــ كن على حذر يا « كوميه » فأنت لم تكن حذراً فى يوم من الأيام ، إنك تتصور دائما أن فى إمكانك أن تفلت ، أليس كذلك ؟ كما فعلت من قبل ... أما أنا فأعتقد أن هذا الأمر ليس مؤكداً ... حذار . إن السيد « ت... » الذى تكلمنى عنه على صلة طيبة بمأمور الشرطة ...

— نعم ، أعرف ذلك . وأنا على صلة طيبة برفاقى ، لا تنس ذلك أبداً ...
كان قد نهض ولبس القبعة العتيقة التى تطمس معالم شخصيته جاعلة منه مواطناً لا يختلف فى هيئته عن ملايين المواطنين ...

— « أوديليا » يا صغيرتى ، أرجو أن تعى هذا جيداً ، إن كثرتنا من ناحية والحق من ناحية أخرى فى صفنا ...

— سبق أن حصل غيرنا على هذه المميزات. هل منحت عينين لكى لا ترى بهما ؟

— سبق أن تمتع غيرنا بهذه المميزات، هذا صحيح ، ولكنهم أساؤوا استعمالها . كان يمزح ، وكان من دأبه أن يمزح مع « أخته الطفلة » كما كان يسميها ، وكان يبتسم فتنفرج أسارير وجهه ، ولم يكن أحد ليتصور أن نوايا شريرة تلح على ذهنه .

— هل فى نيتكم أن تعمدوا فى إجباره إلى العنف ؟

واستدار فجأة إذ أخذته على غرة . كانت شفتاه ترتجفان ، وكان زائغ العينين كلا كم تلقى على غرة ضربة فى جزء حساس من جسمه ، لكمة لا يتوقعها . وتردد فى الإجابة عن سؤالها ، ولكنه نطق أخيراً بهذه الكلمات :

— لا ... ولكن يبدو أنه قالها عن غير اقتناع . ثم أضاف وكأنه يأسف على ما قال :

— ولماذا تشغلين نفسك بهذه الأمور ؟ هونى على نفسك فإنها من شئون الفتيان ، وسوف تعرفين ...

— وتوقف عند مدخل الباب وهو يصفر ، كما كان يفعل فى الأيام السعيدة ، فى أسعد الأيام . واستدار مرة أخيرة وقال :

— إلى اللقاء يا أختى الصغيرة ... أرجو ألا تقلقى ... إن هذه الأمور مع أناس قذرين على شاكلة « ت ... » ليست بالغريبة على . واختفى . لم يكن ما قاله كلاماً أجوف يقال على سبيل الادعاء ، فقد كان يعنى حقاً ما قاله ...

الفصل الرابع

كان باندا فى نفس هذا الصباح واقفاً فى الصف أمام مندوبى الرقابة إذ كان عليه أن يعرض عليهم محصوله من الكاكاو ليزنوه قبل أن يسمحوا له بتقديمه إلى اليونانيين .

لم يكن عدد هؤلاء المراقبين يزيد على رجلين فى مقتبل العمر ، ولم تكن سماتهم لتفصح عما إذا كانا يحصلان على كفايتهما من الطعام ، وإن كان الأرجح أن ما يتناولانه من الغذاء ضئيل كما توحى تصرفاتهما . كانا قد بدآ يومهما بأن جعلا الناس ينتظرونهما مدة طويلة استغرقت شطراً كبيراً من الصباح . وعند وصولهما بدآ باستعراض صفوف المنتظرين ، واستمر هذا الاستعراض وقتاً طويلا ، وفى كل مرة يضبطان فيها رجلا أو امرأة خارج الصف قليلا كانا يريان فى هذا العمل دليلا على المغالطة .

— هيا إلى آخر الصف ، وسوف يعلمك هذا ألا تتعجل دورك ، إن من يصل هنا يجب أن يقف فى آخر الصف . هل تدرك عقولكم هذه الحقيقة يارجال الأحراش ؟ أما نحن فلا نحب الفوضى ، ولا يمكننا أن نؤدى عملنا فى غير نظام . أتفهمون هذا ؟ بحق الشيطان لاتضطرونا إلى الالتجاء إلى رجال الشرطة لإجباركم ...

كانا يلقيان بهذه الكلمات الخطابية فى كل مرة يبعثان فيها بأحد الواقفين إلى مؤخرة الصف وكان أحد المراقبين ثرثاراً جداً أما الآخر فلم يكن يقول شيئاً ، وكان يشاع بين الصفوف بأنه أكثر صرامة من زميله .

كانا أثناء تفتيشهما محاطين بستة رجال أشداء فضلا عن ثمانية من أعضاء الحرس الإقليمى كلفوا بمرافقتهم لحفظ النظام ، وكانوا يرتدون الزى الكاكى .

وكان هناك صفان ، صف على كل إفريز ، صفان يمتدان على مدى البصر ، والفلاحون يفدون بلا انقطاع يحمل الرجال منهم أحمالا ثقيلة على رؤوسهم يحافظون

على توازنها ، أكياساً تمتلىء إلى نصفها وكانت أعناقهم منكمشة متقلصة بعض الشىء وأكتافهم وظهورهم تنوء بما يحملون . أما النساء فكن يحملن سلالا على ظهورهن ويسرن منحنيات إلى الأمام كما كان يمكنك أن ترى حمالات سلالهن وهى تنغرز فى أكتافهن .

ها هما الراقبان يعملان الآن فى عجلة شديدة كلاهما فى مواجهة أحد الصفين ، وكانت الصفوف الواقفة على كل من الإفريزين تتعرض لموجات كالدوامة تشيع فيها الفوضى والاضطراب للحظة قصيرة ، وكان مرور المشاة والسيارات على الطريق لاينقطع كما كانت تطفو فى الهواء سحابة كثيفة من الغبار لاتتزحزح .

وعلى الرغم من هرولة الراقبين أخذت الصفوف تزداد طولا . وفى كل دقيقه يتدافع الناس بالمناكب أكثر من مرة : وكانت الدفعة تأتى من المقدمة أو من المؤخرة وتنتشر فى أنحاء الصف كالموج . وكثيراً ما كان يحدث أن يعل أحد الشبان وقوفه فى آخر الصف ، فيحتل مكاناً فى المقدمة ، فارضاً نفسه عادة بدفعة من قبضته ، فإذا ما تراءى لمنافسيه أن يتمسكوا بأماكنهم رسخوا معتمدين على مناكبهم . وكان الشجار ينتهى فى صالحهم أللهم إلا إذا تدخل رجال الحرس الإقليمى، وعندئذ كانوا يصادرون محصوله دون ما حرج . وبالرغم من هذه الصرامة فى فرض العقوبات فإن كثيراً ما كان الشبان يأتون من المؤخرة ويبحثون بنظرات ثاقبة كنظرة الصقر عن نقطة يتسللون منها حتى إذا ما اهتدوا إليها انحشروا فيها بحركة مفاجئة ووضعوا أحمالهم كل بين ساقيه . وكثيراً ما كانوا يوفقون فى إرضاء نزعتهم هذه إلى الانتصار ؛ ولقد حانت لحظة لم يصادفوا فيها أية مقاومة إذ كان إصرارهم على معاودة غزواتهم قد ثبط عزيمة الجميع . أما رجال الحرس الإقليمى ، وكان الأمر قد أفلت من بين أيديهم، فإن نشاطهم لم يتعد دور الشاهد العاجز وهو دور لايشرفهم ، وكانوا مع ذلك يمنون أنفسهم بالتدخل إن أتيح لهم ذلك .

ولما عاد الهدوء إلى ما كان عليه ، كان الشبان قد احتلوا أمكنة متقدمة بفضل قبضاتهم .

وقال باندا فى نفسه : « لقد أخطأت إذ أتيت فى أحد أيام السبت ، وكان يوم

السبت — دون أن يعرف علة ذلك بالضبط — يجمع فى تصوره بين البهجة والراحة ، الأمر الذى جعله يختار هذا اليوم بالذات ...

كان باندا عاجزا عن رؤية ما يحدث أمامه وكان مضطراً إلى أن يتقدم ثم إلى أن يتقهقر ، وكما هى عادته ، كان يستسلم عن طيب خاطر لمقتضيات الحال . وهو يشعر الآن أن جيشاً من النمل قد استقر فى قدميه . ولكى يجد مخرجاً من ضجره بعد أن نفد صبره أخذ يتلهى بمشاهدة عملية الفرز على الإفرير المقابل. كان المراقب منحنياً على جهاز خشبي على شكل قطاع مخروطى كبير الحجم إلى حد ما فى وضع مقلوب على قاعدة صغيرة ، وكان هذا الجهاز بدائياً ، إذ نحت بضربات فأس دون مبالاة بجمال الشكل ، ولم يكن قد أحسن تهذيبه كما كانت تغلق فتحته من أسفل ، عند القاعدة الصغيرة ، بلوح من الخشب ، ويرتكز الجهاز على حامل يهتز من تحته : كان ارتفاعه ، بأجزائه المختلفة ، يصل إلى مستوى بطن السيد المراقب وهو الاسم الذى يجب أن يناديه به الناس .

كانت حبات الكاكاو تفرغ من الكيس أو السلة فى الجهاز الخشبى ، فيتولى المراقب تقليبها وفحص جودتها وصنفها ، وكان يلجأ فى هذا الصدد إلى وسائل متنوعة . كان من الممكن مثلا أن يضغط عليها بعنف فى قبضته فإذا ما تهشمت بقى جامداً لا يتحرك وإلا تعرضت لعقوبة البقاء بضعة أيام فى حمام من الشمس . « بحق الشيطان ، ألم يكن فى استطاعتك أن تأتينى بحبات جافة ! اللهم إلا ... » وعلى أية حال كان الأمر ينتهى به دائماً إلى شطرها للتحقق من عدم عفونتها، وينطق أخيراً بحكمه فى لهجة هادئة تتسم بعدم المبالاة ، لهجة تتناسب مع هيبة مركزه ، ثم يحرك لوح الخشب فيفرغ الجهاز مافيه من حبوب فى الكيس أو السلة .

وكانت هناك احتمالات ثلاث ، من الناحية الرسمية .

١ — أن يسمح لك ببيع حملك من الكاكاو دون إبطاء .

٢ — أن يأمر المراقب بتجفيفها فى الشمس لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، تحت إشراف إدارة المراقبة .

٣ — أن يلقى بها فى النار إن كانت رديئة حقاً ، أى غير قابلة للتصدير .

وكان هناك فى الواقع احتمال رابع ، وهو أن يتفاهم الطرفان ، وكان هذا شيئا مألوفاً . وحبذا لو أن باندا فطن إلى هذا الاحتمال الأخير .

كان يقول لنفسه أن هذه الإجراءات كلها إنما تتم دون ما عمن وشعر بالرغم منه بغصة فى حلقه . لماذا تبدو على وجه موظف المراقبة هذه التجاعيد وهذا التحفظ ؟

كان باندا يجهل إن من عادة هؤلاء السادة موظفى الرقابة أن يكونوا عصبيى المزاج بالرغم من أن قصة إشرافهم فى الفترة التى تمت فيها أحداث هذه القصة ، لم تكن إلا فى بدايتها .

كان نوع الكاكاو من قبل مسألة تخص المنتج وهو من سكان البلد الأصليين، والمشترى اليونانى ، ولم تكن السلطات تتدخل ، وكان ذلك فى صالح الجميع . إلا أن هذه السلطات قد تراءى لها ذات يوم أن تدس أنفها فى كل شيء . كان فى وسع من يتميزون ببعد النظر أن يتكهنوا بهذه العاقبة — وكان هذا التدخل قد بدأ بظهور فئة من الطفيليين أخذت تنتشر فى أنحاء البلاد كسرب من الجراد . كانوا يظهرون فى القرية ويفهموك أن زراعتك مهملة وأنك قد أسأت غرس ما عندك من أشجار الكاكاو ، أو أنها شديدة الالتصاق بعضها بالبعض الآخر أو أنك لم تحسن انتقاء سلالاتك ، وأنهم سوف يعلمونك ما يجب أن تفعله لكى تضاعف مساحة مزروعاتك للحصول على محصول أوفر ، الخ ... وكانوا بعد ذلك يسخرونك دون مبرر أسابيع طوالا فى قطع أشجارك من الكاكاو وفى عدها وإعادة عدها ، واقتلاع الشجيرات ونقل الأخشاب من مكان إلى مكان . وكان أفضل ما يمكن أن تفعله هو ألا تحتج على هذه الإجراءات وإلا تعرضت لمضايقاتهم وبطشهم ، فلم يكن هؤلاء الناس ليتساهلوا إن تراءى لهم أن ما يقومون به يحقق لهم فائدة .

كانوا يعيشون على حساب القرية طوال فترة إقامتهم فيها ، بحجة تعليم الناس . وكانت لهفتهم المصطنعة على الرحيـــل تتفاوت وفقاً للظروف ، فإذا ما بدا عليك السأم من إطعامهم دعوك هم وقدموا إليك ... آخر ديك تملكه . وتدرجوا فى استغلالهم حتى وصل بهم الأمر إلى إقرار مبدأ الرقابة . ماذا عسى أن يؤول اليه مصير االناس على أيديهم ؟

كان هذ السؤال يتردد فى أفواه الفلاحين ،فلم يعد هناك منذ وقت ، أمن أو استقرار بسبب ما يشعر به هؤلاء القوم من لذة فى أن يدسوا أنوفهم فى شئونك ، ومراقبة كل شيء .

واختل نظام الصف إذ غمرته موجة من الفوضى واضطر باندا إلى أن ينحنى وأن يستند إلى حمولته حتى لا يقع .

— لم تكن محقاً فى هذا « ياباندا » ...

واستدار بسرعة ونظر إليها طويلا ... عجباً ! إنها قلقة مثله تماماً ... والأخريات؟ لقد تفرس فيهن الواحدة تلو الأخرى وهو يدنو من الطريق لكى يراهن بوضوح . وحدث نفسه قائلا : لعمرى هاهن جميعاً خائفات . ربما أحسنت صنعا لو أننى دفعت بثلاث منهن إلى الصف الآخر . ولكن أى المراقبين أكثر صرامة ؟ لم يكن فى استطاعته أن يقارن بينهما إذ لم يكن فى مقدوره أن يرى مايجرى أمامه أى المراقبين أكثر صرامة ؟ ولكن لا ، لا داعى للمقارنة . إن ما أحمله من كاكاو جيد بلا جدال .

— لم تكن محقاً فى هذا « ياباندا » ...

وسأل فى عصبية وقلق : فيم أخطأت ؟

— كان عليك أن تتفاهم معه ... وليس من الحكمة أن يجازف المرء هكذا بمائتى كيلو جرام من الكاكاو ... ألم يكن فى استطاعتك أن تحاول التفاهم معه ؟ ... سبق أن أشرت عليك بألا تحسن الظن بهم . ولكنك لا تحب أن تفعل كالآخرين ويبدو أن المرء لا يمكن أن يطمئن أبداً إلى ما يمكن أن يفعله المراقب ...

وأجاب باندا فى انفعال : ولكن حباتى جيدة . لقد فعلت كل ما أوصونى به واتبعت إرشاداتهم ، وليس هناك ما أخشاه : ولا أجد سبباً للقلق . إن ما أحمله من كاكاو من صنف جيد ...

كان من الممكن أن يكرر هذا القول لنفسه ساعة بأكملها دون أن يقتنع به هو نفسه لأن الخوف كان قد بدأ يتسرب إلى نفسه فعلا .

وأردفت « سابينا » :

— مهما قلت ، مهما قلت، يجب ألا نجازف هكذا بمائتى كيلو جرام من الكاكاو.

كم هى شديدة الريبة سابينا !

وسأل : وأنت «ياريجينا » ما رأيك ؟

كان من عادة « ريجينا » أن تمضغ قطعة ضخمة من التبغ تعوقها عن الكلام فى الوقت المناسب . وأخذت تحرك لسانها فألصقت قطعة التبغ بصدغها الأيمن فانتفخ ثم بصقت ما فى فمها من لعاب أسود فى حفرة أمامها .

قالت ... فى لهجة قاطعة :

— هذا صحيح . يجب ألا نجازف هكذا بمائتى كيلوجرام من الكاكاو ويجب أن تصدقنا فنحن فى سن أمك . إن حباتى من الكاكاو من صنف طيب ... أتعرف معنى هذه الكلمات ؟ لا يمكن أن نقطع بهذا قبل الفحص : لا يمكننا أن نقطع بهذا الآن ولكن بعد أن يحكم المراقبون بأن حباتك جيدة فعلا . أما قبل الفحص فإن الكاكاو لا يمكن أن يكون شيئاً لا حسناً ولا رديئاً ...

وبصقت من جديد السائل الأسود فى الحفرة ولما سأل باندا امرأة ثالثة أجابت :

— إن المرء لا يجازف بكل ما عنده من الكاكاو، وبهذه الرعونة ،هذا صحيح فإن مائتى كيلوجراماً من الكاكاو لهى شىء له قيمته .

وقالت رابعة :— المرء لا يجازف هكذا بمائتى كيلوجرام من الكاكاو ... وقالت الأخيرة : سوف نرى على أى حال .

ولم تدرك مدى ما أثارته فى نفسه من اعتراف بالجميل حين نطقت بهذا القول وقال الشاب فى انفعال : إنكن فى هذه الليله لم تنقطعن عن الغناء وأنتن فى الطريق إلى هذا المكان وها أنتن الآن تشعرن بالخوف .

— على أى حال إن كنا نشعر بالخوف فمن أجلك أنت . إن الكاكاو ملكك أنت وليس ملكنا . وإن كنا قد ساعدناك على حمله فذلك لأن أمك مريضة ولأنها عاجزة عن مساعدتك . أما ما عدا هذا من الأمور فعليك أن تدبرها بنفسك فلم تعد صغيرا ...

أف من « سابينا » هذه : لقد شعر فجأة بأنه فى وحدة أليمة . لطالما راوده هذا الإحساس ، ولكن قلما راوده بمثل هذه القوة . وإذا ما وقع له حادث فسوف يتحمل وحده عواقبه ، ولن يبلغ نبأ ذلك أمه إلا فى ساعة متأخرة من المساء ، بل إنه كان يفضل ألا يبلغها ، اللهم إلا لو اضطر هو نفسه إلى أن يخبرها به .

وأبدت « ريجينا » هذه الملاحظة ، قالت :

— يبدوأن هذين المراقبين أكثر صرامة اليوم. هل هناك تعليمات جديدة ؟...

وهنا فوجئوا بدفعة عنيفة جاءتهم من الخلف فجعلتهم يرتطمون بعضهم ببعض . ها هى طنجة الجنوبية تمتد أمام باندا متلألئة ، بألوانها البيضاء والحمراء والخضراء ، وكان جمالها يستحوذ على لبه . وشرد فكره فى ذلك القطار الصغير الذى كان يرتفع دخانه من بعيد : إن عرباته الضيقة التى تشبه لعب الاطفال اليونانيين ، كان يتكدس فيها المسافرون وهم ذاهبون إلى المدينة الساحلية الكبيرة التى تبعد مسافة ثلثمائة من الكيلو مترات ؟ ... ثلثمائة من الكيلو مترات ... اثنتى عشرة ساعة فى القطار ... مدينة « فور نيجر »[1] مدينة الساحل الكبيرة ، لاشك فى أن هذه المدينة تغص بالعمارات .

ما شكل أحياء الزنوج هناك ياترى ؟ لاشك فى أنها ليست فى قبح أحياء طنجة الشمالية . وربما كان الناس يعيشون فى رغد فى هذه المدينة لكثرة ماتحويه من مال ... ربما لم يكن الناس هناك فى حاجة إلى التشاجر مع المراقبين والتجار اليونانيين من أجل مائتى كيلو جرام من الكاكاو ، ويقال أن الكاكاو هناك لا أهمية له . إن الناس هناك يكسبون مالا وفيراً بقيامهم بأعمال أخرى غير تكسير ثمار الكاكاو وتحسس حبات الفول ، كما أن الرجال هناك لايدفع الواحد منهم مبلغاً باهظاً للحصول على امرأة . لعن أول رجل أجبر من تقدم لمصاهرته على دفع مبلغ باهظ لربما ذهب إلى هذة المدينة ، إلى « فورنيجر » بعد وفاة أمه . نعم ، ربما انتهى به الأمر إلى الذهاب إلى هذه المدينة . سوف يعهد حينئذ بزوجته المقبلة إلى حمويه ولن يسمح لها باللحاق به فى هذه المدينة الكبيرة إلابعد أن يقيم فيها شهوراً ، بعد أن يتمكن من الحصول على مال وفير . وسوف يذهب لانتظارها فى محطة هذه المدينة التى قيل

(١) أى الحصن الزنجى .

له إنها بناء ضخم . نعم سوف يذهب إلى المحطة لينتظرها . لن تتعرف عليه فى بادئ الأمر بسبب أناقة ملبسه وسوف يضمها بين ذراعيه ويقول لها : ألا تعرفين على؟ . . . وسوف تبحلق فى وجهه من الدهشة وتجيبه قائلة : يا « باندا» يازوجى الصغير ، هل أنت باندا حقاً ، أم أنا مخطئة ، ولن تسعها الدنيا من فرط سعادتها ، وسوف يصحبها إلى بيتهما مجتازاً بها الحى من أقصاه إلى أقصاه .

وسوف يحييه الناس دون كلفة عند مروه ويصيحون قائلين : عجباً ! إنه «باندا»، صديقنا العزيز ! من أين جاء بهذه الفتاة ؟ وسوف يجيبهم عندئذ بقوله : عجباً ! ألم أكلمكم عن زوجتى ؟ لقد أخبرتكم بأنها ستحضر ذات يوم . حسناً ، ها هى ، وسوف تفصح عيونهم عند لمس يد زوجته عن الحسد . وسيكون كوخه من الداخل من الجمال والأناقة بحيث ستتردد زوجته فى الدخول: سيتدلى من سقفه مصباح وضعت تحته منضدة خشبية جميلة بسط عليها مفرش جميل، تحيط بها كراسى خشبية ومقاعد من الجريد المجدول . وسيكون هناك فى أحد الأركان صوان يضم أكواباً وصحافاً من الخزف وملاعق وشوكات من الألومنيوم . مدينة « فورنيجر » . . . إنه يعرف شخصاً جاء منها وهو يقول أن الناس هناك لا يبالون بما يفعله الغير . لن يأتى أحد ويلومك على أى شىء تقوم به اللهم إلا رجال الشرطة طبعاً . . . ومع ذلك فإن رجال الشرطة ليسوا كإخوانهم فى « باميلا » أو حتى فى طنجة الشمالية حيث ينقض عليك رجال الحرس الإقليمى ليفتشوك بغير مبرر ، ثم يقودونك إلى ساحة تسخر فيها بالقيام بأعمال شاقة لمدة أسبوعين مثلما حدث له هو نفسه بالفعل . لقد قبض عليه ذات يوم فى مدينة « باميلا » دون ما سبب ودون أن يتوقع هذا البتة . ولكن لماذا يفكر فى هذه الأشياء الآن ؟ انطلق القطار وهو يطلق صفيراً حاداً طويلاً بغيضاً كالصرخات التى يطلقها النساء عندما يستحوذ الرقص والغناء على حواسهن ، ثم اختفى القطار وراء بقعة بها أعشاب كثيفة : لم يكن يرى منه إلا عامود الدخان الذى لم يلبث أن اختفى هو الآخر .

وتنهد باندا بطريقة تثير الاشفاق .

وقال أحد الواقفين فى الصف : إن الإجراءات طويلة ، أليس كذلك ؟

كان لزاماً على الواقف فى الطابور أن ينحنى فى كل دقيقة وأن يستند إلى جاره وإلى حمولته كى لا يقع . لقد هوت إحدى النساء على الحصى الأحمر الذى يغطى

الطريق من شدة الإعياء والغريب أن هذا النظر قد أثر في المراقب نفسه . كان قد جس حمولتها من الحبوب لحظة قصيرة وأفرج عنها فى التو . ولما رأى جموع الناس ما حدث أخذوا يتهامسون بما ينم عن استحسانهم لما قام به المراقب بغية حثه على الاسترسال فى تساهله ، إلا أن من المشكوك فيه أن يكون المراقب قد أدرك هذا المعنى .

كان النهار مشرقاً وإن كان الطقس حاراً خانقاً . وكان العرق يتصبب من الرجال فيمسحون وجوههم ويلوحون بأيديهم ويجففونها فى سراويلهم القصيرة أو الطويلة ذات اللون الكاكى . أما القمصان القطنية ــ إن وجد من يرتديها ــ فكانت مبللة وكأن أمطاراً قد هطلت عليها . وكانوا يفكون أزرارها من فوق صدورهم وينفخون فيها .

ــ هل ترى هذا ؟ هل يمكن أن تتصور مثل هذا الإسراف ؟

ونظر باندا بعين فاحصة إلى حركة أتت بها « سابينا » بإبهامها . كان هناك منظر رهيب ، عامود من دخان أبيض كثيف يرتفع فوق كومة من الفول الأحمر ويتصاعد إلى السماء فى حلقات متراخية . وفى نفس الوقت كانت روائح كريهة من الشيكولاتة المحروقة تعبق الجو .

ووقع بصر الشاب على أرض فضاء تقع على بعد ، تغطيها لفات مبعثرة متعددة الألوان ، وحصائر مجدولة عليها حبات مبعثرة ، وهنا وهناك ، طفل ، أو إمرأة ، أو رجل ، يحرس ما فى حوزته فى استسلام وهو يجلس القرفصاء ، مستنداً بذقنه إلى ركبته ، غير مبال بالشمس اللافحة التى يباركها مستلهماً السماء ألا تثير عاصفة . ومع ذلك فإن الزوبعة سوف تهب . وفى هذه الحال سوف يسارعون إلى حمل محصولهم لحمايته من الأمطار التى تقضى عليه ، وسوف يعفيهم ذلك من بقائهم تحت رحمة موظف المراقبة الذى يتمتع بسلطة استثنائية يمكنه بمقتضاها أن يطلق سراحهم . نعم سلطة استثنائية . . . هذا هو اللفظ .

كنت ترى مجموعات سعيدة تبتعد فى صخب عن جهاز المراقب ، وكان هؤلاء الناس يكونون الفئة الوحيدة التى لا يبدو عليها أى انطباع للأسى . وكان الرجال يلتقطون بكلتى يديهم أكياسهم الممتلئة إلى نصفها ويرفعونها إلى أعلى وكأنهم أبطال فى رفع الأثقال ، ثم يلقون بها على رؤوسهم فتحدث صوتاً مكتوماً ، أما النساء فكن

يمسكن سلالهن من حوافها بطريقة لا تخلو من الرشاقة ويحملنها ويضعنها كل منهن على ركبتها اليمنى ثم يمسكن بالحمالة اليمنى ويقذفن بهذه السلال بحركة ماهرة قوية من أردافهن فوق ظهورهن بسرعة فائقة لا يمكن تصورها . وكان باندا يفكر فى أن هؤلاء على الأقل لم يكن من حقهم أن يشكوا ، وكأنه استشعر أن مصيره هو سيكون مختلفاً . وأخذ ينظر إليهم وهم يتجهون بعرض شطر طنجة الجنوبية . كانت خطاهم خفيفة ، بالرغم من الأحمال التى تنوء بها رؤوسهم وأعناقهم وكواهلهم وظهورهم . كانوا يسيرون فى دوامة من الغبار وكانت أقدامهم العارية تبدو وكأنها لا تلمس الأرض .

إن الشمس الآن تصعد سريعاً فى الجانب الشرقى من الأفق فتغمر حرارتها المدينة . ومرت سيارة يصدر عن محركها العتيق صوت مكتوم منتظم تضيق به النفس وكان نفيرها الصاخب يعلن عن ثراء أصاب صاحبها منذ حين ، يريد أن يلفت الأنظار اليه . والتفت باندا التفاتة خفيفة ولكنه سوف يجتهد فيما بعد أن يسترجع هذه اللحظة وسوف يحاول دون جدوى أن يبذل فى سبيل تذكرها كل مواهب ذاكرته. كانت السيارة ضخمة سوداء بها كشافان بارزان يشغلها رجل أبيض يمسك بعجلة القيادة وبجانبه امرأة بيضاء .

ولم يكن باندا فى حاجة إلى استرجاع هذه التفاصيل فى مخيلته فسوف تعود إليها طيعة فيما بعد . وأخذ يسائل نفسه : أكانت السيارة مسرعة أم مبطئة ؟ والسحب الداكنة التى كانت ترتسم فى السماء الصافية هل كانت طويلة ثابتة أم كانت الزوبعة فى تلك اللحظة تدفع بها فى الأفق ؟ هل كان النسيم يجعد صفحة النهر محدثاً فيها أمواجاً صغيرة ؟ هل كان عدد كبير من المشاة يزدحم فوق الجسر المبنى بالأسمنت المسلح ؟ وهذا الصياد المتشبث بمؤخرة زورقه ممسكا بسنارته بحذر ، أكان مجرد صورة ثابتة فى ذهنه ، من حياته السابقة ، صورة لا تنفصل عن بعض ظروف الحياة ، عن بعض أحاسيس معينة ، عن بعض صور أخرى تصحبها ؟ كل هذا لن يعرف كنهه أبداً . لم يكد يلمح السيارة حتى حجبتها سحابة من الغبار الكثيف وكأنها صفحة معتمة . وفى اللحظة التى تخيل فيها أن كارثة لن تعوض خسائرها ستلحق به ، لم يكن ليتصور أن هناك حظاً سعيداً يسعى اليه . بل حدث أكثر من ذلك ، أن هذا الحظ قد مسه بينما هو لم يلمحه .

كان موظف الرقابة يزأر بكل قواه ويقول :

— هيا تقدموا ، تقدموا أنتم هناك . ماذا دهاكم ؟ هل تتصورون أنى سأقضى الليلة هنا ؟

وابتسم باندا عند سماعه هذا السؤال إذ لم يفقد تماماً إحساسه بروح الدعابة الكامنة فيه بالرغم مما اعتراه من خوف .

واهتز الصف مرة أخرى إذ دبت فيه دفعة أو دفعتان . وهنا قال « باندا » فى نفسه وهو يرتجف من هول المفاجأة :

— ماذا ! لقد حان دورى .

كان يمكن توقيت هذه اللحظة إذ سمع صوت صفارة إنذار انبعث على بعد من ورشة لقطع الأخشاب وارتفع هذا الصوت فى الهواء الحار الرطيب . كان الظهر قد دنا .

وأخذ باندا يفرغ ببطء ما يحتويه كيسه فى الجهاز الخشبي ولم يكن ليحيد ببصره عن حبات الفول وهى تتكدس بعضها فوق بعض فيصدر عنها صوت كصوت أوراق ذابلة تطؤها الأقدام . كم كان يحب هذه الحبات ! لكأنها خرجت من أحشائه ، إذ كان قد بذل الكثير من نفسه ليحصل عليها ، ليخلقها ويجعل منها ما هى عليه اليوم أى حمراء جافة . كانت حباته من الكاكاو طيبة لاشك فى هذا . وتلاقت عيناه بعينى الموظف . ودفع هذا الأخير ذراعه فى حبات الفول حتى مرفقه وأخذ يقلبها طويلا ثم سحب يده بعد أن ملأها بحفنة منها وأخذ يتحسسها مرات عديدة . . . وظل صامتاً . أما أنها جافة ، فهى جافة ولا شك . وكان هذا ما يفكر فيه الشاب الذى ألقى نظرة خاطفة تنم عن إحساسه بالظفر إلى « سابينا » . كان المراقب قد شرع فى شطر الحبات الواحدة تلو الأخرى دون توقف ، بعناية ، وكانت تصدر عن سكينه ومضات خاطفة . كان وجهه جامداً لايعبر عن شيء وعينه شبه مغمضة . أما باندا فكان يزداد عصبية . لقد جلس القرفصاء ووضع كيسه فاغراً فاه عند فتحة الجهاز ليستعيد فيه حباته . ولم ينهض بل ظل فى هذا الوضع منتظراً وممسكاً كيسه بكلتا يديه من حافتيها . كانت أصوات القرقعة الجافة من فوق رأسه تشير إلى أن المراقب لم ينته بعد من مهمته . كم كان بطيئاً ! لقد رأى فى تصرفه هذا بادرة سيئة ولذا نهض فجأة إذ لم يستطع أن يتمالك نفسه . وتلاقت أعينهما من جديد ، إلا أن المراقب ظل محملقاً فيه وكذلك باندا وإن كان الخوف قد استحوذ عليه بشكل رهيب .

قال باندا ليقطع حبل الصمت :

— إن معى خمسة أحمال أخرى . ولكنه لم يلبث أن أسف على ما نطق به . لقد تكلم دون أن توجه له أسئلة ، كما كان يفعل فى صباه بالمدرسة عندما كانت تتهدده عقوبة . إن ذكرى تلك السنوات وما كان يعزه فيها من انطواء دائم واستشعار للخوف قد انقبض لها قلبه .

— وهل هذه الأحمال من نفس الكاكاو ؟

— نعم .

— بالضبط ؟

— نعم بالضبط .

لم يكن ليجهل ما يجب أن تتسم به تصرفاته من احترام تجاه موظف الرقابة وتجاه السيد الراقب .

إلا أنه تعمد أن يكلمه فى عصبية ظاهرة وفى لهجة مدعية ليخفى أثر ما كان قد ظهر عليه من خوف .

— أرنى هذا الكاكاو على أى حال .

لا شك فى أن حباته كانت ممتازة وإلا لما قال له « أرنى إياها على أى حال » .

كانت النسوة الخمس قد تجمعن فى هدوء حول الراقب وأخذن يتتبعن عملية الفرز باهتمام . كان يأخذ من كل سلة حفنة كبيرة ويشطر حباتها جميعاً حتى يأتى على آخرها بل كان أحياناً يشطر أنصاف الحبات أو أرباعها .

وفكر باندا فجأة فى هذه العبارة من جديد « أرنى إياها على أى حال » . لعل حباته كانت رديئة بدورها . وهنا أحس وكأن إبرة تغوص فى قلبه . هل من الممكن أن تكون حباته فاسدة ؟ واغترف بدوره حفنة منها فى إحدى السلال وضغطها فى راحته . أما أن تكون جافة ، فهى جافة دون شك . ولكن ماذا إذن ؟ هل يمكن أن يكون العفن قد أدرك قلبها ؟ لم تكن هناك فسحة من الوقت حتى يجد إجابة عن سؤاله . لقد استولى رجال الراقب الأشداء فى حركة مفاجئة على سلاله الخمس وحملوها إلى حيث كومة الحبوب التى يتصاعد منها الدخان . ماذا قال الراقب؟

— إن هذا الـكاكاو ردىء ... ردىء جداً . اقذفوا به إلى النار ...

واستشاط باندا غضبا واغرورقت عيناه بالدموع وزأر قائلا :

— لا . ليس هذا بصحيح ! إن محصولى من الـكاكاو جيد . وقفز وراء رجال المراقب الأشداء . لـكأن رجال الحرس الإقليمى لم يكونوا ينتظرون إلا هذه الحركة منه ، فقد تكالبوا عليه فى الحال ووقع بينه وبينهم اشتباك ، اشتباك خاطف لا ترى خلاله إلا قبضات وعصى غليظة ترتفع ثم تهوى وتدحرج جسم حارس ضخم على الأرض ... ووقف النسوة الخمس فى شجاعة ليحلن بين «باندا» وبينهم قائلات:

— لا يمكن أن يشتبك أربعة رجال مع رجل واحد . ألستم رجالا إذن ؟

وأجاب رجال الحرس .

— لا نريد أن نشتبك معه . إننا نصطحبه إلى مركز الشرطة ، ولا شىء أكثر من ذلك .

كانوا فى هذه الأثناء قد تمكنوا من السيطرة عليه وأرغموه على النهوض وكبلوا يديه بالحديد . وكانت جمهرة الناس الصامتة مشفقة عليه فقد استحوذ المشهد على حواسهم جميعاً . كانت إحـــدى عينيه منتفخة كما كان خيط من الدم يسيل من شفتيه . وسمعت همهمة استياء ، كانت تتجه إليه كأمواج حاملة معنى التأثر لما أصابه .

وبحركة غريزية أخذ يقاوم محاولا التخلص من قيده حتى تبين أخيراً أن أغلاله من الصلب . لم يكن قد رأى مثل هذا القيد إلا على بعد، فهم عندما حضروا ليقبضوا عليه فى « باميلا » ليرسلوه للعمل فى ساحة من ساحات السخرة ، قيدوه بحبل فى وسطه . لقد زاغت عيناه وشعر بالتخاذل وأحس بالظمأ .

كانت النسوة الخمس يبكين من حول الحرس الإقليمى ويتوسلن إليهم أن يتكرموا بالعفو عنه . كن يمعن فى توسلهن وكأن « باندا » هو المذنب وكن يقلن إنه سيحمل لهم هذا الجميل مدى الحياة إذا ما تكرموا بالصفح عن هذه الهفوة . بل إن « سابينا » قد وصل بها الأمر إلى حد ادعاء أنه ابنها . كانت تلتمس هذا العطف لا شفقة به وإنما بها هى أمه .

— أليس لكم أمهات ؟

فردوا عليها قائلين :

— علمى ابنك كيف يلتزم الهدوء .

بل إن إحداهن ابتعدت عنهن واقتربت من المراقب وأخذت تتشفع لديه بصوت منتحب وهى تمد ذراعيها .

كان منظر هذه المرأة التى تتشفع لابن امرأة غيرها إنما يستدر الشفقة بل ويوحى بالتقزز ، على أنها مع ذلك كانت رائعة حقاً . كانت بتصرفها هذا تذكرك بأشباح نساء اختفين إلى الأبد . إلا أن المراقب المنحنى على جهازه لم يتفضل حتى بالنظر إليها .

وصرخ فيها « باندا » قائلا :

— صه يا «ريجينا» إن هذا الذى ترينه أمامك ليس رجلا وإنما هو حيوان.

وقد أثارت عبارة « باندا » هذه لغطاً وهمساً مصحوباً بضحكات عالية .

وتبين « باندا » فجأة كومة حبات الكاكاو التى يتصاعد منها الدخان . كان منظر رجال المراقب وهم يلقون بحباته على هذه الكومة ما زال يرتسم فى مخيلته ... إن منظر هذا الدخان المتصاعد كان يبدو لباندا وكأنه أكذوبة . كان يحاول دون جدوى أن يرى النار التى تتسبب فى تصاعد هذا الدخان . إن هذه النار لو كانت موجودة حقاً فلماذا لم يكن لها لهب ؟

كانت الكومة ذات شكل هرمى يقوم على قاعدة ضخمة ، له جسم منساب يتوجه رأس هزيل .

وعلى أى حال فإن النار أو الدخان الذى يتصاعد منها لم يكن فى استطاعته أن يأتى إلا على كمية ضئيلة من الحبوب . لقد رأى « باندا » كل ذلك ، وسوف يتذكر كل هذه التفاصيل فيما بعد عندما يخبرونه بأن حبات الكاكاو الرديئة كانت معدة لمصير آخر . لم تكن معدة لتلتهمها النار وإنما للابقاء عليها بعد أن تمر فى سلسلة من عمليات معينة أثناء الليل ، وهى عمليات يشرف عليها موظفو إدارة الرقابة .

وبينما كان رجال الحرس الإقليمى يقودون باندا إلى قسم الشرطة ، كان يحس إحساساً عميقاً بأنه قد سلب شيئاً .

وهذا الانطباع لم يكن جديداً عليه فقد شعر به فى مناسبات متعددة من قبل ، إلا أنه فى هذه اللحظة كان يتخذ شكلا أليماً . كان هذا الانطباع يقترن اليـوم ، بانطباع آخر شحذته الأيام وهو أن الأمن قد زال إلى الأبد من الغابة .

لقد تصور فى هذه اللحظة أنه قد سبر بأصبعه غور القسوة البشرية ، ولم يكن يتصور أن من الممكن الوصول إلى أغوارها .

« كا كاو ردىء ... إلى النار » كانت تلك الـكلمات تدهمه وكأنها كتلة من الحجر ، كتلة من الحجر تشل حركته وتجعله عاجزاً تماماً كما كانت أصداؤها ترن فى كل بدنه فتعبث بأحشائه ، وبرئتيه ، فقد كان الخوف الذى استحوذ عليه فى « باميلا » عندما صرعته الأحداث لأول مرة فى حياته ، يبحث عن متنفس ولا يجده .

كانت تلك الـكلمات تدوى فى رأسه فيختل لها جهازه العصبى . كان « باندا » يستشعر أنه فى أرض أجنبية ، وكأنه على بعد شاسع من مسقط رأسه ، من ذويه ، وكانت تصل إلى عينيه فيصدر عنها شرر يحدث ومضات تبهر ناظريه فى هذا العالم الغريب عليه .

« كا كاو ردىء ... إلى النار »

كان شعوره هذا كذلك الذى اعتراه فى « باميلا » يوم تصور أنه سيموت من كثرة ما أصابه من ضربات وما كيل له من لـكمات . كانت إمرأة عابرة غريبة عن القرية قد أشعرته بميلها إليه بينما أفصحت بشكل واضح عن احتقارها للشبان الآخرين . ولذا فقد ارتأى هؤلاء أن يلقنوه درساً حتى يكف عن التباهى والتفاخر كما كانوا يزعمون — ومن أجل هذا أثاروا ضده رجلا من الغرباء عن القرية كانت تشبه قوته عادة بالنهر الثائر . إلا أن « باندا » على أى حال قد خرج من هذه المعركة منتصراً بالرغم مما أصابه من كدمات . أما خصمه فقد لازم فراشه عدة أسابيع ، وهو اليوم واثق من أنهم قد فرضوا عليه نزالا وحشياً ، وإن كان موقناً هذه المرة من هزيمته ، فكانت حاله كحال من يقال له :

« اذهب ودافع عن نفسك أيها الفتى المسكين ولـكن لاتحاول أن تخدع نفسك فمن المؤكد أن ... » كان الأمل فى صباح هذا اليوم يملأ جوانحه . وقد حدث نفسه قائلا « إن هذه الاحداث التعسة قد دأبت على أن تفاجئك عند ما تتصور أنك على أبواب السعادة . »

كان يسمع من خلفه صوت الحصى وهويش تحت نعال رجال الحرس الإقليمى كما كان يسمع ضحكاتهم الصاخبة ، فإما أن هؤلاء الرجال قد نسوا الحادث ، وإما أنهم كانوا يهزأون به فى تحد . لقد أراد أن يتحقق من ذلك ولذا أرهف السمع . كانت لهجتهم غريبة عليه لايفهم منها شيئاً . لقد نسى أنهم غرباء عن بلده وأنهم قد أتوا من الشمال . لماذا ياترى يختار هؤلاء الرجال من المناطق الشمالية ؟ ألأنهم أطول قامة وأصلب عوداً ؟ لعل السبب أيضاً أنهم أسلس قياداً بسبب بلاهتهم ... ولكن إن كانوا أكثر طاعة فربما لم يكن مرجع ذلك إلى غبائهم... بل ربما كانت علة ذلك أنهم ليسوا هنا فى بلادهم . وإذا ما جندوا رجالا هنا ليبعثوا بهم الى هناك فقد يصبحون على هذه الشاكلة بدورهم...لعلهم يصبحون هم الآخرون أفظاظاً جامدى الاحساس. كم كان بوده أن يعرف أى نوع من الرجال يستخدمونه هناك لإقرار الأمن فى الشمال ، فى بلد هذين الرجلين اللذين يقودانه الى مخفر الشرطة ، ليمثل أمام المأمور ، « السيد مأمور الشرطة » وهو رجل أبيض . ماذا عساه أن يقول له هذا المأمور ؟ ربما قال له أيها الوغد ، أيها الزنجى القذر ، أيها الغبى ، أيها الفاسد المنحرف ، أيها القرد القبيح ، ... أو لعله يصفعه مادام قد تجاسر على أن يقاوم وينازل رجاله . نعم ربما صفعه وحينئذ سيبذل جهده فى أن يلصق ذراعيه بجسمه ، لأن الرجل الأبيض إذا ما تراءى له أن يضربه ، فمن المحتمل أن يحاول أن يرد عليه بالمثل إذ لم يحدث أن احتمل صفع إنسان له . وإن هو ضرب الرجل الأبيض فسوف يهلك لامحالة وسوف يسبب ذلك حزناً وألماً لأمه التعسة ، وهى التى ترمز إلى الألم . ولكنه سوف يحتاط للأمر إذا ما صفعه المأمور وإلا اشتبك معه وعندئذ تكون نهايته ...

وقبل أن يدخل مكتب المأمور استرجع فى ذاكرته صورة أمه للمرة الأخيرة ، استرجع صورة الحطام التعس ، هذا الجسد النحيل ، الأسود ، البائس ، الذى يثير الاشمئزاز ، والذى تجرد من شكله الإنسانى فأصبح يستدر الشفقة ، هذا الجسد الراقد على سرير من الخيزران .

الفصل الخامس

استدار الترزى نحو ابن أخته وكان يصغى إليه بمزيج من الانتباه والإعجاب وقال:

— قص على هذه القصة مرة ثانية يا ابنى ، هل كن خمس اللاتى صحبنك ...

وأجاب « باندا » بنفس النغم

— كن خمسا

— وكنتم تحملون مائتى كيلو جرام من الكاكاو أنتم الستة ؟

— نعم مائتين لا تزيد ولا تنقص .

— إنها كمية كبيرة !

— نعم ، إنها كذلك .

— وقد استحوذوا على محصولك كله من الكاكاو فى المراقبة ؟

— نعم لقد استحوذوا عليه وألقوا به فى النار .

— أى أنهم تظاهروا بذلك .

— لست أدرى ، ولكنى شاهدتهم وهم يلقون به فى النار .

— أؤكد لك أنهم قد تظاهروا بذلك .

— ليكن ياخالى .

— مائتان من الكيلو جرامات ؟

— مائتان ...

— استولوا عليها كلها !

— كلها حتى آخر حبة .

— وقد تشاجرت معهم ؟

— أى أنهم أشبعونى ضرباً ... كانوا أربعة . لقد أحدثوا كدمة بعينى .

ففغر الترزى فاه دلالة على دهشته واستنكاره وأخرج طرف لسانه الشاحب الذى كان ينم عن جوعه . كانت عيناه حمراوين وكأنه لم ينم منذ عدة أيام . وكانت رأسه الصلعاء ، إلا عند القفا ، تلمع تحت أشعة الشمس . وكان يجلس أمام آلة الحياكة مرتبكا ، حزيناً ، شارد اللب .

— آه « ياباندا » يابنى ، أية مصيبة قد لحقت بك ! مائتا كيلو جرام من الكاكاو فى النار ! هل شاهدنا مثل هذا من قبل ؟ أيها الفتى المسكين ! كيف يتسنى لك أن تتزوج الآن ؟ مائتا كيلو جرام ... إنها ثروة . أتعمل السنة بطولها ، وتنزع الأعشاب الفاسدة وتشذب شجيرات الكاكاو كل صباح ... لتصل إلى هذه النتيجة ؟ أية فكرة هذه التى أوحت إليهم بابتداع إدارة المراقبة ... وتعيين مراقبين؟ لو أن لرؤسائنا الجرأة فى الدفاع عنا ، لذهبوا إليهم فى الحال واحتجوا ولكنهم ليسوا الذين سيفعلون ذلك فهم لم يقفوا أبداً أمام رجل أبيض إلا وشعروا بالحاجة إلى التبول ! الرؤساء ... ياللمهزلة ! إذا ما طلبوا من أحدهم أن يفعل هذا الشىء أو ذاك أجاب من فوره « طاعة ياسيدى الرئيس » أو : « قل هذا لرجالك » أجاب : « سأفعل ياسيدى الرئيس » . متى سيقولون : « لا ياسيدى الرئيس » أوه ! سوف ننتظرها طويلا قبل أن يقولوها ! « لا ياسيدى إن رجالى قد طفح الكيل بهم » إن هذه الكلمات سوف ننتظرها طويلا. الرؤساء ! ... ياللمهزلة ! ولكن أن يعينوا مراقبين،فهذه بدعة ... كنا فى الماضى نفعل ما يحلولنا ... لم يكن هناك من ينصحنا أو يوجهنا فى طريقة زراعتنا للكاكاو ، ومع ذلك فقد كنا نبيع محصولنا على كل حال ، وبثمن مرتفع، لاتنس ... وكان كل شىء يسير على مايرام ... أو يكاد . على العموم لم يكن الناس يشكون كثيراً . والشىء المؤكد هو أنه كان فى إمكاننا أن نستغنى عن مراقبيهم هؤلاء . ولكن هاهم قد أقبلوا ، وهاهم يلقنوك دروساً، وهاهم يسدون إليك النصح ويقولون لك أشياء وأشياء ... واستطرد :

— ها أنت تتبع تعليماتهم بكل دقة ولكن هل منعهم هذا من أن يستحوذوا على محصولك من الكاكاو ؟ أبداً . هل منعهم ذلك من أن يحرقوه ، أو أن يتظاهروا بإحراقه بمعنى أصح ؟ أبداً . كيف يتسنى لنا أن نعيش فى مثل هذه الظروف ، إنى أسألك إيضاحاً يا بنى ؟ لا يمكنك أبداً أن تتكهن بما سيفاجئك به الغد .

وانحنى الرجل على آلة الحياكة . كان شيخاً هرماً ، ولا بد أنه فى حاجة إلى

معونة غيره من الترزية الذين يعملون فى الشرفة ليلضموا له إبرته. كان يضغط بقدمه على بدال آلته، ولا يكف أثناء انهماكه فى العمل عن هز رأسه وكتفيه بدافع من استيائه. ثم كف فجأة عن تحريك بداله واستدار نحو ابن أخته وقال :

— أتجهل إذن ما يقوله الناس فى هذا الصدد ؟ لابد من رشوة المراقبين ... نعم رشوتهم ... إن هذا هو مرادهم . وعندئذ سوف يصبح محصولك من الكاكاو من أفضل الأصناف ولن يلقوا به فى النار بل ولن يطلبوا منك البقاء لمدة أيام طوال فى وهج الشمس لمراقبة حبات الكاكاو التى لم تجف تماماً على حد قولهم . نعم يجب رشوتهم ... لماذا لم تحاول ذلك يا بنى ؟ يبدو أن الجميع يفعلون ذلك . ألم تكن تعرف إذن ؟ ...

وأجاب « باندا » وهو يجز على أسنانه فينطق بصعوبة :

— إن محصولى من الكاكاو كان طيباً . كانت حباتى جافة ، جافة كالأغصان الصغيرة يا خالى . لم يكن بداخلها عفن كما زعموا .

كان الشيخ يصغى إليه فى إشفاق وارتسمت على محياه سمات غامضة وقال بعد تردد :

— إن محصولك من الكاكاو كان جيداً ... ولم تكن حباته كلها إلا ممتازة ، إنى لا أعارضك فى هذا وكان هذا أدعى لرشوتهم بل إن جودة محصولك كان من شأنها أن تحضهم على الاستيلاء عليه ، لا سيما أنك لم تحاول أن تتساوم معهم . أصغ إلى يابنى . لم أعد فى ريعان الشباب ، وها أنا منذ خمس وعشرين سنة أجلس فى هذه الشرفة وأنادى على الزبائن . لقد رأيت الكثيرين من الرجال البيض عند ما أتوا إلينا ورأيت الكثيرين منهم عند رحيلهم وأنا أعرف عنهم الكثير . عند ما كنت تلميذاً ، هل تذكر ؟ عند ما كنت تسكن عندنا كنت أقول لك فى كثير من الأحيان : يا بنى ، إن الأمور فى هذا البلد ليست على ما يرام بل هى تتفاقم ، ونحن لم ندرك هذا بعد ولكن صبراً فسوف ندركه عما قريب . حسنا ها أنت ترى الآن ! إن لم تكن قويا ، حاول يابنى أن تلجأ إلى الحيلة. وأنت لست فى الواقع قوياً يا « باندا » ، إنى أنا الذى أقول لك هذا . ماذا يفيدك أن تتكلم بهذه الطريقة وكأنك رجل قوى؟ لست ياباندا إلا رجلا ضعيفاً ، وأفضل لك أن تعرف هذه الحقيقة الآن . إنك أضعف منى ، إنك أضعف من خالك الشيخ ، الشقيق الأكبر لأمك المسكينة . إن المراقبين

يفعلون كل ما يتراءى لهم ، مثلهم فى هذا مثل الآخرين . ماذا تستطيع أن تفعل ضدهم يابنى ؟ لقد قدم البعض الشكاوى ولكن هذا كان عديم الجدوى وأنا أؤكد لك أن ذلك لن يجديهم أبداً ولو فرض أن ذهبت غداً إلى حيث كان يقف المراقب ، لمجرد معرفة ماحدث ، فلن تجد أدنى أثر لكومة الحبوب التى كان الدخان يتصاعد منها . وأنا أسألك يابنى ، أين ذهبت هذه الحبوب ؟ انت تعرف كيف تحترق هذه الحبوب ببطء شديد. والأوامر يابنى، من ذا الذى أصدرها؟ إن هذه الأوامر قد صدرت من جهة عليا يابنى ، وليس هناك من يجهل هذه الحقيقة فى طنجة ... ومع ذلك فنحن نلتزم الصمت ... لا يابنى ، ما كان عليك أن تفكر بهذه الطريقة وتقول : « ليس محصولى من الكاكاو إلا من الصنف الجيد » . وكان الأجدر بك أن تتساءل « عما يجدر بك عمله ليقبله المراقبون » كان الأجدر بك أن ترشوهم . فماذا أفدت من اعتزازك بنفسك ؟ .

كان باندا جالساً على الصندوق الخشبى الضخم الذى يكدس فيه الترزى خرقه. وكان يحدق فى ساقيه الطويلتين السوداوين الهزيلتين ونعليه المصنوعين من التيل الأبيض اللذين يحبسان قدميه الكبيرتين ويؤلمانهما . كانت سمات وجهه صارمة ، متجهمة وان كان يرتسم عليها فى نفس الوقت التواضع والتلهى الذى يسببه حزن لم يتغلغل بعد إلى أعماقه .

كان خاله الشيخ من الرجال القلائل الذين يمكن أن يبثهم باندا مكنون قلبه دون ما شعور بحرج ، ولم يكن « باندا » قد عرف فى طفولته طوال مدة تردده على المدرسة، والداً إلا هذا الرجل الثرثار الكريم النفس وهى عيوب تفسر كيف أنه بعد عشرين سنة من العمل المتواصل فى طنجة ، لا يزال يحيا فيما يشبه الفاقة . ورفع باندا عينيه ونظر إلى خاله . كان الرجل يدير بقدميه العاريتين بدال آلته فى حركة منتظمة رتيبة تضطر رأسه الأصلع الأملس إلى التأرجح فى تقطع منتظم . ولم يستطع « باندا » تحمل منظر هذا الشقاء ولذا أدار وجهه وقال :

— يا خالى ، لماذا لا تعود إلى مسقط رأسك ؟ لقد نال منك السن والإرهاق كل منال . لماذا لا تعود إلى مسقط رأسك لتستريح ؟ إنك فى غاية الإرهاق .

وشرد الرجل برهة ونظر إلى الأفق البعيد ثم قال :

— إنك تتصور يا بنى أن هذا أمر بسيط ميسور ، أليس كذلك ؟ إنك تظن أن الأمرهين ، وكل هؤلاء الذين لم يسكنوا مدينة طنجه أو أية مدينة أخرى ، يتصورون الأمر بسيطاً مثلك . والواقع أن الأمر ليس بهذه البساطة يا بنى . ها هى خمس وعشرون سنة قد مرت على منذ تركت مسقط رأسى... خمس وعشرون سنة قضيتها هنا ، خمس وعشرون سنة وأنا أزاول هذه الحرفة . ماذا عساى أن أفعل الآن فى بلدى ؟ إنى أسألك يابنى ، ماذا عساى أفعل ! إن الأمر فى الحقيقة ليس بالسهولة التى يتصورها الناس . وأعتقد أننى سوف أنفق فى طنجة ، ربما بسبب المرض وربما بسبب الجوع ، بل الأرجح أنى سأموت جوعاً ...

وسكت الاثنان . كان صوت الآلة المعدنية المزيتة ، هذا الصوت الرقيق ، يبدو وكأنه يهدهدهما .

وقال الترزى أخيراً :

— هل تعرف يابنى أن ماحدث لك فى قسم الشرطة يثير الفضول ؟ فالخروج من هذا المبنى القبيح لا يكون بهذا اليسر ، قص على إذن ما حدث هناك .

كان يبتسم فتظهر أسنانه الجميلة الناصعة البياض بالرغم من تقدمه فى السن .وأعاد ياندا للمرة الثالثة أو الرابعة قصته بينما كان خاله يحدق فيه بنظرات تنم عن الإعجاب البالغ .

— لقد ساقنى إلى هناك قبيل الظهيرة رجلان من رجال الحرس الإقليمى ، وكانا قد أصابا عينى بالكدمات .

— لا تنزعج يابنى ، فإن العين المكدومة لاتثير القلق . ما عليك إلا أن تضع عليها خرقة مبللة بالماء الساخن ثم بالماء البارد . ما خطورة انتفاخ عينك ؟ لاشىء البتة . استمر يابنى .

— لقد حبسونى فى غرفة ضيقة وأعتقد أنه لم يكن هناك أى رجل أبيض فى قسم الشرطة فى تلك الأثناء . كانوا كلهم قد ذهبوا لتناول الطعام وهنا يخيل إلى أننى أخذتنى سنة من النوم .

— كيف حدث هذا يا بنى ؟

— كنت أجلس القرفصاء مسنداً ظهرى إلى الحائط ، وكانت ساقاى منثنيتين وذقنى متكئاً على ركبتى ، ولا بد أننى غفوت إذ كان التعب قد نال منى كل منال . ثم شعرت بأن شخصاً ما يدوس قدمى . كان أحــد رجال الحرس قد أتته هذه الفــكرة ليوقظنى ثم قادنى إلى حيث يجلس رجل أبيض .

— مأمور القسم .

— لا بل أعتقد أنه أحد الضباط إذ سبق أن رأيت مأمور القسم أكثر من مرة فى « باميلا » وهو ليس بهذه الضخامة . واستجوبنى هذا الرجل .

— وهل وجهت له حديثك مباشرة ؟

— لا والسبب فى ذلك أننى لم أكن أفهم معنى ما يقول . كان يتكلم بسرعة فائقة ولم أكن أفهم معنى كلامه .

وقد قصصت قصتى على المترجم الذى تولى نقلها اليه ، ومع ذلك فقد فهمت جيداً كل ما قاله الرجل الأبيض بعد ذلك .

— وماذا قال هذا الرجل الأبيض يابنى ؟

— لقد فاه بهذه الـكلمات « تباًلهم! لقد فاض الـكيل. كفاهم سخرية بى . سوف أعفو عن هذا الرجل وهذا أقل ما يمـكن أن أفعله » .

— هل قال ذلك فعلا يا بنى ؟

— نعم . لقد بدا عليه أول الأمر أنه فى غاية الضيق ثم بدا أنه يبحث عن كلمات يقولها ونطق فجأة بهذه الـكلمات . وعلق الترزى بقوله :

— يا إلهى ! لعمرى ما معنى هذه الـكلمات ؟ هذا أمر عجيب على كل حال !

وانهمك من جديد فى عمله .

أخذ باندا يراقب ما يجرى فى السوق فى مواجهته . كانت السوق عبارة عن بناء خشبى يقوم فى وسط ميدان كبير تحيط به أبنية أخرى ضئيلة الحجم . وكانت كل هذه المبانى مغطاة بصاج مموج يسطع فى الشمس وكان باندا يسمع صوت قرقعة الصاج من أثر لفح الشمس . كان ذلك فى أحـد أيام السبت ولذا كانت السوق لا تزال تزخر بالناس فى الساعة الثالثة بعد الظهر . كانت عينا الشاب تتلهى بمتابعة النساء

اللاتى كن يلفتن نظره بأثوابهن القطنية المتعددة الألوان . كن عديدات وكان من بينهن فتيات ونساء طاعنات فى السن ، مديدات القامة أو قصيرات، يتميزن بالضخامة أو النحافة .

وكان باندا يلمح بين الحين والحين إحداهن وقد ارتدت ثوباً من حرير أحمر اللون أو أصفر أو أزرق أو أبيض ووضعت على رأسها قبعة من القش ، وعلى عينيها نظارة سوداء ، وأمسكت بحقيبة يدها ، وظهرت بحذاء عالى الكعب، فيحدث نفسه قائلا : « هى عشيقة أخرى لأحد اليونانيين» فيرتسم الاشمئزاز على فمه .

إن « باندا » ليشعر بميل غريزى نحو نساء الأحراش وكان من السهل التعرف عليهن إذ أنهن ينفردن بعلامات مميزة . كن يرتدين أثواباً بسيطة التفصيل ذات ألوان هادئة ، وكانت أعضاؤهن مفتولة العضلات ويخفين شعورهن تحت ملفحة ، وأحياناً ترى سلة فارغة تتدلى من أكتافهن كما أنهن يتميزن بعدم المبالاة فقد كن يدخلن الحوانيت فى جماعات مرحة ويتحسسن كل شىء ويقلبن محتوياتها دون ملل ويستفهمن عن أسعارها ويساومن ثم ينتهى بهن الأمر إلى عدم شراء شىء . ومنهن من تنحنين على كومة من الموز أو من البرتقال وتنادى على المشترين أو يساومن وهن يتظاهرن بالغضب فتمتلىء أفواههن بالمرارة والحدة بينما ترتسم على أعينهن إبتسامة ماكرة . وكان هناك أخريات يقفن فى صف أمام حانوت جزار ثم ينصرفن بعد أن يحصلن على نصيبهن من اللحم الفاسد وهن يطلقن ضحكات لها رنين معدنى حاد .

وتساءل « باندا » عن سبب صعوبة أن يحصل الرجل لنفسه على امرأة شابة من بين هذا الفيض من النساء . لكم انتظرن بفارغ الصبر هذا اليوم الذى يرحلن فيه عن قريتهن النائية ليحضرن إلى المدينة ! كان موسم الكاكاو يعنى بالنسبة اليهن — وهن المتطلعات إلى الشعور بالاحاسيس الجديدة والانفعالات القوية — كان يعنى التنزه فى أنحاء المدينة وزيارة حوانيت اليونانيين ، والحصول على نصيبهن من لحوم الثيران، والأحاديث الجوفاء مع من يعملون بالمدينة وشبانها ، كما كان يعنى بالنسبة إليهن مصادفة المشاهد غير المتوقعة . كان بود « باندا » أن يشارکهن مرحهن إلا أن ذلك لم يكن فى مقدوره . وكان يحدث نفسه قائلا إن كثيراً من الرجال ربما وجدوا أنفسهم أحياناً فى مثل موقفه، ولكن ما جدوى هذا التفكير الذى لم يكن ليواسيه؟

كم من رجال غيره رآهم وهم يلقون بمائتى كيلو جرام من محصولهم من الكاكاو فى النار ؟ هل من بينهم كثيرون لهم أمهات يقترين من حافة القبر ؟ بل لو فرض أن هذا صحيح فلماذا هو يجد نفسه دائماً بين زمرة البؤساء والتعساء ؟ .

قال له خاله :

— إن الوقت متأخر يا « باندا » . إذا ما أردت العودة إلى « باميلا »...

— لا يا خالى ، لن أعود اليوم .

— ولم لا ؟

— بسبب أمى ... سوف أضطر إلى رؤيتها وهى تبكى ، لا ، لن أعود إلى القرية اليوم .

— « كنت أتصورك قد عقدت العزم على أن يستقر بك المقام بالمدينة » . قالها الخال وهو يغرق فى الضحك فيفتر ثغره عن كل أسنانه .

— لا لن أستقر بالمدينة مادامت أمى على قيد الحياة .

كان باندا يبذل جهداً ليبتسم بدوره ، وحتى يجاريه ، إلا أن أسارير الترزى تجهمت فجأة وكانت هذه هى طريقته عندما يريد إشعارك إنه يتكلم بلهجة جادة .

— إنى لأتساءل أحياناً إن كان من الأفضل لك أن تستقر بالمدينة ، فربما وفقت وكان نصيبك من التوفيق فى المدينة أكبر منه فى القرية .

— لقد سبق أن فكرت ملياً فى الأمر ياخالى ، بل كثيراً ما فكرت فى هذا الأمر ، إلا أن طنجة ليست هى المدينة التى تراود فكرى بسبب صغرها وإنما « فورنيجر » .

— « فورنيجر » !

— نعم « فورنيجر » إنى أفضلها على طنجة .

— إن هذا عجيب حقاً ......

ومرة أخرى تاهت نظرة الرجل فى الأفق البعيد . كان يبدو أن عينيه تداعبان منظر عالم مجهول ملىء بالعجائب ، بينما كانت جبهته المليئة بالتجاعيد تفصح عن أسفه

على شباب ضاع هباء ، وولى إلى غير رجعة . وبقى فترة طويلة دون أن ينبس ببنت شفة ثم تنهد وقال :

— إذن فلن تعود إلى « باميلا » ؟

— لا ياخالى لن أعود اليوم . إن أمى ...

كان يريد أن يؤجل قدر استطاعته اللحظة التى سيضطر إلى أن يقص فيها تفاصيل محنته على أمه العاجزة ، وكان منظرها يملأ مخيلته وهى راقدة على سريرها المصنوع من الخيزران وساقاها منثنيتان بينما وجهها يغوص فى تجويف صدرها وهى مقوسة بشكل مؤلم ، ولا تنتظر شيئاً غير الموت . كان يفكر فى أن النساء عند عودتهن إلى « باميلا » مع سدول الليل سوف يقصصن عليها ما حدث له ، وهو يعرف أنها ستبكيه وأن آمالها جميعاً ستتبدد فيحل محلها ألم لا حد له . وشعر بأن عينيه اغرورقت بالدموع وكاد أن يأتى بحركة من يده ليمسح بظهرها عينيه ولكنه أمسك نفسه إذلم يكن يريد أن يلحظ خاله بكاءه . كان حنقه بالغاً على موظف الرقابة ومن هم على شاكلته ، على كل هؤلاء الذين فى مقدورهم أن ينعموا — دون أن يخشوا شيئاً — بفرض العذاب على الناس ، وحتى على إمرأة تعسة كأمه المسكينة وهى التى قاست طوال حياتها . ياله من مصير عجيب : الشعور الدائم بالألم ! إن أمه إن كانت ستتعذب الآن فوق ما لاقته من قبل فسيكون ذلك بسبب موظف المراقبة هذا . كان يقول لنفسه إن عليه أن ينتقم ولكنه كان يتساءل عن وسيلة هذا الانتقام .

— ينبغى عليك أن تذهب لرؤية زوجة خالك يا « باندا » فهى مريضة .

— وماذا بها ؟

— من العسير معرفة دائها يابنى . إنها تقاسى من الآم فى كل جسدها . إنها الشيخوخة كما ترى ...

— ألا تكون آلام الروماتيزم ياخالى ؟ لقد كانت تشكو منذ كنت أقيم عندك من الآم تشعر بها فى كل أعضائها . ويجدر بك أن تحاول نقلها إلى المستوصف .

— وفيم يجدى هذا يابنى ؟ إنك أدرى عما يحدث هناك ، فالقصة هى هى لا تتغير . يجب أن ترشو الناس حتى يعنوا بك . يابنى ، يجب أن أصارحك بالحقيقة ، إنى معدم لاأملك مالاً . ها أنت ترى كيف يرفضون إعطائى عملا . لقد أدركنى الهرم .

ومط شفتيه ليعبر عن اشمئزازه .

كانت الشمس قد قطعت نصف طريقها على صفحة السماء والساعة حوالى الرابعة من بعد الظهر . وكانت طنجة الجنوبية قد بدأت تخلو ممن فيها ، فى ساعة مبكرة إذ كان اليوم يوم سبت .

— هيا اذهب يابنى ، اذهب لرؤية زوجة خالك .سوف ألحق بكما بعد ساعة، بمجرد أن أنتهى من هذا ...

كان الطقس يكفهر وكانت السحب المتقطعة الرمادية اللون التى تدفعها سحب أخرى داكنة تتراكم فى بطء فوق صاج الأسقف المموج .

— أسرع يابنى فإنى أتوقع أن تهطل أمطار غزيرة .

— نعم ياخالى ، ها أنا ذاهب اليها ...

لم يكد ينهض حتى تمطى طويلا ليستعيد بعض النشاط . كان يشعر بالضجر وبالحرارة تثقل عليه .

وحقيقة الأمر أنه كان فى الوقت عينه يتمنى أن تمطر السماء .

كان يسير فى تباطؤ ولم يكن كوخ خاله بعيداً إذ هو يقع مباشرة خارج حدود (موكو) أول أحياء طنجة الشمالية .

ورأى باندا تجمعاً عند مفترق بعض الطرق واقترب منه بطريقة آلية . كانت هناك جموع من الفضوليين تلف حول سيارة نقل محملة بعروق طويلة من الخشب . ورأى سائق السيارة — وهو رجل مكور الجثة — رآه وهو يتنفس بصعوبة منهاراً فوق سلم السيارة ، كما رأى بعض نساء الغابة يتقصعن وينتحبن وهن يشرن بإبهامهن إلى شىء ما تحت سيارة النقل . كان هناك بعض الرجال ـ وربما كانوا من سكان الغابة ـ يصرخون بدورهم بعبارات السباب والتحدى ويلوحون بقبضاتهم الغليظة المتوعدة فى وجه السائق الضخم الجثة الذى يتصبب عرقاً ، ولا يفصح عن شىء . وانحنى باندا كما يفعل المتفرجون الآخرون .

كانت هناك قدمان عاريتان وسروال قصير كاكى اللون وحزام من الجلد وبقية من قميص أبيض اللون وهى الأشياء الوحيدة التى تدل على أن صاحبها صبى صغير . أما الرأس والرقبة ومقدمة قفص صدره فكانت مبعثرة على شكل قطع صغيرة من اللحم

تسبح فى بركة من الدم الفاقع حول عجلة المركبة اليسارية المزدوجة . كان هـذا المشهد قد استحوذ على حواسه وأخذ يحملق فى هذا المنظر المفزع .

كان قد رأى من قبل حوادث كثيرة من حوادث المرور إلا أنه شعر فى هذه المرة بأن من الصعب تخيل شىء أكثر إهداراً للانسانية من هذا المشهد .

كان الصراخ يزداد من حول السائق الذى ما زال منهاراً فوق سلم السيارة وجمهرة الناس من حوله تزداد كثافة ، ولم يستطع رجال الشرطة أن يشقوا لأنفسهم طريقا ليمروا منه . ورآهم باندا يعودون أدراجهم ، ولعلهم فعلوا ذلك ليطلبوا نجدة . كان يبدو أن اعتداء سوف يقع فى نهاية الأمر على شخص السائق . ونهض هذا الأخير فى النهاية بعناء ووقف على سلم السيارة ثم وجه حديثه لجمهرة الناس وهو يمد ذراعيه . قال :

— أيها الأخوة والأخوات ، أصغوا إلى ... إنى أتوسل إليكم أن تصغوا إلى ... أصغوا إلى للحظة قصيرة ...

كنت عند سماعه تشعر بأن الكلمات تخونه وأن لسانه يتلعثم . ولا حظ باندا كذلك أن نظرته زائغة وأن عينيه كانتا شديدتى الاحمرار متفختين . وحدث نفسه قائلا : « كان لا بد أن أتوقع ذلك فإن هؤلاء السائقين كلهم سواء ، كلهم يدمنون على الشراب ... »

وقال السائق فى لهجة باكية :

— كلكم تعرفوننى ، إنكم تروننى كل يوم فى هذه المدينة التى أتصرف فيها تصرف الرجل الشريف ، فكروا فى هذا . انى ابن « ميمبوجا » وأنتم تعرفونه أيضا وهو من قرية « تومازى » . ها أنتم ترون بوضوح أننى لم أكن أريد أن تقع هذه الكارثة ، لكنى لم أسع إلى وقوعها . يا اخوتى ويا أخواتى فكروا فى هذا الأمر ... يا إخوتى ويا إخواتى ...

كان يتكلم بلهجة محلية سليمة ، بالرغم من أن لسانه كان يتلعثم كثيراً . أما الناس من حوله فقد هدأت ثورتهم وهاهم يصغون إليه بل إنهم قد أشفقوا عليه أخيراً ، ولا سيما الفلاحون الذين كانوا قد استاءوا فى بادىء الأمر أكثر من الآخرين .

كان النساء يقلن وهن يحملقن :

— لقد أصاب . إن ما يحكيه شيء معقول . إنه يكلمنا بلهجتنا . ولا شك أنه أخ لنا . ياللرجل المسكين ، كم هو سيء الحظ ! ...

وكان الرجال يقولون :

— إنه على أى حال سيء الحظ ، مهما كان الأمر .

ثم يهزون أكتافهم . أما السائق فلم يكن بالتأكيد ابن الرجل الذى ذكر اسمه ولا ابن القرية التى ذكرها . أما سكان طنجة الذين كانوا يشهدون الحادث فلم ينطلى عليهم هذا الادعاء واستغلال سذاجة الآخرين ، فقد كان هذا الأمر مألوفاً لديهم وقد أمسكوا عن اتهام الرجل متآمرين معه . واستأنف باندا سيره . أما المشهد الذى وقع بصره عليه فقد أدى إلى احتباس أنفاسه كلية : كان هناك نفر من الشبان فى ملابس العمال الميكانيكيين الملوثة بالزيت ، يحملون رجلا أبيض ضخم الجثة فوق أكتافهم . ولما لم يكن هناك مكان للجميع ، فإن البعض منهم كان يكتفى بأن يضع ذراعه تحت إبط رفاقه لرفع هذا الجسد الهائل . وكان آخرون يتشبثون بيديه أو بقدميه لكى يشلوا حركتها . كانوا يسيرون مندفعين بل يكادوا يجرون . وكان من الواضح أنهم يريدون التخلص من هذا الحمل الثقيل بأسرع ما يمكن ، ويطلقون صرخات مفزعة ، ويرتسم الغضب على وجوههم المتجهمة ،وعلى عيونهم التى يتطاير منها الشرر . لقد مروا بالقرب منه حتى إنه استطاع أن يرى ما ارتسم على سمات الرجل البدين من علامات العجز والخوف . وكان يتبعهم عدد من الصبية كخلية النحل يضحكون ويصيحون ويغنون بينما أجسامهم تتلوى وتتثنى . أما « باندا » فكان يتبعهم بدوره ، على مسافة بعيدة ، ولكنها تسمح له برؤيتهم . وسمع الرجل البدين وهو يتمتم ببعض الكلمات ولذا اقترب لكى يسمع ما يقول . كان فضوله يدفعه إلى معرفة ما يمكن أن يقوله الرجل الأبيض إذا ما شعر بالخوف والألم ، إلا أن سيارة نقل وصلت وتوقفت بالقرب منه واندفع منها عمالقة يرتدون الزى الكاكى . وقد تعرف باندا عليهم فى الحال . كانوا من رجال الحرس الإقليمى . وترك الميكانيكيون حملهم فجأة فوقع الرجل وارتطم بالأرض وهو يطلق صيحات تنم عن الدهشة والألم . وقد أدرك هؤلاء العمال الشبان أن طريق الهرب قد سد فى وجوههم ولذا فقد حدث بهم غريزة الدفاع عن النفس إلى التكتل لمواجهة رجال الحرس الإقليمى ، ولكن حدث ما لم يكن متوقعاً ، إذ لم يقع صدام بينهم . واندفع الصبية نحو الرجل الأبيض

البدين وحملوه فى رفق واحترام شديدين بينما كانوا يصرخون فى وجه العمال قائلين فى لهجة محلية :

— هيا ارحلوا من هنا ! ارحلوا دون ضوضاء ! ماذا عسا كم تنتظرون ؟
وتشتت العمال بسرعة ولا ذوا بالغابة دون أن يحصلوا على ما تبقى لهم من أجور . أما الصبية الصغار، وكانوا يدركون أنهم فى مأمن من العقاب ،فقد رسخوا فى أماكنهم. لم يكن فى استطاعتهم أن يتركوا لعبة كهذه تفوتهم مهما كان الثمن حتى يعرفوا نهايتها . وانضم إليهم بعد قليل فضوليون آخرون ، من جميع الأعمار .

كان رأس الرجل الأبيض البدين قد ارتطم بالأرض الحجرية والدم يسيل منه بغزارة ، بينما هو يضرب الهواء بساقيه ، أما ثيابه فكانت ملوثة كلها بالدماء ، وكان يغلق فمه ويفتحه بالتوالى كمنفاخ فرن الورشة بينما رجال الحرس يحيطون به . وقد رأى باندا بينهم الرجل الأبيض الذى أمر منذ قليل بإطلاق سراحه وهو يزمجر بصوت كالرعد . كان يتكلم بسرعة فائقة فلم يفهم معنى كلماته كما لم يفهمها من قبل فى مكتبه بقسم الشرطة ، إلا أنه خمن أنه كان يؤنب مرؤسيه بعنف لأنهم مكنوا العمال من الإفلات . واستدار الرجل ونظر فى الاتجاه الذى هربوا منه وأخذ يفحص المكان الذى اختبأوا فيه لحظة وهو يداعب فى شرود لحيته السوداء . لقد أدرك ولا شك استحالة مطاردتهم لأنه هز كتفيه فجأة وأخذ يرعد من جديد . وبعد لحظة أخذ يركل مرؤسيه السود الواحد تلو الآخر . وانطلقت ضحكات السخرية من أفواه المتسكعين ، إذ أن هؤلاء العمالقة كانوا قد أذاقوهم شتى ألوان الذل ، ولذا لم يكن يسوءهم أن يشهدوهم وهم يتجرعون كأس المهانة . إلا أن باندا رأى فى هذا المشهد بادرة سوء ، فها هم رجال الحرس الإقليمى وقد أبدوا لأول مرة تفهماً يركلون بالنعال دون أية شفقة . ولكنهم على أى حال قد سخروا فعلا من هذا الضابط الأبيض عندما كلموا العمال الميكانيكيين بلهجتهم المحلية طالبين إليهم أن يلوذوا بالفرار . لقد سخروا منه دون شك ... ومن المؤكد أن الضابط الأبيض لم يفهم معنى كلامهم وهذا أمر طبيعى . ومن حسن الحظ أيضا أن هؤلاء الضباط البيض ليسوا من المبشرين ، فالمبشرون يفهمون هذه اللهجات أما هو ، الضابط الأبيض ، فإنه لم يفهم شيئا . ماذا عسى أن يكون قد فهم مما قالوه للعمال ؟ لعله تصور أنهم سبوهم بقولهم : يا أبناء الفاجرات سوف ننظفكم ، قفوا ولا تهربوا إن كنتم رجالا ، رجالا

حقاً لا أشباه رجال ، انتظروا ولا تهربوا يا عصابة من القش ، ياشرذمة الجبناء ... نعم هذا ما تصور الضابط الأبيض أن يكون حرسه قد قالوه للعمال الميكانيكيين ... أماما لا أفهمه ، فهو السبب الذى حدا برجال الحرس الى أن يتصرفوا على هذا النحو فهم ليسوا عادة بهذه الرقة ... ما السر إذن فى تصرفهم هذا ! ... لربما كانوا على معرفة بهؤلاء العمال الميكانيكيين أو لعلهم قد احتسوا معهم ذات يوم مشروب « الأفريقاجين » . إن من يجمعهم هذا الشراب لاينسون بعضهم البعض ... عجباً ، لماذا تصرفوا على هذا النحو ؟

كان باندا شارد اللب ، تائهاً فى أحلامه ولم يلحظ أنه خرج من طنجة الجنوبية ودخل حى « موكو » بطنجة الشمالية . وكانت هذه الصورة عالقة بذهنه ، حية نابضة فى مخيلته ، منظر رجال الحرس الإقليمى وضابطهم الأبيض وهم يقفزون فى سيارة النقل مصطحبين الرجل البدين الأبيض وهو ما يزال يئن ويخبط الهواء بساقيه والدم ينزف منه . ولكن الأمطار هطلت فجأة بغزازة . وابتعد عن الطريق ولمح كوخاً تنطلق منه ضحكات عالية فدلف إليه .

الفصل السادس

كان باندا جالسا على أريكة ينظر إلى الأمطار وهى تخترق أشعة الشمس التى لم تكن السحب قد تمكنت بعد من أن تحجبها . وكانت السيول الهادرة تعبر الفناء وهى تنساب فى قنواتها المألوفة ثم تندفع فى الجدول الذى يحف بالطريق . وكانت الأمطار فى تساقطها تشبه أسلاكاً طويلة لامعة من المعدن تغمر المكان من أقصاه إلى أقصاه وكأن شخصاً يتلهى بهزها .

إن الكوخ منخفض ولكنه فسيح . وكان رواده يحتسون جعة مصنوعة من الذرة وهو مشروب اشتهر به . وكان هذا المشروب عبارة عن سائل فوار ، قاتم اللون ، يشرب بارداً عادة ، وإن كان يمكن أن يقدم ساخناً حسب رغبة الرواد . وكان هؤلاء يجلسون على أرائك من الغاب أو من الخشب أو على مقاعد أو صناديق فارغة. وكان لهم الخيار فى أن يضعوا كؤوسهم على الأرض ، وهى من الطين الجاف ، أو على ركبهم أو على منضدة مستطيلة كانت الوحيدة فى ذلك المكان . ولما كانت هذه المنضدة مرتفعة جداً بالنسبة لمقاعدهم فقد كانوا يفضلون وضع الكؤوس على ركبهم وعلى الأرض إذا كانوا يرقصون مثلا . كانوا يشربون وهم يتسامرون فى مجموعات تتكون من شخصين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أشخاص . كان معظم هؤلاء الرواد من الرجال وكانوا يعرفون بعضهم بعضاً فى هذا الحى ، كما هى الحال فى كل أحياء طنجة الشمالية . وكان كل منهم ، قبل أن يجلس ، يدور حول القاعة ، يشد بحرارة على كل الأيدى التى تمد اليه حتى على أيدى من لا يعرفهم ، وهو أمر قلما يحدث ، وكانوا يسمون كل من يشد على أيديهم بلقب أسرته ، أما إذا كان مسيحياً فباسمه هو ، ثم يسألونه : كيف صحتك ؟ فيجيب فى لهجة طفل مدلل : لعمرى ، لا بأس بها .

وكان معنى هذه الإجابة أن حاله ليست فى غاية السوء ، وأنه ليس على ما يرام، وهـذا بديهى ، وأنه لا يزال قادراً على تحمل الحياة . ألم تصادفه فى حياته ظروف أقسى ؟

ولو أن رجلا ثرثارا أو فضولياً كان بين الحضور لوجه له هذا السؤال :

— وكيف حال قلبك ياصديقي ؟

— أوه ، أما عن قلبي فإن حاله سيء ، سيء للغاية .

— ماذا دهاك ؟

— لاتقلق بالا ، أتوسل إليك . إنها بعض أحداث طفيفة . إنك تفهم الحياة وتدرك أن لاقيمة لها .

وفي أغلب الأحيان كان الآخرون يفطنون إلى ما كان يحاول إخفاءه في عدم لباقة . ولو أن هذا السركان من تلك الأسرار التي تستوجب الضحك ، انفجروا جميعاً ضاحكين بطريقتهم الخاصة ، هذا إذا فرض أنهم لايزالون يضحكون حتى اليوم، وأنا أشك في هذا كثيراً . أما إن كان الأمر غير ذلك فهم يغضون بصرهم حياء أو يديرون ظهورهم ويتجاهلون الأمر بالرغم من أنهم على علم تام به إذ لم يكن هناك شيء يخفى على أهل طنجة الشمالية .

وأخذ « باندا » يفكر في الفترة التي كان يتردد فيها على المدرسة ودهش أن وجد هؤلاء الناس على ما كانوا عليه ، أي على ما طبعوا عليه من ود زائف ، هذا الود الذي لم يحتفظ مما عرف عنه في هذا البلد إلا بمظهره ، بمظهر التضامن ، وهو تضامن فريد في نوعه ، إذ كانوا يتناسونه تماماً خارج نطاق الحانات ، ولكنه تبين بعد قليل أن البعض منهم يتخذ لنفسه هيئة معينة ، ويظهر تجاه الآخرين نوعاً من الترفع بل وبعض التباعد . وكان هؤلاء ، وهم يدخلون الحانة ، يحتفظون بسمات التجهم فتقرأ السخرية على أفواههم والتعالي في نظراتهم الشاردة ، أما أيديهم فهي تتحفظ في التحية ، بينما كلامهم قليل فيه تكلف . وكان هؤلاء عادة من صغار التجار الذين أثروا منذ حين وأخذت معالم البدانة تظهر عليهم .

كان قد تعرف عليهم جميعاً . أماهم فقد نظروا إليه وحملقوا فيه ولكن لم يبد عليهم أنهم قد تعرفوا عليه . كان يعرف أيضاً صاحبة الحان وهي امرأة بدينة جاءت من الغرب ترتدي أثواباً غريبة وقد اسودت أسنانها وهي تسرف في الملاطفة حتى تفرض عليك سلعتها .

وما أن دخل باندا حتى قالت له :

— ماذا أبدأ بتقديمه إلى هذا الصغير ؟

وكانت تلك هى طريقتها فى سؤالك عن المقدار الذى ستبدأ به : إن كنت تطلب كأساً أو قدحاً صغيراً أو كبيراً ... إلخ .

لم يكن « باندا » يشعر برغبة ملحة فى الشراب إلا أن المطر كان يهطل بغزارة تنذر بأنه سيطول . فإن المطر إذا سقط والشمس ساطعة لاتحجبها السحب ، فإنه لا ينقطع إلا بعد وقت طويل ثم إنه كان يحمل بعض النقود فى جيبه ، فما الذى يمنعه إذن من أن يحتسى بعض الخمر ! لربما ساعده ذلك على أن يكف عن التفكير فى أمه ، أن يكف عن التفكير فى أى شىء ، فى المراقب ، وفى رجال الحرس الإقليمى وفى الضابط الأبيض والميكانيكيين ، فى أى شىء ، أى شىء كان .

لقد شعر مقدماً برغبة فى أن ينسى كل مايدور حوله ، أن ينسى كل شىء .

كانت شفتاه تكادان لاتلمسان حافة القدح فهو يرتشف جرعاً منها ببطء ويسترد أنفاسه بعد كل جرعة . كان يشرب ببطء ، فى شرود ، ونظرته تتوه بين حبات المطر التى تلمع فى الشمس وكأنها خيوط من الفضة . وأفرغ مافى القدح فى جوفه وهو يدفع رأسه إلى الخلف فاغراً فاه .

— أتريد قدحاً آخر أيها الصغير ؟

— لا

لم يكن فى نيته أن يشرب حتى الثمالة . لا ! لن ينساق ... ولكنه شعر بعد لحظة بإحساس من النشوة يشع فى بدنه . كان هذا الإحساس يشبه دغدغة تصاحب جريان دمه ، بل كان فى استطاعته أن يتابع هذه الدغدغة وهى تنتشر فى جسمه . وكان ذهنه فى نفس الوقت يتفتح على آفاق تغمرها البهجة والأمل والتفاؤل .

ودعا أحد رواد الحان جميع الحضور إلى دورة من الشراب على نفقته ، أو على حد قوله ، من جيبه ، وقال « باندا » محدثاً نفسه : « لكأنه يدفع ثمنها عادة من جيب الآخرين » . ومر الرجل على الحاضرين يسأل كل واحد منهم عن القدر الذى يريده

من الجمعة . ولم يكن الشاب يجهل أن العادة جرت على ألا تقبل هذه الدورات إلا فى مقابل الرد عليها بالمثل ، وإن كان هذا لا يطلب صراحة ، كما كان يعلم أن مثل هذه الدورة تستتبع فى معظم الأحيان دورات أخرى ينتهى بها الأمر إلى إسالة الدماء . لم يعد يملك نقوداً ، ولم يكن يشعر بالرغبة فى الشجار . وحين أقبل دوره فى تحديد كمية الشراب أسر « باندا » إلى الداعى فى سذاجة بأنه لا يرغب فى الإفراط . إلا أن هذا الأخير كان ميالا إلى السخرية فقال هازئاً :

— آه ! ألا تريد الإفراط فى الشراب ! من أى نوع من الرجال أنت إذن حتى ترفض الشراب معنا ؟ لقد أمعنت فيك النظر منذ دخلت . إنك لا تكلم أحداً ولا تضحك وعندما تلتقى عيناك بعينى امرأة تخفض ناظريك . إننى لا أذكر شكلك ، ولن أدهش أن أخبرونى بأنك خارج لتوك من الدير ...

وسمع أحد الحاضرين وهو يضحك ضحكة عالية منفرة . ونادت امرأة على محدث « باندا » ، نادته باسمه المجرد وكانت هذه الطريقة فى الواقع تهدف إلى إثارته وكأنها تريد أن تقول له . « هيا ... تماد فى الأمر ، أرنا مدى قوتك ولا تتقهقر وإلا فلن أغفر لك ترددك » . كان الرجل طويل القامة مفتول العضلات ، فى عنفوانه ، ومع ذلك فإن « باندا » فى الظروف العادية ، كان فى إمكانه أن يتغلب عليه بحركتين أو ثلاث دون ما عناء ، إلا أنه فى هذا اليوم ، بعد كل ما صادفه ، كان ينفر من فكرة الشجار .

— قل لنا بصراحة ، أكنت تريد أن تصبح قساً ؟ هل فكرت فعلا فى ذلك الأمر ؟ هل كنت تريد أن تتغاضى عن المرأة ، عن أجمل هبة منحنا الله إياها ؟

وقال أحدهم :

— يالك من أحمق ! من قال لك إن القساوسة قد تغاضوا عن المرأة ؟ إنك لتضحك حقاً ، هىء ... هىء ... هىء دعنى أضحك ... أوه ! ... هىء ... هىء ... هىء ... أكان يسعدك أن تقوم بمراسيم القداس ؟ وأن تنطق بمثل هذه العبارات : « ليكن سيدنا معنا » ... وما شابه ذلك ... و « باسم الرب » ... و ..

— لا . إنك تسىء فهمى فأنا لا أشبه الرهبان فى شىء ...

— أوه ... لقد فهمت ! لقد فهمت فى هذه المرة . لقد بعت فى هـذا الصباح مائة كيلو جرام من الـكاكاو لأحد اليونانيين وأنت تخشى أن تنفق هذا المبلغ ، أليس كذلك ؟ هذه هى الحقيقة ، أليس كذلك ؟ أجبنى ، لا تخجل ، قل لى الحقيقة .

ورفع « باندا » نظره ورأى بطن الرجل أمامه فى مستوى رأسه وحدث نفسه قائلا — وكانت قبضتاه متقلصتين — « سوف أدفع قبضتى فى أحشائه » ... إلا أن « باندا » سوف يسائل نفسه دواماً عن السبب الذى جعله يحجم عن هـــذه الفعلة .

— إنك تخطىء فى هذا أيضاً فالحقيقة أن فى حياتى بعض المضايقات ، وهـذا كل ما فى الأمر .

وشعر فجأة بالخجل إذ فاه بتلك الـكلمات ، وكان الرجل قد هدأ ثم سأله :

— إنك على أى حال من رجال الغابة ، أليس كذلك ؟

وأجاب باندا : نعم .

— إذن ماذا حدث ؟ هل ألقوا بمحصولك من الـكاكاو فى النار ؟

— نعم .

— كان على أن أتكهن بهذا . لا تبال يا أبى الصغير . إنهم يفعلون هذا مع غالبية الناس . لاتقلق بالا واشرب معنا على أى حال حتى تـكف عن التفـكير فى هذا الأمر وأنا لا أطلب منك أن تقدم لى دورة من الشراب على حسابك ... لاتتصور ذلك ...

— يا إلهى ! كم هو لحوح عنيد ! وهنا جاء رجل آخر صديق للثرثار وشده من يده وقال له :

— حاول أن تفهم ! إن شباب اليوم يتجنبون العادات السيئة ، وهم يتعلمون كيف يدخرون للمستقبل ، وإلا فـكيف يتسنى لهم أن يتزوجوا ؟ حاول أن تعى هذه الحقيقة ...

وسمع صوت يؤمن على هذا الـكلام . قال صاحب الصوت :

— ومن منا يجهل أن المرأة تكلف الرجل ثروة فى هذا الزمن ؟ وقال أحدهم موجها حديثه الى « باندا » فى لهجة شاكية :

— هل تتصور يا صغيرى أن المرأة تستحق أن نحرم أنفسنا للحصول عليها ؟ لقد حرمت نفسى سنين طويلة حتى أتمكن من شراء زوجتى . وماذا أعطتنى مقابل تلك التضحية ؟ ... لا شيء ... ولا حتى طفلا .

وضجت القاعة فى ضحكة مدوية ، ورد صوت مهاجماً التعليق الذى كان قد سمع :

— لعلك تحسن صنعاً لو أنك بدأت بمعرفة حقيقة نفسك قبل أن تلصق الاتهامات بزوجتك ...

وكانت هذه الإشارة ، وما فيها من تلميح ، مجردة من المجاملة ، ولذا فلم تصادف من الحاضرين فى القاعة إلا فتوراً يدل على أنها أحدثت فى نفوسهم نوعاً من الضيق . ونهض رجل وأخذ يلوح بطريقة توحى أنه يصر على منعهم من الاسترسال فى هذه المناقشات ، وقال :

— لقد ضقنا ذرعاً بمشاجراتكم هذه . إن الذين يرغبون فى الزواج أدرى بما يقدمون عليه ولديهم مبرراتهم ... كما أن لديهم المال . أما عنى ، فإن كنت لا أريد الزواج فلأننى ، إذا ما قارنت بين ثعبانين ، فضلت أن يعضنى أقلهما سماً ...

لم تكن القاعة خالية من أرباب الأسر ولكنهم كانوا يؤثرون عدم الاشتراك فى تلك المناقشات . كانوا يدركون أن هؤلاء الناس إنما ينفسون عن مرارة ما أصابهم من خيبة الأمل ، فكم من أمانى راودتهم عند مجيئهم إلى مدينة طنجة . كان لابد لهم أن يحملوا أحداً أوزار فشلهم هذا وقد وجدوا بغيتهم فى المرأة ، فهى كبش الفداء ، المرأة التى تزوجوها وتلك التى لم يستطيعوا أن يتزوجوها .

كان المطر ينهمر فى الخارج دون ما كلل أو ملل . كم انقضى من وقت على هطوله هذا ياترى ؟ لقد اختفت الشمس وراء الغابة وأوشك الليل أن يخيم بينما قطرات المطر تتساقط وتنقر على السقف المصنوع من الجدائل وعلى الطريق فى إصرار وإلحاح .

كانت السماء تمطر والليل ينشر أجنحته مخيماً على الكون ، بينما الزبائن

يتوافدون على القاعة . وبالرغم عن أن عيني « باندا » كانتا تبحثان عن محدثه فلم يعثر عليه لأنه كان قد رحل . إن مصباح الغاز الوحيد فوق المنضدة القائمة في وسط القاعة ، لم يكن يحسن إضاءتها ، ولذا كنت ترى أشباحاً تتراقص في أركانها .

وفكر « باندا » وقال محدثاً نفسه : ليس في مقدوري أن أخرج تحت هذاالوابل من الأمطار ، وليس في امكاني كذلك أن أبقى هنا هكذا لا أفعل شيئاً ، سوف أحتسى بعض الشراب ...

وعاود الشراب ، في بطء ولكن بشراهة . كان في أول الأمريقاوم رغبته فيه ، أما الآن فها هو يشرب بدون ماتحرج . وعندما وصل الى كأسه السابعة كان الشراب قد أثقل عليه ، فخرج إلى الشرفة ، ودار حول الكوخ ، وأفرغ كل مافي جوفه من جعة في ظلمة الليل ، على الحائط المبني من الطوب ، وصدر عنه صوت يشبه الحشرجة . ولكن هذا القيء قد هون عليه وبدأ يعي أنه ثمل ، وأخذ يتلهى بهذا الشعور . قال محدثاً نفسه :

— ومع ذلك فما كنت راغباً في الشراب . تلك هي الحقيقة بل أقسم إنني لم أكن راغباً فيه . لقد حدث هذا رغماً عني ، بسبب هذه الأمطار اللعينة . ووقف « باندا » مستندا إلى الحائط ، وأخذ ينصت إلى ارتطام قطرات المطر وهي تتساقط في ظلمات الليل ، وشعر عند ما أغلق عينيه أنه يتأرجح وكأنه زورق يترنح يميناً ويساراً ...

لم يكن في مقدوره أن يكف عن التفكير في المراقب ومأمور الشرطة والعمال الميكانيكيين وحبات الكاكاو الحمراء المكدسة ، أو في صورة الضابط الأبيض ورجال الحرس الإقليمي ، والرجل الأبيض البدين الذي كان يئن ويضرب الهواء بساقيه متألماً ، أو في خاله الشيخ المتعب . لا لم يكن في مقدوره أن يكف عن التفكير في كل تلك الأشياء . ومع ذلك كان يهيأ إليه أن زمناً طويلا قد جرد كل هؤلاء الأشخاص من كيانهم ، وأنهم سوف يتبخرون جميعاً مستحيلين إلى سحابة من الدخان . صورة واحدة بقيت تلح على مخيلته وتحاصر تفكيره ، صورة واحدة بقيت تهز كيانه وتشعره بالقشعريرة : إنها صورة أمه الراقدة على سرير من الجريد وهي تبكي في أنفاس متقطعة والعبرات تسيل من عينيها شفقة عليه . لاشك في أنها تبكي الآن : لا بد أنها علمت بالأمر ، لقد أخبروها قطعاً ...

شعر فجأة بألم وكأن جرحاً عميقاً ينزف فى قلبه . وتجمعت العبرات تحت جفنيه. ما العمل ؟ ما العمل ؟ ... ليس فى مقدوره أن يترك أمه تتألم على هذا النحو ... لا بد أن يحاول الحصول على عشرة آلاف فرنك فى مكان ما ، فى مدى بضعة أيام ، أو أسبوع ... لا بد من ذلك ... ولكن أين يجد هذا المال ؟ وعض شفتيه بعنف ... أين يجد عشرة آلاف من الفرنكات ؟ ... واستعرض ذهنه فى بضع ثوان أسماء جميع من صادفهم من الرجال فى حياته ، وكل الأماكن التى ذهب إليها وجميع الخزائن والصناديق التى لمحها عندهم . فكر فى الإرسالية الكاثوليكية وفى الخزانة التى لمحها هناك ... كان فى مقدوره أن يهتدى فى الظلام إلى خزانة هؤلاء المبشرين ، القائمة فى ركن حجرة المكتب ، إذا ما نقب عنها وتحسس مكانها ، ولكن وا أسفاه ... إن التسلل إلى حجرة مكتبهم هذه شىء محال ... فلابد أنها محصنة ، نعم شىء محال بسبب حراسهم وكلابهم ، إذ لا يمكن تصور أن يهمل هؤلاء المبشرون أمراً كهذا ... ثم إن حجرة المكتب هذه موجودة فى مسكنهم نفسه ، وهم ينامون فى غرف ملاصقة لها . وأخذ يفكر بعد ذلك فى الخزانة الموجودة فى المكتب الكبير بالإدارة . لكن ما العمل وهناك داوريات رجال الحرس الإقليمى ؟ ... صدمت هذه الفكرة خياله وكان قد اشتط . واليونانيون ؟ ... آه ؟ نعم ، هذه فكرة طيبة . اليونانيون . أحريصون هم الآخرون ؟ محاوله أن يضرب ضربته هذه فى محل أحد اليونانيين. لن يجد أية غضاضة فى ذلك: إن اليونانيين هؤلاء ليسوا إلا قوماً من اللصوص، هل هناك من يجهل هذه الحقيقة ؟ ولكن المهم ألا يمكنهم من القبض عليه ... ولكن أهم حقاً محتاطون بدورهم ؟ لا ، إنهم أغبياء ، غير مثقفين ...وهو يعرف هذه الحقيقة... نعم ليسوا إلا لصوصا ... ويبدو أنهم عاجزون عن الدفاع عن أنفسهم فهم مهملون . سوف يبحث الأمر ... ولن يعجز عن الحصول على بعض البيانات ... دون أن يفصح عن نياته ... وعلى أى حال هل هو على عجلة من أمره حقاً ؟ سوف يبقى بضعة أيام أخرى بطنجة ، عند خاله ، أى غضاضة فى هذا ؟ ... وسوف يعد نفسه بعناية للامر... فى هدوء ، برباطة جأش. نعم ، هذا هوما يتحتم عليه، رباطة الجأش... ولن يستحوذ إلا على عشرة آلاف من الفرنكات ... عشرة آلاف لا أكثر ولا أقل ... لن يجد غضاضة فى ذلك ... ليس اليونانيون إلا قوماً من اللصوص ... والجميع يعرفون هذه الحقيقة ، ويعرفون كذلك أنهم يثرون على حسابنا ...

وتبين فجأة أنه ليس بمعزل تماماً عن الأمطار فقرر العودة إلى الكوخ ...هناك

أصوات نساء تنبعث منه الآن . ولكن تلك الفكرة التي راودته ... يجب أن يمعن النظر فيها.. هوليس على عجلة من أمره . وعلى أي حال سوف يطيل التفكير فيها هذه الليلة ، ويقلب الأمر على وجوهه جميعاً قبل أن يستسلم للنوم ...

ولاحظ أن القاعة ، في تلك اللحظة ، تمتلئ بعدد من النساء يعادل عدد الرجال ... كن مرحات وينشدن الأغاني ويضربن بأيديهن في مصاحبة لحن شيطاني ورأى رجلا يترنح وسط الكوخ المكتظ بالناس ... كان هؤلاء الرجال والنسوة يعرفون بعضهم بعضاً من غير شك ... هناك نوع من عدم الكلفة بينهم ... كانوا يغنون معاً رجالا ونساء ... وإنه لأمر نادر الوقوع ولا سيما في المدن ... أن يغني النساء والرجال معاً ، ويمثل هذا الانسجام . كنت تسمع أصوات الرجال الصادرة من أعماقهم تدوى وترتفع ، وهي تساند أصوات النساء الرقيقة الرفيعة ... كان هذا المشهد من المشاهد المألوفة في أمسيات يوم السبت .

وقالت إحدى النساء في قلق :

— انظروا ... انظروا ... هناك أمور غير عادية تجري في الناحية المقابلة من الطريق ... هل ترون ؟ انظروا ...

— لاتبال ... إنها المرة الثالثة التي يعاودون فيها نفس الشيء ... لا شيء هناك ... لا أهمية لذلك ... إنهم يبحثون عن الدعو «كوميه» هذا الفتى الذي كان يشتغل كعامل ميكانيكي عند « ت ... ... » .

كان في هذا الصوت العميق المفعم بالرجولة ثقة وعدم مبالاة ... وسكتت النساء وأخذن يصغين إلى الحوار ...

وسأل أحدهم :

— أتعني بقولك إن هذا الفتى لم يعد يعمل عند « ت ... »

— لا لم يعد عنده... لقد هرب ، ألم تعلم بالأمر إذن؟ إنك لا تعرف شيئاً أبداً مما يدور من حولك ...

— هل حدث شيء ؟

— لقد اعتدوا على صاحب الورشة وأشبعوه ضربا ... أتعرفه ؟ إنه ذلك

البدين الأصلع ، وهو فى المستشفى الآن فى أسوأ حال ... ويبدو أن هؤلاء العمال قد استحوذوا ، فوق ذلك ، على مبلغ كبير أخذوه من خزينة « ت ... » تحت بصر وسمع السيدة « ت ... » التى أطلقت عليهم النار دون أن تصيب أحداً منهم ، فقد لاذوا جميعا بالهرب . إنهم يبحثون على الأخص عن المدعو « كوميه » إذ كان على رأسهم ...

وغمغم الراقص :

ـــ هيا أيتها النسوة ، هل هذا الأمر يهمكن فعلاً إلى هذا الحد ؟...

واستأنفن إنشادهن ، وأخذن يصحبن غناءهن بضرب الأيدى . واستأنف الراقص هز وسطه . لم يكن يتبع النغم ، الذى كان سريعا ليس فى مقدوره أن يصاحبه . وكنت ترى على ضوء مصباح الغاز العرق وهو يسيل على جذع الرجل الذى يتلوى فى حركات تشنجية ، وهو يزم شفتيه . كان الرجل عارياً حتى وسطه يرتدى سروالا كاكى اللون ، كما كان ينتعل حذاء من قماش كان أبيض اللون فى زمن سحيق .

أما صوت ارتطام حبات المطر على السقف فقد خف . وحدث « باندا » نفسه قائلا :

« سوف أرحل . لا شك أن خالى قد عاد إلى بيته منذ ساعات طويلة ، وهو الذى لا يأبه للمطر ، ولا بد أنه يتساءل عما حدث لى . إلا أن جو هذه القاعة كان يلهب حواسه التى أثارتها جعة الشعير . ولم يرحل « باندا » بالرغم من قراره ... كان لابد له من أن يفكر فى تلك الفكرة التى واتته ... إنها فكرة طيبة ... لا شك فى هذا ... ولا بد من أن يمعن النظر فى الأمر ...

كان رجال الحرس الإقليمى فى الناحية المقابلة من الطريق يفتشون الأكواخ تفتيشاً دقيقاً ، حاملين مصابيح من ذلك النوع الذى يستخدم فى وقت العواصف . وكنت ترى نعالهم الغليظة السوداء التى ينتعلونها عند هطول المطر ، اذ هم يسيرون عادة عراة القدمين ، وكانوا يلفون أربطتهم الخضراء المائلة الى الزرقة حول سيقانهم الهزيلة . كانت تلك هى المرة الثالثة التى يجيئون فيها للتفتيش فى هذه الناحية ، دون أن يتوصلوا الى نتيجة ما ، واننظموا بعد قليل فى صفوف ثم عادوا

أدراجهم إلى طنجة الجنوبية ... وتبعهم « باندا » بنظره فى شرود وهم يبتعدون .

يجب أن يمعن النظر فى تلك الفكرة التى راودته ... هؤلاء اليونانيون قوم من اللصوص ... ولن يجد غضاضة فى ارتكاب مثل هذا العمل. وتزاحمت فى ذاكرته أنواع مختلفة من الذكريات ... دروس الدين .... « إذا ما سرقت من امرأة عجوز فرنكاً لا تملك سواه ... ارتكبت خطيئة كبرى ... خطيئة تؤدى بك الى التهلكة ... أما اذا سرقت مائة ألف فرنك من رجل واسع الثراء ... فلعلك لا ترتكب إلا هفوة ... آه ... مائة ألف فرنك ... أنه لمبلغ له قيمته ... أما هو فلن يأخذ إلا عشرة آلاف... لا شك فى أن هذا الفتى « كوميه » ولد شديد المراس . لو أنه استطاع مقابلته ، فربما أعطاه بعض بيانات تعينه على تحقيق ما يعتزمه ... ربما حضر رجال الحرس الإقليمى لتفتيش بيت خالى . لا لن يجدونى هناك ، ولكنهم سوف يجدون خالى ... ماذا عساهم يفعلون به ؟ ... ربما أساءوا معاملته ... فهم إذا عجزوا عن الاهتداء إلى الجانى صبوا جام غضبهم على أهله وصحبه ... من المؤكد أنهم سيسيئون معاملته . خالى ! كم هو مرهق ! يا ليته يعود إلى بلده ! .

وارتسم فى أطار الباب هيكل امرأة شابة ، وقفز « باندا » من مقعده : لقد انتابته قشعريرة من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، وشعر بالخجل من تلك الأفكار التى راودت مخيلته ... قال الشاب لنفسه وهو يتنفس الصعداء : « لقد ظننتها هى ... كم أنا سخيف ! ليس هناك ما يدعوها إلى المجىء الى هذا المكان... ما الذى يدفعها إلى المجىء إلى المدينة ، ووالدها يرفرف عليها بجناحيه ويحميها كأنها بضاعته الثمينة . لم يكن قد فكر فيها لحظة واحدة طوال النهار ... وتلهى بهذه الملاحظة وتساءل : « لماذا يا ترى لم أفكر فيها ؟ » لعل كل ما صادفه فى هذا اليوم لم يتح له فرصة للتفكير فيها ، وربما كان فكره مشغولا بأمه ، فلم يجد فراغاً للتفكير فى الفتاة .

أما الآن فها هى تملأ فكره ، ودهش إذ تبين أنها توحى إليه بما يشبه الاشمئزاز . كم قال لنفسه « سوف أتزوجها ، سوف تسعد أمى بذلك ! » كان يحلو له أن يفكر فيها ، وأن يتكلم عنها ، وأن يراها . أما اليوم — وقد حدث له ما حدث — فهو متأكد أنه لن يستطيع أن يتزوجها ، وتبين فى الحال أن لديها

كثيراً من النقائض سواء فى شكلها أو فى خلقها ، وها هو مثلا لا يطيق فكرة هذا التبجيل الذى تحيط به أباها الشعوذ . إنه ينفر فى هذه الليلة من طاعتها العمياء لوالديها ومن استهتارها وبشاشتها الدائمة ، أهى دائمة السعادة ؟ ألم تتألم هذه الفتاة أبداً ؟

عجباً !. ها هى الصغيرة قد جلست على نفس الأريكة بجانبه ... ولاحظ أنها تدور بنظرتها القلقة بين أرجاء القاعة كما لو كانت تبحث عن شخص ... وتلاقت نظراتهما فقطبت جبينها ... كانت تشعر بالخجل إذ بدا عليها أنها تبحث عن شخص ... عن رجل .

وسألها « باندا » : أتبحثين عن شخص ما ؟

— نعم ... إنى أبحث عن أخى ... لم يعد إلى المنزل وهو معتاد أن يحتسى الخمر مساء يوم السبت من كل أسبوع ...

كانت خائفة متحفظة وكأنها حيوان فى أشد حالات اليأس ... وفكر « باندا » فى كل الأسئلة التى كان عليه أن يجيب عليها لو أنها كانت الأخرى ، وهى أسئلة سخيفة . كانت ستسأله مثلا « ماذا ستفعل الآن لكى تتزوجنى ؟ لابد أن تحصل بأى ثمن على هذا المبلغ » ، أو أن تسأله « هل يمكنك أن تنتظر حتى السنة القبلة فربما كان حظ محصولك من الكاكاو أفضل ؟ » أو « ماذا يمكننى أن أقول لوالدى إذا أراد أن يزوجنى من غيرك ؟ ها أنت ترى أن والدى قد نفد صبره ... »

واستدار من جديد نحو الفتاة ووجد نفسه يتفحصها . كان يشعر برغبة جامحة فى أن يكلمها ، فى أن يبثها أسراره ، وفهم من تلك الرغبة الملحة فى أن يبث همه للغير أنه ثمل ...

— لست فى حالتك الطبيعية ... ما اسمك ؟

— لقد بحثت فى كل مكان ، والوقت الآن متأخر ، ولم أعد أدرى إلى أين أذهب ؟

— لاتنزعجى هكذا ... إن الرجل لم يكن أبداً كالمرأة أو الطفل لأنه لا يفقد ، إننا نجده دائماً آخر الأمر . وأنا بدورى لابد أنهم يتساءلون عن مكانى الآن ، ومع

ذلك انظرى إلى ، ها أنا على خير ما يرام ، أليس كذلك ؟ لا إن الرجل لا يفقد ، إننا نجده دائماً آخر الأمر ...

— ربما أفرط فى الشراب ولعله عاجز عن العودة بدون مساعدة شخص ما ...

— ربما صادفته بعض المتاعب ليس إلا ، ويخشى أن يبوح لكم بها ...

— إننى أعيش معه بمفردى ...

— حسناً ... ربما كان من عادتك أن تضيق عليه الخناق بأسئلتك ، وربما لم يكن راغباً هذه الليلة فى أن يجيب عن أسئلتك ، فكثيراً ما نتهرب من العودة إلى بيوتنا ، لهذا السبب فقط ، ولست أخفى عنك أن هذا هو موقفى أنا نفسى ...

— هل عندك مضايقات ؟

— أوه ، نعم ...

وتنهد ... وقص عليها مآسيه وكل ما صادفه من صعاب ، وهو يشير إلى عينه المنتفخة وهى الأثر الوحيد الملموس الذى تركته تلك الأحداث ... وكلمها عن فتاته دون حماسة ، ومنعه حياؤه من الاسترسال فى الكلام عن أمه . كانت تبدو عليها أقصى درجات القلق ، ولكن عندما انتهى من سرد ظروفه انفرجت أساريرها بشكل ملحوظ ، لكأنها تشعر الآن بأنها على سجيتها أكثر من ذى قبل ...

— ألا يزالون فى بلدك يدفعون مبلغاً من المال للزواج من امرأة ؟

— أوه ... نعم ... مالا كثيراً ... علينا أن ندفع مالا كثيراً ... وأنا أعرف أناساً يحاولون منذ سنوات أن يدخروا حتى يتمكنوا من الزواج ، وهم يقومون منذ سنين بشتى الأعمال لكى يحصلوا على ما يكفى من هذا المال ... أما أنا فقد كان من حسن حظى أن ترك لى والدى عند موته مزرعة ، أوه ! إنها ليست بالمزرعة الكبيرة ولكن ما جدوى أن يكون للمرء مزرعة ؟ لقد استحوذوا على كل محصولى من الكاكاو وأدموا عينى فوق ذلك . وفى عشيرتك ألا يدفعون مالا ...؟

— لا ... لقد انتهى هذا الآن ... فقد اجتمع كل رجال القبيلة ذات يوم وتناقشوا طويلا فى هذا الأمر ... وكان من بينهم رئيس القبيلة وأحد الكهنة السود من أبناء عشيرتنا ورجل أبيض ، وهو ضابط من ضباط الإدارة ، وقرروا

أن يضعوا حداً لهذا الوضع ، وأن يكفوا عن بيع بناتهن كالماشية . إلا أن هـــذا القرار لم يحسن كثيراً من حالنا ، فها هو أخي سيضطر إلى أن يدفع مالا لأنه يرغب في الزواج من فتاة ليست من عشيرته ، سوف يجبرونه على هذا ، إني متأكدة ..

— لقد اجتمع رجال قبيلتنا بدورهم ولـكنهم لم يجمعوا على قرار إذ لـكل منهم فتيات وهم يريدون أن يبيعوهن في يوم من الأيام . لقـد قالوا للقس ولضابط من ضباط الإدارة ، وهما من البيض ، وكانا يحضران الاجتماع ، إنهم لن يتنازلوا أبداً عن عادة توارثوها عن أجدادهم ، فاجابهم الرجلان الأبيضان بأنهم يخطئون في ظنهم لأن هذا التصرف لم يكن أبداً عادة توارثوها عن أجدادهم ... ولم يلح الرجلان الأبيضان لأن رجال عشيرتنا لا يرتاحون كثيراً إلى النقاش مع الغرباء ، إذ أن الأمر ينتهي عادة على أسوأ وجه ... هل تحتسين قليلا من الجعة ... ؟

— نعم ... إذا ما رغبت في أن تقدم إلى شيئاً منها . .

كانت قد ترددت قليلا ، وهذا بديهي . أما هو فـكان سعيداً اذ بقي ولم يرحل .. أي ضرر في هذا ... ما دام لا يبالي بها ، إن مثل هذا اللقاء شيء مألوف ويمكن أن يصادف المرء الـكثيرات من الفتيات إذا ما أقام قليلا في المدينة .

كانا يشربان وهما جالسان جنباً الى جنب ، شاردي اللب لا يتكلمان ، ويحيط بهما هؤلاء الناس الذين يغنون وهم يضربون بأيديهم ويتندرون بين الأغاني بدعابات إباحية ... وأخرج من جيبه علبة صغيرة بها بعض السجائر ، وكانت اللفافات غير مستقيمة ، اذ بقيت طوال النهار في جيبه وكان قد نسيها .

— هل تدخنين أحياناً ؟

— لا أدخن أبداً ...

— عجباً ، كنت أتصور أن نساء المدن جميعاً يدخن ...

وألقت إليه بنظرة يحجبها الدمع ، وتبين « باندا » شيئاً يلمع في عيني الفتاة وإن لم يدرك في الحال أنها دمعة ، وأخذ يسحب من لفافته أنفاساً شرهة لا تترك له وقتاً يتنفس فيه . كيف نسي أن يدخن طوال اليوم ؟ أيـكون السبب في هذا شـدة انزعاجه ؟

— لست من نساء المدينة . إنك تخطىء فى هذا ...

— عجباً ...

كان الواضح أنها لا ترغب فى الرد على سؤاله ، ولكن كان عليها كأى فتاة أن تذكر اسم قبيلتها ولقب عشيرتها ومسقط رأسها ، وإلا جر سكوتها إلى إساءة الحكم عليها ...

— إنى أسكن مدينة طنجة منذ بضعة أسابيع فقط ، ثلاثة أسابيع بالضبط . لقد ولدت فى «زامكو» وهى تبعد كثيراً ، كثيراً جداً عن طنجة .

وأدرك سر خجلها . حقا أنها لم تصبح بعد من نساء المدينة ، وشعر بأنه يزداد ميلا إليها . كان قد نسى وجودها منذ قليل إذ قد بثها أسراره .. تناسى وجودها ليفكر فى الفكرة التى راودته .. وهى فكرة طيبة من غير شك .. وهو لا يجد أية غضاضة فيها .. أليس اليونانيون قوماً من اللصوص ؟ .. سوف يتوصل إلى بعض البيانات ، نعم سوف يحصل عليها .. ومن حين الى حين كان يشعر بوجودها فيلتهمها بعينيه ويجدها رائعة الجمال ، وإن كان جمالها لم يؤثر فيه .. كان يعرف أنه ، فى لحظات سكره — وكثيراً ما يسكر — يتصور أن جميع النساء جميلات ، لا لسبب إلا لأنه يرغب فيهن .. وتنهدت وتمتمت قائلة :

— وأنا بدورى تصادفنى متاعب ...

— هل تمزحين ؟

— بل عندى متاعب ...

— لا تنزعجى على أخيك ، فالأمر لا يستوجب قلقك ، صدقينى ...

ونظرت إليه فى استغراب ثم تلاشت دهشتها بعد لحظة وقالت :

— عندى متاعب وأنا أقسم لك ...

— متاعب خطيرة ؟

— خطيرة للغاية ... إنها مسألة حياة أو موت ...

— قصى على متاعبك ... سوف أساعدك ... أقسم لك إنى سأساعدك ... إحك لى ، وسوف ترين ، سأساعدك ...

لم يكن كلامه من قبيل التفاخر ، بل كان يعنى ما يقول . إن هذا الإحساس أقوى منه ، لم يكن فى استطاعته أن يرى ألم الغير دون أن يتجاوب مع مشاعره ، كان هذا التجاوب أقوى منه ...

وباحت له بما فى سريرتها وقالت :

— لقد كذبت عليك منذ لحظة ... لم أكن أبحث عن أخى وإنما عن صديقة مسنة لأطلب منها النصح ، وكذلك لكى أطلب منها أن تسهر على كوخنا ، إذا ما تركت فجأة مدينة طنجة ...

— ولماذا تتركينها ؟

— كان أخى يعمل ميكانيكاً عند « ت ... » هذا الرجل الذى علك مصنعاً لقطع الخشب بالقرب من النهر . ونطقت بتلك الكلمات همساً ...

— هل يدعى « كوميه » ؟

— هل تعرف اسمه ؟ قالتها وهى تهب واقفة ...

— لقد سمعتهم يتكلمون عنه منذ قليل ...

وأخذ كل منهما يتفحص الآخر بإمعان ... كان الليل خارج الكوخ قد أرخى سدوله ، وكانت ظلمته كثيفة تحجب الرؤيا ، والمطر يتساقط فى حبات رفيعة تكاد لا ترى . وقال :

— إنهم يبحثون عنه ...

— نعم ...

— أعتقد أنه قد بعد كثيراً الآن عن هذا المكان ...

لم تجبه ... وبقيت منكمشة على الأريكة ، مذعورة ، وقد استبد بها الخوف كانت كالفريسة المطاردة ، واقتربت منه . إن جسديهما يتلاصقان الآن ... كانت ترتدى ثوباً خفيفاً من القطن وكان يشعر ببهاء أنوثتها الذى يفوح خلال هذا الثوب . يا إلهى ! كم أنوثتها ملتهبة ! لقد تراءى لباندا أن يصرخ : كان يشعر بوخز يلهبه فى الجانب الذى يلامسها . لم يبد حراكاً . وعلى أية حال فإن هذه الفتاة ليست إلا ككثيرات غيرها . لا بد أنه ثمل . وألقت عليه نظرة متسائلة ملحة ... واستطاع

فى ضوء الصباح أن يشاهد وجهاً جميلا . كانت تفحصه بعينيها ... وأمسك بيدها . لم يكن هذا من عادته ولكنه أمسك بيدها دون أن يدرى سبباً لذلك ...

— ما اسمك ... ؟

— « باندا » ... وأنت ؟

— « أوديليا » ...

— إن هذا لغريب حقاً ... كانت أختى الصغرى تحمل هذا الاسم بالذات . كانت جميلة ... مثلك ...

— هل ماتت ... ؟

— نعم ... لقد ماتت وهى فى عنفوان الصبا . كانت فتاة يانعة ... لقد دهمها الموت ذات يوم دون ما مقدمات ، ولم يكن مرضها الا شيئاً بسيطاً .

— هل كنت تحبها كثيراً ؟

— كنت أحبها كل الحب ... لا يمكنك أن تتصورى كم افتقدتها بعد وفاتها ...

سوف يعترف لها فيما بعد بأنه لم يرغب فى أن يكذب عليها ، وأنه لا يعرف سبباً لاختلاقه هذه القصة التى لم يكن لها أى أساس من الصحة ... لم يكن يعرف لذلك الا سبباً واحداً : لطالما تمنى أن تكون له أخت صغيرة ، وكان يتصور أحياناً أن له أختاً فعلا ... وأنها ماتت فى صباها . . لم يكن فى مقدوره أن يعرف مصدر هذا الإحساس ، إلا أنه كثيراً ما شعر به . تلك هى الحقيقة المجردة ... والشىء العجيب هو أنه كان يطلق دائماً ذلك الاسم على أخته الخيالية . . هذه هى الحقيقة كاملة ...

كان يضغط على يدها برفق ... كان يشتهيها . . إن هذه الفتاة ليست على الأقل كالأخريات ، فلم يعرفها كثيرون ولم تلمسها أياد متعددة ، لم تكن قد عصرت كالليمونة أو قد لوثتها صداقات السكارى . كان يشعر بأنها فى ذروة نضارتها ، وفى عنفوان شبابها . وفى هذه الأثناء نسى الفكرة التى راودت ذهنه ، تلك الفكرة المدهشة العجيبة كما نسى اليونانيين . .

— أين ولدت ؟

— ولدت في « باميليا » وهي لاتبعد عن هنا كثيراً . إنها على بعد عشرة كيلو مترات على طريق الجنوب . . .

— نعم أعرف ذلك . .

— يمكنك أن تكلميني دون أن تخشى شيئاً . ..

— انك ثمل . . .

— لقد شربت قليلا، أنا أعترف بذلك ولكني لست ثملا. إنني متأكد من ذلك.

وسكتا لحظة ...

— هل يمكنك أن تساعدني . . . ؟

— بدون شك يا أختي الصغيرة . . بدون شك .. بوحي لي بكل شيء.. لا تخشى شيئاً . . . هل يبدو على أنني خائن ؟ أمعني النظر في . . هل يبدو على أنني خائن؟ . . . هل يمكن أن يكون الإنسان شريراً معك يا أوديليا ؟ . . أجيبيني ... هل هناك اذن شيء ملح الى هذا الحد ؟ شيء على هذا الجانب من الخطورة ؟

سوف يساعدها مهما كان الأمر.. سوف يساعدها وكأنه يؤدي هذه الخدمة لأخته الصغيرة المتوفاة ، ثم إنه لم يكن من شيمه أبداً أن يضاجع العذارى ... كانت الفتاة الأخرى بدورها في عنفوان الشباب.. ولكن هدفها كان الزواج ، أما عن الزواج فهذا موضوع آخر ...

وضعت فمها على طرف أذنه وقالت :

— سوف أخبرك بمكان أخي ... إنه يختبئ في الغابة . . في غابة صغيرة لا تبتعد كثيراً عن الكوخ الذي نسكنه . . إنه يشعر بالخوف . . لربما قبضوا عليه من لحظة إلى أخرى . . فهم يجدون في البحث عنه . . كان قد عاد إلى البيت ليطلب مني الرحيل ... ولكنه وقع في الفخ . . هناك رجال يسدون عليه الطريق في كل مكان . . يسدون عليه أضيق المنافذ ، والرجل الأبيض نزيل المستشفى الآن ويقال إنه أصيب في جمجمته ... وربما لقي حتفه ... ؟

لقد أفرغت كل هذه الجمل في نفس واحد ثم سكتت وتنهدت . . كانت تثير

الشفقة . لابد أنها تحب أخاها حباً جماً .. إن ما كان ينقص « باندا » هو أخت صغيرة محبة كهذه الفتاة الفعم قلبها بحبها لأخيها . . وذابت نفسه حسرة . . وهمس « باندا » في انزعاج :

— يجب ألا يقبضوا عليه ، إنهم يقتلونه في الحال ..

— سوف يقتلونه أينما وجدوه .. لاشك في ذلك ..

— يجب ألا يكتشفوا مكانه ..

— أؤكد لك أنهم سيقتلونه أينما وجدوه ، لا شك في ذلك ..

— لا شك في ذلك ، أينما وجدوه سيقبضون عليه ..

كان يضغط يدها من شدة انفعاله ، ولكنها لم تفطن إلى أن مبعث هذا هو انفعاله ، واعتراها الخوف فجأة ، واحتجت بتملصها من ضغط يده وقالت في أنين وكأن في حلقها غصة :

— كف عن هذا ، لم أطلب منك مساعدتي إلا من أجل أخي إذ ربما قتلوه لو اكتشفوا مكانه ..

— ومن قال لك أنه عاجز عن اجتياز السدود التي يقيمونها من حوله ؟

— أتعتقد أن ذلك في استطاعته ؟

— بلا شك .. عن طريق الغابة .. هناك طرق غير مطروقة ، كما أن هناك طرقاً مقتصرة .. إني أعرف هذه المنطقة كما أعرف جيبي .. لقد كنت أتردد على المدرسة التي ترينها في أعلى الغابة .. هل تعرفينها ؟ أما رجال الشرطة فليسوا إلا غرباء عن البلد وليس في مقدورهم أن يقيموا سدوداً في الغابة ، وإنما هم يضعونها على الطرق والممرات التي يكثر المرور فيها ، تلك الطرق التي يعرفونها .. إنهم يخشون الغابة كما تخافين أنت من البحر .. لا توجد غابات في بلدهم ، وليس هناك أي أمل في الهروب من الطرق أو الممرات المعروفة ولكن الهروب من الغابة يكاد يكون شيئاً مأموناً .. وأنا أعرف كل ممراتها الخفية ..

وقالت بلهجة متوسلة مفعمة بحماسة لا يمكن مقاومتها :

— « باندا » ، ساعد أخي ، ساعده ، إنه في مثل سنك تقريباً ، يكاد أن

يكون أخا لك . لم يكن يعرف أحداً تقريباً ، لم يكن له أصدقاء إلا فى الورشة . أنه فتى غريب الأطوار ، دائم الانطواء والانفراد بنفسه ، أتوسل إليك أن تساعده . ألا تريد أن تكون أخا لى أنت أيضاً ؟

كانت هى التى تضغط يده الآن ، وانفجر فى ضحكة صغيرة مصحوبة بحشرجة فى حلقه وتخرج من بين أسنانه بصفير . قال فى لهجة خبيثة :

— لا ، أفضل أن أكون شيئاً آخر بالنسبة اليك ..

ولكن الأسى ارتسم على محياه فجأة ، وقال :

— ولكنى سوف أساعد أخاك ، سترين أنى سوف أساعده ، لقد قبضوا على ، بل وأصابوا عينى ، وأنا أقسم لك أنهم لن يقبضوا عليه ، لن يقبضوا عليه هو على الأقل ..

الفصل السابع

كان الظلام دامساً ، وكان يسمع تساقط قطرات المطر الرفيعة على الأرض المبللة ، وكان « باندا » يغوص من حين إلى آخر فى مستنقع يتطاير ماؤه فيصل إلى ركبتيه ، ثم يسيل من جديد بارداً على ساقيه ، ويتسلل إلى نعليه المصنوعين من التيل ، وكان يصدر عن هذين النعلين فى كل خطوة يخطوها صوت مكتوم غليظ ، وكأنه غطيط قصير . وتساءل عن جدوى الحذاء الآن . كان قد لبسه إذ تصور أن اليوم يوم عيد بالنسبة اليه ، بينما لم يسفر إلا عن حدث تعس وانتهى بمغامرة خطرة ، وكان قد غسل نعليه منذ بضعة أيام ودهنهما باللون الأبيض بعناية ، كما كوى سرواله القصير الكاكى اللون وقميصه الأزرق اللذين يرتديهما الآن ... ثم كان فى هذا اليوم يصفر ويغنى ويضحك ...

وتوقف عن السير ، وانحنى وخلع نعليه المصنوعين من القماش دون أن يفك رباطهما . خلعهما الواحد تلو الآخر ، فى حركة عصبية غاضبة . وشعر براحة عندما وجد قدميه طليقتين ، وأخذ يسير مسرعاً بخطوات ثابتة ، وكان يجد صعوبة كبيرة فى تتبع الفتاة التى لم يكن يراها فى الظلام ...

وغمغمت :

— لقد أحسنت صنعاً ...

— فيم أحسنت صنعاً ... ؟

— فى أنك خلعت نعليك ...

— ولماذا لم تنصحينى بخلعهما ؟

— كنت أنتظر حتى تفكر بنفسك فى هذا الأمر ...

يالها من فتاة غريبة الأطوار ! حقاً إن ما كان يفتقر إليه هو أخت محبة على شاكلة هذه الفتاة لتسلى وحدته . لاشك فى أن هذا ما كان ينقصه : أخت صغيرة كهذه متفانية ومحبة ...

كانا يعبران أحياء مختلفة ، وهما يتسللان بين الأكواخ ويتجنبان لقاء الناس خشية أن يوجهوا إليهما بعض الأسئلة ... وحدث « باندا » نفسه قائلا : سوف أذهب إلى « فورنجر » وأستقر فيها ، ولن أعود إلى طنجة أتمرغ فى أوحالها ، هذا أمر مفروغ منه . كان يشعر بالاشمئزاز مما يراه فى مدينة طنجة الشمالية هذه من قبح وشقاء ، بأكواخها المشوهة القبيحة ، الرديئة البناء التى يمكن أن ترى مابداخلها من خلال ثقوب تملأ جوانبها . كنت ترى أحياناً رجلا وامرأة يتشاجران ويتضاربان وحيناً آخر طفلا يؤدبونه أو رضيعاً يعملون له حقنة شراجية ، أو حاكياً يديرونه فى صوت صاخب ، وكنت تبصر فى أكواخ أخرى أناساً يحتسون الخمر يضيق بهم المكان حتى إنك لتتساءل كيف لايطير الكوخ بهم من دوى ماعلاه من أصوات صاخبة ... كان الفتى والفتاة يتجنبان الشوارع خشية أن يتعقبهم أحد من الخلف .

وقالت له وهى تعبر الطريق :

— من هنا ...

كان معجباً بدقة وشجاعة هذه الصغيرة ... كيف كانت تتصرف الأخرى ياترى لو أنها كانت فى مثل هذه المواقف ؟ إن « اوديليا » تثير شفقته لأنها وحيدة بين كل هؤلاء الناس الذين لايبالون بها ، كل هذه النفوس القاسية ، كل هذه الأخطار والفخاخ التى تحوط بها ، وهى بمفردها بعيدة عن ذويها . وتبين فجأة أن ما كان لايعجبه فى الأخرى هو استسلامها الأعمى لأبيها — هذا الدجال — ولأمها وهما يربضان فوقها بأجنحتهما وكأنها بيضة أو فروج . كان يشعر أنه أقرب إلى «إوديليا» فهما فى محنة واحدة ، فقد كانت فى تلك اللحظة وحيدة ، وحيدة مثله تماماً ، وراوده خاطر : هاهو فى طريقه لمقابلة « كوميه » . ربما استطاع أن يطلب منه بيانات عما ينتويه ، عن الفكرة التى داعبت خياله ... فكرة السطو على أحد اليونانيين ، لينتزع منه عشرة آلاف من الفرنكات لا أكثر ولا أقل ... لن يجد غضاضة فى ذلك ... ولكن متى يضرب ضربته ؟ كان قد وعد بمساعدة « كوميه » وسوف يخبئه فى « باميلا » . لاشك فى هذا . وأسفاه ! . لن يتمكن من أن يضرب ضربته الآن ... ولكن لم لا ؟ سوف يقدم عليها بعد أسابيع ، بعد شهور ... آه نعم هذا ما سيفعله ، سوف يضع « كوميه » فى مأمن من الخطر ثم يطلب منه ذات يوم أن

يعطيه هذه البيانات على سبيل الدعابة . ربما انفجر « كوميه » ضاحكاً وهو يقول : « أوه ... يونانى ؟ ليس هناك ماهو أسهل من ذلك » . نعم ... هذا ما سيقوله ... سوف ينتظر حتى يصبحا فى مأمن ، فى « باميلا » ، لكى يطلب منه تلك البيانات وكأن الأمر مجرد دعابة ...

كان فى هذه الأثناء قد نسى أمه ... إن الهواء الطلق والطقس المنعش قد أعادا اليه جرأته وإقدامه . لم يكن تأثير الجعة المصنوعة من الشعير قد تلاشى بعد ، لاسيما من عينيه ، ولكن هذا الإحساس لم يضايقه ، بل كان يساعده على تغيير معالم الحقيقة الواقعة بالقدر الذى يحجب عنه مدى شقائه . إن الحياة شيء عجيب حقاً ...

ولم تسنح له الفرصة فى أن يتابع مجرى أفكاره . هاهما يدخلان — دون أن يصدر منهما أى صوت — كوخاً منخفضاً ضيقاً . وأشعل « باندا » عوداً من الثقاب إلا أن أوديليا سرعان ما نفخت فيه فأطفأته ...

وقالت معاتبة :

— من حسن حظنا أن الليلة حالكة السواد . أرجوك ألا تمكنهم من الاهتداء إلينا ...

ثم لمست ذراعه وأردفت :

— ابق هنا . . . سوف أذهب لآتى به ، والأفضل ألا تشعل أعواد الثقاب مرة أخرى . . .

بقى « با ندا » وحيداً وأخذ يتفرس فى غياهب الليل ... لم ير إلا الظلمات ، أسطحاً ، كتلا مظلمة قاتمة ، أمواجاً ودوامات كثيفة أو إسفنجية الشكل. لم يكن فى مقدوره أن يرى رجلا على أبعد من متر ، وأخذ يتساءل : ماذا سنفعل اليوم فى الغابة ؟ هل نعد شعلة أو جمرة أو أى شيء يساعدنا على الرؤيا ؟ لا ، من الأفضل الا نحضر شيئاً البتة ... إن الشعلة أو الجمرة ... كل هذه الأشياء يمكن أن تلفت النظر بسهولة ... كان معتاداً الغابة إلى الحد الذى يسمح له بأن يتوغل فيها دون ماحاجة إلى أى ضوء ينير له الطريق ... واتجه تفكيره فجأة إلى رجال الحرس

الإقليمي... ربما كانوا ينكمشون ويختبئون حول الكوخ؟ ربما كانوا ينتظرون مقدم « كوميه » ليشنوا هجومهم . ماذا عساه أن يفعل إذا ماجاءوا ؟ ودون ما تفكير أو تردد عرف ما سيفعله ... سيقاومهم كالوحش المفترس... لقد بدا له أن ليس فى إمكانه مع أناس كهؤلاء إلا أن يقاوم ، أن يلقى بقبضيته فى وجوههم وأن يتلقى قبضاتهم على وجهه ، أن يضرب ويهجم ... سوف يشق له طريقاً بقوة قبضتيه ثم يهرب فى الغابة . وهو بدوره ، اذا ما قبضوا عليه ، فلن يجاملوه ولن يقدموا إليه الهدايا . وأخذت الصور تتراقص فى رأسه ... أوه ! .. رجل يونانى ... هل هناك ماهو أسهل من سرقة رجل يونانى ؟... نعم هذا ما سيقوله له « كوميه » غداً أو فى يوم من الأيام فى « باميلا » . سوف يقوله ضاحكاً ، وسوف يضحك بدوره ليجاريه ، لكى لا يشعر بأنه وجه هذا السؤال للحصول على هذه البيانات لنفسه ... سوف يضحك كلاهما ملء شدقيه ... أما « أوديليا » فسوف تبتسم وتنظر إليها بإعجاب ... وسوف يقص عليها قصة هذا الرجل الذى كان يدير حانوت تاجر يونانى... كان قد دون حساباته فى دفتر واحد أحرقه فيما بعد ، وقد أتاح له ذلك أن يسرق اليونانى كما يحلو له .

ولما مثل الاثنان أمام المحكمة — وهى محكمة للبيض — قال بعض الفرنسيين للرجل اليونانى بالحرف الواحد: إنك لتسيء حقاً الى الجنس الأبيض كله. آه، يالك من مغفل !.. كيف أمكنك أن تتيح لرجل من الوطنيين أن يهزأ بك هكذا ؟ ... والحقيقة أن الرجل اليونانى لم يكن فى مقدوره أن يراجع حساباته بعد أن حرق السجل الحاوى لها ...وسوف يضحكون جميعاً من هذه القصه ... إن هذه القصة قصة حقيقية سوف يقصها لكى لا يتخلف عن « كوميه » اذا ماسخر بدوره من اليونانيين... من يجهل هذه القصة ؟

وفى خفة القط دلف ظل الى الكوخ دون أن يصدر عنه أى صوت ... إنها الصغيرة ... ثم تبعها ظل آخر ... دلف فى هدوء بدوره ، وبدا لباندا أن الرجل طويل القامة ، ووقف فى مواجهته ... وقاس كل منهما زميله فى الليل دون أن يرى أحدهما الآخر بوضوح. وسأل « باندا » نفسه : من أى نوع من الرجال هو « كوميه » هذا ، هذا الولد الشديد المراس ؟ وهنا هبت ريح نفذت من خلال الباب الصغير حاملة بين طياتها هواء منعشاً أخاذاً ...

قال « باندا » فى قلق :

— يجب أن نسرع إذ يمكن أن يحضروا من لحظة إلى أخرى ...

وسأل « كوميه »

— من ؟

— من ؟ ألا تعرفهم ؟ رجال الحرس الإقليمى ، ألم يخبروك ؟ ... إن شغلهم الشاغل الآن هو تفتيش جميع أحياء الوطنيين السود ... إنهم يفتشون أى كوخ يشتبهون فيه ويرحلون، ثم يعودون بعد فترة ويفتشون كوخاً آخر ... لماذا لم تخبريه بذلك يا «أوديليا » ؟

— لم يكن فى مقدورى أن أتصل به إلا لماماً ... ثم لماذا أخبره ؟ لربما شعر بالخوف ...

وسأل « كوميه » :

— وهل يصحبهم رجال من البيض ؟

— لا ...

— إذن ليس هناك ماتخشاه ، فالسود يفتشون تفتيشاً شكلياً ، لمجرد القيام بإجراء شكلى . إن مايضايقنى هو احتمال أن يكون هناك رجال بيض عند المتاريس . أما إذا لم يكن هناك إلا سود ...

وسأل « باندا » فى قلق :

— أمزح ؟ هل تقول «إن لم يكن هناك إلا سود»... أما الشباب منهم ، فلا أعرف ، لربما كانوا على شىء من اللطف من حين إلى حين ، لقد سمحوا لك بالهروب بعد ظهر اليوم . أما مع المسنين منهم فالأمر يختلف ، فهم يتوقون إلى الترقى ، ولما كانوا من الأميين فإن جل اعتمادهم على الطاعة العمياء ...

— هل كنت هناك بعد ظهر اليوم ؟

— نعم وقد رأيتهم . كنتم جميعاً فى غاية الشجاعة . لولم يكن هناك إلا أناس مثلكم لما بقى اليوم إلا قلة ممن على شاكلة « ت ... » .

— ماذا سنفعل الآن ؟ يجب أن نسرع ...

كانت أسنان « كوميه » تصطك وكان يرتجف . كان هذا يتضح من تنفسه

المتقطع . هل يشعر بالخوف أم هو قد بقى وقتاً طويلا تحت المطر فى البرد ؟ واعتقد « باندا » أن رجفته هذه إنما ترجع إلى العاملين معاً ...

وسأل الشاب :

— هل أنت خائف ... ؟

وقد أزعج هذا السؤال « كوميه » وضايقه . هاهو يجز على أسنانه . هل يشعر بالخوف ؟ لماذ يوجه إليه مثل هـذا السؤال وما جدوى أن يشعر أو لا يشعر بالخو ف ؟ هل كان أى شخص آخر فى مكانه لا يشعر بالخوف ؟ هناك رجل أبيض على فراش الموت ، وهم يتهمونه هو « كوميه » بالتسبب فى هذا . إذن ألم يكن أى شخص فى مكانه ليشعر بالخوف ؟ كان على وشك أن يسأله إن لم يكن فى هذا ما يكفى ليشعره بالخوف ؟ أن تكون متهماً بقتل رجل أبيض ...

كان « باندا » يصغى إلى أخ « أوديليا » فى إنتباه ، إذ كانت نبرات صوته تعجبه وكذا شخصه . وتساءل عن سبب هذا الاعجاب .. ربما كان السبب أنه شقيق « أوديليا » ، إنه هذا الفتى الذى منحته الأقدار تلك الأخت الصغيرة بينما لم يكن أمامه إلا أن يحلم بها .

ولعل السبب أيضاً هو أنه تمنى دائما أن يقابل مثل هذا النوع من الفتيان ، من الرجال شديدى الراس على حد قوله . لا شك أنه كان سيصبح رجلا شديد الراس بدوره لولم تكن أمه موجودة ولعل السبب فى ذلك أنه يذكره بصديق ، هوزميل قديم له فى الدراسة ، كان يتردد معه على المدرسة القائمة على التل .

كان مايشعر به من تقارب بينه وبين « أو ديليا » يلقى ظلاله ببطء على أخ الفتاة . وقال « باندا » وهو يضع يده على كتف الفتى :

— لا تفقد أعصابك .. فأنا لا أطلب منك إلا أن تثق فى ..

وشعر به وهو يقفز عند لمس يده كما شعر بجسده وهو يتقلص ويتقهقر قليلا . هل فى نيته أن يضربه ؟ وأغلق عينيه وانكمش متوقعاً أن تصيبه الضربة فى مكان ما فى وجهه ، إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث .. كان « كوميه » يتخلص من لمساته ولاشىء أكثر من ذلك .

وأردف «باندا » بما ينم عن اطمئنانه وإن كان قد بدا فى صوته ما يدل على الانفعال :

— لاتخش شيئاً ياصديقى ، لاتخش شيئا . إن كان هناك رجل يريد أن يسلمك لرجال الحرس الإقليمى ، فلست أنا هذا الرجل . أوءكد لك أننى لست هذا الرجل ، بل لا يمكن أن أكونه . . لقد قبضوا على هذا الصباح بعد أن استحوذوا على محصولى من الكاكاو ، وكادوا يلقون بى فى السجن . ولا أخفى عليك أنهم قد أشبعونى ضرباً ، بل وأنهم أصابوا عينى بكدمات ..

وسكت لحظة . . كانت أنفاسه تتلاحق . . ثم أردف :

— وعلى أى حال ، ففى بلدى ، ولا سيما فى « باميلا » ، لا يخلو الناس من كافة العيوب ولكنهم لا يسلمون أحداً أبداً لرجال الشرطة ...

وهدأت أعصاب الفتى فى هذه الأثناء . من ذا الذى لم يسمع عن « باميلا » ؟ إنها قرية يتسم أهلها بالشراسة فى بلد اشتهر بالحمية كما اشتهر أهله بارتكابهم عدة اغتيالات وقعت على حفظة الأمن على اختلاف أنواعهم ، سواء كانوا من رجال الحرس الإقليمى أو من رجال الحرس الوطنى .

وأجابه مبرراً شعوره :

— ليس فى مقدورى أن أتركهم يقبضون على فإنهم يقتلوننى فى الحال .

وأضاف بعد قليل وكأنه وجد أن عذره غير كاف ..

— إنى الولد الوحيد لوالدى ..

وقال « باندا » :

— إنى أفهم حقيقة شعورك . لاشك فى أنهم لايقيمون متاريسهم إلا على الطرق والممرات المطروقة ، وأنا أدرى بحقيقة ما يحدث ، إذ ليست هذه هى المرة الأولى .. أما الغابة فهى خالية منهم .. سوف أقودك إلى قريتى ، وهى تقع على بعد ستة كيلو مترات من هنا .. على طريق الجنوب . سوف أخبئك ريثما نهتدى إلى المكان الذى يحلو لك أن تذهب اليه . ولكن — ياإلهى ! علينا أن نسرع إذ يحتمل أن يأتوا من لحظة إلى أخرى ..

— وهل سنضطر إلى عبور النهر ؟

— لامفر من ذلك ...

— فى زورق ؟

— وهل تشعر بالرغبة فى عبوره من فوق الجسر ؟

— ألا تخاف ... ؟

— ومم أخاف ؟

— من الزورق فى هذا الفيضان ؟...

— إنى معتاد هذا الأمر ...

— وهل عبرته كثيراً ...؟

— نعم ...

— فى زورق ؟

— بل لقد عبرته سباحة . ألم تعبره سباحة ؟

— لا أبداً ... وكم من المرات عبرته فيها ؟

— لا يمكننى أن أحصيها ...

— وكم من مرة عبرته سباحة ؟

— لم أعد أذكر ...

— هل فقدت صوابك ؟

— لا لم أفقده ...ألا تعرف السباحة إذن ؟

— ليس الذنب ذنبي .. فليست هناك أنهار بالقرب من بلدى .. وهل تصطحب معك أختى أيضاً ...؟

— وأين تريد منى أن أتركها ...؟

وقال « باندا » محدثاً نفسه : ياله من فتى غريب الأطوار ! لم لم يتعلم السباحة منذ جاء إلى طنجة ؟ صحيح أن المرء لايتعلم السباحة وحده .. وهنا سمع « أوديليا » وهى فى حالة تشنج ...

وسأل « باندا » فى قلق :

— ماذا دهاها ؟ . كان الأجدر بنا أن نكون قد رحلنا الآن .. ولكن لماذا تبكين الآن ؟ ...

وشرح له « كوميه » سبب بكائها : إنه ألمها الشديد لاضطرارها إلى ترك أدوات المطبخ وعدة آلات أخرى من هذا القبيل .. وقال :

— وعلى أى حال فليس فى استطاعتها أن تبقى هنا ولا أن تحمل كل هذه الأشياء .. فمن ناحية سوف يعذبونها عند استجوابها ثم إن الحمل من ناحية أخرى يعوق سيرنا إذا ما طاردونا ..

وأجاب « باندا » مؤمناً على كلامه :

— أنت على حق ..

واستدار نحوها وقال :

— أصغى إلى يا أختى الصغيرة . لا تنزعجى لهذا .. سوف نعود يوماً لحمل كل تلك الأشياء ، أنا وأنت ، إننى أعدك بهذا .. لاتحملى إلا ثيابك .. فسوف نعود لحمل بقية الأشياء فى يوم من الأيام . لا أطلب منك إلا أن تثقى فى ..

كم كان يحاوله أن يعيد هذه العبارة لمن يعرفونه : « ثقوا بى » ! كم كان يحب أن يثق به الناس ! . كان يبدو له عندئذ أن قامته ترتفع حتى تصبح فى مثل طول هذه النخلة التى يراها هناك والتى كانت الظلمات تطمس معالمها . كان فى استطاعته فى مثل هذه اللحظات أن يقدم على أى شىء لكى يكون أهلا لهذه الثقة . كان قد لاحظ أن الناس فى المدن يبدون اهتماماً كبيراً بالمال ، بالثروة ، أو بمن يملكون مالا أو ثروة .. وكانت هذه الحال تثيره .. هل المال هو كل شىء ؟ لم يكن يملك مالا ، وإن كان يسعده أن يحصل على بعض منه . إلا أن المال على أى حال ليس كل شيء . . وبهذه المناسبة ، هل سيعطيه هذا الفتى ما يطلبه من بيانات ؟ . ها هو يجهل السباحة . كيف يمكن أن يجهل أحد السباحة ؟ . إن رجلا على شاكلته كان يجدر به أن يعرف السباحة . وليس الأمر عسيراً على أى حال .. لم تكن هذه غلطته ، هذا صحيح .. فليس فى بلده أنهار .. ياله من فتى غريب الأطوار ! . ولكنه ظريف ، ظريف للغاية ، وأخته .. كم هو سعيد الحظ ! لم يكن الليل ، تحت الأشجار العالية ،

حالكا إلى الحد الذى خشيه « باندا » .. كانت كثافته قد قلت كثيراً فلم يعد ضوء القمر بعيداً .. لقد سلكوا ممراً يصعب أن يتبعوهم فيه .. فهو يكاد يكون غير مطروق .. ولاشك فى أن الذين شعروا بوجوده هم وحدهم المعتادون عليه .. كانت النباتات « الشيطانية » تكاد تسده تماماً .. وتقدم ثلاثتهم ببطء ، وهم يتحسسون طريقهم دون أن يصدر عنهم أى صوت ...

كان « باندا » يسير فى المقدمة — مرشداً صديقيه — والفتاة تتبعه عن قرب وفى أثرها « كوميه » الذى كان يتلفت فى كل لحظة ، وكان من الممكن أن يكون شخصاً ما ، وخاصة رجل من رجال الحرس الاقليمى ، قد تبعهم دون أن يسمعوا وطء قدميه. كان لزاماً عليهم أن يبعدوا بأيديهم الأغصان التى تسد الطريق وتلفح وجوههم باستمرار كالسياط . وعمدوا إلى الصمت . ولما لم يكن فى استطاعة أحد منهم أن يرى الآخر فقد أخذوا يتلامسون كثيراً .. لابد أن الأمطار قد كفت عن الهطول الآن . ولكن هاهى قطرات تتساقط من الأشجار باستمرار وكأن السماء تمطر . كانت تهب أحياناً ريح عاتية تهز رؤوس الأشجار العالية فيسمعون عند ئذ قطرات الماء وهى تقرقع كسيل مفاجىء من السباب . وبالرغم من أن كلا منهم كان معتاداً الغابة ، وحياتها الصاخبة اللائى بالألغاز وظلماتها ، فإنهم كانوا يتوقفون كثيراً ليتحققوا من أنها خالية من الدخلاء . لقد تبللت ثيابهم ، فالماء يتساقط قطرة قطرة على خدودهم وأعناقهم ، ويتسرب إلى ظهورهم . إنهم يصغون إلى وقع أقدامهم وإن لم يكن صوت أقدامهم العارية على الطريق مسموعاً إذ يغطيه صوت قطرات الماء على أوراق الأشجار وحفيف الأوراق المتساقطة الجافة بالرغم من الأمطار التى تغطى أرض الغـــابة ..

قال « باندا » فى لهجة التأكيد :

— لقد بعدنا الآن كثيراً عن المدينة . يمكنكما أن تتكلما إن كانت لديكما الرغبة فى الكلام .. لن يتمكنوا من الوصول إلى هنا ليبحثوا عنا ..

كان « كوميه » لا يرتاح كثيراً إلى طريقة مرشده فى إظهار عواطفه .. ماحقيقة هذا الفتى بالضبط؟ .. ألم يفرط فى الشراب منذ قليل ؟ ولكن هل الظروف التى مرت بهم قد أفاقته من سكره .. ؟

وسأل « باندا » :

— ماذا حدث بالضبط ؟

وأعاد سؤاله :

— حسناً .. ماذا حدث بالضبط ؟ . إنى اسألك الحقيقة « يا كوميه » . لابد أن « كوميه » سيقول أو يفعل شيئاً لكى يسكته .. وأخذ « باندا » يتساءل عما يمكن أن يفعله .. سوف يقول له : « ألا يمكنك أن تغلق فمك الكبير القذر ؟ » نعم سوف يقول له هذا ، إلا أن « كوميه » تبين فجأة أنهم يسيرون فى حذاء النهر .. وأخذ ينظر إليه وهو ينساب ببطء كحية ضخمة سوداء فى سكينة الليل .. أخذ ينظر إلى هذا الجسد اللامع المهيب المخيف .. إنه على حق .. لقد بعدوا كثيراً عن المدينة ويمكنه أن يتكلم .. وتنهد وقال :

— لك أن تحكم على الأمر بنفسك .. إن هذا الخنزير قد رفض أن يدفع لنا أجرنا .. وإنى لأتساءل عما يتصوره .. لعله يتصور أننا نعيش فى جوفه وأن ما عليه إلا أن يأكل فتمتلئ بطوننا نحن بالطعام . يا للقذر ! لم يدفع لنا أجرنا فى الشهر الماضى ، وها نحن اليوم فى الثالث عشر منه ، أليس كذلك ؟ تصور أنه فى كل مرة نطالبه فيها كان يجد وسيلة للتهرب منا ؟ .. بالأمس إذن .. وكان الكيل قد طفح ، توجهنا إلى مأمور الشرطة وشرحنا له الأمر فوعدنا بأن يحدثه فيه .. ولكن ماذا عساهما أن يقولا أحدهما للآخر ، هذان الاثنان ؟ إنى أسألك .. إنهما متحدان كالظفر والأصبع .. بل ويبدو أنهما يتبادلان النساء فيما بينهما .. وليس هذا بعجيب . ولعلهما قد شربا فى هذا الصباح كؤوساً من الويسكى بدلا من أن يتحدثا فى شأننا .. كان ثائراً عند عودته من عند المأمور ثم جمعنا اليونانى وقال إنه صاحب العمل وأننا لسنا إلا عمالا ، وأن له أن يأمر وما علينا إلا أن نطيع لا أكثر ولا أقل ، وأننا جانبنا الحكمة عندما شكوناه للسلطات ..

وقال كذلك إن السلطات لا يمكنها أن تضطره إلى عمل شيء أو أن تفرض عليه شيئاً ، وأننا بفعلتنا هذه قد تصرفنا بوقاحة ، وأنه قد قرر تأجيل هذا الدفع بضعة أيام أخرى حتى يعلمنا كيف نلزم حدودنا . هذا ما قاله .. ولكننا كنا قد

قررنا بدورنا ألا نسمح له هذه المرة أن يتعدى حدوده . وعندما خرجنا من الورشة ساعة الظهيرة ، كنا قد قد رسمنا خططنا ، وهى أن نجبره على أن يصحبنا إلى مأمور الشرطة حيث يضطر إلى أن يدفع لنا أجورنا .. كنا نعرف أننا بتصرفنا هذا سوف نقصم كل ما يربطنا به ، وأننا لن نعمل عنده بعد ذلك . ولما اكتشف بعد ظهر اليوم ما انتويناه ، أخذ يصارعنا كالشيطان ولكننا حملناه على أكتافنا . وإنى لأتساءل إن كانت زوجته هى التى أبلغت الشرطة . لم أكن أتصور أنها — وهى بهذا الغباء — قادرة على التصرف بهذه السرعة .. فلقد كانت فى تلك الأثناء فى الطابق الذى يعلو الورشة تغط فى نومها من غير شك ، وفى اعتقادى أنها شعرت بالخوف عندما سمعت هذه الضوضاء ، ولا بد من أنها أرسلت خادمها الصغير ليخطر رجال الشرطة ، فجاءوا لملاقاتنا فى صحبة ضابط أبيض . لم تكن بنا حاجة لمعرفة ما كانوا ينتوونه . وقد ألقينا بـ « تـ ... » ، ألقينا بحملنا القذر ، إذ كنا نعرف أننا على أهبة النزال .. لكن رجال الحرس فضلوا أن يتركونا نهرب ..

وفيما بعد ، فى كل مرة حاول فيها « باندا » أن يسترجع صورة من أصبح صديقه منذ بضع ساعات ، كان يتراءى لذهنه ظل « كوميه » فى ظلمة الليل ، فى قلب الغابة ، تحت قرقعة قطرات المطر : كان فى كل مرة يسمع صوته وهو يسرد هذه القصة فى نغمات غريبة تطن فى أذنيه ...

إن ضوء القمر فى الأفق يسطع فوق البساط المكون من قمم الأشجار المتلاصقة بأوراقها الكثيفة .. وهناك فتات من الضوء الشاحب يتساقط على الأرض وعلى الأعشاب ، التى تتشبث بجذوع الأشجار ، فى دوائر صغيرة شاحبة ..

لم يعد فى مقدورهم أن يروا النهر ، فلا بد من أنهم قد ابتعدوا إلى حين عن الطريق. لم يعد هناك ما يوحى بوجود النهر اللهم إلا خريره المكتوم . وسأل « باندا » فجأة :

— والنقود ... ؟

— النقود ؟ أية نقود ؟

— يقال إنكم سرقتم منه نقوداً ..

— لم نسرق نقوداً ...

— ويقال إن زوجته أطلقت عليكم النار ..

— لقد عدنا إلى الورشة لمجرد استرداد أشيائنا التى تركناها .. ولكننا لم نسرق شيئاً البتة . أما إنها قد أطلقت النار .. فهذا صحيح . .

ولكنها تصرفت على هذا النحو لشعورها بالخوف ، لا لسبب إلا لشعورها بالخوف . لست أدرى ماتصورته ، ولكنها شعرت بالخوف وأطلقت النار ،وعلى أى حال لم تصب أحداً منا ...

وتساءل باندا عما إذا كان الآخر يكذب عليه ، وعما إذا كانت هذه النقود من حقهم ماداموا لم يقبضوا مرتباتهم ، وعندئذ يكون على حق : لقد استعادوها ولكنهم لم يسرقوها ، هذه هى الحقيقة ، لم يفعلوا أكثر من الحصول على النقود التى يستحقونها ، وهم يرون أن هذه النقود حق لهم . إنهم على حق، لاشك فى هذا ...

— وأين الآخرون ؟

— وكيف تريد منى أن أعرف ؟ لقد ذهبوا ، كل فى طريقه ..

وتوقف « باندا » عن السير ، واستدار نصف استدارة ، وأمسك بيد الفتاة ، وقال بلهجة آمرة :

— انتظر أنت هنا يا « كوميه » . سوف أصحب أختك أولا ، وعندما أصل إلى الضفة الأخرى سأشعل عود ثقاب وهكذا يمكنك أن ترى « السقالة » . . إنها عبارة عن جزع شجرة تملؤه البثور والثقوب والسير عليها خطر للغاية ، لابد أن القدم ستنزلق عليها بعد هطول الأمطار . . انتظر هنا إذن ولا تتحرك من مكانك . . يمكنك أن تأتى عندما أشعل لك عود ثقاب ، ولكن حذار أن تأتى قبل ذلك ..

وسار على السقالة ممسكاً بيد « أوديليا » التى تسير وراءه . . كان يتقدم بحذر شديد ، ببطء تحسده عليه السلحفاة ..

قال لأوديليا :

— لا تخشى شيئاً يا أختى الصغيرة . . وإذا انزلقت قدمك فارتكزى على . .

كان الماء من تحتهم يرعد فى حشرجة مسعورة عند اصطدامه بالصخرة ، فقد اتخمت

مياه الجدول بالأمطار ، هذا الجدول الذى يصب ماءه القذر فى النهر ، وكنت ترى هذا الماء الغزير الوحل فى ضوء القمر . ولم يكف « باندا » عن حث وتشجيع « أوديليا » ..

— لا داعى للانزعاج يا أختى الصغيرة ، كدنا أن نصل ..

وفى النهاية قال لها :

— أترين ؟ لقد وصلنا ..

وفى هذه اللحظة بالذات اهتزت السقالة هزة عنيفة مصحوبة بصوت مكتوم . وسمعا فى نفس الوقت تقريباً ارتطاماً له رنين ..

وهنا أدرك « باندا » أنه يرقد على بطنه على الضفة المرتفعة . كانت يده اليمنى ممسكة بأوديليا من تحت إبطها لتمنعها من التدحرج ،أما « أوديليا » فكانت تتشبث بسفح التل فى حركة يائسة وتحاول دون جدوى أن تتسلقه . . كان المنحدر وعراً أفقياً . . وتحكم « باندا » فى الموقف بسرعة البرق .. كان الخوف قد استحوذ على « أوديليا » عند سماعها صوت الارتطام . . هل أصابتها قشعريرة أم تراها قد استدارت ! لقد فقدت توازنها على أى حال ، ولحسن الحظ كان « باندا » فى تلك اللحظة قد وقف على قدميه على ضفة الجدول . كيف أمكنه أن يمسك بها هكذا من تحت إبطها ؟ يا إلهى ! لو أنها وقعت لتحطم رأسها على الصخرة أسفل التل . . وارتعدت أوصاله ، حمداً لله على أنها لم تقع .. ولكن ما أخبار « كوميه » ؟ كان اكتشاف هذه الحقيقة يوشك أن يدفعه إلى الصياح ، ولكنه لم يجد وقتاً للصياح إذ كان فى صراع . نعم كان منذ لحظة فى صراع مخيف لم يتبينه إلا لتوه . . كانت بطنه تنزلق على الأرض المبللة وعلى الأوراق الجافة التى بللتها الأمطار ... يا للنحس ! إن ثقل الفتاة يشده ولا يستطيع هو مقاومته . إنه يشده ببطء ، وبذلت هى جهداً أخيراً لكى تتشبث بشىء . . وشعر بجسدها يتقلص وهى تئن ... ولكن جزءاً من أرض التل إنهار فازداد انحدار السفح شدة . حقاً لم يكن ينقصهم إلا هذا! ... هاهى الآن تتأرجح فى الفضاء... إنها على وشك الوقوع ،ويجب ألا تفلت منه لحظة واحدة. هاهى تشده ببطء . . هذا أمر مؤكد ، وها هو بدوره على وشك الوقوع معها فى

الهاوية ، ورأساهما توشكان أن تتهشما على الصخرة . إنه يشعر بألم مبرح فى ذراعه ، ما العمل ؟

آه نعم .. كان لايزال ممسكاً بالفتاة من تحت إبطها ، وكانت تئن .. لابد من أنها تشعر بألم فى كتفها .. ما العمل ؟ حسناً .. لا شك فى أنه أوشك أن يموت .. لابد أن هذا الإحساس يعترى المرء عندما يقترب من الموت ،لابد أن هذا الاحساس يعتريه .. ولا مست يده اليسرى ، المتشبثة بالأرض فى عصبية ، شجيرة وتشبثت بها بعنف .. ماذا يحدث لو أن الشجيرة انهارت بدورها ؟ .. لا . . ها هى تصمد . لربما انهارت لو شدها شداً عنيفاً .. ولكن ما العمل الآن ؟ كان فى هذه الأثناء قد نجح فى منع جسديهما من الوقوع فى الهاوية .. وكان يشعر بألم مبرح فى ذراعه اليمنى ، وبالرغبة فى الصراخ ، فى البكاء .

إن عبراته تحجب الرؤيا عن عينيه .. ولكن ها هى « السقالة » بالقرب منه ، على اليسار ، ينغرس طرفها فى الأرض .. إن الحركة العنيفة التى قام بها والتى مكنته من أن يقف على « السقالة » سوف تدهشه ما حيا .. إن قدميه معقودتان تحت السقالة وكعبيه يتشبثان بالتل .. ودون أدنى تردد لوح بيده اليسرى ، وأمسك بأوديليا من تحت إبطها الأخرى . ثم انكمش وتصلب وتقلص وسحب :

كانت أنفاسه متقطعة وكان ينهج والعرق يبلل جسده كله . أما « أوديليا » فكانت تجهش بالبكاء ..

— أخى .. لقد وقع .. لقد ناديته .. إنه لا يجيب .. لقد غرق ..

أخى .. كوميه .. أجبنى .. إنه لا يجيب .. لقد غرق ..

كان « باندا » يحس وكأن صرخات الفتاة تقطع نياط قلبه ..

— أتوسل إليك « يا أوديليا » ، لا تبكى هكذا ..

وبدا لحظة أن البكاء ربما كان أفضل ما يمكن أن يفعله هو نفسه ، وشعر برغبة شديدة فيه جعلت حلقه يتقلص بشكل أليم ..

وفجأة قال محدثاً نفسه : ربما لم يمت « كوميه » .. كان ما يجب عمله هو سحبه من الماء دون توان .. نعم هذا ما سيفعله ، سوف ينتزعه من الماء فى الحال...

ربما لم يمت فعلا .. ولـكن كيف الوصول إلى مجرى الجدول ؟ .. آه نعم .. كان يعرف ما يجب عمله للوصول إلى المجرى .. لقد اكتشف الحل في التو.. إنه يعرف ما يجب عمله ..

وقال فجأة للفتاة التي كانت تجهش بالبـكاء :

— إبقى هنا ..

ويجرى كالمعتوه فى عكس اتجاه التيار .. فيرتطم بالأشجار الصغيرة وتحيط به الأعشاب فتعوقه عن السير .. يا إلهى ! المهم أن يكون على قيد الحياة .. ولاحظ أنه يتوسل إلى الله لأول مرة .. منذ قال له قس إنه يسىء النطق بآيات الإنجيل ، وإنه لم ينضج بعد حتى يعمد . لقد مر وقت طويل على تلك الواقعة وألهته هذه الذكرى رغم الظروف المحيطة به . لا يمكن أن يكون « كوميه » قد مات حقاً .. لمَ يقع مثل هذا الحادث لأوديليا ؟

لماذا يموت شاب كهذا شجاع ، شديد المراس ؟

إن الجدول فى هذه البقعة ينساب فى مستوى الشاطىء . وليست فيها تلال . أما « باندا » فإنه يتنفس وهو يلهث ، ويبتلع ريقه بكثرة . وتجرد من ملابسه فى لمح البصر وارتمى فى الماء عارياً ، وشرع يبحث فى اتجاه التيار شطر «السقالة» . إن ماء الجدول يسوط ساقيه بدواماته ويجعله يترنح مرات عديدة . إنه يسمع صوت «أوديليا» وهى تنتحب على بعد ، كان يأتيه من عل : وكان قد اقترب من« السقالة » .. وفى هذه اللحظة وطىء بقدميه الصخرة الباردة كالثلج بينما أخذ قلبه يدق بعنف .. كان الماء يرتطم بالصخرة فى صوت كالحشرجة . . وهنا جاءت طفرة من الماء الصاخب تلفح ساقيه فترنح ثم اصطدم ، كمن يسير فى نومه ، بجسد « كوميه » البارد ، فانحنى وأخذ يتحسس الجثة طويلا .

هاهى « أوديليا » ، وقد كفت عن البـكاء ، تنحنى إلى الأمام وتصيح :

— لقد وجدته أليس كذلك ؟ قل لى ألم تجده ؟ .. هل مات ؟

أريد أن أعرف إن كان أخى قد مات ، أو إن كان مازال على قيد الحياة .

قل لى هل مات ؟ .. أريد أن أعرف ..

ورفع عينيه واقشعر بدنه وقال :

— ابتعدى يا « أوديليا » ، إنى أتوسل اليك .. ابتعدى وإلا وقعت ..

وأجهشت مرة أخرى بالبكاء .. كان بكاؤها فى هذه المرة أكثر عنفاً .

— قل لى هل مات ؟ .. أواه .. قل لى الحقيقة ...

— ليس فى إمكانى أن أعرف ..

والتقيا مرة أخرى فى أعلى التل .. ووضع « باندا » جسد « كوميه » — وكانت المياه تسيل منه — على الأوراق الجافة .. لقد فارق الحياة .. حقاً إن جسمه بارد كالثلج .. والدماء تملأ فمه .. وهى دماء لا تزال حارة ..

وكان هناك جرح عميق له فتحة واضحة فى جمجمته فى أعلى قفاه وتظهر منها عظمة ..

وحدث « باندا » نفسه قائلا : كان فى مقدوره أن يتجنب هذا الحادث على أية حال .. لم يكن عليه إلا أن ينتظر حتى أشعل عود ثقاب .. حقا كان فى مقدوره على أى حال أن يتجنب هذا . لم يكن عليه — وحق الشيطان — إلا أن ينتظر لحظة قصيرة . ولكن لا ، إن قلبه لمفعم بالكبرياء . لم يكن ليرضى أن يسمح لآخر بأن يرشده ، يا للفتى المنكود ! لقد تمكن من الفرار من مطارديه ، ولم يكن عليه إلا أن ينتظر قليلا حتى تتكلل مغامرتنا بالنجاح . كان قد صار بمثابة صديق لى . لماذا أقدم على هذه الحماقة ؟ ألم يكن فى استطاعته أن ينتظر ؟ .. هاهى مصيبة أخرى قد حلت لتزيد من أساى ..

وتنهد وهو يمر بيده على وجهه ..

الفصل الثامن

كانا يجلسان على كومة من الأخشاب .. معدة من غير شك للتصدير ، لم يلق بها صاحبها بعد فى الماء لتطفو على النهر حتى تصل إلى جهة إرسالها ، فربما لم يكن على عجلة من أمره . واتخذا من الكومة مقعداً لهما .

لقد أجلس الفتاة المنتحبة الباكية على ركبتيه وأخذ يهون عليها وكأنها طفل تملكه الغضب . كانت الشجرة عند سقوطها قد فتحت ثغرة فى السقف المصنوع من الأوراق ، وكان القمر يغمر بضوئه وجهيهما الأسودين ..

إن حالة اليأس التى استحوذت على الفتاة قد ملأت قلبه بضيق شديد جعل الأفكار تتخبط فى رأسه . ولم يكن مصدر انزعاجه أنه لم يسمع نحيب أمرأة من قبل ، فإن حياته كلها قد امتلأت بتشاهد كهذه ، إذ أنه جرى العرف فى « باميلا » على تمعن النساء فى النحيب ثمانية أيام متتالية على الأقل عند موت أصغر طفل أو كهل طاعن فى السن . ولكن سماعه نحيب « أوديليا » وهى تنطق بكلمات متلعثمة غير مفهومة تعبر عن أساها ، قد أذاب شجاعته كلها كالسكر فى الماء ..

إنه وهو يراها تلوى أصابع يدها ليشعر بقواه تتسرب من كيانه رويداً رويداً . كان يعرف أنها مادامت تبكى على هذا النحو فلن يتمكن من اتخاذ قرار ، وكان فى هذا الوضع كمن رزق أختاً صغيرة .. تلك الأخت الصغيرة التى طالما حلم بها والتى أخذت تبكى لشدة ما استحوذ عليها من حزن ، أخت يسمع بكاءها وهو عاجز عن مواساتها .

لا ، لا يمكن أن تستمر هكذا فى البكاء . كان لزاماً عليه أن يفهمها أنه لا يمكنها أن تستمر فى بكائها على هذا النحو ، وأن تكف عنه ولو مؤقتاً ، وأن فى إمكانها فيما بعد أن تبكى كما تشاء ..

ومر بإصبعه على شعرها وعلى خديها وأخذ يمسح دمعها ويجففه وقال لها متوسلا :

— لا تبكى هكذا ..

كانت تقول بين عبراتها ، التى تسيل من عينيها : « كوميه » .. « كوميه » .. ياأخى الوحيد .. لم يكن لى سواك .. « كوميه » .. هل ستتركنى .. ؟

وعند ما سمع تلك الكلمات شعر هو نفسه بالرغبة فى البكاء ..

أخذ يفكر فى « كوميه » .. فى هذا الفتى الشجاع .. اللطيف ، هذا الشاب شديد المراس .. هذا الرجل الذى يندر أن يجود الزمن بمن على شاكلته . أما هو « باندا » فلن يحصل أبداً على تلك البيانات التى كان ينوى أن يطلبها منه . لن يحصل أبداً على هذه البيانات .. ولو أنه استطاع التهكن بالأحداث لكان قد طلب هذه البيانات دون توان .. أما الآن فهاهو قد رحل حاملا سره .. وهو لن يحصل منه أبداً على مايريد من البيانات .. ولكن ما العمل إذن ؟ ليس فى مقدوره أن يترك أمه للعذاب هكذا .. أن تموت وهى معذبة القلب . وصعدت العبرات إلى حلقه حتى سدت قصبته الهوائية .. ولكن بهذه المناسبة ، إن هاتيك النساء اللاتى يولولن فى كل مأتم ، لعله يكفيهن ، لكى يستدررن دموعهن ، أن يفكرن فى أحزانهن الخاصة ، فتنهمر عبراتهن فى سيل جارف . لطالما تساءل عما تفعله هؤلاء النساء لكى تتمكن فى كل مناسبة من إذراف هذا السيل من العبرات بهذا اليسر .. ونسى فى الحال أمه والبيانات التى كان يتوق إلى معرفتها والتى ربما كانت تتيح له الاستيلاء على عشرة آلاف من الفرنكات من أحد اليونانيين ، عشرة آلاف فقط لا أكثر .. أى ما يلزمه لكى يحقق لأمه المسكينة قسطاً بسيطاً من السعادة ..

— لاتبكى هكذا يا أختى الصغيرة ..

كان هذا الشعور بالقرابة يستحوذ عليه باطراد .. وتذكر فجأة قول الفتاة : ألا تريد أن تصبح أخاً لى بدورك ؟ ياللبساطة والبراءة اللتين ظهرتا عليها وهى تنطق بهذه الكلمات ! كان يتلهى حينذاك بكل ماكانت تقوله ... ولكن أكان فى مقدوره أن يتكهن وقتئذ بهذه الأحداث المفجعة ؟ ... أما الآن فهاهو يسترجع هذه الكلمات ويستشعر شعوراً بالقربة ، وشعوراً بالسر الذى يربطها ، يقويان الصلة بينهما ، ويزيدانه وثوقاً ...

وهدأت ثم نهضت تحت إلحاح « باندا » ..

هاهما يسيران جنباً إلى جنب تحت قمم الأشجار التى تظللهما ، وكان ظلهما يعبر

من حين إلى آخر مساحات يغمرها القمر بضوئه ...

وأمسكها « باندا » من ذراعها ... كانا ساكتين كما كانت الغابة من حولهما ساكنة هي الأخرى ، وكذا النهر الذى يسيران بحذائه ..

ووصلا إلى المرسى. كانت هناك زوارق كثيرة ملقاة على الرمال أو مربوطة فى شجرة ، أو فى جزع أو فى وتد مضروب فى الأرض . وأجلسها فى زورق طويل إذ أراد أن يهيىء لها أعظم قدر ممكن من الإحساس بالأمن ، ولكنه اضطر إلى أن يتفحص ظلمات الليل طويلا من تحت قطع الخشب الغليظة القريبة من المرسى قبل أن يهتدى إلى مجداف جميل وعريض ومسطح عند طرفيه ومستدير يضيق تدريجياً عند وسطه ويلتف حوله مايشبه العقد .. وهنأ نفسه كثيراً على أختياره هذا المجداف الذى سوف ييسر له عبور النهر .. وعاد إلى الزورق ودفعه بكل قواه ليطفو على الماء . وصدر عن احتكاك الخشب بالرمال صوت رفيع حاد ثم انطلق الزورق فجأة نحو الماء ، فقفز وتشبث بمؤخرته ..

أخذ الزورق يشق طريقه ببطء فوق الماء ، بينما يحرك « باندا » مجدافه بحركة آلية فيها مرونة وانتظام ، فتصدر عنه قرقعة ..

كان النهر على مدى البصر وعلى جانبيه شاحباً كما كانت أمواجه الكثيفة تتدافع بعضها وراء بعض فى غير عجلة .. كانت هذه الكتل تنفرد وتتقلب وتتمطى وتبدو كأنها تتعرى أمام القمر البارد الذى يغلفها بغلاف رمادى اللون . إنه ينساب فى رفق ، بين حائطين مرتفعين من النباتات « الشيطانية ». وأخذ « باندا » يسترجع فى مخيلته الذكريات الواحدة تلو الأخرى وهو يجدف فى حركة منتظمة آلية . أين ياترى رأى شيئاً مشابهاً لما يراه الآن .. ؟ أين ياترى رأى ذلك ؟

نعم ، كان ذلك عندما توفى رجل من المبشرين فى طنجة .. كان الرجل طاعناً فى السن يعتنق المذهب الكاثوليكى ، وكان الناس يحيطونه باحترام كبير . إن النهر الطويل الوادع الذى يساب تحت ضوء القمر الباهت ليذكره بموكب المشيعين وراء رفات المبشر العجوز .. كانت جمهرة المشيعين قد اصطفت فى طوابير وراء عربة الموتى تتبعها خلال شوارع المدينة فى صمت . نعم كان هذا المشهد هو الذى عاد إلى ذاكراته وهو يشاهد مظاهر الحفل الحزين ، التى أحاطت بالنهر فى تلك اللحظة ،

نهره الذى كان يألفه . كانت مظاهر مجردة من الألوان تشبه الحـلم ، أو الكابوس .. إن نهره فى هذه الليلة ، بعد يوم مفعم بالأحزان ، ليشعره بإحساس بالكابوس لا يستطيع التخفيف من حدته ..

كان الماء يتلاطم ويصفق تحت الزورق .. ونظر « باندا » إلى الفتاة المنهارة فى مقدمة الزورق .. كان صدرها ، من حين إلى حين، ينتفخ فجأة فتخرج منه تنهدات حزينة متقطعة ..

وقال لها « باندا » فى لهجة متوسلة عاتبة معاً :

— « أوديليا » ..

كانت الفتاة تئن فى انتحاب وصوتها يرتفع ببطء ثم ينطلق فى سكون الليل كصرخة حيوان يحتضر . لا ، لن يعاتبها بعد الآن على بكائها . لا حيلة له فى ذلك .. يجب ألا يؤاخذها على بكائها والا أمعنت فى هذا البكاء .. إنها لم تكن تتعمده ، فالأمر يفوق طاقتها .. سوف يمر بيده على شعرها وعلى خدها عند ماينزلان إلى الأرض .. نعم ، هذا ما سيفعله ، سوف يمر بيده على شعرها وعلى خدها عند ما يسيران جنباً إلى جنب . ربما أسكتتها هذه الوسيلة فلم يكن يتحمل سماع بكائها ..

وأوقف زورقه بأن دفعه على الرمال ، فصدر عنه صرير ، وتبين أن الصدمة قد ألقت به بعيداً عن مؤخرة الزورق حيث كان يقف . وقال مؤنباً نفسه :

— ماذا دهانى ؟ من دأبى أن أفكر فى كل شىء إلا فيما أفعله ..

وألقى بنظره إلى الخلف..أيمكن أن يكون قد عبر هذا النهر لتوه دون أن يفكر لحظة فيما كان يفعله؟ كان من الممكن أن يبعده التيار عن شاطىء النهر وهو فى مثل هذا الفيضان . هل لن يبرأ أبداً من تلك العادة السيئة التى تجعله يفكر فى شتى الأشياء إلا فيما يفعله ؟ وحمل الفتاة بين ذراعيه ووضع قدميها العاريتين على الرمال الجافة ..

وسار فى الممر العريض الطليق الذى كان يعرفه حق المعرفة . وأخذ يمر بيده على شعرها .. لم تكن تبكى وإنما كانت تطلق من حين إلى حين زفرة قوية عنيفة كأنها انفجار بركان مضطرم .. ولم يصادفا احداً ، الأمر الذى أسعده ..

قال الشاب وهو يبلل شفتيه بلسانه :

— هل تتصورين يا أختاه ، هل تتصورين أنهم كلما أرادوا ، لسبب أو لآخر ،أن يضعوا يدهم على شخص من الأشخاص وأعجزهم ذلك ، صبوا نقمتهم على ذويه ، على زوجته أو أخيه .. إنى واثق أنهم سيحاولون مضايقة ذويك فى بلدكم .. ربما أحاطوا عنقهم بحبل وقادوهم إلى طنجة لكى يعذبوهم ويستجوبوهم كل يوم ،وربما احتجزوهم هناك فى سجنهم شهوراً ، بل — ومن يدرى — أعواماً. يجب أن نحاول القضاء على كل هذا .. لو أن أخاك على قيد الحياة فربما استحقت حياته أن يضربوا أهلك بالسياط قليلا ، أليس كذلك ؟

ولكن الآن .. إنك تفهمين ما أعنى .. لم يعد هناك مبرر لأن يزعجوا أهلك .. ليس من العدل أن يزعجوا الأحياء من أجل خطأ ارتكبه رجل مات .. ليس فى مقدور إنسان أن يفعل مثل هذا ، لا أحد ، ولا حتى هم ..

كان يكلمها بصوت خفيض كمن يكلم طفلا غاضباً .. ونبرات صوته تفصح عن تأثره .. كان يكلمها فى حيطة بالغة جاهداً ألا يذكر اسم « كوميه » وألا يتكلم عن الموت وهو يتحدث عن أخيها ، وتحاشى كل ما يمكن أن يبكيها ...

ثم أكمل حديثه قائلا :

— يجب إذن أن نظهر لهم هذه الحقيقة ،وهى أن أخاك لم يعد من الأحياء... وأنه ليس ثمة ما يبرر أن يضايقوا الأحياء من أجله ... إنى أقودك الآن إلى حيث تقيم والدتى ... سوف تقضين الليل عندها ... وإذا ما وجهت إليك أسئلة ، بعد رحيلى ، فعليك أن تنبئيها أنك صديقتى الصغيرة ... أخبريها بهذادون ماحياءوادعى أيضا أنك تشعرين بصداع أليم ... ولكن اتوسل إليك ، يا أختاه ، ألا تسرفى فى البكاء ... فأمى مريضة مسكينة . اما عنى فسوف اعود ادراجى ، لأحمل الجثه فى الزورق وأضعها فى مكان يستلفت الأنظار تحت جسر طنجة ...

وتوقف قليلا وتفرس فى الفتاة ليستطلع تأثير كلماته فيها . ولكنه لم يوفق فى فهم تعبير وجهها ، وإن تكهن فقط بأن حزناً عنيفاً يحطم قلبها .. وأردف قائلا :

— إننا لا نعرف أى شىء .. لا أنت ولا أنا .. فأنت بعد هروب أخيك قد لجأت إلى بيتى ..أنا صديقك ، لمجرد شعورك بالخوف .. هذا ما ستقولينه لهم ،

- وإذا ما جاءوا ، إذ لا أحد يعرف ما سيفعلون ، أتعدين بأنك ستتصرفين على هذا النحو ؟

وهزت رأسها دلالة على أنها ستفعل ..

وحدث نفسه قائلا : لاشك أن ما كان ينقصنى هو أخت صغيرة كهذه الفتاة .. لعمرى كم كانت تحب أخاها ، كم كانت تحبه ! هل هن كثيرات هاتيك الشقيقات اللواتى يستجبن لأشقائهن على هذا النحو ؟ لاشك أن ما ينقصنى هو أخت كهذه الفتاة .. ولكن هل كان ينتهى بها الأمر بالزواج ، بأن ترحل وتتركنى ؟ لعمرى كم كانت « أوديليا » تحب أخاها! ..

إن أمه قد أحبته كثيراً مع ذلك ، وهى ما تزال تحبه حباً يفوق الوصف ، وهو بدوره يحب أمه فى هذه اللحظة ، يحبها بكل جوارحه .. لقد بدا له حتى الآن أن هذا الحب المتبادل بينه وبين أمه شىء فريد فى عالم الناس .. ولم يكن فى مقدوره أن يتصور هذا الحب إلا بربطه بمناسبات معينة ، كموت أبيه الذى تركهما وحيدين فى هذا العالم ، وكذا هذه الزيارات ومناسبات الفراق التى كانت تمزق نياط قلبه حين كان تلميذاً بطنجة .. كانت ذكرى تلك المناسبات تظهر له مدى هذا الحب الذى يربط بينه وبين أمه .. لا .. لا يمكن أن يكون مثل هذا الحب شيئاً مألوفاً فى عالم الناس . . ومع ذلك ، فإن كان قد تمنى دواماً أن تكون له أخت صغيرة فإن مرجع هذا الشعور دائماً هو حاجته إلى حنان . ولم يكن يتبين حقيقة هذا الأمر بوضوح . . إن أمنيته أن تكون له أخت صغيرة ، لتفصح عن حاجته إلى حنان يعوضه عن حنان أمه بعد موتها ...

وقد تبين فى هذه الليلة أن هناك أناسا آخرين يتحابون بدرجة لم يكن يتصورها ، لقد فاجأه هذا الحب الذى يربط بين الناس وتركه فى حيرة من أمره ...

لطالما تمنى أن تكون له أخت صغيرة ، إلا أنه لم يتبين أبداً الدافع إلى هذا ، أما الآن ، فقد فطن إلى حقيقة عواطفه ... حقيقة هذه الأمنية فى أن تكون له أخت صغيرة كهذه ، فتاة محبة شجاعة ، تتحلى بمثل صفاتها ، وهنا صب المر فى الطريق العام .

وهبطا على الطريق المغطى بطبقة من الرمال الحمراء ، وقال :

— إن بيتى قريب جداً من هنا . . .

وفعلا كشف انحناء الطريق فجأة عن «باميلا» ، وهى عبارة عن صفين يكادان لا ينتهيان من الأكواخ ، بنيت على جانبي الطريق وعلى امتداده . كانت قرية « باميلا » ترقد مستلقية فى كسل فى قلب الغابة . وبجانب هذا الطريق الذى يعتبر بمثابة ابن لطنجة ، كانت ترقد « باميلا » البدائية وتستسلم . وكنت ترى الفناء الذى يمتد على شكل شريطين متوازيين طويلين على جانبى الطريق مكتظاً بالماشية الصغيرة ، والخنازير التى تشخر والأغنام التى تجتر . وكنت ترى هنا وهناك كلباً صغيرا مقصوص الشعر ، خائفاً ، ينام منكمشاً ، أو ظلا عابرا لقط يبحث عن بقية جثة عفنة . أما الأكواخ فقد كانت تسبح فى الصمت والظلام .

قال « باندا » وهو يهب واقفاً :

— عجباً ، هناك شخص يحادث أمى . . إنه صوت رجل وهـذا أمر عجيب فى مثل هذه الساعة . . عجباً . . من يكون يا ترى ، فيم جاء يكلمها ؟ من يكون فى مثل هذه الساعة ؟

كان الوقت متأخرا على ما يبدو . . ولـكن هل كان متأخرا حقا ؟ لعله لم يكن متأخرا إلى هذا الحد . . وسمع صوت قرد على بعد وكأنه يجيبه عن سؤاله . لا ، لم يكن الوقت متأخرا إلى هذا الحد ..وعلى أى حال فقد يتراءى لأى شخص أن يحضر إلى أمه ليكلمها فى هذه الساعة .. ولـكن لو أنه كان موجوداً لما وطئ أحد بيتهم بقدميه ، اللهم إلا أولئك النسوة اللاتى يعنين بأمر أمه ، وهن صديقات وجارات مخلصات ، مثل « سابينا » و « ريجينا » وغيرهما . أما أمه فقد كان يبدو أنها تجد متعة فى أن يزورها الناس وفى أن يكلموها فى أشياء تافهة ، ولـكن من يكون زائرها الآن يا ترى ؟

« تونجا » . . نعم إنه صوته : لقد تعرف على صوته . . « تونجا » . إنه أحد الرجال الذين يكرهونه فى « باميلا » ، واحد من هؤلاء الذين يرد على كراهيتهم بالمثل ، وعن طيب خاطر . كان « تونجا » شيخا لا حول له ولا قوة ، ولـكن إذا ما تـكلم أصبح مدعياً ، كذوباً ، لئيما ، يضمر الضغينة .

ودفع الشاب مصراعى البـاب الخشبى . . وتعرف عليه تونجا فى الحـال وصاح قائلا :

— عجبا . . ها أنت ذا يا « باندا » . . كانت أمك قلقة عليك .. ولـكن من فى صحبتك ؟

— وهل أسألك أنا عما أكلته اليوم ؟

قالها « باندا » بعصبية ، وهو يتجه فى خطوات مترددة نحو أمه ، وهو لا يزال يمسك بأوديليا من يدها ..

كان « تونجا » يلف حول وسطه قطعة من القماش تسقط على ساقيه وتغطيهما . أما بطنه وجذعه فـكانا عاريين بالرغم من أن الليلة باردة بعض الشىء . وكان ما يتميز به فى الواقع هى صحته التى لم تنل منها الأيام ، والتى تصونها قوة عضلية قلما تتوفر لرجل فى مثل سنه ، فهى لا تتأثر بتقلبات الطقس . كان واقفا بالقرب من الباب . ..

ولم يبد عليه أن رد الشاب قد آلمه ولعله اعتاد منه مثل هذه العبارات القاسية ..

أما الابن فـكان يقف أمام أمه ، وهى لم تعد إلا شيئا هزيلا يلتف حول نفسه . شيئا يحرك ساقيه باستمرار كالجبرى الأسود ، وهى ترقد على الخيزران اللامع من كثرة فركه . كان يترقب ما يرتسم على ملامحها من رد فعل . وعلى مقربة كانت تحترق قطع من الخشب لهـا لهب يتراقص أمام الجدران فتنعكس عليها ظلال طويلة فى رقصات صاخبة وساخرة ..

وسمع مرة أخرى صوت « تونجا » المتسائل الخبيث :

— لقد جاءتنا «سابينا» وقصت علينا كل ماحدث لك ، كل ماحدث ، كله ..

وسأله « باندا » فى قلق وإن بدا هادئاً :

— وبهذه المناسبة ما الذى أتى بك فى هذه الساعة ، أنت ؟

— ها هو الآن سيمنعنى من أن أزور مريضة .. إنى أسألك : أين سمعت عن شخص يمنع الناس من زيارة المريضات ؟ آه من هؤلاء الأطفال .. لا يكفيهم أن يتمردوا وأن يثوروا على كل شىء ، بل يريدون الآن أن يقضوا على العادات القديمة كزيارة المرضى ..

وأطلق « تونجا » عندما نطق بهذه الكلمات ضحكة ساخرة ، واضطر « باندا » إلى أن يعض شفتيه كاظما غيظه .. وقال محدثا نفسه :

« لا يحميك مني إلا وجود أمي .. أواه ! لولاها لطردتك من هذا البيت ولأصابك مني شر بالغ .. »

نعم كانت أمه على علم بما حدث ، لقد قصصن عليها كل ما حدث .. هل بكت كثيرا يا ترى ؟ وماذا يمكنه أن يقول لها ؟ لم يكن يدرى فيم يكلمها . وجلس على الفراش فى الناحية القابلة للنار ممسكا بأوديليا التى أجلسها بجانبه . وكان يبدو أن حرارة الكوخ قد أعادت إليها الحياة ..

كانت المرأة المريضة نهباً للوساوس وهى تحدق فيهما . كانت عيناها تلمعان بشكل غريب ، لكأنها تجردت من الحياة .. وبدا لباندا أمام هذه النظرة التى تخترقه أنه ارتكب ذنباً ثقيلا ، وإن كان لم يكتشف حين فحص ضميره بالمنظار المكبر أن إثما يثقل عليه .. كانت القوة التى تنم عنها هذه النظرة تسمره فى مكانه وتجعله يترنح . نعم ، لقد تألمت كثيرا ، أو ربما كانت دهشتها وفرحتها لرؤيته عظيمتين ..

وبلل شفتيه وتمتم :

— يا أماه ، لعلك تنتظرين أن أقول لك شيئا ؟ لقد ألقوا بمحصولى من الكاكاو فى النار .. إن خالى يقول إنهم تظاهروا بذلك ، وربما كان على الحق .. أما أنا فقد رأيتهم وهم يلقون به فى النار . قالوا إن حبوبى رديئة . قالوا هذا فعلا يا أماه . ولكنهم ليسوا على حق فيما أدعوه ، لأن محصولى لم يكن رديئاً .. وأنا أعلم علم اليقين أن ادعاءهم باطل .. إنى أقسم لك إننى عملت حسب إرشاداتهم ، اتبعتها كلها ولم أحد عنها قيد أنملة . إن هؤلاء القوم غلاظ القلوب مجردون من الرحمة ، وهذه هى الحقيقة الواقعة ..

وسكت إذ كانت أنفاسه تتلاحق ، وخيم الصمت على الجميع . كانت عينا المريضة متعلقة باللهب الذى يتراقص ، وكان ما يبدو على سماتها من شرود أقسى على قلب ابنها من أى شىء آخر ..

وأردف :

— كان بودى أن أتزوج حتى أسعد قلبك مرة قبل موتك . ولكن ها أنت

ترين ، لم يعد هـذا فى مقدورى الآن . إن أبى المتوفى شاهد على صدق ما أقوله ، وعلى أن لا ذنب لى فى هذا . لقد بذلت أقصى طاقتى ولم يعد فى إمكانى أن أتزوج قبل موتك : أنى لى أن أجد المال الذى يؤهلنى للزواج ؟ ..

كان وهو يتحدث يراقب أمـه ويتفرس فيها : كانت ساكنة بشكل غير عادى ويبدو على سيمائها شرود عجيب . هل هى تتألم كثيراً ؟ ولـكن كيف يمكنه أن يعرف ؟

فى استطاعة المرء أن يتكهن بنوع الألم الذى يتسبب فيه جرح أو خراج ، أو أى شىء تراه العين ، أما الألم الـكامن فى أعماق الإنسان ، فى قلبه ، فمن يستطيع أن يتـكهن به ؟

وتبين فجأة أنه نسى « أوديليا » أثناء حديثه . ولـكن لا ، هاهو يمسك بيدها .. وضغط على هذه اليد حتى يفهم الفتاة أنه لم ينس وجودها ، وأن ليس فى مقدوره أن ينساها . ثم تحولت أفـكاره إلى أمه .. كان عليه أن يواسيها ، وأن يفرغ من هذه المهمة ، فهناك مهمة أخرى يجب أن ينتهى منها ، مهمة خطيرة الشأن . كانت هناك أم أخرى عليه أن ينقذها من المعاملة القاسيه التى لم يعد هناك مايبررها . ربما لم يفت الأوان . وسوف تـكون أمامه فسحة من الوقت إذن . يمكنه أن يتدارك الأمر لو أنه أسرع ، بشرط ألا يـكون قد وقـع شىء للجثة .. لا ، لا شك أنه لم يحدث لها أى شىء . ماذا يمكن أن يـكون قد حدث لها ، لم يكن الطريق الذى سلـكوه طريقاً مطروقاً ، ومن تراوده مثل هذه الفـكرة ؟ وهنا قفز إذ قال لنفسه إن عليه أن يحتاط حتى لا يراه أحد وهو يحمل الجثة . ربما اتهموه بقتل « كوميه » ... وعندما راودت هذه الفـكرة ذهنه ، أخذت الصور البشعة تتراقص فى مخيلته ...

سوف يحتاط للأمر حتى لا يراه أحد وهو يحمل الجثة .. ياإلهى كم هى معقدة هذه الحياة ! أمه و« تونجا » و« كوميه » و« أوديليا » وحبات الـكاكاو والزواج .. هل هذه هى الحياة ؟ .. ألم تجد الحياة شيئاً تمنحه إياه إلا هذه المشكلات ؟

— ربما أخبروك ياأماه بأنهم قد أصابوا عينى .. ولـكن لاتنزعجى فهى إصابة طفيفة ، لاقيمة لها البتة ، لاقيمة لها حقاً . لم أعـد أشعر حتى بالألم .. لقد

قادونى أيضاً إلى مخفر الشرطة ، وحتى هذا لم يكن له قيمة ، فقد أمر رجل أبيض بأن يطلقوا سراحى فى الحال ، ضابط أبيض ...

ولم تفته ملاحظة بريق الإعجاب الذى ارتسم فى لمح البصر على وجه أمه ، هذا الوجه الجامد الساكن الذى لايعبر عن شئ ..

— إنى أتوسل إليك ياأماه ألا تنزعجى لكل ما أصابنى . سوف أدبر أمرى وأحيا حياة سعيدة ، عفردى ، دون زوجة . سوف أعد طعامى بنفسى ، فقد فعل هذا غيرى من قبل ، وهو ليس بالأمر العجيب ، ثم إنه لاذنب لى فى كل ماحدث . وكيفما كانت الحال فسوف أدبر أمرى ياأماه .. لاتقلقى بالا ، فسوف أذكرك دائماً ولن أنساك أبداً . لقد بذلت قصارى جهدى ولكنى لم أنجح . لقد عملت طوال السنة ، فذهبت كل جهودى أدراج الرياح . لو أنى استطعت أن أتكهن بذلك قبل حدوثه ؟ . ياأماه ، هناك أناس لاحظ لهم ، مثلى أنا مثلا ، وأؤكد لك أن لاحيلة لنا فى هذا ، لاأنت ولا أنا ..

كان « باندا » قد تفوه بكل ماراود ذهنه دون ما تفكير أو ترتيب ، فلقد بدت له الحياة فجأة شديدة التعقيد ، معقدة إلى أقصى حـــد ، أكثر تعقيداً مما كان يتصورها . وها هو « تونجا » يقحم نفسه فى كل هذا .. ماذا عساه يقول الآن ؟ وبينما هو يحاول أن يصغى إلى ما يقوله « تونجا » شعر بموجات من الملل تغمر كيانه ، كما يحدث له فى كل مرة يحاول فيها جاهداً أن يفعل شيئاً يعرف حق المعرفة عـدم جدواه . وضغط مرات على يد « أوديليا » التى عسك بها بين راحته .. لا ، لم ينس وجودها ، كان هناك سر يربط بينهما ، نوع من التـآمر يشد أحدهما إلى الآخر . ولـكن كم من الوقت سيربط بينهما هـذا السر ، وهذا الشعور بالقرابة الذى اعتراه ؟ ...

هل شعرت هى بمثل هذا الشعور ؟ .. لقد اعترفت له بهذا منذ قليل ، ولـكن ربما قالته لمجرد استمالته والتأثير فيه .

وسمع هذه الـكلمات رغم الملل الذى استحوذ عليه ..

— يابنى فى كل مرة يقع لك حادث مفجع ، حاول أن تبحث عن سببه فى

دخيلة نفسك ، ابحث عنه فى دخيلة نفسك أولا .. إننا نحمل بين طيات نفوسنا أسباب مصائبنا جميعاً . إنى يا « باندا » أب لك وكم من مرة حذرتك ؟ لطالما قلت لك إنك تتصرف ياباندا كالمعتوه ، إن ضوء النهار ولا نهائية الأفق يفقدانك صوابك . أنت لاتحسن الانتباه إلى ما تفعله . هل رأيت إنسانا عاش مثلك فى مثل عدم مبالاتك ، بكل ما يحيط بك ، دون أن ينظر يمنة أو يسرة ؟ ولكن هل تراك أصغيت إلى أبداً ؟ هل أقلعت عن الشراب وعن المشاجرات وعن الاستيلاء على نساء الآخرين ؟ هل كففت يوما عن عادتك فى تسفيه آراء من هم أكبر منك سنا ؟ ومع ذلك لطالما قلت لك أن مثل هذا السلوك لا يمكن أن يفلت صاحبه من العقاب . لقد عطف الله على وعلى كلماتى التى لم تستمع إليها فأنزل بك عقابه ..

هاهو الشيخ قد انتصر فى النهاية ، وهذا مايبرر وجوده هنا فى هذه الساعة. لقد أراد أن يسعد بانتصاره وأن يتذوق مشهد هزيمة « باندا » وما حل به من كارثة . ولم يؤثر كل هذا فى الشاب بل أراد أن يتحداه فقال :

— ولكن لعمرى أو تؤمن إذن بالله ؟

وأجاب تونجا ساخراً دون أن تزول عن شفتيه ابتسامته المتشفية التى لاتنضب ، ابتسامته الآلية :

— ياله من سؤال ! ..

ورد « باندا » قائلا :

— إننا لانراه ..

وانتهز الآخر الفرصة التى تتيح له أن يحاضر . كان من الجلى أنه لم يكن يخشى المناقشة فى هذا المساء وقال :

— أنا لم أعمد ولكن ماقيمة هذا يابنى ؟ ماقيمة هذا ؟ هاهم أجدادنا قد آمنوا بالله. مع أنهم لم يعمدواهم الآخرون ، ولكنى أسالك عن قيمة هذا ؟ كانوا يؤمنون مع ذلك بالله يابنى .. لا ، إن التعميد شىء لا قيمة له ، فقد راعى الله موقف كل منا من الآخر ، أى موقف كل من الأب والابن ، وكان فى عونى ، فالوالد سواء عمد أو لم يعمد هو والد على أى حال ..

— حتى ولو لم يكن رجلا مستقيما ؟

— لقد كنت دائماً مستقيماً معك يابنى ..

وجاء دور « باندا » لترتسم على وجهه الابتسامة الساخرة . هاهو قد تغلب على هذا العجوز البغيض ، أو هو على وشك أن يتغلب عليه ..

— أتعتقد هذا ؟ .. أتريدحقا أن يصدق الناس ما تدعيه من أنك كنت دائما مستقيما فى معاملتك لى ؟ إن قولك هـذا يخالف الحقيقة إذ لم تـكن مستقيما معى أبدا .. لقد طلبت منك من قبل أن تذهب إلى والد خطيبتى لـكى تحدثه فى أمر زواجنا ، فلماذا رفضت ؟ إنك رجل مسن ، والأرجح أن هذا الرجل كان سيصغى إليك . لعله كان سيعطف على مطلبى لو أنك فعلت .. وعلى أى حال لم يكن سيطلب منى الـكثير من المـال . تـكلم الآن ، لم رفضت الذهاب إليه ؟ إننى أسألك إيضاحا .

كان « تونجا » قد كف عن لهجته المدعية. ربما لم يتوقع أن يطلب منه مثل هذا الإيضاح . لقد تخيل أن الـكارثة التى وقعت لباندا سوف تحطمه ، وأن الشاب سيتركه ينعم بانتصاره ، ولـكن هاهو يلوذ بالصمت .. كان شارداً وهو قابع فى ظلمة الغرفة. وتصور « باندا » أنه قد أفحمه وأراد أن يضيق عليه الخناق فقال :

— تـكلم إذن يا « تونجا » .. إنى مصغ إليك .. لماذا رفضت أن تؤدى لى هذه الخـــدمة التى لم تـكن لتـكلفك شيئا ، أنت الذى كنت دائم الاستقامة فى معاملتك لى .. ؟

ونطق « تونجا » بهذه الـكلمات وهو صاغر ، وكأنه يأسف على أنه ينطق بها :

— كنت قد بالغت فى السخرية منى ..

— كنت قد بالغت فى السخرية منك ؟ ... ما معنى هذا ، معنى أن أكون قد بالغت فى السخرية منك ؟ ألأنى كنت أقارعك الحجة بالحجة فى أحاديثك ومواعظك ؟ هل هذا ما تعنيه ؟ إنى لا أسألك الآن إلا إجابة عن هذا : من الذى زوج « زومى » ؟ إنه أنت ، أليس كذلك ؟ أنت أبوه . . ومن يجهل فى « باميلا » أن ابنك « زومى » هذا كان يغضبك عدة مرات فى اليوم ؟ من يجهل هذه الحقيقة فى باميلا . إنى

أسالك ؟ بل إنه كاد فى يوم من الأيام أن يضربك ، أليس كذلك ؟ومع ذلك فعندما آن الأوان لأن تزوجه نسيت كل إساءاته ، وبذلت قصارى جهدك لتزوجه . أما أنا فليس فى استطاعتك أن تغفر لى بعض الهفوات التافهة. لا ، لست أباً حقيقياً بالنسبة إلى . . وكيف يتسنى لى أن أعتبر نفسى ابناً لك ؟ لا ياتونجا ، إن أبى الحقيق قد انتقل إلى رحمة الله ، وأسفاه .. لو أنه عاش لكنت متزوجاً الآن ، لحصلت على كل النساء اللاتى أريدهن .ولا يكفى أن تكون أخا لوالدى لكى تصبح أبا لى، وأنا أفضل أن أذكرك بهذه الحقيقة . . . وتوقف فجأة .. هل سيقضى حياته كلها فى الشجار مع هذا الشيخ ؟ ماذا أفاد من كل هذا الشجار .. ؟

وصاح « تونجا » فجأة قائلا بصوت متهدج جعل الشاب يقفز من مكانه :

— إنك مخطىء ياباندا ، إنك مخطىء.. إنك ترتكب خطأ فاحشا . إنى أقسم أننى لم أرغب أبداً فى الإساءة إليك . إن أجدادى — رحمهم الله — يشهدون على أنى لم أرغب فى الاساءة اليك أبداً .. لم أكن أبغى إلاما فيه صالحك ..إنى أقسم يابنى أننى لم أكن أبغى إلا صالحك ..

— لو كان فى مقدورى أن أفهم على الأقل معنى ما تسميه صالحى .. ؟

— لقد أصبت يابنى ، لقد أصبت .. ها أنت تقولها بنفسك ، لا شك فى أنك تجهل حقيقة ما فيه صالحك وما فيه ضررك .. إنى أراهن على أنك تجهل ما فيه صالحك وما فيه ضررك .. وعلى أية حال لم تتكلم عنى أنا ؟ هل نسيت أن « باميلا » غاضبة عليك ؟ ما السبب إذن فى ذلك يا بنى ؟ .. أمن الممكن أن تغضب قرية بأسرها عليك دون ما سبب ؟ فكر فى هذا الأمر يابنى ، لا يمكن أن تغضب عليك قرية بأسرها دون ما سبب ..

وسكت وكأنه يريد أن يتبين تأثير هذا الدليل المفحم فى غريمه . ربما تصور أن لهذا الدليل الذى أبرزه من القوة ما يدفع الشاب إلى الاعتراف بالهزيمة ، أو على إعادة التفكير فى تصرفاته السابقة .. ثم أردف :

— إن ما نطلبه منكم ، نحن الشيوخ ، هو هذا : لا تكفروا بالطريق الذى سلكه آباؤكم لكى تقلدوا البيض .. إن هؤلاء الناس لاهم لهم إلاأن يخدعوكم ، ما تمنى الرجل الأبيض شيئا فى يوم من الأيام ، إلا جمع المال ، وعندما يجمع منه

الـكثير بتركك ويسرع إلى سفينة تعيده إلى بلاده ، ليعيش بين ذويه الذين لا يمـكن أن ينساهم لحظة واحدة ، بينما هو يحاول أن ينسيك ذويك وعشيرتك أو على الأقل أن ينفرك منهم ، فالرجل الأبيض لا صديق له ، وهو لا يعرف إلا الأكاذيب .. إن هؤلاء البيض يعودون إلى أوطانهم ويقولون عنا إننا من أكلة لحوم البشر . هل رأيتنى أو رأيت جدك أو أحداً من جدودك الأبعدين ، أو أحداً ممن كلمتك عنهم ، يأكل لحم بنى الإنسان .. ؟

تبا لهم ! لا تنقادوا وراء البيض.فيم أفادوكم ! لم يفيدوكم فى شىء .. ماذا تركوا لـكم ؟ لاشىء ، ولا حتى القليل من المال .. لم يتركوا لـكم إلا تلقينكم ازدراء ذويكم ، ومن أنجبوكم ..

وذعر « باندا » ، وشعر بقشعريرة تنساب فى ظهره فى كل الاتجاهات ، ونظر إلى « أوديليا ». كانت الفتاة مبهورة تنظر إلى الشيخ الذى يتـكلم هناك فى الظلام . وكانت تحدق فيه بعينيها إذ لم يكن فى مقدورها أن تراه جيداً ..

ولم يتمكن « باندا » من أن يخفى دهشته فهو بعد كل ما رأى اليوم ، لا يمـكنه أن ينكر أن « تونجا » العجوز على حق فيما قاله ، أو أنه على حق فى جزء مما قاله. إن هذا صحيح ، فالرجل الأبيض لا صديق له إلا المال ، الرجل الأبيض لا هم له إلا المال وجمع أكبر قسط منه .. وحتى رجال الدين من المبشرين ، عندما يكلمونك عن الله ، يسعون إلى الحصول على ما تتبرع به للـكنيسة ، وهم أكثر مـكراً من الرجال البيض .

نعم لقد أصاب « تونجا » ، فإن الرجل الأبيض إذا ما أراد أن يجمع مالا كثيراً فليس من الحـكمة أن تعترض سبيله وإلا أصابك ما أصاب « كوميه ». ياله من فتى تعس ! . يا لأخ « أوديليا » المسكين ! ..

— لا ، أقسم لك يا ابنى أنى لم أتمن لك الشر أبداً . لم أكن أريد لك إلا خيراً كثيراً . ولـكننا لم نعد قادرين على التفاهم ، لم يعد كلانا قادراً على التفاهم مع الآخر ، لـكأننا نتـكلم لغتين مختلفتين .

كان يبدو لباندا أنه هو وتونجا إنما يقفان فى زورقين مختلفين يطفوان على نهر

ضخم تياره شديد السرعة . كان كل منهما يمد يده للآخر، وكانت أيديهما تتلامس، وتتشبث الواحدة بالأخرى وتشد عليها ، كما كان كل منهما يريد أن يجبر الآخر على الانتقال إلى زورقه هو ليلحق به ، ولكنهما كانا يشدان شداً لا ينتهى بينما التيار الجارف يبعد الزورقين أحدهما عن الآخر ، وكانت كل دقيقة تمر تزيد من عمق الشقة بينهما . وعندما أعيتهما الحيل فى النهاية ، اضطرت يد كل منهما إلى أن تفك إسار الآخر ، وتباعدا كل فى ناحية ، وقلب كل منهما مفعم بالبغضاء .

وقال محدثا نفسه : ولكن لعله على حق فيما يقول ! إلا أن سوء ظنه بالشيخ لم يتلاش . لماذا لم يكلمه بهذه الطريقة من قبل ؟ ربما شعر بأنه هزم ، فأراد أن يهرب بهذه الوسيلة . ولكنه قرر فجأة أن يكف عن التفكير فى هذا الأمر . لا يجدى فلا أن يضيع وقته فيه وقال :

— يا أماه ، هذه صديقتى الصغيرة وهى مريضة وتشعر بإرهاق شديد . اتركيها تنام ولا تكلميها كثيراً .

وعلق « تونجا » على هذا القول وهو يتمتم وكأنه يحدث نفسه :

— لا نسمع أبداً إلا عن صديقات صغيرات . أهى حياة هذه ؟ ونساؤك ، زوجاتك الحقيقيات ، متى نراهن إذن ؟ .

— أخبرنى يا « تونجا » العجوز ، أهذا أمر يهمك فعلا إلى هذا الحد ؟

— وفيم يهمنى يا بنى ؟ ألم يعد للرجال المسنين حق الحق فى إبداء آرائهم ؟ وفيم يهمنى هذا الأمر؟ ولكن آباءنا نحن لم ينشئونا على مثل هذه العادات. إذا ما أعجبتك فتاة فاذهب إلى أبيها ، وحاول أن تكسب رضاه ، وعندئذ سوف تصبح هذه المرأة لك .

أما أنتم فتأخذون أول امرأة تصادفكم وتعيشون معها تحت سقف واحد أياماً وأسابيع وشهوراً وسنين ثم ، ذات يوم ، دون ما سبب تتركونها أو هى التى تترككم ! .. قل لى بحق السماء ، هل هذه حياة يا بنى ؟ إن هذه العادات ليست إلا عادات البيض ...

كان الشيخ يحدق فى الأرض وكأنه غارق فى تأملات عسيرة ، ولكن الشاب كان قد نهض ولم يعد يصغى اليه . كان يتفحص المريضة بعينيه وقال :

— يا أماه ، يجب أن أذهب . لا تسأليني إلى أين ، واعرفي فقط هذه الحقيقة : يجب أن أذهب مهما كلفني ذلك ، وسوف أعود اليك في صباح الغد .

كانت أمه صامتة لاتجيب . هل بدأت تحادث الموتى ؟

إن لحظة اللقاء مع من سبقوها إلى الجانب الآخر من النهر ، لحظة الحساب هذه طالما شغلت بالها — على حد قولها . لطالما تساءلت بقلق : ماذا سأقول لهم ؟ ربما كانت الآن تعد دفاعها ، لاشك أنها تشعر بأنها على حافة الموت .

كان يبدو في الأيام الأخيرة أن الأمل يراودها في أن ترى ابنها متزوجاً وكانت تؤجل رحيلها حتى تتحقق تلك الأمنية السعيدة . كان هذا الحدث السعيد بمثابة محور بنت حوله حياتها منذ مات زوجها ، أي منذ سنين عديدة . أما الآن وقد فقدت كل أمل ، فلم يعد هناك مايربطها بالحياة ، وهي تتصورها شيئاً سخيفاً لامعنى له ، وليس أمامها إذن إلا أن تتركها بأسرع ما يمكن .

وخرج « باندا » وأغلق الباب من دونه . وبينما هو يبتعد ، كان في إمكانه أن يسمع « تونجا » وهو يئن ويقول :

— كم أرثي لأبناء اليوم ! ماذا تخبئه الحياة لهذه الرؤوس الخاوية ؟ لقد دأبوا على عمل كل ما يحلو لهم ، أهي حياة هذه ؟ عندما كنا في مثل سنهم لم نكن نعتبر أنفسنا رجالا بعد ، كنا نسير عراة أو شبه عراة ، وكانت حضرة آبائنا تخجلنا ، ومهابتهم تؤثر فينا . أما هم فإلى أي شيء آلوا ؟ ألأنهم يرتدون الملابس الجميلة يستبيحون لأنفسهم أن يصحبوا صديقاتهم دون ما حياء أمام أنظارنا المخدوشة ؟.. إنهم لايبالون حتى بأن يرحموا عيوننا المسكينة نحن الشيوخ . إلى أين يسير العالم ؟ ...

الفصل التاسع

كان « باندا » يفكر فى « تونجا » وهو يجرى كالمعتوه . لم يكن يفهم هذا الشيخ ولا كل من هم على شاكلته ، وكانوا كثيرين فى « باميلا » .. ها هو « تونجا » يدعى أنه رجل كثير التجارب ! وقال « باندا » محدثاً نفسه :

— هذا أمر محتمل ، من المحتمل أن يكون « تونجا » ذا خبرة ، ولكن من يظننى إذن ؟ أيتصورنى مغفلا غير قادر على رؤية الأمور بوضوح؟ عجبا ! لقد أوشك أن يستحوذ على لبى منذ قليل بعباراته المعسولة !

« يابنى ، أقسم لك أننى لم أعن لك شرا أبداً . لم أكن أبغى إلا مافيه صالحك .. وأنا أراهن أنك تجهل حقيقة ما فيه ضررك .. » ، يستطيع أن يقول هذا الكلام للآخرين . عجباً ! أيمكن هذا ؟ لقد أوشكت على الوقوع فى حبائله . هل يتصور أننى ضعيف الذاكرة إلى هذا الحد ؟ ياله من عجوز قذر ! ..

إنى لأذكر أننى تشاجرت ذات يوم مع ابنه..وكان هو الذى أثارنى. كان يمتنع عن أن يرد إلى مبلغاً من المال كنت قد أقرضته إياه . ولقد أوشكت أن أبعث بهذا المخلوق القذر إلى قبره ، إلا أن « تونجا » أسرع بالذهاب إلى قارىء الغيب فى المرآة ثم عاد ليزعم لكل من أصغوا إليه أن إعياء « زومبى » لم يكن من جراء تلك المشاجرة فقد كان يخشى أن يظن الناس أن ابنه لا يتمتع بالقوة التى تمكنه من أن يؤدبنى ! لا ، إن إعياءه — كما ادعى — لم يكن بسبب مشاجرته معى ، بل نتيجة لالتجائى إلى السحر كوسيلة لإيقاع الأذى به. كنت على حد قوله ، أغار من ابنه ، إذ لم تكن لى امرأة مثله . هذا ماقاله قارىء الغيب — على حد ادعائه — وقد اضطررت تحت إلحاح أمى إلى أن أقابل قارىء الطالع الذى كذب قول « تونجا » بشكل قاطع . ياللعجوز القذر ! . عجباً ! هل من المعقول أن يكون قد أوشك أن يؤثر فى منذ لحظات ! لم أكن أريد لك أى شر .. ولم نكن قادرين على التفاهم... وكأننا نتكلم لغتين مختلفتين ... وهل يمكن أن تغضب عليك قرية بأسرها كباميلا دون ماسبب؟ تباً لك أيها العجوز القذر ! ...

إن ثورة « باندا » على « تونجا » لم يكن مرجعها أنه قال عنه سوءاً ، فإن مثل

هذا الكلام لم يكن ليبالى به ، وإنما مرجع ثورته إلى أن « تونجا » قد اضطره إلى الالتجاء إلى قارئ المرآة فى حين أنه كان يجاهر بأنه يزدرى علم هذا الأخير كل الإزدراء . لم يكن لينسى للعجوز أنه اضطره إلى النكوص علانية عما كان يجاهر به . لم يكن فى مقدوره أن ينسى ماشعر به من اشمئزاز عند زيارة هذا الساحر الذى كان يقف عارياً أمام مرآته، ولا تقززه من حركاته المتكلفة وادعاءاته وكل مراسيمه السخيفة التى لاطائل فيها . كيف يستطيع الناس أن يؤمنوا بخزعبلات هذا الرجل ؟ ومع ذلك فقد اضطر هو نفسه إلى أن يمر بهذه التجربة إذ بصرته أمه بحقيقة الأمر قائلة : « إن امتناعه عن الذهاب إلى الساحر سوف يكون معناه فى أعين سكان « باميلا » اعترافه بصدق ادعاءات « تونجا » وبصواب الاتهامات الباطلة التى وجهها إليه » .

وأخذ « باندا » يحدث نفسه قائلا : لقد أخذ ذات مرة يصب على لعناته . كان قد طلب منى أن أقطع أشجار حقله ، بينما كان ابنه غائباً منذ أسبوع يفرط فى الشراب فى مكان مجهول. طبعاً رفضت طلبه ... لم أكن ساذجاً إلى هذا الحد .. عجباً ! كان قد زوج ابنه بينما يريد منى أن أفصد عرقاً ودماً لكى أطعمهم ، هو وابنه المدلل وزوجته .. لا ، لم أكن ساذجاً إلى هذا الحد . ولكن عجباً ! لماذا استرجع كل تلك الذكريات الآن ؟ لو أنى أردت أن أسترجها جميعاً لما انتهيت أبداً . وهاهو يدعى أنه أب لى . وكلهم يدعون هذا لأنهم أشقاء أو إخوة غير أشقاء لوالدى . ولكن هذه الصلة لاتكفى ، كان عليهم أن يدركوا مع ذلك أن هذه الصلة وحدها لاتكفى، أن يفطنوا إلى هذه الحقيقة .. ولكنهم لم يألفوا التعامل مع شخص مثلى . إنى أراهن على أنهم لم يألفوا التعامل مع شخص مثلى يدافع عن حقوقه كما أفعل . ليس بينهم من يتمنى لى الخير حقا . إن ما يبغونه هو أن أكون على شاكلة الكثيرين من السذج الذين يتعاملون معهم . كنت أعاملهم كابن مطيع ، باحترام ، وكنت أؤدى لهم ما يلتمسون منى من خدمات ، ولا أرفض لهم طلباً ، ولكنى كنت أفعل كل هذا .. دون أن أستسلم لهم . ماذا عساهم يريدون منى ! أوه ، إن ترددى على المدرسة قد أفادنى فى شىء على الأقل : لقد تعلمت فيها ألا أمكن المسنين من أن يخدعونى . ليس بينهم من يتمنى لى الخير ، هذا شىء مؤكد . إنهم لايطيقون من يتوانون فى تنفيذ رغباتهم ، لاسيما إذا لم ينساقوا إليهم فى كل ما يفعلون . إن

كل يريدونه هو أن تنام عندما ينامون ، وأن نبكي عندما يبكون ، وأن نضحك عندما يضحكون ، وأن نبقى قابعين فى ديارنا عندما يقبعون هم فى ديارهم ،وأن نحيا حياتهم التعسة ، وأن نصبح مثلهم من هواة الوعظ والاعتراض على ما يفعله الغير . فأنت إذا ما أردت الذهاب إلى طنجة مثلا عليك أن تطلب منهم الاذن، وأن تلتمس بركتهم ، وأن تستمع إلى نصائحهم التى لا تنتهى ، وهى نصائح سخيفة لاجدوى فيها . وإن أردت أن تتزوج من امرأة ، تلك التى ستكون امرأتك أنت ، فهم يكادون يطلبون اليك أن ترغمها على خلع ملابسها ليفحصوا كل ما يظهر منها أو يخفى... إن ما يطلبونه منك هو أن تكون ابناً طيعاً ، مستسلماً ، خدوما ، يدين لهم بالاحترام دون ماسؤال أو اعتراض ... هذا هو الذى يطلبونه منك .

إن أمى لتدهشنى بدورها ، فما زالت تتعامل وتتآمر مع هذه العقارب العجوزة. ولا زالت تتقرب منهم وتستغفرهم بقولها : « شفقة ! شفقة بابنى ! » . إنها مقتنعة تماما بأن هؤلاء الدعين يمكنهم أن يطاردونى بلعنتهم . عجبا ! إنها تؤمن بذلك حقا ، وتتصور أن فى مقدورهم أن يلاحقونى بلعناتهم . ولطالما تساءلت : كيف يمكن أن يكون هذا فى مقدورهم ! حقيقة أنهم يلمحون إلى قدرتهم هذه بطريقة إيحائية ، ويوهمونك بأنها قدرة خارقة . عجبا ! أيمكن أن يكون هناك من يقع فى حبائل هؤلاء الناس ؟ لابد أنهم فى منتهى الغفلة . وهاهى أمى تصدق هذا القول بالرغم منأنها مسيحية .أما المبشرون فهم لايكرهونشيئاً كما يكرهونهذهالادعاءات. لو أن مبشرى طنجة علموا أن أمى أرغمتنى على استشارة رجل المرآة لامتنعوا فترة طويلة عن منحها بركاتهم ، فترة طويلة جداً . وهذه هى النقطة الوحيدة التى تختلف فيها أمى مع المبشرين : تقول أن مادام الشيطان موجوداً حقيقة — كما لقنها ذلك القساوسه — فلم لانعترف بأن تكون لرجل كتونجا أو كقارئ الغيب فى المرآة مثل هذه القوة الخارقة ؟...

أما عنى فلست مستعداً لأن أشغل ذهنى بمثل هذه الأمور . إن ماتشمئز منه نفسى هو أن الشبان الآخرين ، واليتامى أيضا ، تعوزهم الشجاعة إلىحد أنهم سمحوا لأناس كتونجا أو من على شاكلته أن يخدعوهم أو أن يعتدوا على حقوقهم : إنهم لايجرؤون أبداً على الكلام فى حضرة هؤلاء المسنين ، فالرجل العجوز فى نظرهم لايجوز معارضته حتى ولو لم يكن أباك ، ولذا فمن الأولى ألا تعارضه إن كان فعلا

أباك.. عجبا ! أليس الرجل العجوز — سواء كان أبا أو عما أو أى شىء من هذا القبيل — بشراً مثلنا ؟.. آه لو أمكن فقط أن يفهم الشبان هذه الحقيقة ! ولكن من المحال إقناعهم بأن من الممكن مجابهة أى شخص كان مادام سلوكه غير مستقيم ، وهم بدورهم يحقدون على ماعدا بعضا منهم ، وإن كان هؤلاء لايجرؤون على الجهر بعدم حقدهم على .

يا إلهى ! لن أبقى أسبوعا واحداً فى «باميلا» بعد وفاة أمى : أنا لا أتمنى موتها ، لأنى أحبها حبا جما . ولكن إذا ما توفيت مع هذا ! عندئذ سوف أكون فى حل من الرحيل ... سوف أذهب إلى « فورنيجر » ، سوف استقل القطار ، وأسافر طوال اليوم حتى أصل إلى مدينة « فورنيجر » . ولكن عجبا ! إن تونجا قد أصاب عندما تكلم عن البيض . فهم لاهم لهم إلا كسب المال من وراء ظهرك ، وويح لك إن انت اعترضت على سلوكهم . لقد أصاب « تونجا » عندما تكلم عنهم .. وحتى المبشرين ، بردائهم والصليب الذى يحملونه ، ولحيتهم الطويلة ، ليسوا أفضل من الآخرين .. كل ما يتميزون به هو انهم أكثر دهاء .. فهم يطلبون منك مائة فرنك إذا ماأردت أن يغفروا لك ذنوبك عند الاعتراف، أو مائتين من الفرنكات إذا ما رغبت فى أن تعمد طفلك ، وألف فرنك إذا ماشئت أن تتزوج على يد قسيس ، وخمسمائة من الفرنكات إذا ما اردت أن توفى رسوم الكنيسة، وكذا لكى يقبلوا ابنك فى المدرسة وكذا لكى يعفوه بعد قبوله من الأعمال اليدوية ، وكذا لكى يقرعوا نواقيس الكنيسة الكاثوليكية عند دفن امك...عجبا! إن همهم الأكبر هو المال،حقا إن كل مايتميزون به هو دهاءهم . ها أنا ياأبى أحتضر ، كنت أنتظر حضورك ،أتوسل اليك أن تقترب منى وأن تصغى إلى خطاياى ... فيجيبه قائلا: « انتظر قليلا يابنى . هل دفعت ماعليك للكنيسة عن هذه السنة ؟ » .

آه ! أوه ... نعم هاهى الحقيقة ... لقد وجدتها . نعم ، إنى أرى الآن الأمور بوضوح ... إن البيض والمسنين ، والمسنين والبيض فى حقيقة أمرهم ، لايختلفون بعضهم عن بعض ... كلهم سواء ... ولكن أصحيح أن المسنين والبيض سواء؟... آه ، لا ، ليس هذا بصحيح . ليس الرجل الأبيض كالرجل المسن بالضبط ، فالرجل الأبيض همه الأول هو المال ، المال الكثير ، المال الوفير ... إنه يريد أن يكسب مالا ، ولا شىء سواه . اما الرجل المسن فأمره اكثر تعقيداً : يجب عليك ان تصغى

إلى مايقول من الصباح إلى المساء ،وان تؤمن دائما بما يقول ، وان تعجب بما يزعم. يجب أن تكرر دائما على مسامعه بأنه على حق فيما يقول، وأنه حكيم ، وأن تعترف بأنه قد جاب العالم بأسره وعرف خباياه ، وأنه عليم ببواطن الأمور وحقيقة الأشياء حتى ولو كان ظاهراً للعيان أنه احمق مخرف . لا ليس هذا صحيحاً فالرجل الأبيض ليس بالضبط كالرجل المسن ، فرجل من رجال باميلا الأقدمين لن يرضى أبداً ان يكسب مالا من وراء ظهرك لأنه لايبالى بالمال ، بل إنه قد يعطيك مالا إن كان لديه مال . نعم ربما اعطاك من ماله بدون مقابل ،لمجرد أن تعجب به ، لمجرد أن تمتدح حكمته ورجاحة عقله بل ربما قال لك أحيانا :

« تعالى يابنى وساعدنى فى أعمال حقلى ، أرجوك أن تساعدنى . هاأنت ترانى قد تقدمت بى السن وضاعت منى قواى .. »

ولكن هذا الطلب مشروع لاسيما إن لم يكن لهذا الرجل ولد . أماه تونجا ، فإن له ولداً ، ثم أن هذا قلما يحدث . أما الرجل الأبيض فلاهم له إلا كسب المال ثم العود إلى وطنه .. وويح لك إن أنت اعترضت طريقه ..

أيهما أفضل ؟ رجل أبيض من طنجة أم رجل مسن من «باميلا»؟ .. أيهماأفضل؟

لو أن أحداً أمكنه أن يساعده فى الاجابة عن هذا السؤال! .. أيهما أفضل ؟

ومر براحته على جبهته دون أن يجد إجابة لسؤاله . ثم تدرج به الأمر إلى أن يقارن بين « باميلا » وطنجة بدلا من أن يقارن بين شيخ من باميلا ورجل أبيض من طنجة . أيهما أفضل ؟ .. « باميلا ، أم طنجة ؟ .. « باميلا » أم « فورنيجر » ؟ لقد سكن مدينة طنجة من قبل وكان يعرفها حق المعرفة ، ولم يكن فى مقدوره أن يتخيل شيئاً فى « فورنيجر » يختلف عما رآه فى طنجة ، اللهم إلا أن تكون أكثر بهاء . أيهما أفضل « باميلا » أم طنجة ؟ .. « باميلا » أم « فورنيجر »؟ ..

وعندما طرح هـذا السؤال راودته فكرة : وهى ما تقوم به هاتيك النساء الكريمات ، المتفانيات ، اللاتى يهرعن إلى والدته طوال النهار ، ليقضين حاجاتها ويسلينها فى وحدتها ، ويشجعنها ، ويهون عليها كآبة الحياة . إن تلك النساء هن أنفسهن اللائى ساعدنه على حمل محصوله من الكاكاو .. وهل الخطأ يرجع إليهن إن كان

المراقب قد ألقى به فى النار ؟ وأخذ يفكر فى « سابينا » و « ريجينا » وفى كل أولئك النساء ولم يستطع أن يبعد فكره عنهن . لم يكن فى طنجة من يشبههن ، وهو لن يجد بالطبع مثلهن فى « فورنيجر » . هاهن يعنين بأمه ويؤنسن وحدتها طوال النهار ، كل يوم ، دون ما كلل ودون ما شكوى : « سابينا » و « ريجينا » .. « هل نسيت أن باميلا بأسرها غاضبة عليك ؟ » .. ليس ماتقوله بصحيح أيها العجوز القذر . إن « باميلا » بأسرها ليست غاضبة على ، ليس ماتقوله صحيحا . وهؤلاء النساء . « سابينا » و « ريجينا » ، والآخريات ، هل هن غاضبات عليه بدورهن ؟ إنهن على العكس من ذلك يحببنه كما يحببن ابنا لهن . ألم يحاولن بشتى الطرق أن ينتزعنه من براثن رجال الحرس الإقليمى ؟ أما عنه هو فكان يفضل دون شك عدم المبالاة المطلقة وقسوة سكان طنجة الشمالية المنهمكين فى شئونهم الخاصة . . مثلهم فى هذا كمثل البيض . كان يفضل هذا على شفقة واهتمام ومشاركة أهل « باميلا » اللائى بالمراعاة . لم تكن « باميلا » لتؤثر فيه لولا وجود أمه فيها .

وقال محدثا نفسه : لو أن ماحدث لكوميه كان فى « باميلا » ، لو أن هذه الضحية كانت تسكن قريته ، لكان من المؤكد أن يناصرها أهل القرية جميعا قلبا وقالبا ، حتى ولو لم يكونوا قد احبوها من قبل : فلقد حدث مثل ذلك من قبل مرات عديدة ، بينما ها هو الحادث فى طنجة قد مر دون أن يبالى به أحد .

عجبا لهاتين الرأتين : « سابينا » و « ريجنيا » ؟ إنهما لم تشعرا بالملل من العناية بأمه . من كان يعنى بها فى طنجة بهذه الطريقة ؟ لقد حزم أمره على ترك « باميلا » بعد موت أمه ، ولكنه شعر بأن مجرد وجود مثل أولئك النساء فى قريته سوف يشعره بحنين أبدى لمسقط رأسه . وكان فى هذه الأثناء يجرى أو يكاد يجرى . ونظر من حوله بعناية ، ودقق النظر فى الطريق محاولا أن يتبين موقعه بين الطريق العام والنهر . عجبا ! هاهو قد قطع أكثر من نصف المسافة دون ان يشعر . ياللهامن عادة سيئة ! إنه يفكر دائما فى أشياء بعيدة كل البعد عما يفعله ...

كان القمر قد تلاشى وكانت الظلمات كثيفة والنجوم متناثرة فى الأفق لها بريق شديد ، الأمر الذى جعل « باندا » واثقا على الأقل من أن السماء لن تمطر .

ولم يكن القمر لحسن حظه مكتملا ، وإلا لخشى أن يراه أحد فيتعرف عليه ... إذ لم يكن راغبا فى أن يكلم أحداً .

وصرخت بعض القرود على بعد ، وكان صراخها مصحوبا بضوضاء كدق الطبول. ياإلهى ! من يستطيع أن يشرح لى كيف تنجح فى إحداث هـذه الضوضاء العجيبة ؟ من يستطيع أن يفسر لى هذا الأمر ؟ البعض يدعى أن هذه الضوضاء إنما تصدر عن دق القردة بقبضاتها على القوائم التى تسند الأشجار الكبيرة . ولكن هذه القوائم توجد دائما بالقرب من الأرض . ومن منا يجهل أن قرود الشمبانزى تأوى إلى قمم الأشجار لتنام ؟ أيمكن أن يهبط الشمبانزى فى الليل من أعلى الشجرة التى استقر فوقها ليضرب على قوائم الأشجار ؟ من عساه يوضح لى الأمر ويخبرنى كيف تسبب تلك الضوضاء ؟ لعلها تضرب بقبضاتها على صدورها كما يدعى آخرون ؟ هل قصباتها الهوائية قوية تعكس الصدى ... إن قرود الشمبانزى تطلق صراخا مصحوبا بصوت متقطع مكتوم كدقات الطبل . وأدرك أن بينه وبين الفجر أربع ساعات أو خمس . كان عليه أن يسرع إن كان يريد ألا يراه أحد حاملا الجثة . كان عليه أن يحث الخطى كيلا يراه أحد ...

كان يحمل تحت إبطه لفة بها ملابس نظيفة إذ كانت تلك التى يرتديها شديدة القذارة لايستطيع أن يظهر بها على الملأ دون أن يلفت الأنظار إليه . سوف يبدل إذن هذه بتلك بعد أن يفرغ مما عزم أن يفعله ، اللهم إلا لو حدث شىء للجثة . ياله من خاطر ! ... هل يمكن أن يحدث للجثة شىء ؟ ...

وفكر فجأة فى « أوديليا » ، وراوده ذلك الشعور الغريب بالقرابة . كان لايزال يجرى أو يكاد يجرى ... والعرق يتصبب من جسمه : كان يبدو له أنه فى نفس اللحظة التى فكر فيها فى « أوديليا » ، قد عبر منطقة تهب فيها ريح ساخنة ، وهنا خفق قلبه خفقانا سريعا .

ووصل أمام النهر ، وكان الليل يغلفه بظلماته الكثيفة ، وقفز فى الزورق الطويل الذى كان يستقله منذ قليل ، وابتعد وهو يضرب بمجذافيه ضربات سريعة .

اللهم ألا يكون قد حدث شىء للجثة . ولكن ماذا عسى أن يحدث لها ؟ لماذا لم يصادفه الحظ أبدا ، هو « باندا » ؟ لقد أقسم أن ينقذ رجلا مهما كان الثمن ، وهاهو الرجل قد مات بأسرع مما كان يمكن أن يتصور . لعله يحسن صنعا لو أنه كف

عن القسم . لكأن شيئا ما أو شخصا ما يجد لذة فى القضاء على مشاريعه التى تهيأ لتنفيذها بعناية فائقة . لو أن أهل « باميلا » علموا بهذا الأمر ، فماذا كان سيقول شيوخهم ؟ ... وعاودته كلمات « تونجا » : . . . « هل تجهل أن « باميلا» بأسرها غاضبة عليك ؟ » . ولكن مامعنى هذه الكلمات « باميلا بأسرها » ؟ . . أيعنى عشرين أوثلاثين عجوزاً ؟ ... عجبا! وماذا فعل بالآخرين كلهم ؟ .. ماذا فعل بأناس مثل « ساابينا » و « ريجينا » ... وهم مئات ، ماذا فعل بهؤلاء، إنى لأتساءل ؟ حقا إن كلانا يتحدث بلغة تغاير لغة الآخر .

لو أن أهل « باميلا » علموا بهذا الأمر فماذا كان سيقول شيوخهم ؟ كانوا سيقولون أن اللعنة تطارده ، وأنه سيبقى دائما ولداً فاسداً ... لو أنه استطاع فقط أن يبيع محصوله من الكاكاو ، لتزوج ولا ستطاع هكذا أن يثبت لأعمامه ولهؤلاء المسنين أن المرء يستطيع أن يسلك الطريق الذى سلكه هو وأن ينجح مع ذلك . ولكن هل هذا ممكن حقا ؟ أيمكن أن يتصرف المرء كما تصرف هو ، فلا يحول هذا بينه وبين النجاح ؟

كان يكفى أن ينطق المراقب بكلمة صغيرة ... كان فى استطاعته أن يقول مثلا : « إن هذا الكاكاو جيد » ... ، كانت هذه الكلمة تكفيه حقا . ولو أن المراقب قالها لتوجه إلى السيد « بالوجا كيس » ، ولسأله بالفرنسية : « كم تدفع ثمنا للكيلو جرام ؟ ستين فرنكا ! ... حسنا ، وبينما يكون السيد « بالوجا كيس » مشغولا بإجراء الحساب ، كان سيفعل مثله بدوره ، لمجرد أن يثبت له أنه ليس بمغفل قط لاحول له ولا قوة ، وأن عليه أن يحول بينه وبين سرقته . كان سيباشر عندئذ بنفسه عمليات الوزن ، وسيراجع النتائج ، فهذا السيد « بالوجا كيس » يعمد إلى طرق شاذة مريبة فى استعمال ميزانه . ياإلهى فيم يفكر الآن ؟ . . .

لا ، إن كان « كوميه » قد لقى حتفه فلا تقع عليه هو تبعة ذلك . إن هذا الفتى كان معتزاً بنفسه ، مفرطا فى هذا الاعتزاز . لم يكن يطيق أن يسمح للاخرين بإرشاده . لقد أراد أن يسير على « السقالة » بمفرده ، دون ضوضاء ، لمجرد أن يثبت لنفسه أن أحداً لايستطيع أن يرشده . ياللفتى التعس! . . أما أنه شديد المراس فقد كان شديد المراس حقا ، شقيق « اوديليا » هذا . . . ولكن على رأس من

يقع وزر مصرعه ؟ . . . وهنا استشعر « باندا » بالرغم من كل شىء إحساساً أليما بالمسئولية .

وصدر عن الزورق صرير وأزيز عند اصطدامه بالرمال ، وانتهز باندا فرصة هذه الهزة التى دفعته إلى الأمام ، فقفز إلى خارج الزورق . إنه لن يكف أبدا عن التفكير فى اشياء بينما يفعل شيئا آخر . . لن يقلع ابداً عن تلك العادة السيئة . . . لابد من أن هذه الخصلة كامنة فى دمه . كان يجرى على الشاطىء فى اتجاه مكان الجثة ، ثم توقف فجأة . لا ، ليس هذا ما يجب عليه أن يفعله . وعاد أدراجه وصعد إلى زورقه الذى أعاده إلى الماء بأن غرس مجذافه فى الرمال وضغط عليه بكل قواه . وتبع التيار وهو يقود قاربه فى محاذاة الشاطىء الأيمن . كان وحيداً بين طيات ظلمة الليل التى تحجبه عن أعين الفضوليين ، وكان يشعر أنه يتآمر ، وهو إحساس كان يطيب له بالرغم من وحشة وحدته فى هذا الظلام . لم يكن يطلب العون من أحد ، بل من الليل .

وأخذ ماء النهر الثقيل الصاخب يرتطم بالهيكل الخشبى كما أخذ قاربه يهتز بشكل خطير ، ولذا راح يربطه على مسافة غير بعيدة ثم عاد أدراجه عن طريق الممر .

كان قد قال لكوميه فى نفس تلك البقعة : « انتظر ... وحذار أن تتحرك ... سوف أشعل عود ثقاب ... » آه ! لو أنه انتظر إشارته لما كان الآن جثة هامدة . كان « باندا » يشعر بالجوع ، وفطن والحسرة تملأ قلبه إلى أن فرصة الأكل لن تتاح له إلا بعد مرور فترة طويلة . كان عليه ألا ينسى أن يأكل شيئاً عندما كان فى « باميلا » منذ فترة وجيزة . لقد أفاق الآن تماما من سكرته . عجبا ! إن التل على هذا الجانب من الجدول ليس مرتفعا ، لم يكن مرتفعا إلا على الشاطىء الآخر فى الجانب الذى ناضل فيه نضال الجبابرة لينقذ « أوديليا » من السقوط القاتل فى الهوة ، أما فى هذا الجانب فكان الوصول إلى الوادى ميسوراً إلى حد ما .

وسار على الصخر البارد وهو يضرب الماء بقدمه فى كل خطوة يخطوها ، متجها إلى الأمام . عسى ألا يكون قد اهتدى أحد الناس إلى مكان الجثة ... المهم ألا يكون أحد قد اكتشفها ... ولكن من عساه يكتشفها ؟ .. ولمس الجسد المتقلص البارد الذى كانت الحياة تدب فيه منذ قليل . وأدار الجثة وتحسسها وفحصها بالقدر الذى تتيحه ظلمة الليل . لا ، لم يحدث شىء للجثة .

وقال محدثا نفسه : لم يكن مع ذلك ولداً شريراً . ولم يلحظ أنه بقوله هذا إنما يعتنق نفس مبدأ « تونجا » العجوز الوثنى وأمه المسيحية وكانا يعتقدان أن سلوك المرء إنما يحدد نوع الميتة التي يلقاها . وحاولت عيناه بشكل غريزى أن تلقيا نظرة على وجه « كوميه » ، إلا أنه لم يجرؤ على هذا فى آخر الأمر . وبالرغم من أن الليل الذى يغمرهما بعتمته لم يكن يتيح له الرؤية فقد كان يخشى أن يرى ما يمكن أن يكون الموت قد رسمه على ذلك الوجه من تعبير قد يكون تقلصا مفزعا أو ابتسامة بشعة . ما أكثر حالات الوفاة والحوادث العنيفة التى شاهدها ! فحوادث السيارات كانت تجعله يرى مثل هذه المناظر كل يوم ، أما أن يرى رجلا تهشمت جمجمته فى نفس الوقت الذى غرق فيه ، فهذه حالة لم ير مثلها من قبل .

كان يخشى أن يقرأ على هذا الوجه مدى مالاقاه أخ « أوديليا » من عذاب : ربما لم يتعذب على الإطلاق ، وربما يكون قد لقى من العذاب ما يفوق التصور ... هل مات بعد أن اصطدم رأسه بالصخر مباشرة ؟ أم أن الماء أكمل فعل الحجر ، بدخوله فى فمه وخياشيمه وغيرها من الفتحات ، وبتجميده الدم فى عروقه ، وهو ماء بارد كالثلج ؟ ... وسجى الجثة فى الزورق ، ووقف فى مؤخرته ، وأخذ يجدف ببطء لمجرد دفعه ، ثم لم يعد أمامه بعد ذلك شئ يفعله سوى توجيه مطيته التى كان يحملها التيار ويجرفها ، وكان التيار سريعاً بسبب الفيضان . ومع ذلك لم تكن مهمته سهلة . لم يكن « باندا » قد اجتاز هذا الجزء من النهر منذ أمد بعيد . وهو إذا ما بقى فى وسط النهر تعرض زورقه للانقلاب بسبب سرعة التيار فى هذه المنطقة . ولم يكن فى مقدوره أيضاً أن يسير فى حذاء الشاطئ ، لأن أنواعاً متعددة من العوائق كانت تتراكم فى هذا الجانب ، كما كان الماء فيه شبه راكد . ورأى أن أفضل ما يمكن عمله فى هذه الحال هو أن يتلوى بزورقه فى منتصف المسافة بين الشاطئ ووسط النهر .

ولكن كانت هناك الصخور . كيف يتجنبها ؟ إنه يعرف أن الصخور تنتشر فى هذا الجزء من النهر ، ولكن ما العمل لكى يتبينها خلال ستار الظلمات التى تحيط به ؟

كان يجلس على مؤخرة الزورق مشدود الأعصاب متقلص العضلات ، وكان فى كل لحظة يتوقع أن يحدث شئ فظيع فترتعش أوصاله قبل حدوثه . يا للحظ !

ما العمل حتى يتجنب هذه الصخور ؟ لعل النهر قد ارتفع مستواه فغمرها بالماء ؟ ... وربما مر من فوق هذه الصخور دون أن يلمسها ؟ وأردف : ولكن لا ، ليس هذا ممكنا . ربما اختفت بعض هذه الصخور تحت الماء ولكن لا شك أن البعض الآخر يظهر فوق سطحه ، إنى متأكد من ذلك . هناك سلسلة من الصخور تبرز من الماء ، ولا يمكن أن يغمرها الماء تماما ، فلم يغمرها الماء كلية أبدا . ولكن كيف يتجنبها ؟ لاشك أن صخرة ستشق قاربه بعد قليل ... ولن يستطيع عندئذ أن يستمر ... لاشك أن هذا سيحدث ، بل إن وقوع هذا الحادث شيء مؤكد. إن النحس يطارده . هناك شيء ما يتلذذ بإفساد مشاريعه كلها ، ولا سيما تلك التى يهمه نجاحها وتلك التى يعد لها أحسن إعداد .

كان الزورق ينساب برفق وهدوء فوق الماء . أما « باندا » فكان يحس أن شيئا يتألف من السكون والليل والوحدة يغمره . كان يستشعر نوعا من الثمالة : إن انهماكه يستحوذ عليه كلية ويمنعه من التفكير فى مصائبه الأخرى ، فى حقيقة حياته . هناك حقيقة واحدة ، وهى الحقيقة الواقعة ،المباشرة التى تشغله الآن . وهذه الحقيقة ملحة تفرض نفسها وتسبب له هذا الشعور بالثمالة .

كان مشدود الأعصاب متقلص العضلات ، يتصور فى كل لحظة أن قاربه سوف يرتطم بنصل حجرى مدبب ، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث ، وكان هذا الشعور لغرابته يسبب له نوعا من خيبة الأمل ... كان يتفحص الليل وهو مقطب الجبين ، وجفناه شبه مغمضين . لقد قطع نصف المسافة التى كانت تفصل بينه وبين طنجة — عند بدء مغامرته — وبين الجسر الشيد من الأسمنت المسلح .

وبدأت الثقة تعود اليه من جديد ، وبدأ يتنفس بسهولة أكبر ، وبدأت أعصابه تهدأ ... وهنا وقع الحادث .

اصطدم هيكل زورقه بشيء صلد قذف بباندا إلى الماء ، ولذا لم يستطع أن يتجنب شرب بعض جرعات من الماء ، ولكنه تمالك نفسه فى سرعة البرق ، وانتفض ثم رأى قاربه بين رجفتين من عينيه ، ومد يده حيثما اتفق فلمست المركب ، وتشبثت به ومر براحة يده اليسرى على وجهه وفرك عينيه . كان الزورق يهتز بعنف ،

ولكنه استرد اتزانه ببطء شديد بفعل ضغط « باندا » عليه . وتبين عندئذ أن زورقه لم يشق بسبب ارتطامه بحد الصخر ، وأنه لا يزال يطفو على ماء النهر وينساب مع التيار ، كان مستمرا فى طريقه حاملا « باندا » . ودون عناء انتفض واقفا إذ كان لايزال يمسك بالمجداف . ولكن كيف تسنى له أن يحتفظ به فى يده اليمنى ؟ ... آه ، نعم ، إن نفس اليد التى تشبثت بحافة الزورق كانت تمسك فى الوقت ذاته بالمجداف .

وتحسس الخشب فى مكان الصدمة بعد أن رفع الجثة ، ولكنه لم يشعر بأى تسرب للماء . لم يصبه أى تلف لحسن الحظ . صخرة ! لقد اصطدام بصخرة ... كان لابد أن يحدث هذا ، وكان يتوقعه ، وقد أخطأ إذ منى نفسه بتجنبه . وتساءل عما يمكن أن يحدث فى لقائه الآخر بالصخور ، ولكنه لم يصطدم بصخور أخرى لحسن الحظ .

وتبين على بعد ومضات مصباح ، وسعد بهذا . لقد كانت صادرة عن مصباح الحارس الليلى لورشة قطع الأخشاب التى يمتلكها « بنديق » ... لم يعد يفصل بينه وبين الجسر إلا ستة كيلو مترات فقط . كان التيار يجرف الزورق بسرعة .

وهدأت أعصابه ونفخ . إنه يشعر بالعرق يبلل جبهته وخديه . واقترب من الشاطىء باحثاً بعينيه عن بقعة مغطاة بالأعشاب ليرسى فيها زورقه ... عجبا ! ماذا حدث لزورقه ؟ يالسوء الحظ ! هاهو الزورق يهتز بعنف ويدور حول نفسه فى تشنج مخيف . عجباً ! هاهو يوشك أن ينقلب ... كان عليه أن يحتاط للأمر ... إنها الدوامة ... نعم هى بعينها . لقد وقع فى براثن دوامة فوق هوة عميقة فى النهر ، هذه الهوة المشهورة ... كان عليه أن يتذكر هذا الأمر ... إذ لم يكن يجهل وجودها ... نعم ، ولكن ظلمة الليل على أى حال لم تكن لتتيح له الاهتداء إلى مكانها ، هذه الدوامة الملعونة ! ... لاشك أن هناك من يلهو بما كسته . لابد أن هناك من يطارده بلعنته . . . وهنا خرج مارد باميلا من عقاله وأخذ يضرب الماء بمجدافه فى حركات مسعورة غاضبة ، وأخذ المجداف يكتسح أطنانا من الماء فى بضع ثوان .

وكف الزورق عن الدوران وعن الاهتزاز ، وأخذ ينساب من جديد ببطء شديد فوق الماء ... متردداً . . . تدفعه ضربات متتالية من المجداف ، ضربات قوية عنيفة ويائسة . عجباً ! لقد نجا من الهلاك بمعجزة ، إنها معجزة لاشك فى ذلك .

وجفف بظهر يده جبهته التى كانت تعلوها قطرات العراق والماء . كان عليه أن يتذكر هذا الأمر : إن عبور هذه الدوامة أمر مستحيل ، بل إن ماحدث له كان سيقضى عليه بالهلاك لامحالة . ولكن هاهو لحسن الحظ قد أفلت من الموت . ولكن عجباً ! كيف تمكن من أن يفلت هكذا ؟ هل نصيبه من الحظ أكبر فى حقيقته مما يتصور ؟

ولم يهتد إلى البقعة المغطاة بالأعشاب التى كان يبحث عنها إلا على مسافة بعيدة - ودفع زورقه الذى قفز فوق الساحل ، ثم حمل الجثة ووضعها على الماء ، وتوغل فيه هو نفسه ، وسبح شطر الجسر ببطء وسكون وحرص شديد ، وهو يدير نظره من حوله . وسحب جثة « كوميه » التعس . لقدر قدر للمسكين أن يسبح مرة ، مرة واحدة على الأقل . كانت الوحشة والليل والسكون الشامل قد بدأت تثقل عليه ، وقال محدثاً نفسه : « سوف أفصم بعد قليل علاقتى بهؤلاء الحلفاء » .

ولما وصل على بعد بضعة أمتار من الجسر اقترب من الشاطىء ووقف على قدميه ، ثم توغل فى الماء دون أن يكف عن سحب الجثة التى وضعها على الرمال بحيث تبقى قدماها فى الماء وبقية الجسم على الأرض الجافة . أما هو فلم يخرج قدميه من الماء لحظة واحدة ، إذا كان يخشى أن يترك آثاراً وراءه .

كان قد تأهب لترك « كوميه » لمصيره ، بعد أن ودعه بنظرة أخيرة ملأى بالإعجاب والشفقة معا . وعندئذ جاءته فكرة ، فكرة عظيمة . عجباً ! . . .

لقد أظلمت عيناه من شدة دهشته . لم يكن قد فكر فى هذا من قبل .. كان من الممكن أن يرحل دون أن يفكر فى هذا . لم يكن ليغفر لنفسه أبداً هذا النسيان . وأدخل يده بانفعال فى جيب جثة « كوميه » الأيمن بعد أن قلبها قليلا . هاهو ينحنى على الجثة ويتحسس بأصابعه جميع أركان الجيب المبلل ، ثم اصطدمت أنامله بقطعة من الصلب البارد ، ولا شىء سواها . وسحب المدية . كانت من الطراز الصغير المتداول ، ولم يكن يميزها إلا فتاحة للزجاجات ، وأخذ يلفها بين أصابعه . لا ، لن يأخذها معه فقد يرتاب رجال الشرطة إن لم يعثروا على شىء فى جيوب « كوميه » ... لا يمكن أن يعرف المرء مايتراءى لهؤلاء الرجال ، ويجب أن يكون على حذر . مازال منحنياً على الجثة . وأعاد المدية إلى الجيب الأيمن ، وأدخل يده الأخرى فى الجيب

الأيسر بعد أن قلب الجثة على الجانب الآخر . إن أنفاسه تتلاحق . ولمست أنامله شيئاً مبللا فأخرجه ، كان لفة صغيرة أخذت أصابعه المرتعشة تفكها بانفعال ، إنها قطع من الورق ،قطع كثيرة من الورق لفت فى قطعة من القماش. وفحص الأوراق باهتمام . . . ماذا عساها تكون ؟ وشد قامته وفحصها بعناية وهو يحلق بعينيه . . . يا للغرابة ! لقد أوشك أن يفقد رشده . . . ودارت الدنيا من حوله لحظة . إنها أوراق نقد . أوراق نقد كثيرة . . . أوراق نقدية من الحجم الكبير ، جديدة ، تكاد تكون جافة ، أوراق مقواة تحدث خرخشة عند لمسها . لم تكن أوراقاً من الحجم الصغير ، بل كانت كبيرة كتلك التى لا يراها المرء إلا بين أيدى اليونانيين . . .

وعاد إلى الماء مسرعاً ، وأخذ يسبح بإحدى يديه بينما أمسك بيده الأخرى كومة أوراق النقد رافعاً إياها فوق مستوى الماء . كان يرتاب فى الأمر . . . لاشك أنهم استولوا على مال الرجل . ماقيمة أوراق هذه اللفة ياترى ؟ ولكن هل هى أوراق نقد حقاً ؟ وبالرغم من ظلمة الليل استطاع أن يتبين أنها أوراق نقد حقيقية ، . . . كان مستعداً أن يراهن برأسه على أنها أوراق نقد حقيقية . إن أوراق النقد لاتشبه أى شىء آخر غير نفسها . . . ثم إنها ليست من الحجم الصغير كالتى ترى بين أيدى صغار التجار السود . . لا ، إنها كبيرة ، سميكة ومقواة تحدث خرخشة عند اللمس ، صفحاتها عريضة . عجباً ! كم تبلغ قيمتها ياترى ؟ . . .

ثم لم يعد يفكر فى شىء بالذات لأن كل شىء أخذ يتراقص ويتدافع ويصطرع فى رأسه . كان بوده أن يتعلل بالأمل ولكنه لم يجرؤ على ذلك ، فقد تعلم ألا يتسرع فى الأمل ، بينما أخذت دقات قلبه تتلاحق بسرعة .

ووصل إلى زورقه فركبه ، ثم عبرت صورة خطيبته مخيلته ، ولكن ذهنه بقى جامداً لايتحرك . ماأعجب هذه العادة السيئة التى تجعله يفكر فى شىء فى الوقت الذى يكون فيه منهمكاً فى شىء آخر ! وعاد إلى رشده . إنه يخطىء إذ يستسلم للأمل . يجب ألا يستسلم المرء سريعاً للأمل . واجتهد ألا يستسلم له ، ولكن أملا كبيراً مع ذلك رواد قلبه .

أخذ يدور بنظره من حوله فى ريبة وشك . ربما كان شخص مجهول يختبىء فى مكان ما ؟ ومن يضمن له ألا يراه أحد ؟ ... وبعد أن شعر ببعض الرضا إثر هذا

الاستيثاق السريع دس لفة أوراق النقد فى جيب سرواله القصير الذى أتى به ليستبدله بسرواله المبلل . آه لو استطاع أن يعرف قيمة هذه الأوراق ! واختار مكاناً خفياً بين الأعشاب الكثيفة ليرتدى فيه اللابس النظيفة التى أتى بها ، ومن بينها السروال القصير الذى خبأ فيه الأوراق النقدية ، وأخذ يتساءل عما يمكنه أن يفعل بملابسه المبللة الملوثة . حسناً ، سوف يغرقها ... نعم هذا أفضل ما يمكن أن يفعله ، سوف يغرقها ... هذه الفكرة طيبة ، سوف يغرقها .

كان عارياً ، وصعد إلى زورقه حاملا معه ملابسه الملوثة بعد أن ترك الأخرى النظيفة على الساحل . وتردد لحظة . ربما لم يكن من الحيطة أن يترك الأوراق المالية هكذا ... فقد يكون هناك شخص يختبئ فى مكان ما ... ماالعمل ؟ ولكن ماذا عسى أن يقع للفة أوراق النقد ؟ . . . هل يمكن أن يكون هناك شخص يختبئ على مقربة منه وهل كان فى مقدور هذا المجهول أن يتكهن بمجيء « باندا » فى هذه الساعة ؟ لا لن يحدث شيء .

وأخذ يجدف ، وشق الزورق الأمواج بثبات فى طريقه إلى عرض النهر ولما وصل إلى منتصفه ألقى « باندا » بنفسه فى الماء ، ثم تعلق بطرف الزورق وضغط عليه بكل قوته . وغمر الماء التجويف الخشبى بعنف ، وانطلق الزورق بأنفه إلى غياهب اليم حاملا الملابس القذرة التى كان يحتويها .

وأخذ « باندا » يلاحق الزورق بعينه لحظة وهو يبتعد مع التيار الجارف : سوف يبتعد القارب جداً عن هـــذا المكان عند الفجر ، وشعر بما يشبه الحنين إلى مسقط رأسه . ثم شرع يسبح فى اتجاه الساحل ...

ولما وقف على الساحل أخذ يفرك جسمه بيديه ليجففه من أخمص قدميه إلى قمة رأسه ، ثم قام بحركات ملوحاً بذراعيه وساقيه . ولما شعر بأن جسده قد جف إلى حد ما ، ارتدى ملابسه : ارتدى سرواله القصير وقميصه الكاكى اللون ، ثم دس يده بطريقة غريزية فى جيبه الأيمن . كان الجيب خاويا ! وسرت قشعريرة باردة فى جسمه لتلك المفاجأة . لقد أخطأ إذ ترك هـذا المال هكذا . . . لقد فكر فى هذا الأمر من قبل . ولكن ما الذى حدث ؟ هل لمست يده التى دسها فى جيبه الأيسر لفة الأوراق المالية المبللة ؟ ! آه...لا ، لم يحدث أى شىء : إن الأوراق مازالت هنا .

وسحب يده الممسكة باللفة بانفعال وأخذ يتحسسها ويزنها فى كفه : هاهى اللفة سميكة كما كانت منذ قليل . وأراد أن يفك رباط قطعة القماش ، ولكنه تريث فجأة . ما الفائدة ، مادام لن يستطيع أن يعد هذه النقود فى هذا الظلام ؟ وأعاد اللفة إلى أعماق جيبه حيث وضعها بعناية . وتأكد من أن الأوراق لن تبرح مكانها أثناء سيره ، من أنها لن تقع ، حتى ولو حدث شىء ما ، حتى إن جرى ... إذ لا يمكن أن يعرف المرء ما يحدث له : من الممكن أن يحدث أى شىء .

كان متأهبا للرحيل ولكنه استدار فى حركة غريزية ونظر إلى النهر الذى كان قد أدار له ظهره حتى تلك اللحظة ، وأخذ ينظر إليه بإمعان وحزن . ربما كان يريد أن يتأكد من أن النهر سيحفظ سره : هناك لحظات تتخيل فيها الأشياء التى تتحرك وكأن لها روحا بشرية ، أو ربما كان لا يشاهد سوى هذا النهر — الذى كان مسرحا ليأسه — وهو يحمل سره إلى مكان مجهول .

ومرة أخرى أخذ يدير بصره من حوله ، وكان يرتسم فى نظرته الشك والارتياب . ولكن لا ، لا أحد هناك . لماذا يشعر بالخوف ؟ لم يكن يتصور من قبل أن يستحوذ عليه مثل هذا الخوف دون ما سبب . وعنى بألا يصدر عنه أى صوت ويمم وجهه شطر الأعشاب التى تغطى الشاطئ ، ووصل إلى الطريق الذى تعرف عليه فى الحال ، وسار فى اتجاه باميلا .

وهنا صاح ديك معلنا الفجر .

الفصل العاشر

كان « باندا » يسير ببطء وقدماه العاريتان ترتطمان بأحجار الطريق التى ألفتا السير عليها . كان يسير بحذاء الأفاريز المعدة لعروق الخشب فيرى هذه العروق ممتدة هنا وهناك كالجثث ، وكان لونها رمادياً فى ظلمة الليل . فإذا ما نظرت حولك لما رأيت أى ضوء يسطع ، لافى محطة السكة الحديدية المجاورة ولا على الأرض الفضاء المعدة لتكديس عروق الخشب . كانت طنجة الجنوبية تغط فى نومها عن طيب خاطر : فالمدينة تنام وتصر على أن تأخذ نصيبها من الراحة فيؤثر وقارها وخشوعها فى النفس. ولما وصل إلى الجسر انحنى فوق الحاجز منقباً فى ظلمات الليل ومحاولا أن يتبين جثة « كوميه » التى ترقد على مسافة تحت الكوبرى — وكان يعرف مكانها — فلما عجز عن أن يراها استأنف سيره .

إنه يشعر بقشعريرة من حين إلى حين ، قشعريرة تسرى فى بدنه كله ، فالجو قد بدأ يعتريه شىء من البرودة إذ كان طلوع الفجر وشيكاً . لم يكن يفكر فى شىء بالذات وإنما كان يسير لمجرد السير كإنسان آلى ، وقدماه الكبيرتان ترتطمان بالطريق المغطى بالحصى والغبار بالرغم من أمطار اليوم السابق . لم يفكر فى شىء بالذات إذ أن أموراً متشعبة كانت تتخبط فى رأسه الحالم وتتضارب فيه. إن القشعريرة تهز بدنه ، وتجعل أسنانه تصطك بتأثير الجو الذى اعترته البرودة فجأة .

وصادف فى طريقه أناسا يرتدون ملابس أيام الأحد ، ولكنه لم يكن قد شاهدهم من قبل فلم تسجل ذاكرته ملامحهم . كان يبدو أن أعضاء جسمه تقوم بوظائفها ببطء شديد وأن خطواته بدورها ثقيلة مترددة . لم يكن يتفاعل مع المؤثرات الخارجية إلا بكسل بالغ ، فالإرهاق قد نال منه كل منال دون أن يشعر بذلك إذ كان قد بالغ فى استنفاد قواه . وأول من رأى من الناس كان جمعاً من المراهقين والمراهقات يسيرون صامتين وكأنهم يشعرون بلذة فى الإصغاء إلى صوت وطء أقدامهم ووقعها غير المنتظم . وكان « باندا » يعرف أن الأطفال فى مثل هذه السن يحبون الصخب عادة ، وتساءل عن سبب صمتهم . كانوا لايحملون شيئاً ويسرعون الخطى بشكل غير مألوف ، ولم يطل تفكيره فى هؤلاء المراهقين وإن أدهشه صمتهم .

ثم صادف نساء ورآهن بوضوح . لم يكن يحملن سلالا على ظهورهن ، وكن يسرن فى خطوات متهادية بل ويرتدين أثواباً فاتحة اللون . ولم يفهم أحاديثهن فى بادىء الأمر وإن كانت بعض أطراف منها قد وصلت إلى مسامعه كأمواج متباعدة . كان حديثهن يدور حول فصائل من الجنود تسد الطرق ، وعن أعيرة نارية ، وعن فتى يبحثون عنه ، وعن رجل أبيض طريح الفراش فى المستشفى ، وعن إلقاء القبض على بعض الناس ، وعن القداس و « المناولة » ... وتبين وهو يسير أن الأحاديث التى سمعها لم تصدر عن مجموعة بعينها وإنما عن مجموعات عديدة صادفها الواحدة بعد الأخرى . وكان قد نسى فى تلك الأثناء قيام الجند بسد الطرق وأن ذلك اليوم كان يوم الأحد . إن هؤلاء الناس فى طريقهم إلى حضور القداس ! آه .. لقد فهمت . ولكن هل من الضرورى أن يكون متعباً لكى يتبين هذا ؟

إن الوقت مبكر ولا يمكنه أن يفكر فى اجتياز السدود التى يقيمها الجند ، لاسيما فى هذا الاتجاه الذى يسير فيه . لم يكن فى مقدوره أن يستمر فى سيره فى الطريق المؤدية إلى « باميلا » ، فربما تصوروا أن خروجه من المدينة فى هذه الساعة دليل على رغبته فى الهروب ، الأمر الذى يؤدى إلى القبض عليه . نعم لم يكن فى وسعه أن يواصل السير فى الطريق المؤدية إلى « باميلا » . أيسلك طريقاً مختصراً فى الغابة ؟ إن مثل هذه الممرات كثيرة فيها .. وشعر بتثاقل وبالنعاس يثقل جفنيه ولكنه تمالك نفسه : لن يضعف الآن ، إذ من الممكن أن يحدث شىء ما فى أى لحظة .

وأخذ يضرب قفاه بقبضتيه ضربات خفيفة لتطرد عنه النعاس . وصادف فى تلك اللحظة عدداً متزايداً من المارة . كان الجميع يلوذون بالصمت على غير عادتهم . وسار « باندا » دون عجلة . لابد أن هؤلاء الناس يؤمنون فعلا . وقال محدثاً نفسه : إنهم مؤمنون ماداموا قد جاءوا من قرى بعيدة ، بعيدة جداً لحضور القداس بطنجة وماداموا قد سعوا إلى ذلك فى جنح الليل . أوه ! حقاً لو أننى كنت مسيحيا لحضرت قداس الصباح مثلهم ، فهم بحضورهم هذا إنما يستمتعون بحريتهم طوال يوم الأحد . عجبا ! ولكن أن يأتوا من تلك الأماكن النائية فهذا أمر يدهشنى ، لا سيما أنهم يأتون لمجرد حضور القداس .. ولكن لم لا ؟ .. نعم ، سأفعل مثلهم ،

إن الفكرة صائبة » .. وفكر فجأة فى اللفافة الصغيرة التى يحملها وارتعدت أوصاله وتوقف فجأة ... وأخذ يتحسس فخذه بطريقة عصبية فى مكان الجيب .. آه ، هاهى اللفافة فى مكانها ! لم يكن هناك مايتهددها بالضياع . نعم هذا ماسوف يفعله. وسوف أعود أدراجي وأذهب معهم لأحضر القداس ، فليست الإرسالية الكاثوليكية بعيدة عن هذا المكان . سوف أعود مبكراً مع الآخرين فى الصباح وأجتاز معهم صفوف الجند .. ولم لا ؟ .. هل سيلحظون وجوده بين هذه الجموع ؟ .. ومن ذا الذى يشعر بوجودى ؟ ... لا بد أن يكون على قسط وافر من الدهاء . آه ، حقاً إنها لفكرة طيبة !.. سوف أحضر القداس ثم أعود ثانية لأجتاز صفوف الجند عند الفجر ، لمجرد أن أرى إن كان فى إمكانهم أن يميزونى من بين الآخرين .. ولكنى متأكد من أنهم لن يلحظوا وجودى ، هذا لاشك فيه . وربما اكتشفوا الجثة عند الفجر ، عند عودتى ... إن الفضول يحدونى إلى معرفة كيف ستجرى الأمور » .

ودار على عقبيه بعدم اكتراث وسار فى محاذاة مجموعة من الرجال والنساء أتوا من ناحية الغابة . كانوا قد جاءوا من الغابة خصيصاً من أجل هذا ، من أجل حضور القداس .. ، وكانوا قد عقدوا العزم على الاستيقاظ مبكرين عند صياح الديك ليتوجهوا لحضور القداس الذى يقوم بمراسيمه رجال الإرسالية الكاثوليكية بطنجة ، وكانوا يفكرون فى الوصول قبل السادسة صباحاً للتمكن من حضور قداس الصباح ، القداس بأكمله وليس فقط جزءاً منه . عجز « باندا » عن فهم مثل هذا التصرف منهم وأخذ يصغى إليهم وهم يتحادثون فى همس . كانوا يتكلمون عن العامل الميكانيكى الشاب ، وعن الرجل الأبيض السيد « ت ... » وكاد يقول لهم : « لا ، إن هذا غير صحيح . لم يحدث الأمر على هذا النحو . إن معلوماتكم خاطئة . لقد كذبوا عليكم . ليس هذا صحيحاً . أصغوا إلى ، فأنا أعرف حقيقة القصة ، أعرفها كاملة ، مادام ... » ولم يستطع أن يكبح جماح نفسه وأن يمتنع عن الكلام إلا بعناء كبير . وسار بجانبهم حتى وصلوا جميعاً إلى مكان الإرسالية الكاثوليكية ، إلى الكنيسة ، فاجتاز عتبتها معهم . ولم يشكوا لحظة فى أنه ليس منهم .

لم يكن قد حضر القداس بالكنيسة منذ وقت بعيد جداً ، وكانت فكرة حضوره هذا الصباح تلذ كثيراً له . لم يكن فى استطاعته أن يتبين بسهولة ما يلتمسه من حضور القداس . ربما ساعده ذلك على تشمم بعض رائحة طفولته ، أثراً لرائحة

قد نسيها . وتذكر فجأة تلك الفترة من حياته التى كانت أمه تقوده فيها رغماً عنه لحضور القداس يوم الأحد من كل أسبوع . لم يكن حينذاك إلا فتى مراهقاً ، أما أمه فكانت قد اعتنقت المسيحية منذ سنوات عديدة ، منذ وفاة زوجها . كانت تقية وكانت تتوجه إلى الكنيسة للاعتراف والمناولة فى عيد الفصح ، كما كانت تدفع الرسوم المقررة للكنيسة بانتظام ، وتحضر القداس الليلى فى عيد الميلاد ، وتسبح بسبحتها كل مساء وهى تحرك شفتيها . أما هو فلم يعش فى جو أسرة مسيحية كاثوليكية،وكان عليه أن يحفظ آيات الإنجيل ، وأن ينتظر حتى يحسن حفظها لكى يقبلوا تعميده . وكانت أمه تبذل قصارى جهدها لدفعه إلى حفظ تلك الآيات عن ظهر قلب . لقد اشترت له نسخة من الإنجيل ، نسخة مزينة بالصور. وكانت تبذل كل مافى وسعها من جهد لدفعه إلى حضور دروس رجل من رجال الدين المرموقين من أعضاء الإرسالية الكاثوليكية ، كان المعروف عنه أن التلاميذ الذين يواظبون على حضور دروسه ينجحون دائماً فى الامتحان الذى يقرر الصلاحية للتعميد . ولم تكن أمه تصبو إلى شيء أعز من رؤيته وقد عمد مسيحياً .

والحقيقة أن هذا الأمر كان عسيراً إلى حد ما ، فالفتى لم يكن يحيا فى كنف أمه، وقلما أقام معها . وكان من ناحية اخرى قد التحق بمدرسةلاتلقن تلاميذها دروس الدين ... وباختصار كان شأنه كشأن أغلبية رفاقه ، فهو بعيد عن الإحساس بالجو الدينى وتأثيره ، بعيد عنه ستة أيام كل أسبوع . وكانت أمه تحضر إليه يوم السبت وتبادر بسؤاله فى كل مرة بقولها :

— هل حضرت قداس أول يوم جمعة فى الشهر ياولدى ؟ هل أكلت لحماً بالأمس ؟ ...

أو توجه له هذا السؤال :

— هل ذهبت إلى القس لتستمع إلى درسه يابنى ؟ ولم يكن الفتى يبالى كثيراً بالقساوسة وبالأغانى اللاتينية وبالشمامسة وبتلقى مبادىء الإنجيل ، وكان فوق هذا يتمتع بقدرة عجيبة ومدهشة على الكذب ، إذ كان يجيبها دائماً بقوله :

— بالتأكيد ياأماه ، لقد ذهبت لحضور الدرس . هل تشكين فى هذا ؟

أو بقوله مثلا :

— كنت ياأماه مريضاً جداً .. ولم أستطع حضور الدرس . حقاً لم أتمكن من حضوره ياأماه ، ولم يكن هذا عن تقصير أو عن امتناع ، أؤكد لك أن هذا لم يحدث ولكنى كنت مريضاً جداً ... لم أستطع ياأماه ، لا لم أستطع الخروج يا أماه ...

كانت الأم تعرف ابنها حق المعرفة ، ولم يكن فى مقدورها أن تصدق كل ما كان يقوله . ولكن كيف يتسنى لها أن تعرف الحقيقة ؟

ويجب أن نذكر أنها كانت فى تلك الفترة على إيمان وتحمس دينى غير عاديين ، لايوافقها عليه إلا قلة نادرة من الناس . كان فى إمكانها — بسبب طول المسافة بين « باميلا » وطنجة — أن تكتفى بحضور القداس مرة كل أسبوعين فإن المطران قد سمح لها بأن تفوت بعض الآحاد ، ولكنها فرضت على نفسها الحضور إلى طنجة كل يوم سبت . لم يكن أحد يدرى إن كان مبعث إصرارها هذا هو رؤية ابنها أم حضور قداس يوم الأحد . وعلى أية حال لم يكن يفوتها أبداً أن تصحب ابنها إلى القداس ، وكثيراً ما كانت تصحبه قهراً ، إذ كان يحاول أن يتهرب .

فى أول مرة — وكانت الوحيدة — سألت فيها خال « باندا » ، الترزى ، عن مواظبة الفتى على حضور المراسيم الدينية ، أجابها الرجل عن سؤالها وأظهر تبرماً . قال إنه لم يعمد وإنه عزم على ألا يعمد أبداً وأن امتناعه هذا لم يشعره بأية غضاضة . أليست أفضل طريقة لتربية الطفل هى إطعامه وتركه وشأنه ، وأن تترك له حرية الجرى والنوم والضحك أو البكاء عندما يحلو له ذلك ؟ كانت هذه الطريقة فى نظر الرجل هى الطريقة المثلى لتربية الطفل ولاسيما إن كان ولداً (والحقيقة أن الترزى كان يحب الفتى حباً جماً ، ويتغاضى كثيراً عن سلوكه ، وقلما كان سلوكه هذا نموذجياً إذ أن أقل ما يقال عنه هو حبه للشغب — بل وكأنه كان يشجع الفتى على سلوكه هذا . لقد توثقت بين الاثنين عرى صداقة لايمكن أن تنفصم أو كان بينهم مايشبه التآمر ، وكان ذلك يتوثق يوماً بعد يوم) .

كان أقصى ما يطلبه خالة هو ضرورة إلحاقه بمدرسة حتى يتعلم لغة البيض ما دام أن هؤلاء الناس هم أسياد البلد فى حقيقة الأمر . أما دروس الإنجيل ، والقداس والسبحة والاعتراف وصلاة الصباح والمساء وكل الخزعبلات الأخرى ، ففيم تفيده ؟ كان يرى إن أخته تتصرف وكأن الدين شيء مستحدث .. ولكن ألم يكن أجدادهم يؤمنون بالله قبل مجيء البيض ؟ ، هم الذين عاشوا فى بلد لم تطأه أقدام البيض ، ولا المبشرين ، ولا الراهبات ، ولم تكن فيه كنائس ولا أجراس ؟ . . وما جدوى أن يبلل المرء رأسه ببعض الماء وأن يركع أمام قس ، وأن يبتلع فتات خبز دون أن يمضغها لكى يؤمن بالله ؟ كان الرجل يتساءل عن جدوى هذا . . . أما لو كان هدفها أن تجعل من ابنها قسا ؟ . . آه ! أما هذه الفكرة فلا بأس بها على الإطلاق ! إن هذه المهنة مكسبة للغاية . لقد عرف قساوسة من الوطنيين السود ورآهم عن كثب . إنهم ولا شك أكثر السود تمتعاً بالامتيازات ، فإن بيوتهم مبنية بالطوب الأحمر ، وموائدهم معدة كموائد البيض ، وهم يملكون الدراجات البخارية والدراجات ، كما يتمتعون بتقدير واحترام الجميع .. حتى البيض أنفسهم . إذا كان غرضها أن تجعل منه قسا فالفكرة لا بأس بها بدون شك . ولكن ما عليها إلا أن تفصح عن نيتها هذه بطريقة مباشرة .. عندئذ سوف يفهم غرضها ويتفهم مراميها ، وإن كان يعتقد أن من الصعوبة أن يعمل من فتيان كباندا قساوسة .. بل إن هذا محال وإلا كان جاهلا تماما بحقيقة الأطفال ..

وبعد أن تبينت الأم بما لا يدع مجالا للشك وجهة نظر أخيها فى هذه المسألة ، دهشت أيما دهشة ، وفكرت جديا فى إلحاق ابنها بمدرسة للمبشرين ، ولكنهم أفهموها أنهم لا يلقنون الأطفال فى هذه المدرسة إلا معلومات ضئيلة خارج التعاليم الدينية والأناشيد اللاتينية وأن عليها فى هذه الحال أن تدفع رسوما مدرسية باهظة . وكان « باندا » فى هذه الأثناء قد حاول التقدم لامتحان دينى بغية قبوله للتعميد ، وقد شعر الطفل بأسى بالغ لاضطراره إلى دخول هذا الامتحان ، حتى إنهم لمسوا عدم جدوى هذه المحاولة معه . وأبقت الأم ابنها فى مدرسته احتراما لرغبة زوجها بالرغم من اعتراض المبشر الذى كان على اتصال بها ، وشرعت تفكر فى آفاق أخرى لابنها غير تلك التى تتعلق بالفروض الدينية وبخلاص روحه .

ولما عاد « باندا » إلى باميلا ، وكان قد اشتد عوده ، وتحرر من الوصاية ، أو بالأحرى أعتق منها ، كان من أصعب الأمور إعادة صلته بالله .. لأسباب ربما تكهن بها القارئ . وعلى كل حال فبمجرد أن تمكن من التحرر من الوصاية عليه قرر أن يتحرر كذلك من الأمور الدينية ، إذ لم يكن قد شعر أبداً بميل إلى حضور دروس الدين . أما مدرس الدين فكان حماسه قد فتر فتساهل فى بعض تعاليمه المتسمة بالتعنت ، وتكفل بطمأنة أم باندا . ألم يبلغ السن التى يتمكن فيها من معرفة صالحه؟ كيف يمكنها أن تتصور أنها مازالت مسئولة عن خلاص روحه ؟ وعلى أية حال فإن الله الغفور الكريم قد يهديه يوماً إلى الصراط المستقيم ، وقد لا يحدث هذا إلا قبيل موته .

وبالرغم من عجز كل من الأم والابن عن التفاهم فى مجالات الدين ، فإنهما تفاهما فى مجالات أخرى . وعلى أية حال فإن الأم كانت قد بدأت تشعر فى هذه الفترة ببوادر هذا المرض المجهول ، وهو ذلك المرض العضال الذى لا أمل فى شفائه ، والذى اضطرها تدريجياً إلى أن تظل سجينة دارها . وكان الابن مستعداً لأن يبذل لأمه ما استطاع من العطاء ، وأن يقضى لها حاجاتها جميعاً ما عدا ما تطالبه به من الأمور الدينية ، وكان هذا الأمر عجيباً حقاً .

لعله وقع فى فترة ما ، دون أن يشعر ، تحت تأثير رجل من المعادين لهذا الدين ، أو لعل شيئاً مافى رأسه كان يخضعه لسلطان الحقائق الحسية ، كما هى الحال بالنسبة لخاله الذى لم يمل يوماً من النظر إلى ما يجرى بالشارع

وعندما دخل باندا الكنيسة لم يكن الظلام قد انقشع من أرجائها بعد . لم يكن بها ثمة ضوء إلا شعلة شمعة ترتعش على بعد فوق الهيكل . وبالرغم من أن الساعة كانت مبكرة ، كنت ترى عدداً كبيراً من المصلين يملأ مقاعد القاعة . كان المصلون يرتلون التسبيحات ، رجالا ونساء . ولم تكن تسمع إلا تلك الكلمات ... « مريم ، الرحمة ... يسوع ... مريم ... الرحمة يسوع » . ولم يكن فى مقدور أحد أن يتبين كنه ماينطقون به من كلام تتخلله هذه الألفاظ . ولم يكن يحلو لهم أن يشددوا على الحروف وأن ينطقوا بوضوح إلا هذه الكلمات . أما ماعداها من الكلمات فكانوا يمضغونها . وكانت الصلاة وهى ترتل على هذا النحو تشبه غناء عجيباً ، لحنا جنائزياً مملا وحزيناً تعاد فيه الجملة المنغمة بطريقة لاتنتهى ، وكان استمرارهم فى هذا يخلق

جواً يساعد على النعاس ، ولذا كنت ترى هنا أو هناك رجلا يهتز رأسه بتثاقل وقد غلبه النعاس فعلا .

وجلس الشاب على أحد المقاعد الخشبية بالقرب من الممر الرئيسى ، وأسند ظهره إلى أحد الأعمدة ، وأخذ ذهنه يشرد فى عالم الأحلام بينما المصلون يترنمون بالتسابيح ويرددون تلك الكلمات : « مريم ... الرحمة .. يسوع .. مريم .. الرحمة .. يسوع » . وفجأة انقطعوا عن الترتيل وخيم الصمت إذ أكملوا حبات مسبحتهم . وأخذوا ينتظرون بداية القداس فى صمت ، وأخذ البعض يسعل فتتجاوب أصداء هذا السعال فى أرجاء القاعة . وقال « باندا » محدثاً نفسه : « كم هذا عجيب! إن سعال الناس إذا ما اجتمعوا يزداد بشكل يدعو إلى العجب » .

واسترعى الجانب الأيسر المعد لجلوس النساء انتباه « باندا » . كان يصدر عن هذا الجانب من الكنيسة — عدا أصوات الأطفال الرضع — صوت مكتوم وإن كان مستمراً وصاخباً ، ولم يكن فى مقدور حارس الكنيسة ، بالرغم من سلطته وهيبته وكل الشعارات التى يحملها ، أن يحفظ النظام . وخلاصة القول أن الجانب المعد لجلوس النساء كان يستأثر بكل حماسه كما كان يؤثر فى هواتف ضميره وإخلاصه فى العمل . وكان تخاذله هذا يتيح للرجال فى الجانب الآخر أن يستسلموا ، دون ما حرج أو قلق ، لسلطان النوم . وأخذ نور الفجر يبدد الظلمات بسرعة كما أخذ النساء يتفرسن بعضهن البعض . كن ينظرن بعضهن إلى بعض بحذر فى بادئ الأمر ، ثم أخذت نظراتهن تتسم بعد ذلك بمعانى الترفع أو عدم المبالاة ، بل بروح العداء . أما الفتيات وخاصة السيدات حديثات السن فكن يجدن صعوبة كبيرة فى إخفاء شعورهن . كنت تلحظ بوضوح مدى كراهية هذه لتلك التى ترتدى ثوباً جميلا ، أو امرأة أخرى تلقى بنظرة مشبعة بالاحتقار لكل من لا ترتدى ثوباً فى أناقة وجمال ثوبها . ولا حظ « باندا » أن المرأة لا يمكنها أن تجامل المرأة . وكن قليلات أولئك اللاتى يقبلن عن طيب خاطر أن يتزحزحن ولو قليلا عن مقاعدهن ليسمحن بمكان ضئيل لامرأة تريد الجلوس . بل قد حدثت أيضاً بعض مشاجرات بينهن وإن كانت للأسف غير عنيفة — كما كان يتمنى « باندا » — فقد بدا يتلهى بما يرى ، فإن ظهور جندى الحراسة كان يعيد كل شىء إلى الهدوء بشكل آلى ، بينما تظهر عندما يدير ظهره منازعات وأصوات أخرى .

وسمعت دقات ناقوس صغير بعيداً في المقدمة تعلن بدء القداس . كان القس والشمامسة راكعين أمام الهيكل في احترام بالغ وخشوع تام ، يحنون رؤوسهم على صدورهم ،ويرتلون صلوات باللغة اللاتينية ،وكانت أصواتهم تسمع حتى في مدخل الكنيسة . وأخذ « باندا » يسائل نفسه : « كيف يتسنى لي أن أعرف معنى هذه الكلمات ؟ (١) لقد اعترف لي مدرس الدين بأنه يجهل هو نفسه معناها ، ولكنه أضاف أن جهل معناها لم يكن له أية قيمة . أما أنا فيهمني أن أعرف هذا المعنى . بودي أن أعرف معنى هذه الكلمات» . وفجأة سمع صوت باك يرتل ، ثم أخذ الحضور جميعاً يرددونه وركع المصلون ، أما هو فقد بقي جالساً . أخذ يصغي إلى الألحان الرقيقة العذبة المنسابة الشجية التي تنبعث من الأرغن القابع فوق رأسه وأخذت الذكريات تنهال على مخيلته . هاهو يتصور أمه وهي في عنفوان شبابها بجمالها ووجهها الباش المنفرج الأسارير وهي تحادث مدرس الدين الموقر ، ثم وهي تحيي صديقه ووجهها ينضح بالبشر ، ثم ها هو يسمع صوتها الرفيع الموسيقى . وأخفى وجهه بين راحتيه وبدا له أنه على وشك البكاء بل لقد بدا له أن أمه الحقيقية قد ماتت منذ سنوات . أما تلك الأم المريضة القابعة هناك في « باميلا » فالشبه بينها وبين الأخرى ، الحقيقية الجميلة ، يكاد لا يذكر . لكأنهم حرموه أمه ، لكأنهم بدلوا أمه بامرأة أخرى ، في وقت لم ينتبه فيه إلى ما يجرى من حوله ، في غفلة منه.

وفجأة دس يده في جيب سرواله الكاكي ورفع رأسه وأدار بصره من حوله وكأنه خشي أن يكون هناك من يراقبه . إن اللفافة المبللة مازالت في مكانها . أوه ! لم يكن هناك ما يخشاه على اللفافة أو ما يتهددها بالضياع . لقد بقيت في جيب « كوميه » دون أن يحدث لها أي شيء . كم هو أحمق أن يستحوذ عليه الخوف هكذا ! لو أنه استطاع فقط أن يعرف قيمة ما تحتويه هذه اللفافة ! ... لو أنه استطاع فقط معرفة هذا ! وهنا شعر بأن التعب قد نال منه كل منال . ومرة أخرى أخفى وجهه بين راحتيه وهو يرتكز بمرفقيه على ركبتيه ...

لم يستيقظ من سباته إلا بعد مرور نصف ساعة: كان هناك من يضرب على كتفه ببطء وإلحاح . ورفع عينيه فرأى حارس الكنيسة .

---

(1) " confiteor Deo omnipotenti . . . Amen . . . Dominus vobiscum . Et cum sum spiritutuo . . . "

أي « تؤمن بالله عز وجل . . آمين . . . : الله معكم .. ومع روحك أيضاً .. »

قال له الحارس بصوت خفيض : مادمت تعرف أنك لم تأخذ قسطك من النوم فى بيتك ، فلماذا حضرت إذن إلى قداس الصباح ؟ من أجبرك على حضور قداس الصباح ؟ من أجبرك ؟

— وهل يمنع الله الناس من النوم أيضاً ؟

كانت إجابة كهذه شيئاً متوقعاً فى مثل هذا الموقف ولكن ذلك لم يمنع صبياً يجلس خلفه من أن يكبت ضحكة كانت توشك أن تنفجر بين شفتيه ، واستدار « باندا » وابتسم للصبى ، الذى ذكره بنفسه حين كان فى صباه ، وحين كان يتلمس أوهى الأسباب لينفجر ضاحكا .

وأجابه حارس الكنيسة : ربما لم يكن الله يمنعنا من النوم ولكنه على أية حال لا يسمح لنا بالشراب حتى الثمالة فى ليلة السبت ، ولا بمضاجعة نساء الآخرين ...

وسأله « باندا » فى صوت مرتفع حتى يمكن أناساً كثيرين من سماعه ، وكأنه اهتدى إلى السبب الذى حدا بالحارس إلى أن يوجه اليه هذه التهمة ، قال :

— عجباً ! عجباً ! وكيف تسنى لك أن تعرف أننى أضاجع نساء الآخرين ...؟

وأجاب الحارس فى لهجة ساخرة :

— يكفينى أن أنظر اليك ، يكفينى هذا لكى أدرك أنك تقضى حياتك كلها على هذا النحو ...

— ولو كان لى زوجة ؟ ...

— أنت ؟ ... إنك تضحكنى ! ... إنى أراهن بأى شىء تريده على أن لازوجة لك ، أراهن بما تريده على أن لا زوجة لك ... لو كان لك زوجة لما كفتك على أية حال ...

وابتعد الرجل بعد ذلك مباشرة ، فى شىء من الارتباك . كان يخشى الفضيحة ، وكان شجارهما قد أثار لغطاً من حول « باندا » الذى أخذ يتلهى بما جرى ! فهذا الجو يعيده بشكل غريب إلى أزمنة غابرة .

هاهو قس ، مبشر ، يقف على المنبر الآن والمصلون يصغون إليه فى انتباه . أما

« باندا » فكان ينظر إليه وكأنه يرى هؤلاء الناس لأول مره فى حياته : لم يكن يراهم فيما مضى إلا بعينى طفل . وتكلم المبشر فى بادئ الأمر وكأنه يقرأ من كتاب، ثم أغلق الكتاب بعد لحظة .

كان « باندا » يمنع نفسه من الإصغاء إليه إذ كان يفضل أن يفكر فى أشياء أخرى ، فالرجل يتكلم لغة البلد بشكل ردىء للغاية . وقد ساءه فى بادىء الأمر أن يتكلم بلغته بمثل هذا الاحتقار ، إلا أنه أخذ يتلهى بهذا بعد ذلك . لو أن هذا القس أدرك فقط أنه ينطق فى كل دقيقة بكلمات كريهة !

وتحسس فخذه فى مكان الجيب وأمسك باللفافة الصغيره المبللة . كم ياترى تحتوى هذه اللفافة ؟

تناولت موعظة المبشر وجوب أن يحب الناس بعضهم بعضاً وكان ينطق بهذه العبارات بطريقة متقطعة مضحكة .

إذن فعلى الناس ، على حد قوله ، أن يحب بعضهم بعضا . وكيف يتسنى ذلك ؟ وهنا بدأ الواعظ قصة لاتنتهى تدور حول « السامرى الصالح » ، بالرغم من أن هذا الأحد لم يكن الأحد المخصص للسامرى الصالح . أما عن السامرى الصالح هذا فكان يعرفه كل المعرفة . أوه ! لو أن هناك قصة يذكرها فهى قصة السامرى الصالح هذا . أما ما كان يعجز عن فهمه فهو تبجيل الناس للسامرى الصالح ، وهو لم يفعل أكثر من أنه عنى برجل جريح صادفه فى الطريق ، بينما هم لايأبهون بالجريح نفسه. أما فى نظر « باندا » فالرجل الذى هاجمه اللصوص وأثخنوه جراحاً هو الجدير بالاهتمام وفيما وقع له مجال أكبر لهز مشاعرنا . أما عن السامرى الصالح ، فماذا فعل ؟ ألم يكن فى مقدور أقل امرأة فى « باميلا » أن تعنى برجل جريح ؟ وقال محدثاً نفسه : عجبا ! لكأنهم بعملهم هذا يمنحون مافعلته أنا أهمية أعظم من تلك التى يمنحونها « كوميه » لأنى فى واقع الأمر قد قمت بما قام به السامرى الصالح ، بينما لم يكن كوميه إلا ضحية لبعض اللصوص . عجبـــا ! هذه هى الحقيقة . وإذن كيف يمكن أن يهتموا بأمرى أكثر مما يهتمون بأمر « كوميه » ؟ ... وأنا على أى حال لم أتمكن من إنقاذه ولكنى متأكد أيضامن أن السامرى الصالح لم يتمكن بدوره من إنقاذ الرجل الجريح . والرجل الجريح رجل جرىء وهو الذى يستحق الإعجاب لا السامرى الصالح فهو لم يقم إلا بالدور الأسهل ...

وأردف الواعظ قائلا : وهناك وسيلة أخرى يمكن أن ندلل بها على حبنا للغير ، وهى أن نحترم ملكيته ، ألم يعش يسوع ، سيدنا جميعا ، على هذه الأرض؟ لقد كان فقيراً ولكن هل مس ما للغير أبداً ؟ كم يتجنب البشر من مصائب ومن مشاجرات ومن منازعات ومن خلافات لو أنهم ساروا على هدى سيدنا يسوع المسيح فى حياتهم اليومية . ولكن ماذا هم فاعلون بدلا من ذلك ؟ هاهم يضاجعون نساء الغير ، وهاهم يعتدون على مخدوميهم ويسرقون مالهم . أما كان الأجدر بهم أن يهتدوا بما كان يفعله يسوع الطفل أيام كان يساعد أباه يوسف فى ورشته ؟

وهنا أرهف « باندا » السمع . لابد أن هذا الواعظ على وشك أن يتكلم عن « كوميه » . هاهو حديثه يتجه إلى هذا الموضوع . وخيم على الحضور سكون رهيب. لم تعد تسمع حتى سعالهم . هاهم يتأهبون لسماع المزيد من المعلومات عن هذا الحادث . كانت هذه الرغبة الملحة تبدو عليهم بوضوح .

وأردف القس قائلا : من واجب كل مسيحى جدير بهذا الاسم — إذا ما كان على علم بمكان الجانى — أن يبوح بما عنده ، وأن يرشد إلى مخبأ هذا الذى اعتدى على مخدومه ، السيد المحترم المبجل « ت ... » ، وهو رجل معروف لدى المسيحيين جميعاً بالبلد ، بفضل هباته السخية لهيئة المبشرين الكاثوليكية — حسناً ، هاهو هذا الرجل القديس قد لفظ أنفاسه الأخيرة فى المستشفى لما أصابه من ضربات قاسية من « كوميه » ورفاقه فى الليلة السابقة . إن « كوميه » هو المسئول الحقيقى عن موت الرجل فهو المحرض على هذه الفعلة . ولو أن أحداً من الحضور كان على علم بمخبأ « كوميه » فإن من واجبه ، هو القس المبجل « كولا » ، أن يستمع إليه بعد القداس على كرسى الاعتراف . وعلى من يعرف السر أن يبوح به ، كدليل على حبه ليسوع المسيح وللبشرية جمعاء ، وإن كان القانون المدنى بدوره يضرب بشدة على يد كل متآمر سراً (وقال هاتين الكلمتين بالفرنسية) ومعنى هذا...

لكن « باندا » لم يعد يصغى إليه. وعلى أية حال فإن القس قد انتهى من وعظه بعد قليل . وما إن فرغ منه حتى سارع المصلون إلى أبواب الكنيسة يتلمسون الخروج. وتعمد « باندا » أن يختفى بين هذه الكتل المتراصة .

ولما خرج أمكنه أن يتنفس بشىء من اليسر ، أو هذا ما بدا له على الأقل .

أخذ يهز رأسه دون أن يدرى لذلك سبباً . لقد شعر بنفس الإحساس الذى اعتراه فى اليوم السابق ورجلا الحرس الإقليمى يقودانه إلى مخفر الشرطة ، لكأنهم فرضوا عليه نزالا مع علمهم بأنه سيغلب لا محالة ، أو لكأنه يحمل عنوة أثناء نومه ، خارج عالمه المألوف ، إلى عالم غير عالمه ، قلب كل شىء فيه رأساً على عقب. وشعر بكابوس حقيق ...

كان تائهاً وسط هذا العدد الضخم من الناس،ويستشعر لذلك نوعاً من الطمأنينة والأمن بالرغم من أن خوفه من النشالين جعله يبقى يده فى جيبه لحماية لفافة الأوراق المالية . وأسف لرؤية الناس وهم غارقون فى الحزن ، فلم يكن يطيق أن يرى جمهرة من الناس يغمرها الحزن ولكن لم هذا الحزن ؟ لماذا ؟ .. إنهم من رجال الغابة أى غالبيتهم ، نعم . لقد أتوا من الغابة ، فسكان طنجة نفسها لم يكن من دأبهم حضور قداس الصباح الباكر إذ كانوا يفضلون قداس النهار الذى يتيح لهم أن يعرضوا ملابسهم الفاخرة . أما هؤلاء فكانوا من سكان الغابة وهم شديدو الحساسية ، بل إن حساسيتهم مرهفة للغاية ، وهاهى الدهشة والتساؤل عـلآن نظراتهم فى هذه اللحظه . لم يكن فى مقدور « باندا » أن يفهم أن تكون الدهشة مصدر حزنهم . لقد كانوا عاجزين عن فهم حقيقة ماجرى . هاهم يسيرون فى الطريق متباطئين ، متلكئين ، والسكون يخيم عليهم . أما منظر الأطفال وهم يجرون ويصيحون ويتدافعون فكان يهون على قلب الشاب لعدم مبالاتهم بالأمر .

وفجأة سمعت همهمة آتية من الأمام ، وأخذ الهمس ينتقل من مجموعة إلى أخرى بتكتم وبسرعة قد يدهش لهما من لاعلم له بسكان الغابة فى فترة الأحداث التى نشير إليها هنا . كانت جثة الميكانيكى الشاب قد اكتشفت منذ قليل تحت الجسر وأخذ الناس يسرعون بعد أن تحرروا من الضيق الشبيه بالفزع الذى استولى على المنطقة بأسرها من بعد ظهر اليوم السابق إثر حادث العامل الشاب. لم يتبعهم «باندا» فى بادئ الأمر ، وقال لنفسه : ماجدوى هذا ؟ إنى أعرف تماماً حقيقة ما يمكن أن أراه هناك ... ولكنه تنبه لشىء ... آه ! لن أكون حذراً لو أننى لم أتبعهم . يجب أن أتبعهم وأن أجرى مثلهم ، يجب أن أفعل كما يفعل الجميع ... فربما أدهش أحدهم ألا أشاركهم فضولهم ، وليس فى مقدور أحد أن يميز بين من يعملون لحساب الشرطة ومن لايعملون لحسابها، ليس فى مقدور أحد أن يعرف بالضبط ... وجرى.

كانت هناك سيارة تقف بالقرب من الـكوبرى ، سيارة من سيارات الشرطة يصحبها قرابة مائة من رجال الحرس الإقليمى استدعوا على عجل من ثكناتهم بطنجة إبان الحادث ، وكانوا قد وصلوا فى الليلة السابقة . لقد أمسكوا بينادقهم متشابـكة حتى يحولوا بين الناس والدنو من الجثة . أما الناس فـكانوا يتهامسون وتسرى بين صفوفهم همهمة وتشرئب أعناقهم . وعرف « باندا » أن الجثة قد نقلت إلى السيارة الطويلة المغطاة التى يقف بجانبها ستة من الضباط البيض يتناقشون باهتمام وفى صوت خفيض . وكانت حركاتهم تنم عن ارتباكهم فتلهى « باندا » بذلك .

كان لايزال واضعاً يده فى جيبه ليحمى لفافة أوراق النقد . فيم عساهم يتحدثون ياترى ؟ كان على استعداد لأن يدفع غالياً مقابل أن يعرف مايتحدثون فيه . كان يتوقع أن يشير إليه الضباط البيض بأصابعهم فجأة وأن يأتوا ليخرجوه من الصفوف . كان يتصور إمكان حدوث هذا فى كل لحظة رغم تأكده من عجزهم عن معرفة الحقيقة، ومن أنهم لن يأتوا اليه . ولـكنه عجز عن منع نفسه من الانسياق وراء مخاوفه ، وحدث نفسه قائلا :لو أن البيض على هذا القدر من الذكاء الذى يدعونه ،فليـكشفوا لى إذن ... ليـكشفوا حقيقة ماحدث ...هيا اكتشفوا هذا إن كنتم على هذا القدر الذى تدعونه من الذكاء ... ماذا تنتظرون ؟ هيا ... تعالوا واقبضوا على . هأنذا فى وسط هذه الجمهرة من الناس ، إنى طويل القامة وبشرتى سوداء داكنة وأنا أرتدى ملابس من القماش الـكاكى وأتميز بأثر جرح فى ذقنى كما أتميز بعينين كبيرتين جاحظتين ... وها أنتم بالرغم من كل ذلك لم تـكتشفوا وجودى وحقيقة ما فعلته . لم يكن يبدو أن الضباط البيض سيهتدون إليه أبداً ، وقال محدثاً نفسه : إن الواضح على أى حال هو أنهم لايحنقون على أنا .

وبعد أن مرت نصف ساعة استقل ضابطان السيارة المغطاة وجلسا فى مقدمتها ثم انطلقت السيارة وتبعها الأربعة الآخرون فوق دراجتين بخاريتين ألحق بكل منهما مقعد . وانشطرت جمهرة الواقفين تلقائياً لتفسح الطريق أمام المركبات الثلاث ، ثم التفت حول رجال الحرس الذين أخذوا يصطفون فى طوابير وقد تأهبوا للرحيل ولـكن الجمهور الذى أحاط بهم كالسوار الغليظ لم يفسح لهم الطريق بل أخذ يقذفهم بألوان مختلفة من السباب ، ألوان لم يكن أحد يتوقعها من هؤلاء الناس .

« أيها المتوحشون ... يامصاصى الدماء ... لقد قتلتموه ! ... لقد ارتضيتم أن تقتلوا أخا لكم ! ... ألا تستحون ؟ ... تقتلون أخا لكم أيها المتوحشون... يالكم من حيوانات كاسرة ! ... يالكم من حيوانات مفترسة ... لقد بعتم أنفسكم لهم ... أيها الخونة ... لا وطن لكم... لقد بعتم أنفسكم لأعدائنا !

بل كانوا يقذفونهم أيضا بالحجارة . كان هؤلاء المتمسحون ولاشك من المراهقين الذين يلتهبون غضباً ويتأثرون بسرعة ، وربما كانوا أيضاً من النساء اللائى يسارعن إلى ألوان التحدى عندما يشعرن برجالهن على مقربة منهن .

كان رجال الحرس — وهم من أبناء الشمال — طوال القامة ، أشداء ، رابطى الجأش ... وقد اصطفوا على شكل مربع ، دون ماقيادة ، فى صفوف متراصة كثيفة وشهروا حراب بنادقهم ثم تقدموا فى ثبات دون أن ينبسوا ببنت شفة . لاشك أنهم قد دربوا تدريباً حسناً . كانوا لايبالون بالحجارة التى تنهال عليهم ويتقدمون وهم يشقون طريقهم بأسنة حرابهم . وتقهقرت كتل الناس المتراصة أمامهم وعلى طريقهم ، تقهقرت فى بادئ الأمر بتردد ولكن عند ماتبين الناس أن رجال الحرس قد أصروا على ألا يعوق سيرهم أى شىء أخذوا يتفرقون وهم يطلقون صراخاً ويقذفونهم بالسباب ويتهددونهم بطريقة يصعب وصفها .

ثم قذفوهم ببعض الحجارة إلا أن رجال الحرس ابتعدوا ، دون أن يلتفتوا وراءهم وهم يسيرون على شكل مربع ، مربع كثيف متراص الصفوف كالصخرة الشامخة التى يعجز النهر نفسه عن زحزحتها أو النيل منها .

وسلك « باندا » الطريق المؤدية إلى « باميلا » وتساءل عما سيفعلونه بالجثة ، قال محدثاً نفسه : بودى أن أعرف ما سيفعلونه بها ... هل تشبه مدينة «فورنيجر» مدينة طنجة ؟

وهذا أيضاً بودى أن أعرفه : هل الحياة بفورنيجر كالحياة بطنجة ؟ وعلى أية حال ، هل فى إمكانى أن أستمر فى الحياة بطنجة بعد موت أمى ؟ ...

الفصل الحادي عشر

توقف « باندا » عن السير فى منتصف الطريق بين المدينة و « باميلا » . لم يكن هناك أى كوخ على مرأى البصر ولم تكن ترى عن يمينك أو يسارك إلا الأحراش والغابة .

وجلس على التل المرتفع الذى يحاذى الطريق ونفخ : لقد بدا له أن يعود مرة أخرى إلى بلد صديق . وتلألأت بعض قطرات العرق على وجهه ، جففها براحته العريضة ثم جفف يده فى سرواله الكاكى القصير .

وقال الشاب لنفسه فى براءة الأطفال : إن المرء ليشعر هنا بأنه فى الغابة حقاً ، إلا أنه تساءل بعد ذلك عن تلك الرغبة الملحة فى الرحيل إلى المدينة ، فيما بعد . ربما كان مخطئاً فى أنه يريد الرحيل إلى المدينة بما يلاقيه المرء فيها من صعاب ، فهناك ضباطها البيض ورجال حرسها الإقليمى وحرس المستعمرات بحراب بنادقهم وطرقها التى تسير فيها المركبات فى اتجاه واحد والتى حظر على الوطنيين السير فيها ، ولكنه كان هو نفسه فى هذه المرة ضحية المدينة : لقد لمس بنفسه فى هذه المرة كل ما تتسم به الحياة فيها من غلظة وتجرد من المشاعر الإنسانية .

ومر بيده على عينه المصابة وهو يتنهد : لقد زال مابها من انتفاخ . ولكن ربما لم تكن « فورنيجر » كطنجة ؟ ربما كانت ذات طابع خاص ؟ بل ربما كانت شراسة سكان المدينة هى السبب فيما يتسم به « الآخرون » من غلظة وقسوة ؟ نعم ، ولكن هل هذه الأمور تحدث فى كل مكان كما تحدث فى طنجة ؟ يجب عليه أن يعرف إن كانت الحياة فى المدن الأخرى تسير على هذا النمط .

إنه على استعداد لأن يدفع غالياً نظير أن يعرف حقيقة هذا الأمر . إلا أنه على أية حال لن يستطيع أن يستمر فى البقاء فى « باميلا » بعد وفاة أمه . ليس فى مقدور المرء أن يعيش فى تلك القرية الكبيرة التى تملأ البغضاء نفوس شيوخها كما تملأ نفسك بها نحو هؤلاء الشيوخ .

بل إنك لاتستطيع أن تعيش فى قرية من القرى المجاورة خوفاً من أن تلاحقك بخضاؤهم ...

كان قد حزم أمره على ترك « باميلا » ، إلا أن الأسباب التى تدفعه إلى الرحيل كان يمكن أن تدفع الآخرين إلى أن يرحلوا بدورهم ، ولكن هاهم بالرغم من كل شىء لم يرحلوا عنها . وبعد أن فكر كثيراً بإيحاء من كبريائه واحتقاره للغير ، توصل إلى هذا الاستنتاج المتسرع الذى مؤداه أن هؤلاء الشبان يعوزهم التصميم ، أو أنهم يجهلون حقيقة ما يريدون. ولو أنه استطاع أن يرى بوضوح حقيقة ما يعتمل فى أعماق نفسه — ولم يكن هذا فى مقدوره على أى حال — لتبين أن ما كان يدفعه إلى الرحيل عن «باميلا» إنما هو قوة يجهل هو نفسه كنهها ، نوع من الإحساس العميق ، دافع لا يخضع لإرادته ، لاعلاقة له بباميلا وهو إحساس ربما شحذته طبيعته الحساسة وماضيه التعس .

قال محدثاً نفسه فى مرارة : لن أستطيع العيش فى « باميلا » بعد الآن ...وهذا على أى حال شىء مؤسف ... نعم ، إن هـذا لمؤسف حقاً من بعض نواحيه ... ولكن هل الحياة فى « فورنيجر » تشبه الحياة بطنجة ؟ كان فى مقدوره أن يعيش فى « باميلا » حتى بعد موت أمه إلا أنه ليمتعض من مجرد التفكير فى هذا ، فمعناه أن يتعامل مع أناس كتونجا ؟ ليس فى مقدوره أن يحيا إلى الأبد فى حالة تحفز للحرب ولا أن يساير هؤلاء الناس ، ولا أن يتظاهر بما ليس فى نفسه ، وأن يرضى بكل مالم يعتده من قبل .

أخذ ينظر أمامه إلى الأحراش بلونها الأصفر ومن ورائها الغابة بلونها الأخضر القاتم ، وأشجارها الكثيفة وهى رابضة هناك لاتتحرك وكأنها ليلة من ليالى الصيف الشديدة الحرارة عندما لاتهب أية ريح . ولم يكن يشعر بإحساس معين ، لابحزن ولا بسعادة .

كان يشعر فقط بإرهاق شديد . لقد مرت عليه ليلتان لم يذق فيهما طعم النوم . وتذكر ، والدهشة تملأ نفسه ، أن يومين قد مضيا لم يأكل خلالهما شيئا وأسعده أنه لم يفطن إلى ذلك من قبل ، فلو أنه فطن إليه لتملكه اليأس. أما الآن فهو يهنئ نفسه إذ هو قد أوشك على تلبية كل رغبات جسده ،وكان هذا الاقتناع وحده جديراً بتهدئة حدة هذه الرغبات .

تحسس فخذه في مكان الجيب ولمس لفافة أوراق النقد ثم رفع يده إلى جبينه ببطء . واصطدمت أنامله باللفافة وتشبثت بها . وبينما أنامله تتحسسها بلذة ، سمعت أذناه صوت محرك سيارة على بعد . وأخرج يده من جيبه بعصبية وهب واقفاً بوحي من غريزته . كان تصرفه هذا يشبه رد الفعل عند الفريسة المطاردة . وعلى أية حال، لماذا يعرض نفسه هكذا لنظرات الفضوليين ؟ وأخذ ينظر من حوله فى قلق وقال : لا يمكن أن يتكهن المرء بشيء ، فلم يعد فى مقدور أحد أن يتكهن بما سيحدث فى هذا البلد العجيب . ولو أن أحداً رأى « باندا » فى هذه الأثناء واستطاع أن ينظر إليه بكامل حريته لتصور أن جميع رجال الأمن بطنجة يطاردونه لارتكابه جريمة يصعب إيجاد اسم لها .

« يابنى ، إن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ ... » هكذا كان يقول خاله فى الأيام الخوالى .

هاهو صوت محرك السيارة يقترب منه بسرعة . واختار مكاناً تتكاثف فيه الأعشاب على مقربة من الطريق ، واندفع ليختبئ فى جوفه . وما إن توارى بداخله وتلفت حتى رأى سيارة كبيرة تمر بجانبه كالبرق ، وظن أنه رأى بداخلها شخصين من البيض ، رجلا وامرأة ، إلا أنه لم يطل التفكير فى هذا الأمر (لقد قدر له أن يرى تلك السيارة مرات عديدة فى هذا اليوم) . وأخذت سحابة كثيفة من الغبار الأحمر تدور حول نفسها فوق الطريق . وتنفس « باندا » بصعوبة . عجباً ! أليس فى مقدوره أن يتخلص من خوفه هذا ؟ لماذا هذا الشعور بالخوف ؟ مم يخاف ؟ وقال : « على أى حال ليس هناك من يعرف حقيقة ماحدث ، ولا ما مر بى من أحداث » . ولم تنجح كل هذه الأسباب فى القضاء على خوفه .

بقى فترة طويلة واقفاً بين الأحراش الكثيفة ونظراته زائغة فى أبعاد سحيقة خلال سحابة الغبار التى أخذت تتلاشى ببطء شديد . وسمع صوت محرك السيارة وهو يبتعد ثم تلاشى ، وبلع لعابه . كان يشعر بعرق بارد يسيل على طول عموده الفقرى . عجبا ! لماذا يعتريه هذا الخوف ؟ أولا يستطيع أبدا أن يتخلص من خوفه هذا ؟

وأعاد يده من جديد إلى جيب سرواله الأيسر . هاهى أصابعه المتشبثة باللفافة تتحسسها بعصبية . وأخرج يده ثم أدخلها من جديد . كم ياترى فى هذه اللفافة ؟ ... ربما كان المبلغ كبيراً فإن اللفافة سميكة ... والأوراق ، إنها من الأوراق الكبيرة العريضة التى تحدث خرخشة عند لمسها، كتلك التى يراها فى أيدى التجار اليونانيين. وأخذ يسحب يده ثم يدفعها من جديد فى جيبه . وبينما هو يتلهى بهذه اللعبة العجيبة، أخذ خياله يشرد فى موجات من التفكير الجرىء . هاهو يتذكر ما كانوا يلقنونه إياه عن العناية الإلهية فى الدروس القليلة التى حضرها فى تعاليم الدين ، ولكنه سرعان ما أبعد عن ذهنه فكرة العناية الإلهية هذه ، عنايتهم الإلهية هذه ، ... هل يمكنه بعد أن أصغى إلى ما قالوه هذا الصباح فى القداس، أن يصدق حكاياتهم هذه ؟ لا.. الأرجح أن تكون هذه العناية من لدن ... أبيه ، نعم ، من لدن أبيه المتوفى ، فهو إذا كان قد صادفه حظ كهذا ، فإن السبب ببساطة هو أن مصيره المحزن قد هز مشاعر أبيه المتوفى ، وأثار شفقته عليه . هذا صحيح . لم يكن من الممكن أن يبقى أبوه هكذا ، غير مبال بما صادفه من مصائب. لا، لم يكن هذا شيئاً ممكنا. أليس الموتى هنا دائماً يهيمون بأرواحهم حول الأحياء ؟ ألا يرونهم ؟ ألا يشاركونهم شئون حياتهم ؟ كان من الطبيعى أن تمس تلك المصائب التى حلت به شغاف قلب أبيه . كيف لم يفكر من قبل فى هذا السند الثمين الدائم ؟ كيف لم يفكر فى حب وعناية أبيه المتوفى ؟

وتذكر قصة محيرة — وإن كانت واقعية — هى قصة حدثت لجارة من جارات أمه . كان المرض الخطير الذى انتاب ابن هذه المرأة يعذبها عذاباً أليما ، وخلاصة القول إن اليأس دب فى نفسها . ولكن حدث ذات ليلة أن زارها فى المنام زوجها وحماتها ، وكانا قد توفيا . وقد أشارا عليها باستعمال نوع من الأعشاب تنبت فى مكان غير بعيد عن كوخ الأسرة لتعالج به طفلها المريض . وعند الفجر اكتشفت الأم — وكان الأمل قد أنعش قلبها — الأعشاب التى أرشدت إليها فى المنام ، اكتشفتها فعلا . وهكذا أنقذ الطفل من موت شبه محقق

إن هذا لعجيب ! لطالما فكر فى أن أباه سوف يفعل شيئاً من أجله فى يوم من الأيام — وهاهو هذا الشىء قد حدث فعلا . ما أغرب الحياة حقاً !

ولكن هاهى أفكار تغزو رأسه ، أفكار تناقض هذه تماماً . كان مازال

واقفاً بين الأحراش الكثيفة ، ونظرته زائغة فى أبعاد سحيقة بينما أصابعه تتحسس اللفافة الخشنة . ولكن لو أن ادعاءهم أن اللعنة تطارده كما يقولون فى « باميلا » ، لو أن ادعاءهم هذا كان صحيحاً ، فماذا يكون شأنه ؟ ... عجبا ! أما أن يفقد فى لحظة واحدة مائتى كيلو جرام من الكاكاو دفعة واحدة ، فهذا الأمر لايستطيع أن ينساه ، وهو لايحدث لجميع الناس . والحقيقة أن هذا المال القابع فى جيبه ... ليس ماله هو ... نعم ، ليس ماله هو ... وهاهو على وشك أن يسرقه ... لم يكن هذا المال ماله ... وهاهو على وشك أن يسرقه ... ولكن هل أمكنه فى يوم من الأيام أن يفعل شيئاً من تلقاء نفسه؟ إن ترك الأمر لنفسه فلن يتزوج أبداً، لن يستطيع أبداً أن يتزوج هذه الفتاة . عجبا ! هذا صحيح ، لو أنه ترك الأمر لنفسه فلن يتزوج أبداً ، ولولا موت « كوميه » ... لولا موت « كوميه » ... آه « كوميه » إنه ولد شديد الراس حقا ...

حاول أن يقنع نفسه بشتى الوسائل أن لاغضاضة فى أن يستحوذ على هذا المال ، فى أن يمنح نفسه هذا المال ، وأن هذا المال من حقه مادام لايؤذى أحداً ، ومادام هو فى أشد الحاجة اليه . إلا أن مذاقا مريراً بقى فى حلقه عند تفكيره فى هذا الأمر. ربما كانت اللعنة تطارده فعلا ، ربما كان حقا فتى لايصلح لشىء ، عاجزاً وحده عن عمل أى شىء . وإذن ، لماذا يرحل إلى المدينة مادام لن ينجح أبداً فى أى شى فى الحياة ؟ لعله يحسن صنعا إذا لم يرحل إلى المدينة ... وبدأ يفقد الثقة فى نفسه تماما . وقلما انتابت شخصا أزمة كهذه .

خرج من تأملاته بنتيجة وقال لنفسه :

عجبا ! إن هذه الافكار جميعاً سخيفة . إذا ما استحوذت على هذا المال فلن أرتكب إلا عملا مشروعا ! ولكنه لم يقتنع فعلا بهذا المنطق : ولم يكن مرجع هذا تمسكه بمبادىء الأخلاق بل الأرجح أن مرجعه كان كبرياءه .

لقد اعتزم إذن أن يستحوذ على هذا المال ، وسحب يده ببطء وكانت تتشبث باللفافة الصغيرة ، وأخذ يستعرضها أمام عينيه ، وأمسك بها بيده اليسرى ، أمسكها بشدة ، بينما أنامل يده اليمنى تحاول أن تفكها فى غير مهارة . كانت يداه ترتعشان وشفته السفلى تتدلى تحت فمه الفاغر ، وكأن أزمة حادة من الملاريا قد اعترته . كان شارد اللب تماما ، ولكنه استطاع أخيراً أن يجلس القرفصاء بين الأعشاب ،

قد أبعدها من حوله وأعد مكانا لجلوسه، مكانا نظيفا ، وبذل جهداً عنيفا ليسيطر على انفعاله. وشرع فى عد أوراق النقد... عجباً ! كم بها ياترى؟ ياالسخف هذا السؤال! ألم يكن على وشك أن يعرف الحقيقة ؟ ... اثنتان ... ثلاث ... عجباً ! إنها أوراق من ذات الألف فرنك ياإلهى ! إنها أوراق من ذات الألف فرنك . كم قيمتها ياترى ؟ ... وفى هذه الأثناء تعثر فى العد ، فأعاد الكرة : واحد ... اثنان ... ثلاثة ... ولكن ربما كانت أوراقاً زائفة ! ... ما العمل لو أنها كانت زائفة ! ... هناك أوراق زائفة كثيرة متداولة بين الناس . يالها من فكرة ! ولكن هل كان شخص كالسيد « ت ... » ليختزن أوراقاً زائفة ! كيف يمكن أن يختزن مثل هذا الرجل أوراقا زائفة ! المؤكد أولا أنه كان سيتبين أنها زائفة وإلا لما احتفظ بها ، ثم ، لو أنه لم يتبين أنها زائفة إلا بعد استلامها لكان قد صرفها وأعطاها لأناس آخرين ، لبعض اليونانيين مثلا وهم لايفقهون شيئا البتة ... أما السيد « ت... » فهو رجل فرنسى حقاً . كان متعلما ولم يكن فوق هذا غبيا ... ولكن هاهو يتعثر مرة ثانية فى عد الأوراق . عجبا ! ألا يوفق أبداً فى عدها دون تعثر ؟ أواه لهذه العادة السخيفة التى تجعله يفكر فى أشياء حين يكون منهمكا فى أشياء أخرى .

وأعاد الكرة وهو يزم شفتيه ويجز على أسنانه : واحد ... اثنان ... ثلاثة ... أربعة ... خمسة ... ستة ... سبعة .. ثمانية .. تسعة .. عشرة .. إحدى عشرة ... اثنا عشرة ... ثلاث عشرة .. أربع عشرة .. خمس عشرة ألفا من الفرنكات... خمس عشرة ألفاً .. خمسة عشر ورقة.. عجبا ! لم يكن هذا شيئا معقولا .. لابد أنه أخطأ فى العد ، لابد أنه وقع فى خطأ جسيم . هل عيناه تخونانه ؟ ربما كانت عيناه تخونانه ، فهو فى أشد حالات الإرهاق . وفرك عينيه بشدة بكفه العريض وأعاد الكرة وهو يزم شفتيه ويجز على أسنانه . وقد ثبت عينيه فى الأوراق فى نصف إغماضة وهو مقطب الجبين : واحد ... اثنان... ثلاثة... أربعة..خمسة .. ستة..سبعة .. ثمانية .. تسعة .. عشرة .. إحدى عشر ... أثنتا عشر .. ثلاثة عشر .. أربعة عشر .. خمسة عشر .. لم يكن هناك أى خطأ ، وهى خمس عشرة ألفا من الفرنكات فعلا .ولكن هل هى حقيقة أوراق من فئة الألف فرنك ؟ وفحص كل جزء من الأوراق بعناية . عجبا ! إن هذا المبلغ ليفوق ما يلزمه لكى يتزوج ، أكبر بكثير مما يحتاج إليه . لاشك أن أباه هو الذى

أعد له هذه المفاجأة ، ولعله يريد من وراء ذلك أن يثبت له أن على المرء ألا ييأس أبداً ... وقال محدثا نفسه : المهم فى هذه الحياة ألا ييأس المرء أبداً - يجب على المرء أن يكافح ولا أحد يدرى أين يختبئ حظه — وهو يكتشف مكان الحظ الذى ينتظره ذات يوم مصادفة .

واضطر إلى أن يبذل بعض الجهد لكى يسيطر على مشاعره ، وشعر بأن قواه تخونه ، وأنه على وشك أن يفقد وعيه . أخذ يرتب أوراق النقد الواحدة فوق الأخرى بيد مرتعشة ولفها فى لفافة القماش ثم أعاد اللفافة الصغيرة إلى أعماق جيبه . وحينئذ نهض ولكنه شعر بقرقعة فى مفاصل ساقيه وبألم شديد بسبب جلوسه القرفصاء مدة طويلة ، ثم نزل إلى الطريق وسار فيه وقد تملكه التصميم والإصرار .

كان شىء ما قد أهاج فيه غريزة حب البقاء ، وكان وهو يجتاز القرية يسير فى وسط الطريق وكأنه يريد بذلك أن يبتعد ما استطاع عن الناس . كان تصرفه هذا كتصرف مجرم أو رجل يحمل سراً رهيبا . وعلى أية حال ألم يكن يحتفظ بسر هام فعلا ؟

ودهش إذ وجد نفسه يسير فى وسط الطريق ، وخشى أن يفضحه حذره هذا . وقرر ألا تبدو أعصابه متوترة هكذا ، وبذل جهداً لكى ترتسم على ملامحه بسمة تنم عن عدم المبالاة ، بل اجتهد فى أن يصفر بشفتيه لحن هذه الأغنية :

« لو أنك أهديت إلى ثوباً ، هل كنت أعاتبك على عدم مجاملتك ؟ »

« إنك جميل المحيا ، وأنت أسود اللون كالثعبان الراقد فى حقل تغطيه الأعشاب » .

« إنك جميل فارع الطول كنبات الذرة » .

« ومهما تظاهرت ، فإنى أعرف أنك قد فهمت معنى غمزاتى » .

« سوف أنتظرك عند منحنى الطريق الضيق فى الخامسة والنصف » .

« لسوف أتقبل من أجلك كل شىء : الاحتقار ، وصيحات التهكم ، والضربات ، وألوان العذاب ، بل وإنى على استعداد للهرب من أجلك » .

« لقد انتزعت قلبى من بين ضلوعى وها أنت تحتفظ به وترفض أن تعيده إلى ... »

كانت هذه الأغنية هى التى تنشدها أمه عندما كانت فى ريعان شبابها وفى بهاء جمالها ، عندما كانت قادرة على الغناء وعلى التمتع بمباهج الحياة . كانت أمه آنذاك جميلة وكان جمالها ضياء . لم تكن تكف عن الضحك وعن المزاح ، فتظهر أسنانها البيضاء الجميلة.

وبينما هو يجتاز القرية ، كانت تصل إليه من داخل الأكواخ أغان وضحكات وأصوات صاخبة . هناك من لايبالون بشىء وهو يحسدهم . وعلى أية حال فإن ستة كيلو مترات ليست بالمسافة البعيدة عن المدينة ، ولاشك أنهم قد علموا بالأمر ، لابد أنهم علموا به . ولكن كيف يتسنى لهم ألا يبالوا بشىء على هذه الصورة ؟ ربما كان السكر هو سبب عدم مبالاتهم هذه ... أما عنه فهو على العكس من ذلك تماماً ، فهو إذا أفرط فى الشراب لايمكنه أن ينسى مايدور حوله ، أو هذا مايعتقد .

كان فى إمكانك فى هذه الحقبة أن تلقى فى جميع القرى ، وحتى فى تلك التى تقع على الطريق العام ، فئة من الناس لايشعرون بوجود التجار اليونانيين ولا الضباط البيض ولا رجال الحرس الإقليمى أو حرس المستعمرات ، ولا بوجود أناس على شاكلة السيد « ت ... » وبالاختصار كان يمكنك أن تلقى أناساً لايشعرون بوجود مدينة طنجة ، أو هم يشعرون بوجودها ولكن لايدخلونها فى نطاق مشاغلهم : كان هذا النفر من الناس يتجاهل وجودها — وكثيرا ما كان يحدث هذا عن قصد ، ولكن فى أغلب الأحيان بدون تحيز — ولذا فلم يكونوا يترددون عليها ، فالعالم فى نظرهم لايكاد يخرج عن نطاق قريتهم أو عن نطاق الغابات المجاورة لقريتهم . وهم إذ يتوجهون إلى الغابات فللعمل بالحقول ، أو لشرب نبيذ البلح فى حرية تامة ، أو للصيد ، أو لممارسة بعض أنواع النشاط التى يحرمها القانون بينما تبيحها الغابة وترعاها رعاية الأم الرءوم . إن ماتتميز به هذه الفئة من الناس هو مرحهم الدائم وزهوهم وقوة احتمالهم أمام تقلبات الزمن وصعابه . كان « باندا » وهو يجتاز القرية يسمعهم وهم يغنون داخل أكواخهم — إذ كان اليوم يوم أحد وحملات رجال الحرس الإقليمى والضباط البيض نادرة فى هذا اليوم — فتساءل : كيف يتسنى لهؤلاء الناس ألا يبالوا بشىء ولا حتى بما يحدث فى هذه اللحظة فى طنجة على بعد ستة كيلو مترات منهم ؟ » .

وفى تلك الأثناء نزل رجل إلى الطريق وسار خلفه ، وأخذ يتبعه وهو يسير في خطوات غير منتظمة . كان الرجل يغنى بصوت شاك متثاقل ، ولكن « باندا » تجنب أن يتلفت بالرغم من أنه تعرف على صوته ، وكان صوت صديق ، إلا أن الرجل ناداه :

— أيها الصديق ... أيها الصديق ... أيها الصديق ... من أنت ؟ أنت الذى لاتتنازل وتلتفت وراءك عندما ينادونك ؟ هل لك فى قليل من نبيذ نخيلنا الطيب ؟ أجبنى ياصديق ، أنا شدك ألا تحتقر نبيذنا . لقد اعتزمنا اليوم أن نقدم منه لكل غريب يمر فى الطريق ، أى غريب تطيب لنا دعوته ، وها أنت تعجبنا ... فكر فيما أقول... إنك تعجبنا . أوه ! إذا ماتراءى لك أن تفوت هذه الفرصة، أى أن تشرب من نبيذنا ، فإن هذا يكون من سوء حظك. وعلى أية حال فإن أقرب قرية أمامك هى « باميلا » ، ولن تجد فى « باميلا » من يقدم لك نبيذاً . صدقنى هئ .. هئ .. هئ ، أرجو ألا تطمع كثيراً فى كرمهم فلو فعلت طلبت المستحيل ، هئ .. هئ .. إن هؤلاء الناس تعوزهم مبادئ كرم الضيافة ، بل ويبدو أنهم يغالون فى الغيرة على نسائهم ، هئ .. هئ .. هئ

كان بود « باندا » أن يرفض هذه الدعوة ، إلا أنه أمسك عن الرفض الذى ربما فضح سره . وأخذ الرجل يخطو خطوات واسعة ثم لحق به .

وتلفت « باندا » ، أما الآخر ، وقد تعرف عليه فى الحال ، فقد أخذ يصيح وهو ينطق بمختلف عبارات الاحتجاج قائلا :

— أوه ... إنه « باندا » . حسناً يا أخى ، كيف حالك ؟

— لست فى أحسن حال ولست كذلك فى أسوأ حال ...

— ولكن عجباً ! بربك أين اختفيت ؟

— لعلك تقصد أننا لم نعد نراك ! فأنت دائم التغيب عن القرية . أين تذهب وأين تغيب كل هذه المدة ؟ إنى أسألك جواباً .

— أما عنى فإنى أترك لكم هذا الطريق إذ أفضل عنه الغابة ، فالطقس فيها جميل ، وأشجارها خير أصدقائى ، بل إن هذه الأشجار لأفضل الأصدقاء فى هذا

العالم، كما أنها خير مضيف لمن يعرفها . إنها أجدر من يؤتمن من الأصدقاء ! ... ولكن ماذا دهاك يا أخى ؟ أكنت تريد المرور أمامنا هكذا دون أن تأتى لتحية أصدقائك ؟ ... عجباً يا « باندا » ! هناك أشياء عجيبة تحدث فى هذا العالم، فى عالمكم هذا . أخبرنى ياصديقى إلى أين نسير ؟ إنى أتساءل عن مصيرنا . إلى أين يسير عالمكم هذا ؟ ها أنتم تتصرفون إزاء ذويكم وأصدقائكم وكأنكم أعداء لهم ، وها أنتم تثرون من محصولكم من الكاكاو بفضل تعاملكم مع اليونانيين ، وها أنتم تقتلون البيض ... إن الحياة عجيبة حقاً ، ألا تشاطرنى هذا الرأى ؟ ... عجباً ! .. كم أنت أنيق ! هل لك ياترى صديقة صغيرة هناك بالمدينة ؟ لاشك أن هناك من تحلو لهم المدينة ، لاشك فى هذا ...

وقص عليه « باندا » كيف رأى فى اليوم السابق بعينى رأسه محصوله من الكاكاو وهم يلقون به فى النار . وقطب الآخر حاجبيه وظهرت عليه علامات الشرود والتأثر العميق وشعر « باندا » بأن الرجل على وشك أن يشفق عليه ولم يكن يحب هذا . ولكن ماقيمة كل هذه الأشياء الآن ؟ ودس يده بشكل غريزى فى جيب سرواله وأخذت أنامله تتحسس اللفة الصغيرة وما فيها من أوراق النقد .

وقال يحدث نفسه : خمسة عشر ألفاً ، إن المبلغ محترم فعلا ...

— هيا تعال يا « باندا » واشرب بعض نبيذنا ، لمجرد أن تنسى كل هذه المضايقات . ألم أقلها دائماً ، إن زمن أجدادنا كان أفضل ألف مرة ؟ كانوا لايعرفون كل هذه المضايقات . تعال واشرب معنا ... اتبعنى ياأخى .

— سوف أتبعك ولكنى لن أبقى طويلا فأمى مريضة .

وتساءل « باندا » عن المدة التى قضاها فى كوخ صديقه ، فى الشراب والنعاس ، تحيط به كل هذه الأصوات وهذه الضحكات . لم يعد يدرى كم قضى من الوقت فى هذا المكان . كان يرى ضوء النهار وهو يتلاشى بسرعة ، وقال محدثاً نفسه : « لقد طال جلوسى ، وعلى أن أرحل » . ولكنه لم يتخذ خطوة إيجابية ولم يرحل . كان يعرف كل هؤلاء الشبان وكل هاتيك الفتيات الذين يحيطون به . لم يكن يشعر نحوهم بالحب ولكنه لم يكن يحس نحوهم مع ذلك بالكراهية . وبقى على حذر مبتعداً عن مجال مناقشاتهم وكان يتساءل بين الفينة والفينة عما إذا كان سيرحل .

هاهو ضوء النهار يتلاشى خارج الكوخ والشمس تختفى وراء الأشجار على شكل كرة غليظة فى لون الدم القانى ، ولكنه لم يرحل .

كان ذهنه شارداً شروداً عجيباً وقال لنفسه إن المصائب تفيد فى شيء ولا شك ، فلو أنه لم يصادف هذه الفتاة « أوديليا » ، ولو أن « كوميه » لم يأخذ هذا المال من الرجل الأبيض ... ولو أنهم لم يلقوا بمحصوله من الكاكاو فى النار... ولكن: لو أنه قبض حتى ثمن المائتى كيلو جرام من الكاكاو لما استطاع الحصول على كل هذا المال ! وأعاد فى ذهنه الحسبة التى طالما حسبها : ٢٠ × ٦٠٠ = ١٢٠٠٠ فرنكاً. لو أنه قبض ثمنها لما تعدى هذا المبلغ اثنى عشرة ألفاً من الفرنكات ، اثنى عشرة فقط ، وكان لابدلكى يحصل على هذا المبلغ، أن يقبل المشترى اليونانى دفع ستين فرنكاً فعلا عن كل كيلو جرام من الكاكاو ، وكثيراً ما كان هؤلاء الناس يعدون بهذا الثمن دون أن يوفوا بوعدهم . ما أكثر عدد المرات التى حدث فيها مثل هذا ! ثم إنه ربما استطاع عند وزن المحصول أن يختصر بعض الكيلو جرامات إذ ليس فى استطاعة أحد أن يثق فى موازينهم هذه . أما الخمس عشرة ألفاً من الفرنكات... عجباً ! أما هذا المبلغ فهو محترم فعلا .

ماذا سيكون رد الفعل عند أمه ياترى ؟ سوف تضطره إلى أن يسلم هذا المبلغ إلى والدى « كوميه » أو إلى « أوديليا » . حسناً ، سوف لن يخبرها بهذا . سوف ينسج لها قصة يبرر بها وجود هذا المبلغ معه ، أية قصة تكفل له الاحتفاظ بهذا المال .

وحقيقة الأمر أنه لم يكن قد اتخذ قراراً فى مسألة احتفاظه بالأوراق المالية إلا فى اليوم السابق ، اتخذه صاغراً ، تحت الكوبرى المشيد من الأسمنت المسلح . ولكنه لم يفكر ملياً فى الأمر ولم يكن قد سأل نفسه عن حقيقة مثل هذا العمل ، وكلما أمعن التفكير فيه كلما بدا له هذا العمل أمراً يصعب عليه أن يهضمه . هل يعتدى بعمله هذا على حق أحد ؟ لقد وجه لنفسه هذا السؤال من قبل ، وفى كل مرة كان يجيب عنه بالنفى قائلا : لا ، إنى لا أعتدى على حق أحد . وإذا ماراودت صورة « أوديليا » ذهنه وألحت عليه قال : « أوه ! إن « أوديليا » مهما كان الأمر ليست إلا امرأة وليست فى حاجة إلى مال لكى تتزوج ، أما أنا ... ثم ألم أقبل دون ترو فكرة إنقاذ أخيها ؟ ... إنى أستحق على أية حال مكافأة صغيرة ، أليس كذلك ؟ »... إلا أن هذه المبررات جميعاً لم تكن لترضى نفسه تماماً .

كان هناك صوتان يطنان فى أعماقه ، أحدهما يهتف فى قوة ويبدى حيثيات لاتحتمل النقض . كان هذاالصوت يقول : « إنك بهذا ترتكب إثماً ،فلا حق لك فى هذا المال . وإذا ما احتفظت به فأنت سارق . أعط لقيصر ما لقيصر .. » إلا أن « باندا » لم يكن ليصغى إلى هذا الصوت. لم يكن ليحب أن يصغى إليه ..»أولا لأن أفضل ما يمكن أن يفعله لو أنه أصغى إليه ، هو أن يعيد المبلغ إلى أرملة «ت ...» وكان هذا الحل فى رأيه حلا غير مقبول بتاتاً . والسبب الثانى هو أنه تعرف فى هذا الصوت على صوت المبشرين الذى هو كذلك صوت أمه التى تؤمن بهم . لا ، لم يكن يحب أن يصغى إلى هذا الصوت،مهما كان الثمن،فأمر هؤلاء المبشرين لم يعد ليخفى عليه . آه ! فى إمكانهم أن يجروا وراءه ولكنهم لن ينالوه أبداً . وهم على أية حال لم يتمكنوا من السيطرة عليه أبداً . وهنأ نفسه على أنه لم يمكنهم أبداً من السيطرة عليه ، هؤلاء المبشرين .

أما الصوت الآخر فكان أكثر تعقلا وإن كان أكثر إلحاحاً . كان يقول له : « ألا تخجل من نفسك ياباندا » ؟ هل لا بد لك لكى تتزوج من أن تسطو على مال جثة ؟ إن هذا الفتى كان شديد المراس ، كان رجلا بمعنى الكلمة ، ولم يكن فى مقدورك أبداً أن تأخذ منه مالا بهذه الطريقة . لقد كان فتى شديد المراس ، أما أنت فممن ينهبون الجثث. وا أسفاه ! ... ألا تخجل من نفسك ؟ أما « كوميه » فهو لم يخف من طلقات الرصاص عندما استحوذ على هذا المال وهو فضلا عن ذلك قد عمل وعانى وتشاجر . لم يخش رصاص السيدة « ت ... » آه ! إنه كان فتى شديد المراس ... أما أنت فبدلا من أن تحذو حذوه إذا بك تجرده مما حمل وهو جثة هامدة. وأين هى فكرتك ، فكرتك العجيبة ؟ ... أن تستحوذ على عشرة آلاف فرنك من رجل يونانى ، لمجرد أن تتزوج بهذا المال ... عشرة آلاف فقط . ألم تعد تفكر فى فكرتك هذه ، فى فكرتك الجهنمية هذه ؟ ... ألم تعد تفكر فيها ؟ أيكون « تونجا » على حق فيما قاله ؟ هل تكون حقا ، كما قال ، ولداً لا يصلح لشىء ، هل تكون صفراً تراود الأفكار ذهنه فقط ؟ هل اللعنة تطاردك إذن ؟... من ذا الذى لعنك ؟... ولماذا تريد الذهاب إلى المدينة ؟... إن المدينة لا تقبل إلا رجالا مكافحين ، رجالا أقوياء أمثال « كوميه » . أما من كانوا على شاكلتك مهلهلى الشخصية فهى تلفظهم . أتفهم هذا ؟ وليست طنجة وحدها هى التى تفعل مثل هذا ، بل إن المدن جميعاً تلفظ أمثالك . إن من أراد النجاح فى المدينة وجب عليه أن يكون رجلا شديد المراس ، لا فتاة صغيرة . وا أسفاه !... إنك تجرد الجثث

عما تحمل يا « باندا » ... وا أسفاه ! .. إنك يا « باندا » لا تصلح لشيء ، أنت صفر ...

كان يعرف هذا الصوت بدوره: كان يتعرف على نبراته وتموجاته وملامحه جميعاً. لم يكن فى مقدوره أن يكف عن حب هـذا الصوت لأنه صوته هو ... صوته هو نفسه ، لكأن باندا شخصان لا شخص واحد ... وحاول مع ذلك أن يسكت هذا الصوت بأن يرد عليه بصوت مرتفع جداً ، فصاح : « وأمى ! أمى المسكينة ، أمى التى أحبتنى كل هذا الحب ، التى أفنت عمرها فى هذا الحب ، ليس فى مقدورى مع ذلك أن أتركها تتألم هكذا حتى آخر يوم فى حياتها ... كم يسعدها أن أتزوج ! لقد بذلت كل ما فى طاقتى . وهل الذنب ذنبى إن كانوا قد ألقوا بحصولى من الكاكاو فى النار ؟ ليس فى مقدورى أن أترك أمى تتعذب هكذا حتى آخـر يوم فى حياتها . بودى أن أسعدها ولو قليلا قبل موتها» ... إلا أن الصوت الذى لا يرحم لم يكف عن إسماعه هذه الكلمات : ياللك من ولد لا يصلح لشىء يا «باندا» ! لم تستطع أن تفعل شيئا أبداً من تلقاء نفسك ولن تستطيع ذلك أبداً . أنت فى حاجة دائماً إلى أن تعتمد على شخص ما ... وشعر « باندا » بتعاسة بالغة .

أخذ يفكر فى «أوديليا» بمرارة وكأنها السبب فى سماعه هذا الصوت ، ولم يستطع مع ذلك أن يكره هذه الفتاة ، بل على العكس ... لم يكن فى مقدوره أن يفصح عن حقيقة ما يشعر به عندما كانت الفتاة تراود خياله . كان يبـدو له أنه يتمنى أن يراها كثيراً ، وأن يعيش معها تحت سقف واحد ... كان من أصعب الأمور عليه أن يتعرف على حقيقة ما يشعر به ، وعلى أية حال فهو لم يحاول أن يفـكر ملياً فى الأمر .

وزادت أصوات الناس من حوله صخبا . ولـكنه حمد الله على أنهم كانوا جميعاً على شىء من الثمالة وإلا لـكانوا قد اكتشفوا أن به شيئاً غير عادى . وفطن إلى أنه قد تأخر كثيراً ولـكنه مع ذلك لم يرحل ، وتحسس فخذه فى مكان الجيب وأخـذت أنامله تداعب لفافة أوراق النقد .

وانغمس من جديد فى تأملاته متجاهلا كل من يحيطون به . كانت بعض أطراف أحاديثهم تصل إلى أذنيه من حين إلى حين . وأشارت فتاة — وهى تنفجر بالضحك

إلى قصة السيد «ت ... » الضخم الذى لفظ أنفاسه فى الليلة السابقة فى المستشفى بعد أن اعتدى عليه عماله . وعند سماع هذه الكلمات قفز «باندا» من مكانه ، ولكنه سرعان ما آخذ نفسه على أنه أوشك بحركته هذه أن يفضح سره . عليه أن يحتاط فيما بعد ، بل لعله يحسن صنعاً لو أنه لم يشرب ، فإن الشراب يمنعه من السيطرة على نفسه . إلا أن ما قالته الفتاة لم يكن على ما يبدو يثير اهتمام الحاضرين ، فهم ولا شك لا يجهلون هذا الحادث؛ ولذا لم يلتفتوا إلى الكلام فى موضوع مألوف كهذا وحولوا دفة الحديث إلى موضوع آخر . وبدأت أحاديثهم تعود إلى موضوعات عادية لا يبالى « باندا » بها ، ولذا فقد انغمس من جديد فى تأملاته .

وعلت الطريق فى هذه الأثناء سحابة من الغبار الأحمر...وأثار مرور السيارة حديثاً داخل الكوخ ، أصغى إليه « باندا » عن طريق الصدفة : « عجباً ! ماهذه السيارة الكبيرة ؟ — ألم ترها ؟ هناك اثنان من البيض يستقلونها ، رجل وامرأة ، لم يكفا عن الذهاب والإياب فى هذا الطريق منذ الصباح . — إن هذا الأمر عجيب حقاً ... » .

— ولم العجب ؟ إن الطريق طريقهم ، أصحيح هذا أم لا ؟ ... ما شأنك أنت إذا ما راحوا وغدوا ؟...

— هذا الرجل وزوجته من اليونانيين . لقد مرا بهذا الطريق صباح أمس ، ويبدو أنهما كانا يتجهان إلى «دوما» . أتعرفها ؟ إنها مدينة بالجنوب ، وهما يملكان حانوتاً هناك . نعم ، وفى الليلة الماضية ، عند عودتهما من طنجة سقطت منهما حقيبة صغيرة ، الأمر الذى جعلهما لا يكفان عن قطعه ذهاباً وإياباً بهذه السرعة .

— إن ما أتعجب له هو كيف أمكنه أن يفقد حقيبة صغيرة فى سيارة كهذه ؟

— ربما ربطها فوق سقف السيارة فى حامل الحقائب ، وإذا كانت الحقيبة صغيرة كما يدعى ، فربما انزلقت عند منحنى الطريق وسقطت دون أن يشعرا بسقوطها .

— هيء ... هيء ... هيء ، لا يبدو على هذا الرجل أنه قد مل البحث ، فهو لا يكف عن الوقوف والنزول والصعود وكل هذا من أجل حقيبة صغيرة !

— هؤلاء الناس غريبو الأطوار ، فهم لا يكتفون أبدا بما عندهم من مال .

لقد دأبو على جمعه . هاك هذا اليونانى : إنه يملك محلات تجارية بطنجة وأخرى فى « دوما » ، حوانيت هنا وحوانيت هناك . إن ما يملكه ليربو على عشرة محلات تجارية ... وأرباحه تبلغ ملايين الفرنكات شهرياً ، وها هو على وشك أن يقتل نفسه من أجل حقيبة صغيرة .

— هؤلاء الناس ليسوا مثلنا . إن كل ما نطلبه نحن هو أن نأكل وأن ننام وأن نشعر أيضا بزوجاتنا بجانبنا ، وأن نتمتع بالصحة ، أما ما عدا ذلك فنحن لا نبالى به ...

— وهل فى الحياة شىء أغلى مما ذكرت ؟...

لم يكن « باندا » مصغياً إليهم ، وهو على أية حال لم يبذل جهداً لكى يسمع كلامهم ، ولكن الكلمات تسللت إلى أذنيه بالرغم منه ، وسوف يدهش فيما بعد عندما يتذكر هذا الحديث ، إذ لم يبذل أى جهد لكى يصغى إليه .

كان النعاس يثقل جفنيه والجوع يعض أحشاءه ، إلا أن هذين الإحساسين أخذا يشتدان حدة،ولعل نبيذ النخيل قد ضاعف من حدتهما . ونهض واستأذن فى الانصراف وهو شارد اللب .

كانت الحرارة شديدة والطريق شبه مظلم ، فأشجار النخيل تحف به من الجانبين وأغصانها تتشابك من فوقه ، وكان الغبار يملأ الجو برائحة ثقيلة : رائحة الجير الرطب الحار .

أخذ وهو يسير فى الطريق يفكر فى قريته التى أوشك أن يصل إليها ، ثم هنأ نفسه على أنه أدركها أخيراً .

وقال محدثاً نفسه : أعتقد أننى فى نهاية الأمر لن أذهب إلى « فورنيجر » ولا حتى إلى « طنجة » . لماذا ياترى راودته فكرة كهذه فجأة ؟ لم يكن فى مقدوره أن يجد سببا لهذا . ربما كان السبب أن الصوت — الصوت الذى يلاحقه — قد أفقده ثقته فى نفسه تماما ، منذ أخذ يلاحقه بهذه الكلمات: يا «باندا» أنت لاتصلح لشىء» ، وانتهى به الأمر إلى الاستسلام لفكرة أنه لايصلح لشىء حقا . إن ما كان يهمه

فعلا هو أن يتمكن من إسعاد أمه ولو قليلا ، أن يتزوج حتى يستطيع أن يسعدها قبل موتها سوف تشعر ولو مرة واحدة يعض السعادة . كان يفضل أن يسعد أمه ولو مرة واحدة ، حتى ولو اضطر إلى أن يدفع عن هذه السعادة باقتناعه بأنه سيبقى دواما صفراً تافها تغزو الأوهام رأسه ، شخصا لايصلح لشيء !

إلا أن اقتناعه هذا كان علاً نفسه فعلا منذ اعتزم أن يستحوذ على هذا المال ويتحدى الصوت — أى صوته هو نفسه ولكن هل هو صفر حقا ؟ ... لابأس، مادام سيتمكن من إسعاد أمه مرة واحدة فى حياته ، فلم يكن هناك شيء يمكن أن يسعد أمه مثل أن تراه وقد تزوج . كان حبه البنوى أو شفقته على أمه قد تغلبا على كبريائه فتصور فعلا أنه لايصلح لشيء وأن هناك لعنة حقيقية قد حلت به وتطارده أينما حل .

كان الليل وهو يرخى سدوله بسرعة قد غمره بإحساس عجيب هون عليه كثيرا . ها هو يحلم بأوديليا . وأخذ يحدث نفسه قائلا إنه لو قدر له أن تكون له أخت ، فإن شعوره نحوها سيكون كذلك الشعور الذى راوده حين شاهدها للمرة الأولى ، ألا وهو شعور القرابة .

وتوقف فجأة عن السير ... عجبا ! ولكن كيف لم يفكر فى ذلك من قبل ؟ ... يا للعجب ! هذا صحيح ، عشرة آلاف من الفرنكات ، أليس هذا المبلغ كافيا لزواجه ؟ لقد وجد إذن الحل . سوف يعطى أوديليا خمسة آلاف من الفرنكات فقط وكأن هذا المبلغ هو كل ما وجده فى جيب « كوميه » . ولكن ألا يكون فى هذا مجال لفضح سره ؟ عليه أن يحتاط حتى لايفضح سره . ولكن هل ستصدقه ؟... نعم ، لاشك أنها ستصدقه فخمسة آلاف من الفرنكات مبلغ محترم على أى حال . كم كان يكسب أخوها كل شهر ؟ ربما ١٨٠٠ أو ألفين من الفرنكات شهريا . إن خمسة آلاف من الفرنكات لهو مبلغ محترم على أى حال ، أليس كذلك ؟... سوف تصدق ، سوف تصدقه ، لاشك فى ذلك .

وتنهد تنهداً عميقاً وبلع لعابه . إن الحياة فى حقيقتها ليست رديئة إلى هذا الحد . هل هى رديئة حقاً إلى هذا الحد ؟... كان يستشعر ما يشبه رغبة حزينة فى أن يحدث هذه النباتات « الشيطانية » التى تمتد على طول الطريق ، وأن يبثها أسراره ، وأن

يوثق عرى الصداقة بينه وبينها . إن الحياة فى هذا اليوم قد بدت له وكأنها نهار مطير لا تكف الأمطار فيه عن الهطول ، نهار بارد معتم . وفجأة ، وبالرغم من دنو الليل ، ساد الأرض فجر ضياء غزير الضوء يحمل بين طياته وعداً أكيداً بأن الشمس ستشرق فى الأفق . وأخذت العصافير تغرد ملء حناجرها وجدول الماء يثرثر بمرح لم يعرفه من قبل .

أراد أن يبتعد عن الطريق وأن يصعد إلى الإفريز الضيق حتى يفرغ ما فى جوفه من نبيذ البلح وكان يثقل أمعاءه ... ولكنه حين رفع قدمه اصطدمت ببعض الأحجار الصغيرة فصدر عنها رنين معدنى غير متوقع عند اصطدامها بالمجرى المجاور للافريز . ومع ذلك راح يفرغ ما بجوفه ، وعاد بعد ذلك إلى الحصى الصغير وأخذ يدحرجه وتأكد من أن صوتاً معدنياً يصدر عن ارتطامه . ولما عاد إلى مجرى الماء اكتشف أن الحصى إنما يسقط على الحقيبة الموعودة ، حقيبة الرجل اليونانى . ليس هناك شك ، إنها الحقيبة بعينها ، تلك التى سمعهم يصفونها . ليس هناك مجال للشك .

عجباً ! لقد وعد الرجل اليونانى بمنحة سخية لمن يجد الحقيبة ويسلمه إياها ... لقد قالوا هذا الكلام فى كوخ صديقه . ولكن عجباً ! هل حقاً قالوا هذا الكلام أم أنا الذى أحلم ؟ هل قالوه حقاً ؟ آه : نعم ، لقد قالوه فعلا — إنى متأكد الآن من أنهم قالوا هذا الكلام . بل إنه ليذكر الفتى الذى قاله — كان قد عبر عن ذلك وهو يوجه حديثه إلى أحد الحاضرين بقوله :

— هيا ساعده فى البحث عن حقيبته إن كان هذا يحاولك ، لقد وعد بمكافأة سخية لمن يساعده فى الاهتداء إليها ...

قال الفتى هذا الكلام ضاحكاً . وأجابه محدثه بقوله :

— إن ما يحاول لى حقاً هو أن أمنعه من أن يجدها ، فما دام هو شديد الحرص على الاهتداء إليها فمعنى ذلك أنها تحتوى على شىء ثمين لايدرى كنهه إلا الله ...

عجباً ! ها هو يتذكر كل هذه التفاصيل بالرغم من أنه لم يكن ينصت إليهما . ولكن ها هو قد سمعهما مع ذلك — لا ، لم يكن يحلم ، بل كان فى استطاعته أيضاً أن يذكر اسم الفتى ...

الفصل الثانى عشر

لقد تبينت « أوديليا » بعد أن طال مجلسها أن أم « باندا » لم تكن فى الحقيقة مسنة كما يبدو عليها لأول وهلة ، وأن الشيخوخة قد أدركتها قبل الأوان تحت وطأة المرض الذى جمدها واعتصر عودها ، وقد أشفقت عليها إيما إشفاق .

وبمجرد أن رحل « باندا » ومن بعده « تونجا » الذى لم يمكث طويلا ، استحوذ النعاس على المرأتين وكانتا مضطجعتين على فراشين متواجهين على جانبي المدفأة دون أن تتبادلا كلمة واحدة . ونهضت « أوديليا » من فراشها فى اليوم التالى فى ساعة مبكرة كعادتها ، وتزينت ، ولم تكن تلك الزينة تعدو فركوجهها وذراعيها وساقيها ببعض الماء البارد ، ثم عادت لتجلس بالقرب من فراش المريضة .

وسألتها : هل أنت فى حاجة إلى أى شىء ؟

ورفعت المرأة نظرها إلى حيث تجلس الفتاة ثم أطالت النظر إليها وأجابتها :

— كم هو طيب قلبك أيتها الفتاة الصغيرة ! ياإلهى ! لقد استغرقت فى نوم عميق هذه الليلة ... كنت أصغى إلى تنفسك المنتظم الضعيف ، وكان سماعى أنفاسك المنتظمة وشعورى بأنك مستغرقة فى النوم يريحنى : لقد بدا لى أننى أنا نفسى التى أنام .

ولم تطلب منها شيئاً ، ولكنها بدلا من ذلك أشارت عليها بما يمكن أن تفعله هى ، وأرشدتها إلى حيث تتوجه عندما تشعر بالجوع .

وفاجأت « أوديليا » عليها إلى الدعابة ، تلك الدعابات التى تكثر منها وتكون أول من يضحك لها . وكانت تتمتم أيضاً ببعض أغان تدور دائماً معانيها حول فتاة تشكو حظها إذ رحل حبيبها وتركها وحيدة ... كانت هذه الفتاة الشاكية تحدثه بالرغم من البعد التى يفصل بينها وبينه ، وتؤكد له أنها تنتظر عودته ، وتتوسل إليه أن يسرع فى العودة ، ولكن الحبيب كان لايعود رغم ذلك . وأردفت المريضة : إن هذا لعجيب ، فهم لايعودون أبداً . وأدركت « أوديليا » أن المرأة تجد فى مثل هــذه الأغانى والدعابات ما ينسيها شجونها ، إلا أنها ظنت أيضاً أن هذه المرأة ربما

لم تـكن على شفا الموت ؟ لطالما رأت مرضى قاب قوسين من الموت ، ولـكنها لم تر فيهم أبداً مثل هذه الحيوية . ربما أمكن أن تشفى إذا ما أحسن علاجها ؟

وسألتها « أوديليا » بسذاجة : ألا تنهضين أحياناً من فراشك ؟ ولـكنها سرعان ما أنبت نفسها على سذاجتها هذه ، فقد كان الأجدر بها أن تطلب منها أن تشير إليها عندما تشعر بالحاجة إلى النهوض . وأجابت المرأة : بالتأكيد ، بالتأكيد ، إنى أنهض أحياناً .

وضحكت برفق ثم أردفت :

— وها أنا مثلا أساعدك فى أن تجهزى لنا وجبتنا وبعد قليل حضرت «ساپينا» « وريجينا » وكل أولئك النسوة اللائى اعتدن أن يعنين بالمريضة ... دخلت النسوة الواحدة تلو الأخرى من باب الـكوخ الضيق .

وانفرجت أسارير هن عند رؤية « أوديليا » : لقد أعجبن بجمالها وبصباها ، ولـكنهن أمسكن عن إبداء أية ملاحظة ، وإن كان يبدو أن جمال الفتاة قد استهواهن . ولم يبقين طويلا واستأذن فى الانصراف وهن يلقين بدعابات مرحة ، وقلن إنه مادامت هناك من تحل محلهن ، وإن لم يطلبن هـــذا ، فسوف لن ينسين هذه الحقيقة ، ومعنى ذلك أنهن سوف يرحلن ، وإن كان فى نيتهن أن يعدن فى المساء .

فتحت كل من المرأتين قلبها للأخرى بعد كثير من الحيطة والحذر ، ببطء وبعد جهد جهيد . كانت «أوديليا» قد لاحظت أن نظرة المرأة ، تلك النظرة الطويلة ، لاعداء فيها ، وان كان فيها شىء من التساؤل ، لـكأنها تسبر أغوارها وتفحصها . وكان يطيب لها أن ترى تلك النظرة الفاحصة عندما تلتقى نظراتهما . وكانت المريضة أول من يرخى عينه فى حياء وتواضع ، الأمر الذى كان يحرج الفتاة أيما إحراج .

وانتهى الأمر بالاثنتين إلى أن وصلتا أخيراً إلى مرحلة بث الأسرار . رقدت المريضة من جديد وهى تقول إن الجلوس يسبب لها دواراً ، وبدأت الحديث . كلمتها عن ابنها الذى سيجد نفسه وحيداً بعد قليل .

كانت لهجتها كتلك التى تستعملها عندما تخاطب جاراتها وكأن حديثها برىء لا يخفى شيئاً فى طياته . قالت إن ولدها سيعجز دائماً عن تدبير أمره . فهو بطبعه

الحاد يكتسب الكثير من الأعداء والقليل جداً من الأصدقاء، وهو فوق هذا كله قليل الحظ، بل لا حظ له على الإطلاق. حقيقة أنه لم يشعر أبداً بأى شعور دينى ولكنها عرفت أناساً كثيرين على شاكلته نجحوا مع ذلك فى الحياة ... إن ابنها يتصور أنه بقوة عضلاته يمكنه أن يحل مشكلاته جميعاً... وتلك الوحدة التى يعيش فيها «باندا» هى شاغلها الشاغل. كانت تتكلم عن هذا وتتنهد تنهدات عميقة، بينما تشرد نظرتها فى آفاق بعيدة. كم كان هذا مؤلماً! هاهو فى سنه هذه لم يتزوج بعد، بينما ابن فلان — وهو يصغره بسنين — قد تزوج بل وأنجب طفلا. وتساءلت «أوديليا» عن سر هذه الطريقة المباشرة فى التحدث فى هذه المسألة لاسيما من قبل امرأة تعتز بنفسها كتلك المرأة. وكانت تجهل عن هذه المرأة سوء ظنها الغريزى بفتيات المدينة — وكانت أوديليا فى نظر تلك المرأة فى عداد هاتيك الفتيات — ولكنها تبينت أخيراً أن عباراتها لاتحمل فى طياتها أى التواء أو معان خفية، وإن كانت لاتوحى بأى تشجيع أو بأية دعوة، وقد ساءها ذلك وأدهشها.

كان من العسير عليها أن تلحظ أية شكوى فى صوت المريضة ونبراتها القوية المجردة من أى لون أو تعبير، كما لم تر دمعة واحدة تترقرق فى عينيها. كان شرودها عجيباً حتى ليهيأ إليك أنها لاتنتمى إلى عالمنا وإنما إلى العالم الآخر. قالت أن موتها القريب لايزعجها: ألم تسو حساباتها مع الله؟ وعلى أية حال، لم يسبق لها إن أتت شراً، فقد بقيت وفية لذكرى زوجها بعد أن أحاطته برعايتها إبان حياته معها. وقد كفلت ابنها وأرادت أن تعمل منه مسيحياً مؤمناً: ولكن هل هو خطؤها إن كانت لم توفق فى ذلك؟ وقد ساعدت من أمكنها أن تمد إليهم يد المساعدة وأطعمت الجائعين وقدمت شراباً للظامئين، وهى لم تكف طوال حياتها عن العمل، ثم هاهى قد وقعت فريسة للمرض دون ماسبب، ذات ليلة، عند عودتها من الحقول: نامت فى تلك الليلة ولم تستطع النهوض فى اليوم التالى. وتصورت فى بادئ الأمر أن مرضها عرضى، إلا أن الأمر لم يكن عرضياً إذ توغل المرض داخل لحمها، واستقر نهائيا فى بدنها. وصادفتها فترات تقاسمها فيها شفاء جزئى وأزمات عنيفة من المرض. ولكن حدث ذات يوم منذ شهور أن رقدت ولم تستطع حراكاً.

وأطالت فى الحديث عن كل محاولات ابنها لعلاجها. لقد أتاها بكميات كبيرة من الحبوب البيضاء والصفراء والحمراء والسوداء وكان يطلب منها أن تمضغها أو أن

تبتلعها مع الماء . وقد نقلها ، ست مرات على الأقل ، إلى المستوصف لتعالج فيه ، بل إنها دخلت المستشفى وظلت فيه أسابيع طوالا ولكنها اضطرت إلى تركه ، إذ كان يعوز ابنها المال . ولم يأت كل هذا بالطبع بأية نتيجة . وعلى أية حال لم تكن صحتها لتشغل بالها ، فلو لم يكن هناك ولدها لكانت سعيدة بأن تموت ، بأن ترحل عما قريب . أليس الموت هو الذى سيهيىء لها لقاء زوجها وكل ذويها ممن ماتوا قبلها ؟ ولكن أية أخبار تنقل إليهم ؟ كان هذا السؤال هو شاغلها الشاغل .

وقالت « أوديليا » : ومن أخبرك أنك ستموتين بمثل هذه السرعة ؟ وأجابت الأم : أوه ! لست أشك فى هذا . أترين يافتاتى الصغيرة، إن امرأة مثلى عملت طوال حياتها وتفانت عندما كانت فى كامل صحتها ، يصل بها الأمر إلى ماوصلت إليه الآن، لابد أن تدرك حقيقة مابها . لا ، لقد انتهيت من غير شك .

وبقيت طويلا شاردة اللب لاتتكلم ، وشفتاها منفرجتان وعيناها تلمعان ، بينما تتوه نظرتها فى آفاق بعيدة ، وكأن الدهشة تعقد لسانها ، لكأنها تستسلم للأمر الواقع مقدماً . ثم قالت :

— يا للحياة ، كم هى عجيبة ! ...

إن ما كان يدهش « أوديليا » هو هذا التناقض بين مظهر هذا الحطام الإنسانى التعس وبين ماينبعث منه من حديث ملىء بالكبرياء . لم يكن فى مقدورها إلا أن تعجب بأم « باندا » أيما إعجاب . وتساءلت عما كانته تلك المرأة فى شبابها . لابد أن الشاب قد ورث عنها خلقها وحيويتها وما تتسم به تصرفاتها من معان إنسانية . لابد أن أفكاراً قد راودت رأس هذه المرأة ، مواضيع شتى ، ولا بد أنها أطالت التفكير فيها وقتلتها بحثاً وهى فى رقدتها الطويلة هذه . وقد أنسى التفكير فى هذا الأمر الفتاة مصابها وأخاها المتوفى والألم الذى يخنقها أحياناً .

كانت كلما عاودها التفكير فى « كوميه » ، تتصور الشابين وهما يلحان على مخيلتها فى توارد آلى ، فتقترن صورة « كوميه » بصورة « باندا » بطريقة ملحة عجيبة . لقد بدا لها أن هذين الشابين قد خلقا لكى يتقابلا يوماً ، لكى يتساندا ولكى يتكاتفا ، ليتوغلا فى خضم الحياة العجيبة ، ولكن سوء الطالع أراد أن يلقى أحدهما حتفه . ربما كانت قد أحسنت لو أنها قصت على أخيها ما رأته فى الحلم صبيحة

الأمس . كان سيسخر منها ولكن ربما أثر فيه سماع هذا الحلم ، ولكنها بدلا من أن تفعل ذلك تشاجرت معه .

ها هى تراه وهو يرتكز بمرفقيه على حافة نافذتهما الصغيرة وينادى النسوة اللائى كن يمررن فى الطريق ويوجه إليهن دعاباته الجريئة . وها هى تسترجع عبارته : « إن المشاكل مع أناس قذرين كـ « ت ..» أمور اعتدتها ... » كانت هذه عبارته الأخيرة فى صبيحة أمس . إن كل ما حدث قد حدث بالأمس فقط ، وهى لن ترى أخاها بعد الآن ، لن تراه أبدا ، أو هى ستراه فى العالم الآخر ...

ومن ناحية أخرى كانت تذكر صورة «باندا» وموسيقى اسمه نفسها ، وهيئة ذاتها ، كل تلك الأشياء . وهى تتذكرها بقوة تدهشها ، وكأنها أشياء مألوفة لديها أو كأنها قد عرفته منذ سنين ، منذ عرفت الدنيا ، ولم تستطع أن تقنع نفسها بأنها لم تلقه إلا بالأمس فقط . مساء أمس ... هل هذا معقول ؟

— يا فتاتى الصغيرة ، ما اسمك ؟...

انتزعها هذا الصوت فجأة من شرودها .

— « أوديليا » .. إنهم يسموننى « أوديليا » .

— يا « أوديليا » يا ابنتى ، هل أنت أحسن حالا الآن ؟

وارتسمت الدهشة على وجه الفتاة .

— لقد كنت مريضة بالأمس ، ألا تذكرين ؟

وأجابت الفتاة فى خجل : آه ! نعم . إنى أحسن حالا الآن ، أحسن بكثير . الصداع شىء ألفته ثم إن هذا الألم لم يكن ذا بال ، بل ولا قيمة له .

وخيم السكون عليهما من جديد ، سكون ثقيل محرج . وشعرت أن عليها أن توضح موقفها لأم « باندا » ، ولكنها عجزت . ألم يطلب منها الشاب أن تمتنع عن إفشاء أسرارها لأى إنسان كان ؟ ومع ذلك فقد شعرت بأن عليها أن توضح موقفها لهذه المرأة . كانت تتمنى فى قرارة نفسها أن تفتح لها قلبها ، ولم يكن فى استطاعتها أن تفعل هذا إلا بعد أن توضح موقفها . والمرأة نفسها هى التى قضت على ترددها إذ قالت :

— كانت عيناك بالأمس بمساء حمراوين . كانتا ملتهبتين وكأنك بكيت كثيرا .

وبسرعة أخرجت «أوديليا» كل ما فى جعبتها ، دون أن تنسى أية تفاصيل .

لقد ذكرت لها اسم قريتها ومسقط رأسها ، واسم قبيلتها واسم أبيها كما ذكرت أنها لم تسكن طنجة إلا منذ شهرين أو ثلاثة حتى وقعت أحداث الأمس... وعند هذا الحد من الحديث بدا على المريضة شيء من المرح إذ انفرجت أساريرها وعبر وجهها عن حقيقة مشاعرها نحو الفتاة . وقد لاحظت « أوديليا » التغير الذى بدا على محيا المرأة ، إلا أنها لم تستطع أن تخمن سبب حنو والدة «باندا» المتزايد نحوها ، كانت الأم قد نسيت تحفظها تجاه تلك التى كانت تتصورها من بنات المدينة ، وكل ماينسب إليهن ، إذ ها هى قد تبينت أن الفتاة ليست من بنات المدن ، وتفتحت أمامها فرص للأمل والخلاص . كانت الفتاة قد انتهت من حديثها والتزمت الصمت .

وأردفت المريضة :

— يا فتاتى ... كيف يمكننا أن نتكهن بمصير كل هؤلاء الصغار الذين يتركون قراهم وأسرهم ليرحلوا إلى المدن ؟ كان الرجل الأبيض فى زمنى إذا طلب منك أن تركعى ، لاتجدين خيراً من الركوع ، أو إذا قال : « ارقدى على بطنك لكى أضرب مؤخرتك بسوطى » اضطررت إلى أن ترتمى على الأرض . ولكن اليوم ، بفضل أبنائنا ، قد تغيرت الحال . لقد شبوا وها هم يحتقروننا لأننا قد نكسنا رءوسنا أمام البيض ، أما هم فيسيرون رافعى الرءوس ، ويضربون صدورهم بخيلاء ، رافعين ذراعيهم متوعدين بقبضاتهم. لقد طلب إليهم البيض أنفسهم أن يترددوا على مدارسهم وقد ترددوا فعلا عليها ، وهاهم اليوم ينطقون بلغتهم ويناقشونهم ، ويسجلون حسابهم على قصاصات الورق مثلهم فى ذلك كالبيض أنفسهم . وهاهم اليوم يديرون آلات مرعبة تقتلع الأشجار وتشق الطرق وهاهم يقودون سيارات النقل فى سرعة جهنمية ويقومون بكل ما يقوم به البيض . وهم لايقبلون أن يعاملوا معاملة الخدم ، معاملة العبيد كما كان يقبل آباؤهم ، بل يطالبون بمعاملتهم على قدم المساواة . ولكن مارأى الآخرين فى كل هذا ، إنى لأتساءل حقاً ؟ هل سيقبلون الكف عن اعتبار أنفسهم أسياداً ؟ وعلى أى حال ، كيف يمكن التكهن بما سيحدث ؟ إنى أعلم أن « باندا » لايحب «باميلا» ، قرية أبيه وأجداده . إن ما يصبو إليه ، بعد موتى ، هو الذهاب

إلى مدينة البيض كما فعل كثيرون من قبل . وأنا لا أوافقه على هذا مقدماً . عسى أن تثنيه المصيبة التي حلت به ، والتي شهدها بعينه ، عن عزمه وأن تكون بمثابة درس له . آه ! يا إلهي ...

واستولى عليها النعاس بعد قليل .

ولما أوشكت الشمس على المغيب وأخذت تداعب قمم الأشجار بأشعتها الأخيرة ، وكانت تلك الأشجار تلمع بعد سيل الأمطار في اليوم السابق ، ذهبت «أوديليا» إلى الشرفة الصغيرة وجلست وكان الطقس بارداً إلى حد ما .

كانت منذ ساعات طوال تنتظر ظهور «باندا» في أي لحظة على الطريق سواء من الشمال أو من الجنوب ، إلا أنه لم يظهر . وتساءلت عما إذا كان شيء قد وقع له إذ لم يكن هناك داع لتأخره في العودة كل تلك المـدة . وبدأ القلق يستحوذ عليها وجف حلقها .

كانت ترى بين الفينة والفينة جماعات من الشبان يمرون في الطريق . كان أغلبهم يعودون من طنجة بعد أن حضروا القداس بالكنيسة . كانت تسمع حديثهم وتتبع أصواتهم حتى تتلاشى . وقد عرفت من تلك الأحاديث أن جثة أخيها اكتشفت في الفجر أسفل الكوبرى المشيد من الأسمنت المسلح . وكانوا يقولون إن رأس الجثة به جرح عميق فوق القفا ، ويستنتجون أن شخصاً ما ربما قتله ببلطة ، وأن الجاني أو الجناة ربما وضعوا جثته تحت الكوبرى ليوهموا الناس بأن الوفاة قد نجمت عن سقوطه أو نتيجة لحادث . كان الكل على ثقة من أن رجال الحرس هم الذين قتلوه وكانوا يتساءلون عمن كلفه البيض بارتكاب هذه الجريمة . لابد أنه رجل من رجال حرس المستعمرات ، إذ أن رجال هذا الحرس قد وصلوا بقواتهم في الليلة السابقة لابد أنهم استطاعوا أخيراً ، بعد أن أعياهم البحث ، أن يقبضوا عليه ، ولم تكن هذه المرة هي الأولى التي يحدث فيها مثل هذا . لابد أن البيض قد قالوا لهم : «هيا ، عليكم أن تقتلوه فسوف يعلمه هذا الدرس معنى أن يتحدى البيض ؛ لقد بدأنا حقاً نضيق ذرعاً بهؤلاء الأولاد ؛ وكنا قد بدأنا نضيق ذرعاً أيضا بوقاحتهم . لم يكن في وسعنا أن نتركهم يتمادون في غيهم . هيا اقتلوه وسوف يمنعه هذا من أن يعاود تحدى البيض ... سيفهم الآخرون معنى هذا الدرس ...» وهاهم

قد قتلوه ! هاهم قد قتلوا أخاهم فعلا ، وهو فتى كان لايزال يافعاً وكأنه طفل . إن الأفضل لمن يقتل رجلا أبيض أن ينتحر ، مادامت نتيجة هذه الفعلة مؤكدة . كان على « كوميه » هذا أن ينتحر وألا يمكنهم من أن ينالوه ...

إلا أن « أوديليا » خلال تلك الأحاديث التى يتناقلها هؤلاء الناس ، لم تكن تفكر إلا فى « باندا » . كانت ترهف السمع دون جدوى ، فلم يذكر أحد منهم أى شىء عن « باندا » ولم يشر إليه على الاطلاق .

وقررت فجأة أن تكف عن التفكير فى هذا الأمر . ورأت الرجل اليونانى وزوجته يروحان ويغدوان عدة مرات فى سيارتهما الكبيرة السوداء . كانا يقولان إنهما فقدا شيئاً لم تتبين كنهه بوضوح وأنهما يعدان من يمكنهما من العثور عليه بمكافأة سخية . ولم تعرهما التفاتا كبيراً إذ كانت مشغولة بتلك الأخطار والصعاب التى تحيط بالشاب . وقررت أخيراً أن تكف عن التفكير فى هذا الأمر ، فلو أنها كفت عن هذا التفكير ، ربما رأت « باندا » يظهر فجأة ! والحقيقة أنه كان من أصعب الأمور بالنسبة إليها أن تكف عن التفكير فى هذا الفتى العجيب الذى التقت به دون سابق معرفة فى كوخ منخفض علا الدخان أرجاءه ، كوخ لم تطأه قدماها من قبل . ولكن لم دخلت هذا الكوخ ؟ أكان ذلك للبحث عن هذه الصديقة ؟ ألم يكن فى مقدورها أن تتبين وهى على عتبة الكوخ أن صديقتها غير موجودة ؟ وبدا لها أن مادفعها إلى الدخول إنما هو قوة خارجة عن إرادتها ، شىء شبيه بالقضاء والقدر

وحاولت أن تشغل ذهنها بهؤلاء الصبية الذين يتمرغون عرايا فى الأوحال هناك ، على بعد بضعة أكواخ . ورأت عن بعد شباناً يخرجون من الأكواخ أو يدخلونها وهم ينادون بعضهم البعض ويتضاحكون دون ما سبب ظاهر . كانوا يتبادلون ألفاظاً بذيئة ، ويصحبونها بحركات مخجلة . وكانوا يربطون حول وسطهم ساتراً لأجسامهم بطريقة تظهر بتعمد ما كان الأحرى بهم أن يخفوه . كان البعض يرتدى سروالا قصيراً كاكى اللون فيه رقع كثيرة أو مهلهلا . وكان يبدو أنهم يشعرون بلذة كبيرة فى تحسس صدورهم وتبادل الضربات على ظهورهم العارية . وأخذوا يقصون بصوت عال مغامراتهم ويصحبون كلماتهم بضحكات عالية وكأن أحداً فى هذه

القرية لم يعرف البكاء من قبل ، لكأن الحياة فيها سلسلة من المتع الحسية لاتنتهي. وكانوا يتعمدون الاقتراب منها والمرور أمامها عن بعد وهم يلقون إليها بنظرات مترددة . واستنتجت من عدم مبالاتهم ووقاحتهم أنهم ممن يرعاهم « تونجا » ويحيطهم بحمايته : لم يكن هناك ما يدهش في أنه يفضل هؤلاء الشبان على «باندا» .

وأخذت تشاهد « باميلا » تلك القرية الشهيرة ، المترامية الأطراف ، ذات الطابع الوحشي .

إن الليل ينشر جناحيه على الكون ، والليلة حارة ملبدة ثقيلة ... ودخلت « أوديليا » الكوخ فرأت المريضة التي استيقظت راقدة وهي تثني على نفسها شاردة اللب : لابد أن هذا الوضع هو وضعها المألوف .

وقالت الفتاة معاتبة :

— لماذا لم تخبريني بأنك استيقظت ؟ لو أنك فعلت لما تركتك كل هذه المدة وحيدة هكذا ...

— لم أكن أعرف أين أنت يا فتاتي ، لم أكن أعرف مكانك ... ونطقت المرأة بهذه الكلمات بلهجة مداعبة أنست الفتاة ما أرادت أن تعاتبها عليه - وسألتها الفتاة :

— هل تحبين الوحدة ؟

— لست أحبها يا ابنتي الصغيرة ، ولكني اعتدتها .

— ومعنى هذا أنك تحبينها .

— نعم ، إذا أردت ...

وضحكت الأم برفق ينم عن ود . وظهر الاكتئاب على وجه الفتاة ، فلاحظت المريضة ما طرأ عليها وسألتها :

— ماذا بك يا فتاتي ؟ أحدث شيء ؟

وأجابت الفتاة في لهجة غاضبة :

— لم يعد « باندا » حتى الآن .

— لا تنزعجي يا «أوديليا» ، يا بنيتي ، لا تنزعجي . ربما غاب أسابيع وأسابيع

ولكنه يعود دائماً . إن الرجل ليس كالطفل أو المرأة ، فهو لايضل طريقه أبداً ، ويعود دائماً . وهو عندما يتأخر فى العودة ، يكون السبب أنه صادف متاعب لايريد الإفصاح عنها . لا تنزعجى ، ربما غاب أسابيع طويلة ولكنه يعود دائماً .

عجباً ! لقد سبق أن قال لها نفس الشيء وهو يكلمها عن «كوميه» ، نفس الكلمات . كم يتشابهان ، الأم وابنها !

وأجابت الفتاة محتجة :

— ولكنه وعد بالأمس أن يعود اليوم أثناء النهار . لقد اكتشفوا جثة أخى فى الفجر تحت الكوبرى المشيد من الأسمنت المسلح : كان بعض المارة يتحدثون فى هذا منذ قليل فى الطريق . لماذا لم يعد ؟ إن هذا لغريب ...

— سوف يعود ، من المؤكد أنه سيعود فى هذه الليلة بالذات ، قد يتأخر قليلا، ولكنه سيعود ، إنى أؤكد لك هذا .

وترددت « أوديليا » طويلا ولكنها انفجرت قائلة :

— ربما وقع له سوء ؟

— أى شيء يا بنيتى ؟

— لست أعرف ، أى شيء ، أفى مقدورى أن أعرف ؟

— هل أخبروك بشيء ؟

وشعرت فجأة عند النطق بهذه الكلمات المفعمة بالأسى بالخوف يستحوذ عليها وقالت :

— أوه ! لا ، لا شيء . لم يخبرونى بشيء على الإطلاق .

وسكتت ثم أردفت :

— لعلى أحسن صنعاً لو أنى ذهبت إلى الطريق لأنتظره . ولكن كيف يتسنى لى أن أعرف من أى جهة يعود ؟. كم كان بودى أن يكون قد عاد الآن !...

بقيت المريضة صامتة لا تنبس ببنت شفة . وبين الفينة والفينة كانت تنظر إلى الفتاة ثم تدير عينيها فى التو . وقد دهشت «أوديليا» هى نفسها إذ نطقت بكل ما قالته ، ومع ذلك فهى لم تفه بالكلمات التى كانت تعذبها والتى أرادت أن تنطق

بها ، وبذلت جهداً كبيراً لكى تقول ، بعد أن سكتت فترة طويلة :

— أخبرينى ، ماذا ينوى «باندا» أن يفعل الآن ؟ إنه لا يملك مالا ، وها هو مع ذلك يريد أن يتزوج هذه الفتاة . ماذا فى نيته أن يفعل الآن ؟ ».

— إنى أتساءل بدورى يافتاتى عما ينتوى عمله . بل إنى مستعدة لأن أضحى بأى شىء لكى أعرف ذلك بدورى .

كان الظلام قد ملأ الكوخ ، ولم يكن وهج النار يضيئه إلا قليلا فتصدر عنه موجات من الظلال تمتد وتنحسر . وجلست «أوديليا» فى مواجهة المريضة تحدق فيها وكان كيانها كله يعبر عن تحد بالغ : كانت عيناها المتقدتان تلمعان ، وجفناها يرتعشان ، وتنفسها يضطرب ، وكانت تزم شفتيها . ولما التقت عينا المريضة بعينى الفتاة تظاهرت «أوديليا» بعدم مبالاة مطلقة .

وأردفت الفتاة فى صوت خفيض :

— كنت أتصور أن فى إمكان الشاب عندما يعجز عن الزواج من امرأة ما ، أن يتزوج من أخرى ولم لا ؟... يمكنه مثلا أن يتزوج من قرية أخرى حيث لن يطالبوه بدفع أى شىء لوالدى الفتاة ... أتعرفين ؟ لم تعد العادة فى بلدى أن يفرض على الشاب دفع أى شىء عند الزواج . لم يعودوا يدفعون شيئاً ، ولا سنتيما واحداً . لقد اجتمع أهل عشيرتنا منذ سنوات وقرروا هذا ...

كان يبدو على المريضة أنها لاتفهم . وأردفت «أوديليا» فى إلحاح بطولى :

— هذا صحيح ، لم يعد الشاب عندنا مجبراً على دفع أى شىء مقدماً لوالد الفتاة إذا ما أراد أن يتزوج ، هذا صحيح ، ويمكنك أن تصدقينى ... يستطيع ابنك أن يأتى عندنا ، فسوف يجد فتاة تناسب ذوقه ، وسوف يرحبون بمقدمه ، فهو شديد الطيبة ، محب للناس ... إنه من هذا الطراز من الفتيان الذين لا يمكن أن ترفضهم الفتيات .

وسكتت . ومرت سيارة فى الطريق وأبطأت فى السير ، وتعرفت المرأتان على السيارة من آلة التنبيه وصوتها الملح ، كانت تلك هى المرة المائة على الأقل التى تمر

فيها . وقالت كل من المرأتين رأيها فى هذا اليونانى صاحب السيارة وكانتا فى حقيقة الحال تشكرانه على أنه غير مجرى أفكارهما لحظه ، وعلى أنه أتاح لهما استرداد أنفاسهما . إلا أن الموقف مع هذا بقى ثقيلا مليئاً بالتوتر . وسكتت المرأتان . كانت كل منهما على حذر من الأخرى وكانت كلا منهما تتلصص على الأخرى . وفجأة فقأت الأم هذا الخراج المؤلم إذ قالت :

— هل تقبلين الزواج من ابنى ؟ وقد وجهت هذا السؤال إلى الفتاة ببساطة ، دون كلفة .

وقفزت «أوديليا» عند سماع هذا السؤال . كم هى ذكية هذه المرأة ! كم هى صافية الذهن ! وغمرها شعور بالاعتراف بالجميل تجاه تلك المرأة التى وجهت إليها هذا السؤال ، فقد يسرت مهمتها بأن دفعتها إلى النطق بأشياء لم تكن لتجرؤ أبداً على الإفصاح عنها . وغمرت الراحة قلبها فى الحال . سوف تتمكن من الحصول على أخ ، أخ آخر لا يقل فى شىء عن أخيها الأول .

— أنا !... وهل أدرى ؟ أيمكن أن يوجه المرء أسئلة كهذه ؟ إنى أتساءل : أيمكن لفتاة فى هذه الدنيا أن ترفض الزواج من فتى مثل «باندا» ، فتى له هذا القلب الطيب وعلى هذا القدر من الشجاعة والتفانى؟...

وأجهشت فجأة فى البكاء ، فلم تكن قادرة على حبس عبراتها التى كانت تهز كيانها كله . وتصورت المريضة أن مرجع بكائها أنها تذكرت أخاها ، فقد حدث لها هذا عدة مرات فى الصباح .

وقالت لها الأم لتهون عليها وعبرة كبيرة تلمع على خدها :

— أتعرفين يا «أوديليا» أننى أشاطرك حزنك ؟ ...

— لقد وقع هذا لأخى بالأمس فقط . ألا يكون لى حظ أبداً ؟ ماذا وقع له يا ترى ؟

— وقع لمن ؟

— لباندا طبعاً !

وفى هذه اللحظه دفع شخص مصراع الباب الخشبي ودخل الـكوخ :

كان «باندا» . كان يحمل حقيبة صغيرة تتدلى من إحدى ذراعيه .

ومسحت «أوديليا» دموعها بسرعة ، وقال الشاب :

— أراهن على أنك بكيت طوال النهار . اهـدئى يا فتاتى ، سوف تمرضين هكذا ...

وتصور بدوره أن مصدر بكائها هو ذكرى أخيها .

الفصل الثالث عشر

عندما أخرج « باندا » الحقيبة من قاع مجرى الماء تبين أنه قد أضحى أميناً على أسرار ثلاثة : أولها هو موت « كوميه » ، وكان يقتسم هذا السر مع الفتاة ، أما الثانى فهو مال « كوميه » ولم يكن أحد يعلم به غيره ، وهاهى حقيبة اليونانى الآن ، أى سره الثالث . كان يهيأ إليه أن كاهله سينوء بحمل هذه الأسرار الثلاثة إذا ماطال كتمانه ، ولكن من حسن حظه أن لم يكن يفصل بينه وبين « باميلا » إلا بضع مئات من الأمتار ، وأسعده هذا الخاطر .

كان يشعر بأنه منهوك القوى ولم يكن يريد أن يراه أحد إذ ربما وجه إليه أسئلة عن المراقبين وعن مشاجرته مع رجال الحرس الإقليمى وعن الحقيبة ... وكانت الأسئلة أبغض شيء إليه ، لاسيما إذا ماوجهها له أناس بالذات ، وقرر أن يسير وئيداً خلف الأكواخ بحذاء جدرانها وحمد لليل ظلمته التى تخفيه عن أعين الفضوليين ، بل وجد فيها نصيراً وصديقاً يتستر عليه : إن الليل قد أصبح بالنسبة إليه صديقاً ونصيراً . ها هو يتذكر كل مراحل رحلته فى الليلة السابقة ، على النهر ، برفقة جثة « كوميه » ، وقال لنفسه بفخر : لايمكن أن يدعوا مع هذا أننى لاأصلح لشيء .

وسرعان ما احتلت صورة اليونانى خياله ، هذا الذى عثر هو على حقيبته منذ قليل . لقد وعد الرجل بمكافأة سخية .. ولكن مامقدارها ياترى ؟ لعلها عشرة آلاف من الفرنكات ؟ ... لا ، إن هذا لكثير ، لعل هذا الرقم مبالغ فيه ، والأرجح أن يكون أقل من عشرة آلاف ... وعلى كل حال فما قيمة عشرة آلاف من الفرنكات بالنسبة إلى هذا الرجل ؟ لاشيء على الإطلاق . إن عشرة آلاف من الفرنكات بالنسبة إلى الملايين التى يكسبها كل شهر ليست شيئاً على الإطلاق . ربما أعطاه الرجل اليونانى عشرة آلاف من الفرنكات ... ولكن عجباً ! إن هذا المبلغ هو مايحتاج إليه بالفعل ، وإذا ما أعطاه عشرة آلاف فرنك فلن يفكر بعد الآن فى أن يسرق مال أى يونانى ، مادام سيحصل على بغيته . نعم ، إن الرجل اليونانى سوف يعطيه عشرة آلاف من الفرنكات ، نفس ما كان سيحصل عليه لو أنه أقدم على ما انتواه . عجباً ! لو أنه أعطاه هذا المبلغ ، سيكون الأمر فعلاً وكأنه أقدم على

فطنته . عشرة آلاف ! يكاد يوازى هذا المبلغ ما كان سيحصل عليه من بيع محصوله من الكاكاو . كم هى عجيبة هذه الحياة !

وكان وهو يدفع باب الكوخ يعرف بالضبط ما ينوى عمله . وبالرغم من أنه لم يكن متأكداً من الحصول على عشرة آلاف من الفرنكات من الرجل اليونانى ، فقد اعتزم أن يسلم « أوديليا » كل المال الذى وجده مع أخيها : إن ما انتواه سهل وواضح . سوف يعطيها هذا المبلغ . وبمجرد أن حزم أمره استعاد الثقة فى نفسه ، كثيراً من الثقة ، واقتنع تماماً بأنه سوف يرحل إلى « فورنيجر » . لم يعد الصوت يردد على مسامعه هذه العبارة : « إنك لن تصلح أبداً يا باندا لشىء . أنت صفر يعيش فى الأوهام ليس إلا ... » ولكن هاهو الصوت يقول : « أنت يا « باندا » رجل حقاً ، رجل شديد الراس . هذا هو « باندا » الذى أحبه . أنت على حق فى شعورك بالخيلاء ، هيا ... يمكنك الآن أن تذهب إلى « فورنيجر » بعد أن تموت أمك ، فأنت أهل لذلك » . ولكن هل سيعطيه الرجل اليونانى عشرة آلاف من الفرنكات حقاً ؟

لعله يحسن صنعاً لو أنه انتظر حتى يرى إن كان الرجل اليونانى سيعطيه هذه العشرة الآلاف أم لا ... ولكن لا ، لن ينتظر ، سوف يعطى الفتاة هذا المال فى الحال . يجب ألا يتباطأ وألا ينتظر ، ولكن لم لا يعطيه اليونانى هذه العشرة الآلاف ؟ ماقيمة هذا المبلغ بالنسبة إليه ؟ لاشىء ، لاشىء على الإطلاق ، وهو الذى يكسب الملايين كل شهر ، إن هذا المبلغ تافه بالنسبة إليه .

وكانت الفكرة التى راودته ، أى أن يبرىء ذمته تجاه الفتاة ، تملأ قلبه سعادة .. ودهش هو نفسه لهذا . كان هذا المال الذى طالما أقنع نفسه بحقه فى الاستحواذ عليه بمثابة حائط يحول بينه وبين « أوديليا » . هاهى الفتاة تتسلط أكثر وأكثر على خياله وإن فؤاده لينتشى بهذا . كم ياترى من الوقت ستقبل أن تقضى معهم ؟ لو أنه استطاع أن يعرف ؟ ربما صحبها إلى بلدها لمجرد حمايتها ، وربما أعطاه الرجل اليونانى عشرة آلاف من الفرنكات ... ولكن عجبا ! إن هذا المبلغ يكاد يساوى ما كان سيحصل عليه من بيع محصوله من الكاكاو ... سوف يصحب الفتاة بنفسه إلى بلدها ، لمجرد حمايتها ، إذ من يدرى ما يمكن أن يحدث لها . ولكن لعلها تريد أن ترحل فى صباح الغد . عجباً ! ليس هناك شك ، سبق له أن رأى هذه الفتاة فى مكان ما .

ولـكن أين رآها ؟ إن قريتها بعيدة جداً، وهى لم تسكن طنجة إلا منذ بضعة أسابيع أما هو فلم يذهب إلى طنجة منذ أكثر من شهر ... أين يا ترى رأى هذه الفتاة ؟ ربما رآها مرات فى أحلامه . ولـكن كم من الوقت ستقضى معهم ؟ سوف يصحبها بنفسه إلى بلدتها لمجرد حمايتها ، فالطرق والبلد غير آمنة .

ودهش إذ وجد الفتاة تجلس على الفراش فى مواجهة أمه ، فى نفس الوضع وفى نفس المـكان اللذين تركها فيهما بالأمس .

وسأل أمه فى توسل :

— يا أماه ، ألم تمنعيها إذن من البكاء ؟ لقد بقيت جالسة على نفس هذا السرير وفى نفس هذا المـكان منذ مساء أمس ، أليس كذلك ؟ وهى لم تـكف عن البكاء طوال النهار . ألم تفعلى أى شىء لتمنعيها عن البـكاء ؟ كان عليك أن تمنعيها من الاسترسال فى البكاء على هذا النحو ...

وهنا هبت « أوديليا » بنفسها للدفاع فى صوت حازم واضح النبرات ؛ ولم يكن فى استطاعة من يسمعها أن يتصور أنها كانت تبكى منذ قليل بشكل ينفطر له القلب . قالت إنها لم تبق هكذا جالسة على نفس السرير وفى نفس المـكان منذ مساء أمس ، لا ، لقد نامت الليلة السابقة حتى ساعة متأخرة من الصباح ، وهى لم تنقطع للبكاء ، لا ، بل قامت بأعمال كثيرة .

وأردفت : ها أنذا سأقدم إليك الطعام الذى أعددته لك .

نطقت بهذه الـكلمات فى لهجة هادئة متكلفة ؛ وكانت تلك اللهجة أليمة لهـــذا السبب نفسه ؛ ومما زاد من ألمه معرفته أنها كانت تبكى منذ قليل . كان واقفاً فى وسط الـكوخ ينظر إليها وهى تروح وتغدو . من المؤكد أنه رآها قبل أن يصادفها فى هذه الحانة القذرة ، من المؤكد أنه رآها من قبل .

ولاحظ أن نظرة الفتاة تجد عناء فى مواجهة نظرته . وقال محدثاً نفسه : من حسن الحظ أننى سأسلمها مالها ، مالها كله ... كان قلقا .

وألقت المريضة بقطعة من الخشب فى النار فظهر لهب صغير، ثم أخذ حجمه يتضاعف وأخذ يتمايل كفتاة ترقص على نغمات الموسيقى . وامتلأ الـكوخ بظلال تتراقص

فى تململ . كان هذا المشهد يوحى بمنظر الراقصين وهم يؤدون رقصاتهم الحماسية فى ضوء القمر .

كان واقفاً ممسكاً بحقيبته التى تتدلى من ذراعه وذهنه يضطرب بأحلامه ورغباته ومخاوفه .

وسألته المريضة :

— قل لى يا بنى ، ماذا تفعل بهذه الحقيبة ؟

وقالت الفتاة فى لهجة النصح :

— ليأكل أولا ثم يخبرنا بما عنده .

وتساءل إن كانت المرأتان قد تحدثتا كثيراً وعما يمكن أن تكونا قد قالتاه ، وإن كانتا قد تآلفتا . وتبين بعد قليل أن « أوديليا » تبدو على سجيتها وكأنها قد أقامت عندهما منذ شهور طوال . وأسعده ذلك فربما لن ترحل قريباً . ربما ارتضت أن تقيم عندهما أسبوعاً وحداً : ولم لا ؟ سوف ينتهى الأمر على أى حال بأن تعود إلى بلدتها لتكون قريبة من ذويها الذين لم يعانوا إلا قلق تغيبها عنهم بضعة أيام . إنه يتمنى حقاً أن تطيل « أوديليا » إقامتها عندهما . لم يكن قادراً على تخيل ما يمكن أن يحدث فى نهاية تلك الإقامة بل لم يكن فى الحقيقة يحب أن يتخيله . أما الآن فإن كل همه كان منصباً على إقناعها بالبقاء عندها مدة أطول . لم تراوده أية فكرة بالذات : كان همه كله أن يرى الفتاة مدة أطول .

وجلس أخيراً على الفراش فى مواجهة أمه ، بجانب « أوديليا » ، وتلامس جسداهما فى رفق ، ولكنها ابتعدت عنه بطريقة ظنت أنها غير محسوسة ، إلا أن هذه الحركة لم تخف على « باندا » إذ لاحظ ابتعادها فآلمه ذلك . هل هى حانقة عليه ؟ لم تعد كما كانت بالأمس فى الحانة . . . كانت فى مساء الأمس تسمح له بملامستها ، وكانت يدها تستسلم له . . . ربما لن تستسلم له يدها هذا المساء ؟ سوف يحاول أن يمسك يدها ، لمجرد التجربة . نعم ، سوف يحاول أن يمسك يدها على سبيل التجربة ليس إلا . . . ولكنه تذكر فجأة وجود أمه ، وأن عينيها لا تكفان عن النظر إليه ، وبتلك اليد التى شرعت فى لمس يد الفتاة مسح وجهه وفرك عينيه .

قال وهو يتنهد :

— آه ، كم أنا متعب ! ... لم أعد أدرى ماذا دهانى .

كانت أمه تنظر إليه بعينين مفعمتين بالإعجاب والدهشة . كانت تقول لنفسها : إنى على الأقل لم أنجب عبداً ، لم أنجب ولداً متخاذلا ، وإنما رجلا ، رجلا حقاً وليس شبيهاً بالرجال . أما الفتاة فكانت تحدث نفسها قائلة : يا إلهى ! إنه صورة طبق الأصل من أخى المسكين ، بل هو أكثر ذكاء وأكثر تعقلا منه . إن به نفس الاستعداد للتضحية ونفس الكرم ... ربما كانت رؤية تلك الأم المريضة هى التى عودته أن يشفق على البؤساء ... ولكن العجيب حقا هو سوء حظه هذا الذى يلاحقه . ولكن أخى كان هو الآخر سيئ الحظ ... أخذ لهب المدفأة يتمايل كفتاة ترقص على نغمات الموسيقى ، أخذ يتراقص ويلف حول نفسه ثم ينكمش ويقفز ، وكانت الأشباح بدورها ترقص رقصات جهنمية تبعا لحركات اللهب .

وكان «باندا» وهو يتناول طعامه يفكر فى الرجل اليونانى ،« ديمتروبولوس »... نعم « ديمتروبولوس » ... إن اسمه عجيب حقا . أية منحة سيهبه إياها على سبيل المكافأة هذا الديمتروبولوس ؟ كم كان يريد أن يعرف ! كم ياترى سيعطيه ؟ ربما عشرة آلاف من الفرنكات ، عشرة آلاف فقط ... وهل ياترى سيهنئه على عمله قبل أن ينفحه هذا المبلغ ؟ هل سيوجه إليه كلمات مشبعة بالاطراء والرقة ؟ .. أم هو سيعطيه المال مباشرة دون ماشكر أو إطراء ؟ لم يكن يطلب منه إطراء، فكل مايطلبه إنما هو نقود « ديمتروبولوس » . لن يطلب منه شيئا فوق هذا المال ، ولاحتى ألفاظا رقيقة ، اما كلمات كهذه : « أيها الولد الطيب ... أيها الولد الممتاز »، اما كل هذا فلم يكن ليبالى به

إنه يعرف هذا الديمتروبولوس المعرفة الحقة : يعرفه تماما . لم يكن يحبه — وخلاصة القول انه لم يكن يشعر نحوه بأى حب ، فمظهره لاترتاح إليه العين بأنفه الطويل المعقوف كمنقار الصقر وبهذا البطن المكتنز الذى ظهر عليه منذ حين ، وأسنانه المستعارة .. حقا إن العين لاترتاح إلى شكله .

لم يكن فى مقدوره أن يحب هذا الديمتروبولوس . لقد رآه ذات يوم يأتى عملا فظيعاً ، مروعاً . كان ذلك إبان موسم الكاكاو ، منذ عدة سنوات . وكان هذا

الديمتروبولوس جالساً أمام حانوته بغية شراء بعض الـكاكاو. كان ينتظر وهو يستند إلى ميزانه ويحيط به رجاله الذين ينادون على البائعين دون ماجدوى، وكان الفلاحون يمرون حاملين محاصيلهم من الـكاكاو دون أن يعنوا حتى بالنظر إلى ديمتروبولوس. وقد راودت الرجل حينذاك فـكرة شيطانية : أمر بأن يحضروا أمامه بعض قطع النقد الصغيرة وقطعاً من الصابون المعطر وسكاكين وزجاجات للروائح وأمشاطاً وأشياء تافهة من هذا القبيل، وشرع يغترف من هذه الأشياء بملء يديه ويلقى بها على الطريق، كيفما اتفق. ولم يستطع الفلاحون أن يقاوموا الاغراء فاندفعوا متكالبين عليها - هاهو « باندا » يذكر كيف رأى رجالا يمسك بعضهم بتلابيب بعض من أجل سكين أو آلة موسيقية معدة للعب الأطفال، وكيف رأى أطفالا يتدحرجون على الأرض بعضهم فوق بعض من أجل الحصول على قطعة من النقود، ثم ينهضون والدماء تسيل من أجسامهم، بل إنه رأى نساء وهن ينشبن أظافرهن فى زميلاتهن أو يعضضنهن أو يمزقن أثوابهن من اجل مشط أو زجاجة عطر. وكان ديمتروبولوس فى تلك الاثناء يقهقه ويضرب بيديه على فخذيه. لماذا فعل هذا ؟ هل أراد بهذه الطريقة أن يدعوهم اليه أم أراد أن ينتقم منهم لاحتقارهم إياه ؟ لماذا فعل ذلك ؟ من المؤكد أنه لن يستطيع أبداً أن يحب هذا الديمتروبولوس. وهاهو الآن يملك حوانيت عديدة فى كل مكان من البلد. ويقال أنه عندما جاء من بلده منذ عشر سنوات نزل إلى « فورنيجر » وهو لايملك شروى نقير. لم يكن يملك إلا حقيبة قبيحة من الورق القوى، وكان يلبس حذاء من القماش وسروالا قصيراً كاكى اللون وقميصا من القطن. كان هذا كل ما يحمله عندما رست به السفينة. وهاهو الآن يملك سيارات للنقل وسيارات كبيرة وحتى زوجة، وهى امرأة جميلة، وربما كانت من بنات بلده إذ أنهما يتحادثان بلغة غير مفهومة. وكثيراً ما شاهد الناس هذه المرأة وهى ترتـكز بمرفقيها على النافذة، ولـكن لم يكن أحد يراها فى الشارع أبداً.

يالديمتروبولوس العجيب ! لو أنه اعتزم أن ينفذ فـكرته بالسطو على أحد اليونانيين، فلا شك أنه سيقصد « ديمتروبولوس » هذا. عجبا ! كل ما كان يطلبه منه هى المـكافأة ولا شيء غير هذا، بل إنه كان سيرفضها لو لم تـكن أمه معه. كان حينئذ سيرفض تسليمه الحقيبة، ولو عجز حينئذ عن فتحها، لألقى بها فى عرض النهر... لمجرد ألا يتمتع « ديمتروبولوس » بلذة العثور عليها.

يجب عليه ، هو « باندا » ، أن يحتاط عند ذهابه إلى المدينة وإلا أثار مشكلة مروعة ، أسوأ من تلك التى أثارها « كوميه » . سوف يحتاط وإلا قتله رجل أبيض على شاكلة « ديمتروبولوس » أو « ت . . . » بكل بساطة . لم يكن يحب الرجال الأشرار وربما دفعته رغبة شديدة إلى الانتقام منهم فيرتكب عملا يلقى به فى التهلكة. لابد أن يحتاط للأمر ، فإذا ما اعتدى عليه رجل أبيض كالسيد « ت . . . » أو كديمتروبولوس ، فسوف يضم قبضتيه ويلصقهما بجبينه ويخفض ناظريه حتى لا يرى وجه غريمه . وإلا ربما عجز عن مقاومة الاغراء فى أن يقتله أو أن يشبعه ضرباً حتى ينفق . ولكن ماذا عسى أن يحدث له عندئذ ؟ . . .

ولكن هل هذه الحقيبة الصغيرة هى حقيبة الرجل فعلا ؟ وأخذ يتفحص الخزانة الصغيرة بعينيه . ماذا يمكن ان تحتويه هذه العلبة ياترى ؟

لقد حاول من قبل ان يفتحها ولكن دون جدوى بالطبع . إن كل الأوصاف التى سمعها عن طريق الصدفة والتى يتذكرها جيداً الآن تنطبق عليها .

وانتهى من تناول طعامه . كان يعرف جيداً أنه محور اهتمام المرأتين اللتين تلوذان بالصمت ، وفى حركات بطيئة تفصح عن شدة إعيائه ، دس يده فى جيب سرواله الكاكى الأيسر وسحب اللفافة الصغيرة التى تضم أوراق النقد وفك رباطها بسرعة ثم أشعل سيجارة كانت قد تقلصت فى جيبه وأخذ يدخنها بنهم . إنه يعجب إذ لا يبالى الآن بهذا المال . وعد أوراق النقد فى يد الفتاة التى ارتسمت عليها دهشة بالغة . ولم يشرح لها الأمر إلا بعد ذلك . وعند سماعها اسم أخيها انفجرت فى البكاء ، وهمس فى أذنها :

— لا تبكى يا أختى الصغيرة .

لم يكن فى الحقيقة مستاء من بكائها إذ كان يعتقد أن بكاءها هذا سوف يمكنه من أن يحاول التهوين عليها ، ومن أن يمسك يدها أو أن يداعب شعر رأسها ، وأن يأتى كل تلك الحركات التى كانت تعيد إلى ذهنه رقتها ولطفها السابقين معه . ولكنها كفت عن البكاء ولم يستطع ان يمسك بيدها . ربما لن يلذ له ان يفعل هذا الآن .

ولمح عين المريضة ونظرتها الشاردة وحدقتها السوداء وهى تمعن النظر إلى اللهب ، وقال :

— أترين يا أماه هذه الحقيبة ، أو هذا الشيء ؟ إنها ، على ما يبدو ، لأحد اليونانيين ، وإنى لأتساءل كيف تسنى له أن يتركها هكذا تسقط من سيارته وهو عائد من مكان لا أعرفه .

وهتفت الفتاة قائلة محملقة فاغرة فاها :

— أهى هذه الحقيبة ؟

وشعر بالخوف . أيمكن أن يكونوا قد عثروا على الحقيبة الأصلية من قبل ؟

— لا أدرى . لماذا ؟

— لا شيء ... كنت أسأل لمجرد السؤال ...

— لست أدرى ... يبدو لى أن الأوصاف تنطبق عليها .

حمداً لله أن أحداً لم يعثر على الحقيبة الأصلية قبله . ونفخ وقص على المرأتين كيف عثر عليها ، وأخبرتاه بأنهما سمعتا الناس وهم يتكلمون عن هذه الحقيبة ، وكيف أن الرجل اليونانى وعد بمكافأة سخية لمن يعثر عليها ويعيدها إليه . وقال « باندا » محدثا نفسه : إننى لم أحلم إذن ، فلعله يعطينى عشرة آلاف من الفرنكات .. ولم لا ؟ لقد أخبرتاه أيضاً أن الرجل اليونانى لم يكف عن المرور بسيارته فى الطريق ذهاباً وإياباً ، وأنه كان يتوقف فى كل قرية ليسأل عما إذا كان أحد الناس قد عثر عليها ، وأن الرجل قد مر منذ حين متجهاً إلى الجنوب ، وأنه سوف يمر من جديد بعد قليل ، وأنه لم يفعل شيئاً طوال النهار سوى المرور ذهاباً وجيئة ، وأن زوجته كانت بجانبه ، وأنها لم تتركه منذ الصباح . كانت بجانبه فى سيارتهما الضخمة السوداء وكان هذا عجيباً فهذه المرأة التى لم تخرج ابداً والتى لم يكن يراها الناس إلا وراء نافذتها ، والتى لم تكن تنزل إلى الشارع بتاتاً ، هاهى بجانبه منذ الصباح لم تتركه لحظة .

وقالت «أوديليا» حذرة :

— إنهم يدعون أن بالحقيبة أشياء لها ، وأنها أشياء ثمينة جداً ..

وسألت المريضة :

— وما هى تلك الأشياء يا ترى ؟

ونظر ثلاثتهم إلى العلبة الصغيرة بفضول بالغ وقال «باندا» :

— وأنا بدورى أتساءل عما يمكن أن يكون بداخلها . لقد حاولت فتحها ولكنى لو حاولت طوال سنة كاملة فتحها فلن أوفق فى هذا أبداً .

وقالت الفتاة :

— إن كانت الحقيبة تحتوى على أشياء لها ثمينة جداً، فلابد أنها خواتم وأساور من الذهب أو عقود باهظة الثمن :

وزد عليها « باندا » قائلا فى تشكك :

— أتعتقدين هذا ؟

وسألت « أوديليا » وقد نفد صبرها :

— وماذا تكون هذه الأشياء إذن ؟

وأردف « باندا » :

— لست أدرى ، وبودى أن أعرف مابها ولكن كيف يتسنى لى أن أعرف مايمكن أن تكون عليه أشياء تملكها امرأة بيضاء ؟ ربما كان بداخلها أى شىء ...

— أؤكد لك أنها خواتم من الذهب وأساور وعقود وأقراط ...

— وماذا تريدين منها أن تفعل بهذه الأشياء فى طنجة ؟ إنى أسألك يا أختى الصغيرة ، ماذا يمكنها أن تفعل بهذه الأشياء فى طنجة ؟ إنها لاتخرج إلى الشارع أبداً ، والعقود والخواتم وأساور الذهب إنما هى أشياء تحتاج إليها أخريات ليترددن بها على الحفلات الراقصة أو لمجرد التباهى ونيل إعجاب الناس : هذه أشياء تقتنيها زوجات الفرنسيين . أما امرأة يونانية ... إن يونانيين يلتقيان لا يمكنهما أن يفعلا شيئاً أكثر من الكلام فى التجارة . إنى أعرفهم حق المعرفة . وعلى أية حال فإن هذه السيدة « ديمترو بولوس » لاتخرج أبداً عن نطاق شرفتها . بودى أن أعرف حقيقة مابداخل الحقيبة ...

وقالت المريضة ضاحكة :

— لاتتعبا نفسيكما من أجل هـــذا ياولدى ، إذا مافتحوا لكما هذه الحقيبة فلعلكما تدهشان كل الدهشة مما بداخلها فقد لايكون هذا شيئاً ذا بال على الإطلاق ...

وقالت « أوديليا » ، وقد بدا الاهتمام يرتسم على وجهها فجأة :

— ربما كانت تحتوى صوراً لذويها .

وقال « باندا » :

— أو رسائل غرامية .

ولم يبد على أى من المرأتين أنهما تفهمان ما يمكن أن يكون لرسائل غرامية من أهمية بالنسبة لامرأة بيضاء ! وقد صدم « باندا » لهذا ولم يلح ...

وأردفت « أوديليا » :

— أو ربما كانت أشياء قد امتلكها ذووها .

وقالت المريضة مؤمنة : — أوه ، نعم .

وأضافت الفتاة :

— أى شئ ، وربما كانت أشياء لاقيمة لها .

وأكمل « باندا » ليساند « أوديليا » :

— أو أشياء عجيبة ، شعر امرأة أو عظام رجل ...

وصاحت المريضة فى انزعاج وهى تخرج لسانها :

— عظام ؟ أتقول يابنى « عظام بشرية » ؟ ...

— نعم ياأماه . إن هؤلاء الناس فى منتهى الشذوذ . ألا تعرفين مثلا أن جميع الكنائس الكاثوليكية تحتفظ بعظمة بشرية فى مكان ماتخبئها فيه ، وكثيراً مايكون ذلك داخل الهيكل : عظمة قديس ... فهم مولعون بتذكارات من هذا القبيل . وإذا ما أرادوا أن يحتفظوا بتذكار لشخص ما فإن أثمن مايحتفظون به عظمة أو بعض شعرات منه . لا يمكنك أن تتصورى هذا يا أماه ، فهم قوم فى منتهى الشذوذ .

وسألت الأم :

— أأنت متأكد من ذلك تماماً يابنى ؟ عظمة بشرية ! ...

— نعم يا أماه : عظمة بشرية ...

— فى الكنيسة !

— عظمة لقديس ، أو تذكار مقدس على حد تعبيرهم .

— وماذا يفعلون بهذه العظمة ؟

— أوه ، لاشيء ، فهم أحياناً يكشفون عنها الغطاء ويعرضونها ، وعندئذ يمر أمامها الجميع لمشاهدتها ، لا أكثر ولا أقل ، وهم أحياناً يلمسونها ، إلا أن هذا لا يحدث إلا نادراً .

واختتمت الأم هذا الحديث بقولها :

— إنك يابنى تعرف الكثير عن الدين ، بل وأكثر مما أعرف .

— ألم أقل لك هذا دائماً ياأماه ؟

— ولماذا لاتؤمن ؟

— أنا لا أؤمن لهذا السبب نفسه، وهو أنى أعرف الكثير عنهم وعن دينهم. وأنا لهذا عاجز عن أن أؤمن ، فأنا لا أثق بهم .

— وكيف هذا؟

— هذا أمر يصعب شرحه يا أماه ، ولذا أرجو ألا تتكلم فيه ، أرجوك ...

— لم تكن يابنى فى بادىء الأمر تعرف الكثير عنهم فلماذا إذن رفضت الذهاب لحضور درس الدين عندما كنت فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرك ؟

— لست أدرى يا أماه ؟ أرجوك ألا تتكلم فى هذا ، أتوسل إليك ...

ولاذ ثلاثتهم بالصمت . كان من الصعب أن تعرف فيم تفكر المرأتان . أما « باندا » فقد كان مضطرباً بسبب تلك الأسئلة التى وجهتها إليه أمه . لقد مر وقت طويل دون أن تكلمه فى أمور الدين . لماذا ياترى عادت إلى الحديث عنها فى هذه الليلة بالذات ، ولم تلح كما كانت تفعل من قبل ؟ وراود قلبه شعور خفى ، شعور خفى ، شعور له لهيب وخاز .

وعاد ذهنه فجأة إلى التفكير فى الحقيبة الصغيرة . وأخذ يتساءل عما إذا كانت تحتوى على شىء ثمين ، كان بوده أن يعرف على وجه التقريب أية مفاجأة سعيدة يمكن أن يحدثها لهذا الدعتروبولوس عثوره على الحقيبة ، وأية لذة يمكن أن يثيرها هذا فى نفسه . كان رأى الفتى أن المكافأة الموعودة سوف تحدد قيمتها تبعاً

تلك اللذة التى سيستشعرها « دعتروبولوس » من عثوره على الحقيبة . ولكن ماذا يمكن بالله أن يكون ثميناً فى نظر الرجل الأبيض ؟ أهو المال ؟ لاشك فى هذا ، لقد جمع هؤلاء الناس من المال كميات ضخمة تكفى لملء بيوت كبيرة فى حجم كنيسة طنجية . ومع ذلك فإن الرجل الأبيض ربما قتلك أيضاً من أجل سبب تافه ، من أجل صورة أو كتاب أو أى شىء لاقيمة له . ثم اعتزم فجأة أن يكف عن التفكير فى هذا الأمر .

قالت الأم فجأة وهى تقطع حبل السكون المخيم عليهم :

— اسمع يابنى ، أصغ إلى لحظة ، لحظة واحدة ...

وأجابها فى لهجة مشبعة بالسأم :

— بكل تأكيد يا أماه ، ها أنا مصغ إليك .

— انظر جيداً إلى هذه الفتاة الجالسة بجانبك . انظر إليها جيداً يابنى .

ولدهشته استدار وألقى نظرة سريعة خاطفة على «أوديليا» التى استدارت بدورها ثم التفتت ببطء نحو أمه .

قالت الأم وقد نفد صبرها :

— انظر إليها يابنى .

— حسناً يا أماه ماذا تريدين ؟ ... إنى أعرفها ، وأكثر مما تعرفينها أنت ، ما معنى هذا ؟

ربما قد أثر رقادها الطويل والألم الذى يحز فى جسمها وقلبها وتفكيرها المستمر فى أشياء معينة على قواها العقلية .

— ما معنى هذا يا أماه ؟

— هل ستتزوجها ؟

— أتزوج من ؟

— هذه الفتاة الجالسة بجانبك ؟ قل لى إنك ستتزوجها ، سوف تتزوجها ، سوف تتزوجها ، أليس كذلك ؟

— ولـكن كيف يتسنى لى أن أعرف ياأماه ؟ سوف أحاول . ومن أدراك أنها ستقبل ؟

— وإذا ماقبلت ؟

— إنى أتزوجها إذن ، مادمت تطلبين إلى هذا .

وقالت المريضة بعد أن سكتت برهة :

— كنت أنتظر طوال حياتى مجىء هذه المرأة ، وهاهى قد جاءت ، فهى ملاك من لدن الله ، ملاك حقيقى . وفى إمكانى أن أرحل الآن حاملة معى خبراً سعيداً إلى والدك فى العالم الآخر ...

وبدا للشاب فجأة أنه قد أوقظ من كابوس طويل مروع ... الزواج بأوديليا ! لم يـكن يفـكر فى هذا لحظة واحدة بالرغم من المكانة التى احتلتها فى مخيلته منذ اللحظة التى ظهرت فيها ، عندما التقيا فى الحان ... ومنذ جلست بجانبه وكأن القدر يدفعها إليه . لقد عاش منذ مساء الأمس فى عالمه الخاص ، عالم ينفرد به وكان يتخبط فى سلسلة من الصعاب اصطنعها خياله .

إن فـكرة زواجه من تلك الفتاة التى كان ذووها يطالبونه بمبلغ طائل ، قد تسلطت على رأسه وأصبحت بمثابة اختبار لقوته ولذا أخذت كبرياؤه تلح عليه بالنجاح فى هذا الاختبار مهما كان الثمن . ولا شك أن رغبته فى بادىء الأمر كانت تتلخص فى أن يقدم لأمه المسكينة لحظة ضئيلة من السعادة ، وكانت هـذه الرغبة الملحة هى الدافع إلى اعتزامه الزواج ، إلا أن دافعاً آخر أخذ رويداً رويداً يطغى على الدافع الأصلى وقد حدث هذا التغير بعد لقائه بخطيبته .

كان الظاهر أن الأم قد رضيت عن تلك الفتاة بعد أن استبعدت من قبل كثيرات غيرها أو ربما امتنعت عن الإفصاح عن رأيها خشية أن تثبط عزيمة ابنها . وعلى أية حال فهى لم تعارض معارضة صريحة كدأبها . وأقسم « باندا » منذ تلك اللحظة أن يتزوج من هذه الفتاة التى بدا أن أمه لم تستبعدها ، وإن لم يشعر نحوها بعاطفة معينة اللهم إلا بعض الاشتهاء . كان كل همه هو أن يسعد أمه فى أيامها الأخيرة ، هذه المرأة التى تفانت فى حبه ، والتى قضى عليها بأن تشرف على الموت — أو هذا على

الأقل ما كانت تعتقده وتقوله — ولكن العقبات أخذت تتراكم فى طريقه وأخذ هو يتشبث أكثر وأكثر بالرغبة فى التغلب عليها ، فى تصميم يائس . وكان هذا التصميم أبرز من أى شىء آخر بل كان أقوى من العاطفة ذاتها : فهناك لحظات مؤسية يستشعر فيها الإنسان حاجة إلى أن يسترجع كل ما كان يتصوره فى نفسه من صفات طيبة . وربما أدى أى فشل فى هذه الأثناء إلى تثبيط عزيمته ، بل والأدهى من ذلك أن يسىء إلى المرء بأن يدفعه إلى سلسلة من الشكوك وإلى إعادة التفكير فى طبيعة فهمه للحياة بل وإلى الاستياء من كل تصرفاته السابقة . كان «باندا» يفضل النجاح فى التغلب على هذه العقبات إذ أن هذا النجاح كان سيعيد إليه ثقته فى نفسه ، وهنا السر فى تفانيه من أجل الفوز .

كان قد تسلح بكل ما فى طاقته من صبر ، وجمع بعض المال ، قرشاً بعد قرش . كان بيع محصوله من الكاكاو فى نظره هو الضربة الأخيرة التى تتيح له — بالإضافة إلى مدخراته السالفة — تدبير المبلغ المطلوب .ولكنه بعد حادث رجال المراقبة — ولم يكن بطبعه ممن يتشاءمون أو يتفاءلون فهو لايؤمن بالحظ أو بأية قوة أخرى خفية — بعد هذا الحادث ، جابه المصيبة بواقعية وقال محدثاً نفسه : « أنا شخص لايصلح لشىء ... شخص فاشل ... » . وكان هذا الحادث المفاجئ سيؤجل مشروع زواجه فترة قد تطول جداً أى إلى وقت لاتكون أمه فيه على قيد الحياة . وكان من الممكن أيضاً أن يحاول والد خطيبته فى هذه الأثناء أن يزوج ابنته من شخص آخر يكون أكثر حظا منه ولكن هاهو قد صادف « أوديليا » التى أعجبته فى الحال ، والغريب حقا هو أن فكرة الزواج منها لم تطرأ على ذهنه وإن كان التفكير فيها قد هز مشاعره هزاً عنيفا: هاهو منذ أمس قد أخذ يشك فى نفسه بشكل مؤلم . وهو على أية حال، بالرغم منه، لم يكن يستسلم كلية لما وقع له، ولم يكف ذهنه عن التفكير فى أشياء معقدة بغية التغلب على القدر. ولو أنه قال مساء أمس للفتاة وهما فى الحان : « أحب أن أتزوجك ... فأنت جميلة وتجذبيننى إليك ، وليس فى نيتى أن أدفع لك مالا ، وإن كنت أحب أن أتزوجك » ...لو أنه قال هذه الكلمات لكان هذا تراجعا ،ونوعا من الاعتراف بفشله ، وبعجزه . وقد حاول دائماً أن يثبت عكس هذا بالرغم مما يقوله عنه « تونجا » ، ومما يقوله شيوخ «باميلا» جميعاً . وأخيراً — وهذا شىء يفوق

فى أهميته كل ماعداه — لم يكن هناك دليل على أن المرأة المريضة ستوافق على اختياره لأوديليا .

ولم يفهم كيف لم يفكر فى هذا الأمر من قبل . « أوديليا » ! تلك الأخت الصغيرة التى حلم بها طوال حياته ... ثم إنه متأكد أنه رآها مرات عديدة قبل مقابلته لها فى هذا الخان . كيف لم تراوده هذه الفكرة من قبل ؟ ربما كان سيطلب من الفتاة أن تطيل مدة إقامتها بالقرية . ولكنه لو ترك وشأنه لما فكر فى أن يطلب منها الزواج... أما هذا المساء فها هو يشعر برغبة شديدة فى أن يلمسها ، وأن يكلمها برفق فى أذنها ، وأن يهون عليها . ولكن لم كفت عن البكاء ؟ لعلها تعاود البكاء فجأة . « أوديليا » ! هذه الأخت الصغيرة المحبة المخلصة التى تتحلى بكل الصفات التى طالما حلم بها ... ولكن ليس صحيحا إذن أنه سيء الحظ وأن اللعنة تطارده ؟ أكان فى مقدور أحد سواه أن يتخيل أختا صغيرة ورقيقة وجميلة ، ثم يصادفها كما تخيلها — وإن لم يسمها باسم — فى عالم الحقيقة ؟

لاشك فى أنه لم يكن ليستطيع وحده أن يفكر فى هذا ، عجباً ! ولكن ها هو الأمر مع ذلك سهل ميسور . لقد حدث بفضل اهتمام أمه وحبها لهذا الابن العاق ... سوف يذهب إلى « فورنيجر » ليقيم بها ، وسوف يعمل فيها . سوف يعمل أربعا وعشرين ساعة كل يوم من أجل « أوديليا » ومن أجلها سوف يعنى بأن يلصق ذراعيه بجسده إذا ما سبه رجل أبيض وقال : « يا ابن العاهر ، أيها الزنجى اللعين ، أيها الوحش القذر ، أيها القرد المقطوع الذيل » أو إذا ما اعتدى عليه . ومن أجل « أوديليا » سوف يحرص على ألا يتطاول على رجل أبيض حتى يتجنب المتاعب . عجبا !.. ولكنه لن يغتفر لنفسه أبداً أن يترك « أوديليا » وحيدة فى يأسها ، ضائعة وسط خضم من الرجال لا يبالون بشىء ، رجال أشرار فى مدينة ضخمة كفورنيجر . لا لن يصفح أبداً عن نفسه إذا مافعل هذا .

وشعر لأول مرة فى حياته بأنه ليس وحيداً فى العالم ، هذا العالم الذى يشعر بغرابته ، وكذا بما فيه من شرور وإن لم يكن يتبين حقيقة كل ذلك بالضبط . ها هو قد تجرد من هذا الإحساس البغيض بأن الدنيا قد فرضت عليه نزالا يخوضه وهو متأكد مقدماً من هزيمته فيه . وأخذ يتخيل الحياة فى شكل صراع قاس ، لاهوادة

فيه ، ولـكنه صراع يمـكنه منذ هذه اللحظة ألا يستبعد فـكرة الانتصار فيه .

« أوديليا » ! ياالأخته الصغيرة المحبوبة ! ... ولـكن بهذه المناسبة ماذا كان يعرف عن الأخرى ؟ لم تصادفه قط فرصة لاختبارها . هل لها نفس صفات «أوديليا» وشخصيتها ؟ ... وبالرغم من أنه كان يعرف تماماً أن ليس فى مقدوره أن يقارن بين الفتاتين — إذ لم يكن من المعقول أن يتردد لحظة لو قارن بينهما — فهاهو يشعر بالرغبة فى أن يقارن بينهما وكأنه يريد أن يقنع نفسه بأنه قد حصل من الحياة على كل ماكان يمـكن أن يحصل عليه .

ومسح جبهته بيده وكان هذا دليلا على مايعانيه من ضيق ، واستدار نحو الفتاة والتقت نظراتهما . كانت ترتسم على فمها الساخر شبه ابتسامة كما لو كانت تتحداه ، وقال :

— هذا صحيح إذن ؟

بدا عليه التوسل وهو يقول :

— هل هذا صحيح ، أتوافقين حقاً ؟

وهزت رأسها مؤمنة والابتسامة الساخرة ما تزال ترتسم على شفتيها ، بينما كانت عيناها تلمعان فى الظلام الذى يغمر المـكان .

وقال : إن قلبك طيب ، قالها دون أن يلحظ أنه قد أعاد ماقالته أمه من قبل .

وأردفت المريضة التى عادت الحياة إلى وجهها فجأة : لقد قلت لك هذا من قبل. كنت أقول لك إنها ملاك من عند الله ، ثم اعرف هذا جيداً : لن يطلب منك أن تدفع سنتيماً واحداً ...

واقترب منها ببطء شديد وتلامس كتفاهما وشعر بأنوثتها النابضة من خلال ثوبها القطنى الخفيف كما حدث ذلك فى الليلة السابقة . لقد بدت عليها نفس الحرارة ونفس الاشتعال ونفس الحمى وارتسم اليأس لحظـة فى عينى الفتى ولـكنه سرعان ما تمالك نفسه .

كان لمس هذا البدن الغض الشاب يسبب له إحساساً عجيباً أخذ يدفعه إلى الحلم بأشياء رقيقة مسكرة ، وكأن الفتاة قد فرضت عليه عالمها هى .

ولم يسمع حتى صوت محرك السيارة وهى تقف فى الطريق. ولما دفعته «أوديليا» نهض بطريقة آلية وأخذ الحقيبة واتجه إلى الطريق .

وكل ما يذكره عن هذا المشهد هو أن صوت « دمتروبولوس » كان مبحوحاً متقطعاً إذ كان نهباً لسعادة جنونية ، وأنه عد له فى يده عشر ورقات من فئة الألف فرنك وأنه ربت على كتفه كما يذكر أن زوجته قد بدا عليها — تحت ضوء المصباحين القويين — أن شفتيها تعلوهما حمرة الرض ، وأنها ضغطت على يده ، وأن يدها كانت باردة لينة .

ومازال يذكر كيف نظر إلى السيارة الكبيرة بمصباحيها البارزين ، وكيف مرت بذهنه صورة رجال المراقبة ورجال الحرس الإقليمى وأنه قد ابتسم ورفع يده إلى العين التى كانت قد أصيبت والتى شفيت الآن تماماً .

الخــــاتمة

لقد توفيت أم « باندا » بعد الأحداث التي روينا ها في هذه القصة بأيام قلائل ، وإثر وفاتها تريث « باندا » فترة كافية قبل أن يترك « باميلا » .

وفي اليوم المحدد لرحيله وجدتنسه وقد أحاط به نفر من الناس من بينهم خاله الترزي وعمه « تونجا » من « باميلا » وكذا « سابينا » و « ريجينا » والنسوة الخمس اللائي ساعدنه في حمل محصوله من الـكاكاو إلى طنجية ، وهن من بين الصديقات الوفيات لأمه السكينة ... كان قد ذهب لوداعهن وليقول لهن إنه لم يعد هناك مايشجعه على الاستمرار في البقاء في « باميلا » بعد رحيل أمه .

وكانت « سابينا » قد احتجت على هذا القرار بقولها :

ـــ إن هذه القرية يا « باندا » هي كذلك قرية أبيك . ماذا ستفعل بمزرعة الـكاكاو التي تركها لك ؟ ...

وأجاب اليتيم بقوله :

ـــ ومن قال إن الابن مجبر على الحياة حيثما عاش أبوه ؟ أما عني فسوف أرحل إلى « فورنيجر » وربما عدت إلى « باميلا » بعد خمس سنوات أو عشرين أو ثلاثين سنة ، من يدري ؟ فربما يكون قد تغير كل شيء فيها ، لابد أن شيوخ القرية سيكونون قد ماتوا ، وسوف نستطيع حينئذ أن نتنفس ...

كانت العبرات تبلل عيون النسوة ، أما الترزي فقد بقي كعادته شارداً حزيناً ، وقد نطق أخيراً بهذه الـكلمات :

ـــ يا بني ، إن كان هناك رجل يمكن أن يمنعك من الذهاب إلى المدينة ، فلن أكون هذا الرجل ، لطالما قلت لنفسي إنك ستنجح إذا ما ذهبت إلى مدينة كبيرة ، و « فورنيجر » هي حقاً بغيتك ، أما عني فأنا أباركك يا بني ، لتـكن سعيداً .

وبصق الرجل على الأرض ، وكانت هذه عادة قديمة يزاولها من يريد أن يبارك شخصاً ما .

وقالت « سابينا » فى أنين :

ــ ها هم أطفالنا لا ينتظرون إلا موتنا لـكى يرحلوا بهذه الطريقة ...

ــ إذا كنا نرحل هكذا ، ونترك قريتنا وغابتنا الجميلة ، هــذه الأم الرؤوم ، فإننا لا نفعل ذلك دائما والبهجة تملأ قلوبنا .

أما عن « تونجا » فلم ينبس ببنت شفة . لقد اكتفى بالنظر إلى الأرض وهو مقطب الجبين ، وكان يمر بيده على ذقنه فى حيرة واضطراب .

لقد احتضنته أسرة «أوديليا» بسرعة وأصبح فتاها المدلل ، فتاها الوحيد بعدوفاة « كوميه » . وقد عهدوا إليه بأخته الصغيرة ليرعاها مدى الحياة .

وهو يتساءل عما كان يمكن أن تؤول إليه حاله لو أنه لم يصادف « أوديليا » . لقد بدا له أنه كان لابد أن يلقاها فى يوم من الأيام بل وأنه لم يكن فى مقدوره ألا يتزوجها . وها هو للمرة الأولى منذ طفولته يستمتع بمباهج الحياة . وهو يعجب بهذا البلد الذى تتسم الحياة فيه بشىء من الرقة والبعد عن الخشونة والذى يتميز أهله بالصراحة والحب المتبادل والانسجام الذى يسودهم . ولـكنه شعر بأن هذه الفترة مؤقتة وأنه سيجد لزاماً عليه أن يرحل إلى مكان آخر ... وفى كل يوم كان يؤجل موعد الرحيل . ولم يرحب أهل زوجته كثيراً بفكرة رحيله إلى المدينــة وإن لم يعارضوه فى مشاريعه .

أما هو فـكان يتساءل : متى يذهب إلى « فورنيجر » ؟ لقد لفظته «باميلا» . وكانت «فورنيجر» ــ لما لطنجة من ذكرى فى نفسه ــ تبدو وكأنها لن ترحب بمقدمه . أما الآن ، وربما يحدد يوم رحيله فهو يلوذ بحب «أوديليا» فى هــذا الجو المشبع بالرقة والحنان الذى تغمره به أخته الصغيرة ، ولـكنه كان يشعر فى قرارة نفسه أن ليس فى مقدوره أن يكتفى بهذا .

سوف يضطر فى يوم من الأيام إلى الذهاب إلى «فورنيجر» . وليس فى وسعه أن يتوقف فى منتصف الطريق .

وكان الصوت ــ صوته هو ــ الذى كان يحب أن يستمع إلى نبراته وإلى موسيقاه ، كان هذا الصوت لايكف عن الهمس فى أذنه بتلك الـكلمات « ماذاتنتظر يا «باندا» لـكى ترحل؟ ألاتخجل من نفسك؟انهض يارجل،اصحب زوجتك وارحل...»

قلب آريه

بقلم : چان مالونجا

ولد الكاتب فى ٢٥ فبراير من عام ١٩٠٧ بمدينة « برازافيل » بالكونغو بالإرسالية الكاثوليكية ، وقد تابع فيها دراسته حتى المرحلة الثانوية .

وقد جاء إلى فرنسا سنة ١٩٤٨ بصفة «مفاوض» .

كتب مالونجا — عدا « قلب آرية » — « أسطورة لافولا كارى » ، و « باندوزى والمستقبل » ، و « نيامابودى الحارس » ، و « أسطورة مبفومو ماما زونو » .

وهذه القصة الأخيرة تحت الطبع فى «المطبوعات الإفريقية» .

الفصل الأول

الإنقاذ

سقط طفل الرجل الأبيض فى الماء .

إن سماع تلك الصيحة التى تتناقلها الأفواه إنما يتغلغل إلى عظامك، بل إلى نخاعك . وكانت تلك الصيحة المزعجة المقلقة تنبثق كالموج من كل مكان ، من صدور الجميع ، من جميع الأفواه ، من سكان القرية جميعاً ، وتنتشر فى همهمة مكتومة حتى تصل إلى أقاصى الوادى الشاسع ، وتنتقل من باب إلى باب ومن بيت إلى بيت ومن طفل إلى بالغ ثم يمتزج صداها أخيراً بهدير الأمواج . وساد قرية « موساكا » الكبيرة صخب غير عادى ، وكنت ترى رجالا ونساء وأطفالا يندفعون خارج أكواخهم وقد جن جنونهم ، ويجرون فى انفعال شديد شطر النهر حيث يتخبطون فى مائه الموحل الذى يصل إلى ركبات البالغين وإلى منتصف صدور الأطفال . هاهم ينزلون زوارقهم ، وهى من جميع الأشكال والأحجام ، من فوق حواملها الخشبية ويفكون أربطتها من أوتادها ثم يدفعونها فى عجلة إلى التيار المتدفق ميممين وجوههم شطر الأمواج العالية التى تتلاطم وسط النهر .

ووقفت امرأة بيضاء ، يرتسم على محياها ألم بالغ ، وكانت تبدو كأنها نموذج لعذاب الأمومة ، وأخذت تنتزع شعرها من جذوره وتلوح فى حركات يائسة . كانت تضطرب وتتلوى أمام باب بيتها دون مأوى أو إدراك .

واستمرت تلك الصيحة : « سقط طفل الرجل الأبيض فى الماء » ، تدوى وترن فى الآذان فتنفطر لها أشد القلوب غلظة ، وترتعد لها الأوصال ، ويقف عند سماعها شعر الخنازير المتوحشة التى كانت تعبر المدينة فى جماعات فى تلك الآونة ، وكان الفيضان قد طردها من جحورها . واستمرت الصيحة تواصل لحنها الحزين دون هوادة أو توقف .

وهنا قفز رجل أبيض ، لا يقل انفعالا واضطراباً عن المرأة — التى لم تكف

في شدة يأسها ، عن التلويح والتلوى والصراخ وهى واقفة تحت شرفة بيتها — إلى زروق يقوده زنجى متين البنيان ، وكنت تراه يتململ فى الزورق الهزيل وهو يصرخ ويرعد . كان يسير من مقدمة الزورق إلى مؤخرته دون أن يقوم بأى عمل مفيد ، بل إنه لسوء إدراكه كان يعرقل حركات المجذف ، كان يركله بقدمه ويضربه بقبضتيه ويصرخ ويلقى بأوامر غير مفهومة يتصور أنها ستضاعف من همة ونشاط وقوة عبده المسكين الذى استولت عليه الدهشة وإن تذرع بالصبر .

واستمرت الصيحة القبيحة الفظيعة « سقط طفل الرجل الأبيض فى الماء » تدوى والأفواه تتناقلها فتزيد من رعب وقلق الجموع المحتشدة، وتضاعف ذعر من تطوعوا عن طيب خاطر فأسرعوا إلى إنقاذ ابنة الرجل الأبيض التى كان يحدق بها الخطر من كل مكان . أما الأم المسكينة فقد أخذت تتدحرج على الأرض وقد تملكتها أزمة عصبية عنيفة .

أخذت الأمواج الهادرة المتلاطمة تصفر ساخرة ، وترعد معبرة عن غضبها بأصوات كئيبة مشئومة وهى تدفع ضحيتها إلى عرض النهر الكبير دون ما كلل .

وانطلق إلى الماء عشرون زورقاً ، بل خمسون ، بل ربما مائة ، وأخذت تتسابق نحو نقطة سوداء تعلو وتهبط على بعد ، محاولة أن تقاوم الأمواج الراعدة التى يعلوها الزبد . وكان يسمع بين الفينة والفينة نداء محموم صادر من البقعة السوداء — التى لاتكاد تراها العين ، والتى تتجه إليها جميع الأنظار،وتشير إليها الأذرع الممدودة — ولكن سرعان ما كانت تخمده أصوات الأمواج التى تتغنى بنصرها . وكان شعر الفريسة يطفو على الماء وكأنه مجموعة من الثعابين السوداء تتلوى وتظهر لحظة ثم تختفى تواً تحت الأمواج الخانقة .

وسمع أنين الرجل الأبيض وهو ينطق بهذه الكلمة : يا ابنتى ! يا ابنتى! وكانت يده الممسكة بشريط مصنوع من جلد فرس البحر ، لاتكف عن الصعود والهبوط فى فى حركة رتيبة وهى تضرب كتفى المجذف العريضتين المقوستين الذى استسلم متذرعاً بالصبر ، وكأنه لايشعر بالألم ، فقد كان انتباهه كله مركزاً على الثعابين السوداء الطافية التى تتلاعب بها الأمواج فى ثورتها العارمة .

وظهر على رأس موكب الزوارق زورقان لابد أنهما أخف وزناً من الزوارق الأخرى وأخذا يندفعان شطر شعر الفريسة الذى مافتىء يتباعد ويتراقص تبعاً لهوى الأمواج التى اشتد هديرها . كان الرجل الأبيض واقفاً على ظهر إحدى الزورقين ، وقد نسى أن يمسك مجدافه — وإن كان فى متناول يده — واكتفى بضرب ملاحه دون مارحمة . أما الزورق الآخر فكان يسبق الأول ببضعة أمتار ، وكان أصغر حجماً وأكثر طواعية لملاحه — ولم يكن هذا الأخير إلا غلاماً ولم يكن يبالى بصيحات الرجال المحذرة التى تدعوه إلى الحيطة والتعقل . لم يكن الملاح الصغير وزورقه إلا جسماً واحداً ، جسماً يطير مسرعاً وكأنه طير أو سهم يندفع نحو الحطام البشرى المغلوب على أمره . ولم يكن الغلام يصغى إلا إلى صرخات الفريسة الصغيرة الواهنة التى كانت الأخطار تحدق بها من كل جانب .

أخذت الأمواج تزأر وكأنها تخشى أن تفلت منها فريستها وتتلاطم وتدور على نفسها طاوية فى دواماتها الزوارق التى أخذت تهتز فيصطدم بعضها بالبعض الآخر ، والتى لم يكن فى مقدورها أن تتقدم إلا بصعوبة كبيرة .

هاهو الغلام يطلق صرخة مدوية ويقذف بنفسه إلى الماء دون أدنى تردد . أما زورقه الذى تركه نهباً للأمواج فقد أخذ يدور حول نفسه كالنحلة .

وسمعت صيحات المجدفين وصرخات الجموع المحتشدة على الشاطىء وهى تستنكر هذا الجنون ، وكانت تتبع كل حركات المنقذين .

أما ملاح زورق الرجل الأبيض فقد تملكه الرعب ، ولذا دفع زورقه إلى الأمام بقوة خارقة وهو يجهش بالبكاء . وقد نتساءل عن سبب تلك الحساسية الفائقة ... وسوف نعرفه بعد قليل .

لقد ظهر فى تلك اللحظة تمساح ضخم فاغراً فاه ، أخذ يقترب من النقطة السوداء التى تندفع نحو الزوارق . واندفع الحيوان المفترس بدوره نحو الفريسة السهلة التى تكشفت أمامه ، وتأهب للانقضاض عليها ليلتهمها . كان ظهور هذا التمساح هو مبعث تلك الصيحة التى أطلقها الغلام وسبب قفزته الباسلة ، وكان قد وصل بسرعة إلى حيث تحدق المخاطر بالغريقة الصغيرة . وفى غطسة جريئة يائسة انتزع الفريسة

من بين فكى التمساح ثم أخذ يسبح بكل قوته ليبتعد عن الوحش الذى كان التيار الجارف — لحسن الحظ — يعوق حركته . أمسك الغلام بالفتاة من حزام ثوبها الصغير ، وشق الموجة الغليظة ، ومر تحت بطن الحيوان الذى أخذ يضرب الماء بحد ذيله القاطع وهو يدور حول نفسه ، فقد أدهشه اختفاء فريسته على هذا النحو . وظهر النقذ الصغير بالقرب من زورق الرجل الأبيض وملاحه التعس . لقد شق الماء بيده وأمسك بالفتاة الصغيرة بيده الأخرى بكل ما تبقى له من قوة ، وكانت الفتاة فى تلك اللحظة قد فقدت الوعى . أما التمساح ، ولم يكن ليقبل الهزيمة على هذه الصورة ، فقد قفز بسرعة نحو القارب حيث كان الرجلان قد نجحا فى انتشال الفتاة ووضعها بداخله ، ويحاولان انتشال المنقذ الصغير الذى خارت قواه بعد أن حاول أن يدفع الفتاة إلى ظهر الزورق حيث ينتظرها أب أفقده الألم صوابه . هاهى أقدام الغلام لم تخرج من المـــاء بعد وها هو التمساح يتأهب فى قفزة بارعة ليقطع ساقيه . ولـكن يالها من معجزة سعيدة ! هاهو الوحش يقفز قفزةمروعة إلى الخلف ويطلق صرخة الألم ، صيحة مفزعة كعواء كلب مذبوح ارتعدت لها أوصال الجميع . وأخذ الوحش يدور حول نفسه ويعضغ فى غضب مسعور قضيباً خشبياً طويلا ينتهى بحربة مدببة على شكل خطاف ، وصبغ الماء من حوله بلون أحمر قان .

كان المجدف الزنجى بقارب الرجل الأبيض هوالذى أطلق رمحه فى حلق الوحش المخيف . وهاهى عشرة قوارب ، خمسة عشر ، بل ثلاثون قارباً قد وصلت إلى ساحة القتال . كان المجدفون يتسلحون برماح حادة — وكانوا صيادين مهرة تمرنوا طويلا على مثل هذا النوع من الصيد — واندفعت جموعهم إلى الماء وأخذوا يطلقون رماحهم فى جنبى الوحش العريضين ، الذى استمر يقفز فى الهواء وإن بقى حبيس الرماح التى تسبح فى دمائه .

وفى سرعة فائقة أدرك زورق الرجل الأبيض الشاطئ بينما استمر الصراع مع الوحش المفترس الذى بدأ يعجز عن المقاومة فانقلب على بطنه فى الهواء والدماء تسيل غزيرة من حلقه — إذ كان الرمح منغرساً فيه — ومن الجروح العديدة فى جنبيه .

أما الرجل الأبيض ، وكان سعيداً أن عادت إليه ابنته ، فقد ألقى بنفسه عليها كالوحش الكاسر ، بمجرد أن وصل إلى الأرض ، وكانت الفتاة ما زالت غائبة عن

الوعى ، ثم حملها إلى بيته حيث كانت تنتظرها أمها التى أخذت ، لشدة فرحتها ، تجردها من ملابسها . وبدأت الفتاة — وقد أخذت أمها تربت عليها بحنان وتناديها بأعذب الـكلمات — تعود إلى رشدها .

هاهى « سولانج » — وهو اسم الفتاة — ترقد الآن على سرير ، مغطاة بأغطية ثقيلة . لقد أفرغت مافى جوفها من الماء الذى شربته .

أما أبوها — وكنا ونحن نتـكلم عن الرجل الأبيض إنما نتـكلم عن أب — فقد غاص فى مقعد وثير عريض مصنوع من الخيزران ، بعد أن أفرغ فى جوفه ثلاثة كؤوس من الـكونياك ، وأخذ يتساءل عن سر تفانى وشجاعة الغلام الأسود الذى أنقذ ابنته .

قال الرجل لنفسه مجيباً عن سؤاله بعد أن فـكر فى الأمر تفـكيراً طويلا لاشك أنه أرهقه : — أوه ! على أية حال ، الأمر طبيعى ، من الطبيعى أن يتصرف هذا الزنجى الصغير بمثل هـــذا التفانى . أليس ممن يعيشون فى بيتى ؟ من واجبه على أى حال أن يسهر على حماية أفراد أسرتى ، أليس كذلك ؟ وإذن ... لمـاذا أقلق بالا وأفـكر فى أمره وأرهق ذهنى فيما يجب أو فيما لا يجب أن أفعله حياله . حسناً ، لننس كل هذا .

إن « مامبيكيه » — بطلنا الصغير — فى الثانية عشرة من عمره ، وهو ابن « يوكا » طاهى وخادم الرجل الأبيض . إن « مامبيكيه » إذن ملك للرجل الأبيض ، شأنه فى هذا كشأن أبيه . كان إذن من ممتلـكات الرجل الأبيض ...

إلا أن نـكران الذات على هذه الصورة قد أدهش مع ذلك الرجل الأبيض — فقد أنقذ « سولانج » من فـكى التمساح دون أدنى خوف . لقد أنقذ « سولانج » ابنته ، ابنته الحبيبة ، هذا المعبود الذى يضحى من أجله بعرقه ودمه ، حتى يضمن لها مستقبلا كمستقبل الملـكات .

ولـكن ما معنى كل هذا ؟ أيوجد إذن قلب وقدر من المشاعر الإنسانية لدى هذا الزنجى الصغير ؟

وعلى أية حال ، فإن هذا الأمر شديد التعقيد ، وسوف يقتضى من الرجل أن يفكر فيه طويلا ، وكان مقتنعاً بالعكس .

أما المرأة البيضاء — وقد هدأت نفساً واطمأنت الآن على مصير ابنتها — فقد لحقت بزوجها فى حجرة الاستقبال لتسأله عن اسم منقذ « سولانج » . كان محياها الجميل يعبر عن مدى اعترافها بالجميل ، ووعدت بأن تكافئ منقذ ابنتها من مياه نهر الكونغو ، بأى شئ يطلبه مهما غلا ثمنه . كانت المرأة تجهل كل شئ عن الخطر الآخر الذى كان يتهدد طفلتها ، وكان هذا الخطر الذى أنقذت منه الفتاة ، أشد هولا ، وأعنى به أسنان التمساح المفترس .

وصاح الرجل قائلا — ولم يكن قد عفا بعد عن إهمال زوجته فى مراقبة ابنتهما :

— انتظرى لحظة ياعزيزتى . بودى أن أعرف أولا كيف أمكن أن يقع كل هذا . إنك تعرفين جيداً أننا فى عز موسم الفيضان ، وها أنت تسمحين لنفسك بترك الفتاة دون رقابة تخرج بمفردها . إن عملك هذا يا «مارى روز» لا يمكن العفو عنه .

— ولكنى يا «روش» أتساءل أنا نفسى ، متى تركتنى «سولانج» ؟ لقد هربت منى ونحن فى حظيرة الدواجن . كنت منهمكة فى إطعام الحمام ، ثم تبينت فجأة أن « سولانج » لم تعد بجانبى ، إنها اختفت . ولعلك تعرف أن ابنتك قد دأبت على الجرى وراء الزنجى الصغير اللعين ، وإننا نجد عناء فى إبعادها عنه . لاتتهمنى إذن بالإهمال . أرجوك ألا تتهمنى بهذا وابنتك « سولانج » على ماهى عليه قد دأبت على عصيان الأوامر .

وأجابها الرجل الأبيض بلهجة غاضبة بقوله :

— حسناً . إن هذا الزنجى الصغير اللعين هو بالذات الذى أنقذ ابنتك . كنت أفكر فى هذا الأمر عندما جئت تقطعين على حبل أفكارى وتأملاتى . لم يكن على هذا الغلام المسمى « مامبيكيه » على أى حال أن يدين لنا بالاعتراف بالجميل ، فلطالما أسأنا معاملته . وهاهو مع ذلك قد أدى لنا منذ قليل أجل خدمة يمكن أن تؤدى لوالدين ، فلولاه ، ولولا شجاعته ، لما كانت لنا ابنة فى هذه اللحظة فسولانج ، فضلا عن أنها كانت على شفا الغرق ، كان هناك تمساح يوشك أن يلتهمها . وهذا أمر كنت تجهلينه يا « مارى روز » . ولست أدرى ماذا عساى أن أفعل لهذا اللعين .

أوه ! يالسخرية القدر ! ها أنا « موراكس » أجد نفسى مديناً لهذا الزنجى الصغير ، والتفكير فى هذا الأمر يفقدنى صوابى ... ماالعمل ، ماالعمل ؟

— ولكن ياعزيزى « روش » إن الأمر واضح ولا يقتضى منك تساؤلا ، عليك أن تسرع فى استدعاء هذا الولد الشجاع لـ ...

وقاطعها زوجها قائلا :

— صه ، صه . هيا الحقى بابنتك بسرعة واعنى بها . إن هذا الأمر يعنينى أنا وحدى ولا أحد سواى ، ولست فى حاجة إلى نصحك لأعرف واجبى ... اهتمى أنت بما يعنيك .

— يا أماه ... يا أماه ... هل « مامبيكيه » هنا ؟ أوه ، كم هو طيب وشجاع ! كنت فى غاية الفزع بين الأمواج ولا سيما عندما رأيت التمساح الشرير ، ولكنى عندما أبصرت « مامبيكيه » وهو يصارع الأمواج حتى يسبق الوحش الكبير ، شعرت بأنى لم أعد أخشى شيئاً ، فأنا أعرف كم هو شجاع وقوى ، وكم هو سريع الحركة ماهر فى السباحة . وأخف فى حركته من السمكة . نعم ياأبى ، نعم ياأماه ، إن « مامبيكيه » فى غاية الشجاعة ، وهو شديد الإخلاص ، كما هو ذكى جداً .

كانت الفتاة قد سمعت من غرفتها حديث والديها ، فنهضت مسرعة من فراشها لتلقى على مسامعهما هذا المديح الحار الذى استمعنا إليه منذ قليل ، ولتدافع عن صديقها ومنقذها ومدربها على الألعاب الرياضية .

أما والداها — ولم تكن بهما حاجة إلى الإصغاء إلى دفاعها — فقد حاولا إرغامها على العودة إلى فراشها ، وإن لم يمنعها هذا على أى حال من الاسترسال فى شهادتها الحارة ، إذ أردفت قائلة ، وهى عائدة إلى حجرتها : إن التيار جرفها وهى تطارد البط الهارب من حظيرة الدواجن ، وأنها قد تعلمت من الدروس التى لقنها إياها « مامبيكيه » أن على المرء ألا يحاول مصارعة الأمواج عندما تكون ثائرة ، وأن الأفضل له أن يستسلم لنزواتها مع محاولة البقاء على السطح ، أو الغطس تحتها إذا ما عادت فى ثورتها . ولما كانت تجيد السباحة بفضل دروس « مامبيكيه » العملية التى تلقتها فى الخفاء ، فقد كانت تأمل فى أن تخرج من المأزق من تلقاء نفسها وأن

تتجنب الغرق ، إما بتشبثها بحزمة من الأعشاب تكون طافية على السطح فتدفعها الأمواج إلى الشاطئ أو بالاستغاثة بأبويها وكانت تعرف أنهما سوف يقفان الدنيا ويقعدانها حتى يخرجاها من مأزقها . وأضافت الفتاة أنها لم تخف حقيقة إلا عند ظهور الوحش الفترس وكان يتأهب لالتهامها .

وطلب الرجل الأبيض من «بوكا» أن يحضر ابنه ، وكان الصبي فى تلك اللحظة واقفاً ينصت تحت الشرفة — والألم يعتصر قلبه — إلى عبارات التأنيب القاسية الظالمة التى يوجهها هذا الرجل الأبيض إلى أبيه الذى استولى عليه الفزع ، قائلا له إنه جبان لا يصلح لشيء وإن ابنه أكثر منه شجاعة . وسأله كيف سمح لنفسه أن يسبقه طفل ، هذا الطفل الذى لم يتردد بغية إنقاذ ابنة أسياده ، فى أن يلقى بنفسه فى الماء غير مبال بالوحش الذى كشر عن أنيابه المفترسة ، بينما هو ، أبوه — وهو أبله كبير تمنح له هبات سخية نظير خدماته — أخذ يتصرف بغباء ويرتعد من الفزع لتلك النغزات الرقيقة التى تصيبه من سوط سيده . وأضاف الرجل الأبيض قائلا إنه حقا لا يمكن أن ينتظر المرء أى خير من الزنوج ، فهم لا يفلحون إلا فى شيء واحد وهو نهب أسيادهم .

وأردف الرجل الأبيض موجهاً حديثه للغلام ، إذ لمحه ، بعد أن صب جام غضبه ولعناته على رأس طاهيه المسكين :

— تعال هنا يا «مامبيكيه». من طلب منك أن تلقى بنفسك فى الماء لتمسك بابنة سيدك الأبيض ؟ هل كان فى نيتك أن تنقل إليها جربك ، أم كنت تأمل فى الحصول على هبة منى نظير تباهيك بشجاعتك ؟ خذ ، أيها الزنجى الصغير ، هاك ثلاث قطع من السكر وقطعة من قماش قطنى « بقشيشاً » لك . والآن يا «مامبيكيه» أصغ إلى وكن واعياً جيداً إلى ما سأقوله لك : إذا ما رأيتك مرة تتلصص بالقرب من بيتى فسوف ألقى بك للنمور لتلتهمك أو أقتلك بغدارتى . هل فهمت أيها القرد الصغير ؟

وأجاب الصبى متلعثماً وقد أدهشه هذا الاستقبال بعد ما قام به :

— نعم ، لقد فهمت يا سيدى الأبيض .

وهرب الطفل وجرى ليتجنب ضربات هذا الرجل الغليظ القلب .

أما القرية فقد كانت فى عيد كبير ، لقد أحاط الفتيان والفتيات بالبطل الصغير وأخذوا يهنئونه ، وكانوا يلتفون حول جثة التمساح التى قطعت إربا وألقيت على مقربة من كوخ زعيم القبيلة . ولكن «مامبيكيه» — لشدة حنقه واشمئزازه — ألقى عند قدمى شيخ القبيلة بقطع السكر الثلاث وبقطعة القماش إذ عز على الطفل الأبى أن يحتفظ بتلك الأشياء التى لمسها الرجل الأبيض وقد أضحى يعتبره أحقر المخلوقات قاطبة .

كيف ؟ أبعد أن خاطر بحياته لينقذ ابنته ، يستقبله بالسب والتهديد ، ويلقى إليه — وكأنه كلب — بثلاث قطع من السكر ! إن «مامبيكيه» ليثور عندما يفكر فى هذا الاستقبال الذى أعده له والد «سولانج». لقد شعر سليل الـ «ليكوبا»[1] وحفيد زعيم القبيلة وأحد أفراد سيد البلد الشرعى أن كبرياءه قد جرحت جرحاً عميقاً ، وقال محدثاً نفسه :

— حسناً . لو أن البيض كانوا جميعاً على شاكلة هذا الإنسان الكريه فلا بد أن حياتهم فى بلادهم شىء لا يحسدون عليه .

وراح «مامبيكيه» يجلس بأحد القوارب بعيداً عن جموع الصغار ليجتر حقده وعيناه تحدقان فى النهر الكبير الذى انتزع منه فريسته لتوه .

وناداه أحد أعمامه وأشار إلى نصيب أبيه «يوكا» من لحم التمساح ، وكان أبوه ما يزال مشغولا عند الرجل الأبيض ، هذا السيد الشرير الدائم الشجار . كان هذا النصيب هو ذيل التمساح ، وهو أكثر أجزاء الحيوان شحما ولحماً ، وكانوا يقدمونه إليه تحية لشجاعته ومهارته ، إذ يرجع إليه الفضل فى القضاء على الوحش الضخم . كان ذيل التمساح الضخم ثقيلا ... ولما كان «مامبيكيه» لا يزال صغيراً ولا يقوى على حمله ، فقد اضطر إلى أن يستدعى أمه وشقيقته الصغرى لتساعداه على نقله إلى كوخهم .

وأخذت القرية بأكملها تتحدث بفخر عن شجاعة «مامبيكيه» الصغير ، الذى جازف بحياته لينقذ حياة ابنة الرجل الأبيض ، ولم تنس القرية أن تشيد بما قام به أبوه «يوكا» ... الذى قتل العدو المفترس .

* * *

---

(١) اسم قبيلة .

يبلغ « روش موراكس » السادسة والأربعين من عمره ، وهو طويل القامة ، جاف العود ، فارع كحد السيف ، له عينان خضراوان تقتربان من أعلى رأسه ، وشفتان غليظتان تقطعهما أخاديد حفرها الجذام ، وأنف مقوس كمنقار الغراب . وكان عصبي المزاج وينضح هذا على بشرته الخشنة الصفراء ، وإنك لتشعر عند لقائه بأنه منفر وخطر ، بل إنك تنفر منه على بعد .

لقد استقر به المقام بـ «موسكا» منذ عشرين عاماً ونيف ، ازدهرت فيها أعماله بسرعة ، إذ أتاح له الاتجار بالعاج والمطاط والجوز وزيت النخيل وما يحصل عليه من صيد الوحوش والأسماك ، أن يتمتع بمكانة يحسده عليها الكثيرون . أصبح من بعد الله ، سيد قرية «موساكا» الكبيرة التى أخضعها لسلطانه ، وهى قرية تقع على بعد ثمانية أيام بالزوارق ، من أقرب المراكز الإدارية بمدينة « دونجو » . وقد دأب الرجل على استغلال يد عاملة تقنع بالقليل يسترضيها بين الحين والحين بحفنة من الملح ، أو ببعض الأوانى النحاسية ، أو ببعض سكاكين مستوردة يعلوها الصدأ ، أو ببعض قطع من الفحم الفاسد ، أو بأقمشة قطنية من الصنف الردىء . لم يكن له مدير أعمال ، إذ لم يكن يثق فى أمانة سكان البلاد الأصليين . وكنت ترى فى مخزنه أكواماً مكدسة فى فوضى ضاربة أطنابها يصعب وصفها ، من لحوم الخنازير الوحشية القددة إلى لحوم فرس البحر والجاموس ، إلى سمك مملح عفن يختلط بأكياس مفتوحة مليئة بالملح الأحمر . كنت ترى كل هـــذا ملقى بجانب خمور مستخرجة من القصب لاذعة المذاق ، وحبات الفاصوليا البيضاء والحمراء وقد نخرها السوس وبعض أغطية معدة للعبيد تتخللها الثقوب وثلاث أو أربع قطع من الأقمشة اسودت من كثرة الغبار المتراكم عليها ، وحبات من الزجاج الأبيض أو الأصفر أو الأخضر . .

لقد رأينا منذ قليل كيف لا يثق «روش موراكس» فى نزاهة السود ، ولـكن العجيب حقاً — وهنا تناقض غريب — هو أنه كان يستخدمهم فى جمع المطاط وجوز النخيل وكذلك فى استخراج الزيوت ، وفى صيد الفيلة الخطرة وفرس البحر ، والثور الوحشى ، والخنزير المفترس ، وثعبان «البواء» المنتشر فى المنطقة ، والفهـــد الذى يباع جلده بثمن مرتفع . أما النساء فـكان يستخدمهن فى صيـــد الأسماك و

وكنت تراهن كل يوم وهن عائدات إلى القرية محملات بسلال كبيرة ملأى بالسمك المملح معدة لتهريبها إلى الكونغو البلجيكي .

كان «موراكس» فيما مضى موظفاً بشركة C.F.H.B.C المتمتعة بامتياز استغلال مناطق الـ «ليكوالا — موساكا» والـ «آليما — ليفيني» . وقد طرد منها لتلاعبه بأموالها ولتهريبه الذهب والعاج خلسة عبر النهر إلى الضفة اليمنى . ولما كانت التهمة تفتقر إلى الأدلة الملموسة فقد حكمت محكمة «برازافيل» بإسقاط الدعوى وترحيل الرجل على نفقة الشركة .

ولما عاد إلى المستعمرة — بفضل توسط شخصيات تتمتع بنفوذ كبير ، ساعدته بطريقة خفية — استقر فيها (لحسابه الخاص فى هذه المدة) ليستثمر رأس مال يثير مصدره الشكوك والريبة كما يثير من حوله اللغط . ولكن هل يكترث أحد بهذه الأمور ، لاسيما إن كان الشخص المعنى تسانده قوى خفية ؟

كان الرجل قد تزوج فى فرنسا واصطحب معه زوجته «مارى روز» التى أنجبت له «سولانج» الصغيرة . كانت الفتاة رقيقة جميلة ، فقد ورثت عن أبيها طول القامة بينما ورثت عن أمها الشعر الأسود الفاحم ورقة الملامح ونبل الروح . إن الفتاة تبلغ الآن العاشرة من عمرها . وها هى ثلاثة أعوام قد مرت عليها ترددت خلالها على الإرسالية الكاثوليكية التى يشرف عليها القس المبجل «هوكس» ، وهو يعنى بتربيتها الدينية كما يشرف على تعليمها . وللارسالية الكاثوليكية مبنى أنيق شيد على الهضبة الوحيدة التى تقوم وسط الوادى الشاسع ، يتميز بصليب ضخم شامخ مطلى باللون الأحمر يعلو كنيسته الصغيرة المبنية بالطوب الأحمر والمغطاة بالقش والخيزران .

وقد بنيت بالقرب من غرفة ملابس القس حجرة تستعمل لتعليم التلميذة الوحيدة البيضاء فى المنطقة . أما صغار السود الذين اعتنقوا الدين المسيحى فكانوا يحضرون الدروس الدينية فى مخزن يقع عند مدخل المستعمرة ، وهو حجرة مظلمة غير صحية لا يتعدى أثاثها منضدة قديمة صنعت من فروع الخيزران المتشابكة ، وصليباً صغيراً من الحديد الصدىء يقبع فى آخر الحجرة ، وبعض الصور الدينية معروضة بطريقة لافتة للنظر ، تمثل بعض مشاهد كالجحيم والجنة يتوسطها رسم يرمز إلى الله على صورة رجل بلحية مهيبة ناصعة البياض ، ومشهداً يمثل خطيئة حواء ، وحية مخيفة تربض بجانبها ، يتدلى لسانها من فمها وتحاول إغراءها . وليس بهذه الحجرة

أية مقاعد ، فالتلاميذ يفترشون الأرض التي تتكاثر فيها الديدان وبويضات الـ «أنكلستوما» .

وفى موسم الأمطار ، وهو موسم الفيضانات التى تغمر الأراضى المزروعة ، يستحيل الوصول إلى الكنيسة إلا بالزوارق ، وأطفال المنطقة جميعاً بارعون فى قيادتها .

أما بالنسبة إلى ابنة الرجل الأبيض فكان المكلف باصطحابها بالزوق إلى الإرسالية الكاثوليكية ، فى هذا الموسم ، هو الطاهى ، وخادم عائلة « موراكس » الذى يقوم لديها بجميع الأعمال .

وقد لاحظت الفتاة الصغيرة ، مرات عديدة ، كيف كان « مامبيكيه » الصغير بارعاً فى التجديف عندما كان يتبع زورق أبيه . وقد طلبت ذات يوم من « يوكا » أن يسمح لها بالجلوس فى زوق الصبى الأسود الظريف ، فرضخ الطاهى لطلب سيدته الصغيرة — وكان يعتبر طلباتها أوامر — لاسيما أنه كان ، فى ذلك اليوم مرهقاً بالعمل عند سادته ، زد على ذلك أنه لم يستطع أن يرفض لها هذا الطلب وقد أفصحت عن رغبتها فى رقة بالغة . ومنذ ذلك اليوم — وقد لمست الفتاة مدى براعة الملاح الصغير فى توجيه زورقه — فضلت صحبته على صحبة أبيه « يوكا » . ولما كان الصبى فخوراً بجلوس الفتاة فى قاربه فقد بذل قصارى جهده ، وزادت براعته حتى يتمكن من أن يوصل حمله الثمين فى أمان وطمأنينة ، إلى وجهته . ولكن يبدو أن هذه اللامبالاة العجيبة فى ترك طفلين — لاسيا وأنهما من جنسين مختلفين — طفلة بيضاء ،أى من طبقة الأسياد، مع زنجى صغير ،وهو لايعدوأن يكون شيئاً حقيراً — كان يبدوأن ذلك ، يعتبر فى نظر القس المبجل « هوكس » جريمة بشعة . وقد رأى الرجل أن من واجبه أن يؤنب « سولانج» على عملها هذا أولا،وأن يعاقب«مابيكيه» بشدة ، ثم أن يحذر والدى الفتاة ويلفت نظرهما إلى تقصيرها وما فيه من جرم بل واعتداء على الجنس الآرى كله .

قال من يبشر بالإخاء بين البشر ، متمتماً فى أذن الفتاة :

— ياصغيرتى « سولانج » ، إنك غريبة الأطوار حقاً ، كيف تجرئين على مصاحبة زنجى صغير قذر فى زورقه ؟ ألاتخشين أن يقذف بك هذا المتوحش فى الماء؟

وسوف يسعده بعد ذلك أن يلتهم لحمك الرقيق اللين. ألا تخشين أن يلوثك بقمله ؟ إنى عاجز عن فهم معنى تصرفك هذا يا ابنتى ، عاجز حقاً . هل نسيت أنك من الجنس الأبيض ، أنك من طبقة الأسياد بالنسبة إلى الزنوج جميعاً ، مهما علا شأنهم ؟ يجب أن تعرفى كيف تحافظين على هيبتك حيالهم ، ألا تعرفين هذا بحق الشيطان ؟

وحاولت « سولانج » البريئة أن تحتج على هذا الكلام بقولها :

— ولكن يا أبتاه ، إن « ماميكيه » ولد ماهر جداً فى التجديف ، بل هو أمهر من جميع من يعملون بالوكالة ، وهو فوق ذلك مهذب ، لا غبار على تصرفاته ، كما هو مطيع ولم يقل لى أبداً أى شئ يغضبنى بل هو يفضل أن تقطع يده على أن يرانى أتألم ، وأنا أشعر بتسلية كبيرة عند ما أصحبه فى زورقه .

وأجابها الأب الطيب متهكماً :

— آه . نعم ! إنك تلهين كثيراً فى رفقته ، وأنت سعيدة بوجودك تحت مخالب فهد لا يبغى إلا التهامك . حسناً أيتها الفتاة المستهترة . أما أنا ، وقد عهد إلى بتربيتك والإشراف على خلقك ، فلا أريد أن أكون مسئولا معك عن عدم مبالاتك ، ولست أريد أن أشعر بتأنيب الضمير إذا ما أصابك أى شر . أنا أمنعك ، هل تسمعين ؟ إنى أمنعك من الاقتراب من هذا الزنجى الصغير منذ هذه اللحظة وعلى أى حال ، سوف أصحبك هذا المساء بنفسى وسوف أخبر والديك بتصرفك هذا المخزى .

لم تفهم الفتاة معنى كلماته . لم يكن فى مقدورها أن تدرك إمكان أن يكون فى وجودها مع ولد أسود صغير فى زورق واحد جريمة ما ، لاسيما وأن « مايكيه » الذى عنها رائدها الروحى من لقائه ، كان رقيقاً وسيماً ونظيفاً . ألم يقل لها هذا الرائد نفسه ، مع ذلك ، إن الناس جميعاً سواسية أمام الله ؟ حقاً إنها عاجزة عن فهم ما يقصده بهذا الكلام .

لقد عاقبها والداها عقاباً صارماً بعد أن أخبرهما الأب « هوكس » بما أقدمت عليه ابنتهما المستهترة . أما « يوكا » ، وهو المسئول ليس فقط عن عدم أداء واجباته ، وإنما أيضا عن تعريضه ابنة الرجل الأبيض لخطر داهم (؟) فقد طلب إليه فى اليوم التالى أن يحنى ظهره ليتلقى ضربات سوط « روش موراكس » الغاضب .

ولما كانت الفتاة مفطورة على حب الاستطلاع — شأنها فى هذا كشأن بنات حواء جميعاً — فقد أرادت أن تعرف حقيقة تلك الدروس التى تلقى بالمجان على مسامع رفاقها الصغار من السود ، وأن تتعرف على مدى ما لهذه التعاليم من فائدة . ولذا انتهزت فرصة تغيب الأب « هوكس »عن حجرة الدراسة الأنيقة المعدة لها — وكان قد تركها ليشرف ، كما يقتضيه منه واجبه ، على مايلقنه مدرس الدين لتلاميذه من تعاليم — وهربت من فصلها المعزول إلى حيث كان الراعى يستبيح لنفسه أن يقوم بتلك المهمة الموكولة إليه بطريقته الخاصة ، وهى طريقة لها أسرارها الخاصة فى رأى الأب المبجل « هوكس ». وكان الشرح يتناول كيف أن حمل العذراء القدس قد تم بدون دنس . وكان يلقى هذا الدرس على مسامع صغار يتشككون فى حقيقة مايسمعونه ويتسمون فى سخرية . واختبأت الفتاة وراء شجرة من أشجار الموز لتنصت إلى مايقال داخل هذا المخزن الذى يفتقر إلى وسائل الراحة . أوه ، ياللعجب ! ... أن كل ما يقال هنا مناف للحقيقة ،ويتنافى بشكل صارخ مع كل التعاليم التى يلقنونها إياها بالفرنسية ، بل ويقال بلغة مجردة من اللهجة المحلية — وكانت « سولانج » تتقنها كل الإتقان — وفجعت الفتاة فقد تبينت أنه ، باستثناء الصلوات التى ترجمت إلى لغة الـ « ليكوبا »،لم يكن هناك أى وجه شبه بين التعاليم الدينية التى يلقنونها إياها وتلك التى يصبونها فى آذان السود الصغار . وتساءلت الفتاة فى تعجب عن كنه هذا السر : هل هناك إذن إله أبيض وآخر أسود ؟ هل هناك وحى سماوى نزل للرجل الأبيض وآخر للرجل الأسود ؟ ووقف الملاك الحارس فى مكانه حائراً وقلبه يشعر أن إيمانه قد بدأ يتزعزع . إن ما رأته الفتاة وسمعته قد بدأ يهز مشاعرها هزاً عنيفاً . هناك إذن تعاليم مختلفة لكل جنس من الأجناس . فهاهم أطفال قد شحب لونهم واستولى الخوف على قلوبهم وعقدت ألسنتهم عندتصورهم جهنم وعذابها الأليم الأبدى، حيث ينتظرهم انتقام وهيب من لدن إله لا يلين ، وهم يجلسون على الأرض المبللة عراة كالدود وأسرعت الفتاة إلى حجرة الدرس قبل أن يعود الأب «هوكس». إن الإشفاق يملأ قلبها على هؤلاء الصغار الذين يصدقون كل مايقال لهم ويؤمنون به كل الإيمان، ولذا أصرت على أن تقابل «ماميكيه» فهو على الأقل أكثر فطنة من هؤلاء الأطفال،وكانت تسميه سراً — منذ وقع حادث الزورق — بصديقها. أصرت على لقائه حتى تهون عليه وتشجعه وتقول له بعض كلمات رقيقة ، من تلك التى تسعد القلوب التعسة ومن قست عليهم الحياة .

ياللقلب الصغير الكريم ! سوف تضطر إلى أن تنتظر مجيء الربيع وسنوح فرصة أفضل حتى تحقق ما انتواه قلبها الطيب ، إذ كانت فى الحقيقة تخضع لرقابة مشددة فى تلك الأثناء ، فكان يصحبها إلى المدرسة عملاق — وهو مسيحى شديد الإيمان يدين بولاء أعمى للمبشر الذى أعار أسرة « موراكس » إياه ليقوم بدور كلب الحراسة . لم يكن فى مقدورها إذن أن تقترب من صديقها ، وكان من جانبه يبذل جهده حتى يتجنب لقاءها . وتساءلت الفتاة « متى ياترى تسنح لى فرصة أجفف فيها دمع من انتويت حمايته ؟ » وكان الحزن قد استولى عليها وأخلدت إلى الصمت .

وذات يوم خرجت ابنة الرجل الأبيض من الوكالة مبكرة . كان الطقس رائعاً فالسماء صافية تطل على مناظر خلابة كساها لون أوراق الخريف الذابلة ، والشمس ضاحكة تلقى أشعتها المنعشة على الكون ، شمس إفريقيا التى تدعو زنزان الحصاد إلى إطلاق صفيرها الشادى . كان سهل « موساكا » مكسواً بغطاء بهيج من الورود الباسمة كما كانت خضرة السهل وعبيرها يغريان التزلان بالانطلاق من مخابئها ، كما هربت مياه النهر عند مقدم الفصل البهيج . أما أسراب السمان فكانت تشق الهواء فى قفزات ماهرة جريئة ، والبط يطارد بعضه البعض فى مناجاة العشاق على صفحات المستنقعات الصغيرة المتخلفة عن الفيضان . وكان اليمام وأبو قردان والطائر الطنان والعقعق والطائر الغطاس ، كانت تلك الطيور جميعاً تطلق صرخاتها الحادة فى غضون الفضاء اللانهائى الذى ترفرف عليه جيوش من الفراشات ذات ألوان لاحصر لها ، وكان يبدو أنها تتآخى مع البجع وطائر أبى سعن الشاكى وهى تتهادى وتتراقص على رمال فضية اللون . كنت ترى ، عن بعد ، دخاناً أسود يتصاعد إلى السماء من أكوام الأعشاب التى يحرقونها ليزرعوا مكانها بعض النباتات الغذائية أو بغرض صيد بعض الحيوانات الصغيرة .

هاهى الفتاة حاملة حقيبتها المدرسية على ظهرها ، تختبئ وراء ساق شجرة ضخمة من أشجار البلوط صرعتها الصاعقة حديثاً . كانت تنتظر « مامبيكيه » لتكلمه .

وفجأة أخذت تصيح : تعال ! تعال ! تعال من هنا يا « مامبيكيه » ...

وقد أزعج ابن الطاهى أن يلقى فى طريقه ابنة الرجل الأبيض ، تلك التى أهين أبوه بسببها ، والتى عوقب هو نفسه مرات عديدة لمخالطته إياها . واستمرت الفتاة

تنادى : « ماميكيه » ، غير مبالية بفزع الصبي . وأخيراً قالت له : كنت أريد أن أراك يا « ماميكيه » ، فعندى شيء هام أريد أن أحدثك فيه . ها نحن مبكرون جداً عن ميعاد الدرس ، وأمامنا فسحة من الوقت نتجاذب فيها أطراف الحديث . هل تعرف أنى أميل إليك كثيراً ؟ ولكن لنترك الحديث فى هذا الآن ، سوف نتحدث فيه فى فرصة أخرى . أما الآن فهاك ما أريد أن أطلعك عليه : إن الأب « هوكس » ووالدى — ووالدى بصفة خاصة — لايريدان أن أحادثك ، ولست أدرى سبباً لهذا . هل يمكنك أنت أن تشرح لى هذا الأمر ؟ يبدو أنك شرير ، وأن هناك احتمالا بأن تسبب لى أذى وأن تنقل إلى جربك وطائفة أخرى من الأمراض . ولكن ها أنا أنظر اليك من قرب وأرى لحسن الحظ أن ليس بك شيء من كل هذا ، فأنت جميل ، نظيف ، مهذب ، ونظرتك صريحة، كما أن النفس ترتاح إليك . وإذن ... إذن ... ما السبب ؟ ثم قل لى : لماذا يفضل الأب « هوكس » أن يلقى عليكم دروسه بلغة الـ « ليكوبا » بينما من الخير للجميع أن يلقيها باللغة الفرنسية ؟ وهناك شيء آخر : لماذا لاتنضم إلى مع بقية رفاقك فى حجرة الدرس الجميلة التى أشعر فيها بالوحدة والملل ؟ لماذا يحدث كل هذا ؟

وأجابها « ماميكيه » ، وقد ارتسم على محياه القلق فأخذ يدير بصره فى كل اتجاه ليتأكد من أن أحداً لايراه : — أوه ! يا ابنة الرجل الأبيض كيف تجرئين، بعد كل ما حدث ، على محادثتى ، وأنت تعلمين أن هذا أمر محرم علينا ؟ ألا تعرفين إذن أن عصيان أوامر الأب « هوكس » خطيئة كبرى ؟ هل تجهلين أنك بعصيانك هذا إنما تعرضين نفسك للتهلكة فى سعير نار جهنم حيث يعذبك الشيطان أيما عذاب إذا لم تطيعى والديك؟ هل تجهلين إذن السبب الذى يمنعوننا من أجله من أن نلتقى ؟ السبب بسيط مع ذلك ، وسوف أشرحه لك فى كلمات قليلة . هاك : إنك ابنة رجل أبيض ، أنت إذن من السادة بالنسبة إلى ، فلست إلا أسود صغيراً . ومكانك ليس بجانب زنجى صغير ، وإذا ما لمحوك وأنت تحادثيننى ألحقوا الأذى بأبى المسكين ، بل ربما عاقبوك أنت نفسك . أما أنا فسوف يضربوننى دون مارحمة . ولست أدرى بدورى ما يمكن أن يكون فى محادثتنا ولقائنا من سوء ، إلا أن عليك أولا إطاعة والديك فهما ولا شك أدرى بحقيقة هذا الخطر ، فالكبار يعرفون كل شيء . أما عنى فعلى أن أجنب والدى التعرض لتعذيب أبيك وهو دائب القسوة عليه . لاتحاولى إذن لقائى ولا محادثتى يا ابنة الرجل الأبيض .

وسألته « سولانج » فى إصرار وعناد : ولكن لماذا ؟ لماذا ؟ ولم تتركه يرحل إلا بعد أن أفهمته كم هى مشفقة على أبيه وكم تتألم لما يصيبه من أذى ولما يصيبه هو نفسه ، وبعد أن أكدت له استعدادها لتعويضه عما يناله على يد أبيها ، بالصداقة التى تعرضها عليه عن طيب خاطر . ووجهت اليه بعد ذلك أسئلة كثيرة . واستطاع أخيراً أن يتهرب منها — على مضض — بعد أن وعدته بأشياء كثيرة ليس فى استطاعتها طبعاً أن تفى بها : وعدته بأن تعلمه القراءة والكتابة ، وكيف يتكلم الفرنسية ، وبأن تصبح خليلته الخ ... الخ ... واختتمت حديثها بقولها إنها لاترى سبباً يمكن أن يمنع « ماميكيه » من تعلم لغتها ، مادامت هى تتكلم لغة بلده وتتقنها تماماً .

يا للقلب البرىء الصغير ! أنى لها أن تعرف أية هوة سحيقة تفصل بينها وبينه وأن ود فتاة من جنسها إزاء فتى فى مثل لونه شىء غير مقبول ! لو أنها عرفت لما تمادت فى هذا الطريق كما فعلت منذ قليل . ولكن هل يمكن أن يتبين أحد حقيقة ما يحدث فى قلوب بنات حواء ؟ ربما كانت قد اهتدت إلى حيلة تمكنها من تحقيق غرضها . ولكن ... مهما كان الأمر ... مهما كان ... فإن « ماميكيه » لايعدو أن يكون زنجياً صغيراً قذراً على أى حال .

وبالرغم من مخاوف الصبى ، وهى مخاوف لها ما يبررها ، وبالرغم من الصعاب المتناهية التى صادفتها « سولاج » ومن تجسس الأب « هوكس » وشكوك والدى الفتاة ... بالرغم من كل هذا استطاع الطفلان أن يلتقيا أكثر من مرة . لقد نجحت « سولانج » فى تحقيق غرضها بفضل مهارة وذكاء ودهاء لا يمكن أن يتوقع المرء وجودها لدى فتاة فى مثل سنها . لقد نجحت نجاحاً باهرا فى التخلص من رقابة أبيها الطاغية ، وتمكنت من لقاء صديقها ، إذ ادعت أنها تأخرت فى الدير بسبب واجب كان عليها أن تؤديه ووجدت عناء فى إنجازه ، ومن أجل حفظ ومراجعة قطعة من المحفوظات كانت قد قرأتها قراءة عاجلة ، وإعادة كتابة صفحة فى تحسين الخط كانت قد أساءت نسخها . تذرعت الفتاة بتلك الأسباب لتبرر تأخرها فى العودة إلى الوكالة . وقد أمن الأب « هوكس » على أقوال الفتاة عندما سأله والدها عن صحة هذه الادعاءات ، وكان القس البرىء يجهل كل شىء عن تصرفات الفتاة الخفية ، كما كان يجهل أن « سولانج » بادعائها هذا الإهمال وهذا التقصير فى عمل واجباتها المدرسية إنما كانت

تستغل طيبته ، إذ كانت فى حقيقة الأمر تقابل « ماميكيه » — فى تلك الأثناء — عند منحنى الطريق ، وكان يختبئ وراء شجرة من أشجار المانجو وينتظر مجيئها بفارغ الصبر .

دامت هذه اللعبة أكثر من ستة أشهر ، وقد تمكن الفتى بفضل ذكائه المتقد أن يتعلم الكتابة والقراءة والتكلم بالفرنسية دون ماعناء ، بل لقد وفق أيضاً فى أن يحفظ عن ظهر قلب بعض آيات عميقة المعنى من الإنجيل حتى أصبح قادراً على أن يحل محل شماس الإرسالية الذى أقعده المرض وألزمه الفراش بعد أن أصيب بالجدرى الذى انتشر فى المنطقة فى تلك الآونة .

وهنا ينبغى التنويه بما قامت به الفرقة الصحية للوقاية ، فقد وصلت إلى « موساكا » فى الوقت المناسب واستطاعت أن تحد من انتشار الوباء ، ثم نجحت فى السيطرة والقضاء عليه بعد أن عزلت المصابين وطعمت السكان بالمصل الواقى على نطاق واسع فى المنطقة .

وكانت « سولانج » فى هذه الأثناء قد تعلمت بدورها السباحة ، وأصبحت تسبح كالسمكة — على حد تعبيرها — كما صارت قادرة على توجيه وقيادة أكبر الزوارق ، وعلى جدل السلال والأطباق من فروع الأشجار وأعواد الخيزران وألياف أشجار الأناناس ، فهى حقاً لم تضيع وقتها سدى فى صحبة الأطفال السود الذين أمكن لـ « ماميكيه » أن يكسب مودتهم وأن يأتمنهم على سره . لقد رحب الأطفال بابنة الرجل الأبيض وعاملوها كأخت لهم - بل إن « سولانج » قد أجادت عملية صيد الأسماك بالسلال التى يستعملها النساء بالمنطقة ، والتى تقوم على رص سلال طويلة على شط النهر أو الترعة ودفعها أمامهن وهن يتجهن شطر الأغصان وأوراق البردى واللوتس ، وهى ملاذ الأسماك عند هروبها من مقدم الدخيلات الصاخب . وغريزة الأسماك توحى إليها دائماً باللجوء إلى الماء والهروب إلى أعماقه لتلوذ بها خوفاً من الأخطار . وتقع تلك الأسماك أثناء هروبها بالرغم منها ونتيجة لتلك المناورة التى أشرنا إليها ، فى السلال المتلاصقة فى خط طويل .

لقد شاهدت ابنة الرجل الابيض أيضاً صيد الأسماك بالشباك ، بهذه الشباك الطويلة ذات العقد الضيقة المتلاصقة ، التى تجمع بطريقة بسيطة ، ويلقى بها فى النهر بعد أن تسند جوانبها إلى أحد الزوارق .

إن هذا اللون من الصيد يتم عادة فى الليل ، والسمكة التى تسعى إلى رزقها تقع فى شرك تلك الشباك القوية ... أما النسوة الصائدات فليس عليهن، عندما يرين تحركات فريساتهن ، إلا سحب تلك الشباك إلى ظهر مركب والتقاط الأسماك .

إلا أن طريقة الصيد التى أعجبت ابنة الرجل الأبيض أكثر من غيرها هى تلك المسماة بـ « صيد السدود » . لقد اشتركت فيها مع الصيادين وهى تلهى كالمجنونة فى سعادة لاتوصف .

إن ممارسة هذا اللون من الصيد إنما تتطلب إسهام عدد كبير من النساء ، فبعد أن يعين فى البحيرة أو فى مجرى الماء الجزء الذى يردن تجفيفه ، يشرعن فى تكديس المواد الضرورية لإقامة السد وهى جذوع أشجار وألياف وأوراق وأغصان من البردى — لإقامة الهيكل الذى يرد منه بعد ذلك بالطين والصلصال وكتل من الوحل يأخذنها من هنا ومن هناك . ويمكن أن يقام السد على مسافات متفاوتة ، وكثيراً ماتكون شاسعة . وبعد أن يتم بناؤه، وبعد أن يشطر مجرى الماء إلى شطرين، تشرع النساء وهن عاريات الجذع — وقد يبلغ عددهن ثلاثين أو ستين بل ومائة تبعاً للمساحة التى يخترنها للعمل — فى تفريغ الماء من المساحة المحددة فى أوان صغيرة معدنية أو خشبية مستطيلة أو فى قشرة غليظة من قشور الأشجار مستطيلة الشكل لها رائحة خاصة . وإنهن يغمسن تلك الأوانى أو تلك القشور فى الماء فى حركات جماعية متناسقة يصحبنها بأغان وصيحات منغمة ، ثم ينهضن وهن ممسكات بآنيتهن المليئة بالماء ، ويلقين به من فوق السد فى الناحية الأخرى من المجرى . كم هو جميل منظر تلك الأجسام الشابة المرنة التى لفحتها الشمس وكستها بلون برونزى، أجساد هاتيك النساء العاريات إلى وسطهن وتلك الفتيات اللاتى يتضاحكن ويحمسن بعضهن البعض بالحركة والكلمة ، وهن يؤدين هذه الحركات الجماعية حتى يجف المستنقع أو مجرى الماء تماماً !

لايبقى أمامهن بعد ذلك إلا التقاط الأسماك التى تتخبط بين الأوحال فى العراء . وقد يحتاج الأمر إلى سدود ثانوية عندما تكون المساحة المراد تجفيفها طويلة. وهن يخترن فى تلك الحالة اثنتين أو ثلاثاً من بين الأمهات يكن خفيفات الحركة قويات البنيان ، ليبقين بالقرب من السد الرئيسى ، ويوكلن إليهن تحذير بقية الصائدات

إذا ما انهار السد فجأة ، وذلك بالصياح الذى تصل أصداؤه إليهن جميعاً .

لقد تمكنت ابنة الرجل الأبيض من ممارسة هـذه الأشياء بيسر بفضل تغيب « روش موراكس » المتكرر عن الوكالة ، فكثيراً ما كان الصيد يحتجزه بعيداً عنها وكذا إشرافه على النساء اللائى يكلفهن صيد الأسماك ، أو بسبب وجوده فى صحبة الأب « هوكس » لاحتساء بعض شراب الـ « برنو » .

ولنتكلم الآن عن براعة تلميذ « سولانج » الذى أخذت تلقنه دروسها سراً .. لقد أصبح فى إمكان « مامبيكيه » كما ذكرنا من قبل ، أن يتكلم الفرنسية ويكتبها ويقرأها بيسر وطلاقة. وتعلم منها أيضاً الغناء، وهو يقضى معها أوقاتاً جميلة ويصاحبها فى الغناء وفى ترديد بعض ماتشدوه من أغانيها المفضلة .

لقد اضطر الأب « هوكس » — بمناسبة عيد الفطر — إلى أن يستفيد بما تعلمه « مامبيكيه » الذى أسرع — عندما مرض « لوبوكو » — ليحل محله . لقد عرض الفتى خدماته هذه على القس فى لغة فرنسية مقبولة قائلا بلهجة مهذبة — كما يقتضى مجال الحديث بين طفل أسود ورجل كالأب « هوكس » .

— يا أبتاه ، أعرف أن الأخ « لوبوكو » مريض ولم يعد هناك أحد يمكنه أن يساعدك على القيام بمراسيم القداس . وإذا سمحت فإننى يمكننى أن أحاول لكى أحل محل صديقى .

وسأله الأب « هوكس » الطيب بدهشة — وهو لم يحاول أبداً ، كما نعلم ، أن يجعل من اللغة الفرنسية لغة ثانية لدى قوم الـ « ليكوبا » .

— أأنت ... يا « مامبيكيه » الذى يطلب أن يخدم بالقداس ؟ ولكن بهذه المناسبة ، أخبرنى : أين تعلمت الكلام بالفرنسية بمثل هذه الجودة ؟

وقد فضل « مامبيكيه » أن يكذب على الأب « هوكس » حتى يجنب مدرسته المتطوعة المتاعب ، ورد بقوله :

— إنه أبى هو الذى علمنى التحدث بالفرنسية فقد عمل مدة طويلة فى « برازافيل » أما عن الخدمة بالقداس فيمكننى أن أؤديها فقد أطلت النظر إلى مايفعله « لوبوكو »

وأصغيت إليه وحفظت ما كان يردده من كلمات ، وكلى ثقة الآن فى أننى قادر على أن أفعل مثله ، اللهم إلا إن كان الإنجيـــل أو تعاليم الله تحرم قيامى بمثل هذا العمل .

وأردف الأب « هوكس » قائلا — وهو كما نعرف لم يكن يتصور أن تكون لهؤلاء الإفريقيين القدرة على الاستيعاب ، الأمر الذى جعله يقرر ألا يلقنهم إلا بعض التعاليم البسيطه من الإنجيل : —

— إن هذا رائع ياولدى . هيا . حاول أن تتلو آية : « أنصفنى يارب » .
وصاح « مامبيكيه » قائلا : آه ! كنت أعتقد أن هذا الجزء من الأجزاء التى لا يسمح إلا للقس بإلقائها ، ولكن لابأس فى إمكانى أن أتلوها إذا أردت . هاهى : يقول القس :

« من مقاومى احمنى ، — نجنى من فاعلى الإثم ، ومن رجال الدماء خلصنى »[1]

فيجيبه الشماس قائلا : « لأنك أنت إله خصمى ، لماذا رفضتنى، لماذا أمشى حزيناً من مضايقة العدو ؟[2]

ولم يستطع المبشر أن يكتم إعجابه وأن يخفى دهشته البالغة وقال :

— يا إلهى ! ... يا إلهى ! إنها معجزة . والآن لنحاول أن ندفع بالمعجلة أبعد من ذلك . هل فى إمكانك أن تتلو على آية « ارحمنا يارب » ؟

وسرعان ما أجاب « مامبيكيه » دون تردد ودون أن يقع فى أى خطأ ! :

— « فليرحمك الرب وليغفر لك خطاياك وليقدك إلى حياة الأبدية » .

— هذا بديع . هذا بديع يا « مامبيكيه » . هيا يارجلى الصغير الغامض ، لنسرع الآن فى إنجـــاز ماهو أهم ، وسوف نحاول بعد القداس أن نفك رموز هذا اللغز .

وأجابه الشماس المرتجل الصغير بلهجة مشبعة بالإيمان :

---

(١) مزمور ٥٩ — الآية الأولى .

(٢) مزمور ٤٣ — آية ٢ .

— عفواً ، عفواً يا أبتاه ، إن الكتاب المقدس يمنعنا بشكل قاطع من أن نحاول فك رموز الألغاز .

وصرخ فيه القس كالكلب الغاضب وقد أثارته تلك الكلمات ، صرخ وهو يرتدى زى القداس :

— صه أيها الكافر الصغير . صه . ليس من حقك التحدث فى أمور لاتفهمها . إنك بقولك هذا إنما تثبت أنك مسيحى عاق .

— « سامحنى يا أبتاه . حسناً سوف أحاول منذ الآن أن أكون مسيحياً خيراً ، سوف أوجه كل عنايتى لهذا الأمر » . ومن يدرى ، فربما قال الأسود الصغير الماكر تلك الكلمات بشىء من السخرية .

لقد وقع الحادث الذى أشرنا إليه فى بداية هذه القصة بعد ثلاثة أيام من اكتشاف الأب « هوكس » معلومات « مامبيكيه » فى علم اللاهوت . لم يكن الأب « هوكس » فى تلك الأثناء قد تمكن بعد من إلقاء الضوء على لغز الصبى الأسود وكيف استطاع — وهذا ما كان يحيره — أن يتعلم بمفرده ، ليس فحسب الكتابة والقراءة ولكن أيضاً التحدث بالفرنسية — وكان هذا يشكل خطراً كبيراً على مجتمع « موساكا » كما يهدد مركز القس الأوربى ومكانته المرموقة . إلا أن الصدف أرادت أن تسبق الأحداث قبل أن يتمكن الرجل من أن يلقى الضوء على هذا السر ، وهى لعمرى صدف عجيبة حقاً .

تمكن كل من « روش موراكس » والأب « هوكس » ، بعد أن تسقطا الأخبار هنا وهناك وبعد أن فتشا سكن « يوكا » تفتيشاً دقيقاً ، من الاهتداء إلى سر « سولانج » ومن اكتشاف كتب تتضمن أسرار مراسيم القداس ، وأخرى للمطالعة وكمية من الأدوات المدرسية تحمل حرفى « س . م » مهداة من « سولانج » إلى الزنجى الصغير اللعين .

لقد استوجب هذا الاستهتار المهين من قبل الآثمة الصغيرة ، إرسالها إلى أحد الأديرة بمدينة « ليوبولدفيل » ، تلك المنطقة الجميلة التى اختيرت لتكون مكاناً لتقويم خلق المثاليين ممن ينادون بالتقاء أوروبا وإفريقيا . لقد اتخذ هذا القرار بدافع أحقاد سابقة كما اقتضى كذلك حبس « يوكا » فى « دونجو » بتهمة أنه والد هذا

الزنجى الصغير الجرىء ، وقد اتخذ هذا القرار بعد ثلاثة أيام فقط من إنقاذ هذا الزنجى الصغير ابنة « روش موراكس » بيسالة منقطعة النظير . أما عن « مامبيكيه » مرتكب هذا الإثم الذى يفوق التصور — أى معاشرة فتاة بيضاء — فقد بقى مختبئاً عند أحد أعمامه مدة ثلاثة أشهر ، واضطر إثرها إلى الفرار من « موساكا » — مسقط رأس أجداده — خوفاً من انتقام الرجل الآرى الذى جرحت كبرياؤه .

أدخلت « سولانج » دير الراهبات الـ « فرنسسكان » بليوبولد فيل . لقد رحلت من « موساكا » دون أن تجد فرصة للقاء صديقها ولتلقى إليه بكلمة تبثه فيها عرفانها بجميله . أما « مامبيكيه » الصغير فقد صحبه عمه ليقيم عند أحد أبناء عمومته بمدينة « برازفيل » .

كان « يوكا » فيما مضى حطاباً صحبه إلى مدينة « برازافيل » مندوب يعمل بالمستعمرة بـ « الخدمات المدنية » . وقد بقى الصبى بتلك المدينة عشر سنوات بعيداً عن « موساكا » وعن أهله . واحتضنه هناك أحد أبناء عمومته . وقد رأى بعد رحيل سيده إلى العاصمة ، أن يعمل خادماً فى المستعمرة أو صبياً يقوم بخدمات هنا وهناك نظير أجر ، ثم مساعد طاه بالنادى الأهلى، حيث تمكن من أن يحل محل الطاهى بعد أن طرد منه .

ولما كان « يوكا » ذكيا قوى البنية ، عريض المنكبين كأى مجدف متمرن ، وسيماً بسام المحيا ، فسرعان ما اكتسب رضاء سادته ورفاقه وتعلم أشياء كثيرة فى تلك المدينة الكبيرة .

إنه يتكلم الفرنسية ويعرف كيف يرتدى الزى الأوروبى ، كما يتقن إعداد المائدة ويبرع فى طهى ألوان الطعام المعقدة . كان يحسن تدبير أمره ، فاستطاع أن يهىء لنفسه مجموعة طيبة من الملابس ، ومن أن يدخر بعض المال .

إلا أن حنينه إلى مسقط رأسه الواقع على ضفة النهر الكبير ، وإلى شواطىء الـ « ليكوالا » الضاحكة ، ومستنقعاتها الملوثة بالبعوض والذباب — وإن كانت غنية بالأسماك — وإلى حلقات الرقص والغناء التى تقام فى المساء حول النار ، وكذا حنينه إلى جمال النساء بتلك المنطقة وهو جمال آخاذ لا تشوبه شائبة ، وإلى ألوان

السباق التقليدية بالقوارب المزينة بحبال من الزهور والتى يقودها نساء وأطفال القرية ... كل هذا جعله يفضل العودة إلى « موسا كا ». ولذا ترك العاصمة الصاخبة، على الرغم من توسلات أصدقائه وابن عمه «أومامبي». وهنا يجب أن نعترف بأن الإقامة بالمدينة الكبيرة قد أفادته إفادة عظيمة. إن «يوكا» الذى عاد إلى قريته كان قد أصبح رجلا آخر يحمل تلك الهالة التى ترتسم على جبين من عاشر الرجل الأبيض عن كثب والذى يتكلم لغته. لقد رأى بالمدينة السيارات والطائرات والقاطرات وورشاً تدور فيها الآلات بالتيار الكهربائى ويمكن أن تؤدى من الأعمال ما تؤديه أيدى ألف من الرجال. ولنذكر فى هذا المقام أن الناس فى « موسا كا » لايرون عادة رجالا من البيض عدا الأب « هوكس » ومن يلمحونهم من خلال فتحات السفن القليلة التابعة لشركة الملاحة النهرية أو الشركات الأخرى، فالذين يقبلون الإقامة فى هذه المنطقة التى تغمرها مياه الفيضان طوال ستة أشهر فى السنة، إنما هم قلة ضئيلة. أما معشر الـ « ليكوبا » فهم ينظرون باحترام كبير إلى كل رجل يكون فى إمكانه أن يكلمهم عن تلك الكائنات العجيبة وعن عاداتها الشاذة، ولهم كل العذر فى ذلك إذ لم يكن فى استطاعة هؤلاء البسطاء أن يروا إلى أبعد من قاع قواربهم. ولذا فقد استقبل « يوكا » استقبالا حاراً فى بلدته بسبب تلك الهالة التى تحيط بالرجل المتحضر والمعلومات التى اكتسبها.

أما « موسا كا » فهى قرية كبيرة يبلغ عدد سكانها ثمانمائة أو ألف نسمة. والقرية تقوم على المساحة الوحيدة الصالحة للسكنى، وأغلب أكواخها مبنية من الخيزران الجاف على قوائم. وأنت ترى أوتاداً طويلة وغليظة مدفونة فى الأرض لتحتجز القوارب الكثيرة العدد، وهى تعتبر وسيلة التنقل الوحيدة بتلك المنطقة المنبسطة المسطحة التى تغمرها المستنقعات. وهناك زوارق — أصغر حجماً وأخف وزناً — موثوقة أو معلقة على حوامل من الخيزران أسفل شرفات واسعة سيئة التهوية. أما البقعة المرتفعة الوحيدة بالمنطقة فقد أقيم عليها — كما ذكرنا من قبل — المبنى الصغير للإرسالية الكاثوليكية للتبشير التى يشرف عليها صاحبنا الأب « هوكس ».

وصل « يوكا » إلى « موسا كا » فى الفصل الملائم من السنة وقد هز مقدمه مشاعر الجميع بالقرية الكبيرة. كان كريماً كما هو شأن كل رجل أسود يحترم نفسه

ولذا فقد اقتسم ثروته الصغيرة — التى جمعها قرشاً قرشا بعناء وبعرق جبينه — مع أقربائه وأصدقائه ، ولم يحتفظ إلا بما يكفيه ليتزوج بمن يشتهى .

كان حبه لابنة رئيس القبيلة قد ملأ شغاف قلبه. كانت قامتها طويلة وجسدها لدناً ، ولونها بنيا قاتماً ، وكانوا يطلقون عليها اسم « تانجو » — أى الشمس — الأمر الذى كان يتناسب تماماً مع ماتمتاز به سليلة الـ« ليكوبا » من جمال باهر لاتضارعها فيه أية فتاة فى القرية ، بل فى المنطقة بأسرها . تخيل أيها القارئ قامة طويله وجسداً ممشوقاً يتوجه رأس يميل إلى الاستدارة ، وعينى غزال مذعور ، وابتسامة ترتسم دواماً على شفتين ممتلئتين ، وصفاً وضاء من أسنان رقيقة لاعيب فيها . تخيل كل هذه المحاسن ، وأضف اليها صدراً ناهداً لاعيب فيه كذلك يعلوه برعمان مدببان ،وذراعين جميلتين قويتين اعتادتا التجديف، ويدين صغيرتين جميلتين، وخصراً يمتاز بالصلابة والمرونة يعلو فى انسجام رائع ساقين طويلتين فى غير إسراف. تخيل كل هذا وسوف تظهر أمامك صورة لتانجو خطيبة « يوكا » السعيدة ، التى ستصبح زوجته بعد قليل . أما عن خلقها فهى رقيقة الحاشية ، لطيفة هادئة مستسلمة . لم يستطع أحد أن يعيب سلوكها ، فهى — فيما عدا ممارستها اللعب مع الشبان تحت إشراف والديها — لم تصادق أو تعاشر أى شاب من شبان القرية .

لم تدم خطبة « تانجو » و « يوكا » إلا شهرين وكان الهدف من تلك الفترة هو أن يتعارفا ، وأن يصل كل منهما إلى حب الآخر وتقديره ، قبل أن يمثلا أمام الأب « هوكس » ليتمم لهما مراسيم الزواج . ولنذكر فى هذا الصدد أن المبشر الطيب قد فرض على الخطيبين سخرة — على سبيل التكفير عن ذنوبهما — قبل أن يبارك زواجهما .

وقد بكت « تانجو » شعرها الجميل الذى اضطرت إلى أن تقصه كله حتى جذوره فى مقر القس ، إذ يبدو أن لابد من تلك المراسيم قبل « المناولة » . ومثل هذا يحدث كذلك فى مناسبات مختلفة من بينها التعميد ... ولكن ربما كان هذا الإجراء لازماً على الأرجح لمن يتقدمون للانخراط فى سلك الرهبنة. على أية حال حرمت « تانجو » من شعرها الجميل ، واضطرت إلى أن تقف فى صف من الفتيات جئن بدورهن للاستعداد لمراسيم الزواج فسخرن جميعاً للعمل بمزارع الإرسالية لجمع حبات الفول

السودانى والبطاطة وغيرها من الثمار . لقد حدث لإحداهن من جراء هذه السخرة أن لدغها ثعبان ، ومثل هذا الحادث من الأشياء المألوفة عند استصلاح أراضى هذه المنطقة ، حيث تختبئ أنواع الزواحف الخطرة وراء الشجيرات الصغيرة . أما « يوكا » فنظراً إلى إتقانه فن الطهى ، فقد سخر بدوره فى خدمة الإرسالية ، دون أن يتقاضى بالطبع أى أجر عن تلك الخدمات . ولكن لنمسك عن مناقشة هذه الأوضاع وهذه العادات المقدسة خشية أن يلقوا علينا كلمات قاسية كتلك التى ألقوا بها على مسامع « مامبيكيه » حين قالوا له : « صه أيها الكافر الصغير ، ليس من حقك أن تتكلم فى أشياء لاتفهمها » .

ولحسن حظ الخطيبين — وقد نفد صبرهما — أن مر أسبوع « العزلة » بسلام — واعتقد أن هذه هى التسمية التى ينعتون بها هذه السخرة التى تفرض على الخطيبين قبيل الزواج — وقد تمكنا أخيراً من تبادل الدبل المقدسة على يد القس المبجل « هوكس » .

إن « تانجو » فخورة سعيدة . وهى كزوجة لرجل متطور ، ترتدى أثواباً كتلك التى يلبسها النساء بمدينة « برازافيل » : أى أن النصف الأسفل من الثوب واسع زاهى الألوان يحمل رسوماً جذابة ، ويعلوه قميص من نفس اللون ينكمش عند الوسط الذى يحزم بحزين من القماش من لون بنفسجى أو أزرق — تبعاً للمناسبات — وملفحة حريرية قاتمة اللون تثبت بالشعر المعقوص على شكل تاج ، وأقراط مغطاة بقشرة من الذهب وأساور من العاج ونعل من الحرير عليها نقوش ذهبية .

إن الزوجين يتحابان ، وحبهما دائماً يصل إلى حد العبادة ، وهما يذهبان معاً لصيد الأسماك وللقنص وهى حرف عاد « يوكا » إلى مزاولتها لكى يسترد شخصية الـ « ليسكوبا » الأصيل . وفى أيام الآحاد يتوجهان إلى كنيسة « سانت بارب » الصغيرة ليستمتعا بالإعجاب الذى يبديه لهما الناس . أما الأب « هوكس » فقد كان سعيداً بعودة خرافه إليه . والكنيسة كانت على كل حال ملتقى المتأنقين بالمنطقة ، إذ لم تكن هناك أماكن عامة أخرى يمكن أن يلتقوا فيها اللهم إلا المستنقعات ومياه نهر الكونغو السوداء ، وذلك البساط الأخضر المتموج من الغاب الحاد ، وهى أماكن غير صالحة ولا شك لإبراز التأنق والتجمل تلك الصفات الأصيلة عند السود عامة .

أنجبت « تانجو » طفلا لـ « بوكا » ذكراً ، هو « مامبيكيه » الذى لم نجد فسحة من الوقت لنقدمه للقارئ إذ شغلتنا عنه أحداث القصة المتلاحقة . إن لون بشرته فاتح كلون أبيه ، وقد نشأ الطفل على العادات الموروثة وأصبح ولداً هادئاً مرهف الحس ، محباً للناس ، دائم المرح ، وهو ذو وجه جذاب ترتاح إليه العين كوجه أمه « تانجو » فقد ورث عنها رقة ملامحها . لقد أطلقت عليه فتيات المنطقة اسم « موبالى — أو — تميبه » أى « الذكر الجميل » .

أما « تانجو » ذات القامة المديدة والساقين الرقيقتين فلم تفقد شيئاً من جمالها بل زادت بهاء . وبعد أربع سنوات من ميلاد « مامبيكيه » ولدت بنتاً .

وفى تلك الأثناء وصلت أسرة « موراكس » واستقر بها المقام على مسافة لاتبعد كثيراً عن قرية « موساكا » .

وبقيت « مارى روز » — وهى زوجة « روش موراكس » كما ذكرنا من قبل — ثمانية أشهر دون أن تهتدى إلى الطاهى التمرن الذى تحتاج إليه . لقد طردت ستة رجال تقدموا للقيام بهذا العمل ، أو هم هربوا من الوكالة بسبب خلق زوجها الذى دأب على الصراخ . ولكن هل تراها ياترى ستضطر إذن إلى القيام بالطهى وغيره من أعمال البيت بنفسها ؟ واضطرت إلى أن تلجأ إلى الأب المبجل « هوكس » تطلب منه المشورة والنصح — فهو الرجل الأبيض الوحيد بتلك المنطقة أى فى دائرة قطرها مائتان من الكيلو مترات — حتى يجد لها طاهياً تتوافر فيه الصفات كلها ، أى رجلا يكون فى مقدوره أن يتحمل سوء معاملة «روش موراكس» ، وأن يقوم فى الوقت نفسه بأعمال المنزل والطهى على الوجه الأكمل . وقد أشار عليها المبشر بـ « بوكا » فهو الرجل الأسود الوحيد ، فى تلك المنطقة ، الكفيل بإرضاء مطالب « الوافدين » الجدد .

واستدعى الأب الطيب « بوكا » لمقابلته ، واستمع الرجل إلى نصائحه الغالية بتقديس واحترام . وقال له القس :

— لقد وجدت لك عملا مناسباً ومريحاً لدى عائلة « البيض » الذين يقطنون بجوارنا . إنها وظيفة ممتازة . ولعلك لاتجهل أن الرجل الأبيض إنما يأتى إلى هذا

البلد القبيح ليساعد الرجل الأسود على التحرر من بؤسه ومن همجيته الموروثة. (والهمجية فى نظر الأب القديس « هوكس » الذى لايخطئ ، أو مايسميه هو بالهمجية ، صفة موروثة عند السود ، تنتج عن جهلهم المتأصل . ومن واجب السود إذن أن يساعدوه على القيام بمهمته التى تهدف إلى بث روح الحضارة فيهم) .

— أما الرجل الأبيض الطيب الذى ستعمل عنده، فقد اصطحب معه زوجته، وهى للأسف تجهل التحدث بلغة الـ « ليسكوبا » . وأنا أرسلك إلى هناك ، أنت بالذات ، لأنك تأتى من « برازافيل » حيث أقمت وقتاً طويلا تعلمت أثناءه الطاعة ، وتجردت قليلا من صفات قومك المتخلفين ، كما أنك تتكلم لغتنا الجميلة ، وإن كنت تتكلمها بطريقة سيئة إلى حد ما ، ولكنها تكفيك على أى حال لكى تتفاهم بها . هيا توجه إليهم من قبلى وسوف تعمل فى خدمة « السيدة » ولكن ، ... ولكن ياصغيرى « يوكا » كن يقظاً ، فإن عينى ساهرة عليك ، وحاول أن تكون حسن السلوك . أما إذا بدر منك خطأ واحد فسوف أتدخل بنفسى وأرسلك إلى « دونجو » لتبقى فيها تحت مراقبة جنود الحاكم . هل فهمت يابنى ؟

— نعم ياأبتاه . لاتخش شيئاً . إنى أفهم طبيعة عملى كل الفهم وكلى ثقة فى أن « سيدتى » سترضى عن خدماتى .

وهكذا دخل « يوكا » التعس فى خدمة أسرة « موراكس » حيث كانت تنتظره كل ألوان الاضطهاد والتعسف . وكان « مامبيكيه » حينئذ قد بلغ الثامنة من عمره ، أما أخته فكانت تبلغ الرابعة .

***

إن حواس الرجل الأوروبى ، التى قد يدركها الكسل قليلا بفعل مناخ بلاده ذى البرد القارس ، إنما تهتاج بسرعة فى وهج شمس البلاد الاستوائية . وإذا ما استسلم قليلا لتأثير البيئة المثيرة المحيطة به ، تحت الشمس الساحرة التى تتآمر مع جمال المرأة بتلك المناطق المرتفعة — وهو جمال أبدى لايضاهيه جمال — إذا مااستسلم كما قلنا لكل هذا فهو من الهالكين لامحالة . وليس من السهل على مثله أن يتلهى بابنة الشمس . وسوف نعكف على أى حال على دراسة هذه الظاهرة عند صديقنا الظريف « روش موراكس » .

لقد قابل الرجل الأبيض « تانجو » عند زعيم القبيلة — وهو يتردد عليه بانتظام — وطلب منه بإلحاح أن يمنحه ابنته لقضاء الوقت والتسلية . وقد تمكن بهباته — وتهديداته أيضاً التي وضع بعضها موضع التنفيذ — وهداياه المغرية ، من تحقيق أغراضه التي تتنافى مع الأخلاق .

ولنقل فى هذا الصدد ، قبل أن نمعن في الحديث ، إن الرجل الأبيض قد أدمن على المشروبات المستوردة من المستعمرات فهو يفرط فى احتسائها بصحبة الأب «هوكس». أما هذا الأخير فيعتدل فى الشراب من قبيل التقشف — وإن كان بطنه منتفخاً — كما تذوق الرجل الأبيض أيضاً نبيذ النخيل المحلى القوى التأثير وعرق البلح ، ولم يعد فى إمكانه الاستغناء عنهما ، فإن من يمتزج بإفريقيا لا يمكنه أن يتخلص أبداً من سحرها الذى لا يضارعه سحر . إن من يعتاد شرب نبيذ النخيل الذى يمتزج بلون الشمس ، ومشتقات هذا النبيذ ، يتعبد أيضاً بجمال المرأة الإفريقية ، فهى تعتبر صدى لتأثيره القوى ، وذروة مايصبو إليه المدمن عليه . لقد دأب الرجل الأبيض على أن يتغيب عن بيته نظراً لانهماكه فى أعماله ، كما اعتاد أيضاً التردد على زعيم القبيلة — كما ذكرنا من قبل — ليرضى نزعاته الماجنة مقابل هداياه من مشروب الـ « جين » وعرق البلح ، تلك المشروبات الضارة . وسنحت للرجل ، فى تلك الزيارات، فرص تذوق فيها الكثير من الطيبات التى يمكن أن تعيد إليه شبابه ، فقد شرب جميع أنواع المشروبات الروحية المحلية اللاذعة ، كما ضحى — فى سبيل إرضاء شهيته الوليدة وذوقه الرفيع — بكثير من الفتيات تتراوح أعمارهن بين الثالثة والرابعة عشرة . ولكنه زهد فى هذا الصنف بعد قليل . إن من يرنو إليها الآن زوج « مارى روز » هى « تانجو » ، زوجة طاهيه . وسرعان ماتمت الصفقة بين زعيم القبيلة المغلوب على أمره والرجل المدمن الذى أدركه الملل إذ لم تعد موارد قبيلة الـ « ليكوبا » لترضى شهواته . تمت بينهما الصفقة التى ترمى إلى القضاء على فضيلة زوجة « يوكا » مقابل القليل من الخمور المهربة وجرامات معدودة من الملح الأحمر وبعض أغطية قديمة بالية . كان الشيخ الأسود — ولم يكن يعى تماماً مدى الأذى الذى يسببه — يرتعد خوفاً من بطش الرجل الأبيض ، فقد كان فى إمكانه أن يبعث به إلى سجن «دونجو» حيث لا يجهل أحد مايمكن أن يلقاه هناك . إن الإنسان فى هذه السن المتقدمة يزداد تمسكاً بالحياة . وكان مجرد التفكير فى « دونجو » يعنى الموت بالنسبة إلى زعيم القبيلة،

وهو لايريد أن يموت الان . لقد منح ابنته إذن للرجل الأبيض الكريم ... ابنته « تانجو »قدمها كضحية تعسة لصفقة بشعة ،« تانجو »التى تحب زوجها. وقد اضطرت المرأة إلى الرضوخ إزاء ماقدمه لها أبوها المهدم من تبريرات مؤثرة ، وما ذكره عما كان يتهدده من ألوان رهيبة من الانتقام كان يمكن أن تصيبه كالصاعقة إن هو رفض .

إن « روش مورا كس » ولا شك قد وقع تحت سلطان وسحر ابنة الشمس ، ابنة الغابة والمستنقعات . وكان يريد — وهو الرجل ذو السلطان والسطوة الذى لايتصور أن يلقى مقاومة من إنسان — أن يستحوذ عليها لمجرد إشباع نزوة من نزواته . ويبدو أنه قد نسى الطريق المؤدية إلى الوكالة وكذا صوت « مارى روز » التى عهد إلى « يوكا » طاهيه المخلص الذى دأب هو على الإساءة إليه ، بحراستها. إلا أن « روش مورا كس » يجد دائماً الأعذار التى يبرر بها تغيبه عن بيت الزوجية : منها ذهابه للقنص وصيد الأسماك وجنى جوز النخيل واستخراج المطاط . وهو عندما يعود إلى الوكالة مصادفة ، إنما يسىء معاملة « يوكا » ويبالغ فى القسوة عليه والبطش به لما يشعر به من غيرة نحوه — وهو عاشق زوجته الذى فقد صوابه — فيطلب منه أن يحنى ظهره ليلهبه بسوطه وبهراوته التى لاترحم . كان الطاهى المسكين يلقى ولأوهى الأسباب — ألوان التعذيب والمهانة أمام أولاده ، بل إن السيد القاسى لاينساهما بدورهما فيصيبهما بعض أذاه عند انهماكه فى توزيع تلك الهبات القاسية . ياليوكا المسكين ! لم يكن هذا كل ما ينتظره ، فقد كان يتهدده الكثير من جراء ثورات سيده ومن طبيعته الشيطانية .

كان الطاهى المسكين قدبدأ يهتم بمايجرى فى بيته إذ لاحظ بعض نواحى التقصير من قبل زوجته ، ولذا فقد عوقب على ذلك الاهتمام بأن أرسل إلى سجن « دونجو » ليقضى به عشرين يوماً . وهاهو منذ بضعة أيام قد عوقب مرة أخرى ، بالحبس لمدة أطول ، بتهمة التغيب عن محل عمله خوفاً من بطش سيده .

لربما تخيل القارىء — عند قراءة هذه السطور — أن هناك بعض المبالغة فى التصوير أو أن فيما نقوله انسياقاً وراء الخيال . ولكن وا أسفاه ! تلك هى الحقيقة عينها. وهناك من أمثال« روش مورا كس » آلاف وآلاف قد عاشوا هنا ومايزالون

يعيشون هنا ، وهم على قيد الحياة ، وقد ارتكبوا وما يزالون يرتكبون مثل تلك الأعمال الوحشية التعسفية التى ربما دفعت بالقارئ إلى الثورة عليها . ولكن لايحق للقارئ أن يدهش فهو لابد يجهل تلك العادات التى قام عليها الاستعمار بمعناه الحقيقى بل هناك ماهو أعجب ، فالأب « هوكس » نفسه — وهذا قليل من كثير — هو الذى كان يوصى فى أغلب الأحيان بتلك العقوبات للقضاء على نزعات الطاهى الذى بدأ يثور والذى بدأت الدماء تغلى فى عروقه . وربما اعتبر القارئ أن تلك الأعمال وتوقيع تلك العقوبات على يد رجل من رجال الدين، من رجال الله، رجل له وحده تلك السلطات لتقويم الناس ، أعمال فظيعة : ولكن تلك الأعمال إنما يرضى عنها هؤلاء الذين يعنيهم الأمر . لم يكن القس الطيب يكف عن الدعوة إلى إخضاع الزنوج لإجبارهم على الطاعة والاستسلام ، كما لم يكن يكف عن الزعم أن هؤلاء الأطفال الكبار ، التعساء ، يجهلون أن التجاء البيض إلى القسوة عليهم إنما الهدف الأول منه هو خيرهم وخلاص أرواحهم .

وفى « دونجو » لقى « يوكا » على يد رجال الحرس — كما سبق أن توعده الأب هوكس » من قبل — وكانت قد وصلت إلى هناك توصية خاصة بشأنه — أقسى ألوان التعذيب والإهانة ، وهى ألوان لا يمكن أن يتصورها عقل : كانت تنهال على ظهره فى كل صباح ، بدلا من وجبة الإفطار ، خمس عشرة ضربة بالسوط ، كما كان يطلب منه طوال النهار تفريغ وتنظيف المراحيض ، وحمل كميات ثقيلة من الأخشاب وأوانى المياه الكبيرة المعدة لطبخ مأمور السجن ومرءوسيه ، أى جنود « الميليشيا » وبدهى أن الرجل الأبيض كان يحل محل طاهيه ، أثناء تغيبه الاضطرارى عن بيته ، بجانب « تانجو » ولم يكن يراه أحد فى تلك الأثناء إلا لماما بالوكالة .

أما « مبيكيه » وأخته « أو مبوكو » ، ولم يكن « روش موار كس » ليهتم كثيراً بوجودهما ، فقد بلغهما ما يلاقيه والدهما السجين من صنوف التعذيب ، وفجعا لما كان يأتيه أمامهما الرجل الأبيض الفاسق من تصرفات . واضطر الطفلان ، على مضض ، إلى أن يبلغا أباهما الأمر . وقد حبس الرجل فى زنزانة قذرة بعد أن علم بالخبر ، لمحاولته الهرب لنجدة زوجته . ولما أطلق سراحه وأعيد إلى « موساكا » فى حراسة مشددة ، استقبله سيده بضربات من هراوته لكى يجبره على السكوت وعلى عدم إفشاء أسرار مأساته الزوجية لسيدته — أى لـ « مدام موار كس » .

وعند مروره بمقر القس حيث قاده رجال الحرس ليمثل بين يدى الأب «هوكس» وليقدم له حسابا عما ارتكبه من خطايا ، لم يتمكن الزوج التعس من حبس صراخه منددا بالظلم والبطش اللذين لحقا به وبزوجته على يد الرجل الأبيض ، وكان يتصور أنه سيلقى عند رجل الله وحامى الأخلاق والفضيلة سنداً ومدافعاً عن حقه المغتصب .

ولكن « الراعى الطيب » أجابه ، وهو ينفجر بالضحك ، بقوله :

— يا « يوكا » المسكين . هل فقدت صوابك يابنى ؟ هئ ، هئ ، هئ . هؤ . هؤ . هؤ ... هل بلغت بك السذاجة هذا الحد حتى تصدق مايردده « مامبيكيه » ؟ كنت أتصورك أكثر ذكاء من أهل بلدك . كيف ؟ أنسيت أن سيدك رجل مسيحى وأن له زوجة باهرة الحسن وأعنى بها « سيدتك » ؟ هيا ياولدى ، حاول أن تصلح من أمرك ومن سلوكك وأن تطيع تعاليم الله . حاول أن تطيع سيدك الذى يحبك كل الحب والذى لا يألو جهداً لكى يساعدك على الحياة . وا أسفاه ! أعرف جيداً أن ليس فى مقدورك أن تتبين مدى اهتمامه بك . ولكن ليس الذنب ذنبك ياولدى المسكين . نعم ، ليس فى إمكانك فهم هذه الأشياء ، ليس فى مقدورك أن تفهم أنه إنما يضطر إلى القسوة عليك ابتغاء خيرك ومصلحتك . لاحيلة فى ذلك ... لست إلا رجلا بدائياً وسوف تبقى كذلك بالرغم من كل مالقنوك إياه فى « برازافيل » ، وبالرغم من كل ما أحاول أن ألقنك إياه أنا نفسى بروح أبوية . وها أنا أتبين فوق كل ذلك أنك بدأت تنسى تعاليم الإنجيل . هل انتويت أن تعود كافراً كما كنت ؟ هيا . اسبقنى إلى الكنيسة فسوف أستمع إلى اعترافك . لست أشك فى أن قلبك — بعد أن تؤدى اعترافك على الوجه الأكمل وبعد أن أمنحك « المناولة » غداً ، بالرغم من سلوكك السيء — سوف يتقرب إلى الله ، وأنك سوف تنسى كل مايزخر به رأسك من أفكار سوداء ومن خزعبلات . هيا . اذهب يا ولدى وتضرع إلى الله بالصلاة .

إن ماحدث طبعاً هو أن الأب « هوكس » — بينما كان « يوكا » يراجع ضميره داخل الكنيسة — دعا إليه « روش موراكس » لاحتساء كأس من مشروب الـ « برنو » وأسر إليه بظنون الزوج التى لها مايبررها . وقد حذره من العواقب

الوخيمة إذ أراد أن يجنب « ماري روز » هماً ثقيلا وصديقه « روش » التاعب .

يالسخرية القدر ! ياللعدالة المضحكة ! هاهو رجل الدين لايرى فى كل ذلك إلا مايمكن أن يعكر صفو حياة الجانى الزوجية ، متجاهلا عذاب الضحيتين الحقيقيتين . هاهو يتساهل فى جريمة أخلاقية تقع تحت بصره لمجرد الحفاظ على هيبة الجنس الآرى .

لاشك أن كل هذا إنما يحدث باسم إله أبيض لايحمى إلا فئة بالذات من مخلوقاته . وعلى أية حال من يدرى ؟ ربما لم يكن الرجل الملون من مخلوقاته ! وإذا مانظرنا إلى الموضوع من هذه الزاوية ، أصبح الأمر أكثر وضوحاً وأمكننا أن نستنتج أن الله هو أول من يبشر بالتفرقة العنصرية . ولـكن ماذا دهانى ؟ أنحن بصدد مناقشة أم هدم تعاليم أنزلت يجب التسليم بها ؟ لنتغاض عن كل هذا ياسيدى القارىء ولنعن بقصتنا إذ يمكننا بدلا من ذلك أن نناقش حوادثها ، فهى أمور قريبة منا لاتستغلق على فهمنا نحن الأحياء العاديين .

— أيها الوغد ، ماذا قصصت على الأب « هوكس » ؟ لاشك أنك معتوه ، بل أقسم أنك قد فقدت صوابك تماماً . آه ! أما عن هذه الدعابة فهى مضحكة حقاً . أأكون أنا « روش موراكس » عشيقاً لهـــذه القردة ؟ ... هل أمعنت النظر فى ؟ حقا إنك تضحكنى . أيمكن أن تكون هـذه القردة ... عشيقة لـ « روش موراكس » ؟ أما عن ذكائك فهو يتفتق حقاً عن أشياء عجيبة ! بل على أن أهنئك على قوة خيالك . لربما صادفت مثل تلك العجائب التى يتفتق عنها ذهنك نجاحاً كبيراً على مسارح باريس . وأنا أنصحك على أية حال بألا تسرد تلك الخزعبلات على مسامع « سيدتك » ، وإلا رأيت دميتك المهيبة بالسواد وقد قطعتها زوجتى إرباً إرباً . أما عنى أنا ، فسوف أخنق بيدى أولادك القذرين السود إذا ما تراءى لك أن تقص على سيدتك أى شىء من هذا القبيل . وأنا أطلب منك فوق ذلك أن تحظر على ابنك الاقتراب من هذه الناحية ... كلامى واضح ، أليس كذلك ؟ حسناً ... لقد أعذر من أنذر .

كان هذا هو لقاء الرجل الأبيض لوالد منقذ ابنته ، كان هذا لقاء السيد لخادمه المتفانى فى خدمته والذى سجنه بـ « دونجو » مكافأة له على إخلاصه .

* * *

جاء فى أحد الأمثال الفرنسية — وهذا صواب — : « إن من يحتك بها قد يحترق » ولا شك أن المعنى بهذا القول هى المرأة أو النار ...[1] ولا فرق بينهما على كل حال .

إن «روش موراكس» الذى احتك بالمرأة السوداء ، لم يعد فى إمكانه أن يستغنى أو أن يبتعد عنها ، وهو يضيع بجانبها ماتبقى له من خلق ، لو فرض أن كان له خلق أصلا .

لم يعد يذكر الرجل الأبيض زوجته التى هجرها والتى لم يعد يراها إلا مرة أو مرتين فى الشهر . وعندما اعتزم أخيراً العودة إلى بيته بدا أكثر تجهماً : فهو لم يعد يهفو إليها كما لم يعد يقوم تجاهها بأبسط واجبات المجاملة ، بل أصبح كالطاغية العنيف فى تصرفاته مع الجميع . أما « يوكا » — ولم يكن يجهل أسباب هذا التحول وهذا التغيب عن بيت الزوجية وكذا سبب ثورة الرجل الأبيض هذه — فلم يعد يجرؤ على أن يجد إجابة لأسئلة « مارى روز » التى كانت تستوضحه سبب هذا التحول وتغيب زوجها الذى يثير قلقها . كان الطاهى النبيل يخشى من ناحية تهديدات « روش موراكس » ، كما كان يأنف من أن ينال من قلب تلك المرأة التى طالما دافعت عنه لدى جلاده .

وشعر « روش موراكس » منذ رحلت « سولانج » إلى « ليوبولد فيل » بشىء من الارتياح فقد حرره رحيلها هذا مما تبقى لديه من احترامه لذاته الإنسانية ومن خلق . كان وجود ابنته فى الواقع قد حد نوعاً ما من اندفاعه فى تيار رذائله الجارف أى من انكبابه على المرأة والشراب .

إن انغماسه فى لذات الجسد — وهو شىء سبق للقارىء أن لمسه — أمر لايقاس بالدوامة التى تعيش فيها حواسه الملتهبة فى الوقت الحاضر إلى أقصى مدى . كان انغماسه هذا يقترن بشىء من الحذر بسبب وجود الملاك الصغير ، إذ أن طهره كان يجعله يرتعد من شدة الخجل ، أما اليوم فقد اطمأن بالا ، وسوف يطلق العنان لغرائزه وهو المتعطش الشره بطبعه .

---

(١) جاء بالفرنسية (السيف لا النار) ورئى أن تعدل فى الترجمة بنار .

وتحفظه الخبيث هذا واصطناعه الفضيلة أمام طهر ابنته إنما يظهران لنا كيف يمكن أن يتظاهر الشيطان ، فى حضرة الملائكة ، بطهارة القديسين . وبعبارة أخرى يمكننا من أن نرى كيف أن الرذيلة تتخفى دون عناء وبدهاء وراء الفضيلة التى تصادفها ، وإن كانت ، إذا ماعادت إلى مسرح اللذات — وهو جحيمها — تظهر على حقيقتها وتتجرد من طلائها الزائف .

ولئن كانت الرغبة هى التأليه المطلق للذة لم تشبع ، تتمثل فى صورة أو شىء ، فإن إشباع تلك الرغبة سرعان مايصبح النار التى تأتى على هذه الصورة أو هذا الشىء أو سرعان مايصبح قبراً لهما . الرغبة ؟ أى معنى يمكن أن يكون لتلك الكلمة ؟ أليست هذا الشىء الذى لايعرف ، والذى لايدرك كنهه ولا يحد بشىء ؟ هذا الشىء الذى يبدو فى مظاهر مختلفة تتلون تارة باللون الأزرق وثانية بلون وردى وثالثة بلون قرمزى ؟ إن الرغبة لكونها رغبة ، لاتزول إلا بزوال من تتمثل فيه . وهذا المذبح المقدس الذى يضحى عليه بالأسرة وبالفضيلة وبالشرف ، عندما يسمى بـ « مارى روز » أو بـ « تانجو » يتحطم ويداس بالأقدام فى الغد لأنه سوف يتجسد فيما بعد فى شىء أكثر إشراقاً قد يسمى بالـ « إكسير » أو المتعة أو النشوة أو يسمى بالحيوانية أو بـ « أومبوكو » .

إن قلب « روش موراكس » الذى لايستثنى من هذه القاعدة ، إنما يجمع بين هذه المظاهر جميعاً ، وربما بدت تلك المظاهر بشكل أفضح ولكن الظاهرة النفسية تبقى على ماهى عليه .

وبعد أن خبا وهج الشمس ، أى بعد أن زهد « تانجو ، زوجة « يوكا » شيد « روش موراكس » الشره لنفسه بيتاً أنيقاً صغيراً بالقرب من كوخ معاونه فى الصيد ، المكلف مطاردة الفريسة ، وهو نفسه زعيم القبيلة العجوز اللاهى عما يدور من حوله ، ليستقبل فيه كل فتيات القرية الكبيرة . وتحول الرجل ، بعد أن تذوق طعم الفاكهة الناضجة ، إلى الفاكهة الخضراء — وكانت حموضتها العذرية تسكر حيوانيته الشيطانية . كانوا يأتونه فى كل مساء بمجموعة من خمس فتيات أو ست ، تقاسين — كل واحدة بدورها — من ألوان هياج هذا المعتوه الجامح ، ولم يكن يبلغن من العمر أكثر من عشرة أعوام أو اثنى عشر عام . ولكن ماقيمة كل ذلك

بالنسبة إلى هذا الخليط من المشاعر البدائية الذى حل محل القلب والضمير عند الرجل الأبيض عظيم الشأن ؟ وعلى أية حال ، فأية غضاضة فى ذلك ؟ ألسن جميعاً جزءاً من ممتلكاته ؟ أليس هو السيد الذى لاينازعه منازع فى « موساكا » ؟

وفى هذا الحريم السرى أحلت كثيرات أخريات نقيات محل التعسات اللائى حملن . ولم تفلت حتى «أومبوكو» ابنة «تانجو» و « يوكا » بدورها ، لم تفلت وأسفاه من هذا التجنيد الذى لايرحم .

لقد أضحت « أومبوكو » ، وهى فى الحادية عشرة من عمرها ، ناضجة قبل الأوان بفضل ما كانت تمارسه من ألوان الرياضة كالسباحة والصيد بالشباك أو بإقامة السدود ، وبفضل ما تضفيه عليها الشمس الخلاقة من صحة وحسن . إن « أومبوكو » صورة حية لأمها ، فهى طويلة القامة ، تتميز حركاتها بالمرونة ، بسامة المحيا ، يطل مرح الأطفال من نظرتها وتتسم به تصرفاتها . لقد قابلها صديقنا « روش » الظريف مصادفة ، أثناء تجوله فى أزقة القرية التى أصبحت مسرحاً لنشاطه . وقد لفتت الفتاة التى جذبت اليها أنظار الجميع ، انتباه الصقر المفترس بدوره ، وأصبحت محظيته المفضلة .

سوف نعفى القارىء من تحليل تلك المأساة ، تلك المصيبة التى أدمت قلب الأم التى هجرها الرجل ليحل ابنتها محلها ، وقلب الزوجة المحبة لزوجها التى اضطرت إلى أن تجرح كبرياءه رغماً عنها لتنقذه من مخالب الصقر المفترس الذى رأى اليوم أن يضحى بابنتها ليشبع شهيته المسعورة . وماذا يمكن أن نقوله عن « يوكا » المسكين الذى وقع فى حبائل هذا الوحش الدنس ! هاهى ابنته اليوم قد جاء دورها ليضحى بها بعد أن ضحوا بزوجته . أليس فى كل هذا فجور جنونى وسخرية من سخريات القدر الشيطانية ؟ ولكن لمن يشكو ؟ لأى حكم ولأية عدالة يشكو هذا الرجل البوهيمى حتى يوقظ ضميره ، هذا الذى يعتبر وصمة فى جبين جنسه ، وسبة للانسانية جمعاء ؟

وأأسفاه ! إن الأب « هوكس » الذى تأثر بعض الشىء بسبب عدد المواليد الجدد الذين تساقطوا من السماء — وهم من خليط أبيض وزنجى — لم يجد طريقة يحتج بها سوى هز كتفيه اللذين أثقلتهما السنون .

كنا على وشك أن نغفل ذكر شىء . إن عدداً كبيراً من المواليد الذين وضعتهن

القاصرات قد منيوا بحوادث أليمة ، نجمت عن عمليات وضع غير طبيعية — فهم أطفال قد جاءوا إلى الدنيا قبل ميعاد ولادتهم — أو بسبب عدم كفاءة الولدات أو من جراء أمراض مختلفة ترتبت على النزيف المفرط أو على عمليات الإجهاض . وهناك أطفال رضع لم يبقوا على قيد الحياة بعد أن ماتت أمهاتهم لقلة العناية بهم . والقرية تنتظر المزيد من الأطفال الذين ستنجبهن العذارى اللائى لم يعد فى إمكانهن الخروج من بيوت ذويهم خشية سخرية الصبية الذين يؤاخذونهن على خطيئة لم يرتكبنها إلا مكرهات . والأرجح أن هاتيك الضحايا لن يجدن من يرضى بالزواج منهن فى المنطقة بأسرها .

لقد بلغ « روش موراكس » الآن السادسة والخمسين من عمره وهو لايزال قوياً بفضل قوته البدنية الفولاذية ، ولكن الأمر يختلف بالنسبة إلى زوجته ، فهى رقيقة جداً . وقد أثر عدم مبالاة زوجها بها وهجره إياها بهذه القسوة ، ورحيل ابنتها المفاجىء ، على صحتها ، وهى المرهفة الحس بطبعها . وفيما عدا اللون الأصفر الليمونى الذى اصطبغت به بشرة « روش موراكس » التى زادت خشونة ، لايبدو على الرجل أن قسوة المناخ قد أثرت فيه بالرغم مما اكتسبه من شذوذ سواء فى الناحية الخلقية أو فى إفراطه وانكبابه على الملذات .

أما « مارى روز » — وهى مازالت فى التاسعة والثلاثين — فلم تعد إلا ظلا لتلك السمراء المتوسطة القامة ذات العينين الزرقاوين والشفتين القرمزيتين ، لتلك المرأة ذات الخطوات الرشيقة التى عرفناها ورأيناها وهى ترسو بـ « موسا كا » حين لم تكن تبلغ إلا الثلاثة وعشرين ربيعا . لقد أثرت الهموم من ناحية ومرض الملاريا المنتشر فى أنحاء البلد من ناحية أخرى تأثيراً عميقاً على ملامحها الرقيقة الجميلة وعلى جسدها الجميل الرقيق الذى أدركته الشيخوخة قبل الأوان . إن عزاءها الوحيد بين تلك الآلام النفسية إنما هو — ومنذ وقت طويل — التهام أسطر الرسائل المسكرة المفعمة بالحنان التى تبعث بها إليها « سولانج » الصغيرة ، كل خمسة عشر يوماً ، من الدير الذى تقيم به بـ « ليوبولدفيل » ، والانغماس فى العمل الذى تفرضه عليها إدارة مكتب التوكيلات التجارية ، الذى أصبحت بمثابة الروح الوحيدة المحركة له . وهى تتوجه فى أيام الآحاد ، بصحبة « يوكا » المخلص — وقد نال منه الإرهاق وأدركته الشيخوخة بدوره — إلى كنيسة « سانت بارب » لتؤدى فروض الصلاة ولتعترف

ولتتناول ، وحيث تتحدث طويلا مع الأب «هوكس» قبل القداس أو بعده . إن المرأة التعسة تجهل أن ترددها على الكنيسة إنما يخبىء لها حقيقة مفجعة قاسية سوف تدمي قلبها ، في هذا المكان المقدس بالذات ، معرفة سر رهيب ، فسوف تتكشف أمامها حقيقة الكارثة التي حلت بحياتها الزوجية وسوف تتبين مدى غدر زوجها الخائن .

لقد اقتربت ثلاث أمهات — لم يبلغن بعد الرابعة عشرة من أعمارهن — من « ماري روز » في خوف ووجل وطلبن منها أن تمدهن ببعض العون من أجل أطفالهن الرضع الذين لا يجدون ما يستر أجسادهم العارية الوردية اللون .

وتأثرت زوجة الرجل الأبيض كل التأثر من رؤية هذا الرمز الحي للبؤس واحتضنت أحد الأطفال . ولكن ياللهول المفاجأة ! إن ملامح الطفل تذكرها بملامح شخص ما ، من ياترى يشبه هذا الرضيع ذا اللون الفاتح ؟ من ياترى ، من ياترى ؟ هي أنف وشفتا وعينا ... « روش » زوجها ... هل هو حلم هذا الذي تراه الآن ؟ والطفل الثاني الذي انتزعته بعصبية من بين ذراعي أم ثانية ، إنه يشبه الطفل الأول كما تتشابه نقط الماء .

وسألت « ماري روز » — وكان يتنازعها الانفعال والخوف معا — : لمن هؤلاء الأطفال ؟ وكان في استطاعتها أن تتفاهم مع تلك الأمهات العذارى ، فهي تتكلم الآن بلغة الـ « ليكوبا » .

وأجابتها الأمهات الثلاث ، في صوت واحد بقولهن : « إنهم أطفالنا أيتها المرأة البيضاء » ، وكن في مجموعتهن هذه لطيفات للغاية وهن يعرضن ، في خيلاء ، أطفالهن الرضع الذين أخذوا يطلقون الصيحات عند رؤية هذا الوجه الشاحب .

— نعم ، نعم ... إني أرى بوضوح أنكن أمهاتهم . ولكن من هو أبوهم ؟ من هو ؟

— كيف ، ألا تعرفين ؟ إننا نساء الرجل الأبيض صاحب الوكالة التجارية وهؤلاء الأطفال أطفاله ولكنه للأسف لا يعنى بهم . أحسني النظر إليهم ! أليسوا على جمال وافر ؟ ألا يشبهونه ؟ — هكذا أجابتها تلك الأمهات البريئات .

— أوه ! يا أماه ... أوه ! ياأماه ...

سمعت « ماري روز » هاتين الصيحتين المفزعتين ثم انهارت على الأرض كالكتلة مغشياً عليها ، بينما هربت بنات الـ « ليكوبا » الصغيرات فزعات مما أحدثن من رد فعل لم يكن يتوقعنه .

أما الأب « هوكس » الذى أمر بنقلها إلى الوكالة فقد أخذ ينظر فى قلق حتى تعود إلى وعيها ، بينما أخذ « يوكا » المخلص يرشها بالماء البارد .

ها هى أخيراً قد أفاقت ونطقت بتلك الكلمات :

— ياإلهى ! . . ياإلهى ! . . أين أنا ؟

وتمتم الأب « هوكس » : يا ابنتى ، يا ابنتى ، هدئى من روعك ، أنت فى بيتك هدئى من روعك . لاتنزعجى لسبب بسيط كهذا . يجب ألا تبالى بحادث تافه كهذا لاأهمية له . يجب ألا تنسى أنك فى بلد ، ليست فيه هذه التوافه — وأنا أسميها توافه — بالشىء العجيب النادر . يجب إذن ألا تبالغى فى الانزعاج . ماذا ؟ ألبعض أخطاء تافهة وبريئة ارتكبها زوجك العزيز مع تلك الزنجيات الصغيرات اللائى لاقيمة لهن ، تريدين أن تشغلى بالك ؟ هيا ، هيا يا ابنتى . حاولى أن تتعقلى ، هيا يا ابنتى .

وأجابته وهى تئن : أواه يا ابتاه ! أتطلب منى التعقل وقلبى يمزقه الألم ؟ هل تقول إن من حق « روش » أن يهيننى وأن يخوننى مع صغيرات من السود ، مع هاتيك القصر اللائى رأيتهن منذ قليل ؟ لا ، لا يمكنك أن تفهم هذه الأمور . لايمكنك أن تتبين مدى الألم الذى يمكن أن تقاسيه الزوجة مما تسميه أنت ببعض الأخطاء البريئة . أهو ، . . أهو الذى يفعل بى هذا ؟ أواه ياابنتى ، ياابنتى ! سوف تموت خجلا عندما تعلم بهذا الأمر ، إنى أتألم ... إنى أتألم ... ياابتاه . أواه ، كم أتألم !حسناً ياأبتاه ، حسناً ، إنى أشكرك على مساعدتك . والآن أرجوك أن تتكرم وتتركنى لمرارة الألم والخجل ، اتركنى لأحاول أن أذوق هذا الألم ، أن أهضمه بشجاعة .

وأسرع المبشر بالخروج من هذا البيت . كان يشعر بأن له نصيباً من المسئولية

فى تلك المأساة لأنه شجع « روش موراكس » على الإفراط فى الشراب. لقد أسرع بالخروج من هذا البيت الذى تسربت إليه الخيانة، وهو يشعر بأنه قد طعن فما تبقى له من هيبة كنائسية، خرج وهو يبارك المرأة الشهيدة للمرة الأخيرة.

ولما شعرت « روز مارى » بالمهانة وبأنها جرحت فى أنوثتها وفى كرامتها كزوجة فى أعز ما لديها — وهو شرفها — تعرضت لنوبات رعشة أخذت تعاودها من حين إلى حين. منذ ذلك اليوم الذى تكشفت لها فيه تلك الحقيقة القاسية بكنيسة « سانت بارب » أيخونها؟ أيخونها بتلك الطريقة الغادرة مع بنات صغار، مع أطفال لم يتعدين الثانية عشرة من أعمارهن، مع هؤلاء البؤساء الصغار؟ من سيعنى بهؤلاء الأطفال الرضع الذين هجرهم، الذين ألقى بهم إلى أمهات لم يبلغن بعد سن الأمومة ولم يختبرن الحياة بعد، واللائى لا مورد لهن؟ من سيرعى هؤلاء الأطفال بدلا من أبيهم الذى لا يبالى بمصيرهم؟ حقاً إنه لكابوس فظيع ولابد أنها ستفيق منه بعد قليل عندما يحضر « روش ». سوى يهدئ من روعها بابتسامته وبما سيقدم لها من ذرائع ومن اعتذارات مخجلة.

ولكن وا أسفاه! ها هى الحقيقة أمامها، وهى حقيقة تقضى عليها، حقيقة قاسية، ساخرة وحية. ولم يظهر «روش». وعلى أى حال فلن يجدى أى عذر أو أى اعتذار فى مسح تلك الإهانة التى لحقت بها منذ قليل. إن « مارى روز» لتشعر بألم شديد، بخجل خانق وبحقارة تلك الخيانة المدبرة.

وقالت المرأة المسكينة ثائرة عندما رأت الطاهى منطويا على نفسه، مطأطئ الرأس، غارقاً فى تأملاته: — ولكن لم لم تخبرنى بكل ذلك يا « يوكا » ؟

وأجابها الخادم: اغفرى لى ياسيدتى. اغفرى لى. لم يكن من حقى أن أعذبك. كان فى شقائى ما يكفى ليملأ كأس مرارتى، فقد كنت ألعوبة فى يد سيدى الذى أخذ منى زوجتى وسجننى عدة مرات لأننى تجرأت وحاولت أن أدافع عن شرفى وعن سعادتى. لم تكن بى حاجة إلى أن أجعل كأسى تفيض بما كنت أتوقعه، وهاهى قد فاضت بما أراه الآن، وقد تفتحت عيناك على خيانة زوجك وهو لا يستحق أى إعزاز أو حب. هاهو تكتمى لم يجد، وهاهى الصدفة وحدها قد فتحت عينيك، هاتين

العينين اللتين كنت لا أحب أن أراهما تبكيان وقلبك ينفطر حزناً . ها أنا ياسيدتي أتألم بدوري ، إذ أراك قد جرحت من هذا الذي منحته ثقتك العمياء .

— أهو قد غرر أيضاً بزوجتك ؟ يا إلهي ! . . لم يكن ينقصني إلا هذا أيضاً ، إنها الطامة الكبرى . ولكن لماذا ... لماذا ؟

— واأسفاه ! واأسفاه ياسيدتي ! لقد قلت لك إني لم أرغب في إيلامك .

هاهي « ماري روز » طريحة الفراش منذ ثلاثة أيام ، وهي لاتقوى حتى على فض وقراءة رسالة « سولانج » التي سلمها إياها « يوكا » منذ قليل . وهي لاتجرؤ على فض رسائل عملاء الوكالة العديدين والرد عليها . لقد استولت عليها فجأة رعشة لم تعهدها . واكتسى وجهها بلون أصفر قاتم يميل إلى السواد . أما حرارتها فهي تتأرجح بين أربعين وإحدى وأربعين درجة . لقد تدلت وجنتاها وأصبحتا ملتهبتين وهي تغثو بصفة مستمرة . أما بولها فقد أصبح في لون الدم الفاسد . إنها الصفرة التي ظهرت أعراضها على امرأة مصابة بالملاريا وتنوء بهمومها الكثيرة . أما الزوج — وقد ضايقه أكثر مما آلمه أن يرى زوجته مريضة — فقد استدعى من «أويسو» طبيباً لن يصل قبل خمسة أيام أو ست. إلا أن « يوكا » — وكان يريد إنقاذ سيدته — اقترح علاجاً أكد فاعليته ، ولكن « روش موراكس » أخذ يؤنبه ويدفعه بقسوة ، فقد ثار لكونه اضطر للبقاء بضع ساعات بالوكالة ، لكأنه يحمل الطاهي المسكين مسئولية تلك الأوضاع التي أوجد نفسه فيها ، بل ومسئوليه مرض « ماري روز » . ترى هل شعر بالأسى إذ وجد نفسه مسئولا عن تلك الحالة التي تتفاقم باطراد ؟ لا يمكن أن يؤكد أحد ذلك إذا رآه وهو يقسو على الرجل المسكين الذي يقوم بكل الأعمال في هذا المنزل .

أمر الطبيب الذي وصل هذا الصباح ، بنقل المريضة في الحال إلى مستشفى « برازافيل » . وسوف يتمكن من الوصول بمريضته إلى المستشفى خلال يومين فقط بفضل الزورق المزود بمحرك « ديزل » الذي وضعوه تحت تصرفه .

أما « سولانج» — وقد اتصل بها أبوها تليفونياً في «ليوبولدفيل» لينبئها بخطورة الحالة — فقد حضرت لتساعد أمها في لحظاتها الأخيرة . كان العلم قد أصدر حكمه على المريضة ، فقد أصبحت كليتاها عاجزتين تماماً : هكذا أكد الطبيب الذي فحصها

عند وصولها . ولم تتعرف الفتاة فى بادئ الأمر على أمها وهى ترى تلك المريضة النحيلة ذات البشرة الصفراء ، وانزعجت لتصورها أنها إنما جاءت بعد فوات الأوان . لقد عجزت « مارى روز » عن أن تقول أى شئ لابنتها فقد غابت عن الوعى . ولم تقبل « سولانج » أن تترك أمها ثانية واحدة ، بالرغم من نصيحة الطبيب الذى أشفق عليها أيما إشفاق ، بل لقد رفضت أن تتناول أى طعام طوال يومين متعللة بأنها لاتشعر بأية شهية للأكل . وقد استطاع والدها اليوم أن يقنعها بأن تأكل قليلا ، وأرسلها فى صحبة ممرضة إفريقية إلى مطعم مجاور ، بينما قام هو نفسه بالسهر على المريضة .

الساعة الآن الثانية من بعد الظهر والمستخدمون يعودون إلى أعمالهم والتلاميذ يعودون الى مدارسهم .

— صباح الخير يا « مامبيكيه » . أحقاً لم يعد عندك الوقت لكى تحيي الناس لأنك منغمس فى كتبك ؟ إنك تتظاهر بأنك لاترى من يحيطون بك ولعلك تتجنب أصحابك لكيلا يتصور الناس أنك من عشيرة الـ « ليكوبا » منذ تبوأت المركز الأول بالمدرسة العليا . هيا يا « موباليه — أو — تميه » عد إذن إلى الأرض .

إن الممرضة الإفريقية الشابة التى تصحب ابنة « مارى روز » هى التى أبدت تلك الملاحظة .

وقالت ابنة الرجل الأبيض وهى تقفز ، وكانت تسير مطأطئة الرأس ، شاردة وأفكارها تحوم حول فراش أمها المتألمة : « مامبيكيه » ! « مامبيكيه » ! أين ترين « مامبيكيه » ؟

ووقف أمامهما شاب فارع الطول ، يميل لونه إلى البرونز أكثر مما يميل إلى السواد ، تنبعث من عينيه نظرة صريحة ذكية ، تبدو عليه سمات النبل ، ويرتدى زياً كاكياً يحمل شارة عليها حرفا « م ع » (أى المدرسة العليا) . توقف ، وأخذ ينظر إلى الفتاة البيضاء التى لم تستطع بدورها أن تنطق بشىء . ثم قالت :

— أنت ... أأنت هنا ياسيد « مامبيكيه » ؟ كم طالت قامتك ! كم تغيرت !..

— أأنت بـ « برازافيل » يا آنسة « موراكس » ؟

وتلاقت الصيحتان فى الفضاء كما تصطدم ومضات البرق . وكانت هناك أسئلة كثيرة تلهب شفتى كل منهما وإن لم يجرؤا على الإفصاح عنها . كانت نظرات كل منهما تتعلق بالآخر . وارتسمت على شفتى الفتاة ابتسامة حزينة بينما أخذ « مامبيكيه » يتعجب لمـا طرأ على فتاة « موساكا » من تغير فقد زادت بهاء وأوشكت أن تصبح امرأة .

قال لها الفتى أخيراً بعد أن أفاق من دهشته ، وكان له كل الحق فى أن يندهش — أرجو يا آنسة « موراكس » أن تتكلم عنك أنت . منذ متى أنت بـ « برازافيل » ؟ هل عدت إذن من فرنسا ؟ أين تقيمين فى هذه المدينة الشاسعة ؟

— ومن قال لك إنى رحلت إلى فرنسا ؟ لم أترك المستعمرة ، أو أنا بمعنى أصح أقيم عند الراهبات الـ « فرنسيسكان » بـ « ليوبولدفيل » . لست أقيم بـ « برازافيل » ولست هنا إلا منذ يومين فقد جئت لأسهر على أمى التى تعانى من مرض يقسو عليها وهى بالمستشفى . ولم أبرح المستشفى إلا لدقائق لأسترد بعض قواى ولأتناول شيئاً بالمطعم إذ لم أتناول أى شىء منذ يومين . وأمى مصابة بإفرازات الصفراء فى الكريات الحمراء بالدم وليس هناك أمل فى شفائها . أواه ياسيد « مامبيكيه » كم أنا شقية ! يالأمى المسكينة ... يالأمى المسكينة ! .

وأجهشت « سولانج » بالبكاء وأخذ بدنها يرتعش إذ خنقتها العبرات . أما « مامبيكيه » فقد صدم صدمة عنيفة ولذا لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يربت على يدى الفتاة ، ولم يجد شيئاً يقوله ليهون عليها .

لقد ساء بعض الأوربيين الذين كانوا يمرون بالشارع فى ذلك الوقت أن يروا تلك الفتاة الكبيرة فى صحبة سيئة كتلك .

وسألها الشاب فجأة وهو فى غاية الانزعاج : — أيمكن أن تسمحى لى برؤية مدام « موراكس » لحظة واحدة ؟ مازال أمامى بعض الوقت قبل محاضرتى بالمدرسة العليا .

— واأسفاه ! هذا غير ممكن ياسيد « مامبيكيه » . لا يمكنك أن تراها ، على

الأقل فى هذه الساعة فوالدى الآن بجانبها ، ولست أريد أن يراك بصحبتى، ولكنك إن كنت تصر على ذلك فيمكنك أن تأتى لزيارتها هذا المساء قبيل الساعة التاسعة ، فسوف يكون والدى بالمطعم يتناول عشاءه فى تلك الساعة .

وأجابها الشاب مستأذناً فى الانصراف — وكان قلبه مثقلا بالهم وعيناه مغرورقتين بدمع يحتبسه : — سوف آتى .

يبدو أن « مارى روز » قد عادت إلى وعيها ، وهى تبدو هادئة الآن ،وتستند إلى عدد من الوسائد الصغيرة والكبيرة وضعتها الفتاة خلف ظهرها . وكان يبدو أن بعض الأمل قد عاد إليها ، فالهدوء يرتسم على وجه المريضة ، بل لكأن بعض الشباب قد عاد إليها ، أو لكأن هذه الملامح قد استردت حسنها . هناك ابتسامة طفيفه — قد لايلمحها الغرباء — ترتسم عن شفتيها الجافتين . إن « سولانج » تجلس عن يمينها بينما يجلس « مامبيكيه » عن يسارها -وقد لفت المرأة ذراعيها حول عنقى الشاب والفتاة وأخذت تنظر إلى كل منها بدوره . أما الفتى والفتاة فقد وضعا يديهما المتشابكتين على صدر المريضة المتهاوى . واستطاعت « روز مارى » أن تقول أخيراً فى صوت خافت :

— « سولانج » يا ابنتى العزيزة ، لو قدرلى أنأعيش بعضالوقت ، لكانعلى أن أعلمك الكثير .ولكن ها أنا أشعر للأسف بأن الساعة التى سأتركك فيها تقترب . وقبل أن تحين هذه اللحظة ، من واجبى أن أخبرك أنه ليس من حقك أن تستسلمى للحزن واليأس ولألوان من الأسى لاجدوى منها . اتركى هذه الأشياء للضعاف ، وأنا أعهد فيك قوة الشخصية والخلق . لقد حانت اللحظة التى تبرهنين فيها للجميع أنك حقاً فتاة قوية الشخصية ، وأنا أعنى بذلك الخلق الذى يدفع صاحبه إلى عمل الخير وإلى الأفضل دائماً . من واجبك أن تثبتى أنك فتاة تنتمين إلى بلد عظيم وإلى أمة عرفت بالفكر الحر الجرىء الواعى، ليس فى الألفاظ الرنانة والعبارات الجوفاء وإنما — وبصفة خاصة — بالأعمال العظيمة ومعرفة حقائق الحياة . وإنه لما ينال من هيبة الفرنسيين أن نحذو حذو بعض مواطنينا الذين لا يدركون حقيقة وجمال مثلنا الأعلى الذى ندين به . آه ! هذا صحيح يا « سولانج » . لقد رأيت أشياء جد مؤسفة كان من الممكن تجنبها ولم أكن أبالى بها كثيراً . أما الآن فقد فات أوان

إصلاح الشر الذى ارتكب . سوف تخبرين أباك أننى قد صفحت عن كل شىء ...
أما أنت ، فيجب أن تعدينى بأن تخلفينى فى القيام بتلك الرسالة المقدسة . ولا تنسى على الأخص « يوكا » الذى أخلص لى كل الإخلاص ، وسوف يخبرك بأشياء لا أجرؤ على إطلاعك عليها بنفسى . أما أنت ياصغيرى « مامبيكيه » فها أنت قد أوشكت أن تصبح رجلا ويجب أن تفهمنى ، ولا شك أنك جئت لأنك فهمت ، كما لا أشك فى أن قلبك الكبير إنما يجهل معنى الضغينة ، وهذا شىء حسن للغاية يا ابنى . وأنت فى هذا إنما تشبه أباك فعلا ، ولن أنسى أبداً كل مافعلته من أجلى ، فأنا أذكر تماماً أننى أدين لك بحياة ابنتى . ولكنك لم تنته من أداء رسالتك بعد يا « مامبيكيه » ، سوف تستمر فى مساعدتها ، وفى القيام بها ...

وانطفأ صوتها ببطء . لقد انقطع الخيط الذى كان يربط « مارى روز » بالحياة ، بالألم . وبدون أى اضطراب نامت نومتها الأبدية ، وراحت فى غياهب المجهول ، ومازال وجهها ينم عن الارتياح والابتسامة المباركة ترتسم على شفتيها اللتين أغلقتا إلى الأبد . كان يبدو أنها عادت إلى ما كانت عليه وهى فى الثالثة والعشرين من عمرها . لم تعد « مارى روز » هنا ... ولكن مازلنا نشعر بوجودها الذى تطيب له النفس وما زال الطفلان يشعران بقبلاتها وهى تداعب جبينهما . إن بكاء الطفلين يملأ الآن حجرة المريضة . وبللت دموع الفتاة التى تتساقط فى حبات غليظة ، وجه الميتة . هاهو الألم قد زوجها وهما يبكيان فى هذا السكون الشامل ، دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر . وكانت يداهما لا تزالان متشابكتين على صدر جثة « مارى روز » . أما الطبيب المقيم الذى أخبرته الممرضة القائمة بالعمل بما حدث فلم يجد الوقت مناسباً لإبداء ملاحظاته على تلك الزيجة التى تمت فى الألم . إن الطبيب حديث السن وهو لم يتخرج إلا حديثاً وما زال يؤمن بالاتحاد بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وهو يعلم أن الأرواح لا لون لها وأن فى إمكانها أن تتحد فى الألم كما تتحد فى السعادة ، ولذا لم يطلب من الشاب والفتاة ، اللذين جمعهما الألم ، أن يتركا المكان إلا ليسمحا لهيئة العاملين بالمستشفى بأن يقوموا بما يستوجبه الموقف من غسل ونقل تلك التى يبكيانها فى قلب واحد متحد . انسحبت « سولانج » ومعها « مامبيكيه » إلى الشرفة ، ولم تستطع الممرضات بدورهن ، — أمام ألم الشابين العميق اللذين نالت منهما المصيبة كل منال — أن يمسكن عبراتهن . إنهن ينظرن إلى « مامبيكيه » ويعتبرنه ابناً

بالتبنى لتلك التى رحلت . أما « روش موراكس » الزوج ، فهو مازال بالمطعم ، ولا شك أن الكأس قد منعته عن المجىء .

قالت الفتاة : اذهب الآن يا « مامبيكيه ، فوالدى سوف يحضر من لحظة إلى أخرى : سوف أراك فيما بعد وعندى الكثير أريد أن أقوله لك . يجب أن أتحدث إليك وأن أوجه إليك بعض الأسئلة لأنى لم أفهم تماماً كل ما كانت تلمح إليه والدتى . لاشك أنك كنت على علم ببعض أشياء أجهلها أنا ، وسوف تكلمنى أيضاً عن أبيك . ويجب أن تعرف ياسيد « مامبيكيه ، أن لابد لى من أن أوفى بالوعد الذى قطعته لأمى منذ قليل ، وأنا أشكرك مرة أخرى على أنك جئت ... شكراً ياصديقى .

لاتنسى أننا مزجنا دموعنا منذ قليل على صدر تلك التى لم تعد من دنيانا ، دنيانا هذه التى تتمسك بالتقاليد . إلى اللقاء ... إلى اللقاء ياصديق .

عجز الشاب عن أن ينطق بكلمة واحدة يجيب بها على الفتاة ، وخرج من المستشفى مضطرب الفكر ، ضيق النفس ، وهو يرى « سولانج » ولية نعمته ، والألم يعتصرها هكذا ، بينما هو عاجز عن أن يعمل أى شىء ليساندها ويساعدها ويشجعها فى محنتها . إن عجزه عن عمل أى شىء من أجل تلك الفتاة التى طالما ساعدته ، هولون من الجبن فى رأيه . لقد نسى عن طيب خاطر أنه قد خاطر بحياته لينقذها من بين أسنان التمساح المفترس ، ولم يعد فى استطاعته أن يرى إلا شيئاً واحداً : تركه صديقة طفولته فى لحظة قاسية كهذه ، واضطراره إلى أن يهرب ... اضطراره دائماً إلى الهرب من أمام « روش موراكس » ، بينما أن واجبه يقتضيه أن يبقى بالقرب من « سولانج » وأن يسهر عليها . إن مايدهشه هو أن مشاعر الأب تجاهه قد بقيت كما كانت ، فهو لم يفعل أى شىء يمكن أن يغضبه ، بل من حقه على العكس أن ينتظر منه بعض الاعتراف بالجميل لأنه انتزع ابنته من فم وحش البحر . إذن ! إذن ! لم يضطر إلى أن يهرب منه ؟ إن تساؤله لا يقف عند هذا الحد ، فهناك شىء آخر يجب أن يعرفه : هل من المحظور حقاً على الرجل الأسود أن يؤدى واجبه الأخير تجاه امرأة كانت دائماً بالنسبة إليه بمثابة الملاك الحارس لأسرته ؟ وتساءل الفتى : لماذا ، لماذا كانت « مارى روز » هى الوحيدة التى أحست بجمال أخوة الإنسان للانسان وضرورة الدفاع عن المثل الأعلى الذى يدعو إلى اتحاد الناس جميعاً بالرغم من اختلاف ألوانهم وظروف حياتهم ؟

أهي من طينة أخرى ، من طينة أرق ؟ أكانت تؤمن بالمساواة بين الناس بالرغم من لون بشرتهم ومن موقع بلدهم الجغرافى لأن نظرتها إلى الأشياء أصوب ولأنها أوسع أفقاً منهم ؟ ولكن لماذا يختلف زوجاهما تماماً، هذا الـ «موراكس» ذو القلب المتحجر ؟ لماذا يعارض هذا الوئام بين الأجناس ؟ من منهما على حق ياترى ، هو أم زوجته ؟ لابد أنه هو ، لابد أن ليس من حق الرجل الملون أن يعتبر نفسه من الكائنات البشرية . وإذن ... وإذن ... مامعنى كل هذا الكلام الجميل وتلك التأكيدات التى تضمنتها الكتب؟ ولكن لا، كل هذا ليس إلا خزعبلات، كل هذا أوهام ، إذ أن الحقيقة إنما تثبت العكس . فهاهى الادعاءات الآرية قد وصل بها الأمر إلى حد أنها تمنع اتحاد الناس حتى أمام الموت وعلى عتبة الأبدية . هناك مدافن للبيض ، يحيهم الذى تملؤه الأزهار والذى يعنون به دائماً ، بينما يرقد الموتى من السود بالقرب من فرع من النهر تتهددهم مياهه بالغرق . هاهم يرقدون فى مكان معرض للغرق تغمر جوانبه الحشائش والأخشاب التى تعوق دخول نعوش الموتى الجدد الذين يبلغ عددهم مئات كل يوم . وهناك ماهو أدهى : ترى هل ينعم بالاستقرار ذلك المكان المخصص لراحة الموتى ، الفريد فى نوعه ، تلك المدينة التى تحيط بها المياه والمخصصة للموتى السود ؟ لا ، فإن هؤلاء الموتى يطردون من مدفن إلى مدفن ، ومن مستنقع إلى مكان آخر رملى ليفسحوا للأحياء مكاناً يتيح لهم بناء العمارات . ليس هناك أى احترام لهؤلاء الذين كانوا من أبناء البشر وليست هناك أية شفقة بهم ، وكل جريمتهم أنهم ولدوا سوداً . أما الحضارة والإخاء بين الناس وتلك المعانى التى تدعو إليها الكتب والتى تدرس بالمدارس فليست إلا شعارات وهى معان تتعارض كلها مع مايشاهد فى الحياة ومع كل مازال الفتى يراه بعينيه حتى الآن . ألم يطرد منذ قليل من جانب فراش ميتة لا لسبب إلا لكونه أسود ؟ كيف يتسنى فى هذه الظروف للآنسة «موراكس» بالرغم من إصرارها ومن نياتها الطيبة الكريمة ، أن توفى بالوعد الذى قطعته على نفسها أمام روح هى الآن فى عالم آخر ، وهو عالم لاشك أفضل من عالمنا هذا . رأى «ماميكيه» إزاء هذا الاستنتاج المؤئس أنه مضطر أن يثور ضد تلك الفلسفة المادية التى تؤكد له — من خلال ذلك التعليم الذى أقبل عليه وتبحر فيه زهاء خمس سنوات — إن كل شىء سينتهى بانتهاء حياتنا على الأرض . أليس من حق الرجل الأسود إذن ، المحروم من حقه فى السعادة فى عالمنا هذا ، والذى لايصادف فيه إلا اليؤس، أن يأمل فى مصير أفضل فى العالم الآخر؟

أيمكن أن يحرم أيضاً من أمل فى تعويض يناله فى العالم الآخر لكى تكون له الشجاعة فى تحمل قيوده الثقيلة وما يعانيه من ألوان العبودية ومن آلام متعاقبة ؟ أسيضطر دائماً إلى المطالبة بلقب الآدمى وإلى أن يتذوق دائماً مرارة الشعور بأنه كبش الفداء بالنسبة إلى غيره من الناس — وهم إخوته فى الإنسانية — حتى فى الأبدية ؟

وعاد « مامبيكيه » إلى القرية والأفكار القاتمة تملأ رأسه ولذا لم يستطع أن يغمض عينيه طوال الليل، بل لقد بدا له أنه لن يجرؤ على التوجه إلى المدرسة فى اليوم التالى . ولكن ، بالرغم من كل مافكر فيه وبالرغم من اقتناعه باستحالة التفاهم بين الآريين والسود ، توجه مع ذلك إلى جنازة « مارى روز » المرأة البيضاء ، ذلك الملاك الذين كان يهيم فى هذا العالم القبيح ، تلك التى لم تبالى بالفروق بين الأجناس وألوانها ، فهى لم تكن إلا الروح ، والروح واحدة عند البشر جميعاً ، وقد برهنت على ذلك فى كل مناسبة .

جاءت بعض رفيقات « سولانج » بدير « ليوبولدفيل » كما حضر بعض أصدقاء قليلون لـ « روش موراكس » ، جاءوا ليصحبوا « مارى روز » إلى مثواها الأخير .

وعند خروج « سولانج » من الكنيسة بعد الانتهاء من صلاة الموتى ، تعرفت على « مامبيكيه » الذى كان يتخفى وراء المرضين المكلفين بحمل الجثمان .

وفى المدافن رأت ابنة الرجل الأبيض ، مرة أخرى ، صديقها الأسود راكعاً بجانب مقبرة منعزلة ومهجورة .

نظر الطفلان كل منهما إلى الآخر وكانت نظراتهما عميقة . ماذا يقول كل منهما للآخر ياترى ؟ مامعنى تلك النظرات الحزينة الملأى بالعذوبة ؟ ذلك هو السر الذى سوف يكشفه القارئ فى الفصل الثانى من هذه القصة .

الفصل الثاني

الإعتراف

هاهو « مامبيكيه » بمدينة « برازافيل » منذ قرابة شهرين .

ومن العسير على المرء وهو فى الثانية عشرة من عمره، أن يكون لنفسه مركزاً فى مدينة كبيرة كعاصمة إفريقيا الاستوائية الفرنسية حيث يتميز السكان بأنانية يجهلها كل من تغرب عن قريته الأصلية وتاه فى « جومور » الجديدة هذه .

إن بطلنا — بالرغم من أن « أومامبي » قد أحسن وفادته كما فعل من قبل مع أبيه — يلاقى صعاباً لم يكن يتوقعها . كانوا قد امتدحوا له « برازافيل » وأسرفوا فى ذلك ، وقد صدق بسذاجة أن فى إمكان الإنسان أن يحصل من شوارعها على كل شيء : الثروة والصيت والموهبة والحماية . ودهش الغلام كل الدهشة عندما اكتشف أن خططه جميعاً قد شلت بسبب سلسلة من حقائق مؤنسة . كانت خطته مع ذلك بسيطة للغاية : أن يصبح ذا مركز فى مجتمع السود ، وأن يلم بكل ما يعرفه هؤلاء الناس البيض الذين لا يمكن معرفتهم وفهمهم إلا بالتفكير على النحو الذى يفكرون به والتكلم بلغتهم ، فهم أناس غير عاديين يتمتعون بسلطان كسلطان الله نفسه . كان لابد من أن يذهب إلى المدرسة ليدرك هذا الهدف . نعم ، ولكن كيف يتسنى له هذا ، وكيف تقبله المدرسة وهو البدائى الصغير ابن الأحراش الذى رسا منذ قليل بتلك المدينة الكبيرة التى تسودها الأنانية ؟ يبدو أن هذه المدرسة المشهورة لاتقبل كل من يتقدمون إليها ، وليس لذويه أى نفوذ ، « وأومامبي » ، لايعدو أن يكون عاملا بسيطاً « بالشركة العامة لوسائل النقل الإفريقية »[1] ، وليس فى إمكان الرجل أن يفى بما تتطلبه مقتضيات التعلم ، وهو بمثابة غذاء لاغنى عنه بالنسبة إلى رأس « مامبيكيه » المتعطش للمعرفة . آه ! آه لو أن « سولانج » — تلك التى تحميه — كانت هنا ! ولكن وا أسفاه ! لقد طردت هى نفسها مثله من « موساكا » ، لأنها

---

(١) (C. G. .T .A) أى :

Compagnie générale de Tranports Africains

مدت يد العون إلى طفل أسود . لابد أنها في مكان بعيد جداً الآن، فى مكان ما بفرنسا، فى هذا البلد الرائع ، بلد الفكر الثائر الذى كلمته عنه تلك الكتب التى كانت تعيره إياها ابنة الرجل الأبيض . إن الصبى الذى ضحى بنفسه من أجلها لينقذها من بين فكى التمساح ليذكر كل ذلك . كم من أشياء تعلمها على يد تلك الفتاة الطيبة اللطيفة المحبة التى تختلف كل الاختلاف عن الفتيات الأخريات !

نسى الفتى كريم النفس وهو يتذكر تلك الأشياء ما أعطاه هو من نفسه ولم يعد يذكر إلا ما أعطته إياه ابنة « مارى روز » .

إن « أو مامبى » متزوج ، وهو أب لطفلين ، وليس فى إمكانه ، كما كان يحب ، أن يقدم لـ « مامبيكيه » مساعدة فعالة تمكنه من تحقيق تلك الأمنية التى تتطلب من الوالدين تضحيات كثيرة ، فهناك الملابس وشراء الكتب والأدوات المدرسية المتنوعة . أما عن حصيرة النوم والطعام ، فإن « أومامبى » يقدمهما إليه بسخاء ، فالرجل لم يفقد ، بمعاشرته المتمدنين ، معانى كرم الضيافة المتأصلة فى نفوس الإفريقيين وهى من أولى صفات مجتمع السود .

وقد نتساءل : من هو « أومامبى » هذا الذى يقوم بدور العناية الإلهية بالنسبة إلى أسرة « يوكا » بأسرها ؟

إن « أومامبى » مجرد عامل بسيط بـ « الشركة العامة للمواصلات الإفريقية » ، منح تلك الوظيفة على سبيل الإحسان ، وهى وظيفة تعينه على أن يفى باحتياجات أفراد أسرته على نحو لا يكاد يسد أودهم . إنه واحد من آلاف غيره ، لفظوا بعد أن استغلوا مدة طويلة وبعد أن عجزوا عن العمل ، واحد من آلاف ضحايا نكران الجميل بين الناس فى هذا المجتمع . إنه أحد الأبطال من رفاق « ليكلير »[1] العظيم (بالفرقة المدرعة الثانية) الذين ستدوم ذكراهم إلى الأبد . وهو أحد الذين أفلتوا من موقعة « بير حكيم » التى شبهت بسعير جهنم . لقد هرب منها مع « كوينج » إلى « ستراسبورج » بعد قصة مثيرة تشبه القصص الخيالية ، قصة عجيبة مؤثرة يصعب

---

(١) هو الجنرال « ليكلير » الذى دخل باريس قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية على رأس الفرقة المدرعة الثانية واستولى على « ستراسبورج » . كان قائداً للقوات الفرنسية بالشرق الأقصى ومفتشاً للقوات الفرنسية بإفريقيا الشمالية .

على العقل أن يصدقها ، جرت حوادثها عبر بلاد إفريقيا الشمالية وسوريا وإيطاليا وفرنسا إلى أن وصل أبطالها إلى ألمانيا . ها هو الرجل الآن ، بعد أن ضحى بدمه من أجل تحرير فرنسا الأم ، مجرد عامل مغمور لا يشعر أحد بوجوده . لقد جرح الرجل واعتقل مرتين وهرب كذلك مرتين عاد بعدها إلى العمل فى صفوف « جبهة الفرنسيين الأحرار » (F.F.L) ، وقد نال وسام صليب الحرب مصحوباً بشعارات الغار التى تمنح للأبطال . ولم يعد « أومامبى » الآن إلا مجرد إنسان بسيط مغمور ، ينتمى إلى عشيرة الـ « ليكوبا » ضمن عدد غفير من مواطنيه الذين يعيشون مغمورين وراء الستار الذى يفصل بين الأجناس ، حيث يكفر عن جريمة أن ولد أسود .

حسناً ، سوف يستعين « ماميكيه » إذن بيديه الصغيرتين سوف يصنع سلالا وأقفاصاً وسوف يبيعها لتأتيه ببعض المال ، وسوف يعرض خدماته لمن يدفع الثمن كما سيعمل بشتى أنواع السخرة بالميناء وبمحطة السكك الحديدية ، كما سيقوم بمختلف الأعمال لحساب شتى الهيئات بالمدينة ليعين المحارب القديم فى صفوف جبهة الفرنسيين الأحرار فى فقره .

وبمجرد أن اتخذ الفتى هذا القرار شرع فى تنفيذ برنامجه غير العادى . كان ابن « بوكا » ذكياً ماهراً ولذا فقد أخذ يبحث فى الحال — وسط هــــذا الجيش من الأطفال الذين يزخر بهم المجتمع المتعدد الأشكال والألوان بـ « بوتو — بوتو » — عن أصدقاء فى مثل سنه يمكن أن يساعدوه . ها هو « ماميكيه » يتوجه كل صباح فى صحبتهم إلى الميناء ليحمل أمتعة المسافرين أو للمناداة على دافعى العربات ولنقل الرسائل وحراسة الكلاب الصغيرة التى تملكها السيدات الأوربيات اللائى تحتجزهن مشاغلهن فى أماكن أخرى . أما فى المساء فهو يقوم ، ابتداء من الساعة السابعة ، بشتى الأعمال لمختلف الهيئات المدنية والعسكرية ، بنوادى البريطانيين والكورسيكيين ونادى التماسيح . وكان «ماميكيه» قبل أن يأوى إلى حصيرته لينام ، يجدل سلة أو ينتهى من صنع قفص يكون قد بدأه فى الليلة السابقة . وهاهو يألف بسرعة هذا العمل الشاق المرهق الذى يتيح له كسب بعض المال يمكنه من شراء سروالين أو ثلاثة وأربعة قمصان وست فنلات بل وزوج من الأحذية مناسب جداً ، وها هو — بدلا من أن يصبح عالة على أسرة « أومامبى » — يساعد قدر استطاعته زوجة

إبن عمه التى أصبح فى إمكانها الآن أن تعد ألواناً من الطعام تزيد قيمتها الغذائية عن ذى قبل ويتناولونها على حصيرة الأسرة المعدة للطعام .

بل إن نشاط الفتى لا يتوقف عند هذا الحد فهو يرنو الآن إلى اكتشاف مدرسة تناميه .

لقد لاحظ منذ بضعة أيام أن هناك عدداً من الأطفال ، أكبر من عدد رفاقه ، يتوجه كل صباح إلى مركز تجمع السود . كان أغلب هؤلاء من حاملى الحقائب الشبيهة بتلك التى تستعملها ابنة الرجل الأبيض بـ « موساكا » لتحمل فيها كراساتها وكتبها . لابد إذن أن المدرسة موجودة بتلك الناحية . سوف يذهب إليها إذن .

وذات صباح ، وكان يوم اثنين ، ودون أن يخطر أحداً من أسرة « أومامبى » عما انتوى ، ارتدى « مامبيكيه » سروالا قصيراً أبيض اللون وحذاءه الجميل وتبع بقية التلاميذ الذين كانوا يتجهون شطر المدرسة .

هاهو بناء ضخم طويل شيد من الطوب الأحمر يمتد أمام عينيه المبهورتين . إن البناء مقسم إلى عدة قاعات، وسقفه مغطى بألواح من الصاج المموج ، وهناك لوحة كبيرة جداً مثبتة فوق الباب الرئيسى تسطع عليها فى ضوء الشمس حروف قوطية ملونة ، حروف كبيرة حمراء تكون هذه الكلمات : «المدرسة الإعدادية بـ «بوتو–بوتو»» لقد شيد البناء وسط فناء فسيح يحيط به من جميع الجهات سور حديدى تغطيه أوراق الأشجار الحمراء والبنفسجية اللون . وكانت هناك شوارع ضيقة كثيرة تمتد على طول الحشائش والأزهار ، تموج بالأطفال قبل دخولهم المدرسة . كما كانت هناك ورود حمراء متلاصقة كثيرة تظلل الأزهار الباسمة المبعثرة هنا وهناك ، فى إطار فنى رائع الجمال . تلك هى المدرسة ، وهنا تكمن المعرفة والسعادة . هنا الفردوس .

إن المدرس الإفريقى ينادى الآن على التلاميذ ، وبعد أن أجاب التلاميذ عن أسمائهم اندسوا داخل الحجرات التى يتخللها الهواء ، فيحمل إلى خارجها همهمة دب حبيس يضيق بقفصه . ولم يذكر اسم « مامبيكيه » طبعاً بين تلك الأسماء ، فلا أحد هنا يعرف هذا الـ « ليكوبا » الصغيرة الذى وقف على بعد بضعة أمتار ممن جمعتهم

تلك الجنة . أما المدرس ، فها هو يتأهب ، كما فعل من قبل القديس بطرس الذى جاء ذكره بالتوراة ، ليغلق باب الفردوس . وأشار « مامبيكيه » إلى الموظف الذى لم يغض طرفه عنه واقترب منه بشجاعة .

قال ساكن الأحراش الصغير فى أدب ، وكان يشعر ببعض الخجل من تلك الشخصية العظيمة : — عفواً ياسيدى الأسود الأبيض[1] ، هل تتكرم بقبولى بمدرستك ؟

وأجاب الرجل برقة إذ تحاشى أن يخيف الطفل ، فقد كان انفعاله شديداً : — « من أين جئت يابنى ؟ وأنا لا أسمى بالأبيض الأسود فلست أبيض أسود ، إنما فقط أخ أكبر لك من نفس جنسك وهم يلقبوننى هنا بالمدرسة بالسيد الناظر ، ولكن هذا لا قيمة له الآن . أخبرنى أولا : من أين جئت ومن أرسلك إلى ؟ هل تحمل رسالة لى من قبل شخص يوصينى بك ؟

— لا يا سيدى الناظر ، ليس معى خطاب توصية ، ولست من هنا ، وأنا لا أعرف أحداً بتلك المدينة الكبيرة سوى ابن عم لأبى . لقد جئت مباشرة من «موساكا» ولم أحل بـ « برازافيل » إلا منذ ثلاثة أشهر فقط . لم أكن أعرف أن فى وسعى أن أجد مدرسة ، وقد سمحت لنفسى فى هذا الصباح أن أتبع هؤلاء الأطفال الذين رأيتهم يتجهون إلى هذه الناحية ، لكى أعرف إن كان متبقياً فيها مكان متواضع لى ، أوه ! أرجو ألا تطردنى وألا ترفضنى يا سيدى الناظر . أنا أتوسل إليك وأعدك بأننى سأعمل بجد ونشاط .

— ولكن ياولدى العزيز ، لا يمكننى أن أقبلك هكذا فهناك تعليمات صارمة تمنعنى من أن أسجل أسماء كل هؤلاء الصبية الذين يجوبون شوارع مدينة « بوتو — بوتو » دون ما تمييز . ثم هناك ميعاد للقبول بالمدرسة وقد انتهى هذا الميعاد منذ حوالى شهرين . وفوق ذلك ليست لديك ، كما أخبرتنى ، أية شهادة مدرسية تقدمها لى وأنا لا أعرفك . أين بدأت دراستك ؟

لم يكن معروفاً لدى أحد ولم يكن يحمل أية شهادة مدرسية يمكن أن يقدمها . أوه ! كم هو عسير كل شىء بتلك المدينة اللعينة !

---

(١) Ondelé N'Dombé أو بالفرنسية "Blanc-Noir" أى الأبيض الأسود الذى يتادى به الإفريقيون الذين يقلدون البيض .

بق « مامبيكيه » — وكان يذرف دمعاً سخيناً — واقفاً هكذا دون أن يفكر فى الرحيل . كانت عيناه الدامعتان مسلطتين على باب المدرسة الكبير ، تلك المدرسة التى ربما لن يراها ثانية بعد الآن .

وأضاف المدرس مشفقاً : أصغ إلى ياصغيرى ، أصغ إلى . ليست عندى فسحة من الوقت الآن لأعنى بأمرك . إنك تروق لى جداً إذ يبدو أنك فى غاية الذكاء . تعال إذن لمقابلتى هذا المساء فى بيتى . سوف نتكلم فى كل هذه الأمور على سجيتنا ، وسوف تقص على عندئذ حكايتك ، وسوف أرى إن كان من الممكن عمل شىء من أجلك . إنى أسكن بيتاً فى مواجهة مقر البلدية ، وهو كوخ كبير مشيد من الطوب الأحمر يقع على ناصية شارع « فرنسا » . لعلك تعرف هذا المكان الذى أعنيه ، أليس كذلك ؟ حسناً . سوف تأتينى إذن هناك وليس عليك إلا أن تطلب مقابلة السيد المدرس « موانجا » . هيا . تشجع ياولدى ، لاتبك وإلى اللقاء فى هذا المساء .

رحل الولد أخيراً . وكان حزيناً فقد خاب ظنه ، وعاد إلى الحى الذى يسكنه محطم القلب وهو يبتهل إلى أرواح الموتى من كل قلبه أن تساعده .

ها هو الآن جالس فى مواجهة المدرس . إن قلبه الصغير يدق دقات عنيفة حتى لكأنه سينفجر . هل سيفلح ياترى فى إقناع قاضيه ؟

شرع الـ « ليكوبا » الصغير ، قبل أن تبلغ الساعة السادسة ، فى البحث عن كوخ السيد « موانجا » الذى كان عليه أن يقرر مصيره ، وقد يسر له البحث أحد أبناء الحى . وها هو منذ ساعتين جالس تحت نظرات المدرس الفاحصة الذى بدا الاهتمام عليه . وبعد أن قرأ الموضوع الذى طلب منه كتابته والذى يصف فيه هروبه من « موساكا » أخذ السيد « موانجا » يملى عليه فقرة من حياة « دى برازا » ، وقد أضاف إلى هذا الواجب بعض تمارين فى العمليات الحسابية الأربع ومسألة خاصة بالمقاييس .

إن الطفل موهوب حقاً وهو بادى المران كما يثبت أنه يتمتع بذكاء غير عادى بالنسبة إلى طفل يأتى من الأحراش هذا ما لاحظه الممتحن الذى لم يستطع أن يكتم دهشته عندما علم أن هذا الـ « ليكوبا » الصغير العجيب لم يتردد أبداً على المدرسة وأنه قد تعلم كل هذا سراً . لا ، إنه لا يصدق أذنيه لذا فقد طلب من الصبى أن يعيد حديثه عدة مرات ولم تفت الطفل فى كل هذا أية تفاصيل . قال إن أباه يعمل طاهياً عند

رجل أبيض ، وأنه يلقى على يديه كل صنوف العذاب ، كما قال إنه هو نفسه لم ينج من بطشه ، وأن ابنة الرجل الأبيض هى التى علمته القراءة والكتابة والتحدث بالفرنسية . وقص الطفل على الرجل كيف جازف بحياته لينقذ ابنة الرجل الأبيض وكيف أبعدها والدها إثر اهتما مها بأمره ، هو الأسود الصغير ، وكيف سجن أبوه « بوكا » ، وكيف هرب هو نفسه من قريته ، بعد أن اختبأ ثلاثة أشهر عند عم له ، إلى « برازافيل » ليقيم عند ابن عم لوالده . ولم يغفل الصبى وهو يسرد قصته وصف تلك الصعاب التى لقيها قبل أن يكتشف مكان المدرسة ليجد ما يستر به نفسه .

دهش المربى عندما وجد أن لدى الطفل فى تلك السن المبكرة كل هذه الإرادة وكل هذه العزيمة . لقد تبين بسرعة — بعد تلك الاختبارات التى أجراها له — إن مستوى الـ « ليكوبا » الصغير فوق مستوى شهادة إتمام الدراسة الابتدائية التى تمنح للمواطنين الأصليين ، بكثير ، وهم يسمونها هكذا ، إذ أن التفرقة المؤسفة مازالت تسود حتى فى هذا . وأدرك الرجل أن لابد من مساعدته على نيل تلك الشهادة قبل توجيهه إلى دراسات أعلى مرتبة .

لقد قيد اسم « مامبيكيه » بالمدرسة وسوف يواظب على الذهاب إلى المدرسة الإعدادية بـ « بوتو — بوتو » حيث سيلمع بذكائه المتقد وبمواهبه النادرة التى تساعده على استيعاب كل شىء . وترتيبه هو الأول فى اختبارات « شهادة إتمام الدراسة الابتدائية للمواطنين الأصليين » المشهودة .

لقد شجعه السيد « موانجا » فقد خصه بحبه وأعطاه ، فى هذه الفترة ، دروساً إضافية تمكن بفضلها من التقدم لمسابقة القبول بمدرسة « إدوارد رينار » العليا . وكان ترتيب ابن الأحراش فى تلك المسابقة أيضاً الأول بتقدير « جيد جداً » .

ومع ذلك فقد كانت هناك صعوبة تعترض طريق صديقنا أيأسته أكثر من الصعاب الأخرى ، فليس هناك من يضمنه ، ومن يوقع على التعهد الخاص بتقديم خدماته فيما بعد ، أى بعد حصوله على الشهادة المطلوبة إلى الإدارة المحلية وبوضع نفسه تحت تصرفها . وليس فى استطاعته أن يطلب ذلك لا من ابن عم أبيه ولا من أبيه فهو يعرف سوء حالتهما المالية وضآلة مركزهما وهى شروط تتطلب التعليمات الصارمة توافرها فى الضامن . أى نعم ، فإن اسم « أومامبى » وهو من أبطال موقعة

« بير حكيم » لم يكن له فى نظر الإدارة وزن أو اعتبار . وقد أمكن أخيراً ، بفضل تدخل المربى « موانجا » المحبوب والذى تسمع كلمته فى الإدارة العامة للتعليم ، قبوله طالباً منتسباً بالمدرسة العليا ، مع تعهده بأن يضع نفسه تحت تصرف الإدارة المحلية ، بعد تخرجه ، مدة عشر سنوات . أما الأدوات اللازمة لدراسته كالكتب والزى المدرسى والمعدات الأخرى فقد استعان « مامبيكيه » ليتغلب على تلك الصعاب التى اعترضت طريقه بيديه ليتكسب بهما . كان فى أيام الآحاد وأيام العطلات الرسمية وفى أيام الخميس ، وفى كل مساء — لاترهقه فيه دروسه الكثيرة — يعرض خدماته فى كل مكان يمكن أن يحتاجوا فيه إلى يديه الماهرتين . لقد عاد من جديد إلى الميناء وإلى محطة السكك الحديدية واخذ ينتقل من سهول المدينة إلى التلال المجاورة يقدم فيها خدماته لمن يطلبها . وقد أعطاه مدير المدرسة العليا بدوره عملا مجزياً لدى موظفين كبار يفضلون أن يروا أولادهم يدرسون بالبيت على إرسالهم إلى المدرسة الابتدائية التى يدرس فيها مدرسون من السود مما قد يضعف — فى تقديرهم — من هيبة أولادهم .

إن « مامبيكيه » دائم المرح فهو لا ييأس أبداً ، حتى فى مجابهة الشدائد ، وهو مجد فى دراسته ، بل هو كما تقول عنه تقارير المدرسة أقوم التلاميذ خلقاً وأحسنهم هنداماً ، وهو الذى يحصل على أكبر التقديرات . إن زيه فى غاية النظافة ، هذا الذى يثبت عليه بفخار شعار المدرسة أى حرفى « م . ع » . من كان يتصور أن مظهره هذا يمكن أن يكون من ثمرة عمله وبفضل العرق الذى يتصبب منه فى أوقات فراغه ، وأنه هو نفسه الذى يغسل تلك الملابس ويكويها فى المساء على ضوء مصباح يتصاعد منه الدخان ؟ إن ترتيبه دائماً الأول وفى كل المواد ، أما مدرسوه الذين لايبخلون عليه بالنصح والتشجيع فهم يحملون له مودة خاصة . لقد قيد بالقسم التربوى ولذا فهو يذهب من « باكونجو » إلى « بوتو — بوتو » ليتابع بها دروساً فى التربية العملية .

بلغ ابن « تانجو » السادسة عشرة من عمره . ومما يبدو عجيباً بالنسبة إلى شاب فى مثل سنه ، فى تلك المناطق الاستوائية — وهو شىء يجعل الناس يتحدثون عنه — هو أن أحداً لم يصادفه أبداً فى أماكن اللهو كالمراقص والحانات والنوادى المريبة

التى يرتادها شباب فى مثل سنه ، يحضرون إليها فى ملابس منشاة يتباهون بها . إن الشاب وسيم ، طويل القامة ، ولكن يبدو أنه يخشى الفتيات اللائى يسعين وراء الزواج المثير . وهو يفضل أن يحبس نفسه فى غرفته ليحادث فيها كتبه وليقوم بجدل سلاله وأقفاصه . ولكن قد نتساءل : ماعذره فى هذا ؟ عذره أن ليس لديه وقت للهو . وهناك كثيرات يجرين وراء اللهو يترددن بانتظام على بيت « أومامبى » وهن يشعرن بالمهانة إذ يجدنه لايبالى بهن ، وهن يعبسن فى وجهه ويوجهن إليه ألفاظ العتاب وإن كن يقرنها بنظرات نارية . ولكن صاحبنا لايجيب ، لا على مؤاخذتهن ولا على عروضهن التى يخفين مراميها وراء نظراتهن الغامضة والتى يشك فى إخلاصها لإفراطها فى التأدب . إن المنافس الوحيد لحبه للدراسة هـو الرياضة ، وليس هذا بعجيب فقد كان الـ « ليكوبا » الصغير ، وهو مايزال فى الثامنة من عمره ، ينافس فى قريته من هم أكبر منه سناً وأكثر تدرباً على السباحة والسباق ، وأوسع خبرة عن المسابقات التى تقام فى المناسبات الدينية ، ولعلنا لم ننس هذاالنصر المدوى الذى أحرزه عندما انتزع من بين فـكى التمساح ، وتحت بصره ، ابنة الرجل الأبيض .

إن الجميع يسعون للظفر بزمالة « مامبيكيه » فى اللاكمة وكرة القدموالمبارزة على المـاء والسباق والقفز بالبوصة ، وهو منافس يخشى جانبه بالنسبةإلى الفرق الأخرى ، وهو فى الفصل وفى اللعبزميل ممتاز .ويتمنى الجميع أن ينضم إلى فريقهم هذا الـ«ليكوبا» طويل القامة ذو العضلات المستديرة المرنة . وكان الشاب سباقاً إلى خدمة الناس ، ولم يكن له بين طلبة المدرسة العليا إلا أصدقاء اعترفوا له وأقروا تفوقه عليهم بفضل ذكائه المفرط . ولكن وا أسفاه ! إن أفضل المجتمعات لايخلو من عضو فاسد ، وهو يتمثل فى شخص « ماكسو » الذى يغار من تفوق الـ « ليكوبا » الصغير . وكان من عيب « مامبيكيه » — إن كان فى هذا عيب — أنه لايطيق المتعالين ، ولذا فقد اضطر إلى أن يلقى درسا على « ماكوسو » هذا الذى سمح لنفسه أن يسبه علنا .

إن « ماكسو » من مواليد « بوان نوار » وشأنه كشأن أفراد قبيلته جميعا — وهم قليلو العدد على أى حال — فهو يعانى من عقدة الشعور بالتفوق وهوشعور يؤدى إلى عكس مايرجوه صاحبه إذ يدفعه إلى أن يسىء التصرف وأن يغفل مجاملة كل من ليسوا من سكان شواطىء المحيط الأطلسى . والشاب الصغير المتعالى لايطيق ابن الأحراش ،

ولا يستطيع أن يهضم تفوقه هـذا الذى لاينازعه فيه منازع . وهو يشعر أنه قد سرق ، وأن حقه قد سلب ، وأنه قد أهين ، وأن قدره يقل طالما شغل « مامبيكيه » المراكز الأولى جميعاً بالمدرسة العليا . وهناك من يدعى أن ابن قبيلة الـ « فيلى » الصغير يلجأ إلى وسائل غير مرئية ليؤذى بها زملاءه المقيمين معه بالمدرسة فى القاعات وحجرات الدرس . أما « مامبيكيه » — وهو طالب منتسب — فلم يكن فى إمكان الـ « فيلى » أن ينال منه بأعماله السحرية ، ولذا فقد كان هذا الأخير يرفض إشراك من يسميه بـ « البدائى ابن الأحراش » معه فى الألعاب التى يشترك فيها هو ، « ماكوسو » ابن الشاطىء . كان يقول : أصغوا إلى ، لم أعد أطيق صديقكم « مامبيكيه » هذا . أتسمعون ؟ إنى لم أعد أطيقه ، ولقد مل سمعى ترديد اسمه ، ومن حسن حظى أن هذا الولد ذا الصفات الكاملة لم يتمكن من أن يؤثر فى . « مامبيكيه » ... « مامبيكيه » ... « مامبيكيه » ... لم نعد تسمع إلا هذا الاسم طوال النهار . ولـكن بحق الشيطان من هو هذه الأعجوبة ؟ إنه ليس إلا متوحشاً صغيراً من الـ « ليـكوالا المحوطة بالعشب » ، أو هو من منطقة من هذا القبيل ، من قرية متأخرة تفوح منها الروائح الـكريهة ، ملوثة بالذباب حامل مرض النوم ، حيث يستعملون الزوارق كمراحيض ، وحيث يعتبر لبس السروال والزى الأوربى شيئاً عجيباً كتلك الأزياء التى يلبسها ساكنو كب « المريخ » أو « جوبيتر » . هيا ياسيد « نـكانجا » أرحنا من هذا الدخيل الذى عرف كيف يتفاهم مع جميع المدرسين ليسلب الأماكن التى يستحقها أكثر الطلبة كفاءة نعم ، إن هذا الـ « ماكوبا » أو هذا الـ « باكوبا » إنما يعمل فى الظلام ، نعم إنه ينشط فى ظلمات الليل عند المدرسين العزاب يبدو أنه « آدونيس » (١) « موساكا » ، وكل الـكونغو الأوسط ها . ها . ها . هى . هى . هى .

لقد أراد السيد « نـكانجا » المشرف العام — الذى أغضبه هذا التحدى — أن يلجأ إلى التعليمات وأن يعاقب بشدة ، باسم النظام ، هذا الذنب الوقح المتعالى وأن يجعله يلزم حدوده .

واقترب « مامبيكيه » من المشرف العام فى هدوء ، ودون أن تبدو عليه أية علامة من علامات الغضب ، وقال له :

---

(١) اسم مستمد من الأساطير اليونانية ، يرمز إلى الجمال المخنث .

— لاتبال ياسيدى المشرف العام . لقد مر وقت طويل على « آكل الجوز » هذا وهو يتمادى ، ولذا فهو يحتاج إلى درس يفيده . هل تتكرم وتسمح لى بأن أقول له كلمة على انفراد ؟

— لا يا « مامبيكيه » ، سوف أخطر السيد الناظر وسوف يتخذ الإجراء الذى يراه مناسباً .

وصاح أصدقاء الشاب الهمان : « مامبيكيه » ... « مامبيكيه » أثبت لهذا المتعالى المتبجح أنك لست جباناً .

وأردف « مامبيكيه » وهو مازال على هدوئه : ياسيدى المشرف العام ، إنى أكره بدورى المشاحنات وأنا على استعداد لأن أنسى كل شىء إذا ما قدم لى زميلى « ماكوسو » اعتذاره .

— كيف ، أأقدم اعتذاراً لك أنت ؟ لك أنت ياصائد سلاحف المياه العذبة ، يا آكل ضفادع البر والديدان ؟ أأعتذر لك أنا « ماكوسو — تشيكايا » ؟ أيمكن أن أعتذر أنا ابن أبى لاين مجدف بالقنوات ؟ أيمكن هذا وأنا « فيلى » عريق ، حفيد هؤلاء الأوائل الذين علموا أباك كيف يلبس القبعة وكيف يطهى العجة وكيف يستعمل الأطباق وكيف ينطق بأول كلمة فرنسية ؟ هو . هو . هو . هو ، لا ، لست معتوهاً ياصاح .

يبدو أن هذا الآرى الأسود الصغير يريد أن يتشبه بدعاة المدنية الحقيقيين ، أى البيض ، ذلك الذى يدعى الرغبة فى أن يرفع مستوى معيشة الملونين . أم لعلنا نخطىء فى هذا الظن ولكن لايمكننا أن نفهم معنى تلك الادعاءات الصاخبة أو لعل هذا الـ « ماكوسو » الصغير ، وقد شرب بعض الماء المالح ، يتصور أنه قد أصبح أوربياً وأن على الـ « ليكوبا » الصغير البدائى أن ينتظر خلاصه على يديه . ألا يبلل المحيط الأطلسى بمياهه سواحل الـ « كويلو » كما يخصب المدن على شواطىء فرنسا ؟ لايعدو الأمر أن يكون مغالطة فى أبسط قواعد الجغرافيا السياسية .

— أسمعت يا سيدى الشرف العام ؟ لعلك لا تسمح بأن أترك هذا الشخص الذى يملؤه الغرور ينساق فى سبي ، أليس كذلك ؟

وابتعد السيد « تكانجا » الذى تقدمت به السن وضعف بصره ، عن الغريمين اللذين تشابكت نظراتهما .

وتمتم « مامبيكيه » قائلا — وكانت الثورة تغلى فى أعماقه وإن تمكن من أن يخفيها وراء قناع من الأدب المصطنع : — ياعزيزى « ماكوسو » ، هل تتكرم بأن تعيد على مسامع ابن الأحراش والنهر تلميحاتك وأكاذيبك التى نطقت بها منذ قليل ؟

— لقد قلت وأنا أكرر إنك متوحش من الأحراش . ها أنا أقولها ثانية ... تدين بما أحرزته من تفوق إلى ألاعيبك القذرة و ...

— أرجو من جلالتك أن تتكرم بأن تنهض وأن تعيد ماقلته عما أدين له بتفوقى. خرجت تلك الكلمات من بين أسنان « مامبيكيه » وهو يوجه إلى وجه غريمه المتقلص نظرة ثاقبة .

شعر « ماكسو » بالخجل وبثورة تعتمل فى أعماقه عند سماع هذا الدرس القاسى الذى لقنه إياه من نعته بالمتوحش ، ولذا انتصب واقفاً على قدميه في الحال لينقض ، وهو مطأطئ الرأس ، على الـ « ايكوبا » الهادئ الذى كان ينتظره فى ثبات وهو ينحنى فى وضع الدفاع عن النفس ، وهو وضع يجعله فى مأمن من أن يناله أحد .

وسقط الـ « فيلى » على الأرض من أثر لكمة مباشرة أصابت فكه ، سقط وأخذ يعض الحشائش ويبصق من بين أسنانه . كانت شفته مشقوقة وكان زيه الأزرق القاتم غارقاً فى دمه .

— هيا أيها السيد التمدين ، هيا استرد أنفاسك ، هيا ، مازلت أنتظرك لنكمل حديثنا الشيق ، قالها «مامبيكيه» فى سخرية وهو يركل بقدمه المتكبر الوقح فيدحرجه فى جميع الاتجاهات ، وكان هذا الأخير يئن من الألم والخجل .

— عفواً . عفواً يا « مامبيكيه » ، رحمة بى ... رحمة بى ... إنى أسحب كل ما قلته . رحمة بى ... لن أخطئ فى حقك أبداً .

وأجاب المنتصر الهادئ أخيراً : — ها أنا أرى فى النهاية أن جلالتك قد

تعقلت الآن . لست أطلب أكثر من ذلك . إذا كنت حقاً قد أسفت على ما قلت ، وإذا كنت مخلصاً حقاً فى توبتك فأنا أسامحك عن طيب خاطر ، فلست بالشرير .

كان أصدقاء الـ « ليكوبا » الصغير يطيرون من شدة فرحتهم ويطلقون صيحات الإعجاب بانتصار زميلهم ، بينما أخذ المشرف العام يجر « ماكوسو » إلى حيث تقع الصيدلية .

إن « مامبيكيه » الآن فى السنة الرابعة بالمدرسة العليا . لقد أصبح أقوى بدناً وخلقاً وفكراً ، كما أن ذهنه قد تفتح على آفاق أوسع . لقد جعلت منه الرياضة شابا مفتول العضلات يتمتع بصحة كالفولاذ ... وفضلا عما كان الـ « ليكوبا » . يتلقاه من دروس بالمدرسة وعن تلك التى كان مدرسوه يتفضلون بها عليه ، فقد كان يبعث فى طلب كتب من أوربا . إنه مشغوف بالتعرف على تيارات الفكر الحديث . إن من يفضلهم من الكتاب هم « فولتير » و « كانت » و « جان جاك روسو » و « كارل ماركس » و « ليبنز » و «فيكتور هوجو» ، وأصبح فى إمكانه الآن أن يطيل الحديث مع السيد الناظر — وهو فى نفس الوقت مفتش عام بالتعليم — وكان رجلا واسع الثقافة لا يبالى بالأفكار العنصرية العتيقة ... كان فى إمكان « مامبيكيه » إذن أن يطرق معه أكثر الوضوعات تطرفاً . إن « مامبيكيه » يتمتع بذكاء غير عادى وهو يهدف إلى أبعد مما يهدف إليه زملاؤه الذين يتوقون إلى تقلد المناصب فى سلم الوظائف الإدارية ، ولذا فقد طلب أن يتقدم لامتحان المرحلة الأولى بالدراسة الثانوية « البكالوريا » . ووعده المفتش العام — عندما فاتحه فى هذا الأمر — بأن يساعده فى تحقيق هذه الرغبة .

كانت أمنية الشاب أن ينجح مهما كلفه ذلك من جهد ، ولذا فلم يعد يسمح لنفسه بدقيقة واحدة يستريح فيها وهو — عندما لا تشغله أعمال بالميناء أو بمحطة السكك الحديدية أو الدروس التى يعطيها لتلاميذه العديدين ، ليكسب ثمن ثياب جديدة أو زوج من الأحذية أو كتاب يلزمه فى دراسته — يغلق باب غرفته عليه ويعمل بجد ونشاط . لم يعد الناس يرونه إلا متأبطاً كتاباً أو منكباً على حل مسألة تتعلق بنظرية جديدة فى مجال المعادلات المركبة الشديدة التعقيد أو خاصة باللوغاريتمات والتعريفات النظرية والتطبيقية . لم تخطىء إذن الممرضة الشابة عندما عاتبته على عزلته قائلة له :

ـــ أنت دائما منغمس فى كتبك .

مازال الشاب يذكر مقابلته غير المتوقعة للآنسة « مورا كس » ومازال يتراءى أمام ناظريه هذا المشهد الذى انطبع فى ذهنه ولم يمح منه شىء ، منظر تلك الحجرة بالمستشفى التى تملؤها رائحة الإتير والمورفين ، وتلك الأيادى المتشابكة فوق صدر مدام « مورا كس » ، وعبراتهما الممتزجة التى بللت وجه الميتة ، وخروجهما معاً من الكنيسة بعد مراسيم قداس الموتى ، وحديثهما الصامت بالمدفن .

لقد وعدته بأن تقابله ، ولكن ها هى ثلاثة أشهر قد مرت دون أن تصل « ماميكيه » أية أخبار عن ابنة الرجل الأبيض .

ترى هل هى على شاكلة أبيها ؟ إنه مقتنع بأن لها قلباً كبيراً ، قلباً كريماً كقلب كل هؤلاء الذين قابلهم بالمدرسة العليا ، فقد اعتبروه ابن المدرسة المدلل ولم يعتبروه مجرد طالب كبقية الطلاب . لا يمكنه أن يتهم هذه الفتاة فأى نقد يوجه إليها هو ضرب من نكران الجميل لكل ما فعلته من أجله . ولكن ما السبب إذن ؟... لابد أنها نسيت كل ما وعدت به ، فالفتيات فى هذه السن كثيراً ما يعدن بأشياء لا يذكرنها فى اليوم التالى . نعم تلك هى الحقيقة ، لابد أن « سولانج » قد نسيت كل ما قالته . ولكن ماذا عساه أن يطلب من هذه الصغيرة ؟ ماذا يتصور ؟ أيمكن بعد كل ما رآه من تصرفات أبيها ، أن يرجو شيئاً منها ؟ إن الحقيقة لتتضح أمام عينيه فى هذه اللحظة . إذا كانت « سولانج » قد اهتمت بأمره لحظة فلأنها لم تكن قد فهمت بعد حقيقة الحياة ، وما نراه فيها من تعصب للجنس . أما اليوم وقد بلغت الرابعة عشرة من عمرها ، فلابد أنها تريد أن تمحو انطباعاتها الأولى وأن تعيد النظر فى فهمها الأول التلقائى للحياة .

لا بأس ! يجب ألا يفكر فيها ، ولكنه لاينسى على أى حال أنه إنما يدين لابنة الرجل الأبيض بالكثير ، فهى فتاة كريمة النفس ، طيبة القلب ، وهو لا يمكنه أن يتحمل فكرة عدم مقابلتها أبداً ليلقى على مسامعها كلمة اعتراف بجميلها . لو أنه كان يعرف عنوانها ، لبعث إليها بشكره كتابة ، ولكنه لا يعرف أى شىء عنها ... أى شىء . لقد ذهبت ونسيت كل شىء .

أوه ! يجب ألا يفكر فيها بعد الآن . هكذا اعتزم صاحبنا ، ولذا فقد ألقى بنفسه كلية ، وهو كالروح الهائمة ، فى الدراسة حتى ينسى .

ولكن للأسف لم يستطع النسيان ، لم يستطع أن ينسى « سولانج » فإن الميتة « مارى روز » مازالت هنا ، مازالت حية ، وهى تربطه بذكرى ابنة الرجل الأبيض برباط لا ينفصم . لابد أن ينسى قبر « مارى روز » لكى ينسى « سولانج » وليس هذا فى مقدوره ، بل إن هذا يجب ألا يحدث . ألم يقطع عهداً على نفسه ؟ ... ألم يقسم ، يوم دفن السيدة « موراكس » أن يعنى بثواها الأخير بدلا من ابنتها أو زوجها ؟

كانت المقابر ساكنة خالية من الناس لقد رحل حفارو القبور ليلحقوا بدنيا الأحياء ولم تكن هناك إلا بعض الخفافيش تحلق فوق هـذا المكان المعد للراحة الأبدية وتسخر منه . وبدأت بومة تنعق وتنشد أغنيتها الكئيبة عندما دلف «مامبيكيه» كاللص بالقرب من القبر الذى لم يغلق إلا حديثاً . وركع الفتى ووجه هذه الكلمات إلى الفقيدة :

ـــ يا سيدتى . لست إلا أسود صغيراً بائساً ، ولكن قلبى يؤكد لى أنك أم لى إلى حد ما . أليست الأمهات جميعاً إخوة فيما يحطن به أطفالهن من حنان وفيما يقدمن عليه من تضحيات ؟ إنى أعتبر كل أم أماً لكل طفل ، فأنتن جميعاً قد قاسيتن ما قاسته أمى من آلام عندما ولدتنى . وأنا أعتقد أنى ابن لك إلى حد ما . لقد أضفت إلى هذا الاتحاد فى التضحية ، طيبة قلبك . كنت ملاكاً حارساً بالنسبة إلى أبى المسكين ، تحمينه من بطش جلاده الذى لا يرحم . إن ابن « يوكا » ليقسم أمام الله ألا ينسى قبرك ، وأن يزوره كل يوم سبت . لن تنمو فى هذا المكان أية أعشاب فاسدة ما بقى ابن « تانجو » بـ « برازافيل » .

لم يأخذ إذن معتنق الفلسفة المادية الصغيرة إلا بقشرتها ، فتلميذ «كارل ماركس» و « جان جوريس » مازال يعتقد فى استمرار حياة الكائن البشرى بعد الموت ، بعد ذلك الشلل الأبدى ، وبعد أن يتوقف نهائياً ذلك المركز المحرك لتلك الشعلة غير المرئية التى تسمى بالحياة . لقد بقى إذن إفريقياً بالرغم منه،مازال ابناً لهذا الجنس الذى بقى يعتقد فى العالم الآخر ، وها هو يحادثه فى أسلوب مؤثر مشبع بالإيمان ،

وهو إيمان حقيقى ودائم . ما زال هـذا العالم — بالرغم من كل تأكيدات كبار العلماء وبالرغم من كل تلك النظريات الجريئة — علامة استفهام كبرى يتساءل أمامها الفكر الإنسانى .

إن « مامبيكيه » لأمين مع ذاته ، صريح مع ضميره ، ولذا فقـد احترم القسم الذى قطعه للبيتة . هاهو ، منذ ثلاثة أشهر ، يتوجه مساء كل يوم سبت إلى المقابر متأبطاً طاقة من الزهور يجمعها من الحقول ويضعها على قبر « مارى روز » . وهو يواظب على العناية به وعلى تشذيب الأعشاب من حوله وهو يعود من هذا المكان هادئ النفس ، سعيداً بأن أدى مايتطلبه منه واجبه تجاه تلك التى كانت الطيبة بعينها فى معاملتها لأبيه ، والتى كانت تدافع عنه أمام جلاده الذى لن ينسى أبداً تصرفاته الشيطانية .

لقد جاءه صياد ، وصل حديثا من « موساكا » ، بآخر أخبار والديه ، وبأخبار القرية و « روش موراكس » الذى لم يبك زوجته ، والذى ألقى بنفسه كليـة فى خضم فسقه ، والذى أخذ ينشر الرعب فى أنحاء «موساكا» التى بدأ أهلها يهجرونها فقد دأب الرجل الأبيض على شرب نبيذ النخيل وكحول الذرة وشراب مستخرج من « الجوافة » كما أدمن تدخين القنب . لقد اضطرت أسر كثيرة إلى الهـرب من البلدة لـكى تحمى نساءها منه ، بل لقد اضطر بعض الآباء إلى أن يرسلوا بناتهم إلى « إيدينا » وإلى « اعفوندو » أو إلى « فورروسيه » لحمايتهن من اعتداء الرجل الأبيض عليهن ، ولاذ بعضهم بالغابة ليأمنوا شر وغضب الرجل الأبيض صاحب الوكالة بعد أن رفضوا أن يسلموه ابنة أخ أو شقيقة لهم . إن عدد الأطفال المخلطين بـ « موساكا » ليزيد الآن على عشرة . وقد أصبحت « أمبوكو » أخت « مامبيكيه » محظية « روش موراكس » المفضلة وسوف تصبح أماً عما قليل .

وصاح « مامبيكيه » فى ثورة عندما سمع ذلك النبأ المؤلم : — أأختى حامل ؟ ولـكنها لم تبلغ بعد الثالثة عشرة من عمرها ! ومن ذا الذى ارتـكب هذا الجرم الفظيع ؟ أخبرنى ... أوه ! أخبرنى ياصديقى ، بودى أن أعرف كل شىء .

أكمل الصياد قصته دون أن يبالى بانفعال الشاب وثورته . قال : إن الرجل الأبيض هو مرتـكب تلك الجريمة ، وأنه حين لم يـكتف بالأم طالب بابنتها ، وأنه

سبب كل ماحل بـ « أومبوكو » ، وأن الآنسة « موراكس » التى عادت إلى « موساكا » بعد وفاة أمها تركتها بعد شهرين وذهبت إلى الدير فلم تطق أن تقيم طويلا مع ذلك الأب الذى يشعرها بالاشمئزاز . وأضاف الرجل أن ابنة الرجل الأبيض لم تترك وراءها إلا ذكرى طيبة بعد رحيلها ، وأن قدومها كان له تأثير طيب على أهل القرية ، فقد زارت الجميع فى بيوتهم ودخلت كل الأكواخ تقريباً لتواسى ولتشجع أسر الفتيات التى استحوذ عليها الرعب ، ولتجفف دموع الكثير من الأمهات ، ولتقدم الملابس « للبيض السود » الصغار ، فهم إخوة غير أشقاء لها ، وكانت ملابس صوفية طرزتها لهم بإبراتها ، أو لتقدم للرضع ملابس قطنية صنعتها بيديها كذلك . لقد رحلت ابنة الرجل الأبيض عن « موساكا » — على حد تعبير « يوكا » — وهى فى غاية الضيق بعد أن نعتت أباها بالجلاد الذى تخجل منه أمتها بأسرها . وقال الصياد : إن الرجل الأبيض لم يعد يعنى بوكالته ، وأنه يطلب من « يوكا » القيام بجميع الأعمال حتى يمكنه أن يفى بطلبات عملائه البلجيكيين العديدين . لقد بدا على « روش موراكس » بعد وفاة زوجته أنه يعامل طاهيه معاملة تتسم ببعض الآدمية فلم يعد يهينه كما كان يفعل من قبل . أما الأب « هوكس » فقد تقدمت به السن كثيراً ونال منه التعب كل منال ، وهو يطلب بإلحاح من رئيسه بـ « برازافيل » أن يبحث عمن يخلفه ، إلخ ...

وتساءل الشاب باشمئزاز : يا إلهى ! ... يا إلهى ! ... ماذا يمكن أن يكونه هذا الموراكس الذى لا يحترم شيئاً حتى ولا ذكرى زوجته ؟

أواه ! حتى أخته ! ... حتى أخته الصغيرة المسكينة اعتدى عليها ! وها هو عاجز عن عمل أى شىء ، أى شىء البتة ، وماذا يمكنه أن يفعل ضد تلك الحية الرقطاء السامة ! لا يمكنه أن يلحق به أى أذى فهو من الجنس الآرى ، من جنس الأسياد .

آه ! آه للرجل الأسود الضعيف ! ليس له حتى الحق فى الدفاع عن شرفه . وأخذت تلك الكلمات تلح على « ماميكيه » فتشعره بعجزه ، ولم يستطع الفتى طوال الليل — وقد خانته قوته وشعر بأن عزمه قد وهن — أن يفتح كتاباً ، وكان عذابه كبيراً وعميقاً . لقد حاول « أومامبى » أن يهون عليه وأن يشجعه ببعض كلمات طيبة ولكن دون جدوى . لم يكف الفتى عن البكاء حتى الصباح .

لقد بكى عجزه فها هو مشلول الأيدى لايستطيع عمل شىء ينقذ به أخته وأمه وأباه وقريته بأسرها من طغيان « روش موراكس » هذا الأخطبوط الذى يحتمى وراء سلطان يزيده إحساساً بالتفوق ، وهو إحساس حقير لأنه وليد مركب نقص ، وإن كان هذا السلطان يحميه بقوة الأسلحة الأوتوماتيكية الحديثة . وأخيراً ، بعد أن تغلب الشاب على شعوره باليأس وبعد أن غلب رغبته فى العلم على أى اعتبار آخر ، اتجه إلى المدرسة العليا حيث كانت تنتظره رسالة .

تساءل « مامبيكيه » — ولم يكن يراسل إلا نفراً قليلا من الناس بفرنسا عرفه بهم ناظر المدرسة ، ولم يكن هناك من يمكن أن ينتظر منه رسالة — : « ممن تأتينى هذه الرسالة يا ترى ؟ » . وأخذ يقلبها بين أصابعه وهو شارد الذهن ، دون أن يحاول فتحها . ليس هناك فى قريته من يعرف الكتابة ، فمن إذن أتته ؟ وأخيراً وبعد تردد طويل ، فض الغلاف الوردى وقرأ السطور التالية :

أى عزيزى السيد « مامبيكيه » :

سوف أكون غداً ، الأحد ، فى الساعة الثامنة بميناء « برازافيل » . هل تتكرم — إذا لم تكن كعهدك غارقاً فى الكتب — بأن تأتى لتصحبنى ؟ سوف نزور معاً إذا أردت ، أمى المسكينة . وسيكون معى كل مايلزم لإعداد وجبة خفيفة من الطعام . ولن أعود إلى الدير الذى أقيم به إلا فى ساعة متأخرة بعد الظهر إذ أود أن أقضى طوال هذا النهار فى صحبتك ، وسوف نتكلم عن « موساكا » .

وكان التوقيع هكذا :

مع التحيات القلبية لصديقتك

سولانج موراكس .

ها هو « مامبيكيه » ينتظر بالميناء منذ السادسة صباحاً . وهو يتفرس فى الأفق وفى النهر الكبير ، هذا النهر الذى يحمل الآن ، كعادته ، جثث الحيوانات من فرس البحر والخنازير المتوحشة والجواميس التى تنتفخ بطونها ، غير مبال بتقلبات شئون الناس .

إن الشاب يرتدى زى المدرسة الأبيض الذى يحمل حرفى « م . ع » المثبتين

على شعار من اللون الأحمر القاتم المائل إلى الزرقة.. كان بياض الزى ناصعاً وكان مقوى بالنشا ، وهو بياض لاترتاح إليه العين كثيراً . وهو يلف حول عنقه رباطاً أسود ربطه بمهارة ليظهر جمال قميصه الجديد الذى لاتشوبه شائبة ، وانتعل حذاء لامعاً أنيقاً ، ووضع على رأسه قبعة بحرية يحيط بها شريط فضى اللون . كانت عينا الشاب الثاقبة القلقة لاتفارقان النهر الذى بدت مياهه حزينة منذ قليل ، وبدأت تتخذ — تحت أشعة الشمس الضياءة — شكل غطاء كبير يتموج عليه زئبق سائل .

وال « ليكوبا » الشاب ينتظر مجىء « سولانج » التى حددت ميعاد وصولها فى الساعة الثامنة ، وإن كانت عقارب ساعة الجمرك الكبيرة تشير إلى أنها لم تبلغ بعد السابعة والنصف . لاشك فى أن هذه الساعة اللعينة متأخرة . ومع ذلك ... فليس هناك أحد على أرصفة الميناء وهى المكتظة عادة بالحمالين والعمال والأجراء ممن يستعدون للقيام بشتى الأعمال أو من « الهاوساس »[1] . لقد بدأ سائقو عربات التاكسى يصلون الواحد تلو الآخر . هو إذن الذى بكر فى الحضور وهو يبرر هذا لنفسه بادعاء أن ساعته قد توقفت فى مساء اليوم السابق من كثرة ماهزها وضبطها . لم يكن ليقبل أن يعترف لنفسه بأنه فى حقيقة الأمر لم يغمض عيناً طوال الليل ، فقد أعاد قراءة رسالة الفتاة مائة مرة ، هذه الرسالة التى تدعوه فيه إلى اصطحابها ، هو « مامبيكيه » ابن الطاهى ، ابن العبد ، ابن من يصب عليه « روش موراكس » أبوها جام غضبه . لابد أنها قد أخطأت العنوان وأن تلك الرسالة لم تكن موجهة إليه هو . إن خط « سولانج » الجميل بحروفه المستطيلة المائلة قليلا ، مازال ماثلا أمامه على المظروف الذى طواه بعناية واحتفظ به فى جيبه وكأنه شىء مقدس . كانت على المظروف تلك الكلمات : « السيد « مامبيكيه » — مدرسة « إدوارد رينار » العليا — برازافيل » . ماتفسير ذلك إذن ! ... لقد فكر وفكر ، وحاول بشتى الطرق أن يجد تفسيراً لكل هذا ولكنه لم يجد له معنى واضحاً . وبقى الأمر مستغلقاً على فهمه ، بقى غامضاً ساخراً . صديقى السيد « مامبيكيه» ... مامعنى كل هذا ياترى ؟ ربما كانت هذه الفتاة — شأنها فى هذا

---

(١) هو شعب من السود يسكن أغلبه « نيجيريا » .

شأن أبيها — تريد أن تستعبده ، وأن تستذله كما فعل أبوها بأبيه « يوكا » . لا » . لن يذهب إلى هذا اللقاء . لقد أرادت ابنة الرجل الأبيض أن تسخر منه ولا شيء أكثر من ذلك . أليست ابنة « روش موراكس » ؟ ومع ذلك ... ومع ذلك ... .

وفي الساعة الخامسة صباحاً كان قد انتهى من زينته . حمل في جيبه بعض النقود وشرع يجرى شطر الميناء بسرعة تقطعت لها أنفاسه ، وكانت الميناء في تلك الساعة خالية من الناس تماماً .

ودارت عقارب الساعة وإن فعلت ذلك ببطء شديد غاظه ، والساعة الآن الثامنة إلا عشر دقائق . لقد بدأ يرى عن بعد شكل سفينة أنيقة ذات لونين أبيض وبرتقالي ، يشق الأمواج في سرعة فائقة ويقترب من الشاطىء . في إمكان الشاب القلق أن يقرأ على عجلات الإنقاذ المثبتة على السطح الأمامي اسم السفينة الصغيرة « سيتاس الثاني » ولم تقف نظرته المتسائلة عند تلك الكلمات بل أخذت تنقب وتتفرس بطريقة غير مهذبة في وجوه المسافرين الأوروبيين . ها هو غطاس ، عار حتى وسطه ، يلقي بنفسه في الماء ويسبح بقوة ليدرك رصيف الميناء ، وها هو يجذب بقوة الحبل الغليظ المثبت بالمركب لكي يقربه من السلم المبني بالأسمنت المسلح وها هما مسافران أو ثلاثة ، من بينهم سيدة شابة سمراء — يبدو أنهم أكثر رشاقة وخفة من الآخرين — يقفزون من سلم المركب إلى سلم الميناء ويتسلقونه جرياً .

مازال « مامبيكيه » يبحث وينقب . لاشيء ... لم تأت « سولانج » ... ها هي قد سخرت منه فعلا ... لقد هزأت به ، فأثبتت أنها ابنة تشبه أباها بالفعل . لم تأت . من النذالة أن تسخر هكذا من أسود صغير ... وأن يصدر ذلك عن ابنة « ماري روز » .

— هيه ! هيه ! انظر إلى هذه الناحية أيها الفارس الجميل . أتكون قد تزينت هكذا من أجلي أنا ياسيد « مامبيكيه » ؟ لابد أني أخطأت فقد فاجأتك وأنت تنقب بنظرك بقلق فوق سطح السفينة . إني أراهن أنك تنتظر فتاة رائعة الحسن يتعلق بها ذهنك في هذه اللحظة . لاشك في أن قلبك الأسير لم يعد يذكر ... يجب

أن أعترف عامة بأن هاتيك الفتيات اللائى رافقننى فى رحلتى قد أدخلن على قلبى كل ألوان التسلية . كم كانت أصواتهن رائعة ! كم كنت أحب أن أكون واحدة منهن !

ها هى فتاة طويلة القامة لها عينان زرقاوان تقف أمام « ماميكيه » . إن جسدها المشوق يلفه ثوب جميل من الـ « جرسيه » قاتم اللون ، وهى تطوق جدائل شعرها السوداء بلفحة من الحرير ترفرف فى الهواء ، وليس على شفتيها الجميلتين أى طلاء .

— أوه . ! هل جئت فعلا يا آنسة « موراكس » ؟ شكراً ... أشكرك على مجيئك ... أطلب عفوك عن شرودى هذا . لم أتعرف على تلك السيدة العظيمة التى طارت كالفراشة من فوق سطح السفينة . كنت أبحث بين المسافرين عن تلك الفتاة التى رأيتها بالمدافن منذ ثلاثة أشهر أو أربعة . أما زلت تعتقدين أنك نفس تلك الفتاة؟

وأجابته الفتاة ضاحكة . — كم أنت مجامل وكذوب ؟ هاهو الولد القبيح ينظم الآن شعراً كما يفعل قس القرية : « ليوبولد فيل » .

— أطلب عفوك يا آنسة . لم أعد أعى معنى ما أقول فقد أفقدنى وجودك اتزانى . . . نعم ، هذه هى الحقيقة . إنى مضطرب وأرجوك أن تغفرى لى أنى قد شككت لحظة فيك وفى قلبك الطيب . هل تتكرمين بإعطائى سلتك ؟ سوف أنادى على تاكسى ليقلك إلى المدافن حيث ألحق بك .

— حيث تلحق بى ؟ ما معنى هذا ؟ ألا نذهب إليها معا إذن ياسيد «ماميكيه»؟ أوه ! عفواً ! لقد فهمت . لقد نسيت أنك تنتظر شخصاً ما ...

— رحمة بى يا آنسة « موراكس » . أرجوك ألا تنطقى بحماقات ، أنت تعرفين أنى هنا من أجلك أنت وأنى لا أنتظر أحداً سواك . أنت لا تعرفيننى حقاً ... وإلا لفهمت أنى لست كهؤلاء الشبان الذين يضيعون وقتهم بجانب النساء . عندى ما يشغلنى عنهن ، والآن وقد أوضحت لك الحقيقة ، هل تتكرمين وتتبعيننى ، سوف أريك الطريق .

وأجابت « سولانج » فارسها الأسود وهى تقطب جبينها فى غضب :

— أوه ! كم تبالغ فى المجاملة والتكلف !

وأشار « ماميكيه » إلى سيارة اقتربت منها وأسرع السائق وفتح الباب أمام

الفتاة التى سحبت معها داخل السيارة صديقها المذعور « اوندليه — ندومبيه » .

وأمر الشاب السائق بالتوجه إلى مدافن الأوربيين. كان يجلس بعيداً عن «سولانج» لما يشعر به من احترام كبير لها ، بينما بدا عليها الغضب واليأس بسبب تصرفه هذا . كانت تتمنى ولا شك أن ينسى « ما مبيكيه » تلك الشكليات التى يصر على التمسك بها .

— كيف تطلب التوجه إلى المدافن مباشرة ؟ أنسيت الأزهار ؟ ألا نشترى بعضاً منها من إحدى الحدائق ؟

وأجابها الشاب بلهجة ملؤها الغموض :

— لاتهتمى بهذا الأمر يا آنسة فالسيدة والدتك إنما هى ضيفة هنا على ابن أختها السوداء . لاتشغلى بالك بكل هذا يا ابنة الرجل الأبيض فالعصافير الصغار سوف تقدم لها تلك الأزهار .

— أنا لا أفهم شيئاً من كل هذه الألغاز ومع ذلك فأنا أثق فيك أيها الولد القاسى . وأردفت :

— هيا بنا بسرعة إلى مدافن الأوربيين .

كانت هناك بجانب القبر طاقة كبيرة من الزهور تنتظر ابنة « روش موراكس » . وكان يربط الطاقة الجميلة شريط حريرى ينتهى بعقدة كبيرة تسقط على جانب منها ، كتبت عليها هذه الكلمات «إلى والدتنا، تلك التى نهب لها أنفسنا والتى نكن لها احتراماً أبدياً » .

تمتمت الفتاة وهى تتسلم الأزهار من بين يدى حارس المقابر :

— شكراً ياسيدى « ما مبيكيه » . لم تقو على أن تضيف كلمة واحدة فقد خنقتها العبرات التى سالت بعد ذلك غزيزة ، وكانت قد بذلت جهداً كبيراً لتحبسها ، جهداً يفوق طاقة البشر .

كانت هناك طاقة أخرى على المقبرة كتلك التى تحملها « سولانج » وإن كانت بدون عقدة . وكانت تلك الطاقة موضوعة برفق فوق طاقات أخرى أزهارها ذابلة ، الأمر الذى يدل على أن المقبرة كانت قد لقيت عناية فائقة واهتماما بالغا .

وركعت ابنة الرجل الأبيض بالقرب من قبر أمها بعد أن ألقت إلى « ما مبيكيه » بنظرة يعلوها الاعتراف بالجميل ، وأخذت تسقى القبر بدموعها الحارة

بقيت فى مكانها هذا ما يقرب من نصف الساعة دون أن تنطق بكلمة ، كانت تتمتم بين عبراتها بعبارات غير مفهومة ، أما الفتى — وكان يقف على بعد خطوات منها — فكان يجفف عينيه المبللتين بين الحين والحين ، ولكنه لم يحاول أن يقول كلمة واحدة يهون بها على رفيقته وهى تشكو همها ا « مارى روز » .

أية صلاة حارة تلك التى يوجهها الطفلان لروح الفقيدة ؟ هذا هو السر الأكبر بالنسبة إلى البشر جميعا ولعله سر بالنسبة إليهما هما ذاتهما .

ونهضت الفتاة أخيراً وأشارت إلى الفتى أن يتبعها . وعند باب المدافن ، ابتعد « مامبيكيه » عن « سولانج » ، التى كان يسندها ، ليشد على يد الحارس وليضع فيها ورقة من فئة المائة الفرنك .

وقالت « سولانج » التى راقبت كل هذا :

— شكراً .

كان التاكسى ينتظر وانحنى السائق أمام الفتاة وسألها :

— إلى أين تريد أن تذهب سيدتى ؟

وأجابت « سولانج » وهى تنظر إلى صديقها بابتسامة اغتصبتها :

— حسناً . مادام السيد قد أراد أن يدللنى اليوم فيجب على إذن أن آخذ مظهر السيدة العظيمة . أوصلنا أيها السائق إلى حيث يسكن السيد بالمدرسة العليا .

— كيف ؟ أتريدين الذهاب إلى بيتى بالمدرسة العليا؟ أتأتين إلى بيتى ؟ فكرى فى الفضيحة التى يمكن أن يسببها عملك هذا . أنا على أى حال لا أسكن بالمدرسة فلست إلا طالباً منتسباً . أنا أنزل ضيفاً على ابن عم لى : « بوتو — بوتو » ، لعلك لا تفكرين فى أن تصحبينى إلى هناك ، أليس كذلك ؟ إن هذا الوسط لايناسب فتاة من جنسك .

وأردفت « سولانج » وكانت تتلهى كالمجنونة بالانزعاج الفظيع الذى ارتسم على وجه رفيقها : — لاشأن لك بجنسى ، أرجوك . مادمت تسكن « بوتو — بوتو » فهيا بنا إلى « بوتو — بو تو » إذن .

رفع الفتى ذراعيه إلى أعلى فى حركة تدل على اليأس كمن يقول : « ليفعل الله ماشاء ، ليكن ما يكون » . وأعطى عنوانه للسائق : شارع « باكوا » رقم ٨٩ عن طريق شارع الإرسالية الكاثوليكية .

إن « تانجو » ليلقى صعوبة حقاً فى تحليل المشاعر المتناقضة التى تضطرب لها روحه الإفريقية فى تلك اللحظة . هل هو سعيد حقا أم حزين وهو يجد نفسه بجانب « سولانج » تلك الفتاة الطيبة الفائقة الحسن التى ، واأسفاه ، ليست من بنات جنسه؟ هاهى تقترب منه ... تقترب منه جداً لتسر إليه بكلمات رقيقة حانية لم تعرفها أذناه من قبل ، كلمات تقولها له فتاة بيضاء رائعة الجمال .

— لقد كنت رائعاً ياسيد « مامبيكيه » . إن هذه الديون لا يمكن أن يفى بها المرء . أيكون الله قد وضعك فى طريقى لتعيننى فى كل المناسبات ؟ ماذا أفعل لكى أثبت لك اعترافى بجميلك ؟ من دواعى الأسف أنك لا تفهمنى وأن يكون بالك على الأخص مشغولا بشىء آخر . ومما يدعو للعجب أنك تفعل كل هذا بعد كل ماقاسيته من قومى ومن أسرتى . قل لى ياسيد « مامبيكيه » أفى إمكانك أن تنسى ، من أجلى أنا ومن أجل تلك التى تعنى بقبرها بكل ذلك الحب البنوى ، أفى إمكانك أن تنسى كل ذلك الأذى الذى أصابك منا ؟ أوه ! نعم ، لم أكن أتصور أن ألقى منك كل هذه الطيبة وكل هذا الكرم . لقد عنيت بأمى محدوك فى هذا حب بنوى كريم ، أنت الرجل الملون كما يسميك مواطنى ، حتى لأتساءل إن كان فى وسعى أنا نفسى أن أفعل كل مافعلته أنت ... أنت طيب القلب . إنك شاب لطيف للغاية .

وأخذت يدى الشاب بين يديها ، دون أن تدرك تماما حقيقة ما فعلته وأخذت تضغطهما بقوة .

— أتوسل إليك يا آنسة « موراكس » . أرجوك ألا تتكلم فى تلك الأمور . ألم أعد أمك بأن أكون ابنها الروحى ؟ ما قيمة هذا بالنسبة إلى كل ما فعلته من أجل والدى ، وبالنسبة إلى كل ماقمت به أنت نفسك من أجلى ومن أجل ذوى ؟ أتتصوريننا قوماً بلا قلوب ؟

— لا . صه . صه ... لا تتكلم عنى . من قال لك إنى عملت شيئاً من أجلك أو من أجل ذويك ؟ إن ما يجب ألا أنساه أبداً إنما هو ذلك الأذى الذى ...

وأجهشت « سولانج » بالبكاء . لم يدر الشاب ماذا يفعل أمام هـذا التعقيد فى موقف هو فى حد ذاته محرج للغاية . إنه يخشى أن يلمس ابنة الرجل الأبيض ... ابنة « روش موراكس » . وهو لا يجرؤ على أن يقول لها كلمات رقيقة حانية وأن يجفف دمعها .

ولحسن حظه — أو لسوء حظه — أنهما وصلا بسرعة إلى « بوتو — بوتو » وتمكنت الفتاة أخيراً من التغلب على انفعالها ونزلا من السيارة فتجمع حولها نفر من الناس — يحدوهم الفضول والاستغراب — حول كوخ « أومامبى » الذى دهش هو نفسه من مجىء امرأة بيضاء شابة إلى كوخه .

إن كوخ « أومامبى » أنيق حسن البنيان مبنى من اللبن وهو يقع بالقرب من جدول «ماتو — ما — بولى» وهو من أهم روادف نهر الـ «مفوا» . جعل «مامبيكيه» من هذا الـكوخ ، بفضل نشاطه ، آية من الآيات . لقد اقتصد منه من تلك القروش التى كان يكسبها بعناء ، وأقامه بمعاونة « أومامبى » الذى كان يسكن من قبل كوخاً متواضعا لم يعد يصلح لإقامة الطالب الأول بالمدرسة العليا . أما ملـكية ذلك الـكوخ التى سجلت باسم « أومامبى » فهى تعود فى الحقيقة إلى «مامبيكيه» . ولـكن ما قيمة كل ذلك ؟ أليس مال ابن العم أو مال الأخ هو مال الأسرة كلهـا ؟ لم يكن ابن « يوكا » لينسى ، بعد ارتقائه السلم الاجتماعى ، إنه عضو فى المجتمع ، إنه خلية ضئيلة ضمن خلايا أخرى فى هذا المجموع الذى لا يعدو أن يكون كلا وأحداً لا يتجزأ .

إن هذا الـكوخ الأنيق يجاور الـكوخ القديم ـ وهو ما يزال قائماً بمعجزة ـ الذى خصص للأعمال اليومية المنزلية . بنى هذا الـكوخ الأنيق من الطوب المضغوط على أساس من الطوب النيىء كما ذكرنا منذ قليل ، يعلوه سقف من القش ، وهو يقع على ناصية شارعى « ماكوا » و « ياكوما » . والـكوخ مكون من ست حجرات : واحدة لأومامبى وزوجته وأخرى لأطفالها وثالثة كبيرة للطعام بهـا نوافذ عريضة جداً ، ورابعة للاستقبال صغيرة منسقة بذوق رفيع وهى تحوى مناضد كبيرة وأخرى صغيرة ومقاعد من الألياف المجدولة من صنع صديقنا الفنان الذى عرفنا فنه فى « موساكا » ، وما زلنا نتتبعه إلى هنـا أيضاً ، ومكتب صغير به مكتبة مزودة بكتب قيمة ، وغرفة لنوم الشاب المتطور . وكانت هناك على النـوافذ ستائر قطنية من اللون الأزرق الفاتح تضفى على الـكوخ بهجة ونضارة .

قدم الشاب الفتاة لأسرة « أومامبى » تبعا لتقاليد الـ « ليكوبا » أى أنه ذكر الخدمات العديدة التى أدتها الفتاة لقرية « موساكا » بوجهة عامة ولأسرة « يوكا » بصفة خاصة . وقد احتجت ابنة « مارى روز » على كل ذلك بشدة ، ثم أسرعت إلى المطبخ لتساعد زوجة «أومامبى» المنهمكة فى نزع ريش دجاجة وتنظيفها . كانت الابنة الكبرى « لوسى » التى تبلغ العاشرة من عمرها ، تقشر فى تلك الأثناء البطاطس ، بينما كان الابن الصغير ، وهو فى السادسة ، يغسل الأرز فى إناء كبير من الصفيح . وأخرجت ابنة الرجل الأبيض من سلتها فخذ خروف وخوخا طازجاأحضر من فرنسا بالطائرة ، ورغيفا كبيراً من الخبز الأبيض .

لابد أن القارئ يذكر أن « سولانج » تتحدث بلغة الـ « ليكوبا » وأنها تتقنها كل الإتقان . ونشط الحديث بين ابنة «روش موراكس » وبين زوجة «أومامبى» وابنتها « لوسى » . ويجب ألا نغفل ذكر « إعانويل » الصغير الذى أخذ يتحسس شعر السيدة البيضاء الطويل الأسود ليتأكد من أنه ليس شعراً مستعاراً .

لقد جاءتهم « سولانج » بآخر أخبار قريتهم وذويهم ، فهى تعرف كل واحد منهم باسمه . أما زوجة « أومبى » — وقد أزعجتها قليلا زيارة ابنة الرجل الأبيض المفاجئة — فقد حاولت أن تبدو ربة بيت ممتازة وأخذت تتكلم عن تلك المساعدة التى هبطت على أسرتها من السماء بمجئ « مامبيكيه » . وأراد « إعانويل » ، وهو عملى أكثر من الآخرين ، أن يعرف اسم مدام « اوندليه »[1] ... و « لوسى » بدورها كانت تهفو إلى التعرف على مجتمع المتطورين ، ولذا فهى تريد أن تتعلم فى الحال تلك اللغة التى تتكلم بها الآنسة « سولانج » ... كما تسميها . لايبدو السأم على أحد فى هذا المكان وأعمال الطهى تتقدم دون أن يشعر بها أحد ...

قام « مامبيكيه » فى تلك الأثناء بإعداد المائدة ووضع هنا طاقةمن الزهوروهناك زجاجة الفلفل الأحمر كما وضع أفضل المقاعد بجانب النافذة — وهو مكان ضيف الشرف المعد لابنة الرجل الأبيض — ،أما « أومامبى » فقد عاد لتوه من عند«جامبالى روفائيل» وهورئيس الحى وتاجر ذكى يتردد عليه معظم الناس فى هذا المجتمع المكتظ . لقد اشترى منه زجاجة من النبيذ الفرنسى الفاخر تحمل خاتم المصنع الذى أنتجها .

(١) ويعنى بها زوجة الرجل المتمدين .

وانتهت النساء من أعمالهن بالمطبخ وحان ميعاد تناول الغذاء . ورفضت زوجة « أومامبي » الجلوس مع الرجال على نفس المائدة ، فإن العادات القديمة بتلك المنطقة تحرم على المرأة — احتراماً للرجل — أن تقاسمه الطعام أو أن تجلس معه على نفس المائدة أو على نفس الحصيرة . وشرحت المرأة برقة لضيفتها كيف يتعذر عليها قبول عرضها ، أى جلوسهما جنباً إلى جنب لكى تجابها معاً غزو الرجال ولتهاجماهم إذا مااقتضت ذلك المناقشة التى ستدور أثناء تناول الطعام .

ويبدو الأسى والضيق على وجه «سولانج» وتلحظ زوجة «أومامبي» خيبة الأمل التى ارتسمت على وجه ضيفتها ولذا فقد اقترحت حلا وسطاً ، أن تفترش حصيرة بجانب مائدة الرجال مادام محرماً عليها الجلوس بجانبهم ، وأن تفعل ذلك لأول ولآخر مرة إكراماً للفتاة . وأضافت المرأة وهى تنظر إلى هذه الأخيرة : وأنا على أى حال لا أعرف كيف يستخدمون الشوكة وأفضل استعمال أصابعى العشرة .

وقد خاب أمل « مامبيكيه » الذى أخرج أفضل ماعنده من أدوات المائدة — عندما أبدت « سولانج » — التى أغراها اقتراح صديقتها — رغبتها فى أن تأكل على الطريقة الإفريقية أى وهى جالسة على حصيرة وساقاها تحت فخذيها . وأجلست « لوسى » عن يمينها وزوجة « أومامبى » عن يسارها وقد حملت هذه الأخيرة « إيمانويل » على ركبتيها . واضطر الرجلان إلى الاستسلام لنزوة الضيفة وجلسا فى مواجهة المرأتين . ومن البديهى أن الحديث الصاخب الذى دار بينهم والذى شاركهم فيه « إيمانويل » الصغير كان أغلبه بلغة الـ « ليكوبا » . وأسعد « سولانج » أن تجلس بين هؤلاء الناس ، مع تلك النفوس البسيطة التى تقول كل ما عندها دون ماخبث أورياء .

وكانت قائمة الطعام مكونة من باذنجان بصلصة بالخل ودجاجة مشوية بالبطاطس ، ولحم ضأن مطهو بالطماطم والبصل والشطة ، وخبز أبيض أحضرته « سولانج » ، وآخر مصنوع من نبات الـ «مانيوك» أعد للآخرين ، ومن فواكه طازجة أضيف إليها الخوخ الذى أحضرته ابنة الرجل الأبيض . هكذا كانت قائمة الطعام الشهية المتعددة الألوان التى أضيف إليها نبيذ حلو المذاق ، وإن لم يعجب السيد « إيمانويل » العظيم الذى أفصح عن استيائه بحركة لاشعورية .

وفجأة سمعت أصوات ووقع أقدام تهرول وكأن الدنيا قد قلبت رأساً على عقب. سمع صوت يقول : أسرعوا ، حاصروا الكوخ وضعوا القيود الحديدية فى أيدى الجميع ماعدا السيدة البيضاء ، وأخرجوا الجميع من عش الحيات القذر هذا .

كان لهذا الصخب غير المألوف المشحون بالتهديد ولتلك الأوامر المقتضبة القاطعة وقع غير مستحب على الجميع فى بيت « أومامبى » . وفى لمح البصر حاصر عشرة من رجال الشرطة ، تحت إمرة ضابط أوربى ، كوخ « أومامبى » الجميل الصغير وأخرجوا منه من فيه مكبلين بالقيود فيما عدا « سولانج » . وحاولت الفتاة — وقد أدهشها هذا الاعتداء على حرمة السكن وعلى الحقوق العامة — أن تشرح لصف الضابط الأبيض المسلح بمدفع رشاش، والذى كان يرفض الإصغاء إليها ، أنها نزيلة دير الراهبات الـ « فرنسيسكان » بـ « ليوبولدفيل » ، وأنها إنما جاءت لزيارة قبر أمها التى توفيت منذ أربعة أشهر ، وأنها كانت قد طلبت من رفيق صباها السيد « مامبيكيه » الطالب بمدرسة « إدوارد رينار » العليا أن يصحبها إلى المدافن ، وكيف أنها طلبت أن تتناول الغداء مع عائلة الشاب قبل أن ترحل إلى الضفة اليمنى من النهر. وتساءلت : « أية جريمة هناك فى أن أصادق شاباً كهذا الشاب ، هو أول الطلبة بالمدرسة الأولى فى إحدى الاتحادات الفدرالية الفرنسية ؟ » .

وأجابها الرجل : ياسيدتى ، إنك . . .

فقاطعته مستاءة : لا ، أنا آنسة ولست سيدة . . .

— حسناً يا آنسة . سوف تقدمين كل تلك التبريرات التى تبدو لى معقولة للغاية ، للسيد المأمور . أما أنا ، فلست هنا إلا لتنفيذ الأوامر وليس من شأنى أن أناقشك فيما تقدمينه من أعذار . وأرجوك إذن أن تتكرمى بالجلوس بالسيارة لتصحبينى إلى مركز الشرطة الرئيسى . وأنتم ! هيا ، انقلوا كل هؤلاء المواطنين الملونين بالهباب وحذار أن تغمضوا عيونكم عنهم ، أفهمتم ؟

ألقى صف الضابط الأبيض بتلك الأوامر وكان فى هذا يشبه كلب الـ «بولدوج» التمرن . وأخذ الجنود الإفريقيون يدفعون بقسوة «مامبيكيه» و « أمامبى» وزوجته وأولادهما إلى داخل السيارة القذرة التى تشبه صندوق القاذورات ويشبعونهم ضرباً بعصيهم الغليظة .

ماذا حدث ؟

أوه ! الأمر بسيط . كان هناك محض الصدفة ، ضمن هؤلاء الفضوليين الذين تجمعوا حول كوخ « أومامبى » أحد المخبرين ، أحد الأجراء الخونة المكلفين أن يتجسسوا على مواطنيهم . وقد تصور أن زيارة امرأة بيضاء لأسرة من السود إنما هى أمر فاضح يثير الشبهات ، خيل إليه أن فى الأمر جريمة اختطاف سوف يعقبها مشهد مروع كتلك المشاهد التى ترى عند قبائل أكلة اللحوم البشرية . ولما كان الرجل متحمساً لعمله فقد نقل الأمر إلى رؤسائه .

وقد ألقى المأمور المتسرع عند سماعه بهذا الخبر بسلسلة من الأوامر — وهو موظف قديم كان يعمل بالإدارة المدنية رقى أخيراً إلى وظيفة ضابط ، وقد دأب على أن يندب عجزه الإدارى الذى يمنعه من استنباط وسائل عنيفة تمكنه من القضاء على هذا الجنس الزنجى الملعون ، وهو يتمتع لهذا السبب بصيت لا يضارعه فيه أحد — صرخ قائلا :

— يا « مورنى » اصحب عشرة من رجالك الأشداء وأسرع وحاول أن تصل إلى هناك قبل أن يلتهموا هذه المرأة التعسة فأنا أشتم من هذا العمل رائحة جريمة بشعة سوف يرتكبها هذا الجنس الزنجى اللعين . آه ! لو أن الأمر كان بيدى ، لأرسلت كل هؤلاء الزنوج ، منذ زمن بعيد ، إلى عالم أفضل . ولكن وا أسفاه ! يجب علينا — على ما يبدو — أن نعمل حسابا لهؤلاء القرود .

وصرخ الرجل قائلا عند وصول بعثة الإنقاذ والتنكيل التى يقودها « مورنى » النشيط : — أدخل السيدة إلى مكتبى يا « ماروف » . أما الباقون فألقوا بهم فى السجن .

وقال الضابط البدين المتنفخ البطن الجالس أمام مكتبه الأنيق المصنوع من خشب الـ « أوكوميه » : — عجباً ! إنها مازالت فتاة صغيرة ! ثم صرخ مرة أخرى موجهاً كلامه إلى « سولانج » :

— اذكرى اسم أسرتك واسمك وسنك وعنوان سكنك .

— اسمى لويز — مونيك — لور — سولانج موراكس ، وعمرى ١٤ سنة

وأنا أقيم بالقسم الداخلى بدير راهبات الـ « فرانسيسكان » بـ « ليوبولدفيل » .

— مامهنة والديك وما هو عنوان سكنهما ؟

— إن أبى صاحب مزرعة كبيرة وتاجر بـ « موساكا » . أما أمى فقد توفيت منذ أربعة أشهر بمستشفى « برازافيل » .

— وما الذى أتى بك إلى « برازافيل » ؟

— جئت لزيارة قبر أمى التى دفنت بمقبرة مدينتكم اللطيفة المضيافة .

— حذار ! أرجو ألا تسخرى منى أيتها الفتاة الصغيرة فربما كلفك هذا كثيراً . آه ! نعم . أؤكد لك أن هذا سوف يكلفك كثيراً . أما الآن وقد حذرتك ، هل تتكرمين وتخبريننى بسبب ذهابك إلى حى الوطنيين وهو ليس بالحى الذى يناسب البيض ، ولا سيما فتاة صغيرة فى مثل سنك ؟ هل ذهبت إلى هناك بمحض اختيارك ؟

— لاعلاقة بين سنى وبين هذا الاستجواب التعسفى الذى توجهونه إلى هنا . لم أذهب إلى « بوتو — بوتو » مباشرة فقدبعثت يوم الجمعة برسالة من « ليوبولدفيل » إلى السيد « مامبيكيه » وهو صديق طفولتى ، كما أنه الشخص الوحيد الذى أعرفه بـ « برازافيل » وطلبت إليه فيها أن يحضر إلى الميناء ليصحبنى إلى المقابر ، وأنا أذكر هنا أن « مامبيكيه » سبق أن أنقذ حياتى ، غير مبال بحياته ، من بين فكى تمساح بـ « موساكا » . وفى هذا البلد عدد كبير من التماسيح ، أتعرف ذلك يا سيدى المأمور ؟

— صبراً ! صبراً ... ! من هو هذا السيد « مامبيكيه » ؟

وهنا أجاب « مورنى » المتفانى فى خدمة سيده — وكان يتطلع إلى الترقى بسبب هذا العمل المجيد الذى قام به منذ قليل — : إنه هذا الشخص الذى وجدت الفتاة ببيته يا سيدى المأمور .

— حسناً ! حسناً ! أكملى قصتك من فضلك ، قصتك مع صديقك هذا السيد « مامبيكيه » ... إذن ... !

— إن والد « مامبيكيه » هو الذى يقوم بجميع الأعمال عند والدى فهو طاهيه ومدير أعماله وكاتم أسراره . وكان « مامبيكيه » عندما أنقذنى من بين فكى التمساح ، فى الثانية عشرة من عمره ، وكنت أبلغ أنا العاشرة ولم نلتق منذ أربع سنوات . وقابلته عندما أصاب أمى — التى بقيت مع والدى بـ « موسا كا » — مرض خطير . ولما أخطرنى أبى بأنها بالمستشفى حضرت إلى « برازافيل » لأعنى بها ولكننا لم نتمكن للأسف من إنقاذها . وفى تلك الفترة ، وبمحض الصدفة ، قابلت السيد « مامبيكيه » وأنا فى طريق عودتى من المطعم الذى يقع فى مواجهة المستشفى ، وحيث كنت قد ذهبت لتناول بعض الطعام . وقد توفيت أمى فى نفس ذلك المساء بعد أن جاء صديقى لزيارتها ... بكيناها معاً ، وواريناها الثرى معاً ... واضطررت بعد ذلك إلى العودة إلى « موسا كا » مع أبى ، لكى ننظم أعمالنا هناك وقد تكرم السيد « مامبيكيه » ، أثناء تغيبى عن « ليوبولدفيل » ، وعنى بقبر والدتى : لقد فعل ذلك من تلقاء نفسه ، دون أن أطلبه منه ... ناب عنى فى القيام بهذا الواجب البنوى ، أى العناية بالثوى الأخير لتلك التى مازلت أبكيها حتى اليوم ، وكان يضع الزهور عليه ، وقد فعل كل ذلك على نفقته الخاصة . ولولاه ، ولولا تفانيه ، وإخلاصه — وهو لايبغى من ورائهما أى نفع — لبقى هذا القبر مهجوراً ولكانت الأعشاب قد طمست معالمه الآن . لم أكن أعرف أحداً سواه بـ « برازافيل » كما أخبرتك منذ قليل ياسيدى ، وتلك هى الأسباب التى حدت بى إلى أن أثق به وما زلت أثق به . ولما كان رقيقاً ، منساقاً وراء مايمليه عليه قلبه الكريم ، فقد جاء إلى الميناء فى هذا الصباح ليصحبنى إلى المدفن ، وكنت عاجزة عن الاهتداء إليه بمفردى . وقد طلبت من صديقى بنفسى ، بعد قيامى بما يفرضه على الواجب تجاه الفقيدة ، أن يصحبنى إلى بيته وأن يدعونى إلى الغذاء قبل عودتى إلى «ليوبولدفيل» . لم يضطرنى أحد إذن إلى هذا . وقد رحب بى السيد « مامبيكيه » وأفراد أسرته أيما ترحيب . . ها هى قصتى يا سيدى المأمور . والآن هل تتكرم وتشرح لى ما يمكن أن يكون محلا للمؤاخذة فى كل ماقصصته عليك ؟ أقسم أنى لم أذكر إلا الحقيقة والحقيقة وحدها . وإن كان هناك شخص يستحق المؤاخذة فهو أنا فقد طلبت بنفسى من هؤلاء الناس الطيبين أن يؤدوا إلى خدمة وأن يدعونى إلى تناول الطعام على مائدتهم .

— أذكرك أيتها الفتاة الصغيرة بأنه ليس مسموحا لك بأن توجهى أية أسئلة: فأنا الذى أوجه الأسئلة هنا ولا أحد سواى . أما الآن وقد وضح الامر فلننتقل إلى شىء آخر . أخبرينى . لقد ذكرت منذ قليل أن والدتك قد توفيت فى نفس الليلة التى جاء فيها صديقك اللاك السيد « ماميبيكيه » لزيارتها . هل تتكرمين وتخبرينى الآن كيف ماتت والدتك ؟

— لقد أصابتها حمى كلوية ناتجة عن زيادة فى الكرات البيضاء ..

— عفواً ، لم أكن أعرف أنك عالمة صغيرة يا آنسة « موراكس » . وعلى العموم ... شكراً على شهادتك التى تدل على الذكاء ! أما ماسأطلبه منك الآن فهو أن تعودى بسرعة إلى ديرك بـ « ليوبولد فيل » حيث سيرافقك أحد أعوانى من الأوربيين . أما عن هذا الذى تصرين على تسميته بصديقك العزيز السيد «ماميبيكيه» هذا المثل الأعلى للفضيلة الزنجية وآدابها ، فيهمنى أن أذكرك بأن أمره لم يعد من أختصاصك . وهناك نصيحة أبوية أود أن أسديها إليك : أنصحك بألا تتركى نفسك تنخدع بالألاعيب ، وبتلك المظاهر الوديعة البريئة التى تبدو على من هم على شاكلة « ماميبيكيه » هذا فى العالم أجمع ، حتى ولو ارتدوا زياً أبيض يحمل شعاراً أحمر جميلا ، إذ أنهم ليسوا فى حقيقتهم ، بالرغم مما تتصورينه ، إلا شياطين أشراراً . وعندما ستتقدم بك السن ، وبعد أن تكتسبى بعض الخبرة بالحياة ، سوف تتفتح عيناك وتتاح لك الفرصة لتحكمى عليهم حكماً آخر . هكذا اختتم الضابط الموقر حديثه وهو يغلق مظروفاً رسمياً ضمنه ورقة كتبها على وجه السرعة .

وقالت ابنة « روش موراكس » مدافعة :

— ليس هذا بصحيح . إن من على شاكلة « ماميبيكيه » لا يمكن أن يصبحوا أبداً شياطين أشراراً ، وتجربتى لن تسمح لى بأن أحكم عليهم حكماً مغايراً لهذا الذى أصدره عليهم الآن . هذا شىء مؤكد . إنى لعلى يقين من أن الشياطين الأشرار الذين تتكلم عنهم لن نجدهم بين من ذكرت ، بل أنا أعرف تماماً أين يمكن أن نجد هؤلاء الشياطين الأشرار . لقد عرفت الإفريقيين حق المعرفة لأنى ترعرت بينهم . ولعلنا نحسن عملا ، بدلا من أن ننعتهم بالسود ، لو أننا

حاولنا أن نتعرف عليهم ، أن ندرس خلقهم من ناحية وجهة نظرهم هم ، حتى نتمكن من أن نقدرهم ومن أن نحبهم بوصفهم كائنات بشرية مثلنا .

— حسناً أيتها الفتاة الصغيرة ... لك مطلق الحرية فى أن تعتقدى مايروق لك . أما الآن ، وفى انتظار أن تتحقق أمانيك ، فأنا — وها أنا أكرر ما سبق أن قلته لك — أنا وحدى الذى يأمر هنا وليس لأحد سواى أن يرفع صوته فى هذا المكتب .

وأجابته الفتاة : إنى أتبين هذا بوضوح للأسف . وقد لاحظت أيضاً أن حقوق الناس إنما تحترم كل الاحترام فى عاصمة إفريقيا الاستوائية الفرنسية .

وصاح الضابط وقد بدأ الدم يتصاعد إلى كيس دهنى كبير زين وجهه الجامد : — « مورنى » أعد هذه الفتاة العاهر إلى ديرها واطلب من رئيسة الدير أن تعطيك تعهداً واضحاً بأنها قد تسلمتها ، واحمل إليها ثنائى على التربية التى تعطيها لبناتها بالقسم الداخلى . أنت مسئول عن تلك الفتاة حتى يتسلمها أصحاب الشأن ، أنت مسئول عن ذلك أمامى أنا شخصياً ، وإلا وقعت المسئولية على رأسك ، أفهمت يا « مورنى » ؟

وأجاب صف الضابط وهو ينوء كالقط الذليل ويدق كعبى حذائه بصوت عال ، قبل أن يتسلم « سولانج » : — نعم يا سيدى المأمور ، حسناً يا سيدى مأمور المركز .

لم تستطع الفتاة أن تحبس صيحة فقد كانت قلقة على مصير أصدقائها . قالت وهى تحاول أن تتخلص من قبضة « مورنى » الذى أخذ يدفعها نحو سيارة السيد المأمور التى تلمع فى الشمس : — ولكن ماذا فى نيتكم أن تصنعوا به هو وأهله ... ماذا فى نيتكم أن تفعلوا بهم ؟

ثم أردفت وهى تجهش بالبكاء ، وكانوا قد أدخلوها العربة التى تأهبت للرحيل: — إلى اللقاء ... إلى اللقاء ياصديقى . اغفر لى أنى تسببت لك فى كل هذه المتاعب لن أنسى كل هذا ... يا للأطفال المساكين ، ياللمرأة التعسة !

لم يكن فى إمكانها أن تعرف إن كان هذا الذى تبعث إليه بتلك الصيحة النابعة من قلبها ، سيسمعها وسيفهم معنى كلماتها ، هذا الذى كان يتشاجر فى تلك الأثناء مع جنود الشرطة .

وقال المأمور ساخراً بعد أن أشعل سيجاراً غليظاً — وكان يبدو أنه راض كل الرضا عن نفسه — : إلى اللقاء يا آنسة « موراكس » . أرجو أن تتكرمى بإخطار السلطات بقدومك عندما يتراءى لك أن تشرفينا بزيارتك اللطيفة .

* * *

اندفع تلميذ بالمدرسة الإعدادية بـ « بوتو — بوتو » — حيث مازال لماميكيه أصدقاء عديدون — إلى مكتب المربى « موانجا » ليخبره عما لقيه الـ « ليكوبا » الشاب من معاملة قاسية ومن اضطهاد وتعسف . وفى الحال ركب المربى « موانجا » دراجته ميمماً وجهه شطر المدرسة العليا حيث أخطر المفتش العام بتلك المأساة . وقد فضل هذا الأخير أن يتوجه إلى قسم الشرطة بنفسه بعد أن مر فى طريقه بمقر الإدارة العامة . ها هو هذا الأخير يجلس الآن فى مواجهة مأمور القسم الذى أزعجته إلى حد ما زيارة مثل هذا الموظف الكبير الشأن غير المتوقعة ، وتحاشى الضابط أن يجابه نظرته ، مما يدل على أن ضميره لم يكن مرتاحاً تماماً .

— هل تتكرم بأن ترينى « ماميكيه » المسكين أيها المأمور ؟

— فى الحال ... فى الحال يا سيدى المفتش العام . وأرجو أن تغفر لى أنى اضطررت إلى أن ألقن هذا الصغير الشاذ درساً رادعاً إذ يبدو أنه ولد غير مطيع . أوه ! أنا كما تعلم ذو دراية بتلك الفئة من الناس . أى نعم ! إن ما يحتاج إليه هؤلاء السادة الآن سيدات صغيرات من البيض . ما رأيك فى هذا ياسيدى المفتش العام ؟ لقد انقلبت أحوال العالم رأساً على عقب ، أليس كذلك ؟ كان فى نيتى فعلا أن أتصل بك تليفونياً ولكن ها أنت تشرفنى بزيارتك . يا « مارونى » أحضر المواطن « ماميكيه » .

إن المفتش طيب القلب ليشعر بأنه على وشك الانفجار أمام سخرية هذا الرجل المتبلد العاطفة ، ولذا فقد أدار له ظهره وهو يترقب دخول الشاب .

ها هى ملابس الشاب البيضاء قد تهلهلت ولطختها بقـــع من الدم الداكن ومن الوحل . كانت عيناه متنفختين داميتين ، ويداه مقيدتين بالحديد . وانحنى الشاب ، وكان يجد عناء فى الوقوف على قدميه ، أمام المفتش العـــام والضابط البدين الذى انفجر ضاحكا كالدب عند رؤية مافعله جنوده بالشاب المسكين ، وأردف :

— بشرفى إن هذا عجيب ! إن جنودى لم يقضوا عليه تماماً ، فمازال فيه بعض الرمق ،وما زالت أمامه فرصة أخرى ليغرى كل الفتيات الفاسدات بـ « برارافيل ». حسناً ياسيدى « مامبيـكيه » أسعيد أنت الآن ... ؟ يبدو أن أبناء جلدتك لم يحسنوا معاملتك . هو ! هو ! هو !

وانفجر المفتش الذى كانت دماؤه تغلى فى عروقه صائحاً :

— صه ياهذا ، ومر رجالك بأن يفكوا قيود هذا الفتى. واستدار نحو الـ « ليكوبا » الشاب وكان مازال على ماعهدناه فيه من هدوء ، وقال : — يابنى المسكين ، ماذا حدث إذن ؟ أرجو أن تسرد على كل شيء .

وسرد الشاب قصته فى بطء وهدوء دون أن يفصح صوته عن نبرة احتجاج واحدة . لم يـكن يوجه حديثه إلى اللأمور الذى شعر بأن هناك شيئاً يتهدده فى هذا الجو المتوتر ، وإنما للمفتش الذى أخذ يقطع حجرة المـكتب الـكبيرة ذهاباً وجيئة فى خطوات عصبية .

ذكر الشاب تلك الرسالة التى وصلته من « سولانج » ، وتـكلم عن ذهابهما معاً إلى المدافن ، وعن تناولهما الغذاء بـ « بوتو — بوتو » مع أسرة « أومامبى » ، وعن إلقاء القبض عليهم بتلك الطريقة التعسفية بدون إذن رسمى ، وعما لاقوه بالسجن الاحتياطى من ألوان التعذيب من قبل الجنود الذين أجبروهم على أن يشربوا البول بدلا من النبيذ الذى يشربه الرجل المتحضر على مائدته ، وعلى أن يحـكوا جباههم بالجدران حتى تعدل رءوسهم ، كما أخذ يصف كيف ضربوا بالسياط ، وكل ألوان العذاب التى لقيها هو وأهله ، وحتى أطفال « أومامبى » الذين أخذوا يصرخون وهم يرون الجنود يعذبون أمهم . وسكت أخيراً وانتظر القرار الذى سيتخذه الرجلان الأبيضان اللذان أخذ كل منهما يتفرس فى الآخر .

وأخيراً صاح المفتش بعد أن عجز عن أن يضبط عواطفه :

— أهكذا تريد أيها المأمور أن تجعل الناس هنا يقدرون ويتقبلون وجودنا في هذا البلد الذى أقسمنا أن ننقل إليه حضارة فرنسا وسلامها ومثلها العليا ؟ هل تتصور أنه من الممكن بتصرفك هذا أن نبعث بالحياة إلى هذا الاتحاد الفرنسى الذى يتمناه الجميع والذى مازال حتى الآن مجرد صيغة مكتوبة على الورق ؟ وأردف بعد برهة :

— أهذا ، أهذا ماتسمونه بنشر المبادئ الإنسانية العالية التى تنادى بها أمتنا ؟ ألا تعرف إذن أنه ربما كان هناك أعداء لنا يتربصون بنا ، أعداء أوغرت صدورهم الغيرة والفضول والشك ، يتابعون سياستنا ومعاملتنا لسكان البلد الأصليين حتى إذا ما اكتشفوا خطأ أو نقطة ضعف هاجمونا بقسوة ؟ ولكن قل لى ، أى جرم ارتكبه هذا الشاب وهذه الأسرة المسكينة ليستحقوا أن تعذبهم بكل هذه القسوة ؟ احمد ربك أنى لست رئيسك ، فلو أنى كنت رئيسك لكان الأمر يختلف تماماً . أما من ناحيتى فسوف أبلغ السيد النائب العام عن سلوكك هذا . والآن ، وفى انتظار مقابلته ، ها هو أمر إدارى من المحكمة : أطلق سراح هؤلاء المساكين فى الحال . إنى أنتظرهم خارج هذا المكان لأصحبهم بنفسى إلى بيتهم . وأردف المفتش موجها حديثه لـ « مامبيكيه » :

— تعالى ياعزيزى « مامبيكيه » . لم أعد أطيق النظر إلى هذا الشخص . قالها وهو يدفع الباب بقوة فى وجه المأمور الذى بدا عليه الاضطراب والعجب .

أثار حادث القبض على « مامبيكيه » لغطا كثيراً وتعليقات كثيرة فى مختلف الدوائر الإدارية ، فقد تضاربت الآراء حول ماحدث للشاب . ولم ير كل من الحاكم العام والنائب العام والمفتش العام للتعليم أى شىء يستوجب المؤاخذة فى سلوك « مامبيكيه » تجاه الفتاة التى كانت على أى حال تدين له بحياتها . وكان دفاعهم عنه إنما يستند إلى مايتمتع به من سمعة طيبة بين السكان الأوربيين والإفريقيين على السواء ، وإلى رأى مدرسيه وهم الذين يسهرون على توجيه التلاميذ ويعرفون خلق كل منهم ... كانت الدرجات التى حصل عليها تشيد بكفايته

وبقوة خلقه ، ولم يصادفه أحد فى الأماكن المشبوهة ثم أن استقباله فتاة بيضاء فى بيته ليس على أى حال جريمة شائنة فى نظر الأوربيين الذين يقيمون بالعاصمة ، لاسيما إن كان الأمر يتعلق بشاب ذى كفاية كـ « مامبيكيه » يحتاج إلى من يسانده ويشجعه ويبدى له النصح باستمرار ، ليقوم بمهمته فى المستقبل ، ألا وهى إعداد شباب مثقف للغد ، وهى مهمة دقيقة إذ هى تهدف إلى التوفيق بين العنصرين اللذين ستتكون منهما تلك الأسرة التى يفكرون فى أن يطلقوا عليها اسم « المجتمع الأوربى الإفريقى » . ألا يرتبط نجاح هذا المثل الأعلى — بصفة خاصة — بإيجاد تفاهم متبادل بين التلاميذ الأوربيين وإخوانهم الإفريقيين ؟ وتساءل البعض لماذا يحاول نفر من الناس ألا يرى إلا الشر حيث يمكن أن يكون الخير ؟

وكانت هناك جبهة معارضة انتقدت الإدارة العامه بشدة لما تتسم به تصرفاتها من عطف شديد على الزنوج . كان هذا البعض يستنكر تلك الروح ويتساءل عما ستؤدى إليه تلك الحرية العمياء التى تمنح للسود والتى تسمح لهم بألا يحترموا أسيادهم الأوربيين .

ونحن نتساءل بدورنا . هل يمكن أن يكون فى استقبال شخص والترحيب به مايسىء إليه ؟ ولكن هذا أمر لاشأن لنا به على كل حال . لنترك العالم إذن يسير فى الطريق التى تتمنى أن يسلكها . ولكننا نتساءل مع هذا : أيمكن أن يتم التآخى بين الناس من خلال هذا الحاجز الذى يميز بين جنس وآخر ؟

وبغض النظر عن تلك الآراء المتضاربة ، قدم المفتش العام — كما وعد — تقريراً عن الحادث للنائب العام ، وهو من رجال القضاء المشهود لهم بالكفاية والامتياز ورحابة الصدر والشهامة ، والذين يجاهرون بإيمانهم باتحاد الأجناس .

ولما كانت الإدارة مهتمة ، منذ فترة ، بتطبيق بنود الدستور بدقة ، والتى كانت الوزارة تدافع عنها بشدة ، فقد وجهت إلى المأمور لوما شديداً مصحوبا بلفت نظر أدرج فى ملف خدمته .

أما الـ « ليكوبا » الشاب فبعد أن شفى من جراحه عاد إلى متابعة دراسته بالمدرسة العليا حيث لقى من قبل مدرسيه وزملائه السعداء بعودته نفس الشعور الطيب الذى كان قد عهده فيهم من قبل .

ولما أقبلت الامتحانات عـكف « مامبيـكيه » على العمل بنشاط . كان يتحرق شوقاً ويصبو بفارغ الصبر إلى أن يصعد النهر ليعود إلى « موساكا » . وكانت إدارة التفتيش العام للتعليم قد قررت منذ قليل إنشاء مركز مدرسى بتلك الناحية حيث لاتوجد أية مدرسة رسمية ، ولم يـكن ذلك القرار ينتظر إلا موافقة المجلس العام ليوضع المشروع موضع التنفيـذ . والهمس الذى يدور بـين المـكاتب المختصة إنما يؤكد أن إدارة المركز المدرسى سوف يعهد بها على « الأرجح » إلى « مامبيكيه » بعد أن يحصل على شهادة البـكالوريا وبعد أن يقضى بعض الوقت بالمركز التربوى بمدرسة المعلمين العليا بـ « سان كلو » بفرنسا .

إن صديقنا القدام ، صديق « سولانج » لايخشى كل تلك الاختبارات ، فـكله ثقــة فى النجاح ، وهو لايعرف معنى التقهقر أمام الصعاب كما يتمتــع بروح معنوية عاليــة .

لقد قابل « مامبيـكيه » — منذ وقعت تلك المأساة بمركز الشرطة — صديقته « سولانج » أربــع مرات : سلمته رسالتها الأولى صديقتها « بولـين أوسيريه » تلك الممرضــة الشابة التى سبق أن عرفها القارىء ، وكانت رسالة مؤثرة مفعمة بالحب والحنان ، أكدت فيها الفتاة أنها لم تنس فارسها . وقد دفع ذلك « مامبيـكيه » إلى أن يضاعف من همته وإقباله على العمل لـكى لايبدو كسولا فى نظر « سولانج » .

ولما كانت الفتاة تجهل ماحدث لأصدقائها بقسم الشرطة حيث تركتهم ، ورغبة منها فى أن تجنب « مامبـكيه » مضايقات أخرى ، فقـد لجـأت إلى وسيط تراسل صديقها عن طريقه ، وفـكرت فى « بولين » لـكى تقوم بهذا الدور . وأخذ الشابان يتراسلان بلغة الـ « ليـكوبا » زيادة فى الحيطة .

وذات يوم — وكان يوم أحد — حضرت « سولانج » إلى « برازافيل » وحددت فى هذه المرة ميعاداً للشاب يقابلها فيه بالمدافن . وأوصلها السائق إلى باب المدفن . وبمجرد أن رآها « مامبيـكيه » اندفع نحوها ، وكان يجلس على مقعد عتيق أعاره إياه حارس المقابر . ولـكنه فجأة ، على بعد خطوتين من الفتاة ، تسمر فى مـكانه وكأن ساقيه قد تصلبتا ، وأخذت أنفاسه تتلاحق سريعة .

لابد لهمن أن يدرب نفسه على التحكم فى نفسه وأن يتغلب على اندفاعه هذا التلقائى وأن يضبط عواطفه . يجب أن ينسى أنه فى حضرة فتاة بيضاء ، فتاة من المعسكر الآرى، المحظور عليه دخوله ، والذى أصبح أكثر مناعة بعد أن أقاموا حوله هذا السياج الذى يفصل بين الأجناس . ألم يقولوا له مافيه الكفاية ؟

وشعر بعرق بارد يتصبب على خديه. ولكنه لم يستطع كبح جماح نفسه ومنعها من الإعجاب بقوام تلك الفتاة الفارعة الطول التى تقف أمامه وتبتسم له ابتسامة تنبع من أعماقها ، من أعماق هذا القلب الذى ربما كان صغيراً ولكنه مستعد لأن يتفتح أمامه بالرغم مما يفصلها من سور أقامته التفرقة العنصرية .

وسألته ابنة الرجل الأبيض فى صوت يفصح عن قلقها :

— ماذا بك يا « موباليه — أو — تمبيه » ؟ أتشكو من شىء ؟

— نعم ، أقصد لا ... لست أدرى ماذا أصابنى بالضبط منذ وقت ما . هناك غشاوة على عينى تعترينى أحياناً ، وهى وإن كانت لاتبقى طويلا إلا أننى أشعر بها على أى حال ، وهى تسبب لى ضيقاً . أوه ! أليس هذا بأمر ذى بال ، ويجب ألا تعيريه أى اهتمام يا آنسة « موراكس » . لاشك فى أن العمل يرهقنى أحيانا ، ولكن هذا الشعور سرعان مايزول . وبهذه المناسبة : لماذا تنادينى بـ « موباليه — أو — تمبيه » ؟

— عجباً ، عجباً ! لسبب بسيط فكل فتيات «موساكا» إنما يدعونك بهذا الاسم. أليس من حقى ، أنا بدورى ، أن أناديك بهذا الاسم ؟

— أرجوك ألا تؤولى كلامى هذا أيضاً تأويلا خاطئاً . لقد قلت لك إنى متعب قليلا وإنى أشعر بضعف شديد فى هذه اللحظة. أهذه نتيجة تحليك لحالتى ؟ هيا ! دعينا من ذلك . لاتبالى بكل ما أنطق به من سخافات .

كانت نظرة الفتاة المتسائلة تربك الفتى وتضايقه .

وأجابت الفتاة التى خيب تصرف « مامبيكيه » ، ومافيه من تحفظ وحزن، أملها :

— آه ! هذا أفضل إذن مادمت لاتشعر بشىء خطير . والآن هيا بنا نزور قبر أمى ، إنى واثقة من أنها ستشير علينا بالدواء اللازم لوعكتك الخفيفة هذه .

وتساءلت الفتاة فى قلق — وكانت الأوهام تعذبها — : « ماذا به ؟ يا إلهى ! ماذا به ... ؟ لماذا يرفض أن يفهم وهو المتقد الذكاء ؟ »

وضعا الأزهار على المقبرة، وأخذا يصليان مدة أطول، وربما أيضاً بحرارة أكثر مما فعلا فى زيارتها الأخيرة لهذا المكان .

سألت الفتاة أمها إن كانت محقة فيما تشعر به تجاه ذلك الذى من جنس غير جنسها، وطلبت منها أن تفتح عينيه ، فى حالة موافقتها ، إذ يبدو أنه يجهل حقيقة مايسببه من عذاب لقلبها العذرى الصغير الذى لم يعد يتذوق طعم الراحة أو النوم. أما «مامبيكيه» فقد شرع يعتذر لروح « مارى روز » عن أنه قد سمح لنفسه بأن ينظر إلى ابنتها نظرة غير تلك التى يجب أن ينظرها الخادم الأمين المخلص لسيدته ، وأخذ يتوسل إلى الفقيدة أن تبرئه من ذلك الميل الذى يشعر به نحو ابنة« روش موراكس » .

وخرجا من المدفن صامتين . كان كل منهما يتجنب النظر إلى الآخر . ولو أنك أمعنت النظر فيهما لخيل إليك أن روحا خبيثة قدفصلت بين الصديقين ، فهما يسيران بطريقة آلية، كل منهما فى ناحية من الشارع العريض. كان الفتى يحمل سلة المأكولات ويسير شارداً بينما كانت الفتاة تائهة بين تلك الأفكار المتضاربة التى تعتمل فى رأسها. وتوجه الاثنان تلقائيا،دون أن يسأل أحدهما الآخر إلى أين يتجه ،إلى الطريق المؤدية إلى الحقول حتى يبتعدا عن المدينة . إن« مامبيكيه » يسبق « سولانج » بحوالى خمسين خطوة ، وهى تتبعه فى شرود . وعند انحناءة الشارع الرئيسى العريض الذى لايطرقه الناس إلا قليلا فى تلك الساعة من النهار ، اتجه ابن « يوكا » إلى الغابات واختفى بين الأشجار حيث جلس بعيداً عن أعين الناس، تحت شجرة تتساقط حولها،فروعها المحملة بالأوراق ، على شكل مروحة مقلوبة. كانت الشجرة فى مجموعها تشبه كنيسة من الطراز القوطى خالية من المصلين . أما ابنة « مارى روز » ، وكانت لاتزال تائهة فى تأملاتها المرة ، فقد تبعت الفتى كمن تسير فى نومها ، دون أن تسأله إيضاحاً، ثم جاءت تتمدد فى مواجهة ذلك الذى احتل المكان قبلها .

شمل السكون الغابات التى تظللها الأشجار بأوراقها كما شمل الشابين بحمايته ، وإن بدا عليهما القلق . لم يكن هناك من شاهد عليهما إلا بعض أزواج من العصافير على فروع الأشجار العالية وعلى الأغصان التى يشبه لونها لون الحديد وعلى أوراقها الخضراء

الحانية . وأخذ الرفيقان يستنشقان عطراً أخاذاً يمتزج برائحة تلك الأوراق الذابلة التى تملأ المكان . ولم يجرؤ أحد منهما على أن يقطع حبل الصمت الوقور الذى يخيم على الطبيعة . كان كل منهما يتجنب النظر إلى الآخر . كانت « سولانج » منهمكة فى تنسيق شعرها الطويل النافر الذى سقطت عليه بعض أوراق الأزهار الرقيقة العطرة بينما انهمك « مامبيكيه » بدوره فى إصلاح رباط عنقه الأسود الحريرى . كان من حين إلى آخر ينطق بعبارات تافهة كأن يقول مثلا :

— أأنت بخير ؟ ألاتشعرين بالجوع ؟ ... وكانت زميلته تجيب عن تلك الأسئلة بطريقة لايستشف منها أى شىء . كانت تجيب :

— نعم أنا بخير ، أولست فى حاجة إلى شىء .

كانا فى جلستهما هذه يشعران بمنتهى السأم ، كل منهما غارقا فى هموم لايتبين حقيقتها ، أو هما بمعنى أصح يشعران بتعاسة حتى إن دموعهما كانت على وشك أن تسيل . لابد أن هناك أشياء كثيرة كانا يودان أن يقولاها ولكنهما على ما يبدو يجهلان المعنى الحقيقى لما يعتمل فى قلبهما ، ولذا فهما يعجزان عن التعبير عما بهما . من منهما سيبدأ بالكلام ياترى ؟ من منهما سيخطو الخطوة الأولى ؟

ضاقت « سولانج » ذرعاً وشعرت بالمهانة من عدم مبالاة « مامبيكيه » ولذا فقد نهضت أخيراً وجاءت تجلس بجانبه . واستولت على الشاب فجأة ، عندما رآها تدنو منه ، رعشة لم يستطع أن يتغلب عليها ، وأخذ ينظر إلى ابنة « روش موراكس » نظرات مذعورة .

قالت الفتاة : — يا « موباليه — أو — تمبيه » كن صريحاً وقل إن وجودى إنما يشعرك بالسأم ، وأنا أفضل ذلك على سكوتك . أنت حانق على إذ سببت لك كل تلك المآسى التى حلت بك ، أليس كذلك ؟ أوه ! إنى أعرف تماماً أنك محق فى ذلك ولكن أرجو أن تكون لديك الشجاعة الكافية وأن تفصح عما بك . ياصديقى ... ياصديقى ... لماذا لاتضيف إلى ما يتمتع به قلبك من صفات نادرة صفة الصفح ... والنسيان ... ؟

مازال بدن « مامبيكيه » يرتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، ولذا لم ينطق

بكلمة واحدة يجيب بها « سولانج » . أما هى — وقد عجزت عن تحمل ذلك التوتر الذى دام زهاء ساعة — فقد اندفعت فى البكاء . كانت تشعر بالمهانة مما تصورته احتقاراً أو ازدراء من رفيقها ...

— أوه ! أتبكين يا « سولانج » ؟ لقد آلمتك ؟ عفواً ! أوه ! عفواً ! لو عرفت مدى شقائى وكم أتألم يا « سولانج » لأشفقت على بدلا من أن تشعرى نحوى بالحنق . نعم ياصديقتى إنى أتألم وأقاسى من تلك النار الغريبة التى تحرق شاباً فى مثل سنى، وعلى ما جبلت عليه من طبيعة. إنى أقاسى ألف لون من ألوان العذاب فالأقدار تسخرمنى، وقسوة مصيرى تمزق روحى . هاهى الأقدار تضعنى فى مواقف شاذة يعتبر التغلب عليها ضرباً من المستحيلات . أخبرينى ، هل تعرفين أنت لم أجد نفسى هكذا فى هذه المواقف المعقدة التى يصعب تصديقها ؟ أواه ! ألم يكن من الأفضل ألا أولد ؟

لقد احتاج ابن « يوكا » إلى مثل تلك الصدمة النفسية لـكى يتغلب على ماشعر به من خوف يحقر من شأنه فيجعله يتناسى التقاليد وما تفرضه من احترام ، وأن ابنة « روش موراكس » إنما هى سيدته ويدعوها باسمها المجرد ويعترف لها بعذابه وألمه .

وقفزت الفتاة من شـدة انفعالها وصاحت : أتدعونى بـ « سولانج » ؟ وتبينت ابنة « مارى روز » فجأة حقيقة السر الـكامن وراء موقف صديقها الشاذ. وكررت: أتدعونى بـ « سولانج »؟ أرجوك أن تقولها ثانية حتى تزيل شكوكى . أريد أن أعرف كيف سمحت لشفتيك الوقحتين أن تنطقا باسمى المجرد ؟ كم أنا سعيدة ! كم أنا سعيدة!.. ها أنت أخيراً تدعونى بـ «سولانج» . أخبرنى يا «موباليه — أو — تميه» بسبب ألمك . هيا... أخبر أختك الصغيرة بكل شىء. سوف أعنى بك وأهون عليك . سأعمل المستحيل لأشفيك ياصديقى ... ياصديقى ، استرسل فى الـكلام .

كادت ابنة « مارى روز » تطير من شدة فرحتها . إن أنفاسها تتلاحق ، وهى تهيم من شدة انفعالها فى عالم لم تعرف عنه شيئاً حتى هذه اللحظة، والتصقت بصدر ذلك الفتى الذى يغطيه الشعر فى حركة لاشعورية ، ولم تعد تعى حقيقة ماتفعله .

ولم يستطع « مامبيكيه » الذى كانت تخنقه العبرات إلا أن يتمتم بتلك الـكلمات: عفواً ... عفواً. وكان بدوره يشعر بأن سعادة غامرة تشل حركته وأن نشوة سماوية

تدمى قلبه . واستسلم لضمة الفتاة العذرية ، تلك الفتاة التى مازال يدعوها بأخته الصغيرة . أخذ يربت عليها ويهزها برفق وكأنها دمية صغيرة نسجت من أشعة النور ومن خيوط من الأثير يخشى أن تتبخر إذا هو تنفس . إنه لايصدق أن تكون ابنة « روش موراكس » بالذات هى أول امرأة يخفق لها قلبه ، وأن يكون مصدر أول حب لامرأة بيضاء ، من جنس السادة . يالها من قصة ! كيف يتسنى له أن يفلت الآن وقد أخذته عجلة الحوادث فى مدارها !

سوف نترك للقارىء حرية إبداء رأيه فى كل ما جرى وقد كان شاهداً عليه منذ البداية ، سنترك له الحرية فى أن يحكم على هذين الملاكين أو أن يغفر لهما وهو يراهما يحتضنان أحدهما الآخر ويذوبان فى هذا الانسجام الخلاق ، الذى تدفعهما إليه قوة الشباب، هذا الاتحاد بين فتى وفتاة عذريين يجهلان كل شىء عن مصطلحات الدنيا. إن خطيئتهم ، إن كانت هناك خطيئة حقاً ، إنما هى فى حد ذاتها تعويض ، أو هى بعبارة أخرى تكفير عن جرم سببته تلك الكراهية وذلك الازدراء اللذان يشعر بهما جنس تجاه جنس آخر ؛ إن مايفعله هذان الشابان إنما هو بعث لتلك الجنة التى جاء ذكرها بالتوراة قبل أن يشتت سكان برج بابل إلى شعوب وأجناس .

أما عنا ، ولسنا إلا متفرجين نقف فى كل ماترى موقف الحياد ، فلم تكن مهمتنا تعدو ذكر الحوادث كما تجرى أمامنا ، تحدونا فى هذا رغبتنا فى ألا نتحيز لطرف من الأطراف فى ذلك الصراع . ونحن نعتقد مخلصين أن من واجبنا أن ننحنى فى خشوع أمام حب هذين الشابين اللذين يمهدان الطريق بشجاعتهما وإقدامهما أمام أسرة الغد ، لتشييد هذا البناء الذى لاغنى عنه للانسانية جمعاء ، فى عالم أكثر محبة وحساسية ، عالم يسوده ذلك الحب الذى دعا إليه الفلاسفة وتغنت به المسيحية. أما إن كان فيما نقوله دعوة إلى مثل أعلى يستحيل إدراكه فإن ذلك يكون لسوء الحظ. ولن يكون عندئذ ذلك القانون المشهود الذى ينادى بالتقدم الاجتماعى وبالتطور قانوناً ، وسوف يفقد ، لهذا السبب ذاته ، معناه الرائع الذى يسمو بالمشاعر .

كم من الوقت ياترى بقى الشابان فى تلك النشوة التى يجهلان حقيقتها ونتيجتها ؟ إن الساعة فى معصم « مامبيكيه » كانت تشير إلى الثالثة بعـــد الظهر عندما فكرا فى تناول طعامهما . إن مايجب أن يفعلاه الآن إنما هو الإسراع فى الرحيل حتى لا يتأخرا

عن ميعاد المركب فى آخر رحلة لها فى ذلك اليوم ... أخذ الشابان يتناولان طعامهما بنهم وكان سبب شهيتهما هذه إشعاعاً داخلياً غير محدد العالم ، شعوراً مبهما يعتمل بداخلهما . تناولا طعامهما إذن بسرعة ويمما وجهيهما شطر الميناء . لم يعد الشابان بشىء وهما يتكلمان عن مشاريعهما التى اعتزماها للمستقبل .

هتفت « سولانج » وهى تقفز إلى المركب دون أن تبالى بما يمكن أن يقال :— « سوف يتعهد العصافير الصغار بما تبقى » .

وفى مقابلتهما الثانية بالمدافن لم يتأخر الشابان كثيراً ، فقد طلب « ماميكيه » من « سولانج » أن يقدمها إلى المفتش العام للتعليم الذى كان قد أخطره بتلك الزيارة فى مساء اليوم السابق .

استقبلت السيدة « تليار » الفتاة أحسن استقبال وهنأتها على هذا الإشراق الذى يبدو على محياها وعلى حبها ووفائها لأمها وعلى إخلاصها لأصدقائها . وقد عادت ابنة « مارى روز » فى هذه المرة إلى الدير والسعادة تغمر قلبها ، فقد اطمأنت إلى الجو الذى يسود المدرسة العليا حيث دللوها وقدموا لها حلوى وكلمات طيبة .

وقال لهما المفتش العام وهو يشد على يديهما مودعاً :— تمسكا يا أولادى بالشجاعة والخلق القويم ، بعيداً عن تلك الخطيئة وذلك الفساد اللذين يتميز بهما عصرنا ، غير مبالين بتلك الضغينة وتلك الكراهية التى يبشرون بها . ليشعر قلبا كما بالاعتزاز فإن ذلك هو دين شباب اليوم وشباب الغد .

وتوجه الاثنان ، وهما يتخذان نفس الاحتياطات التى اتخذاها فى المرة السابقة ، إلى مخبئهما الهادىء ، واستلقى كل منهما ببراءة بجانب الآخر على ذلك البساط اللين الذى أعدته لهما الأوراق الذابلة بتلك الغابة التى منت عليهما بها السماء ، وأخذا يقرآن فقرة من التوراة :

قال الله : « ليكن النور ، فكان النور » .

إن هذه الفقرة فى نظر « سولانج » إنما تعنى النهار الذى يطرد ذلك الليل الذى كان يخيم على السكون قبل الخليقة ... أما « ماميكيه » ، وكان يميل بنوع خاص إلى التعليل العلمى بدلا من أن يضرب ضرب عشواء فى التأويلات الميتافيزيقية ،

فهو يرى أن الأرض تدخل فى نطاق نظام كونى أجمع عليه الناس من الناحيتين العلمية والتاريخية ، أى النظام الشمسى ، وأن لامعنى لأن نعتبرها الوحيــدة بين الكواكب التابعة للمجموعة الشمسية التى تسبح فى الظلام ، بينما الكواكب الأخرى تنعم بأشعة وحرارة الكوكب المركزى . إن افتراض أن أحد الكواكب من بين السبعة الأخرى يسبح فى الظــلام ، يعنى قبول مثل هــذا الافتراض بالنسبة إلى الكواكب الأخرى أيضاً ، وتكون نتيجة ذلك بالتــالى قبــول احتمال أن يطفأ الإشعاع الحرارى فى الكوكب الرئيسى . ولكن أحداً لم يقل حتى الآن إن هناك ظاهرة من هذا القبيل كما لم يشر إلى مثل ذلك الافتراض أى بحث فلكى . ولهذا فلا يمكن قبول تعليل « سولانج » الافتراضى . ويفضل ابن « بوكا » وتلميذ السيد « تيليار » أن نبحث عن تعليل لتلك العبارة فى عالم الطبيعة ، أى بمعنى أصح فى عالم الإنسان ، أى بطريقة يمكن أن تخضع للتعليل المنطقى .

كان الكائن البشرى ، فى العصور الأولى ، أو هذا الكائن الشبيه بالإنسان الذى كان يعيش فى تلك الحقبة ، لايختلف عن الحيوان ، والنور قد سطع يوم أدرك الإنسان حقيقة وجوده ، يوم أن تفهم وتعمق المعنى الحقيقى الإيجابى للحب ، للخليقة ، ويوم تمكن من التعبير عن ذلك الشعور لرفيقته . ففى هذه الحقبة لم تكن قد ظهرت إلا غريزة حب البقاء وتكاثر النوع ، وقد بدت تلك الغريزة فى شكل حيوانى عنيف يدنس هــذا العمل العظيم — دون العودة إلى العقــل ودون إدراك لحقيقة التناسل وأهدافه ، ودون تفهم لمعنى تلك المحبة التى يهبها الإنسان من نفسه والتى تسمى بالحب أو الخلق أو الضوء أو الله . وإن الضوء إنما يسطع فى غياهب الظلمات والله — فى نظر « ماميبكيه » — هو ذلك الضوء الخلاق فى حد ذاته ، وهو الذى أشارت إليه الآيات المقدسة . وفضلا عن ذلك فقد أكد الفقهاء أنفسهم ، بطريقة لاتقبل الشك ، أن الله ذاته ليس إلا حباً وضوءاً وحقيقة .

بقيت « سولانج » صامتة طوال الوقت الذى كان فيه الشاب يشرح نظريته المتماسكة الأركان ، ثم نهضت فجأة واتكأت على مرفقيها . إن فكرة مضيئة ، ساطعة كالشهب ، قد مرت بخاطرها فى التو واللحظة ... لقد اقتنعت بالمبررات التى أبداها صديقها . وقالت :

— نعم ، نعم ، إنك على حق يا « موباليه — أو — تعبيه » . أنت على حق . لقد فهمت معنى تلك الكلمات الآن بشكل أكثر وضوحا ، بل وسوف أؤكد لك صواب نظريتك التى ليست للأسف إلا مجرد نظرية .

لقد نادت الفتاة صديقها بصيغة المفرد[1] وقد أربكته تلك اللهجة وما فيها من عدم كلفة ، فاجأته لهجة الفتاة وأقلقته .

وشعرت « سولانج » برغبة شديدة لم تتمكن من التغلب عليها ووضعت شفتيها الشرهتين على شفتى « ماميكيه » ، وغطت وجهه بشعرها الطويل ، وغاصت بنظرة عميقة من عينيها الزرقاوين فى أعماق عينى الشاب التائهتين .

وهمست فى إذن ابن « تانجو » التى كان يدوى بداخلهما طنين : — « فكان النور » ، إنى أحبك ... أحبك أيها الأحمق . ألم تلحظ أنى أحبك كالمجنونة ؟ أنا أحبك ... أحبك ... أحبك ... أيها المغفل الكبير . أتفهم ماتعنيه هذه الكلمات : « فكان النور » ؟ أترى معناها بوضوح الآن أيها الأحمق ؟

إن ثديى « سولانج » المتفجرين بدماء الشباب يحاولان أن ينغرسا فى صدر هذا الشاب الرياضى الذى يئن تحت وطأة هذا الحب المنتصر . لقد تاه فى غياهب تلك النشوة وصرخ وهو يشعر بأنامل الفتاة وهى تداعبه بمهارة ، أنامل ابنة « روش موراكس » . لقد التحم فمه بفم « سولانج » وأخذ يئن .

وفجأة ابتعد كل منهما عن الآخر وكأن بكل منهما زنبركا يحركه تيار يباعد بينهما . كانا مرتبكين فزعين فقد اكتشفا الحقيقة وإن تأخرا قليلا فى ذلك الاكتشاف ، تلك الحقيقة التى انقشعت الغيوم عنها فجأة . ويشعر المذنبان بأن تياراً حاراً يسرى فى جسديهما ، وأن شيئاً ما قد هاج فيهما شتى الأحاسيس . وأخذت الفتاة تنسق بيديها الصغيرتين شعرها الطويل الفاحم الذى كان يغطى وجهها الذى يفيض بالبشر ، وأسرعت تتوارى وراء جذع الشجرة الكبيرة التى لم تشعر بتلك المعجزة التى تمت تحت قدميها . وتوارى الشاب بدوره وراء شجرة بن بيضاء تملأ أزهارها الجو برائحة تثير الحواس . شعر كل منهما بالخوف من نفسه ذاتها ...

---

(١) ولا ينادى فى الفرنسية بصيغة المفرد إلا شخص يكون على قدم المساواة .

كما شعر كل منهما بالخوف من الآخر . كان كل منهما نقياً ، جاهلا بكل شيء ... حتى بحقيقة نفسه .

وكان « مامبيكيه » أول من أفاق من هذا الصراع النفسى ، من تلك الصدمة التى لم يعرفها من قبل والتى هزت أدق أنسجة كيانه .

وتساءل الفتى إن كان لم ينس نفسه فى تلك الضمة المجنونة إذ خشى أن يكون قد خدش روح أخته البيضاء الصغيرة وشريكته فى تلك الجرعة ...

صنع الشاب من أوراق شجرة البن البيضاء طاقة وأخذ يبحث عن « سولانج » ليقدمها إليها ... واكتشفها أخيراً وراء شجرة . ترى أكانت هذه الأخيرة شجرة التفاح بفردوس الأرض ؟ ولحق بها وقدم لها الطاقة البيضاء الجميلة . وحاول أن يرتجل أى شيء ، وبذل قصارى جهده ليحصل على عفو تلك التى تصور فى يأسه أنه جرح شعورها .

قال : أى « سولانج » ، لقد طلبت منى منذ أيام أن أنسى ، وهاهو دورى قد جاء ، فأنا أتوسل إليك اليوم أن تصفحى عن جرأتى المجنونة . سوف أعتبر قبولك أزهارى هذه التى تضاهى فى بياضها روحك الناصعة ، بمثابة غفران لذنبى :

— كم أنت أحمق ياصديقى « موباليه — أو — تمبيه » الجميل ! عن أى شىء تريد أن تطلب صفحى ؟ أليس الأرجح أن أطلب منك أنا أن تغفرلى جرأتى فيما أقدمت عليه ، وإن كنت لا آسف على ذلك ، فأنا فى منتهى السعادة إذ عرفت أخيراً أنك تحبنى قليلا . وأنا أعلم أنك لا تشاركنى تلك السعادة بنفس القوة فقلبك على مايبدو ليس خالياً ... وليس من حقى أن أطالبك بذلك فلست من جنسك، ولكن اسمح لى على الأقل أن أنعم بهذا السراب، وأنا أتصور أنك مازلت صديقى . مازلت تحكم علىَّ باعتبارى ابنة الرجل الذى سبب كل تلك الآلام لأسرتك وقبيلتك، وباعتبارى من ذلك الجنس المميز الذى يريد أن يسلبكم حقكم فى الحياة، وحريتكم فى أن تفكروا وفى أن تتكلموا . ها أنت تمط شفتيك وترفع كتفيك محاولا أن تفهمنى أن السبب ليس فيما ذكرت . ولكن إذا كان الأمر كذلك ... فما يمنعك إذن من أن تصارحنى بحبك وبأنك تريد أن تنسى كل هذه الأمور السخيفة ؟ هيا يا « موباليه — أو — تمبيه » كن أكثر رقة وأكثر أدباً ، قل شيئاً ولا تتركنى أتوسل إليك كما أفعل الآن . هل أرتكب ذنباً عندما أحبك ؟

— أى «سولانج» أى «سولانج» ياسيدتى الصغيرة ، آه لو تعلمين كم أحبك ! إن ما أشعر به نحوك لهو أعنف وأشد بكثير مما اعتاد الناس فى لغتهم أن يسموه بالحب. لا يا «سولانج» ، إنى لا أجد الألفاظ والعبارات المناسبة الكفيلة بأن تصف لك حال قلبى . إن سعادتى لون من الشقاء ممزوج بكبرياء لا حد لها كالعالم ذاته ، إن سعادتى مزيج من الخوف وراحه النفس والرغبة ، وكل هـذا يفور كالدوامة داخل نفسى ، ويحملنى إلى حيث لا أدرى . إنه إحساس بسعادة مجنونة تتغلغل فى كيانى كله. ياسيدتى ! يا من أحسنت إلى ، إلى أى شئ ستؤول حالنا نحن الاثنين الآن بعد أن عرف كل منا حقيقة ما يشعر به نحو الآخر ؟ أخبرينى ، هل تجدين مخرجاً لنا من هذا الموقف ياابنة الرجل الأبيض ؟

— صه. لست ابنة الرجل الأبيض .إنى ابنة المرأة وهى رمز التضحيه . أنت ابن الرجل أيها الساذج الكبير ، وها أنت تريد أن تبيعنى حقك فى أن تكون ابن الرجل، حق الابن الأكبر .هاهو الشعور بالنقص السخيف يسيطر عليك ويلح عليك ويستعبدك . أما أنا فقد قتلت هذا الشعور القذر بالنقص الذى يتملكك ، تلك الحية الرقطاء، لقد قطعت ذلك الحبل الذى كان يضغط على عنقك فيمنعك من الكلام ومن أن تفتح لى قلبك . لقد سألتنى ماذا يمكن أن نفعله الآن . حسناً ، أنا أعرف جيداً مايجب أن نفعله . سوف أصبح بكل بساطة زوجتك أمام الله . لقد قتلت فى نفسى منذ قليل تلك الآرية فى نفس اللحظة التى قضيت فيها على مركب النقص فيك . وأنا أقدم إليك الآن قلب هده الآرية . أخبرنى : هل تقبل هذا القلب ؟ لقد قلت لك إنى سأصبح زوجتك أمام الله ، والعصافير والأزهار التى تملأ الحقول والسماء ومياه نهر الكونغو لتشهد جميعاً على ما أقول . وأنا أعرف، وا أسفاه، استحالة أن يتم ذلك أمام الناس فقد أصبحوا كالحيوانات ، وهم يتمسكون بتلك الأفكار التعالية الحقيرة التى تفرق بين الأجناس. ولكن ما شأنى بكل هذا ؟ ما شأنى أنا برد الفعل إن كان يمكن أن يكون كالصاعقة أو النار أو الطوفان إذا ماقدمت لى الدليل القاطع على حبك لى ؟ هيا يازوجى العزيز، تعال الآن وعانق تلك التى كانت ابنة الرجل ، قبل تلك الآرية التى كان يستحيل عليك الوصول إليها والتى لم تعد إلا ابنة المرأة التى تهب لك قلبها والتى ستصبح زوجتك وتكون كلية لك عندما يطيب لك أن تطلب منها أن تهب لك نفسها ، وعندما تكف عن الشعور بالخوف من تلك المرأة البيضاء التى نزعت قلبها الآرى منذ قليل لتحل قلب المرأة محله .

أيمكن أن تكون هناك كلمات أفصح وأوضح وأكثر إقناعاً من تلك التى سمعناها منذ قليل من صديقينا الثائرين ؟ لقد اكتفيا على أى حال بما قالا ، وأخذا يتضاحكان ويتباكيان ويتعانقان ثم يتباعدان فيزداد إعجاب كل منهما بالآخر. وانطلقت «سولانج» فجأة كالغزال وأخذت تجرى كالمجنونة فى جوف الغابة يتبعها صديقها ، وكان بالرغم من مرانه الطويل ومما حصل عليه من جوائز فى الرياضة ، يجد عناء فى اللحاق بها .

إن الوقت ، هذا التقسيم التعس للفضاء ، والذى يعتبر فى الوقت ذاته حليفاً وعدواً للعشاق ، وصانع التقدم ، قد انقضى بأسرع مما كان يتمنى كل من «سولانج» و«مامبيكيه» . فقد كانا يتصوران أنهما سيقضيان معاً وقتاً سيطول إلى الأبد . لقد أوشكت الساعة على الرابعة والنصف ولم يعد أمام الفتاة إلا ثلاثون دقيقة لتصل إلى الميناء ولتركب المركب التى ترحل فى الخامسة مساء . كان لابد أن يجريا ، ولم يكن هذا بالأمر العسير ، فنحن نعرف أن صديقينا قد مارسا الألعاب الرياضية طويلا . ولذا فقد وصلا دون عناء قبل ميعاد رحيل المركب .

ورحلت الفتاة تاركة لـ « مامبيكيه » خصلة من شعرها . ولم يترك الشاب رصيف الميناء إلا بعد أن أدركت المركب الشاطىء الأيمن للنهر . ولم تكف « سولانج » بدورها — وكانت تتكىء بمرفقها على السياج الذى يحيط بسطح المركب — من إرسال إشارات مبهمة طوال الرحلة ، لذلك الشبح الذى لا يتحرك هناك على الضفة الأخرى .

* * *

حصل ابن « يوكا » على شهادته ولكن يبدو أن ليس لتلك الشهادة أية صفة جامعية ، وقد أحرز أيضاً نجاحاً باهراً فى اختبارات شهادة المرحلة الأولى بالدراسة الثانوية (البكالوريا) التى أعقبت إعلان نتائج التخرج فى المدرسة العليا التابعة للحكومة الفيدرالية ، وهى مركز تأهيل الموظفين المساعدين التابعين للادارة المحلية وللتجارة . وسوف يسافر الشاب بعد خمسة عشر يوماً إلى «موبوندزى » ، ولن يعود إلى « برازافيل » إلا فى شهر أكتوبر لينكب على الدراسة من جديد بالمرحلة الثانية من دراسته الثانوية .

لقد أرسلت « سولانج » تهانيها الحارة لصديقها — وكانت أخباره تصلها بانتظام عن طريق « أسيريه » الصغيرة التى أصبحت كاتمة أسرار العاشقين وشريكتهما فى مؤامرتهما . وها هو نص رسالتها :

إن « سولانج » فخورة كل الفخر بفوز « موباليه — أو — تمبيه » المتلاحق وهى تشعر ببعض الغيرة لعلمها بأن مدينة « مويوندزى » سوف تنتزعه منها لعدد من السنين لا يعلمه إلا الله . لقاؤنا سيكون فى الثامنة عند أمى ، وسيعقبه إيضاح لبعض الأمور ، وسوف تكون المناقشة حامية فى « بيت الغابة » .

« سولانج » — « قلب آرية »

وصل كل منهما فى الميعاد بالضبط ، ثم توجها إلى « بيت الغابة » بعد أن قاما بالفروض الواجبة لروح « مارى روز » . لم يكن فى ضمائهما النقية ما يشين ، وإن أصبحت اليوم أكثر حرارة والتهابا . ومع ذلك فقد كانا يخشيان أن يكتويا بتلك النار التى تزداد اشتعالا من حيث لا يدريان بها . كانا يشعران بأن ساعة التضحية لم تدق بعد فـ « سولانج » لم تبلغ الرابعة عشرة بعد ، أما « ماميكيه » فهو مازال طفلا بريئا فائض النقاء . إن الدموع تنساب على خديهما لمجرد تفكيرهما فى أنهما لن يلتقيا ، وكانت تلك الدموع تسكرهما . لن يلتقيا ؟ لكأن فراقهما سيدوم أبدا ! ... إن العشاق لفرط أنانيتهم لا يطيقون ابتعاد أحدهما عن الآخر حتى ولو كان ذلك من أجل توسيع آفاق مثلهما الأعلى ، ولا حول لنا ولا قوة إزاء كل هذا . لنتركهما إذن يبكيان حتى يشبعا بكاء ، فربما منعهما ذلك من الاسترسال فى إظهار عواطفهما التى مازالت سلبية حتى الآن .

وقد مت ابنة « مارى روز » شفتيها الشرهتين لابن « يوكا » ، وأخذت تؤكد للمرة المائة ، وربما كانت الأخيرة ، أنها إنما منحته قلبها الآرى إلى الأبد ودون رجعة .

* * *

الفصل الثالث

نهاية العالم :

لقد عاد خريج مدرسة المعلمين بمدينة « مويوندزى» منذ قرابة ثلاثة أشهر. وبعد أن أحرز نجاحاً باهراً فى اختبارات المرحلة الثانية بالدراسة الثانوية ألحق مؤقتا بالمركز المدرسى بـ « باكونج » . وسوف يركب الشاب الطائرة إلى باريس بعدأربعة أشهر ليلتحق بمركز التدريب التربوى بمدرسة المعلمين العليا بـ « سان كلو » .

لقد أصبح « مامبيكيه » مدرساً ممتازاً ، وهو يعتبر — بفضل دراساته الخاصة — أعلى مستوى بكثير من زملاء دفعته . وهو اليوم ناظر مسئول عن المركز المدرسى بـ « باكونجو » وعن المدارس المجاورة للمدينة ، كما يشرف أيضاً على الاتحادات الثقافية والاجتماعية فى حيين كبيرين من أحياء العاصمة .

ويستطيع ابن « تانجو » الآن ، بعد أن تحرر من القيود المدرسية ، أن يستقبل « سولانج » بانتظام وفى ظروف أفضل ، وكانت الفتاة لاتزال تستحوذ على قلبه وعلى عقله وعلى روحه الشابة . وتحضر ابنة « مارى روز » بانتظام فى أيام الخميس والأحد إلى « برازافيل » لتصلى على قبر أمها ولتزور مدام « تيليار » زوجة المفتش العام لإدارة التعليم ، تلك السيدة الفاضلة التى أصبحت فى نظر رئيسة الدير بـ « ليوبولدفيل » بمثابة المراسلة والشبينة للفتاة ، فقد شعرت السيدة بمودة كبيرة نحو الفتاة وكثيراً ما تستقبلها بمنزلها ، وكان من البديهى أن تتكلم المرأتان كثيراً وكثيراً جداً — أثناء الوجبات التى تجمعهما — عن المدرس الشاب الممتاز .

إن ميل الآنسة « موراكس » الواضح للعيان للشاب الذى اصطفاه السيد « تيليار » بحبه ، إنما يزعج قليلا السيدة الفاضلة الطيبة ، فهى لاتجهل للأسف دقة موقف الفتاة إذا ما تراءى لها أن تحب الفتى ، واستحالة أن يقوم بين هذين الشابين ، اللذين تظللهما برعايتها ، رباط شرعى . إنها تعرف تماماً رأى مواطنيها فى هذا الموضوع الشائك ، كما تعرف مدى الفضيحة التى يمكن أن يسببها أى إهمال أو أية

حماقة قد ترتـكبها الفتاة، فإن المعتقدات التى تسود العصر لاتسمح بفكرة التزاوج بين أجناس من ألوان مختلفة .

ولـما كانت على شىء من الفضول — شأنها فى ذلك شأن النساء جميعا ، وقد زاد من فضولها ذلك الحب الأموى الذى تشعر به نحـو ابنة « مارى روز » — فقد حاولت السيدة « تيليار » أن تجس نبض الفتاة بطريقة خفية لتعرف مايدور بخلدها ، وكانت « سولانج » شديدة الحذر .

وأجابت الفتاة عن أسئلة زوجة المفتش بقولها إنه ليس هناك مايمكن أن تخفيه فى علاقتها بـ « مامبيكيه » فإن ما تشعر به نحوه لايتعدى الصداقة البريئة العميقة ، صداقة تشعر بها تجاه منقذها ومدربها على الألعـــاب الرياضية إبان طفولتهما بـ « موساكا » .

لم تـكن « سولانج » تبلغ أكثر من خمسة عشر ربيعاً وإن كان تـكوينها وما يشع من نظرتها الساحرة وأناقة ملبسها يؤكد أن الطفلة قد أصبحت امرأة. وبالرغم مما طبعت عليه الفتاة من صراحة فقد أبت أن تفتح محراب قلبها المقدس، فهى مؤمنة بأن كل ما يتعلق بهذا القلب لم يعد ملـكاً لها مادامت قد منحت « مامبيكيه » إياه والذى أصبح السيد الوحيد لهذا القلب. إن «مامبيكيه» له وحده الحق — إذا أراد — أن يسمح للناس بزيارة هـذا المحراب فهو ملـكه الخاص . وقد هدأت « سولانج » من روع السيدة « تيليار » التى كانت بدورها تصدق كل كلمة تقولها الفتاة وكأنها كلمة منزلة ، وكانت تنسى أن المرأة بطبعها ، أيا كانت ، لاتظهر ولا تفصح إلا عما تريد الإفصاح عنه ، وتجهل كل شىء عن تلك الرحلات الشاعرية إلى « بيت الغابة » ، وعن تلك العهود التى قطعها صديقانا ، وعن تلك المشاريع التى أعداها، وعن الدور الذى يمثلانه .

إن « مامبيكيه » يبلغ الآن السابعة عشرة من عمره وهو طويل القامة متين البنيان فقد اعتاد ممارسة شتى الألعاب . لقد أصبح شاباً جذاباً ولو أنه كان أكثر إقداماً لأحرز أكبر نجاح فى الأوساط الاجتماعية الراقية بـ « برازافيل » ومع سيدات « بوتو — بوتو » اللائى يجرين وراء المغامرة ، وهى مجتمعات تتميز بتقاليد أقل تعنتاً . كان يمكن أن تسقط تلك النساء صرعى عند قدميه إذا أراد ، ولـكنه مازال طفلا

بريئاً يسيطر على حواسه بصرامة لاتلين . مازال الشاب نقياً . وكان يقول لنفسه إنه مادام له قلب واحد فليس فى إمكانه أن يقسمه وأن يمنح أجزاء منه لسيدات « بوتو — بوتو » فإن هذا القلب لم يعد ملكاً له . وعندما كانت تلك السيدات يلححن عليه ويحاولن إغراءه كان يجيبهن بأنه هو وإحدى بنات عمومته بـ « موساكا » قد تعاهدا فى وثيقة حرراها بدمهما أن يكون كل منهما للآخر ، وكان يقول لهن: إن خيانة العهد بمثابة جريمة يرتكبها تجاه نساء وفتيات العالم جميعاً ، وكان يضيف أن وصمة كهذه كانت ستقلل من شأنه فى قلب ابنة عمه وفى قلب أمه التى تتمسك بذلك الزواج بكل قوتها .

وكن يقلن إذن بعد أن تعييهن الحيل : ياله من شخص غريب الأطوار هذا الـ « مامبيكيه » ! لابد أن « موباليه — أو — تبيه » هذا ، الجميل ، شاب شاذ ... إن حكم ابنة حواء يكون متسرعاً قاسياً إذا ماشذ شخص تهتم به كل الاهتمام ولم يبال بها ، والأمر فى هذه الحال يتعلق بسمعتها إذا أهملها من تصطفيه وإذا رفض أن ينقاد وراء نزواتها العارضة . وكن يتصورون أنه إنما يتباعد عنهن مراعاة لمصلحته التى كان لها وزن كبير : ألم يكن مرشحاً لشغل مركز محترم فى المجتمع ؟

وكان رد الشاب على تلك التهم : « هذا أفضل » . لقد رضى بحكمهن ، ووافق عليه ، فقد كان هذا الوضع يهون عليه ويساعده على أن يتفانى أكثر وأكثر فى حبه لـ « سولانج » أى لقلبه الآرى على حد قولها .

* * *

قال الفتى للفتاة : لست أفهم يا « سولانج » كيف يأذنون لك بالخروج من الدير بتلك السهولة . ماذا تنتحلين من أعذار لتقنعى أولئك الراهبات بالسماح لك بالخروج فى أيام الخميس والأحد ؟ لو كان لدى بعض الوقت لأشعلت بعض الشموع لهاتيك الراهبات المربيات اللطيفات . ولا بد أنك تتمتعين عند راهباتك الـ « فرنسيسكان » البلجيكيات بحرية كبيرة إذ يبدو أنهن متطورات واسعات الأفق . ولا يمكننى أن أقول ذلك عن راهباتنا القديسات بدير « سان جوزيف دى كلونى » اللائى يفرضن على نزيلاتهن نظاماً كالذى يفرض على الراهبات أنفسهن ، وهن فتيات فى مثل سنك

ولا يسمحن لهن — إذا ماأردن بعض التسلية — إلا بالصلاة والتأمل فى حياة القديسة الطاهرة مريم . إن تلك السجينات الصغيرات لايسمح لهن بالخروج ، ومن النادر جداً أن يخرجن ، وإذا خرجن ، خرجن مطأطئات الرءووس . بل إنى أعتقد أن تلك الراهبات المتعنتات سوف يقررن بعد قليل أن يلبسن لهاتيك الفتيات الصغيرات نقاباً كالذى تلبسه نزيلات الحريم فى قصور السلاطين الأتراك أو المراكشيين . أخبرينى يا « سولانج » ، ماذا تفعلين أثناء تلك الفترات العديدة التى يسمح لك فيها بالخروج ، فيما عدا زياراتك لمدام « تيليار » ؟

وأجابته « سولانج » فى ثورة ، إذ شعرت بأن فيما يقوله غيرة تجرح شعورها ، وكانت بدورها غير مطمئنة تماماً إلى فضيلة صديقها :

— لماذا تقول هذا ؟ أتكون قد سئمت رؤيتى ؟ لابد أنى أضايقك وأنى أمنعك من مقابلة صديقاتك الصغيرات ، أليس كذلك ؟ ليس عليك إذن إلا أن تطلب منى صراحة ألا أحضر إلى هنا لإزعاجك ، وسوف أبقى عندئذ مستكنة عند راهباتى الـ « فرنسيسكان » المتطورات . كيف تجرؤ على هذا القول ؟ أنت تعلم تماماً لماذا أحضر إلى هنا ، وها أنت أول من يهاجم زياراتى لـ « برازافيل » . ألا تعرف سبباً آخر لمجيئى إلى هنا غير الصلاة على قبر أمى وزيارتى للسيدة « تيليار » النبيلة الطيبة التى تبنتنى هنا واتخذتنى ربيبة لها ؟

— هاهى تثور ... أوه ! كم تكونين قبيحة عندما تقطبين حاجبيك هكذا ! لا تتجهمى هكذا فإن ذلك يؤلمنى أشد الألم . هيا أيتها الفتاة التى يملأ قلبها الشك ، هيا ابتسمى أيتها الآرية الشريرة التى استحوذت على لبى . ألم تدركى أننى إنما أغيظك لكى أتلهى برد الفعل فيك ؟ ألا تثقين بى بعد ؟ أما زلت تتصورين أن لى صديقات ؟ صبراً ، سوف ترينهن بعد قليل ، سوف ترين صديقاتى الحقيقيات . وفى نيتى أن أقدمهن إليك فى الأسبوع القادم .

— ها أنت تعترف أيها الشرير . أتجرؤ على الاعتراف بأن لك صديقات ؟ أتجرؤ على القول بأنك تريد أن تقدمهن إلى ؟

وفى شدة ثورتها عضت الشاب فى خده فأخذ الدم يسيل منه غزيراً . وجن جنونها

وهى ترى الجرح ، ولكنه كان لحسن الحظ سطحياً ، وأخذت تمسح آثار عضتها بمنديلها الصغير وتعتذر لضحيتها بإخلاص ...

— اصفح عنى ... اصفح عنى ياصديقى ... كم آلمتك ! أغاضب أنت ياه موباليه

— أو — تعبه ، ؟ اضربنى ... هيا اضربنى لتعاقبنى على هذا الشر الشيطانى الذى أقدمت عليه . أيمكن أن أكون أنا ... أنا « سولانج » التى تعبدك ، التى فعلت هذا؟ آه : أنا فعلا على شاكلة أبى . هذا أمر محزن أليس كذلك ؟

وأجابها العاشق ببساطة : أنا أحبك ، وأنت ؟

وأجابت وهى تجهش بالبكاء : إنى أكرهك لأنك شيطان .

— ألأنى سرقت قلبك الآرى ؟

— أنت مجنون ، أنت سخيف وقبيح وأنا أعبدك ، وهذا شىء مؤسف .

— نعم يا « سولانج » أنا مجنون بك وسوف أصبح أكثر سخفاً أو أنا بالأحرى لا أعرف ماذا سأصبح إذا فقدتك ، أو إذا هجرتنى .

— أقتلنى إذا خنتك وانتحر إذا أنا مت .

— أعدك بذلك أيتها الثمرة المعبودة .

وقدم الشاب ، بعد انتهاء هذا المشهد وبعد أن تراشقا بتلك الأسئلة والأجوبة ، طاقة من الورود كان قد أعدها ليقدمها لتلك الثمرة المستأنسة الباسمة . ورحلا وهما يجريان كالمجانين أو كأنهما يهيمان فى عالم غير مرئى وكأن أشباحاً تطاردهما ، إلى حيث تسكن مدام « تيليار » .

قالت شبينة « سولانج » : ها أنتما ياأولادى ، هل قضيتما وقتاً سعيداً ؟

— نعم ياسيدتى . لقد قضينا وقتاً سعيداً وها نحن قد قطعت أنفاسنا من كثرة ماجرينا .

— وإلى أين ذهبتما ؟

— لقد ذهبنا إلى « باكونجو » وإلى « بوتو — بوتو » وإلى ضفة النهر وإلى الغابات لنتفرج على قرع الطبول وعلى الألعاب ولنسبح ونستمتع بتغريد العصافير

وصيحات الزيزان . إن رؤية تلك الأشياء من قرب واستنشاق رائحة الزهور وتسلق الأشجار التى تعبق المكان بعطرها وتبارك الزائرين ، وهذا الهواء الذى يلفح الوجه كالسوط ، كل تلك الأشياء بديعة وسوف ينتهى بى الأمر إلى التجنس بالجنسية الكونغولية حتى يمكننى أن أشاطر الناس هنا لعبهم وأنا على سجيتى وحتى أسترشد بحكمتهم وحتى أتذوق بكل حريتى ذلك السحر الأخاذ الذى نراه فى هذا البلد الجميل . إن القلوب هنا محبة والنفوس دائمة المرح والناس هنا كرماء يتفانون فى خدمة الغير .

— أنت على حق يا « سولانج » . وكل ماسردته ليس بالجديد على . إن إفريقيا الساحرة لتمتاز بكل هذا فعلا ، والمرء لا يسأم هذه القارة الإفريقية الخلابة ولا يكف عن الإعجاب بها ، ولكن يبدو يافتاتى أنك تأخرت جداً عن ميعاد مركبك ، أليس كذلك ؟ حسناً ، سوف نجد حلا لهـــذا . أيها السائق ، أوصل الآنسة إلى الميناء وأرجوك أن تعود بسرعة لأن السيد ينوى الخروج فى صحبة الأطفال بعد قليل . إلى اللقاء يا « سولانج » إلى اللقاء غداً يا « مامبيكيه » .

جلسا بالسيارة جنباً إلى جنب ووصلا إلى الميناء بسرعة . وبعثت الفتاة إلى « مامبيكيه » قبل أن تتركه ، بقبلة طائرة بريئة ، وقد ضايق الشاب وجود السائق ، ولكن هـذا الأخير لحسن الحظ كان منهمكاً فى البحث عن مكان يخرج منه بين صفوف عربات السادة التى كانت تقف فى محاذاة الأرصفة . ولما كانت الفتاة مطمئنة إلى إخلاص « مامبيكيه » — بعد تلك المشاحنات التى رأيناها — فقد نسيت أن تسأله أى نوع من الأصدقاء كان يريد أن يقدمه إليها . أما خد الشاب فقد أخـذ ينتفخ بطريقة مؤلمة ، ولكنه لم يبال بالأمر . إن العاشق ليعتز بمثل هـذا الأثر الذى طبعته أسنان معبودته . وعلى كل حال فسوف يضمد الجرح بماء الكولونيا ، ولن يبدو له أثر فى اليوم التالى

* * *

— أتبكين يا « سولانج » ؟ ماذا بك يا قلبى الجميل ؟

— سبب بكائى أنى سعيدة برؤياك .

— أتكونين سعيدة برؤيتى وتبكين ؟

— بالتأكيد فقدتذكرت ذلك الجرح الذىسببته لك يوم الأحد الماضى. كنت أتصورك مريضاً ثم ... ثم هذا كل ما هناك ...

— حم ! حم ! إنك تخفين شيئاً . ولكن لندع هذا . والآن هيا بنا نزور وألدتنا ، ثم نزور منزلى فى « باكونجو » حيث ينتظرونك بفارغ الصبر .

— من ينتظرنى ؟ إنهن صديقاتك أليس كذلك ؟ لست حريصة على ذلك البتة ، لست حريصة على رؤية نسائك . أوه ! يا « موباليه — أو — تميه » أنت لم تكذب على إذن ؟ لماذا أنت قاس معى ؟

— انتظرى يا « سولانج » ... انتظرى حتى تريهن، ولك بعد ذلك أن تثورى ... انتظرى بحق الشيطان ، هناك فسحة من الوقت وسيكون من حقك عندئذ أن تقضى عليهن ياصديقتى ...

— إنك سعيد وأنت ترانى قلقة تعسة ، أليس كذلك ؟ لماذا ترفض أن تخبرنى بالحقيقة فى التو واللحظة بدلا من أن تعذبنى كما تفعل الآن ؟

— اطمئنى يا حبيبتى ، يجب ألا أخبرك بشىء الآن . إنها لمفاجأة سعيدة تلك التى أنوى أن أفاجئك بها . سوف ترين بعد قليل أنى على حق فى أن أدعوك إلى التريث قليلا . والآن هيا بنا نزور والدتنا ونلقى إليها بتحية الصباح .

وبعد ساعة وصلا إلى « باكونجو »

وفتحت الباب للقادمين فتاة صغيرة فى حوالى الحادية عشرة من عمرها ترتدى ميدعة بيضاء . إنها « لوسى أومامبى » الصغيرة التى ألحقت ببيت السيد مدير المركز المدرسى بـ « باكونجو » فى وظيفة مدبرة للبيت . وقد التحقت « لوسى » بمدرسة للتدبير المنزلى وهى تعنى فوق ذلك بمنزل « مامبيسكيه » فى أوقات فراغها .

وبعد محاولات طويلة قبل المجلس البلدى ، تمكن السيد « تيليار » من أن يحصل أخيراً على الكوخ الذى يخصص عادة للموظفين القادمين من العاصمة الأوروبية ، الذين لايجدون سكناً لهم بالحى الأوروبى ، لسكن المدرس الشاب الذى مازال تحت التمرين . كان المسكن خاوياً وقد تمكن « مامبيسكيه » بمساعدة العمدة من أن يستحوذ

عليه مؤقتاً فى انتظار رحيله إلى فرنسا الأم . كانت الشقة مكونة من أربع حجرات: حجرة استقبال فسيحة وحجرة للطعام وحجرة أخرى يحجبها ستار رسمت عليه صور خلابة ومكتبة كبيرة . وكانت هناك غرف ملحقة بالكوخ : غرفة للوسى ومطبخ وحظيرة للدواجن تقع جميعاً خلف فناء داخلى .

واستحوذت على الفتاة الدهشة والسعادة وتسمرت عند الباب وسرحت بنظرها فى تلك الحجرات التى يدل تنسيقها الجميل على أن يداً ماهرة قد أشرفت عليه . كانت هناك بحجرة الاستقبال منضدة مستديرة مغطاة بسجادة شرقية وخمسة أو ستة حوامل تحمل أوانى من الخزف ، وهى من عمل تلاميذ مدرسة التأهيل المهنى ، وكانت هناك أيضاً أزهار نسقت فى أوان جميلة من صنع سيدات « ميلا » ، وست مقاعد وثيرة مغطاة بوسائد من نسيج الـ « رافيا » تمد ذراعيها مرحبة بالزائرين . أما النوافذ فهى عريضة ومرتفعة تنسدل عليها ستائر فاتحة اللون . وقد أعدت فى حجرة الطعام مائدة مستطيلة تزينها فى وسطها طاقة من الياسمين الأبيض . وكانت المائدة مغطاة بفرش جميل ناصع البياض مطرز عند حوافه ، كما صفت حولها مقاعد من خشب الـ « لمبا » من إنتاج ورش « ماتينجويير » بمدينة « ماتومبو » . وكانت بتلك الحجرة بدورها ستائر زرقاء تنسدل على نوافذها .

وسألت « سولانج » ، ولم تكن قد نطقت بكلمة واحدة منذ وصولها .

— وهذه الحجرة التى تقع عن اليسار والتى تحجبها الستارة السميكة ماذا بها؟

— إنها غرفة النوم . أوه ! ثق أن ليس هناك من يختبئ بها ، أليس كذلك يا « لوسى » ؟

وأجابت ابنة « أومامبى » بلغة فرنسية مجردة من لهجة الـ « ليكوبا » ...

— لايوجد أحد بهذه الغرفة يا آنسة .

— كيف ... أهذه أنت يا « لوسى » ؟ لم أتعرف عليك فقد كبرت ياحبيبتى ... أأنت بمفردك إذن تعنين بهذا القصر الذى يذكرنا بقصص « ألف ليلة وليلة » ؟ أما عن حراب ابن عمك فإنى أصدقك مادمت تؤكدين أن لاأحد يختبئ فيه .

وأومأت ابنة « أومامبى » الصغيرة بالإيجاب ، ثم أسرعت تجيب ابنة الرجل الأبيض إذ من واجبها أن ترد لها تحيتها :

— أنت يا آنسة « موراكس » التي تغيرت جداً بشكل يستهوى القلوب . ها أنت قد أصبحت الآن سيدة عظيمة، فقدزدت جمالا عما كنت عليه فى المرة السابقة عندما شرفتنا بزيارتك بـ « بوتو — بوتو » .

— أهذا معقول يا إلهى ! مامعنى هذا يا سيد « مامبيكيه » ؟ ألم تعد لوسى تتكلم ال « ليكوبا » ؟ ... أأنت الذى غيرتها فى تلك المدة الوجيزة وعلمتها كيف تتكلم الفرنسية بتلك اللهجة السليمة ؟

— أوه ! ليس لى أى فضل فى ذلك يا آنسة « موراكس » . الأمر فى الحقيقة لايعدو تطبيق نظريتك أنت وطريقتك فى إعطاء الدروس الخاصة بعيداً عن الأنظار .

وانفجر الشابان بالضحك عند ذكر مغامرتهما وتلك الدروس التى كانت تعطيها الفتاة إياه بـ « موساكا » خفية ، وكل ماكان يفعلانه ليسخرا من الأب « هوكس » . ولكن ما كان يضحكها أكثر وأكثر إنما هو حديثها بصيغة الجمع [١] وقولهما : « سيدى » و « آنستى » أمام لوسى المسكينة التى كان يعذبها كل هذا التكلف .

— والحجرة الأخرى من فضلك ؟ أهى بدورها محراب محرم دخوله ؟

— اسألى صديقتك « لوسى » عن هذا . ألم تصرحى منذ قليل بأنك تفضلين تصديق ماتقوله هى على ماأقوله أنا ؟ يا « لوسى » اصحبى الآنسة « موراكس » وأريها المحراب المقدس .

واختفى الشاب ليتيح لـ « سولانج » أن تنعم بالمفاجأة الموعودة .

فتحت الفتاة الصغيرة باب الحجرة بمفتاح أخرجته من ميدعتها وأزاحت بيدها اليمنى إطاراً مصنوعاً من ألياف الغاب وانحنت أمام « سولانج » وأعلنت مقدمها أمام جمهور غير منظور . قالت الفتاة :

— الآنسة « سولانج موراكس » . وأشارت بيدها اليسرى إلى المكتبة وهتفت : ها هم أصدقاء السيد الناظر .

---

(١) أى (Vous) وهى للدلالة على الكلفة .

ورأت « سولانج » فوق رفوف عميقة بحواجز صفراء اللون — وهو إجراء حكيم لحمايتها من النمل الأبيض — ثروة لاتقدر بثمن . كانت هناك كتب مغلفة بأغلفة مذهبة لم تكن ابنة « روش موراكس » تتخيل وجود مثلها . ياله من اختيار موفق وانتقاء جرىء ! إن تلك المؤلفات لأرسطو ولأرستوفان ول « سان توما الأكوينى » و « أوجست كونت » و « كوندياك » و « ديدرو » و « ليتريه » و « فولتير » و « جان جاك روسو » و « كانت » و « ديكنز » و « كارل ماركس » و « ليبنز » و « هيجيل » و « لنين » . كان كل هؤلاء الكتاب يتآخون ، ولا يتصارعون مع آخرين مثل « باريس » و« بودلير » و « بومارشيه » و«شاتوبريان » و « بوسويه » و « فينلون » و « بوالو » و « جى دى موباسان » و « ميريميه » و « لوتى » و « مارسيل بروست » و « الفريد دى فيني » و « فيكتور هوجو » و « الكسندرديماس » و « تيوفيل جوتيه » و «إميل زولا» و « فرانسوا مورياك » و « أندريه جيد » و « جان بول سارتر » و « مالرو » و « جول رومان » و « ريتشارد رايت » .

— أوه يا « موباليه — أو — تمبيه » ! أهؤلاء هم صديقاتك ؟

وأجاب « مامبيكيه » ضاحكا وكان يختبئ بحجرة الاستقبال :

— بالطبع ، ولكن أرجوك أن تقولى أصدقائى لاصديقاتى .

— حسناً ، حسناً ياصديقى . سوف أحذف كل علامات التأنيث وكل ماتطلب منى حذفه فقد كنت رقيقاً فعلا إذ أعددت لى تلك المفاجأة . شكراً يا « موباليه — أو — تمبيه » . إنى أطلب عفوك إذ شككت فيك . يا إلهى ! إنهذه المجموعة كفيلة بأن تفسد على الإنسان عقله ...

— حسناً ! والآن وقد تعرفت على أصدقائى، فسنجلس إلى مائدة الطعام مباشرة فقد غازلت بما فيه الكفاية أصدقائى الجذابين .

— أرجوك أن تسمح لى ياصديقى بأن أتأمل قليلا هذه الكنوز . وعلى فكرة ... كنت بدورى أعد لك مفاجأة ولكن مفاجأتى أنا للأسف ليست بالمفاجأة السارة . إنها حقاً ليست بالمفاجأة السعيدة على الإطلاق . أتريد أن أكلمك عنها الآن ؟

تـكلمت الفتاة كثيراً وبصوت مرتفع ولـكن لاتجيب . كانت في موقفها هذا كمن يحادث الـكتب . والـكتب كما نعرف يمـكنها أن تحدثك ولـكنها عاجزة عن الإجابة عماتوجهه إليها من أسئلة .

واستدارت بسرعة وتبينت لدهشتها أن الحجرة خاوية وأنها بمفردها . واندفعت إلى الحجرة المجاورة وكانت خالية كالأولى . لم تجد لا « مامبيـكيه » ولا « لوسى ». مامعنى هذا ؟ أين هما ؟ وبعد ثوان من التردد ، حزمت الفتاة أمرها وفتحت بابه غرفة النوم . كان أثاثها بسيطاً وإن أعد بذوق رفيع . لم يـكن بها أحد . وشعرت بالحرج إذ اقتحمت غرفة نوم الشاب على هذا النحو ، ولذا فقد أسرعت بالخروج وأغلقت الباب وراءها وتأهبت للانطلاق خارج البيت لتبحث عن صديقها .

لاحظ « مامبيـكيه » فى الوقت الناسب ان ليس بالبيت فاكهة ولذا فقد طار إلى السوق القريبة من المنزل كالعداء فى السباق ، تتبعه مدبرة بيته الصغيرة .

وعادا أخيراً حاملين سلة وثلاث حبات كبيرة من فاكهة الأوطة وما يقرب من كيلو ونصف من الجوافة وحبتين كبيرتين من الأناناس وما يقرب من عشرين موزة وقد كلفه ذلك عشرة فرنـكات .

واعتذر الشاب لصديقته عن تركها هكذا فى صحبة « لينين » و « كارل ماركس » و « هيجيل » .

— كم شعرت بالخوف ! لقد تصورت أنـكما نسيتما وجودى هنا ، لـكى تذهبا إلى مكان لاأعرفه .

— ها أنت على شكك لم تتغيرى... عجباً يا آنسة «موراكس» : متى ستشعرين بالثقة ، بالثقة المطلقة فى صديقك ؟ أما الآن فهيا إلى المائدة فأنا أموت من شدة الجوع . لقد عالجت منذ قليل سهواً وقعت فيه مدبرة منزلى الطيبة وسيدة هذا البيت وهو اللقلب الذى وعدت ابنة عمى لوسى بأن تحصل عليه .

وقاطعته « سولانج » وهى تقترب من الفتاة التى أوشكت على البكاء .

— لاتؤنب هكذا تلك الصغيرة المسكينة . إنها ولاشك تلاقى عناء كبيراً فى

الإشراف على هذا البيت الفسيح . وخفضت « لوسى » عينيها المبللتين بالدموع ولم تعترف بأنها قد سرقت عند «جوفيا» عندما ذهبت لتشترى ما يلزم البيت من أطعمة طازجة.

وجلس ثلاثتهم حول المائدة وشرعوا يأكلون بشهية كبيرة . هاهم يجلسون الآن بحجرة الاستقبال يحتسون شراب « البابونج » الذى تفوح منه رائحة طيبة ، فقد رفضت الفتاة تناول أية مشروبات روحية . وعادت « لوسى » إلى المطبخ الملحق بالبيت لتغسل الأوانى ، تاركة الصديقين بمفردهما ليتحدثا بمطلق حريتهما ... وليفتح كل منهما قلبه للآخر .

قالت الفتاة :

— هناك شىء أريد أن أخبرك به يا «موباليه — أو — تمبيه» . لعلك لاحظت منذ قليل ونحن بالمدافن أنى كنت مشغولة البال حزينة ، أليس كذلك ؟ حسناً ياعزيزى: قليل وصلتنى أخبار من والدى : إنه يطلب منى أن ألحق به وسأبحر على الباخرة « فونديو » التى ترحل يوم الثلاثاء إلى « موساكا »، ويبدو أن الأمر ملح ، فقد أخبرتنى رئيسة الدير — التى لم تسلمنى الرسالة التى وصلت يوم الجمعة إلا مساء أمس — إن والدى لم يعد فى إمكانه الإشراف بمفرده على تجارته، وإنه فى حاجة إلى من يساعده. وعلى أن أقوم أنا بنفسى بتلك المهمة وسوف يعاوننى فيها والدك. ما رأيك أنت فى ذلك؟

وأجابها الشاب فى حزن بالغ وكأنه فقد لتوه أباه وأمه بعد أن صدمته تلك الأخبار :

— أتنوين إذن الذهاب إلى « موساكا» ؟ ولكن هذا محال ... إن مكانك لم يعد هناك... سوف تشعرين بالتعاسة مع هذا الـ... أعنى أنك سوف تشعرين بالوحشة فى ذلك المكان حيث ستكونين المرأة البيضاء الوحيدة... وأنا... أنا ماذا يكون مصيرى؟

— يمكنك أن تتكلم بكل حرية يا صديقى ف « لوسى » بالمطبخ ، وأعتقد أنها لن تحاول التلصص على الأبواب كما تفعل بنات جنسى الفضوليات ، فهى مازالت بدائية كما يقولون ، أى عاقلة رزينة ، وهى لم تحصل بعد على تلك الصفات «الخاصة» التى تتميز بها الشعوب المتحضرة . لماذا تتردد فى الإفصاح عما عندك ؟ هل تتصور أنى لا أعرف رأيك فى أبى ؟ وا أسفاه! ماذا تستطيع عمله يا صديقى لتغير من موقفى المؤلم؟

إن هذا الرجل، مهما أشعرنى بالخجل، أبى على أى حال، وأنا ابنته ولا حيلة لى فى ذلك. مازلت قاصراً، وليس فى مقدورى أن أتهرب مما ينتظرنى هناك من شعور بالخجل ومما أعده لى هناك من مفاجآت أليمة. إن موت أمى البكر سوف يثقل كاهلى بأعباء سوف تصيبنى بالشيخوخة قبل الأوان. لقد تعلمت أشياء كثيرة الآن ... وربما استطعت أن أهون من آلام البعض هناك، وأن أعمل على تحسين مصير بعض التعساء الذين أساءت اليهم أسرتى إساءة بالغة. وعلى أى حال فلست أملك إلا الطاعة. فقد أخبر والدى رئيسة الدير أنه لن يرسل إليها نقوداً ابتداء من هذا الشهر كثمن لإقامتى. ها أنت ترى إذن أنى مضطرة إلى العودة.

شعر ابن « تانجو » بارتباك شديد فهو يرفض أن يغفر لصديقته استسلامها وشجاعتها فى أن تتقبل قرار أبيها دون احتجاج. وأحنى الشاب رأسه وأسنده على صدره وأخذ يبكى فى سكون. وشعرت « سولانج » بأنها عاجزة عن التخفيف من هذا الألم الذى اعترى صديقها فتركته لدموعه ... وقد سرها أيضاً أن تكشف مدى المكانة التى تشغلها فى قلب هذا الشاب الذى تغار عليه كل الغيرة، وأخذت تربت على خديه ثم همست فى أذنه أخيراً بكلمتين كان لهما وقع كالسحر، فقد قفز « مامبيكيه » عند سماعها وأخذ ينظر باسماً إلى « سولانج ». وكانت نظرته نهمة عميقة وقال بعد لحظة.

— أتفعلين هذا حقا يا « سولانج »؟ لن أوفيك أبداً ما تستحقينه من حب.

وأجابته ابنة « مارى روز » ببساطة، وكان العزم يرتسم على محياها: « سوف ترى ».

ودارت عقارب الساعة ولكنهما لم يتبينا كم من الوقت مر عليهما، فقد شغلتهما همومهما وأنستهما كل شىء.

وقفز الاثنان عند سماع طرق على الباب. لقد جاءت لوسى تنبههما إلى أن الساعة قد بلغت الرابعة بعد الظهر... وقالت:

— ربما أرادت الآنسة « سولانج » ...

— شكراً يا « لوسى ». لقد أحسنت صنعاً إذ نبهتنى إلى واجباتى. كنت مستغرقة فى قراءة أحد كتب ابن عمك وقد حان وقت رحيلى إذ وعدت رئيسة الدير بأنى سأعود فى الساعة الخامسة. إلى اللقاء يا صغيرتى « لوسى » وشكراً لك على ما أعددته لنا من ألوان لذيذة من الطعام، وأنا أهنئك على مهارتك يا صديقتى فأنت أكثر منى براعة

فى فنون الطهى وفى الأعمال المنزلية . ولست أدرى إن كان فى استطاعتى الإشراف على بيت كبير كهذا ، وأرجوك أن تخبرى أمك الطيبة أن ابنة الرجل الأبيض تفكر فيها كثيراً ، وأنا أكرر شكرى لك يا « لوسى » ...

وسلكا الطريق التى تمر بمصنع الطوب ليصلا إلى الميناء سريعاً وليتجنبا الفضوليين بدلا من أن يسيرا فى شارع « برازا » الكبير الذى يخترق المدينة من أقصاها إلى أقصاها .

* * *

الساعة الآن السابعة مساء

و « مامبيكيه » بمفرده بالمنزل وهو يتظاهر بتصفح كتاب ولكن ذهنه يسرح فى مكان آخر . إن عينيه لاتريان من الحروف المطبوعة إلا نقاطاً سوداء تتراقص أمامها . ومن حين إلى آخر كان الشاب يترك كتابه ويخرج إلى الشارع ويحاول أن يتفرس فى الظلام الذى يخيم على مفترقات الطرق ، وهو بادى القلق ...

كانت « لوسى » الصغيرة قد رحلت إلى بيت والديها بـ « بوتو — بوتو » بعد أن نسقت كل شىء ، وبعد أن أعدت عشاء خفيفاً بارداً .

وأخيراً ... فتح باب السور برفق ودلفت منه امرأة طويلة القامة تضع على وجهها غلالة خفيفة ...

إنها « سولانج » التى جاءت إلى هنا بعد أن وضعت حقائبها على ظهر الباخرة «فونديز » لتلتقى سراً بهذا الذى ستضطر إلى أن تتركه غداً فى الساعة العاشرة صباحاً .

قالت الفتاة ببساطة وهى تنزع الغلالة الخفيفة فيبدو فى نظرتها التساؤل والقلق : هأنذا يا « موباليه — أو — تمبيه » .

— وكيف ترحلين من هنا غداً صباحاً ياحبيبتى ؟

— سوف أتوجه فى الصباح إلى منزل مدام «تيليار» التى تنتظر وصولى فى الثامنة . لقد بعثت إليها برسالة أخبرتها فيها بأنى سأبحر على أول مركب لأتمكن من تحيتها قبل رحيلى إلى السجن الذى ينتظرنى ، ولأشكرها على كل ما أحاطتنى به من رعاية .

لقد أعددت كل شيء ، وكل شيء يسير على مايرام وليس هناك مايمكن أن تخشاه أيها الرعديد ...

وأجابها ابن « يوكا » وهو يحملها كالريشة إلى بيته :

— أنت ملاك . هيا تخلصى بسرعة من هذا التنكر القبيح. ثم أسرع بإغلاق جميع الأبواب .

وأضاءت المصابيح البيت لبضع لحظات ثم أطفئت . إن البيت يسبح الآن فى ظلام يسترهما عن الأعين ، وهو ظلام مفعم بالأسرار .

* * *

لقد تغيرت أحوال الوكالة وأصلح كل شبر فيها . فالمخازن التى كانت تفوح منها الروائح الكريهة قد أصبحت الآن نظيفة ونسقت فيها البضائع على اختلاف أنواعها . إنها الآن تمد العاملين بمؤسسة « موراكس » ، وجميع سكان «موساكا» والقرى المجاورة بكل ما يحتاجونه . وكنت ترى طنافس جميلة صنعت من ألياف الأناناس تغطى أرضية حجرة المكتب الصغيرة الأنيقة التى لاتكف الآلة الكاتبة فيها عن النقر فى صوت مسموع. أما فى داخل البيت نفسه فكنت ترى على الأبواب والنوافذ ستائر بهيجة نظفت مما كان يعلوها من غبار متراكم .وأما الحديقة فقد نسقت داخل أحواضها أزهار اللؤلؤ والياسمين والقرنفل وورود يفوح منها عطر أخاذ . وأما فى حظيرة الدواجن ، فإن الطيور التى يعنى بإطعامها ، تبيض بيضاً طازجاً وفيراً . وكنت ترى « يوكا » فى المطبخ الذى تبهرك نظافته ، والمساعدين اللذين ألحقا بالخدمة لمعاونته ، يرتديان زياً جميلا يحمل حرفى « ر . م » . وكانت هناك أنابيب عريضة وعميقة تعلوها كبارى صغيرة من ألواح الخشب السميك تصرف مياه الأمطار وتلقى بها فى النهر الكبير . والأمل كبير فى ألا تغمر الفيضانات هذه السنة المناطق المحيطة بالوكالة ...

وكنت ترى ، تحت الشرفة ، عدداً من الأطفال يتراوح بين عشرة واثنى عشر طفلا ، لونهم خليط من الأسود والأبيض ، يبلغون الخامسة أو السادسة من العمر ، يتعلقون بسترة أو بسروال « روش موراكس » الذى مايزال نشيطاً وإن

تقدمت به السن قليلا . والأطفال يلعبون ويمثلون دور الجنود فى معركة يدير عملياتها الحربية أبوهم الأبيض .

وفى تلك اللحظة خرجت امرأة من حجرة المكتب لها شعر أسود فاحم ، وترتدى ثوباً منزلياً فضفاضاً من القطن البرتقالى وسلمت الرجل رضيعاً مختلط اللون ... والرجل يجد عناء كبيراً فى إسكات هذا العدد من الأطفال الذين يحيطون به .

— خذ « ألكسيس » يا أبى فهو يمنعنى من العمل . إن السيد الصغير إنما يريد أن يكتب على الآلة الكاتبة منذ الآن ، ولكنى بدورى لست أريد أن أفسد فاتورتى . إنها تلك الفاتورة يا أبى — ولعلك تذكرها — التى تطالبنا بها إدارة حسابات مؤسسة « آسا كيس إخوان » ، « ليو إيست » عن آخر طلبية لها ، تلك الخاصة بعشرين برميلا من زيت النخيل ومائتين وخمسين كيلو جراماً من المطاط . بل على كذلك أن أعد الفاتورة الخاصة بشركة « س.ك.ق.ن » الخاصة بألفى قطعة من الجلود وبستمائة كيس كرنب . إن العمل كثير هنا ... ولكنك تتركنى أقوم بكل شئ بمفردى فأنت لا تبالى إلا بغلايينك ولا تشغل نفسك إلا بزياراتك لرئيس قبيلة « موساكا » حيث تحتسى معه شتى ألوان السموم .

— وهؤلاء الأطفال القذرون الذين جئتنى بهم من جميع أنحاء المقاطعة ، أتتصورين أنهم لا يزعجوننى بصراخهم طوال النهار ؟ أتتصورين أن دمى لا يتسمم وأنا أستمع إلى مايقولونه من سخافات ؟ إن أطفالك هؤلاء قد بدأوا يضايقوننى ، أتعرفين ذلك ؟

— أطفالى ؟ ألا تخطئ يا أبى فى هذه التسمية ؟ إن هؤلاء الأطفال القذرين كما تسميهم ، لم يطلبوا المجيء إلى هذه الأرض اللعينة ، وهم إخوة غير أشقاء لى ، وأنت أبوهم على أى حال . وواجبك أنت إذن ، وليس واجبى ، أن تعنى بهم وأن تطعمهم وأن تربيهم . لست أنا رب الأسرة هنا . لست إلا ربة بيت وسوف أبقى ربة بيت .

— كفاك دروساً فى الأخلاق يا « سولانج » . هيا اذهبى لتعنى بفواتيرك واتركينى وشأنى .

— حسناً ، حسناً ، كفانا شجاراً لسبب تافه كهذا ... آه ... كنت على وشك أن أنسى يا أبى . هل تتكرم بالذهاب إلى مخزن البضائع لتختار الألوان المناسبة لستائر مكتب المدرسة ؟

— حسناً ،سوف ، أذهب إلى هناك هذا المساء وسوف أنتهز هذه الفرصة لزيارة الأب « هوكس » المسكين إذ لابد أنه يشعر بمنتهى الضيق وأن الشياطين قد تقمصت روحه لرؤيته مدرسة غير دينية تقام بجوار كنيسته . إن الأب « هوكس » غير راض البتة عن كل هذا ، ولابد أنه لا يصلي كثيراً من أجل هؤلاء الكفار المتطفلين الذين جاءوا ينافسونه فيما يدين به له رعاياه من طاعة عمياء .

— لقد استحق ذلك ، هذا ما استحقه . ماذا فعل من أجل هؤلاء المساكين غير تلك التعاليم الدينية التي لقنها إياهم اثنان أو ثلاثة من المبشرين ؟ ويالة من تعليم ! إني أعلم تماماً حقيقة ما يجري هناك وحقيقة تلك التعاليم التي يلقنها لأولاد«ليكوبا».

— لا تتعنتي هكذا يا « سولانج » ، لا تتعنتي ... يبدو أنك تنسين أن الأب « هوكس » قد تقدمت به السن جداً ، وأنه كان أول مدرس لك ، بل يبدو أنك تحاولين بشتى الوسائل أن تقللي من قيمة مايقوم به المبشرون في المستعمرات الفرنسية .

— على العكس يا أبي أرجو أن يكون هذا الاستعمار أكثر فاعلية ، بل أنا أذكر تماماً تلك الدروس التي لقنني إياها الأب « هوكس » كما أذكر نصائحه الحكيمة ، ولذا أرى أن من حقي أن أبدي هذه الملاحظة البسيطة . أما عن فاعلية أو قيمة ما قامت به أولم تقم به هيئات المبشرين عندنا ، فأنا عاجزة عن أن أقول لك رأيي صراحة . للمستفيدين وحدهم أن يقدروا قيمة هذا العمل الذي قام به الاستعمار عندهم حق قدرها . إن تلميحي إذن لم يكن استنكاراً و إنما مجرد تلميح إلى واقع تعس أشهده وألمسه .

— يا «سولانج» ... يا « سولانج » . أنا ألاحظ بدوري أن إقامتك بالدير لم تعد عليك بفائدة كبيرة . لقد عدت من الدير والأفكار الهدامة تملأ رأسك . لم أعد أفهمك على الإطلاق ، أتعرفين ؟

— كيف ذلك ياصديقي ؟ ... (قالتها الفتاة لنفسها) بينما أردفت بصوت عال : لم تقول ذلك يا أبي ؟ أنت تعرف مع ذلك أن العالم — لولا روح النقد — لانغمس أكثر وأكثر في غياهب الجهل ، ولارتكبت فيه أخطاء قد تعود عليه بأفدح الأضرار . لعلك لاتريد أن تبقى تلك الحال على ماهي عليه أبد الآبدين !

— حسناً ، حسناً جداً ... أرى أنك قد أصبحت عالة وأنه يحلو لك أن ترى أباك العجوز ألواناً من المتاعب لا قبل له بها .

— حسبك هذا ياوالدى . أرجوك ألا تحاول أن تتهمنى بهذه التهمة العجيبة

لقد أدرك القارىء من غير شك أن كل تلك الإصلاحات التى تمت خلال ثلاثة أشهر فقط إنما هى من عمل « سولانج » ، بعد أن عادت إلى « موساكا » استجابة لطلب والدها العاجل . وقد دار الحديث ، فى أول لقاء بين الأب وابنته ، حول وجوب أن يتعهد البوهيمى العجوز بأخوة « سولانج » الملونين بما فيهم ابن « أومبوكو » الذى بلغ الشهر السادس من عمره . ودار الحديث حول وجوب ملء المخازن بالمواد التموينية ، وكانت خاوية على الدوام ، وتخفيف الأعباء عن كاهل « يوكا » ، وإعادة النظر فى العلاقة القائمة بينهم وبين العاملين عندهم بل وسكان « موساكا » جميعاً . وقد هددت الفتاة بالعودة إلى « ليوبولدفيل » إذا رفض الأب الموافقة على تلك الشروط الأساسية .

ولما كان الأب لا هم له إلا أن يحصل على « قرعته »[1] اليومية من نبيذ النخيل وعلى زجاجة مشروب الذرة أو خمير الأناناس فى كل صباح ، وفى أن يدخن عشرة أو عشرين غليوناً من تبغ القنب خلال النهار ، فقد أسلم الأمر لابنته التى اعتزمت أن تغير معالم كل شىء فى الوكالة القذرة . وأخذت الفتاة تزداد حزماً يوماً بعد يوم وتسيطر باطراد على أبيها الذى بدأ بدوره يقلل من زياراته إلى حريمه السرى ، وقد أعادت « أومبوكو » وغيرها من محظيات أبيها الصغيرات إلى أسرهن . لقد أصبحت ابنة « يوكا » على أى حال صديقة « سولانج » وكاتمة أسرارها ، وهى تصحب ابنها « ألكسيس » فى كل صباح إلى بيت ابنة الرجل الأبيض التى كانت تشعر بسعادة لاتوصف عند سماع صوته الرقيق ، وكان ذلك يحدث رغم أنف الأب المسئول الذى كان يهز رأسه استنكاراً لما يسميه بنزوات ابنته ، وكان الرجل يتساءل : لماذا ، لماذا نقبل فى بيتنا كل هؤلاء الزنوج الصغار ؟

وكان يردف : لم يكن على أمهاتهم إلا أن يسلكن الطريق السوى وأن يحتطن حتى لاينجبنهم . لقد نسى « روش موراكس » الطبيب أنه كان يعتدى عليهن بنذالة

---

(١) قرعة مفرغة تستعمل وعاء .

وأنه كان يتآمر عليهن مع شيخ فاقد الوعى لايعى مسئولية تصرفاته .

أما الفتيات والنساء اللائى رحلن عن ديارهن فقد عدن ثانية إلى القرية . وأما سكان المستنقعات الذين هاجروا إلى الأحراش ليعيشوا فيها مع الوحوش الضارية فقد عادوا بدورهم إلى قراهم . وعادت الصيادات إلى المستنقعات التى يملكها «روش موراكس» كما عاد العمال الذين يعملون بالوكالة ، وهم يتقاضون اليوم أجوراً عن أعمالهم ، ويسكنون بيوتاً أفضل ويرتدون ملابس أفضل .

وفيما عدا رياضة الصيد التى مازالت تستهويه ، وصيد الأسماك بإقامة السدود التى تتيح له مشاهدة أجساد الفتيات الصغيرة شبه العارية، فإن صديقنا «روش موراكس» لم يعد يعنى بشىء على الإطلاق ، إذ اعتمد كلية على نشاط ابنته الفائق : فقد سيطرت على إدارة الأعمال ، وضاعفت الإنتاج ، وكان فى المدة الأخيرة قد شل تقريباً بسبب إهمال أبيها ومعاملته السيئة للعمال .

وقد أرسلت إدارة الأشغال العامة إلى القرية — فى نفس الوقت الذى وصلتها فيه «سولانج» عائدة من «برازافيل» — فرقة من العمال مكونة من خمسين بناء ونجارا وحدادا يعملون تحت إمرة مندوب فنى لتقوم ببناء المركز المدرسى الذى قرر التفتيش العام للتعليم إقامته بمنطقة «موساكا» .

وقد أقيم فناء شاسع لعمليات البناء على مقربة من كنيسة «سانت بارب» الصغيرة . وأوشك العمل اليوم على الانتهاء ، فقد شيدت ستة مبان من الطوب الأحمر ، استعمل المندوب الفنى فى بنائها الخامات المحلية حتى يتمكن من إنجاز العمل فى فترة وجيزة . إن المدرسة الكبيرة مكونة من ستة فصول، وقد ألحق بها مسكن — أعد لإقامة مدير المركز — مكون من خمس حجرات واسعة ، كما أقيم مخزن وورشة ألحقت بها ورشة ميكانيكية ، وعنبر كبير للنوم أعد للتلاميذ المقيمين بالمدرسة ، وكانت به دواوين خاصة منفصلة ، وضعت فى أماكن مناسبة ، لإقامة المشرفين . أما المطبخ فقد كان كبيراً ، فسوف يعد فيه طعام التلاميذ والمشرفين . لقد أوشك العمل على الانتهاء ولم تبق إلا اللمسات الأخيرة ، وعما قليل ستكون المجموعة المدرسية على أهبة الاستعداد لاستقبال التلاميذ والمدرسين والناظر الذى ينتظر قدومه من فرنسا خلال شهرين أو ثلاثة أشهر على الأكثر .

كانت « سولانج » ترى أن أعمال البناء لا تسير بالسرعة التي ترجوها ، وكانت تثور لهذا البطء ، ولعلها كانت الإنسان الوحيد الذي يشعر به . والواقع أن أحداً سواها لم يكن يعرف هذا السر الذي ائتمنها عليه « ما مبيكيه » ، وهو أنه قد عين لإدارة المركز الجديد . والفتاة تتلهف على عودة ابن « تانجو » فهو حبيبها وشقيق صديقتها « أومبوكو » . إنها تحلم بالمدرس الشاب الذي يواصل دراسته بمدرسة « سان كلو » العليا بفرنسا وتترقب عودته الوشيكة .

سافر « مامبيكيه » إلى فرنسا بعد شهرين من رحيل « سولانج » من عاصمة الكونغو . ويبدو من خلال الرسائل الطويلة العديدة التي أرسلها الشاب للفتاة أنه لن يبقى طويلا هناك فالمناخ لا يناسبه . وهو يشكو حرارة الصيف بفرنسا ، فهي حرارة تثقل على النفس ، حرارة مقبضة مشبعة بغاز الكربون ، تختلف كل الاختلاف عن حرارة شمس إفريقيا البديعة . والشاب بدوره متلهف على العودة إلى الكونغو ، ليستنشق ملء رئتيه أكسيجيناً نقياً فهو يفتقد جبال بلده الجميلة وأنهاره ورماله الفضية كما يفتقد ذويه وقريته التي تحيط بها المستنقعات وتلك الجنية الرائعة التي استولت على قلبه وروحه .

وقد عاتبته « سولانج » مستنكرة ترتيب تلك الأسباب التي تدعوه إلى الإسراع في العودة ، فقد كان فظاً قاسياً عندما لم يذكر اسمها إلا في آخر القائمة. ثم اعترفت بعد هذا العتاب لصديقها بالمنى بتلك اللهفة التي تنتظر بها القرية بأسرها عودة المدرس وعم « ألكسيس » الصغير. لقد بدأ ينطق « ألكيس » ، على مايبدو ، بأولى مقاطع الكلمات وهي لا تخرج في الحقيقة عن تلك المقاطع الثلاثة : « موبا » و « سول » . و « موبا » على الأرجح ، في لغة الطفل الملائكية ، هي اختصار لاسم « موباليه — أو — تمبيه » و « سول » اختصار لاسم « سولانج » . إن هذا الطفل ملىء بالحيوية وهو الآن يلازم ابنة « ماري روز » كظلها ، وقد نشأت بين أم « ألكسيس » وابنة « روش موراكس » صداقة لا حد لها . أخبرت « سولانج » صديقها بكل ما فعلته لتخفف من الآلام التي قاستها أسرته والقرية بأسرها ، وأنهت الفتاة رسالتها بقولها إن هناك مفاجأة تنتظره بـ « موساكا » وأنها ستبقى عليها في طي الكتمان .

* * *

وذات يوم — وكان يوم سبت — وصل « مامبيكيه » إلى « برازافيل » عائداً من باريس على طائرة أنيقة تابعة لشركة « إيرفراس » من طراز « D.C.G » وهو ينتظر منذ أسبوعين إبحار السفينة « غينيا » التى حجز مكاناً عليها لتقله إلى حيث يتسلم المنصب الذى عين فيه ، حيث كان ينتظر مقدمه ثلاثة من المشرفين ، رحلوا قبله حاملين أمتعته بعد أن شرعوا فى الإعداد لبدء العمل .

لقد تخرج هؤلاء الثلاثة لتوهم من المدرسة الإعدادية الخاصة بإعداد المشرفين بـ « بوكو » ، وكانوا وافرى النشاط ، ولذا شرعوا مباشرة ، بمجرد وصولهم ، فى اختيار تلاميذ المدرسة الجديدة . وقد بدأ مائة تلميذ على الأقل يترددون على المركز المدرسى .

ولما كان المدرس الشاب متلهفاً على العودة فقد رفض برقة عرض السيد « تيليار » فى أن يبقى شهراً بالعاصمة للاستجمام والراحة مما تـكبده من مشاق . كان متلهفاً على التعرف بعالمه الجديد وعلى معاونيه ، كما كان متلهفاً بصفة خاصة — وهو لا يريد أن يعترف لنفسه بهذا — على الوصول بسرعة إلى حيث يكون بجانب تلك التى لم يعد فى مقدوره أن يبعدها عن مخيلته ، وحيث يعرف تلك المفاجأة التى حدثته عنها . كان يتساءل : هل هذه المفاجأة سارة أم غير سارة ؟ كما كان دائم القلق ، فربما كانت « سولانج » تعسة مع ذلك الأب الشرس الدائم التجهم .

رست السفينة « غينيا » بمياه « موساكا » لتنزل بعض المسافرين ، نذكر من بينهم صديقنا « مامبيكيه » ، ولتتزود بما يلزمها من خشب للتدفئة .

كان هناك جمهور غفير يقف منذ الصباح عند المرسى فى انتظار وصول السفينة . وكان « يوكا » و « تانجو » و « أو مبوكو » يقفون بجانب المشرفين الثلاثة الذين صحبوا تلاميذهم وجاءوا يحيون مديرهم الجديد . وابتعدت بعض الزوارق لتحية ابن القرية ولنقله إلى الشاطئ ... أما هو فقد أخذ يلوح للجموع المحتشدة المتلهفة لرؤيته وهو يهبط بمسقط رأسه .

هاهو « مامبيكيه » يقفز إلى زورق أبيه وهاهو يمسك بالمجداف ويدفع الزورق بقوة إلى الشاطئ . وسمع تصفيق مدو من الزوارق ، وأخذت جميع الأفواه تحيى ابن القرية المتطور الذى اندفع بزورقه متقدماً كل الزوارق التى انطلقت وراءه ...

صاح الجميع فى صوت واحد : «مامبيكيه » .. «مامبيكيه ».. وكان من بينهم صوت « تانجو » و « أومبوكو » واثنين أو ثلاثة من أعمامه ، وحتى «ألكسيسس » الصغير الذى أخذ بدوره يصيح ويهلل ويهتف بكلمات غير مفهومة ويصفق بيديه الصغيرتين فى صوت صاخب ليقلد الآخرين .

وارتمى صديقنا المتمدين بين ذراعى أمه التى أسعدها أن عاد إليها أخيراً ذلك الطفل الذى اضطر إلى الهرب من قريته والذى يعود إليها الآن كبيراً قوياً ذا شخصية مهيبة . وقفزت « أومبوكو » وطوقت بذراعيها عنق أخيها . إنها معجبة بهذا الشاب العملاق وبمنكبيه العريضين وبزيه الأوربى ، وهى فخور بأن تكون أختاً لهذا الرجل الجميل . واحتضن « مامبيكيه » ابن أخته الذى شعر بالخوف وأخذ يحتج على تطفل هذا الغريب وعدم كلفته .

— حسناً يا « أوندليه — كوانجا »[1] يبدو أن لا أب لك . سأكون أبا لك إذا قبلت ... أخبرنى ... أتريد أن تصبح ابناً لى ؟

— هوا ! ... هوا ! ... « موبا » ... « سول » ...

— ماذا ... ماذا تقول أيها « الشكولاتة باللبن » ... ؟ أتشتمنى ؟ أوه ! ... أوه ! ... إنك عنيف كأجدادك الذين لفظوك والذين يسمونك بالزنجى .

وأجابت « أومبوكو » مدافعة : لا ، إنه لا يشتمك وإنما يقول إنه إن كان حقاً لا أب له ، فله أخت كبيرة تحبه وهى لا تلقبه بـ « شكولاتة باللبن » ولا بالزنجى ... وأضافت : انظر ، هاهى أخته التى تغار عليه والتى تشعر بالقلق عليه فقد انتزعته منها منذ قليل وهى متلهفة على أن تأتى لتسترده منى ...

— عمن تتكلمين ؟ أتتكلمين عن « سول ... » عفواً ، أتتكلمين عن الآنسة « موراكس » يا « أومبوكو » ؟ وسأل أخته وهو يتظاهر بعدم المبالاة وبدهشته لرؤية حبيبته وهى تجرى ناحيته : أما زلت على علاقة طيبة بها ؟

وهمست الفتاة فى أذن أخيها : أيها الماكر ... أكنت تتصور أنها تخفى أسرارها عنى ؟

---

(١) ومعناها الأبيض الأسود وهى سخرية جارحة تقال للمخلطين الذين يهجرهم آباؤهم .

وخفض الشاب ناظريه فقد أدهشه قول أخته وخجل منها وهى تدفعه وتلفت نظره إلى وجود ابنة الرجل الأبيض ...

— يا أخى ، هاهى صديقة « ألكسيس » وأخته ...

شعرت « سولانج » ببعض الارتباك . كانت تقف على بعد ثلاث خطوات من جمع الأهل والأصدقاء الذين التفوا حول الشاب وأخذوا يعانقونه مرات ومرات ... كانت ترتدى ثوباً بسيطاً ضيقاً من الـ « كريتون » فى لون الرمل يلتف حول جسمها ، كما كانت تضع فوق رأسها قبعة بيضاء مصنوعة من الفلين ... تميل قليلا على صدغها الأيسر . وانتشى الشاب لرؤية تلك الحبيبة التى تشبه الملكات والتى تجلس على عرش جنيات هذا النهر اللائى ترمز إليهن « تانجو » و « أومبوكو » . وثبتت الفتاة نظرتها القلقة على إله الأحراش الجميل فى حلته البنية المصنوعة من « الجباردين » ورباط عنقه الأزرق ، وياقة قميصه الأبيض الأنيق ، وقامته المهيبة الجذابة ...

— أسعدت صباحاً ياسيد « مامبيكيه » ... مرحباً بك بـ « موساكا » . ولكن لم هذا الشرود ؟ ألا تسعد لرؤية أصدقائك القدامى ؟ أهى باريس التى غيرتك هكذا ؟

وأجابها الشاب بابتسامة جذابة كتلك التى ترتسم على أفواه كبار القوم بحى الـ « شانزيليزيه » بباريس : — عفواً يا آنسة « موراكس » . عندما رأيتك تجرين نحو شقيقتى « أومبوكو » كالفراشة الجميلة تساءلت : أين أنا ؟ ولولا الشمس التى تسطع فى الأفق والتى لم تجامل تلك البشرة الجميلة الرقيقة لتصورتنى على ضفاف السين أو فى ضاحية « إيسى بلين » على طريق « فرساى » وإن كنت لا أرى هنا دخان المصانع التى تتصاعد هناك . الحقيقة يا آنسة « موراكس » أن « موساكا » قد أفادتك كثيراً فقد أصبحت حقاً سيدة عظيمة .

— ها أنت بدورك قد أصبحت سيداً عظيم الشأن تتكلم بأسلوب رجال شارع « هوسمان » ذلك الأسلوب الوقح الساخر . يبدو أن سخريتك قد زادت مرارة .

وابتعد الجميع عن الشابين ، تأدباً منهم ، وكان كل منهما يشعر برغبة قوية فى أن يلقى بنفسه فى أحضان الآخر لولا تلك الآلاف من العيون التى كانت ترقبهما بدهشة وإعجاب — وهو إعجاب له ما يبرره — وكان ذلك الفضول يضايقهما .

وتساءل الناس : أممكن هذا ؟ أممكن أن تعامل ابنة الرجل الأبيض زنجياً على تلك البساطة وأن تشعر نحوه بتلك المودة ؟ إن أمر هذه السيدة عجب حقاً فهي لم تتعال على الفقراء بل عنيت بأمرهم ، وها هي اليوم تحادث واحداً منهم بود وكأنها على قدم المساواة .

وسألها الشاب في رقة وخبث تعلمها في عالم الغرب التمدين : والسيد « موراكس » والدك يا « آنسة » ، أهو بخير ؟ هل أستطيع السماح لنفسي بالذهاب إليه لأقدم إليه فروض الاحترام وتحية الصباح ؟

— كنت على وشك أن أرجوك أن تفعل ذلك يا سيدي ... والدي في خير حال ، وسوف يسعده أن يراك ، إنه ينتظرك بالوكالة ليرحب بقدمك .

وأضافت « سولانج » بلغة الـ « ليكوبا » موجهة حديثها إلى « أومبوكو » :

لقد انتزعت منك أخاك أيتها الأخت التعسة المهجورة .

فأجابت الفتاة « الأم » وهي تشير إلى ابنة الرجل الأبيض إشارة غامضة — : سوف أعوض ذلك في المساء .

وانطلق الحبيبان جرياً — ممسكا كل منهما بيد الآخر — إلى الوكالة ، وكانت أبوابها مفتوحة على مصراعيها .

— عجباً ... ها هو صديقنا « مامبيكيه » ... أهنئك يا عزيزي على ما بذلت من جهد متواصل حتى أصبحت شخصية بارزة في عالمك . أوه ! ها هو صديقنا قد أصبح باريسياً كغلمان حي « مونمارتر »[1] . ها أنت قد أصبحت باريسياً أنيقاً بل إني أقسم إنك قد أصبحت ولداً مهذباً ... ادخل ... ادخل ... يا سيدي الناظر . لقد كلمتني ابنتي عنك كثيراً وشكراً لك يا صديقي على كل ما فعلته لتقوم مقامي في العناية بقبر زوجتي المسكينة « ماري روز » ... أنت ولد طيب ... هذا شيء تستحق عليه التهنئة أيها الشاب ...

وأفسح « روش موراكس » مكاناً ليمر منه ضيفه وتبعه إلى حجرة الاستقبال .

---

(١) واللفظ الفرنسي « titi » ويقصد به هؤلاء الشبان الذين يجوبون طرقات حي « مونمارتر » وهو حي اللهو ، وهو شباب فاسد الأخلاق.

وكانت كالحجرات التى عبرها الشاب منسقة بذوق رفيع . وجلس الدب العجوز — وكان مظهره يدل على أنه قد أصبح أكثر إنسانية — فى مواجهة الشاب الذى أخذ يراقبه بعين لا تصدق ما تراه ...

وتساءل الشاب : « هل أنا فى حلم أم أنا حقاً فى حضرة هذا الجلاد الذى عذب أفراد أسرتى وقريتى بأسرها ؟ أية معجزة تلك التى حققتها « سولانج » لتستأنس هذا الوحش المجرد من الضمير؟ لابد أن هذه هى المفاجأة التى كلمتنى عنها فى رسالتها. إنها لعمرى تكون مفاجأة ضخمة ، مفاجأة سعيدة لو استمر الحديث بيننا هكذا عميقاً مخلصاً ! » . وحاول الشاب أن يستشف ما عكن أن يكون فى كلمات عدوه من معنى ساخر ، وأن يعرف مدى الصـــدق فى تلك الابتسامة الساحرة التى ارتسمت على وجه الرجل الأوربى ، فهو لم ينس بعد للأسف ما فعله هذا الرجل فى الماضى القريب ... لا ، لم يطمئن « مامبيكيه » إلى ما يبدو على الرجل من تحول فهو يعرف أن روحه عفنة ، ولذا فهو يفضل أن يبقى على تشككه حتى تقضى عليه التجربة ذاتها لا مظهر الرجل ، وهو يعرف أن الحرص إنما هو سيد الفضائل .

وسأل « روش موراكس » — وكان يبدو أن ابنته قد هذبته فعلا :

— ماذا تفضل من ألوان الشراب يا صديقى ؟

— أشكرك يا سيدى ... لست أحب كثيراً المشروبات الروحية . ولما كنت أعرف أن عصير الـ « سيدر » لا يوجد بمنطقتنا لافتقارها إلى الكروم ، فإنى أخشى ألا يسرك يا سيدى أن أرفض ما تكرمت بأن تقدمه إلى بكل هذا العطف .

ودخلت « سولانج » فى تلك اللحظة حاملة على ذراعيها « ألكسيس » الصغير ... وسلمت الرضيع لوالدها ثم فتحت خواناً صغيراً وأخرجت منه زجاجة بها سائل وردى اللون . وملأت الفتاة ثلاث كئوس قدمت منها كأساً إلى «مامبيكيه» ووضعت أخرى أمام أبيها الذى ارتسمت على وجهه أمارات الاستياء والتقزز من هذا المشروب ، وهو يشرب نخب ضيفه ...

وسأل الشاب فى رقة وهو ينحنى أمام الفتاة بعد أن بلل شفتيه بما فى كأسه :

— ما هذا الإكسير ... يا آنسة « موراكس » ؟

— إنه مشروبى المفضل يا سيد « مامبيكيه » . لقد أعددته بنفسى وأسميته « سولانجين » . لقد صنعته من عصير الأناناس والجوافة وقليل من عسل النحل وقطرة من مشروب الـ « شارتروز » .

— سوف أشرب طوال حياتى ، وعن طيب خاطر ، من هذا الـ «سولانجين» السماوى . هل فى أقبيتك المزيد من هذا الشراب الرائع يا آنسة ؟

— إن هذا لا يتوقف إلا عليك يا سيدى المدير . عندى منه كميات للتصنيع لا تنتهى ... ولكن ، لما كان والدى لا يحب ذلك المشروب ، فإن ما عندى منه باق كما هو فأنا الوحيدة التى أشربه ، وأنا لا أستهلك أكثر من ربع زجاجة كل شهر من مشروبى الذى أسميه أيضاً بـ « تريبل دام جان » .

وتبادل الشابان نظرة تفاهم مليئة بالإيحاء ، نظرة يخفى معناها على هذا الشاهد السلبى .

كان الشابان عند وداعهما فى الليلة السابقة لسفر الفتاة — وهما يتبادلان قبلات الوداع — قد ابتكرا أسماء ينادى كل منهما الآخر بها كـ « سولانجين » و « تريبل دام جان » ولعل معنى التسمية الأولى هو « إكسير الحياة » والأخرى « النبع الذى لا ينضب » وفى استطاعة الحبيبين وحدهما أن يدركا المعنى الحقيقى لتلك الكلمات المفعمة بالألغاز ...

وأضاف الأب « موراكس » باسماً مجاملا ، ولم يكن قد ارتشف شيئاً من كأسه :

— كيف وجدت بلدنا أيها الشاب ؟ أتفضله عن قارتك الإفريقية الميتة ؟

— لا أجد أى وجه للمقارنة بين القارتين يا سيدى ، فالشمس والقمر إنما هما عالمان منفصلان تماماً . إن لكم حضارة قديمة وقد ساعدكم ما توصلتم إليه من علم على أن تأتوا من المعجزات ما يفوق الخيال ، وهى معجزات إنما تحقق الخير كما تسبب الشر .

ولما لمح الشاب حركة استياء أتى بها الرجل الأوربى بعد تلك المقدمة الملتوية ، أضاف : أرجوك يا سيدى أن تسمح لى بإيضاح فكرتى وبتفسير معنى كلماتى : إنى أعنى — حين لمحت إلى الخير والشر — الخلق العربى وماله من طابع ، فقد أدهشنى هذا الخلق عندما قارنت بين مارأيته وبين ما علمتنى إياه الكتب ، وهى كتب على قدر عظيم من البلاغة وقوة الإقناع . إنى معجب كل الإعجاب بفلسفتكم ، بتلك الثروة الفكرية التى كانت تضعكم على رأس العالم والتى لم تعد على مايبدو إلا سلسلة من أفكار يناقض بعضها البعض الآخر . إن تلك الفلسفة أصبحت مصنعاً للبارود سوف ينفجر فى وقت قريب أو بعيد فيطيح بتلك القارة بما عليها من ثروات فكرية مزيفة . نعم ياسيدى ، إن تلك الفلسفة سوف تؤدى بكم — ولا مفر من ذلك — إلى الدمار ، إلى الزوال ، أو هى ستؤدى بكم على أقل تقدير إلى شلل فكرى بسبب ذلك الاحتكاك الفكرى الدائم بين تلك العقائد المتنافرة ، وهو شلل بدأ يظهر عند كتاب المدرسة السيريالية . وسوف تجيبنى ولا شك يا سيدى بأن تلك هى النتيجة الحتمية للتطور وأنا أوافقك على هذا ... وقد أجيب بدورى أن ذلك القانون إنما يهدف فى حقيقته إلى تلاطم الأفكار وبشرط ألا يتعدى حماسها النطاق السلبى . وهناك ظاهرة أخرى لفتت نظرى : إنها هذا الرياء ، هذا التظاهر الكاذب بما يسمونه بالرقى وبالخلق العصرى ، بالرقة ... إن كل هذا يحدث فى الظاهر فقط ، وهو شىء فضاح مبالغ فيه حتى ليشك الإنسان فى صدق العاطفة التى توحى به ، مما يفقد كل تلك الصفات طعمها وقيمتها . ونحن نجد بجانب هذا التظاهر بالرقة ، سماً فتاكا ألا وهو الهجاء والنميمة وتعمد الإساءة إلى الغير ، تلك السموم الوبيلة التى تقضى على المجتمع هناك . وأنا أعتذر لك يا سيدى عن صراحتى المفرطة فالصراحة فى طبعنا وأنا أشعر أنى فى حضرة أب ومرب حكيم يمكنه أن يؤاخذنى إن أنا شططت فى نقدى . وأرجو بعد أن أوضحت هذه الحقيقة أن تسمح لى بالاستمرار فى الحديث . أعتقد أن كل تلك الصفات التى يتحلى بها الناس هناك إنما هى صفات مزيفة غير صادقة . أما إذا تكلمت عن جمال بلادكم وعن مناظرها الطبيعية الخلابة وعن كل ماوصلت إليه من توفير الوسائل الحديثة فى شتى نواحى العمل ، فأنا مضطر إلى الاعتراف بعبقريتكم وبروعة بلادكم . إن بلدكم بالذات هو حديقة أوروبا الغناء ، شأنه فى هذا شأن بلادنا بإفريقيا الاستوائية ، فهى بدورها جنة إفريقيا السوداء .

— حم ! حم ! إنك تبالغ كثيراً . ألا ترى أنك إنما تنساق وراء تعصب مضحك، ليس له سند من الحقيقة عندما تتكلم بهذا الحماس عن جمال بلدك ؟

— لا أعتقد ذلك يا سيدى ... قد تنعتنى بالتعصب إذا ماتغنيت — بصفتى من أبناء الكونغو — بإفريقيا الاستوائية الفرنسية فقط متناسياً بقية إفريقيا السوداء، وليست الكونغو على أى حال إلا جزءاً من تلك القارة وأنا أتغنى بجمال القارة بأسرها . ولكنى أضيف ياسيدى أنه ليس فى إمكانك على أى حال أن ترى إفريقيا كما أراها أنا ولا أن تفهمها بنفس الروح التى أفهمها بها فأنا عاجز بدورى عن فهم سبب ذلك المديح الذى تحيطون به قارتكم . وهذا هو نفس السر فى أن أكبر كتابكم، عندما يصفون إفريقيا ، إنما يشوهون جمالها ، أو يضفون عليها روحا وشكلا بعيدين كل البعد عن الحقيقة . وعلى أى حال فإن كل ماهو طبيعى وكل ماهو صناعى لايمكن أن يتقابلا كما لايمكن أن يلتقى الشمس والقمر . سوف يسير الاثنان فى خطين متوازيين ولن يلتقيا أبداً ...

إن فرحة « سولانج » لاتوصف . ها هى ترى حبيبها يفحم أباها ويرشقه بسهام مهذبة وإن كانت تؤلمه ، وها هى ترى وجه أبيها وقد كساه الاحمرار . ولكن يجب ألا نتهمها بالعقوق لفرحتها بما أصاب أباها من فشل ... فإن روح الفتاة نقية ، تثور لكل ظلم إنسانى وهى سعيدة لمجرد انتصار المنطق على القوة... وكل ما كانت تخشاه هو أن يكون « موباليه — أو — تمبيه » قد تجرد مما كان يتحلى به من صراحة طبيعية . وهى الآن تخاف « ماميكيه » الجديد — الذى صمد لـ « روش موارکس » وهزأبه بمنطقة السهل وفصاحته الساخرة ، تلك السخرية التى كان يخفيها وراء ألفاظه المنمقة المصقولة وإن كانت لاذعة أتكون إقامته بأوروبا قد جعلت منه ما يسمونه بالأبيض الأسود ؟

واستأذن الشاب فى الانصراف واصطحبه الرجل الأبيض وابنته إلى القرية التى أقيمت فيها الأفراح للترحيب بعودة ابن « تانجو » . لقد أمر الجد — الذى كان قد فقد الأمل فى عودة حفيده — بأن تقام فى أنحاء القرية جميعاً حفلات صاخبة تسيل فيها الخمر . أما أسرة « يوكا » فقد ذهب أفرادها جميعاً إلى المركز المدرسى ليشرفوا

على الترتيبات الخاصة باستقباله ، فيما عدا « أومبوكو » التي بقيت بالكوخ لتخبر « مامبيكيه » ، عند مجيئه ، بأن يلحق بهم .

لقد أعد « يوكا » — الذي حصل على إجازة من سادته — حلقة للرقص تتكون من أصدقاء العائلة المقربين ، بعد أن استأذن المشرفين فى إقامتها داخل أسوار المدرسة .

وفى سرعة فائقة تسلق الأخ والأخت التل ولكنهما توقفا فجأة ، وارتسمت على وجهيهما الدهشة والعجب عند رؤية تلك الزينات والأعلام على باب المركز المدرسى .

لقد اصطف التلاميذ على جانبى الممر الرئيسى ممسكين بشملات فى أيديهم ، وتقدم المشرفون الثلاثة ووقفوا أمام « مامبيكيه » ليتلوا خطاب الترحيب . وليس فى نيتنا أن نطيل على القارىء فربما فضل — بدلا من الاستماع إلى هذا الخطاب — مشاهدة لوحة حية للأفراح بتلك المنطقة قد تأتى إليه بشىء جديد عليه .

وخرج أربعة تلاميذ ، اختيروا من أصغر التلاميذ سناً ، من بين الصفوف . كانت أجسامهم الصغيرة تلمع تحت أضواء المشاعل المرتعشة ، وألقوا بشملاتهم التى يتصاعد منها الدخان تحت قدمى « مامبيكيه » . وعند سماع صفارة المشرف ، التف نحو مائة طفل متشابكى الأيدى ، ويحملون مشاعلهم ، حول المدرس على شكل دائرة كاملة ... وعند إشارة جديدة من المشرف هتف جميع الأطفال فى صوت واضح أخاذ :

— إننا لا نرى ... أضىء مشاعلنا بنور ذهنك وبشملة العلم يا « موباليه — أو — تمبيه » افتح عيوننا وأطعم أذهاننا الصغيرة . سعدت مساء يا « موباليه — أو — تمبيه » .

وبعد ذلك أخذ الأطفال — كل بدوره — يدورون دورة كاملة حول أنفسهم ثم يلقون بمشاعلهم عند قدمى مدرسهم ثم أخذوا يجرون ليحضر كل منهم كومة صغيرة من الحطب يلقيها على نار المشاعل وكأنها صواريخ تضىء مدخل المدرسة .

وسمع على بعد ، عند مسكن المدير الجديد ، دق الطبول . كان فى بادىء الأمر صوتاً مكتوماً ولكنه أخذ يزداد بوضوح ، ثم أصبح الدق صاخباً عنيفاً ، وأخذت

« تانجو » — التى ما زالت جميلة — وقد انضمت إليها ابنتها ، تدور حول نفسها فى حركات معبرة ، رافعة يديها وعينيها إلى السماء . وأخذت الراهبتان تتضرعان إلى الآلهة لكى تبارك «مامبيكيه» وتسدد خطاه بالتوفيق فى العمل الذى ينوى الاضطلاع به . وبعد قليل صحب التلاميذ الأم وابنتها فى إنشادهما الجيل ، وأخذوا يضربون بأكفهم الصغيرة .

كنت أتمنى لك أيها القارئ أن تحضر هذا الحفل لتشاهد ذلك الحماس العميق المشبع بالإخلاص . كنت ستتأثر أشد التأثر من تلك الحفلة الرمزية وأنت ترى ذلك العالم الصغير وهو ينتظر بفارغ الصبر شفاءه من ذلك الطاعون الذى يقضى عليه والذى يسمى بالجهل والأمية .

أما بطلنا ، وكان شديد الحساسية ، فقد عجز عن أن يحبس دموعه وانفجر باكياً . لقد تأثر أشد التأثر من الثقة العمياء التى وضعها فيه أبناء وطنه الصغار وذووهم كما أدرك جسامة المسئولية الملقاة على عاتقه وضخامة المهمة التى تنتظره . لم ينطق إلا بهذه الكلمات :

— أقسم أمام رفات أمواتنا جميعاً أن أساعدكم بكل ما أوتيت من قوة ، وأن أخرجكم من تلك الظلمات التى تحيط بكم فأنا أعرف تماماً كم هى مقبضة : لقد عانيت منها ولن أطيق أن أراكم تعانون منها بدوركم . يجب أن نبدأ العمل فوراً ، يجب أن نبدأه الآن فالأرض ما زالت قابلة للاصلاح والإثمار ، وإلا فاتتنا الفرصة فى الغد. إن أعز ما أتمناه ، هو أن تمنحنى الحكومة الفرنسية — وهى المسئولة عن مستقبل بلدنا — كل المساعدات التى أحتاج إليها لأقوم على الوجه الأكمل بالمهمة الثقيلة الملقاة على عاتقى . وأنا — يا أطفالى الأعزاء — فى حاجة أيضاً إلى مساعدتكم . وهذه المساعدة التى أنتظرها منكم هى خضوعكم للنظام المدرسى وطاعتكم ورغبتكم الصادقة وتكالبكم على العمل . أتساعدوننى فى تيسير هذه المهمة ؟

وأجاب الأطفال فى صوت واحد ، فى صيحة مدوية ...

— نعم ، إننا نريد مساعدتك ، نعم ، إننا نريد مساعدتك .

كان انفعاله على أشده ، وكان على وشك أن يبكى من جديد ، ولذا فقد طلب

أن يقودوه إلى منزله . وسارت « أومبوكو » التى كانت تحتفظ بفخر بمفاتيح مسكن المدير الجديد ، منذ وصلت إليه أمتعته وحقائبه الكبيرة ، أمام « ماميكيه » وفتحت له أبواب حجرة الاستقبال التى كان يضيئها مصباح غاز أنيق من طراز حديث وضع على قاعدة صغيرة .

وحبس المدرس الشاب أنفاسه فقد وجد نفسه لدهشته الشديدة فى نفس الشقة التى كان يسكنها بـ « باكونجو » ... بل إن قطع الأثاث هى هى لم تتغير ، والستائر التى كانت تزين الأبواب والنوافذ هى هى . بل إن المكتبة نفسها لم تتغير ووجد أصدقاءه على نفس الرفوف — بنفس الترتيب — . لقد أخطره السيد « تيليار » بأنه قد أرسل له كل حاجاته التى كانت بـ « برازافيل » ولكنه على أى حال لم يكن يتوقع أن يعاد تنسيقها بالضبط كما كانت عليه وبمثل هذه المطابقة التامة .

وبقيت « أومبوكو » بحجرة الاستقبال ولم تنطق بكلمة حتى تتيح لأخيها فرصة الاستمتاع بتلك المفاجأة بملء حريته .

وسأل الشاب : « من هى تلك الجنية التى نسقت هذا الفردوس يا «أومبوكو»؟ أهى أنت يا أختى الصغيرة ؟ لعل المشرفين الطيبين هم الذين فعلوا ذلك ! . » .

— لم أسمح لإنسان — منذ وصلت أمتعتك — بأن يطأ هذا المكان بقدمه . ألم تتهكن بعد بتلك اليد التى حققت هذه المعجزة ؟

— هيا تكلمى أيتها الأخت الصغيرة . كيف يتأتى لى أن أتهكن بما كان يدور هنا وأنا على بعد آلاف الكيلو مترات ؟

— إن زوجتك هى التى فعلت كل هذا ... وهى بنفسها التى اختارت واشترت الأقمشة اللازمة للستائر وهى التى فصلت الوسائد والتى نسقت فى هذا الصباح طاقة الورد ...

— زوجتى ؟ ... من هى زوجتى ؟ أتقولين زوجتى ؟

— أوه يا « ماميكيه » لماذا تريد أن تتغابى أمامى ؟ ألم أخبرك منذ قليل بأن «سولانج» لم تكتم عنى أى سر ؟ لقد قصت على كل شىء عن حياتكما بـ «برازافيل»

وأنا أعرف أنهـــا قد أصبحت زوجتك كما أعرف أنها هى التى منحتك نفسها عن طيب خاطر. لقد أكدت لى أن سعادتها قد تضاعفت عندما قدمت نفسها قرباناً لـكى تـكفر عن الأخطاء التى ارتـكبها أبوها . لقد حدثتنى زوجتك عن أشياء كثيرة ولـكن هناك أشياء كثيرة أيضاً قالتها ولم أفهم منها شيئاً ومن بينها تلك المعاهدة التى أبرمت بين بلدها وبلدنا والتى تنص بنودها — على ما يبدو — على ضم ممتلـكات البلدين . وقد شرحت الأمر لى بقولها إن هذه الاتفاقية ، التى عقدها ووافق عليها طرف واحد ، لا تعدو أن تـكون صفقة تمت على حساب الأغبياء ، أى هى تشبه اتفاقا بين إنسان وجواد ، أو هو اتحاد ينص على أن الجواد يجب أن يتحمل جميع النفقات . وهى تقول إننا إذا قارنا بين ما أعطيناه نحن من خيرات أرضنا وما فى جوفها من ثروات ، غير ما بذلنا من جهد ودماء ، وبين ما أعطاه بلدهم لنا ، تبينا فداحة خسارتنا . وقد كلمتنى أيضاً عن أسرار أخرى منها مدى حسن نية الرجل الأبيض ، ولـكنى نسيت كل ما قالته بهذا الصدد وإن كنت أذكر أنها اختتمت حديثها بقولها إن أباها وحده كان له الحق فى أن يحب امرأة سوداء أو فى أن يجعلها تحبه دون أن يكون هناك تعادل فى الحقوق وأن لا بد أن تسود العدالة كل مجتمع متوازن . وقالت كذلك إن « روش موراكس » قد سرق منك أمك وأختك وإنها بدورها منحت نفسها — وبمحض اختيارها — من أحبته منذ نعومة أظافرها ، ذلك الذى هز مشاعرها وهى ما زالت بعد فتاة صغيرة . لا تخش شيئاً يا أخى فلا أحد سواى يعرف سرك ويمكنك أن تثق بى ، أليس كذلك يا أخى المعبود ؟

— يا إلهى ! هل أخبرتك أنت بذلك ؟ يا له من تدنيس للحرمات ! يا لها من فضيحة ! يا لها من خطيئة ! ... نعم ... هى فعلا ابنة بلدها ذلك البلد الذى يجهل كل شىء عن العفة .

— ماذا دهاك يا أخى ؟ ألست أختك ؟ ألست قطعة منك ؟ ألست أخت زوجها وصديقتها ؟ إنها فتاة طيبة ، وأقسم إنى لو كنت رجلاً لا نتزعتها منك . وأنا على أية حال سعيدة وفخور بأن تـكون قد اختارتك أنت فهى امرأة بارعة الحسن ، وهى فوق ذلك تتمتع بصفات كثيرة . ولـكن أخبرنى — أنت العائد من بلدها — أكل السيدات هناك فى مثل رقتها وجمالها ؟

— صه ... كفاك ما قلت يا « أومبوكو » . اتركيني لحظة فسوف أستبدل ملابسي ، وعودي بعد قليل عندما أطلب منك العودة ... هيا ! هيا يا أختي الصغيرة ... الحقي بأمنا .

وتهالك على مقعد وثير وأخذ يفكر في كل ما قالته أخته وأخذ يتساءل : هل منحته ابنة الرجل الأبيض نفسها لما تشعر به نحوه من حب أو لمجرد التكفير عما ارتكبه أبوها من إساءة كما حاولت أن تفهم « أومبوكو » ؟ ولكن كيف يتسنى له أن يعرف الحقيقة ؟ كيف نعرف حقيقة ما يدور بخلد المرأة ؟ ومع ذلك ... فإن كل مافعلته ... هو تنسيق مسكنه ، ومحاولتها إعادة نفس الجو الشاعري للمكان الذي منحته فيه نفسها لأول مرة ، وتلك الورود التي أعادت تنسيقها ، كل ذلك إنما يدل على مدى إخلاصها وحبها . ولكن ربما كان اعترافاً بجميله للرعاية التي أحاط بها قبر أمها ، أو دليلا على روح الفداء تكفيراً عن أخطاء أبيها ... وبقي الشاب مدة طويلة تائهاً في تأملاته المرة المشوشة . ها هو يستعيد منظر تلك الطفلة الصغيرة التي تتلقفها الأمواج الثائرة ومنظره وهو ينتزعها وينتشلها، ثم استعاد ذكرى لقائهما الأول بـ « برازافيل » ثم ذكرى لقائهما بالدافن وببيت الغابة . لا ، ليس فيما فعلته دليلا على اعترافها بالجميل أو على روح الفداء . ولكن كيف ... كيف يتسنى له أن يحصل على الدليل الواضح الملموس ؟

وتبين فجأة ـ وهو يرفع نظره إلى حامل الأزهار ـ قصاصة من الورق تطل من فوق القاعدة التي تحمل آنية الزهر ، والتقطها بسرعة فقرأ فيها هذه الكلمات :

« في منتصف هذه الليلة ستكون « تريبل دام جان » لك تماماً ... انتظر فتاتك « سولانجين » التي تعبدك كما لم تعبدك من قبل » ...

وأخفى تحت قميصه قصاصة الورق التي يفوح منها عبير هادئ بعد أن طبع عليها قبلات لا حصر لها ، لكي تستمتع شفتاه بلمسها . وشعر فجأة بأنه قد أصبح شخصاً آخر وبأنه قد استرد أعصابه فقد حصل على الدليل الذي كان يطلبه ... لقد اقتنع بأن « سولانج » إنما تحبه لشخصه ...

وإذ شعر بأنه ارتاح بالاً نادى على أخته وطلب منها أن تدخل الزائرين ... ويدخل المشرفون أولا ثم دعا إلى مائدته أسرته جميعاً ، بعد أن التأم شملهم .

وكف الراقصون أخيراً عن الرقص وتركوا الحلبة . لقد اضطروا بالرغم منهم أن يعودوا إلى رشدهم فالمدير الجديد مرهق بعد أن جدف طويلا ضد التيار بالنهر، وهو محتاج إلى بعض الراحة ليستعيد نشاطه وليشرع فى العمل فى صباح اليوم التالى .

كان عليه أن ينسق العمل وأن يقوم باختيار التلاميذ وتوزيعهم على الفصول .

* * *

الساعة الآن الحادية عشرة والنصف ... وقد ترك باب استراحة الناظر موصداً ... لقد تفتق عن تلك الفكرة ذهن « أومبوكو » العاقلة ؛ فهى آخر من عاد إلى القرية فى تلك الليلة بعد أن نسقت كل شىء ، فقد أغلقت النوافذ المغطاة بقضبان حديدية ... وأسدلت « الناموسية » ... ورحلت بعد أن طلبت من « مامبيكيه » ألا يستغرق فى النوم ... كانت وهى تطلب منه ذلك تضحك وتخرج له لسانها ، وقد تظاهر بالغضب مما تريد أن توحى به أخته ، وهو شىء لا يمكن أن يسامحها عليه ...

واتكأ « مامبيكيه » على حافة النافذة وأخذ يتفرس فى الليل ، وكان حالك السواد كالمداد . كان قلبه — وهو ينقب فى الظلام — يخفق خفقاناً شديداً ... ستكون هنا بعد قليل ... ماذا ستكون أول كلمة تقولها له يا ترى ؟ . هل يجب أن يعاتبها على أنها قد خانت سرها بتلك الطريقة الشنعاء ؟ ... لقد عادت فعلا ... أتفضح سرها لفتاة صغيرة لم تبلغ بعد الرابعة عشرة من عمرها ؟ حقيقة أن أخته لم تعد فتاة بريئة ساذجة ... ولكن ما ذنبها ؟ ... وإن كانت قد آلت إلى ما هى عليه الآن فإن ذلك لم يحدث بمحض اختيارها وإنما حدث قسراً ...

— ألم تنم بعد يا سيدى الناظر ... ؟

من هذا المتطفل ذو الصوت المضحك الذى جاء يزعجه فى ساعة متأخرة كهذه ؟ أية جرأة تلك أن يدخلوا على الناس هكذا ؟

ورأى فى وسط الحجرة شاباً طويل القامة يرتدى حلة سوداء ويضع على رأسه

قبعة من الجوخ حوافها عريضة ... لقد أغلق الغريب الباب وراءه بالمفتاح ... إن الظلام يبتلعه ولا يرى منه إلا وجهه الذى يصعب تبين لون بشرته ...

قال الشاب للشبح فى غضب ، وكان مما زيد من استيائه ومن قلقه أن الساعة قد بلغت منتصف الليل بالضبط ، وهى الساعة التى حددتها « سولانج » :

— من أنت ... وماذا تريد ؟

— إن أبى قد دخن عشرين غليوناً من القنب وهو يغط الآن كالخرتيت . لقد جئت أبحث عن السيدة « دام جان » من أجل الـ « سولانجين » ياسيدى الناظر .

— « سولانج » من أين جئت ياحبيبتى ؟ ... كنت أتفحص الطريق بحثاً عنك لأجرى إلى لقائك ... أوه ! كم أخفتنى بصوتك الغليظ ؟

أنا هنا منذ الحادية عشرة والنصف ... كنت أختبئ تحت الشرفة ، وعندما لمحت « أومبوكو » وهى خارجة تبعتها لحظة لـكى أتحقق من أنك قد أصبحت بمفردك أخيراً ... أتقول إن صوتى قد أفزعك ؟ مارأيك فى هـذا الشاب المتأنق الذى يقف أمامك ؟ حقاً إن العصا تنقصنى ولـكننى أنيق على أى حال ... أليس كذلك ؟ هذه هى تتمة المفاجأة التى حدثتك عنها ... لم تقل شيئاً عن الأعمال التى تمت هنا ، أأنت سعيـد على الأقـل بهذا التقليـد المتقن للشقة التى كنت تسكنها بـ « برازافيل » أم تراك متضايقاً من رؤيتى ... ؟

— أنت تطلبين الإجابة عن أشياء كثيرة... تعال ، تعال ... سوف أجيب عن أسئلتك الـكثيرة بطريقة أخرى غير التعبير بالألفاظ ... لقد تـكلمت بما فيه الـكفاية وأنا أشعر بألم فى حلقى ... أشعر باختناق .

الساعة الآن الخامسة صباحاً ... والنساء فى تلك الساعة ينزلن الزوارق ... ويقمن بأعمالهن المنزلية . . أما صيادو الأسماك الذين يعملون عند« روش موراكس » فقد ذهبوا إلى أعمالهم .. والعاشقان مايزالان متعانقين ويسبحان فى نوم عميق يعوضهما عن سهرتها الطويلة . . لابد أنهما ينسيان كل شيء الآن : « روش موراكس » والتقاليد وتلك الفضيحة التى لابد أن تحدث بسبب وجود ابنة الرجل الأبيض . . فى الليل . . فى حجرة نوم المدرس الزنجى .

— « بولانج » ! « سولانج » ! . إنك مجنونة ياحبيبتى . . ألا ترين أن النهار قد طلع ؟

وقفزت ابنة « روز مارى » من فراشها . . وارتدت ملابسها بسرعة وأسرعت إلى حجرة الطعام حيث كانت تنتظرها « أومبوكو » التى استولى عليها الخوف .

قالت « سولانج » التى بلغ بها الانزعاج مداه :

— إننى هالكة لامحالة . . ها نحن فى موقف فظيع « إنها نهاية العالم » ... يا إلهى ! ماذا عسانى أفعل الآن ياصديقتى « أومبوكو » المسكينة . . ؟

— إن نهاية العالم لم تأت بعد — لحسن الحظ — بسبب تلك الحماقة التى ارتكبتها اليوم . . لقد أعددت العدة لكل شىء . . خذى « ألكسيس » واذهبى بسرعة إلى الوكالة وقولى لأبيك ، إن كان قد نهض من فراشه ، وإن سألك من أين تأتين — ويدهشنى كثيراً أن يكون قد استيقظ الآن — قولى إنك تبعتنى إلى هنا لتبحثى عن أخيك . . والآن اهربى بسرعة . . وحاولى ، وهذا هو الأهم ، أن تبدى هادئة . . هادئة جداً ... أتفهمين ؟

يدهش حقاً أن تتمكن فتاة ، لم تزل فى الرابعة عشرة من عمرها ، من الاحتفاظ برباطة جأشها ، بينما يفقد من هم أكبر منها سناً صوابهما . . حقيقة أن المرأة تبرع ، منذ نعومة أظافرها ، فى التمثيل وفى التحكم فى أعصابها . . ولا سيما فى ساعات الشدة .. إن هذه الصفات فى دمائها ...

— أشكرك على ما فعلتيه من أجلنا يا أختى الصغيرة .. فلولا سرعة بديهتك لكنا الآن — «سولانج» وأنا — فى مأزق لانخرج منه .. أرجو على أى حال أن تصل « سولانج » قبل أن يستيقظ أبوها .. ياإلهى ! ..

— لاتنزعج ياأخى .. فالرجل الأبيض لايستيقظ أبداً قبل الساعة السابعة . . أنا أعرفه حق المعرفة . . لقد أثر القنب والخمور على حواسه وهو ينام كالتمساح المتخم الراقد على الرمل .. .

لقد كرس الشاب ليلته الأولى بـ « موساكا » لـ « سولانج » . . أعد عدداً

لاحصر له من المشاريع ... كما ألقى كل منهما فى وجه الآخر بألوان من العتاب ، فقد عاتبته هى على ذلك الأسلوب الفظ الذى كتب به رسالته التى أخبرها فيها بعودته .. وعلى عدم ذكر اسمها إلا فى آخر سطر منها ، كما اتهمته بأنه لابد قد سخر منها وعرف نساء أخريات من البيض بباريس . . ودافع الشاب عن نفسه بقوله إنه إنما فعل ذلك عن عمد .. فقد أراد أن يصف ذلك الفردوس الذى سيقدمه لقلبها .. ولذا فقد بدأ بالكلام عن ذلك الفردوس بنهره وترعه ومستنقعاته وغاباته .. أما عن نساء باريس فقد أقسم إنه كان منغمساً فى عمله وإنه لم يكن لديه وقت ليفكر فيهن .. وإن قلبه على أى حال كان أسير حب استحوذ عليه كلية ، حب شخص مايعيش بالقارة الإفريقية .. وأقسم إنه طوال مدة إقامته بفرنسا لم يخرج مرة واحدة بمفرده وإنما بصحبة المدرسين الذين عهد به إليهم وأوصاهم به السيد « تيليار » والذين عرفوه بمعالم باريس كلها ، متاحفها ومبانيها الأثرية ودور السينما فيها ...

وقد عاتب الشاب بدوره « سولانج » على أنها لم تكتم سرهما وعلى أنها فضحت علاقتهما لـ « أومبوكو » مؤاخذاً إياها على هذا التصرف الشائن الذى يتنافى مع تقاليد الـ « ليكوبا » فالأخت الصغيرة يجب أن تجهل كل شىء عن الحياة الخاصة لإخوتها الذين يكبرونها فى السن ، ولن يكون له عليها ، بعد أن عرفت ماعرفت ، أى سلطان ، وهنا مصيبة كبرى ...

وحدث ما كان يجب أن يحدث .. فقد أنساهما العناق كل شىء .. أثر العتاب والرغبة فى تراشق التهم ، بل كان ذلك العناق كالمخدر فقد أنساهما كل شىء من حولهما كما رأينا منذ قليل .. .

لم يعلم الأب شيئاً عن غياب ابنته ، فقد جاءته فى السابعة والنصف كعادتها — وكأن شيئاً غير عادى لم يحدث — حاملة إخوتها الصغار بعد أن غسلت وجوههم ومشطت شعرهم وألبستهم ملابسهم . وبينما كان الأطفال يختبئون تحت الفراش وتحت المنضدة ووراء الدواليب ، وضعت « سولانج » أخاها « ألكسيس » الصغير على صدر أبيها الذى يغطيه الشعر . . .

— أوه ! أأنت أيها الطفل العجيب ؟ .. ألم تقض الليلة عند أمك إذن؟

وصاح الصغار فى صوت واحد وهم يخرجون من مخابئهم :

— أسعدت صباحاً ياأبتاه ...

— يا « سولانج » .. يا « سولانج » ... سأجن بسبب صغارك هؤلاء ... أرجوك أن تحمليهم إلى غرفتك ... إنى أحاول أحياناً أن أكون لطيفاً معهم ... ولكن هناك حداً لصبرى هذا ... أتوسل إليك أن تتركينى أنام ...

— تنام يا أبى ؟ الساعة قد بلغت الثامنة تقريباً ... وقهوتك ستبرد ... أنت تعرف تماماً أن ليس أمامى وقت أضيعه ... هناك عملى يجب أن أؤديه ... فاعن أنت بدورك بأولادك الصغار... هيا ... هيا عانقوا أباكم ... أنت أولا « يامارسيل » ثم أنت يا « جاكلين » ... والآن جاء دورك يا « فرنسوا » ...وهيا يا « بير » ... هيا يا « أونوريه » ، هيا يا«لوسيان» ... وأنت يا «روبير»...وأنت يا«موريس»...

وارتمى الأطفال ، واحداً بعد الآخر ، على صدر « روش موراكس » الذى ظهر عليه الضيق ...أما « ألكسيس » فقد أخذ يضرب وجه أبيه بقبضته الصغيرة ليدعوه ولا شك إلى أن يستكين إلى مداعبات إخوته ... سواء أراد ذلك أو لم يرد ...

يالها من لوحة رائعة ! إنها جديرة بأن يرسمها « دافيد » أو « فيجيه لبران » ... ولكن قلب الأب ، وهو غير جدير بهذا اللقب ، لايتأثر بما يرى ، فقد بقى جامداً أمام هذا المنظر وكأن الأمر لايعنيه ...

إن العمل المتواصل الذى دام ستة أشهر قد جعل من المركز المدرسى بـ «موساكا» معهداً يمكن أن تعقد عليه الآمال الكبار ... فهناك أكثر من ثلاثمائة تلميذ يترددون على المدرسة ... لقد حقق المدرس الشاب معجزات . واضطر الأب « هوكس » الذى قدم الشاب لزيارته من قبيل المجاملة ، أن يعترف بذلك التقدم الهائل الذى تحقق على يد المدرس الشاب ... هاهم الأطفال الذين بلغوا سن دخول المدرسة والذين يتابعون الدروس الدينية المسائية يتكلمون الفرنسية ويقرأون بطلاقة ... والحقيقة أن مدير المدرسة بـ « موساكا » لم يجد سبباً يمكن أن يمنع تلاميذه من إتمام دراستهم الدينية . وقدر رأى أن ليس من حقه ، بالرغم من رأيه الخاص فى الأب «هوكس» ، وبالرغم

من آرائه الفلسفية ، أن يمنع الأطفال عن الذهاب إلى الإرسالية الكاثوليكية بـ« سانت بارب ». وفى رأى المدرس الشاب أن من حق هؤلاء الصغار أن يختاروا طريقهم فيما بعد ، عندما تتضح أمامهم الرؤيا وعندما يصبحون قادرين على المقارنة المنطقية بين التعاليم الموجهة والمعتقدات الحرة الأخرى .

ودفع الفضول القس، أثناء زيارة المجاملة هذه ، إلى محاولة التعرف على مايعتمل فى قلب هذا الفتى الذى كان يقسو عليه بالأمس، ولشد ما كانت دهشته حين وجد نفسه قد دخل فى مناقشات تعتمد على المنطق ، فقد أخذ المدرس الشاب يجادله فى الدين الكاثوليكى وفى تصرفات المبشرين المكلفين نشر تعاليم المسيحية بين الكفار الذين يسكنون أواسط إفريقيا وجميع القارات الأخرى التى ينشرون فيها الدين المسيحى ، وساء القس العجوز أن ينتقد «ما ميكيه » تصرفات المبشرين ولذا فقد رفض مناقشته وأسرع باتهامه ، دون وجه حق ، بأنه ملحد ..

ودافع الشاب عن وجهة نظره وإن أسعده أن يرى ذلك الرجل، الذى كان رقيباً قاسياً عليه ، والاحمرار يكسو وجهه ، فقد أحرجته إجابات الشاب المنطقية وما فيها من إفحام ... قال الشاب : إنك تخطىء فى إتهامى بالإلحاد ياأبى ... وفى استطاعتى أن أثبت لك أنى لست ملحداً بالمرة ... وانى لأتساءل، وهذا حق مكفول لى على ماأعتقد : فى أى إله أعتقد ؟ أأعتقد فى إلهك ... أم فى إلهى ؟ لابد من مناقشة هذا الأمر على أى حال ... يجب أن نبحثه بحثاً عميقاً حتى نتفاهم ، فأنا أرى أن هناك نقاطاً لاحصر لها لا يمكن أن نتفق فيها. . .لنبدأ مثلا بتلك الوصايا العشر التى نزل بها الوحى السماوى على موسى ... إن أولى تلك التعاليم ، والتى تستمد منها قوانين الدين، إنما يطالب فيها الله مخلوقاته بألا يعبدوا سواه وألا يقدموا القرابين للأوثان ، ولتماثيل أو صور من صنع الإنسان ، ولكنى أرى مع ذلك ، فى جميع الكنائس التى دخلتها ... تماثيل ولوحات وصوراً ورموزاً يركع أمامها المصلون فى حالة نشوة . . كما أرى آلاف الحجاج ، فى أماكن عدة ، يطلقون البخور ويوقدون الشموع أمام مئات وآلاف من المرضى والمشوهين الذين ينتظرون شفاءهم بمعجزة تأتيهم على يد قديس ...وهناك شعوب تطالبونها بإحراق تمائمها وتعاويذها وتعطونها بدلا منها أوثاناً مقدسة ... لقد قال الله « أحبوا بعضكم بعضا » ... ولكنى لاحظت فى المدن التى قدر لى أن أمر بها كـ « بوان نوار » و « ليبرفيل » و« ليوبولد فيل » أن القساوسة الملونين بها قد

أبعدوا خارج المدينة حيث يسكنون أكواخاً قذرة .. بالقرب من أجدادهم الكفار... وقد حظر عليهم أن يأكلوا بجانب إخوتهم البيض فى مراكز التبشير المخصصة لهم، وحيث يفصل الأطفال السود عن الأطفال البيض . بل لقد وصل الأمر إلى حد أنهم خلقوا جنساً جديداً أسموه بجنس المخلطين ، وهو جنس متعال يأبى الاختلاط بالسود، كما يعيش على هامش حياة البيض ، وكل تلك التفرقة إنما يستحيل معها إقامة علاقات بين الأجيال الجديدة التى لا تطلب إلا أن تتآخى وأن تتفاهم.. إن هذا الدين الذى يدعو إلى المحبة والحسنى إنما يلقن بالإكراه بضرب السياط، وبخطف الفتيان والفتيات من بيوت أسرهم ، وبنفث سموم الكراهية فى المجتمع ... لقد وقفت على ذلك بنفسى فى بعض إرساليات التبشير حيث شاهدت فتيات وسيدات انتزعن بالقوة من أسرهن ومن أزواجهن ليحبسن فى الأديرة ، ورأيت أطفالا من جميع الأعمار ومن الجنسين أخذوا من بيوتهم عنوة وسجنوا فى أماكن تبعد عن قراهم آلاف الكيلو مترات بدعوة تلقينهم تعاليم الدين وتربية لاغنى عنها لتطورهم الفكرى ، وكانوا فى حقيقة الأمر يسخرون فى استصلاح حقول الفاكهة والخضروات والفول والجوز والنخيل وأشجار الموز والبطاطة وقد حرموا عليهم أن يمسوا ثمار تلك الأشجار ، وهم يسخرون كذلك للعمل بمصانع الطوب وورش النجارة التى تدر أرباحاً وفيرة دون أن يتقاضوا أجراً على ما يقومون به من أعمال. وهناك امتيازات تمنح ، فى رحاب الدين المسيحى نفسه ، لبعض ذوى الحظوة والقساوسة ذاتهم ، وأنا أقارن فى هذا المجال بين كل ذلك وبين ما كان يحدث فى عهد آبائنا الوثنيين بجميع طوائفهم ، فإن ما كانوا يحرمونه على الفقير كان يحرم كذلك على القس بل وعلى رئيسهم الدينى ذاته ، حتى يكون مثلا يحتذيه الجميع ، وليحث الآخرين على الفضيلة .

أليس من حقى إذن أمام تلك الشاهدات المؤسفة، ومن واجبى أيضاً ، أن أتساءل: ألا تسيء هذه الأوضاع إلى ازدهار الكاثوليكية ، وإلى نقائها ؟ أليس من واجبنا أن نتساءل إزاء هذا : من يكون على حق فى كل هذا : الخالق أم مبعوثه ؟ أليس من حق كل مفكر حر أن يتردد فى تقبل حسن نية رجل الدين الذى يسمح بكل هذا ؟ وإننا لا ننتقد الدين فى حد ذاته ، فأنا أعتقد أن لاغنى عنه للمجتمع ، وإنما نتساءل فقط : أيكون هناك من يحاولهم أن يهدموا الدين من أساسه وأن

يحرفوه لمجرد تحقيق مصلحة خاصة أو استغلاله في السيطرة على الشعوب التي لم تأخذ حظها من التعليم ، أي تلك التي يسمونها بالشعوب البدائية ؟

— لاتمادى ! سوف أكون شريكك في هذا السب إن أنا تركتك تسترسل . لم أر فيما قلته حتى الآن إلا خيلاء وغروراً ، وإن ذلك الغرور إنما توحى إليك به روح شريرة . ويؤسفني بدورى أن أشاهد — مادمنا نتكلم عن مشاهداتنا — أن كل ما لقنتك إياه من تعاليم دينية لم ينفع إلا في إيذائك . إن التعليم غير الديني قد خلق منك شخصية أخرى لاتمت إلى شخصيتك الحقيقية بصلة . إذن لم تعد ، كما أرى ، تؤمن بالله ، أليس كذلك ؟

— أوه ! كم تسيء فهمي يا أبي ! أتسيء فهمي لأني أسيء التحدث بلغتك ؟ اسمح لي إذن بأن أعيد عليك كل ماقلت بلغة الـ « ليكوبا » فربما أحسنت فهمي .

— لاداع لذلك . لقد رأيت بوضوح أنك قد أصبحت شيطاناً صغيراً ، وسواء تكلمت بالفرنسية أو بالـ « ليكوبا » فإن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً . .

— اسمح لي أن أكمل حديثي ، حتى أبذل قصارى جهدى وحتى أعبر لك بوضوح عما أفكر فيه . لايمكنك أن تحكم على الولد الذى أصبحته لمجرد أنه يكلمك بالمنطق ولمجرد تساؤله عن سبب مايراه من أشياء . وإذا أحجمت عن سماعى يا أبي فما جدوى تلك التربية وذلك التعليم اللذين لقنتهما لي كما كنت تقول منذ قليل ؟ وبهذا الصدد ، لماذا تستهجن التفكير المنطقى والجدال الحر ؟ على أن هذه النقطة ليست على أى حال بيت القصيد فى بحثنا هذا . لسنا هنا فى مجال مناقشة وجود الله ، وإنما بصدد الحديث عن وسائل تعريف وجوده . ويجب أن تعترف ياأبي بأني لاأنكر وجود الله ، فلاتنس أني إفريقي أولاً وفى هذا معنى كبير فأنا أومن بأن هناك إلهاً وأن هناك قوة خارجية تحرك الكون ، ولكني أومن كذلك بالإخاء بين الناس ، وأومن بأن هناك كائنات مرئية وأرواحاً غير مرئية ، كما أومن بجمال العالم ، وبكل ما هو عظيم ونبيل وخير . وأنا أومن بأن هناك روحاً لكل من الماء والريح والنار والكواكب . أنا

أومن بعالم أفضل لأبناء جنسى النسيين فى عالمنا هذا . وكل ما أومن به دائماً يكون كلاً متماسكاً يمكن شرحه ... هذا فيما يختص بمعتقداتى .

أنا أومن إذن بإلهنا الأعظم لأنى أحس وجوده ، وألمسه ، ولأن الكائنات البشرية جميعاً يمكنها أن تصل إليه . أما الإله الذى لا أومن به فإنما هو ذلك الإله الذى يرفض أن يعفو عن المذنب إن كان لونه أخضر ، ويمنح هذا العفو من كان لونه بنفسجياً . إن الإله الذى أومن به لايصد أحداً ولا يميز بين مخلوقاته ولا يغلق بابه فى وجه البائس الذى لايملك مفتاحاً ذهبياً كما يدعى هؤلاء الذين يتكلمون باسمه والذين يريدون أن يفرضوا على ما لا أقبله ، هؤلاء الذين يتكلمون باسم المسيحية ، تلك المسيحية الرائعة التى تبشر بدين واحد وبعقيدة واحدة والتى تجنح اليوم إلى التفرقة بين الأجناس ، وهو ما أرفضه . بلى يا أبى ، بلى . . أنا أومن بالله ، ولكنى أومن بذلك الإله الذى أدافع عن وجوده بكل ما فى روحى من قوة ، ذلك الإله الذى لاحد لطيبته ولا حد لعدله ، ذلك الذى يعدل بين الجميع ، ولا فرق بين من كان منهم أخضر اللون أو أزرقه ، فهو أب للجميع ، لا يبالى بلون بشرتهم ، فإن ذلك اللون لايمكن أن يرجع فى حقيقته إلا لبعض العوامل الطبيعية . هل يجمع إلهكم أنتم ، أيها الأب « هوكس » تلك الصفات جميعاً ؟

— كفاك ! كفاك ! اخرج من بيتى أيها الشيطان .. لا أريد أن أكلمك بعد اليوم . . لا أريد أن أسمع صوتك ولا أن أراك ثانية فى بيتى . . يا إلهى ! أهذا هو الاعتراف بالجميل الذى تدين به للمبشرين الذين ربوك ؟ أتكون نتيجة كل ذلك الجهد أن تصبح كافراً مهاجماً وشيوعياً متبجحاً وولداً وقحاً يسمح لنفسه بسب الله ورجال كنيسته ؟

— يا أبتاه ! أصغ إلى وأحسن الإصغاء . . إنك بقولك هذا إنما ترتكب خطأ جسيما . ها أنت تطردنى من بيتك بينما جئت أطلب منك أن تنير أمامى الطريق .. وأنا أقسم لك إن أى كاهن من كهنتنا الذين لايخفون شيئاً عن دينهم ، وهودين استوحوه من نفس الإله ، لوأنى طلبت منه ما طلبته منك لشرح لى كل شىء ولحاول

إقناعى ... حذار يا أبق ! حذار ! أخشى أن يكون فى تصرفك هذا إساءة إلى ما تحاول الدفاع عنه . لا ، أيها الأب « هوكس» إنى لاأسب البشرين ولاأسب الله ، بل أنا أريد على العكس أن أحافظ على هيبة المبشرين وسمعتهم وأن أدافع ، بدلا منك ، عن عظمة الله و نقائه ...

— قلت لك كفى ! اخرج من هنا أيها الشيطان ...

لا جدوى من التحدث مع الأب « هوكس » حديثاً منطقياً . إن الكلام المنطق فى نظره إنما هو ضرب من الكفر ومن التشكك فى صحة حقيقة ليست موضوعا للمناقشة ، أو هو عمل من أعمال الإلحاد الشيوعى أو قذف فى الذات الإلهية آمين .

لقد استدعى شاب من « ليوبولدفيل » ليساعد « سولانج » فى إدارة أعمال الوكالة ، وكان ذلك الإجراء ضرورة ملحة فرضتها حالة الفتاة الصحية .

لقد بدا على « سولانج » بعد ثلاثة أشهر من عودة « ماميكه » إلى « موساكا » أنها تعانى اضطرابات صحية مصحوبة بالغثيان وبحالة عصبية لم تعرف أسبابها .

ولذا فقد أسرع «روش موراكس» — الذى أزعجته حالة ابنته والذى كان يريد أن يتجنب تباطؤاً فى ازدهار تجارته — فى استدعاء موظف من البيض . كان الموظف الجديد شاباً فارع القامة ، رياضياً ممتازاً ، وكان يشغل أوقات فراغه بالعزف على الآلات الموسيقية ، وكان لنشاطه أثر كبير فى سير الأعمال بالوكالة . وهو بالرغم من أنه لم يدخل أية تحسينات تذكر على الوكالة ، فإننا نعترف مع ذلك أن تجارة « روش موراكس » قد زادت أرباحها ، بل ويمكن أن نضيف أيضاً أن الوكالة — تحت إشرافه — قد صبغت بصبغة أوروبية إلى حد ما . كنت تسمع مثلا من حين إلى حين صدى موسيقى عذبة أو أنغام موسيقية راقصة صادرة عن حاكٍ ... وقد أعد ، خلف الفناء الداخلى الفسيح ، ملعب للتنس جهز بكل ما يلزمه من معدات حديثة . ولكن « لينار » الشاب — وهو اسم الموظف الجديد — لسوء حظه ، لم يجد زميلا يشاطره لعبته المفضلة ... وكان يصبو إلى أن يمرن عضلاته . أما الآنسة « موراكس » التى أحضروا لها مضرباً جميلا ، فقد دأبت على التغيب عن أرض اللعب ... وبقى الملعب مسرحاً للعب الحمام واليمام الذى أخذ يحمل إليه فى مناقيره حبوباً نسيتها الدواجن التى تربى بالمنزل ...

وقد دأب « لينار » على أن يعزف أنغاماً عذبة على الناى فى كل مساء — فى ضوء القمر — أمام نافذة « سولانج » المغلقة . وكان « روش موراكس » وعامله يتعجبان لأمر الفتاة ، فقد بقيت فترة طويلة وكأن تلك الأنغام العاطفية الشجية لا تعنيها ، بل بدا أنها لا تستعذب هذا النغم الجميل الذى يهدهد الحواس . وسنرى فيما بعد كيف أخذت زوجة « ماميكيه » تعامل الشاب المتيم بجفاء وتظهر له أنه إنما يشعرها بالسأم .

وشكت الفتاة لوالدها من أن الشاب يقلقها من نومها بعزفه هذا .

وقالت الفتاة للشاب ، ذات مساء بقيت فيه بالمنزل ؛ لشعورها بصداع ودوار كانا يسببان لها آلاماً لا تطاق :

— « أكون عاجزة عن شكرك يا سيد « لينار » لو أنك اقتربت أكثر من النهر أو من الغابة لتجذب بأنغامك الثعابين والتماسيح والحيوانات المتوحشة ، فإن هذا النغم النشاز إنما يزعجني بشكل لا يطاق . وأنا لا أحب الأغاني العاطفية ولا أطيق الأغاني الكلاسيكية كما أنفر من شتى ألوان الموسيقى الحديثة ، والموسيقى الوحيدة التي أحبها إنما هي إنشاد الصراصير والزيزان وهبوب الرياح والعواصف عند ما يصحبها دق الطبول ، فإذا كنت تريد أن أطرب لموسيقاك فعليك أن تغير أغانيك وأن تحور من أنغامها حتى تصبح كتلك التي ذكرتها لك ، ولقد أعذر من أنذر وأنا أحييك يا سيدي » .

وعاد الشاب التعس إلى بيته حزيناً كئيباً فقد حطمه هذا الهجوم غير المتوقع . ولما رآه الآب « موراكس » في تلك الحالة من الانهيار والتجهم سأله عن السبب .

— أواه يا سيدي ... إني لجد آسف إذ لم أحظ برضاء الآنسة ابنتك التي أغضبتها دون قصد . لقد ثارت علي منذ قليل وصبت علي جام غضبها . لست أدري ما بها ولكني متحقق من أنها تكرهني . لقد كنت ياسيدي بالغ الطيبة في معاملتك لي ، ولذا فقد تصورت بسذاجة أني سألقى نفس هذه الطيبة لدى ... أو بعض العطف ، ولكن وا أسفاه ! لقد تحققت — وهـذا يؤلمني أشد الألم — من أنها تفزع من رؤيتي . ماذا فعلت حتى تغضب مني هكذا ؟ يا إلهي ! .

« هاك مثلا يا سيدي هذا اللعب الذي أعددناه للتنس خصيصاً لها . إن الآنسة لم تطأه بقدمها ، ومضربها ما زال بكراً كما كان وهو معروض على رفوف محلات « لوفر » الكبرى الذي أحضرناه منها ... لست أعرف لذلك سبباً ... أليست جريمة أن ترفض فتاة في مثل سنها وفي مثل تكوينها ، ممارسة الألعاب الرياضية ؟ لقد اضطررت حتى لا يكسو الشحم عضلاتي أن أذهب إلى حيث يسكن المدرس « مامبيكيه » لكي أتسلى قليلا ولألعب مع تلاميذه كرة القدم . وهنا يجب أن أعترف بأن هذا الشاب بارع في هذه الرياضة ، ولابد أنه قد رأى الفرق التي تلعب بفرنسا ، إذ أن الفرقة التي كونها منذ قليل قد أصبحت قادرة على مجابهة أفضل فرق ليوبولدفيل .

ولاحظ يا سيدى أن هؤلاء الزنوج الصغار إنما يلعبون وهم حفاة الأقدام ، ولكن يا لها من مهارة ويا لها من مرونة ! إن لعبهم يستحق الإعجاب حقاً .

— اترك الأمر لى يا « لينار » . أنا أعرف أن ابنتى عصبية المزاج هذه الأيام ولكنها حالة عرضية . سأكلمها فى هذا الأمر ، ويجب أن تفهم على أى حال أن السن قد تقدمت بى، ويمكن أن أرحل من لحظة إلى أخرى، وستجد بعد قليل عناء فى أن تدير بمفردها وكالة كوكالى بدأت منذ مجيئك تتسع بشكل لم يكن يخطر لى على بال . اعتمد على يا « لينار » ، سوف أبحث الأمر معها .

وتتفتق ذهن « روش موراكس » عن فكرة عبقرية . . فكرة تحمس لها كل الحماس ... سوف تصبح ابنته وحيدة إذاما عاجلته المنية ، و« لينار » فتى جذاب حاد الذكاء ، كما أنه مجتهد . لابد إذن أن تقبله « سولانج » زوجاً .

وذات يوم قال الأب لابنته :

— أريد التحدث معك يا« سولانج » . . هل تسكرمين وتعهدين بأطفالك إلى صديقتك « أومبوكو » لحظة ؟

— ولماذا ياأبى ؟ إن الأطفال قد عكفوا الآن على عمل واجباتهم المدرسية ،ولن يضايقوك أثناء تلك الموعظة التى يبدو أنك ستلقيها على مسمعى. إن ملامحك ومارتسم عليها من صرامة لتدل على أن هناك خطاباً ستلقيه . . إنى مصغية إليك يا أبى .

— كما تريدين ياابنتى ، إن ما سأقوله على أى حال ليس بالحديث الطويل ولا يحتاج إلى شرح . حسناً ، مارأيك يا «سولانج » فى « لينار » ؟

وأجابته الفتاة ببرود وتحفظ وكانت قد تكهنت بما يعنيه :

— إنى مصغية ... أكمل ياوالدى .

— تصغين ... تصغين ! أنا أطلب منك إجابة صريحة وأسألك رأيك فى عاملنا الشاب . أنا لا أنسى أنك قمت هنا بعمل جسيم منذ عودتك من الدير ، ولكن ألا تعتقدين أن فى وسع هذا الشاب أن يقدم إليك مساعدة كبيرة ؟ لماذا تعاملينه بهذا البرود وبهذا التحفظ ياابنتى ؟ إن الشاب المسكين يبذل جهد طاقته ليحصل على رضاك

ولـكن يبدولى أنك تكافئينه على ذلك بطريقة غير لائقة . لقد تقدمت بى السن يا ابنتى الصغيرة ، ولربما احتاجت الوكالة إلى ساعد أقوى من ساعدى ومن ساعدك . نحن فى حاجة إذن إلى مساعدة يمكن أن تعوضك عن ضعفك، فلست إلا فتاة على أى حال .

— يبدولى من قولك هذا أنك تأمرنى بأن ألقى بنفسى بين ذراعى زجلنك « لينار » أليس كذلك ؟ أشكرك شكراً جزيلاً يا أبى ولـكنى أرجوك ألا تـكلمنى ثانية فى أمر هذا الشاب التافه ، كما أرجوك أن تبلغه — نيابة عنى — أنى إن صادفته فى طريقى فسأحطم وجهه بمكنستى . ليس فى نيتى أن أتزوج على الإطلاق . وهذا هو ردى وهو رد صريح على ماعرضت على ، إنه قرار لن أحيد عنه .

وخرجت الفتاة وهى تغلق الباب وراءها بعنف تاركة « روش موراكس » وقد شلته الدهشة من نفور ابنته الواضح من شاب على هذا القدر من اللطف .

ولـكن ماذا دهاها ؟ .. ماذا دهاها حتى تتصرف بمثل هذه الطريقة الجافة ؟

وقد نتساءل بدورنا : ما الذى يجعلها تتصرف بتلك الطريقة الخشنة ؟ والإجابة بسيطة : كانت تحب ، كانت تحب شخصاً آخر غير هذا الذى يرجوه لها ، وكان هناك سبب آخر : فإن ابنة « روش موراكس » حامل . إنها حامل فى ستة أشهر وهى تخفى بصعوبة ماطرأ عليها من تضخم.. سوف تصبح أماً بعد ثلاثة أشهر . وإن كان أبوها لم يلاحظ شيئاً فإن سبب ذلك هو عدم مبالاته بها ، فقد كان مخدراً طوال الوقت من جراء مايدخنه من القنب ومايتعاطاه من خمور، كما كان منغمسا فى لذاته متهالـكا على مرأة الـ « ليـكوبا » . لم يلحظ إذن ماطرأ على ابنته من تغير كما لم يلحظ تغيبها عن البيت أثناء الليل . أما « ماميكيه » وأخته فهما اللذان انزعجا لـكل ذلك أشد الانزعاج .

كان حمل ابنة الرجل الأبيض يزعج المدرس الشاب ويشغل باله . هاهى تحمل منه . ولم يكن مايعذبه أنه سيصبح أباً وإنما فـكرة أن هذا الطفل إنما ينجبه من « سولانج » ... سولانج ابنة « روش موراكس » ذلك الرجل الأبيض الذى لم يحبه بصفة خاصة والذى لايحب أبناء جلدته كلهم بصفة عامة . سوف تتسبب عن هذا أحداث مروعة .

ما العمل ؟ ماذا سينتج عن كل هذا ؟ وقد اقترحت « أومبوكو » — وكانت بدورها

تشعر بأشد القلق والخوف — بأن يستشيروا إحدى القابلات، هاتيك النسوة اللائى تخصصن فى أن يعدن راحة البال إلى الفتيات والسيدات اللائى يجدن أنفسهن فى مثل موقف «سولانج».. لقد سمعت أن هذا يتم دون ألم، وهو حل ينقذ الموقف وينقذ شرف أسرة الفتاة . ولكن « سولانج » ثارت عند سماع تلك الفكرة، كما ثار لها «ماميكيه» فقد كانا يؤمنان بالقدر ويفضلان أن يتركا المسألة للطبيعة لتحلها بنفسها ، ورضخت « أومبوكو » لهذا القرار الذى كان يعرضها لأوخم العواقب ، ويحمل فى طياته نتائج ثقيلة للغاية .

ولكن كل ذلك لم يمنع الحياة بـ « موساكا » من أن تسير فى مجراها الطبيعى ، ولم يمنع الأرض من دورانها ، ولا المحبين، اللذين زاد حبهما ، من أن يلتقيا كل مساء ، كما لم يمنع « روش موراكس » من أن يعب فى الخمور كما يشاء، ومن أن يدخن عشرين غليوناً من القنب كل يوم، ومن أن يتردد خفية بين الحين والحين على إحدى نسائه الصغيرات. أما « لينار » فقد زاد حزنه وانطواؤه على نفسه ، ولم يجد شيئاً ينسيه ابنة رئيسه إلا الانكباب على العمل . وقد اقترح على « روش موراكس » لهذا السبب أن ينظم رحلة صيد كبيرة على ظهر الفيلة بمنطقة «جامبوما» . لربما استغرقت تلك الرحلة شهرين أو ثلاثة وهذا أفضل، إذ قد تفيده وتنسيه همه، ولذا فقد كدست المؤن واختير الصيادون واعتزم أن يكون الرحيل فى خلال خمسة عشر يوماً .

وقال الأب لابنته : إنى أصر على أن أطلب منك ثانية ، قبل رحيلى ، أن تفكرى فيما حدثتك فيه منذ شهر يا « سولانج » . يجب أن تتعقلى يا ابنتى . إن الشاب المسكين لم يفعل شيئاً يستحق عليه صدك هذا . لقد جعلت منه رجلا تعساً فهو لم يعد نفس الشاب الذى عرفته من قبل . ماذا ينفرك منه ؟ إنى أرجوك أن تعيدى النظر فى قرارك، وأنا إنما أطلب منك ذلك لصالحك ولصالح الوكالة نفسها . أنا أكلمك بوصفى أباً لك ، ولذا يجب أن تثقى بى يا «سولانج» . اتركى الأمر لأبيك . سوف تباركين أباك فيما بعد لأنه فتح عينيك . هيا ... حاولى أن تفعلى شيئاً يا ابنتى . اتخذى قرارك يا « سولانج » .

لقد أعاد الأب الكرة ليقنع ابنته العنيدة بفكرة زواجها من « لينار » الذى زاد حبه لها مع مرور الوقت، ولكن زوجة « ماميكيه » بقيت فى موقفها لا تتزحزح عنه قيد أنملة ... وأجابت أباها بقولها :

— ليس هناك قرار أعيد النظر فيه .. سبق أن قلت لا ، وما زلت أقول لا . لست بالفتاة المتقلبة التى تحركها الريح يمنة ويسرة . أنا لا أحبه ، وسأكون حقيرة وخبيثة فى نظـــر نفسى لو أننى قبلت عرضك واستجبت لنصيحتك ، بل إن قبولى هذا العرض يكون من شأنه أن يشقى كلينا . لا أستطيع أن أجبر قلبى على أن يستجيب لعاطفة ، لاسيما إذا كان الأمر يتعلق بمصيرى ، لا يمكن أن أدفع بقلبى فى طريق كهذا ملىء بالفاجآت . إنى أكره أن أكذب على نفسى . أنا لا أطيق رؤيته أو سماع صوته وهو يتكلم أو يغنى كما لا أطيق الاقتراب منه . ها أنا قد أوضحت الأمر لك ولذا أرجو أن تتكرم بأن تعفينى فى المستقبل من الكلام عن هذا الـ « لينار » الجميل الذى اكتملت فيه الصفات كلها .

— وأنا أقول لك إنك ستتزوجينه ، أتسمعين ؟ ... سوف تتزوجينه لأنى أريد ذلك ، ولأن هـــذا الزواج يعنى ازدهار تجارتى . هذا ما أريده وكفى ... أنا السيد هنا .

— يمكنك أن تكون السيد فى كل ما يتراءى لك ، ولكنك لن تكون أبداً سيداً على قلبى . وها أنا أكرر على مسمعك ما سبق أن قلته : أنا لا أريده ،لا أريد رجلك هذا . ولكن ما دمت تحبه إلى هذا الحد فلماذا لا تتزوجه أنت ؟ .

— كفاك وقاحة يا «سولانج» . لا أسمح بأن تنسى ما تدينين لى به من احترام.

— لست أريد رجلك هذا . لست أريد « لينارك » هذا ... أفهمت ؟ لا يمكن أن يبيعنى أحد . وليس فى قولى لأبى بصراحة إنى لا أحب جواده المدلل الذى اختاره لابنته ما يتنافى مع الاحترام الذى أدين به له .

— آه ... أهكذا تتصورين إذن ؟ حسناً ... سوف نرى أينا السيد هنـــا . ما زال فى إمكانى أن أحرمك الميراث ، أتعرفين ؟ هذا حق لى ، ولا أعتقد أن فى إمكانك أن تفعلى أى شىء لتغيرى من هذا الأمر أيتها الدوقة العزيزة التى لا ترضى بأن تشارك الناس البسطاء .

— يمكنك أن تحتفظ بكل مالك إذا أردت ... هذا المال الذى اكتسبته من عرق السود المساكين وبفضل ما أراقت أمى المسكينة من دم ، تلك الأم التى ضحيت

بها ، بل سأتركك أيضاً بالثنها إذا أردت ولكنى أقسم لك إنى لن أصبح أبداً زوجة « لينار » ... أبداً ... أبداً ...

وأراد « روش موراكس » — وقد فقد صوابه — أن ينقض على ابنته ليعاقبها على وقاحتها ولكنه سمع من يناديه فى الخارج .

— كل شىء على أهبة الاستعداد يا سيدى . إننا ننتظر أمرك بالرحيل .

* * *

أصبحت ابنة «مارى روز» أماً . لقد أنجبت ولداً جميلا . ولما أبلغوا «مامبيكيه» هذا النبأ أسرع ليقبل ابنه .

ولما سألت « سولانج » عشيقها : أى اسم تختاره له يا «موباليه — أو — تميه » ؟ أجابها :

— عفواً ، إن هذا حقك أنت ما دام ولداً .

— حسناً ... ما رأيك فى أن نسميه « بونافانتور »[1] ؟

— أوه ! إن هذا الاسم قد قدم قليلا . لم لا نسميه « بيانفينو »[2] .

— حسناً ، إنى أوافق على اسم « بيانفينو » ، « بيانفيو — آلان — ماكس — مامبيكيه » . أليس لهذا الاسم رنين جميل ؟

ها هى الأم الصغيرة قد نهضت من الفراش الآن . لقد مر على الوضع أكثر من عشرين يوماً وبدأت تشرف على أعمالها ، أما « بيانفينو » الصغير فهو يتمتع بصحة ممتازة . ولا يكف « يوكا » و « تانجو » من اللف حول المهد الجميل ذى اللون السماوى . إن همهم الوحيد جميعاً إنما هو عودة « روش موراكس » التى ينتظرونها من لحظة إلى أخرى . وقد قرر المتآمرون أن يدبروا الأمر بحيث يجهل الجد العنيد كل شىء عن ولادة حفيده . سوف يعهدون بـ « بيانفينو » إلى « أومبوكو » بمجرد

(١) ومعناها المغامرة السعيدة .
(٢) أى الذى جاء على الرحب والسعة .

أن يعرفوا تاريخ عودة الرجل غير المرغوب فيه . ولتلافى كل مفاجأة غير مستحبة ، رأى الجميع أن تكلف عمته — التى ستقوم فى نفس الوقت بدور المرضعة — بمراقبة النهر وإعطاء إشارة الخطر بمجرد اقتراب الصيادين الذى ستعلن عنه أغانى الجدفين ؛ والجميع على العموم إنما يتساءلون عن سبب تأخر هؤلاء الصيادين فى العودة .

ثم ، ذات ليلة كثيبة ، كانت الأمطار فيها تهطل غزيرة ، وبينما كانت حارسة السلام تغط فى نوم عميق فى بيت والديها ، استيقظت « سولانج » فجأة على الهرج والمرج الذى صحب وصول سيد البيت .

كان الرجل العجوز منقوعاً حتى عظامه بماء الأمطار ، ولذا أخذ يصرخ كالشيطان ليفتحوا له الأبواب ...

واستقبلته ابنته بتلك الكلمات :

— ها أنت قد عدت أخيراً يا أبى ... لقد تأخرت كثيراً هذه المرة ... هل أتيت بصيد سمين على الأقل ؟ ... هل جئت بكمية كبيرة من العاج ؟ . لم لم تنتظر فى إحدى القرى حتى ينتهى هذا الطوفان ؟ إن ملابسك مبللة تماماً يا أبى ... هيا بسرعة إلى فراشك .

— لا قيمة لذلك يا ابنتى ... لقد تأخرنا قليلا إذ كان علينا أن نطارد قطيعاً ضخماً ... لقد صرعنا عشرة أفيال منها ثمانية ذكور لها أنياب جميلة . ولست آسف على أنى أقدمت على هذه الرحلة الطويلة ... وما أخبارك ؟ أيسير كل شىء هنا على ما يرام ... ؟ أعطنى شراباً يدفئنى ... هل ما زال عندك بعض الـ « روم » ؟

لقد فوجئت الأم الصغيرة بمجىء والدها ... وقد أسرعت لتأتى بما أمر به ثم إلى المطبخ لتعد له قدحاً من القهوة الساخنة ...

— كم الساعة الآن يا « سولانج » ؟ لقد توقفت ساعتى ...

— الثالثة صباحاً بالضبط يا أبى ...

ولحسن الحظ لم يلحظ « روش موراكس » أى شىء ، ولم تسمع أذناه أى صوت غريب ... ودلف الرجل إلى فراشه تحت الأغطية الثقيلة بعد أن شربه

أكواباً ثلاثة من الروم ، وقدحاً كبيراً من القهوة ، وبعد أن دخن أربعة غلايين من القنب ...

وفي حوالى الرابعة صباحاً ، استيقظ « بيانقينو » ليطالب ، فى تلك الساعة المبكرة ، بأول وجبة له فى صيحات صاخبة ، لم نكن نتصور صدورها من رئتيه الصغيرتين ، وهى صيحات كفيلة بأن توقظ كل من فى البيت ...

وسأل « روش مورا كس » وقد أزعجه هذا الصوت :

— من هو هذا الطفل الذى يصيح هكذا ؟ ... أيكون هذا الصوت المزعج لـ « ألكسيس » ؟ إنه يبدو أرق من صوته . ولكنه استغرق فى النوم من جديد مؤجلا استيضاح هذا اللغز إلى اليوم التالى . وعلى أى حال لقد سكت الرضيع ليمتص ثدى أمه المدبب الوردى الممتلئ باللبن الطازج ، تلك الأم التى كانت تشعر بانزعاج شديد .

— يا إلهى ! يا إلهى ! إن المطر لا يتوقف ... كيف أخرج الطفل من هذا الجحيم ؟ ... وها هى « أومبوكو » لم تحضر ، وعلى أى حال ، حتى لو كانت هنا لما أمكنها الخروج تحت هذا الوابل من الأمطار ...

وطلع النهار . ها هو « روش مورا كس » — الذى ما زال يذكر تلك الصيحات التى سمعها منذ قليل — يدخل متلصصاً كالذئب إلى غرفة « سولانج » التى أحاط بها أخوال وخالات طفلها ليحيوا ابن أختهم تحية الصباح ... وكان الطفل يبتسم فى تلك اللحظة لأجداد وجدات غير مرئيين ...

— أوه ! . أوه ! : ماذا أرى ؟ أهنا طفل جديد ؟ ما معنى هذا يا « سولانج » ؟ لمن هذا الطفل ؟ ..

لقد احتبس صوت الأم وأخذت تنظر إلى أبيها بتحفز وتأهب لجميع الاحتمالات ..

— ألا تجيبين ؟ ومرت فكرة كالصاعقة بذهن الرجل ... وأردف : يبدو لى أنى وجهت إليك سؤالا يا « سولانج » ... لمن هذا الطفل ؟ أوه ! أوه ! . لقد بدأت أفهم سبب اشمئزازك من « ليناره » التسكيلى . لقد بدأت أرى خيوط

لعبتك بوضوح . هـــذا الصغير ابنك أليس كذلك ؟ والأب ؟ ... من هو الأب السعيد ... ؟

عجبـــاً ! إنه نفس السؤال الذى سألته « روزمارى » أمام كنيسة « سانت بارب » للأمهات الصغيرات عندما فضحت السر المروع الذى قضى على حياتها .

وأضاف « روش موراكس » الذى اخضر لونه والذى أخذ اللعاب يسيل من فمه كالثعبان الذى يتأهب للانقضاض على فريسته : أتسمحين لى أن أرى وريث بائنة أمك ، تلك البائنة التى أشرت إليها ذات يوم ؟ آه . . ! آه . . ! إنه هو الآخر زنجى ...

كان « روش موراكس » يرتعد من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه ولكنه استرد هدوءه بسرعة واقترب فى رباطة جأش من المهد ، وأبعد ستائر « الدنتيلا » ومد يديه للرضيع وتأهب لأن يقبض على عنقه ويخنقه ...

وأيقظ صوت الجد الصاخب الطفل الرضيع فأخذ يصرخ فى فزع .

وقالت « سولانج » لابيها بصوت آمر ، بصوت مخنوق وإن كان واضحاً ، صوت لبؤة تتأهب لأن تنشب مخالبها : إنك لن تمسه ...

— حسناً يا آنسة ... لن أمس هذا الزنجى القذر ... لن أدنس يدى بلمس هذا القرد القبيح القذر ولكنى لا أطيق وجوده لحظة واحدة تحت سقف بيتى . أتكون ابنتى عشيقة لزنجى ؟ أأكون أنا جـداً لزنجى قذر ؟ سأجن ... انتظرى قليلا ، سترين ما سأفعله بقردك الصغير هذا ... انتظرى لحظة ...

وأسرع « روش موراكس » إلى غرفة نومه وعاد منها حاملا مسدساً آلياً .

لقد وصل الأب متأخراً ... فقد قفزت «سولانج» من النافذة حاملة بين ذراعيها الطفل بعد أن لفته فى أغطية ثقيلة وأخذت تعدو كالمجنونة تحت المطر المنهمر... وأخذ الصغار الملونون يصرخون ... فقد دفعهم أبوهم بقسوة ، واندفع الرجل العجوز وراء ابنته التى سقطت فى الوحل ... وتمددت بطولها على الماء الراكد وهى تضم طفلها إلى قلبها ...

وصرخت « سولانج » ونهضت بسرعة واستأنفت العـــدو وهي تصرخ قائلة : « النجدة ! . النجدة ! . سيقتلنا » . ولـكن واأسفاه ! لقد لحق بها الوغد وأمسك بها بقوة من شعرها الطويل الطائر في الهواء …

— اتركني أيها الجلاد … اتركني … النجدة ؟ النجدة ! النجدة ! أنقذوني من هذا المجرم …

— ألقي بزنجيك الصغير على الأرض وإلا قتلتكما أنتما الاثنين …

— أيها الجـــلاد ! أيها الجلاد ! أيها الجبان ! لن تظفر به … لن تمسه بسوء …

وفي حركة سريعة قوية من قدمها التي كانت تنتعل حذاء برقبة ضربت الفتاة سمانة رجل أبيها الذي أخذ يصرخ من الألم ثم دارت عـلى عقبيها بخفة ومهارة كالنمرة الثائرة وواجهت المعتدي المسك بمسدسه الموجه إلى الرضيع وألقت في فكه الأسفل بقبضة يدها اليسرى فسقط بطوله على أحد الـكباري الحجرية التي تغطي مجرى الماء … وارتطمت يد الرجل اليمنى — التي كانت تنثني إلى الخلف — بلوح خشب غليظ … وانطلقت من أثر تلك الصدمة العنيفة رصاصة اخترقت رأس « روش موراكس » المستدير ، من فوق صدغه الأيمن إلى أعلى أذنه اليسرى فقتل الرجل في الحال . وطار « لينار » الذي سمع صياح سيده لنجدة المرأة الشابة فقد شاهد عن بعد ذلك الصراع غير المتكافئ بين الأب المسلح وابنته العزلاء ، ولـكنه وصل بعد فوات الأوان ولم يستطع أن يمنع وقوع تلك المأساة …

واستدارت « سولانج » ، التي كانت تتأهب للقفز من فوق القناة الحجرية ، عند سماع صوت انطلاق الرصاصة ، ورأت الماء الجاري بالقناة … وقد احمر بدم أبيها الذي تمدد على الأرض بدون حراك …

صرخت الفتاة قائلة . لقد قتلته ، يا إلهي ! لقد قتلته … وأجابها « لينار » وهو ينحني على الجثة الهامدة : نعم يا آنسة … لقد لقي السـيد « موراكس » حتفه … ماذا حدث حتى وصل بكما الأمر إلى هذا الحد … ؟

لم تجب الأم الشابة وانطلقت كالسهم وقفزت في الأوحال … وأخذت تتخبط

فيها حتى وصلت إلى القرية ... وهناك صاحت : «أومبوكو» ... «أومبوكو» ... افتحى بسرعة ... إنى أنا ... «سولانج» .

وأسرع «يوكا» و «تانجو» و «أو مبوكو» إلى أسفل الشرفة التى غمرتها المياه ووقفوا أمام «سولانج» التى غطتها الأوحال والتى تحمل على ذراعيها ابنها الملفوف فى أغطيته ...

وتساءل الجميع فى صوت واحد : ماذا حدث ؟

وأجابت الفتاة : لقد وصل فى الثالثة صباحاً .. وسمع بكاء «بيانفينو» وحاول أن يقتله .. وقد هربت تحت وابل الأمطار .. ولكنه تبعنى .. وسقطت فى الأوحال بالقرب من القناة الحجرية حيث لحق بى .. وقد صوب مسدسه نحو ابنى .. فعاجلته بضربة قوية من قبضتى فى فكه .. فوقع على الأرض .. و .. وصرعته الرصاصة التى انطلقت عند اصطدامه .. ومات فى الحال .. لقد قتلته .. لقد أرقت دم أبى ! إن اللعنة تطاردنى .. ثم أردفت المرأة التعسة وهى زائغة البصر : خذى «بيانفينو» يا «أو مبوكو» .. خذيه وربيه كما تربين ابنك .. واطلبى من والده أن يرعاه كما يرعى عينه .. قولى له إنه هدية من قلبه الآرى وأكدى له أنى لم أقتل أبى بالرغم من الشواهد كلها .. وقولى له أيضاً إنى مازلت أحبه .. وإنى سوف أبقى دائماً بجانبه حتى إذا كنت بعيدة لا يرانى .. وداعاً ياأمى ! وداعاً ياأبى ! وداعا ياأختى ! إنها نهاية العالم فى هذه المرة .. إنها نهاية العالم .. نهاية العالم .. لقد رأيت دمه بعينى .. لقد أرقت دم أبى واللعنة تطاردنى .. إنها نهاية العالم ..

وانطلقت ابنة الرجل الأبيض ، بنفس السرعة التى جاءت بها ، فى اتجاه الوكالة .. وتبعتها «أو مبوكو» ولكنها فقدت أثرها بعد قليل فقد غابت الفتاة داخل عيدان الغاب وأوراق البردى التى تحاذى الشارع الصغير .. واتجهت شطر النهر الذى كانت مياهه ترعد فى ثورة وغضب ..

— لقد قتلته .. لقد رأيت دم أبى .. إنى ملعونة .. إنها نهاية العالم .. وداعاً ياحبى ! وداعا يا «موباليه — أو — تمبيه» ..

وألقت «سولانج» بنفسها فى الماء .. وتبعها الشاب «ليناره» الذى لحبها وحمى

تجرى شطر النهر الكبير .. وخمن تلك الفكرة المتطرفة التى خيمت على رأس المرأة الشابة .. فاندفع وراءها .. ولكنه فى تلك المرة أيضاً وصل بعد فوات الأوان .. كأنه قدر للشاب المسكين أن يصل دائماً بعد أن يتم كل شىء ..

وغطس الشاب فى الماء .. وبقى به نحو عشرين ثانية .. ولكنه لم يهتد إليها .. وغطس مرة أخرى ليسبح مع التيار إلى مسافة أبعد .. ولكن لاشىء.. لم يجد أثراً لـ « سولانج » ...

لقد استغرقت عودته إلى القرية وإخطار أصحاب القوارب وجمعهم أكثر من ثلاثين دقيقة ..

أخذت المراكب تروح وتغدو على سطح النهر زهاء ثلاث ساعات .. أما « مامبيكيه » فقد توجه إلى النهر مسرعاً فى صحبة المشرفين وتلاميذ المدرسة جميعاً .. ولكن تلك الأبحاث للأسف لم تأت بثمرة .. لقد حاول سكان القرية جميعاً ، الصيادون والعاملون بالوكالة ، أن يبحثوا فى الماء عن جثة تلك التى كانت روح « موساكا » بأسرها ولكن دون جدوى ..

ثم توقف هطول المطر .. وفى هذه المرة تمكنت أمواج النهر من الاحتفاظ بفريستها ..

وشل المصاب «موساكا» بأسرها ، وأعلنت الحداد .. وراحت تبكى تلك التى كانت صاحبة الفضل الأكبر عليها .. والتى اختفت إلى الأبد ..

قال رئيس القرية العجوز الذى كان يشعر نحو صديقة حفيده بحب حقيقى : يالسخرية القدر ! إن النهر لم يرد ابنة الرجل الأبيض وهى طفلة إلا ليستردها حين تصبح امرأة وأماً ...

أما « لينار » الذى كان تعساً شقياً ... لا يجد عزاء لما حدث ... فقد أمر بحمل جثة رئيسه إلى حجرة أعدت بالوكالة على وجه السرعة ، تلك الوكالة التى أصبحت — فى غفلة عين — بدون صاحب ...

وجلس « مامبيكيه » بملابسه الممزقة التى لطختها الأوحال على الأرض المبللة أمام

بيت أبيه... حاملا على ركبتيه «ياتقينو» الصغير وأخذت عبراته تتساقط في سكون... وأحاط به «يوكا» و«تانجو» و«أومبوكو» وكل الأطفال الذين كان يسميهم بالـ«شكولاتة باللبن» والمشرفون بالمدرسة والتلاميذ جميعاً... وبقي على تلك الحال طوال النهار لاينبس ببنت شفة ولا يتناول شيئاً من الطعام... كان من حين إلى حين يسلم «ياتقينو» إلى «تانجو» أو إلى «أومبوكو» لتطعمه الطفل ثم يسترده منها ويعود إلى التفرس فيه وإلى احتضانه بقوة والربت عليه بأسى بالغ...

وأرخى الليل سدوله أخيراً... وحانت الساعة التي تعود فيها الأرواح لزيارة الأحياء حاملة سجلات من المطالب... لقد خلع الأفق رداءه الأرجواني الذي كانت تلطخه البقع السوداء وارتدى ثوب الحداد... وطبع الشاب المتحضر قبلة أخيرة على وجه ابنه ووضعه بين ذراعي أخته... ثم نهض واقفاً ويمم وجهه شطر النهر الكبير. وسار الشاب يبطء في طريق ضيق... مطأطئ الرأس.. كانت تحف بالطريق أعواد الغاب التي انحنت تحت وطأة السيل الجارف الذي توقف منذ قليل. وأخرج الشاب من جيوب سترته بحثين في الفلسفة أو ثلاثة أبحاث كان قد أعدها من قبل وألقى بها تحت قدميه. وبقي متسمراً في مكانه مدة طويلة وكأنه يناجي الأمواج وتلك الأعشاب الطويلة التي تمتد على مدى البصر. إن عينيه تبللهما الدموع وإن بدا العزم على وجهه... وفجأة هتف، في صوت تخنقه العبرات، بكلمات لها نغم وإيقاع عجيب:

— لقد ذهبت أيها القلب الآري. لقد ذهبت. إنها نهاية العالم كما قلت لأختي... إنها نهاية العالم بالنسبة لي أيضاً. إنها نهاية العالم. لقد جعلت مني أسعد الرجال قاطبة... ولكنك تجعلين مني الآن أتعس شاب على وجه الأرض وأكثرهم شعوراً بالوحدة... لقد ذهبت يا «سولانج» لقد ذهبت... لقد اخترت قبرك في غياهب الأمواج... تلك الأمواج التي أنقذتك منها عندما كنت زهرة لا عبير لها وإن كنت تنضحين في تلك السن بالنضارة والجمال والطيبة... لقد ذهبت إلى الأبد... لعلك اخترت أقصر الطرق إلى المحيط ليحملك إلى بلدك... هذا البلد الذي أحسن وفادتي وكأني ابن له، هذا البلد الجميل الذي أحببته لأفكاره الجريئة... ولكنك وقد رحلت الآن، هل يكون بلدي أنا أيضاً؟ أيكون من حقي أن أباركه؟ لقد أردت أن تلتقي بأبناء جلدتك. ها أنت تتنكرين لي وتفرين من المسئولية ناسية أنه كان عليك أن تبني هنا أشياء كثيرة وأن تقنعي عقولاً كثيرة...

« هيا أيها القلب الآرى ! ... هيا يا « سولانج » ! اذهبى بسرعة إلى ضفاف « السين » و ال « لوار » و « المارن » ... وقولى لأخواتك هناك — عندما تلتقين بهن — إن هناك عملا كبيراً ينتظرهن هنا ... قولى لهن إن القـارة الإفريقية إنما تنتظر عمالا وعاملات ليحققوا هذا العمل الـكبير ... ألا وهو الإخاء بين الأجناس والبشر جميعاً .

« أيها القلب الآرى ، إنى أحب بلدك الجميل وأشفق عليه فإن تاريخه ليملأ القلوب بالحماس ، وأفـكاره نبيلة جريئة سامية ... ولـكنها معرضة للزوال وسط الـكبرياء الفردى ... إن آدابه الوضاءة وشعره المسكر وفنه الفريد لا ينبغى أن تباع للبرجوازية الرجعية ... إن شعلة هذه الآداب والفنون يجب أن تنير الطريق للعالم أجمع ... قولى هذا لأخواتك يامن ذهبت إلى الأبد ...

« لقد تركت بمحض اختيارك ، بلد الشباب الأبدى وأرض التقاليد التى لا تتزحزح عن مبادئها والتى لا تغامر فتعتنق ، بشكل أعمى ، تلك المبادئ المفسدة التى تتزين بطلاء خداع يسمى بالتقدم لا يعدو أن يكون ، فى حقيقته ، لوناً من الـكبرياء والتعالى ... افتحى عيون أخواتك على تلك الحقيقة يامن ذهبت بدون رجعة ...

« انظرى إلى الشرق وإلى إفريقيا وإلى هؤلاء المجوس الذين ينكبون على ألواح يعود تاريخها إلى مئات من السنين يتفحصونها ليخرجوا منها حكمة مباركة ما زالت شابة ... انظرى إلى هؤلاء الذين يطلبون النصح من رفات أمواتهم قبل أن يشرعوا فى مهاجمة الفيلة والحيوانات الـكاسرة والثعابين . قارنى بين تلك العوالم وعالمك وأخبرينى : فى أى عالم منها تتفجر البراكين الاجتماعية ؟ فى أى منها يفتك سرطان الذهب وسل الفلسفة بالمجتمع ؟ فى أى عالم منها يلتف هذان الأخطبوطان حول عنق التقاليد ليخنقاها وليقضيا عليها ؟

« اذهب أيها القلب الآرى ! اذهب بسرعة لتلتقى بإخوتك واطلب منهم أن يفكروا فى أن يردموا أخيراً تلك الحفرة الـكبيرة التى تفصلهم عن بقية القارات التى تفتح لهم أذرعتها لتستقبلهم فى رحابها كإخوة تحتاج إليهم ليحرروها بعلمهم من العبودية والرق اللذين يسودان المجتمع الإنسانى ... قولى لهم إن لفظ « عبد » القبيح ،

سواء فى عالم الرق أو فى عالم استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، يجب أن يختفى من أسلوب كل متحضر ومن عقله ...

« إنى لم أنس ، أيها القلب الآرى ، العهد الذى قطعته على نفسى . لقد أجبتك عندما قلت لى : « اقتل نفسك إذا مت أنا » بقولى : « أعدك بهذا » . لقد قطعت هذا العهد قبل أن أتذوق طعم دمك ... وقبل أن تتحد روحانا وسوف أفى الآن بما وعدت بعد أن ذهبت إلى الأبد ... لقد وعدتك أن أكون لك فى الحياة وفى الموت ... حسناً ... مادمت قد ذهبت ، مادمت قد ذهبت ، مادمت قد أردت أن تتركينى ، فسأتبعك كما وعدت ... سأتبعك لا لأسعد برؤياك فحسب وإنما أيضاً لأرى قرى بلدك الجميلة ... ومجتمعاتها الريفية وسماءه الملبدة بالغيوم ، سأتبعك لألتقى بروحك ، ولأعيدك إلى بلدى حيث الإخاء والعطف والحماس للعمل على التقاء الأجناس ...

« لقد هجرتنى يا « سولانج » ... وسأنزع هذه الثياب التى تذكرنى بما فى بلدك من مجد وبهاء وغرور ... سأتجرد من تلك الثياب التى جعلت منى رجلا « متطوراً » والتى كانت تقربنى منك ... لم أعد أطيق رؤيتها ... فسوف تذكرنى بصحبتك ، أنت التى ذهبت إلى الأبد ...

« سأتنازل أيضاً عن هذه الكتب التى كان يتفيأ ذهنى فى ظلها ، ولكن ماجدوى ذلك الغذاء لفكرى الآن مادمت لن تعودى لتشاركينى إياه يامن ذهبت ولن تعودى ...

« سوف أعود عارياً كما كنت وسوف أسترد نفسى كلها وحريتى وسهامى وجلد الـ « ليكوبا » لألحق بك .. سوف أعود إلى طبيعتى الأولى وأتجرد من ذلك الطلاء الخبيث ... ومن تلك العادات التى أردت أن تلقنينى إياها ... وإنى لواثق تماماً أن حبك لى سوف يزداد قوة وأنك لن تتركينى بعد الآن ...

انتظرينى يا « سولانج » ... انتظرنى أيها القلب الآرى . ها أنذا ... »

وشرع « مامبيكيه » يتجرد من ثيابه ببطء ... وألقى بملابسه فى الماء كما مزق كل الكتب التى حملها معه وألقى بأوراقها فى مهب الريح .. إنه عار تماماً الآن ... كم هو رائع ! كم هو قاس ! كم هو جميل ذلك الشاب بأديمه الإفريقى الجميل وبما ارتسم على وجهه من عزم وقوة ! ..

— وداعاً يا « ييانقينو » وداعاً يا « ألـكسيس » ودعا يا « يا أومبوكو » .

— انتظر قليلا يا أخي ... عندى كلمة واحدة أود أن أقولها لك ...

إنه صوت « أومبوكو » التي كانت في تلك الأثناء تخفي نفسها عن أعين أخيها .. هاهي راكعة الآن أمام «ماميكيه» حاملة على ظهرها ابن « سولانج » و«ألـكسيس» بين ذراعيها .. لقد ركعت الفتاة أمام أخيها في نفس اللحظة التي نوى أن يلقي فيها بنفسه في الماء بعد أن فرغ من مناجاته ...

— ماذا تريدين مني يا أختي الصغيرة ؟

وأجابته وهي تشير إلى الطفلين :

— لست أطلب شيئاً لنفسي .. إن كل ما أطلبه إنما هو من أجل هذين الطفلين .. جئت أسلمك إياهما . . فقد افترضت أنك ربما أردت أن تصحبهما بدورهما إلى حيث تنوي الرحيل .. ليس عندي ما أقوله عن ذلك الصراع الذي يقوم بينك وبين ضميرك .. ولـكن من واجبي أن أصرخ باسم جنسك وبلدك والإنسانية جمعاء .. لأريك مدى جبنك وأنت تهرب على هذا النحو من ساحة المعركة . . أوه ! لم أنس للأسف انك « أو ندليه ندوميه » . أنا أعرف أنك تلم بأشياء كثيرة ، بأشياء كثيرة تفوق تصوري .. ولـكني واثقة بأن على الجندي أن يدافع عن مثله الأعلى وهو حي لا ميت .. لقد وعدت « ألـكسيس » يوم عودتك بأن تصبح أباً له ، ولـكن يبدو أنك نسيت هذا العهد الذي قطعته على نفسك .. لقد أنجبت طفلا من «سولانج» .. وهي إنما تعيده إليك لعلمها أنهم لا يرغبون فيه في بلدها ... ولـكنك تفضل أن تتنـكر لدمك .. لقد طلبت منك أن تعنى به كما تعنى بعينك ، وهي بقولها هذا إنما تعفيك بطريقة خفية من العهد الذي قطعته على نفسك ... ولـكنك على ما يبدو تفضل الهرب من هذا الواجب .. بل هناك أيضاً أطفال آخرون تربطهم بـ« ييانقينو » صلة الدم قد قبلوا أن تصبح أباً لهم .. ولـكنك تفضل أن تحكم عليهم بالألم واليتم .. وها أنت تنسى أخيراً هؤلاء الذين أقسمت لنا أن تخرجهم من غياهب الظلمات التي تحيط بهم .. ولـكن يبدو أن كل تلك العهود التي قطعتها على نفسك لم تعد لها قيمة بالنسبة إليك ...

وأخيراً . . لـكي لا أطيل . . أخبرك أن زوجتك قد أكدت قبل أن تتركنا أنها

ستبقى دائماً بالقرب منك .. لعلك لا تبالى أيضاً بذلك الوعد الذى صدر عن فتاة قبيل وفاتها .. هذا حسن جداً يا أخى .. والآن من توكل للقيام بكل تلك المهام؟ أتعهد بها إلى أنا ، أنا الفتاة المسكينة ؟ .. أيكون من واجبى أنا .. أنا أختك الصغيرة .. أن أربى أولادك .. «بياتقينو» و «ألكسيس» والآخرين ؟ .. أتشعر بالألم ؟ .. هذا حق عليك .. إنه الحق الوحيد الذى بقى لك بصفتك رجلا أسوداً .. ولكن الواجب إنما يقتضى منك أن تحل محل «سولانج» بجانب ابنك... وأن تكون أباً لـ «ألكسيس» ثم أن تكون رباً لأسرتك .. هيا انظر جيداً إلى عيون كل هؤلاء اليتامى .. إلى كل هؤلاء التعساء الذين ليسوا بالبيض وليسوا بالسود . ماذا تقرأ فى هذه العيون ؟ ليس لهم سواك لكى يعطيهم الأداة التى يستخدمونها لشق مكان لهم فى تلك الصخرة التى تمثلها حياة الرجل الأسود ، وفى الصراع ضد الشر الإنسانى .

هذا كل ما كنت أريد أن أقوله لك .. والآن يا أخى الكلمة لك .. فأنت الأخ الأكبر .. إنى بدورى على أهبة الاستعداد لأن أتبعك — ومعى أبنائى — فى خضم الأمواج ..

— شكراً يا أختاه ! إن صحبة المتمدينين واتصالى بهؤلاء الناس الذين أتوا من بعيد قد قتلا فى نفسى الشعور بالمسئولية .. ها أنا قد أصبحت بدورى « فرديا » أنت على حق ياأختاه .. يجب أن نسبح ضد تيار الحياة من أجل الحياة ذاتها .. من أجل الصراع . . . من أجل الألم ذاته حتى يكون ثوابنا أكبر . تعالى يا أختاه ! أعطينى « بياتقينو» . سنعود إلى المدرسة فهناك طريق الحكمة والعقل والخلاص . يجب أن ننتصر ..

نيني / خلاسيه السنغال

بقلم : ابدولاى سادجى

أهدى كتابى هذا إلى ذكرى المرحوم « جورج سانيانيم » الحاصل على الدكتوراه فى الطب البيطرى والذى أوحى إلى بفكرة كتابته ..

إن ذكراه ستبقى فى قلبى إلى الأبد

أ . س .

ولد « سادجى » عام ١٩١٠ بمدينة « روفيسك » بالسنغال . ولما كان أبوه شيخ طريقة (زاهداً) فقد عكف على دراسة القرآن حتى بلغ الحادية عشرة من عمره . وقد تابع المؤلف بعد ذلك دراسته الابتدائية ثم الإعدادية (التى يسمونها هناك بالابتدائية العليا) وأصبح فى ١٩٢٩ مدرساً مؤهلا يحمل شهادة التدريس المحلية . وواصل دراسته إلى أن حصل على شهادة « البكالوريا » فى عام ١٩٣٢ . وقد كرس حياته للتدريس .

ويعمل المؤلف حالياً بمحطة إذاعة غرب إفريقيا الفرنسية.

وقد كتب « سادجى » — عدا « نينى » — ثلاث قصص أخرى هى : « ميمونة » و « تونكا » و « الزيجة التعسة » ولكنها لم تطبع بعد ، كما كتب ، بالتعاون مع « ل . س . سنجور » ، « الأرنب البرية « لوك » وهو كتاب مطالعة أعداه خصيصاً للمدارس الأولية بإفريقيا السوداء .

لاتهدف قصة «نيني» – كما يظن البعض – إلى اتهام شخص امرأة بالذات بسبب ما يمكن أن يكون المؤلف قد شعر به من خيبة أمل فى حبه لها .

إن « نيني » ليست سوى صورة حية خالدة للخلاسية بصفة عامة ، سواء كانت من السنغال أو من جزر الهند الغربية أو من إحدى الأمريكتين : الشمالية أو الجنوبية . إن تلك القصة إنما هى وصف للانسان المخلط ، لشكله وخلقه ولتصرفاته التلقائية الخارجة عن إرادته ، ولنزعته فى تبوؤ مكانة غير مكانته ، تلك النزعة التى تدفعه إلى التعالى على إخوة له يعتبرهم أقل منه مرتبة وإن ربطه القدر بهم برباط وثيق لاينفصم .

وفى إمكاننا أن نشفق على تلك الفئة من الناس كما فى إمكاننا أن نؤاخذها . وفى رأيى أن الأجدر بنا – بدلا من الإشفاق والمؤاخذة – أن نقدم لهؤلاء الناس مرآة صادقة تعكس أمامهم الحقيقة المجردة ... ونحن بعملنا هذا لانقف على منبر الواعظ كما لا نشهر سيف الجلاد وإنما نقف موقفا إنسانياً بحتاً .

إن حال الخلاسيات قد أصبحت أمراً يثير الدهشة حقاً فى عالم يتجه إلى بعث الأجناس بقصد المزج بين عناصر مختلفة من البشر ، بل يبدو – من حيث المبدأ على الأقل – أن هناك دعوة للقضاء على التفرقة بين مايسمونه بالأجناس الممتازة والأجناس السفلى . وهناك زيجات تتم كل يوم بين أناس من أجناس مختلفة .

لقد قال لى البعض ، ممن يعنون بهذا الأمر ، أن مشكلة « نيني » ومثيلاتها من الخلاسيات لم يعد لها وجود ، ولكنى لاأشاطرهم رأيهم هذا . وهم فى رأيى يخلطون بين شيئين يختلفان كل الاختلاف : طول الفترة التى بقيتها المشكلة وماهى عليه الآن .

وكنا نود بدورنا ألا تكون مشكلة من هن على شاكلة « نيني » إلا حدثاً عرضياً قد ولى وعفى عليه الزمن ، حدثاً نواريه جنبات أرشيف لحوادث مرت عليها مئات السنين ، ولو أن الأمر كان كذلك لأرحنا واسترحنا .

ولكن هل الأمر كذلك حقاً ؟

هذا ماستجيبنا عنه تلك القصة ...

الفصل الأول

فى ذات يوم من شهر فبراير وكان يوماً كبقية الأيام لا يتميز بشىء ، مظلماً ، يخيم فيه الضباب بسبب البرد ، أخذت الديكة تصيح ، فقد خدعها الليل الذى يطول فى ذلك الشهر وفى الشهرين أو الثلاثة التى تسبقه ، ولم تكف عن الصياح . ولما بلغت الساعة السادسة والنصف صباحاً كانت الديكة لا تزال تواصل صياحها.

استيقظت « نينى » ونهضت من فراشها منذ قرابة نصف ساعة ، فقد تعودت أن تنهض مبكرة فى تلك الساعة التى تتوجه فيها جدتها وخالتها إلى الكنيسة لحضور قداس الصباح وهى تزهو بأنها تستيقظ مبكرة ففى هذا دليل على أنها امرأة ناضجة ! أو هو — على أقل تقدير — دليل على إرادتها وقوة شخصيتها . ولما كانت تلك الفترة من الصباح لا تتطلب من « نينى » القيام بعمل بالذات فهى لا تجد شيئاً تعمله خيراً من التوجه إلى الشرفة والاستغراق فى تأملاتها المبهمة . وكانت تشاهد من شرفتها ، عند ضفة النهر ، نفراً من الزنجيات ، يغسلن أقدامهن وأيديهن ويتوضأن بعد أن يفرغن ما فى صفائحهن من قمامة ، وكان البعض منهن يخلعن قمصانهن أو ملابسهن ويستحممن بسرعة بإلقاء الماء على ظهورهن وخصورهن وبطونهن محتميات من عيون الفضوليين بذلك الظلام الباهت الذى يستمر بعد شروق الشمس . وكان هناك رجال أيضاً . إنهم يأتون عادة ويتسمرون لحظة فى أماكنهم وهم شبه جالسين ، ثم ينهضون ويختفون . ويخيم على تلك المشاهد جو مبهم فيه من الإباحية بقدر ما فيه من قدسية . وقد اعتادت « نينى » هذا المنظر الذى تشاهده فى كل صباح ، ولم تعد ترى فيه ما يمكن أن يخدش خفر وحياء الفتاة المتحشمة .

يبدو أن النهر قد امتص الغيوم فقد صفا الجو رويداً رويداً وبدأت معالم مدينتى « جت ندار » و « ندار » تتضح للعيان بأكواخها الدبية وعششها وبيوتها المبنية بالأحجار . وإنك لترى على مياه المجرى الصغير المتفرع من النهر — والذى يكسوها لوناً رمادياً باهتاً — زوارق انتفخت بطونها تتراقص فى شرود . إن تلك الزوارق قد ربطت فى مكانها منذ انتهاء موسم الحصاد ، ريثما يحل الموسم المقبل لتستأنف

رحلاتها إلى المحطات النائية المتناثرة فى السنغال . إن تلك الزوارق قد بعثت بها العناية الإلهية إلى مدينة « سان لوى » الطيبة التى لم يعد فى استطاعتها الاعتماد على بلد أجدادها الأقدمين [1] .

وتركت « نينى » الشرفة ودخلت غرفة نومها . وسمع صوت صرير باب البيت وهو يفتح ، ولكن ذلك الصوت لم يدهش « نينى » فهى تعلم أن جدتها وخالتها تعودان عادة من الكنيسة فى تلك الساعة .

إن الجدة « هيلين » والخالة « هورتنس » هما كل ما تبقى لـ « نينى » من أسرة « ميرل » . لقد كانتا فى صباهما كـ «نينى»، فتاتين رشيقتين ، مليحتين، مليئتين بالحيوية تروحان وتجيئان كالغزلان الشاردة . وكانت أحلام الشباب تملأ رأسيهما كغيرهن من النساء . وقد تضخمت تلك الأحلام مع مرور الزمن حاملة كيانها إلى آفاق وآفاق كما أخذت تسمو بهما إلى حد أنهما لم تعودا تشعران إلا بالرغبة فى أن تحيا وأن تحاطا بالحب ، ثم تبخرت الأحلام كما تتبخر فقاعات الصابون . ولم يعد يراود المرأتين فى ظلمات شيخوختهما إلا أمل واحد ، هو أملهما فى رحمة الله ، وذكرى واحدة ، هى ذكرى نضارتهما فيما سبق من الزمان . إن شبابهما لم يكن فى حقيقته إلا سلسلة من خيبة الأمل فقد أمضيتا ذلك الشباب فى سلسلة من المغامرات مع عشاق عابرين ، كلهم من البيض الأوربيين ، كانوا يظهرون لهما حباً يصل إلى حد العبادة ثم يولون إلى غير رجعة .

إن الجدة « هيلين » والخالة « هورتنس » تتمسكان بالتقاليد الخلاسية العتيقة ولذا فهما ترتديان دواماً ملابس الحداد ولا تخرجان إلا نادراً جداً . وفى كل صباح تخرج المرأتان مبكرتين لحضور القداس . وأنت تراهما عندئذ فى الطرقات الخاوية وهما تسيران فى حذاء الجدران الرمادية كالأشباح ، تترنحان وكأنهما فى كل خطوة تخطوانها توشكان على السقوط . إن نسمة الصباح تجدد نشاطها وتنعش ذهنيهما ، وتقوى ثقتهما فى الله ، إذ لم يعد هناك من يمكن أن يهون عليهما سواه . وعند عودتهما من القداس ، كانت المرأتان تسبحان طوال الطريق وتتمتمان بالدعوات ثم تنزويان فى عقر دارهما حتى صباح اليوم التالى .

---

(١) ويعنى الكاتب هنا أجداد بعض سكانها من الأوربيين البيض .

ها هى « نينى » وقد أتمت زينتها تحيي العجوزتين بقولها :

— أسعدت صباحاً يا جدتى ، أسعدت صباحاً يا خالتى .

وها هى تعانقهما ثم تنادى فى صوت آمر قائلة: « باكارى » . وهنا يخرج صبى أسود اللون من المطبخ مسرعاً ، فتسأله :

— أأعددت القهوة؟

ويجيبها الطفل فى صوت كلب ذليل : نعم يا « آنسة » ويعود من حيث أتى .

وتشكو العجوز « هيلين » ، فى تأفف ، من نباح كلب الجيران الذى منعها من النوم طوال الليل . أما الخالة « هورتنس » فهى تشكو من اختصار القس لقداس الصباح .

وتستأذن « نينى » من جدتها وخالتها وتخرج . لا بد أن الساعة قد جاوزت السابعة الآن ، ولكن ما زالت هناك فسحة من الوقت تسمح لها بالوصول إلى المكتب دون أن تسرع الخطى ودون أن تتقطع أنفاسها . ولما لم يكن بمدينة « سان لوى » ترام أو « أوتوبيس » فستقطع المسافة إذن سيراً على الأقدام . ولكن كم هى مسرعة فى سيرها !

« كراب » ! « كراب » ! « كراب » ! ... إن كعب حذائها يرتطم بالطريق المرصوف بالأسمنت المسلح . وليس هناك أى شى يمكن أن يفصح عن أنها خلاسية ، اللهم إلا الإفراط فى تغطية وجهها بمسحوق الأرز الأبيض أو تلك الشفاه الشهوانية الممتلئة قليلا . ليس فى طريقة سيرها ذلك التهادى وتلك الحركات التى تتميز بها أقل الزنجيات سواداً .

« كراب » ! « كراب » ! « كراب » ! ... إن جسدها كله يهتز مع وقع خطواتها العنيفة ، وهى تسير شامخة برأسها ، لا تلتفت يميناً أو يساراً : ويبدو أنها تنظر إلى جميع من تصادفهم باحتقار شديد .

ووصلت بعد قليل إلى المكتب . وقد تراءى لزميليها — وهما من البيض الصرف — أن يدا عباها . واختبأ كل منهما خلف أحد مصراعى الباب ، فلما دخلت

صاحا « هو ... هو ... هو » وقفزت « نيني » مذعورة ولكنها استقبلت تلك الداعبة العديمة الحياء بمرح وحبور ثم راحت تقص كل ما رأته فى الليلة السابقة .

— لقد قاسيت هذه الليلة من حلم مروع ... أواه ! كم كان فظيعاً !

ورفعت عينيها لتعبر عن مدى انزعاجها ، وضمت شفتيها اللتين أفرطت فى طلائهما باللون الأحمر فزادا استدارة وانتفاخاً . وأخذ الرجلان الأبيضان ينظران إلى زميلتهما الصغيرة وكأنهما ينظران إلى حيوان عجيب وهما يتساءلان : ألا تكون الفتاة فى غيبوبة ؟ والحقيقة أن «نيني» كانت فى تلك اللحظة تحت تأثير وحى، أو على الأرجح رؤيا لم تنقشع بعد من مخيلتها .

— نعم ، لقد كان حلماً فظيعاً . تصوروا ! كنت أحلم بأنى فى غابة سوداء ، فى غابة كثيفة ، فى أحراش حقيقية . وفجأة خرج على زنوج يعكسون عدى . أواه ! كم يفزعنى التفكير فيما رأيت !

مازالت « نيني » تحت تأثير ذلك الانفعال الذى اعتراها ، ولذا فهى تتكلم بسرعة وبلهجة مشبعة بالتكلف ، الأمر الذى جعل زميليها يعجزان تماما عن فهم معنى ما كانت تقول .

ثم قال أحدهما :

— وإذن ، ماذا كان يريد منك هؤلاء الزنوج المسكون بالمدى ؟

وأجابت « نيني » :

— لابد أنهم كانوا يريدون قتلى ، وعندئذ شعرت بالخوف وأطلقت صرخة مدوية واستيقظت . آه ! كم كان ذلك فظيعاً !

وفى تلك اللحظة اندفع رئيسهم إلى المكتب ونظر إلى « نيني » بصرامة ، ومردون أن يحييها ، ثم ألقى بأمر مقتضب وخرج .

وشعرت « نيني » بالخجل ، ولذا فقد أتت — انتقاماً من الرجل — بحركة قبيحة وجهتها إلى ظهره ، لها عند الزنوج تسمية قبيحة .

وبعد ما بدا على الرئيس من تجهم ، شرع الجميع فى العمل ، وأخذت « نيني »

تعمل بعصبية بينما احتفظ زميلاها الأبيضان بهدوئهما فهما لم يكونا معرضين مثلها لأن يصب الرئيس عليهما جام غضبه .

إن « نيني » تعمل على آلتها الكاتبة بسرعة ومهارة تلفتان النظر ، وهي تدفع لوحة الآلة الكاتبة يمينا ويساراً في دقات صاخبة مصحوبة بصوت ارتطام إن دلت على شيء فعلى قدرتها وإخلاصها في أداء الواجب ، ذلك الإخلاص الذي اشتهرت به الخلاسيات .

وخلاصة القول أن « نيني » ممتازة في العمل على الآلة الكاتبة .

أما الموظفان الأوروبيان « مارتينو » و « بيران» فقد أخذا في تلك الأثناء يكتبان التقارير ، ويعدان التصميمات ويحرران قوائم الحسابات ، إذ أن المكتب الذي يعملان فيه ملحق بمؤسسة تعنى بإصلاح السد الذي يعوق دخول البواخر الآتية من عرض البحر ، وقد تعهدت تلك المؤسسة بإتمام العمل بموجب عقد أبرم بينها وبين الإدارة المحلية .

وفجأة هب أحد الرجلين واقفا ـ وكان « مارتينو » بالذات ـ وقال موجها حديثه لـ « نيني » :

ــ اسمعي يا آنسة « نيني » . ألا تريدين ، أنت التي تحبين الكلام عن رياضة التنس ، أن تشاطرينا اللعب هذا المساء ؟ وعندما أتكلم عنا ، فأنا أعني بالطبع السيد « بيران » وأنا نفسي .

وأجابت « نيني » التي بدت عليها الفرحة : بكل تأكيد ، إن هذا الاقتراح يشرفني .

ــ وهل يمكن أن تصحبك زميلتك التي تعمل بإدارة الضرائب ؟ أرجو أن تحلولها هذه الفكرة .

ــ أتعني الآنسة « دي ميكيه »[1] ؟ هذا لطيف منكما . سوف أخطرها بالأمر حالاً . وصاحت « نيني » قائلة : « ما مادو »

---

(١) أن لفظ «دي» أي (de) يسبق أسماء الأسر العريقة بفرنسا .

وأسرع أحد السعاة . وحين أدرك أن « نيني » هي التي تناديه تغيرت ملامحه وأخذ يحدثها بلهجة بلدها ، وقال :

— ماذا تريدين ؟

وتجاهلت الخلاسية ماظهر على الساعي من ضيق وقالت :

— اسمع يا « مامادو » . أتعرف الآنسة « مادو » التي تعمل بالضرائب ؟

— نعم ...

حسناً ، احمل إليها هذه الورقة بسرعة . وخطت « نيني » خمسة أسطر على ورقة سلمتها للساعي . ولكن « مامادو » كان يرغب قبل رحيله في أن يثير إشكالا فسألها عن بعض البيانات بلغة بلدها :

— أأنتظر الرد ؟

وأجابت « نيني » في غضب :

— اسمع يا «مامادو» . كلمني بالفرنسية فأنا لا أتكلم لغتك.. وهنا انفجر الرجل في الضحك ثم اختفى ليذهب إلى إدارة الضرائب حاملا رسالة « نيني » إلى صديقتها الآنسة « دي ميكيه » .

قالت « نيني» لزميليها الأبيضين مستشهدة بهما :ـ« إن هؤلاء الوطنيين في منتهى الوقاحة » . ولكن زميليها لم يردا عليها ، ولم يرفعا رأسيهما عن الورق الذي كانا مستغرقين في قراءته .

لم يكن الساعي « مامادو » بالفتى الشرير ، وإن كان لا ينسى الإساءة كما هي حال أبناء جلدته . كان فيما سبق في معاملته لـ « نيني » مهذباً للغاية ، كما كان يحيطها بعنايته ، إذ كان يتصور أن السود والخلاسيين أبناء عم ، وأن عليهم أن يتصادقوا وأن يتعاونوا إذا ما اقتضت الحال . كان يعتقد أن احترامه لـ « نيني » هو احترام لجنسه أمام هذين الأبيضين اللذين جاءا من فرنسا ، إلا أن « نيني » أخطأت فهم معنى ذلك التصرف ، وتصورت أنه مظهر من مظاهر الخضوع ، ولذا قررت أن تعامل « مامادو » كما تعامل خادمها الصغير « باكاري » بالبيت . ولما شعر « مامادو »

بذلك فكر فى الأمر وغير من معاملته لها . بل لقد أحس أنه لم يعد قادراً على أن يشعر نحوها بذلك الاحترام الذى يجب أن يعامل به أية امرأة سواء كانت بيضاء أم سوداء .

وهاهو نص الرسالة التى جاءها بها الساعى

صديقى العزيزة

يسعدنى جداً أن أصاحب السيدين « مارتينو » و « بيران » فى لعب التنس فأنا أتحرق شوقاً إلى التعرف عليهما ، وسوف نتكلم فى هذا الأمر ...

إلى اللقاء فى هذا المساء إذن .

صديقتك « مادو »

* * *

وفى الساعة الخامسة مساء كنت ترى فى الطريق المؤدية إلى ملعب التنس «نينى» و « مادو » وهما تسيران فى خيلاء مرتديتين قبعتين « بيريه » صغيرتين ومنتعلتين حذاءين للرياضة وواضعتين مضاربهما تحت إبطيهما . كان التناقض بين لون بشرتيهما كبيراً ، فـ « نينى » تـكاد تـكون بيضاء ، بينما تـكاد « مادو » تـكون سوداء تماماً .

إن شارع « اندريه ليبون » مزدحم بالناس فى تلك الساعة .

وكانت النساء السوداوات يسرن جماعات فى خطوات متهادية متراخية وهن يتكلمن بأصوات خفيضة ذات نغم ينم عن التـكاسل ، كما كن يزحفن بنعالهن البالية . إن بعضهن يتوجهن شطر « لودو » والأخريات إلى « سيندونيه » ، وكانت وجوههن الغليظة القرطحة مطلية بمسحوق ردىء وردى اللون ، هو مزيج من العطر وبقايا الطوب الأحمر . وكان هناك رجال يرتدون الملابس الوطنية يتحادثون فى السياسة .

إن أى حديث يدور بين الناس فى السنغال إنما يبدأ دائما بالـكلام فى السياسة وينتهى دائما بالتحدث فيها كذلك .

وكان هناك أيضاً بعض شبان يرتدون الزى الأوروبى الحديث : تلاميذ بمدرسة « فيد هيرب » أو موظفون عائدون من أعمالهم .

وكنت تتبين ، وسط هذا اللغط الذى يسمع بالشارع ، صوتى « نينى » و « مادو » رفيعين الرقيقين بوضوح تام .

— كم هما لطيفان ! إن السيد « بيران » يهتم بك على مايبدو . وهو الذى أخبرنى بذلك إذ قال : « يمكنك أن تصحبى معك صديقتك » .

— آه ! أهو يهتم إذن بأمرى إلى هذا الحد ؟

— يبدولى ذلك . وعلى كل حال فإن هذين الشخصين محترمان للغاية وعلى درجة عالية من الخلق الرفيع

— ها أنت ترين أننا لم نضيع وقتنا فى الانتظار ، إنها فرصة طيبة تسنح لنا .

— نعم ، فرصة طيبة حقاً .

— يبدولى أن السيد « مارتينو » يحذق لعبة التنس . يا لجسمه الرياضى ويا لذراعيه القويتين ! ... إنه شاب رائع فعلا .

— وماذا عن السيد « بيران » إذن ؟ كلما رأيته بمكتبه أعجز عن منع نفسى من الإعجاب به ، فهو يبدو ظريفا جذاباً .

كانت « نينى » على وشك أن تجيبها ، ولكنها توقفت فجأة عن السير واستدارت ، إذ دفعتها إحدى الزنجيات أثناء سيرها فكادت تقع . ونظرت « نينى » إليها بازدراء وكراهية وقالت مؤنبة :

— أنت أيتها الحمقاء ، ألا تحترسين !

وواصلت المرأة سيرها غير مبالية فأردفت « نينى » فى استياء :

— كم هن غبيات ! ليست لديهن أية تربية .

إن ما حدث شىء مألوف يقع فى الشارع كل يوم ، ولكن أية هفوة تبدر من السود تعتبر فى نظر خلاسيات « سان لوى » عملا فاضحاً . وواضح مما حدث أن « نينى » و « مادو » لم تذهبا أبداً إلى باريس ، فهناك كثيراً مايصطدم المارة وكثيراً ما ترتطم صدورهم بعضها ببعض .

وسرعان مانسيتا الحادث واستأنفتا حديثهما الذى صار متقطعاً لاهثاً ، إذ أسرعتا الخطى . بل إنهما كانتا أحياناً تجريان لكى لا تصلا متأخرتين عن ميعادهما إذ ليس من

اللائق أن تجعلا السيدين « مارتينو » و « بيران » ينتظران .

ووصلنا بعد قليل إلى الحى الوطنى حيث يعيش السود كأسياد . كانت الشرفات والأفنية تزخر بهم كما كانوا يندفعون إلى داخل الحوانيت ويتنادون فى صوت صاخب. وكنت ترى الأطفال الصغار وهم يسيرون هنا وهناك عراة البطون ، وفتيات جميلات لونهن نحاسى يضعن فوق شعورهن « باروكة » مصنوعة من صوف أزرق اللون ، هى آخر صيحة فى مجال الأزياء ، ويتجولن مرتديات جلاليب حريرية ، ويضعن بين أسنانهن عصا بيضاء . إن البعض منهن خلاسيات حقيقيات ، غير متعصبات ، نشأن فى بيئة السود ، ويعشن كما يعيش أهل البلد الأصليين. وإنك لتراهن ينظرن إلى « نينى » و « مادو » بازدراء إذ تنكرتا لبيئتهما ولأصلهما . وعلى كل حال فإن كل شىء نسبى ... وكنت ترى أمام أبواب المنازل رجالا طاعنين فى السن يتحدثون فى تعقل وحكمة . وكانت النساء اللاتى يمررن أمامهن يثنين ركبهن تحية لهم ، فإن منظرهم يحث على تبجيلهم .

ها هى قرية « هونت » التى تكسوها الرمال والتى أقيمت عليها أكواخ و « عشش » كتلك التى ترى بـ « جت ندار » و« ندارتوت» .

وبمجرد أن لمحت الفتاتان « مارتينو » و « بيران » أخذتا تجريان وهما تصيحان فى بهجة وصخب وكأنهما عشيقتا الشابين منذ أمد طويل . واندفعتا نحو الشابين بدون أى تحشم ثم أخذتا تعتذران لهما فى أنفاس متقطعة وهما تديران عيونهما وتحركاتهما دون توقف ودون أن تتيحا لأحد منهما أن يسمع الآخر :

— أتعرفان ؟ لقد جرينا حتى لا نصل متأخرات ، والحقيقة أنكما قد رحلتما مبكرين جداً ، وبالطبع ...

— لقد اضطررنا إلى المرور على البيت لنأخذ معطفينا ...

وكذا وكذا وكذا ...

وقالت « نينى » : هيا ، لنبدأ حتى نتمكن من أن نلعب جولة كاملة . إنى أختار السيد « مارتينو » زميلا لى .

وهنا قال « بيران » : إنه اختيار موفق .

وخلعتا معطفيهما ذوى اللون البنى لتريحا جسديهما ونادت « مادو » صبياً صغيراً قائلة فى لغة الفولوف : هيه ! تعال هنا .

وسألتها « نينى » فى دهشة : أتتكلمين لغة الـ « فولوف » ؟

— وهل هذا ممكن ! لعلها العبارة الوحيدة التى أعرفها من هذه اللغة .

وجاء الصبى وسأل :

— أتطلبيننى لالتقاط الكرات ؟

— نعم ، وحاول أن تكون عاقلا مؤدباً .

وضحك الطفل ، فظهرت أسنانه البيضاء ، إنه سيكسب عشرة فرنكات على الأقل .

ووقف كل من « مارتينو » و « بيران » فى مكانهما ، ثم لحقت بهما الفتاتان ، وكانت « نينى » تحرك مضربها لتمرن رسغها .

هيا إلى اللعب ! ... وبدأوا جميعاً يلعبون .

وسمع صوت الكرة وهى ترتطم بالمضارب ، وأخذت تطير من اليمين إلى اليسار ، وتقع على الأرض ثم تقفز من جديد . ثم سمعت ضحكة انتصار لضربة قوية من الرسغ أطاحت بالكرة فى مهارة . أما « مادو » فقد كانت فى أغلب الأحيان تخطئ الهدف لرغبتها فى أن تسطع كلاعبة ممتازة . وقد وصل الأمر بالسيد « بيران» زميلها فى اللعب ــ وهو من أشد المتحمسين للعبة والذى يحب اللعب الجاد وتمشيه مع الأصول ــ إلى حد أنه أفصح عن أن الآنسة «دى ميكيه » تسيء اختيار الفرص المناسبة لإظهار رشاقة حركاتها .

أما « نينى » فقد كانت أكثر تعقلا وكانت تلعب بطريقة تتمشى مع قواعد اللعبة .

وبلغت الساعة السادسة مساء . إن الظلمة تخيم فى ذلك الوقت ، وزحفت هذه الظلمة التى تصحب الغروب على المنازل وأخذت تخيم على الملعب .

وقالت « نينى » فى أسف : لسوء الحظ أن حل الليل بهذه السرعة ، فإن الجولة لم تكن حاسمة كما كنت أعنى .

وسمعت أصوات تشدو فى صوت عال تنبعث من الجامع المجاور ، وأخـذت الأصوات تشتد حتى أصمت آذان اللاعبين . إنه صوت المؤذنين يدعو المؤمنـين إلى الصلاة .

وأطلقت كلا من « نينى » و « مادو » ضحكة عصبية . هل يستساغ أن يصيحوا هكذا بتلك الطريقة المنفرة !

وانتهى المؤذنون من ابتهالاتهم بقولهم : « الله أكبر ... الله أكبر ... » .

نعم الله أكبر ... وساد صمت عميق بعـد تلك الابتهالات ، وكاد الرجلان الأبيضان يرسمان على صدريهما علامة الصليب ، ففى تلك الدقيقة المهيبة نشعر بأن إله المسيحيين هو إله المسلمين.إنه نفس الإله الذى يوحى بأنغام الأرغون الرقيقة وبما يشدو به المؤذنون من فوق مآذنهم الشاهقة الارتفاع .

« الله أكبر ... »

وبدأ مؤذن آخر يتلو ابتهالاته وزاد الظـلام كثافة . وبدأت الأشباح السوداء تتوافد فى صفوف وتدلف إلى الجامع أمام أعين اللاعبين الأربعة .

يالعظمة الله ! كل شيء هنا يفصح عن تلك العظمة : جلال الساعة والسكون الشامل الذى يرفرف على الـكون ، وخشوع المؤمنين ...

لقد استردت الآنستان أنفاسها وارتديتا معطفيهما ذوى اللون البنى. وقبض الزنجى الصغـير خمسة عشر فرنـكا بالرغم من اعتراض « مادو » التى رأت أن ذلك « البقشيش » مبالغ فيه . ورحل الصبى والفرحة تمـلأ قلبه وهو يضم تلك الثروة الصغيرة التى هبطت عليه .

وقالت «نينى» : يجب أن نعود . لا شك فى أن جدتى قلقة لتغيبى حتى هذه الساعة.

وأردفت « مادو » لرغبتها فى ألا يبـدو أن ذويها لا يرقبون تصرفاتها كما هى الحال مع صديقتها .

— كان يسعدنى ألا تـكون لى إلا جدة يسهل أن أهدئ من ثورتها عندما

أتأخر فى العودة إلى البيت . ولكن هناك أبى ، والأمر معه يختلف كل الاختلاف ، فهو متمسك جداً بالتقاليد .

ويجيب « بيران » الذى لا يأبه لمثل هـــذه الاعتذارات التى تنم عن روح « بورجوازية » قائلا :

— إن الآنستين إنما تتمتعان بصفات عالية . لقد أعجبت بضرباتك يا آنسة « مادو » (وقد قالها بالإنجليزية : Miss) كما أعجبت بثباتك فى اللعب يا آنسة «نينى».

— ها هو يناديها بكلمة « Miss » . إن هذا لظريف حقاً . وأخذت الفتاتان تحتجان على هذا المديح كما كان يقتضى منهما الموقف :

— أوه ! لا شك أن السيد « بيران » يسخر ...

— إنى لا أسخر ، أؤكد لكما أنى لا أسخر .

وقال « مارتينو » : إنى أشاطر « بيران » رأيه .

إن كل ذلك جميل .

وزاد الظلام كثافة . وبدأت بعض الغرائز التى يسمونها بالغرائز البدائيـــة تتيقظ .

وليس هناك بين المديح الماهر الذى يجذب ويستهوى نفس الفتاة وبين أن تحيطها بدراعك إلا خطوة واحدة . وسار كل شاب يتأبط ذراع فتاته فى طيات الظلام المتآمر معهم . ماذا سيقول فى هذا الأب والجدة يا ترى ؟ إن الكلام فى مشكلة التقاليد شىء آخر .

وأخذوا يغنون ، فقد أسكرهم هواء الليل العليل وذلك الشعور بالحرية فى أن يسيروا هكذا كالعشاق دون أن يخشوا التعرض لمؤاخذة القانون بتهمة خدش الآداب العامة . ويتوقف بعض السود الذين يصادفونهم ، ويتفرسون فيهم لحظة ، ويهزون رءوسهم شفقة بهم ، ويمضون فى طريقهم .

إن الشارع فى تلك الساعة مزدحم كما كان منذ قليـل ، والحوانيت تزخر

بالمعروضات . وتفوح رائحة السعادة والبهجة فى حى « لودو » الزنجى الذى اشتهر بصخبه وبجمال فتياته . وإنك ترى هناك بعض شبان من السود يرتدون لباس السهرة واضعين على رءوسهم العمائم ومنتعلين « الشباشب » وهم يسيرون بحذاء الجدران ويكادون يلمسونها .

« سوف نسير كالعشاق ... »

لقد ظنت « نينى » و«مادو» أن الخلاسيات الأخريات ستشعرن بالغيرة لرؤيتهما فى صحبة شابين أبيضين من علية القوم يتمتعان بمراكز طيبة ، ولذا أخذتا تغنيان بصوت عال لتلفتا أنظار الجميع ، وتنشدان هذه الأغنية :

« سوف نسير كالعشاق ...

« ونحن نتهادى فوق الأمواج الزرقاء »

فيضيف الأبيضان : « مادو » ، « مادو » أو « نينى » ، « نينى »

إن كل ذلك جميل رائع ولكن حان وقت الفراق وعرض أحد الشابين أن يصحب « مادو » كما عرض الآخر أن يصحب « نينى » .

— أسعدت مساء ياسيد « بيران » ، أسعدت مساء يا « مادو » ، إلى الغد ، أليس كذلك ؟ وتلاقت الأيدى متصافحة فى انفعال . ثم افترقوا وسار كل شاب مع فتاته . وتوجه كل من « نينى » و « مارتينو » إلى اليمين ، وسلكا زقاقاً ضيقاً خالياً من الناس فى تلك الساعة .

يقع بيت « نينى » على ضفة فرع النهر الصغير بـ « سان لوى دى سنغال » ، وهو بيت متهاو تحيط به مجموعة من البيوت العتيقة تعلوها الشقوق وتتساند حتى لا تقع بجهد جهيد يفصح عن روح التضامن فيما بينها . ولم يطرأ على البيت أى تجديد منذ خمسين عاماً ، وهو رمادى اللون كسائر البيوت بـ« سان لوى» التى تفككت أوصالها وبدأت تتحلل فى شيخوخة متعالية . ويبدو لمن يرى ذلك البيت فى الليل أن لا حياة فيه . والأضواء ، التى تخفيها ستائر مصنوعة من القش المحلى ، باهتة لاتستطيع أن تنفذ خلال شيش النوافذ المغلق دواماً . وقد عجزت «نينى» — بالرغم مما تتمتع به من روح شابة ومن إصرار — عن أن تعيد الحياة إلى هذا الوكر المتحلل الملىء بالذكريات حيث تجد — تحت طبقة سميكة من الغبار — مقاعد وثيرة من طراز عام ١٨٠٠ ومناضد صغيرة مزينة بالقطيفة ومقاعد مشوهة ودواليب متهاوية .

وأراد « مارتينو » عندما وصلا إلى البيت أن يستأذن فى الانصراف ولكن « نينى » قالت مقترحة :

— إنى مصممة على أن أقدمك لجدتى ولخالتى .

واعتذر الرجل الأبيض ولكن « نينى » أصرت وقالت فى توسل :

— لا ترفض طلبى فأنا أجد فى ذلك سعادة كبرى ، ثم إن دخولك هو أفضل طريقة تمكننى من أن أشرح لهما سبب عودتى فى هذه الساعة المتأخرة .

واضطر « مارتينو » إلى أن يستجيب لطلبها .

وفتح الباب الكبير فى صرير عال ليفسح طريقا لدخول الصديقين . إن الفناء مظلم رطب . وهرول الخادم الأسود الصغير عند سماعه صرير الباب ليضىء ، وصعدا درجات السلم وهوسلم متهاو ، ثم عبرا شرفة مغطاة . كانت العجوزتان بالشرفة وهما ترتديان ملابس الحداد ، وكانتا تتحادثان فى صوت خفيض فى أمور تتعلق بشئون الكنيسة وبذكريات الماضى الجميلة .

— مساء الخير ياجدتى ، مساء الخير ياخالتى . أقدم لكما السيد « مارتينو » زميلى بالمكتب .

ووقفت المرأتان بالرغم من تقدمهما فى السن ومن آلام « الروماتيزم » . وتقدم منهما « مارتينو » وانحنى أمامهما وشد على يد كل منهما بأدب .

وقالت « هيلين » العجوز : لقد كلمتنا عنك « فرجينى » كثيراً ياسيدى ونحن سعيدات بالتعرف إليك . أما الخالة « هورتنس » فقد أمنت على هذا الكلام بهز رأسها وبالابتسامة الحلوة التى ارتسمت على ثغرها .

ودلفا من الشرفة إلى حجرة الاستقبال ، ولكن « مارتينو » أفصح عن رغبته فى الانسحاب فاستوقفته « نينى » قائلة له فى رقة .

— أرجوك أن تجلس ولو لحظة قصيرة .

ثم نادت على « باكارى » .

وهرول الصبى . وفى تلك الأثناء تركت الجدة والخالة الشرفة ولحقتا بالشابين فى حجرة الاستقبال .

واجتمع فى الحجرة خليط عجيب : صبي أسود صرف ، وعجوزتان خلاسيتان نصف سوداوين وفتاة أربعة أخماسها أبيض اللون ، ورجل أبيض تماماً . كانت تلك اللوحة جذابة فعلاً ومؤثرة للغاية .

وأدار « مارتينو » نظرة فى الحجرة ، ورأى عدداً لا يحصى من أشياء متعددة الألوان تسطع ونسقت بذوق وإن كانت ألوانها صارخة . كانت هناك قطع من أثاث بالية من القرن السابق وإن عنى بنظافتها بطريقة تدعو إلى الإعجاب : « بوفيه » وقطعة من الأثاث معدة لوضع الحلوى عليها تمثال من البرونز يمثل إحدى آلهة الجمال ، ومنضدة لها أجنحة صغيرة تحمل عدداً من الأشياء الدقيقة اللامعة وضعت عليها صورة لـ « نيني » وفى ركن من الحجرة رأى معزفاً ، وهو معزف الأسرة ، يرجع العهد به — كما تقول الجدة — إلى خمسين سنة ، وأريكة من اللون الأحمر الصارخ ، عريضة وعميقة كالقبر تشغل جزءا من حجرة الاستقبال محصوراً بين بابين ينفتحان على غرف النوم . ويعلو الأريكة شيء يشبه « البلدكان » تزينه حبات تشبه التفاح ذهبية اللون مثبت بها ستار من القطيفة له ثنايا كثيرة متوازية من لون الأريكة نفسه . وكانت هناك على الأرض الخشبية اللامعة جلود غير مشغولة ، ووسائد محشوة لونها أحمر وأسود ، وأربع « شلت » من ألوان مختلفة ، كما رأى الشاب بين المقاعد الوثيرة ، مناضد صغيرة معدة لوضع كئوس الشراب ذات طراز حديث فرشت عليها مفارش صغيرة عليها رسوم عربية . وكانت كل تلك الأشياء تسطع فى ضوء الكهرباء الذى ينبعث من إحدى الثريات . أما على الجدران فقد علقت لوحات تمثل مناظر طبيعية أو مشاهد من حياة البورجوازية فى إطارات مذهبة . وكنت ترى هنا وهناك ، فى أفضل الأماكن ، صوراً تمثل أفراد العائلة كبرت لتعرض كشهود وتفصح عن مجد قديم .

ولما رأى « مارتينو » أن « نيني » تتأهب لأن تقدم له شراباً ، نهض فجأة متأهباً للخروج ولكن الخلاسية استاءت من تلك الحركة وقالت :

— لا ، أرجوك ...

وانضمت إليها الجدة والخالة . ولكن لم تجد محاولتهن فمارتينو على عجلة من أمره .

وقال :

— إنى أعتذر ، فأنا مرتبط بتناول الطعام مع آخرين ، وأخشى أن أضطرهم إلى انتظارى .

ونظر إلى ساعته بطرف عينه ثم تقدم من العجوزين اللتين لم تجدا بدا من السماح له بالرحيل .

وخرج « مارتينو » وصحبته « نينى » حتى الشارع ولم تكف عن الاحتجاج والشكوى من تصرفه هذا .

— لم يكن هذا التصرف رقيقا منك ، أتعرف ... ؟

وبقيا لحظة يتكلمان فى أشياء تافهة ، ثم ابتعد الرجل الأبيض عن « نينى » التى أرسلت إليه بيدها قبلة فى الظلام .

وفى ذلك المساء لم تتكلم النساء الثلاث إلا عن زيارة « مارتينو » ، ويبدو على « نينى » أنها قد أحرزت نصراً مبيناً . لعل الجدة والخالة لم توقعا — فى شبابهما الصاخب الزاخر بالحماقات — إلى اجتذاب رجل أبيض فى مثل كمال هذا الشاب وأدبه ومركزه .

وأسرع « مارتينو » فى العودة إلى منزله لاعتقاده أن صديقه « بيران » ينتظره لتناول العشاء ، وأخذ يفكر أثناء سيره فى السرعة التى توالت بها الأحداث منذ شروق الشمس . كان حتى الأمس يعتبر « نينى » هذه مجرد موظفة صغيرة على الآلة الكاتبة صاخبة وغريبة الأطوار يلذ له أن يتلهى بما يراه من تصرفاتها وعباراتها المتناقضة ومزاجها المتقلب . وهاهو اليوم قد لعب معها ، وهاهو القدر قد قاده إلى بيتها . وشعر « مارتينو » بالضيق لتصوره أنه ربما قد تصرف بدون ترو ، فقد كان يسود مدينة « سان لوى » التعصب سواء من ناحية الأوربيين أو من ناحية الزنوج . وانتهى به التفكير على كل حال إلى إقناع نفسه بفكرة مؤداها أن من كان مثله أعزب ، متغرباً عن « فرنسا الأم » ، تعوزه فى ذلك البلد كل وسائل التسلية والترفيه ، لمن حقه أن يتنازل قليلا عن هيبته فى سبيل الحصول على بعض السعادة .

وكانت تلك الأفكار تملأ رأسه عندما وصل إلى البيت الصغير المتواضع الذى

كان يشغله مع صديقه « بيران » والذى يقع بالقرب من فرع النهر الكبير . وأسعد صديقه الذى كان ينتظره أن يلقاه ، وقال له :

— ها أنت قد تأخرت كثيراً . ماذا فعلت مع « نينى » الجميلة ؟ هل قضيت وقتا ممتعاً ؟ .

— أتظن ذلك ! إن ذلك الوقت كان كالسخرة بالنسبة إلى . آه ! شهيتى مفتوحة للأكل جدا هذا المساء! لعل ذلك نتيجة لإفراطنا فى اللعب. هل لنا أن نتناول طعامنا ؟

وجلسا إلى المائدة وتقدم منهما طاهيهما الأسود ليخدمهما وصاح « بيران » وهو يضع بعض الحساء فى صحفته :

— يالها من مغامرة !

وأجابه « مارتينو » : نعم يالها من مغامرة فعلا ! وبدأ كل منهما يقص على الآخر مغامرته .

— ولكن لم بقيت كل تلك المدة مع « نينى » الجميلة ؟

— لقد اضطررت إلى أن أصحبها حتى بيتها وأن أقاسى من تصميمها على أن تقدمنى لذويها ، ومن تلك الزيارة التى تمت فى جو عجيب كل العجب .

وشرع « مارتينو » يقص على صديقه كيف حدث كل هذا . وأخذ يرسم له صورة العجوزين بملابس الحداد التى ترتديانها ، وتكلم عن حجرة الاستقبال التى تنم الذوق الذى رتبت به عن ذلك المزيج الوسط بين طريقة تذوق الرجل الأبيض للجمال والطريقة التى يتذوقه بها الرجل الأسود ، فمن ناحية نجد حب النظام وكل ماهو جميل والاهتمام بالنظافة ، ومن ناحية أخرى نحس الميل إلى الرفاهية ، وإلى الألوان ، وإلى كل ما يبهر النظر .

ثم جاء دور « بيران » :

— أما عنى فلم تشرفنى « مادو » بتقديمى إلى ذويها . لقد تحاشت الإصرار على تلك الدعوة ، ولذا فقد أتاحت لى فرصة العودة إلى البيت قبلك .

— ربما كانت « مادو » على حق فى خوفها من معاملة والدها وتشدده . أما

« نيني » فقد بالغت فى الأمر ويبدوأن بياضها يشعرهابتفوق كبير على جدتها وخالتها، ويخيل إلى أنهما تخشيان أن توجها إليها أى لوم .

وجاء الطاهى حاملا صحفة السمك .

وأردف « بيران » :

— إنها مغامرة جميلة على أى حال . لقد قطعنا شوطاً كبيراً مع الخلاسيات . لقد تم الأمر كما يحدث فى السينما حيث تتلاحق الأحداث والخاتمة .

وسأل « مارتينو » فى قلق :

— وعلى فكرة ، مارأيك فى تصرفنا ؟ أقد أحسننا أم أسأنا التصرف ؟ كيف سيحكم علينا الأوربيون هنا ؟ إن ذلك يضايقنى ، أتعرف ؟

وأجاب « بيران » محتداً :

— لست أبالى بالرأى العام ، بل أنا أسخر منه . كل منا يجرى وراء هنائه .

— هذا رأيى أنا أيضا ولكن ماذا تفعل إزاء هيبة جنسك ؟ يبدو أنك تعالج الأمر باستخفاف .

— سوف نجد طريقة للتوفيق بين تلك الهيبة وبين متعتنا . ثم قدم الطاهى صحفة اللحم ومن بعدها صحفة الخضروات .

وقال « مارتينو » :

— يمكنك أن ترحل يا « ماجات » .

إن الشابين الأبيضين لايجهلان أن طاهيهما ـ شأنه كشأن كل شاب يعمل وفى وسعه أن ينفق — له صديقة ، « فاتو » الجميلة ، وهى فتاة خجول ملتهبة الحس تنتظره كل ليلة فى مكان ما بحى « سيندونيه » أوبحى « لودو » أو « ندار — توت » ، وهما لذلك لا يحتجزانه أبداً بعد الثامنة مساء .

واستأنفا الحديث بعد رحيل « ماجات » ، فى نفس الموضوع ، وإن تناول ناحية جديدة .

— اعترف يا « بيران » بأنك حسن الحظ فـ « مادو » تبدو لى فتاة شهية لها

جاذبية تدفعنى إلى أن أدافع عنها بحرارة ، فإن مؤخرتها وصدرها ... ثم هى فوق ذلك نشيطة دائبة الحركة ، ويبدو أنها لن تتأخرعن تقديم نفسها .

— هيه ! يجب ألا تشكو ياصديقى فقد كان من حظك أن وقعت على فتاة تكاد تكون بيضاء .

— وما قيمة هذا ! بيضاء ... لاقيمة للبياض فى هذا المجال . إن الزنجية زنجية على أى حال ولا يمكن أن تجعل منها امرأة بيضاء ... والمرء إن أراد المغازلة فضل أن يكون من نصيبه امرأة ممشوقة حسنة ... ألم تلاحظ ، فوق ذلك ، أنه بالرغم مما يبدو على « نينى » من قوة بدنية ، فإنها توحى بأنها هشة وأنها تشعر بالضيق ؟

— يمكننا أن نقول مثل هذا القول عن كل الخلاسيات اللاتى لم تصطبغ دماؤهن بلون الدم الأسود القاتم .

* * *

وانتهى النساء الثلاث فى بيت « نينى » من تناول العشاء ، وحمل الخادم الصغير « بكارى » أدوات المائدة . وتحاملت الجدة والخالة واتجهتا إلى غرفة نومهما وهما تئنان من الشيخوخة التى أحنت ظهريهما . أما « نينى » فقد ذهبت إلى حجرة الاستقبال وجلست على الأريكة وسرحت فى الخيال وأخذت تنظر أمامها بنظرات زائغة . كانت تحيط بها ، وهى على الأريكة ، كتب تحمل عناوين ملتهبة مفعمة بالمعانى من بينها : « ليلتان من النشوة » و « عشيق لليلة واحدة » و « آلهة الشعر الجولية » تلك الروايات التى يتنافس كتابها : « مارو » و « رونسار » و « فرلين » فى المغالاة فى الإباحية والسخرية بكل شىء . إن « نينى » مستغرقة فى الأحلام لا فى القراءة وكانت ترتسم على محياها تارة ابتسامة خاطفة وتارة أخرى سمات الجد عندما يلمس الشك بجناحيه روحها القلقة .

لقد ذاقت « نينى » من قبل معنى الشك إذ علمتها تجاربها السابقة أن لاشىء مؤكد فى عالم الحب .

كم كنا نود أن نقنع أنفسنا بأننا نحب حباً صادقاً لأول مرة ، أليس كذلك يا « نينى » ؟ ولكن وا أسفاه ! فهناك ماض ماثل أمامنا يبدد ذلك السراب . كنت تبلغين الخامسة عشرة عندما أحببت جاويشاً . آه ! أما ذلك الشاب فقد أحببته حباً حقيقياً . كنت

خارجة لتوك من الدير علاً رأسك أفكار مؤمنة ، وكنت تجهلين كل شيء عن حاجات الجسد وعن الدنس ، وقد تمكن الجاويش الصغير من غوايتك ثم رحل ولم يعد .

ثم بلغت الثانية والعشرين من عمرك ولم يعد فى استطاعتك أن تحيى ، فقد تراكمت ألوان من خيبة الأمل فوق قلبك . وليس الذنب ذنبك فى حقيقة الأمر إن كنت لم تكافئى على إخلاصك بعلاقة جادة تحقق آمالك .

وفتحت « نينى » صفحات كتاب « آلهة الشعر الجولية » وشرعت تقرأ . وبدأت النشوة تتسرب إلى كيانها كنهر أغرق ذكرياتها فى النسيان . وتفتحت عيناها وأخذتا تلمعان كما أخذ جفناها يرتعشان فى عصبية ظاهرة ، وشعر كيانها بخدر لذيذ . ونهضت ومدت ذراعيها وتثاءبت طويلا ، طويلا جداً ، ثم توجهت إلى غرفة نومها التى نسقت على نمط حجرة استقبال صغيرة بما فيها من وسائد لينة ملقاة على الأرضية الخشبية . وتذكرت شيئاً ولذا عادت أدراجها إلى حجرة الاستقبال والتقطت بعض الكتب ، ثم فتحت خوان الخمور وأخرجت زجاجة من نبيذ الـ « بورتو » ، وأفرغت فى جوفها ثلاث كئوس صغيرة الواحدة تلو الأخرى . واستحوذ على كيانها إحساس بحنان لا أول له ولا آخر . وشعرت برغبات الجسد ، ولكن للأسف لم يكن هناك رفيق يمكن أن يستجيب لعروضها السخية . إن كل ما يحيطها : الحجرة والأريكة واللوحات ، قد أصبح يتحرك فى ذلك الإطار الشاعرى . واستلقت برفق على الأريكة وأغلقت عينيها وأبعدت الكتاب وأخذت تسترجع بخيالها مشاهد ولحظات من الحب عاشتها من قبل واستمتعت فيها إلى أقصى حد .

وفى اليوم التالى ، بعد تلك الحفلة الماجنة التى أقامتها لنفسها ، بعيداً عن أعين الفضوليين ، وصلت « نينى » إلى المكتب شاحبة الوجه تحيط بعينها هالة سوداء .

وقال « مارتينو » الذى عرف بحكم إقامته بباريس تأثير تلك الليالى الماجنة ، ولم يكن فى مقدوره أن يتجاهل معنى علامات الإرهاق التى كانت ترتسم على الخلاسية :

— يبدو أنك متعبة جداً هذا الصباح يا آنسة « نينى » .

— نعم إنى متعبة جداً هـــذا الصباح . لم أتخلص من تلك العادة القبيحة — وأعنى بها القراءة طوال الليل — التى تسبب لى أرقاً مؤلماً .

— إن هذا الشيء خطير يا آنسة ، فأنت تقضين هكذا على صحتك . إن السهر الطويل يؤثر في جمال الفتيات .

— لا تكف جدتى عن تكرار مثل هذا القول ، ولكن الأمر أقوى منى . فإن حب الدراسة يسيطر على حياتى . لقد تصوروا إمكان القضاء على هذه النزعة بإخراجى من المدرسة وأنا بالسنة الثانية ، ولكن تصرفهم هذا ضاعف من حماستى . إن حبى للكتب يفوق حبى للرجال .

وقد جعلت « نينى » عبارتها هذه تقترن بابتسامة عريضة وهى تنظر إلى « مارتينو » .

وسألها « بيران » :

— ولكن أى نوع من الكتب تقرئين ؟ فهناك الحسن والردىء ...

— إنى أقرأ كل شىء . ولكن ما يستهوينى أكثر من غيره هو الكتب التى ظهرت فى بداية العصر الكلاسيكى ، وبعض مؤلفات « بوالو »[1] ولا سيما « فن الشعر » .

أجاب « مارتينو » ساخراً وهو لا يزال منكباً على أوراقه :

— إنه أفضل ما يمكن أن تقرأه قبل النوم ...

— إنى أحب كذلك « راسين » وأنا أحفظ له عن ظهر قلب مائتى بيت شعر أو ثلاثمائة .

أما « كورنى » فهو يبدو لى على العكس جامداً بعدرسته تلك التى تنادى بسمو النفس .

— وما رأيك فى « فولتير » وفى « سانت آمان » ؟ أيعجبانك ؟

— إنى شديدة الإعجاب بهما وقراءتهما تلذ لى .

— وهل قرأت « دانتى » و « ماكيافيلى » ؟

— نعم « دانتى » ذلك الثائر بحزب الـ « جيروندان » . يا لبلاغته ! .

---

(١) من أشهر شعراء الكلاسيكية وهو الذى استخلص مبادئ هذه المدرسة من أعمال معاصريه من الكتاب والشعراء ودونها فى كتاباته ولا سيما فى « فن الشعر » .

— و « ماكيافيلي » ؟

— وهو بدوره فظيع فإن له فناً عجيباً ولوناً خاصاً به .

— أرى يا آنستى أنك تعرفين الكتاب الكلاسيك كل المعرفة ولكنى أدهش لتفضيلك إياهم على كتاب المدرسة الرومانسية الذين تغنـوا مع ذلك بالفضيلة والطبيعة والحب .

— أوه ! ولكنى أحب الرومانتيكيين كذلك ، بل إنى مولعة بهم .

— آه !

— نعم ، لقد أبكانى « مونتسكيو » أكثر من مرة[1] . يا لشعره الغنائى . إن أكثر ما يعجبنى فيه تغنيه فى شعره بالحب[2] .

وفى تلك اللحظة سمع نقر على الباب وقال « مارتينو » :

— ادخل .

ودخل رجل أسود أنيق حسن الهندام . وقال بعـد أن انحنى انحناءة خفيفة : إنى « ندياى ماتار » بالأشغال العامة . لقد جئت يا سيدى لأقدم لك خطة التنفيذ التى أعددناها على ضوء مشروع الأعمال الذى أرسلته إلينا فى الأسبوع الماضى .

ونهض « مارتينو » وشد على يد الرجل ، وطلب منه أن يجلس ، ثم شرع الرجلان يفحصان الخطة . ونظرت « نينى » إلى كل هذا باستياء ثم أشارت إلى « بيران » إشارة لها مغزى وأخذت تضحك سراً ، ثم سحبت آلتها الكاتبة إليها وبدأت تكتب عليها بعصبية .

وفتح باب فى صدر الحجرة بعنف ، وظهر المدير ، وكان محتقن الوجه وقال :

— لقد آن الوقت لتبدئى فى العمل يا آنسة « ميرل » . ها أنت هنا منذ نصف

---

(١) كلامها عن الكلاسيكية والرومانسية ينم عن جهل تام فمثلا نجدها هنا تذكر اسم « مونتسكيو » على أنه من الكتاب الرومانسيين بينما هو ينتمى — كما نعرف — إلى القرن الثامن عشر فضلا عن أنه لم يكن شاعراً بل كاتباً ليس فى إنتاجه ما يبكى .

(٢) « مونتسكيو » كما نعلم ليس بالشاعر وإنما هو كاتب فيلسوف .

ساعة ولم تفعلى شيئاً إلا الثرثرة . وأنا أذكرك أننا لم نعينك هنا للتسلية والحديث . وتذكرى جيداً أن من السهل علينا أن نجد حلا لهذا ، وأرجو ألا تنسى هذا .

إن المدير ، الذى دأب على معاملة الخلاسية بقسوة ، لا يفوت أية فرصة ليؤنبها على أخطائها ، وهو فى حديثه إليها يتعمد أن تكون لهجته مشبعة بالازدراء .

وشعرت « نينى » بالخجل إذ أنبها رئيسها فى حضرة رجل أسود ونظرت إلى « بيران » بطريقة تدعو إلى الرثاء وعبر وجهها عن معنى غامض ومضحك معاً كمن يريد أن يضحك ويبكى فى نفس الوقت .

وانتهى السيد المبعوث من « الأشغال العامة » من التحدث مع الرجل الأبيض، فقد اتفقا على جميع النقاط وعلى خطة التنفيذ التى تتمشى تماماً مع المشروع الذى أعده مكتب « المشاريع النهرية » .

وشد الرجل الأسود على يد « مارتينو » ، وخرج بعد أن حيا الآخرين بأدب جم إذ قال : « إلى اللقاء يا آنسة ، إلى اللقاء يا سيدى » .

وبمجرد أن خرج كفت الخلاسية عن الدق على آلتها وأسرعت تقول رأيها فى الرجل الأسود الذى يدعى أنه محاسب الأشغال العامة ، وقالت رأيها هذا بسرعة خشية أن يظهر المدير من جديد فيوجه إليها ألفاظاً جارحة وقالت :

— هل رأيتما كيف أراد ذلك الأسود أن يبدو ذا أهمية ، وبأية لهجة رسمية قدم نفسه ؟ إنهم جميعاً سواء ، فبمجرد أن يلموا ببعض الكلمات الفرنسية يملؤهم الغرور بطريقة لا تطاق .

وأجابها « مارتينو » بلهجة يريد أن يخفف بها من حدة هذه الألفاظ ، بقوله:

— ولكن يا آنسة ، لا تكونى قاسية فى حكمك هكذا . يبدو لى أن هذا الأسود مهذب ولا غبار على تصرفه .

— آه ! مهذب ... أتظن ذلك ؟ ليس عند هؤلاء الناس إلا الطلاء فقط . ليست لديهم أية تربية . وسوف أقص عليكما قصة صغيرة ستقنعكما بأنى على صواب .

وفى لمح البصر شرعت تقص عليهما قصتها الصغيرة .

قالت إنها كانت فى حفل ساهر أقيم بمقر المجلس العام.. فتقدم منها «زنجى» وطلب إليها أن تراقصه ، وكان « زنجياً » أنيقاً يرتدى بذلة السهرة ذات القلابات الحريرية وقد رفضت مراقصته بإباء وشمم ولشد ما كانت دهشتها فى اليوم التالى عندما لمحت تمس هذا الزنجى يرتدى ملابس ممزقة قذرة وكأنه حداد يعمل فى إحدى «الورش».

وأضافت « نينى » : أيمكن أن تقنعنى بعد ذلك بأنهم حسنو التربية ؟ وهـز « مارتينو » رأسه وانكب من جديد على أوراقه . لقد بدأت هذه الخلاسية تشعره باشمئزاز شديد .

لقـد نسيت «نينى» أن تذكر أنها عرفت — فيمن عرفت من العشاق — رجلا أبيض يعمل فى ميكانيكة الكهرباء كثيراً ما كان يأتى ليصحبها مرتديا « عفريتة » قذرة لا تتسم بأية أناقة . وهى تجهل فوق ذلك أن ارتداء زى العمل القذر بعد ارتداء لباس السهرة الأنيق ليست له أية علاقة بحسن التربية .

وسألها « بيران » الذى دأب على إغاظة الخلاسية :

— أخبرينى يا آنسة ، هل تقبلين رجلا أسود زوجاً لك إذا ما طلب يدك ؟

وأجابته : إنك تهيننى يا سيد « بيران » . أيمكن أن أقبل أنا رجلا زنجياً ؟

ثم استأنفت دقها على الآلة الكاتبة حتى لا تلفت نظر الرئيس إليها . وقال « بيران » ببساطة :

— إنك مخطئة فى هذا ، فأنا أعرف كثيرين من السود يتمتعون بالكثير من الفضائل ، وهم على درجة عالية من التعليم ، ويتمتعون بمراكز طيبة : من أطباء إلى محامين وضباط ...

— أنا لا أنكر ذلك ولكن إذا ما تعمقت فى دراسة أخلاقهم وجدت فيهم أثراً عميقاً ورثوه عن أجـدادهم من شأنه أن يعوقهم دائماً عن التجاوب مع ما تقتضيه ظروف الحضارة .

— ومع ذلك فهناك عدد منهم قد تزوجوا نساء من البيض ، وقد أثبتت التجربة

أنهم يتمتعون بنفس صفات الرجل الأبيض . ولكن ما رأيك فى تلك الزيجات المختلطة ؟

— أعتقد أن تلك الزيجات سخيفة ، بل هى منفرة .

— أترين هذا حقاً ؟

— نعم إنها سخيفة ومنفرة . وأنا لا أخفى عليك أنى فى كل مرة صادفت فيها رجلا أسود متزوجاً من امرأة بيضاء شعرت بالاشمئزاز .

وهنا قال « مارتينو » موضحاً :

— فعلا ، هناك أشياء تذكرنا بأصلنا — أو هى تتعلق به — تسبب لنا رؤياها شعوراً بالضيق .

ولم تفهم « نينى » معنى عبارته وأضافت :

— نعم ، لاشك فى هذا ، وفى رأيى أنه يجب أن يتزوج البيض من أمثالهم من البيض والسود من أمثالهم من السود .

وهنا قال « بيران » :

— أنت على حق يا آنسة . يجب ألا يكون هناك من يسمون بـ « القهوة باللبن » .

ولم تخدش هذه العبارة « نينى » التى نسيت أنها خلاسية . وأدارت آلتها الكاتبة وانكبت على العمل من جديد .

إن « نينى » على أى حال من هذه الفصيلة من البشر المسماة بـ « قهوة باللبن » وإن كان لونها يميل إلى البياض ، أو قل إن اللبن فى حالتها قد امتص لون القهوة بشكل واضح ، أو هو قد استوعبه إذ أرادت الطبيعة بمعجزاتها أن تكون « نينى » شقراء ، وأن تكون عيناها زرقاوين ، وهى علامات واضحة على انتمائها إلى أهل الشمال ، ذلك الجنس الممتاز . ويحلو لها أن تؤكد هذه الحقيقة فى كل مجال ، فإن عينيها واسم عائلتها تضعانها فى مكان ما على خريطة العالم ربما كان أقرب إلى القطب منه إلى خط الاستواء .

ومع ذلك فهناك ثلاثة أشياء تربطها بالرغم منها بأرض إفريقيا التى تتنكر لها

بكل قواها: أولا أنفها الأفطس ذو الفتحات العريضة ، ثم شفتاها الغليظتان الشرهتان ، وأخيراً طريقتها فى السير المتهادية الرشيقة التى تحاول أن تخفيها دائماً بشد قامتها بصورة مفتعلة .

* * *

إن مدينة « سان لوى » هى عاصمة الخلاسيات ، هى عالمهن المحدود الذى يرين من خلاله فرنسا الجميلة الرقيقة ، ذلك البلد الجميل الذى يفتقدنه ، أو هو وطنهم المفقود .

وعنصر الخلاسيين بمدينة « سان لوى » يتميز بوضوح عن عنصر الزنوج ، لكأنهم مستوطنون من جنس أرستقراطى أخنى عليه الدهر ، فلقد دأبوا على التعالى على الزنوج الذين يحيطون بهم .

بل هناك أيضاً بين الخلاسيين أنفسهم فواصل ظاهرة . إن مايميز بين البعض والبعض الآخر ليس فقط الألقاب العريقة ، سواء كانت صحيحة أو مزيفة ، ولكن هناك أيضاً — وهذا هو الأهم — لون بشرتهم واسم العائلة الذى يتباهى به صاحبه إذ يحمله عن جد أبيض قد يكون من رجال القضاء أو ضابطاً أو تاجراً كبيراً .

ولكن هناك رغبة لدى الخلاسيات فى أن يميزن بوضوح بين ثلاث طبقات : طبقة الخلاسيات من الفئة الأولى وبشرتهن تكاد تكون بيضاء ، وهن يرفضن أن يعتبرن أنفسهن من المخلطات ، وهمهن الوحيد وشاغلهن الشاغل هو أن يتشبهن بنساء فرنسا ، ولذا تراهن يعنين ببيوتهن فى مغالاة ويوفرن فيها كل أسباب الراحة والمظهر اللائق ، بل إنهن فى كثير من الأحيان يعتـــبرن أنفسهن من بنات الأسر الكبيرة ويتصورن أنهن أرقى من النساء البيض اللاتى يهجرن أوطانهن .

أما الخلاسيات من الفئة الثانية فهن أكثر سمرة ، وإن كن مدعيات كإخوتهن من الفئة الأولى . وهن يشعرن أن نساء تلك الفئة يتعالين عليهن وأن هذا التعالى لا يبرره إلا فرق طفيف فى لون البشرة ، ولذا تراهن يشعرن نحو تلك الفئـــة بكراهية شديدة ، ويتحين الفرص ليعبرن عن هذه الكراهية .

والخلاسيات من الفئتين الأولى والثانية يشعرن بنفس الاحتقار نحو السود أو الخلاسيين . ومن بين هؤلاء الخلاسيين نجد مع ذلك أشخاصاً لا يقلون عنهن

بياضاً ، أخوة لهن أو من أبناء عمومتهن،وكثيراً مايكونون مثقفين ويشغلون مراكز مرموقة ولـكن هاتين الفئتين من الخلاسيات لا تجدان فى هذا النوع من الرجال ما يمكن أن يرضى غرورها الطائش . إن مايلزم الواحدة منهن هو رجل أبيض ولا شيء سواه .

أما خلاسيات الفئة الثالثة فهن يمثلن أدنى طبقة من الخلاسيات . إن مركز آبائهن الاجتماعى ولون بشرتهن القاتم لا يتناسبان مع نمط الحياة الأوربية الحقيقية، ولذا تراهن يعشن بين هذين المجتمعين المنفصلين أو يمزجن بين هاتين النظرتين المختلفتين للحياة اللتين يتميز بهما مجتمع البيض ومجتمع السود .

وعلى هامش تلك الفئات الثلاث يجب أن نذكر بعض الخلاسيات من شتى الألوان ، خلاسيات خرجن عن القطيع ، يوشمن شفاههن السفلى بنقطة سوداء كما تفعل الزنجيات ، ويقصصن شعورهن على طريقة أهل البلاد الأصليين ويمضغن ـ وهن يسرن فى الشارع ـ السواك بكل تفاخر ، وهو عود من نبات لين يجعل الأسنان ناصعة البياض .

إنه مشهد عجيب جذاب يستهويك بما فيه من أجناس ومن ألوان مختلفة للبشرة ومن أشكال من التزين ومن أنواع مختلفة من الجاذبية . إنه عالم عجيب تسوده ألوان من التعصب والتنافس الخفى ومن الأحقاد التى ليس هناك ما يبررها .

إن مصير الخلاسيات فى الفئتين الأولى والثانية جدير بأن يثير اهتمام العالم من الوجهة النفسية . لقد شبت الخلاسيات بفـكرة أن زنوج « سان لوى » كانوا فيما سبق من الزمان عبيداً وهن يرين أنه ، بالرغم من إلغاء الرق ومن الجهود التى بذلت فى سبيل تحقيق الديمقراطية والمساواة بين الأجناس والطبقات ، لا يمكنهن أن يتنازلن إلى حد اعتبار السود فى نفس مرتبتهن . وهناك الجدات والخالات المسنات اللاتى يمثلن العقلية القديمة ، يحافظن على التقاليد البالية ويدافعن عنها . إنهن متعصبات بشكل أعمى لـكل مايتعلق بالأمور الدينية والاجتماعية البالية ، وهن مصرات على أن ينقذن حفيداتهن من أمثال « نينى » و « مادو » ومن كن فى مثل حالتهن ، إلى شاطىء الأمان .

ولذا فإن خلاسيات « سان لوى » يعتبرن نشازاً فى ذلك المجتمع الذى يعيش فيه

البيض والسود حياة طبيعية ، دون تصادم أو ضوضاء ، كل فى الإطار الذى يتناسب مع تقاليده .

إن معرفتهم بالحياة البورجوازية ضئيلة ، أى قل بما يسمى بنمط الحياة الراقية؛ ولكنهن متمسكات بهذا القليل ولا يفرطن فيه ، وكل هفوة تصدر عن رجل أسود تثيرهن فيصرخن من شدة اشمئزازهن .

وهناك عبارة تعتز بها كل الخلاسيات ويقحمنها فى أحاديثهن ، ألا وهى : « إن كذا مظهره أنيق » فيقلن مثلا :

— إن مظهر هذه القبعة أنيق .. أوتلك الصديرية مظهرها أنيق .. أو هذا المعطف مظهره أنيق ..

إنهن فى صراع دائم مع شمس وطبيعة بلدهن التى تدفع بالمرء إلى الشعور بالسأم والحزن أكثر مما تدفعه إلى الشعور بالبهجة وإلى السير بنشاط . ولذا فهناك ظاهرة لافتة للنظر وهى أنهن يتعمدن دائماً التظاهر بالنشاط وهو نشاط مفتعل ملحوظ .

ومما يثير الدهشة خفة حركاتهن ودأبهن على الحركة فى ذلك الإطار الإفريقى الذى يحث على التراخى .

وقلة منهن زرن باريس ولكنهن جميعاً يتغنين بسحرحى « الشانزليزيه » وجمال الـ « تروكاديرو » وعجائب الـ « تويلرى » . وعندما يسكرهن حنينهن إليها يتكلمن عن قرب عودتهن إلى فرنسا .

وحذار أن تسألهن أن يتكلمن لغة الـ « أولوف » (لغة البلاد الأصلية ولغة أجدادهن الزنوج) فهن لايتكلمن إلا الفرنسية ــ وربما تحدثن بالإنجليزية ــ لأن اللغة الإنجليزية لغة يتكلمها المتمدينون ولأن لها « مظهراً أنيقاً » . وهن على أى حال يتكلمن الفرنسية بسرعة وحماسة ويضفين عليها لوناً تحسدهن عليه أكثر الباريسيات تعصباً ، وهن متعطشات لكل العبارات والمحسنات اللفظية الجديدة التى تصاغ بباريس ، ينطقن بها بلثغة من بين شفاههن الغليظة ، ولكنهن يضفن إليها بالرغم منهن بعض الرخامة تفصح عن حرارة الزنوج وذلك العطر الذى يفوح من لغتهم الأصلية .

وإن ماعجزت عنه الطبيعة لتعوضه المساحيق . يالسحر المساحيق ويا لقدرتها على التبييض ! الخلاسيات يسرفن فى طلاء وجوههن وأعناقهن بالمساحيق ، تلك التى ربما استعملتها الأوربيات ليزدن من بهاء بياضهن الطبيعى .

وهن يقمن فريسة لمعاملة مهينة من قبل الأوربيين الذين يتشبهن بهم ، فإن هؤلاء الأوربيين يعتبرونهن فى أغلب الأحيان مخلوقات مسلية ترفه عنهم ، مخلوقات لاتنتمى إلى أى بيئة - لا زنجية ولا أوربية — ولذا لا تستأهل احترامهم . كل شىء فى نظرهن ظريف إذا ماصدر عن الرجل الأبيض : كالتظاهر بالصفع أو الركل — إن بقى ذلك فى حيز التظاهر لا التنفيذ — نعم كل هذا ظريف ، لون من ألوان الدعابة . وتلك هى الطريقة التى يفصح بها الرجل الأبيض عن بهجته وعن استلطافه لتلك التى يحبها ، لتلك التى يألف عشرتها .

إن الخلاسيات يقرقرن كاليمام ليعبرن عن سعادتهن ونشوتهن إزاء تلك الدعابات السخيفة . أما نظرة الرجل الزنجى الحزينة المشبعة بالحنان فهى فى نظرهن تعبير وقح عن حيوانيته .

إن « بيران » أقل عمقاً فى تفكيره وأقل شروداً من صديقه وزميله « مارتينو » . وهو لا يأخذ أبداً أحاديث « نينى » التافهة وحركاتها التمثيلية مأخذ الجد ، ويحلو له أن يغيظها وأن يدفعها إلى أن تتكلم كالببغاء وإلى قول حماقات أو سخافات تثير الضحك والسخرية .

* * *

توالت الأشهر : فبراير ومارس وإبريل ... مرت الأيام تلو الأيام دون أن يطرأ أى جديد على حياة الخلاسية « نينى » . إن نفس القلق يستحوذ عليها فيحدوبها إلى إرهاق أعصابها وعضلاتها ، واليأس الذى استولى عليها إنما يدفعها — عندما تكون وحيدة أثناء الليل — إلى الاستمرار فى تلك الحفلات الماجنة التى تقيمها ، والتى تزدوج فيها نفسها لكى تحصل على مايقدمه لها خيالها الخصب من لذات .

ولم يطرأ جديد كذلك على « المقاولات النهرية » فقد بقى الرئيس على ماهو عليه من حدة الطبع والخشونة ، لا يتهاون فيما يتعلق بنشاط موظفيه وإنتاجهم . لم يتغير

أى شىء ولم يطرأ أى جديد . ومن حين إلى حين يحضر السيد الأسود الذى يعمل « بالأشغال العامة » ليناقش مع « مارتينو » خطة من خطط التنفيذ . وفى كل مرة لا تضن « نينى » ببعض التعليقات الصاخبة بعد خروجه .

لقد توالت الأشهر : فبراير ومارس وإبريل ... وطرأت على الطقس برودة كبرودة شهر ديسمبر وإن تخللتها أيام حارة تهب فيها ريح شديدة يسميها أهل البلاد بـ « مبوبو » . وكانت النساء اللاتى يجئن من القرى المجاورة لمدينة « سان لوى » حاملات إليها شتى ألوان المأكولات التى تفتقر إليها تقشعر أبدانهن من شدة البرد وهن يعبرن جسر « فايدهرب » . وتهب الريح الشديدة التى تأتى من الشمال فى المساء من ناحية « جوهومبايج » ، التى تعتبر امتداداً للسهول الموريتانية التى تحد القرى القائمة على لسان « بربارى » بسلسلة من كثبان الرمال المتحركة . إن تلك الريح كالثلج تنفخ ثياب المارة الواسعة عند مرورهم على الجسر ولذا فهم يمسكون عن عادتهم فى السير بتراخ وفى شرود حالم .

أما « نينى » فهى تذهب إلى المكتب فى ثياب مفتوحة عند الصدر فقد كلموها عن قسوة البرد فى فرنسا وعن الجليد الذى يتساقط هناك ... وما دامت هى سليلة أهل الشمال فإن مثل هذا البرد الذى يسود « سان لوى » لا يمكن أن يؤثر فيها . إن تلك الريح الباردة لاتعدو أن تكون فى نظرها هواء منعشاً عليلا .

ومرت الأشهر : فبراير ومارس وإبريل ... وقد تطورت خلالها صداقة الرجلين الأبيضين بالخلاسيتين حتى أصبحت علاقة متينة ، فهم يهربون — ورباعتهم — فى أيام الآحاد إلى الريف تاركين وراءهم المدينة التى تستغرق فى سباتها العميق . وقد تعودوا الذهاب إلى مكان منعزل صغير ، يشبه الواحات الوارفة حيث الهواء العليل ، من تلك الواحات التى يصادفها المرء أحياناً على ضفتى نهر السنغال . وهم يقضون هناك يوماً سعيداً يتناولون فيه طعامهم على الأعشاب ويمارسون ألوان الرياضة كالسباق وهم متجردون من ثيابهم ثم يعقب ذلك سقوطهم المصحوب بالضحكات العصبية وبالعناق . وبعد ذلك يشعرون بإرهاق وينغمسون فى شرود حالم ... ثم يعودون فى المساء وقد أحسوا بالتحرر من كل قيد ...

إن ألوان التسلية بمدينة « سان لوى » تقتصر على الذهاب إلى السينما والتردد

على المراقص أو على قضاء بعض السهرات فى أماكن خاصة . وهم يقضون تلك السهرات بمنزل « مارتينو » و « بيران » الصغير الذى يقع على ضفة الفرع الكبير للنهر . وبرنامج سهرتهم يشمل عادة تناول الطعام واحتساء الشمبانيا والرقص فى إحدى الغرف ثم التقاط الصور وهم عرايا ... ومايعقب هذا ...

إن شمس إفريقيا تشعر المرء بالضيق ، والضيق قد يصيبه بالضجر الذى يدفع بدوره إلى الإفراط فى احتساء المشروبات الروحية وبتناول المخدرات ، وإلى ممارسة ألوان الحب وهى أحاسيس تدفع بالناس إلى التغاضى عن قناع التقاليد .

إن البيض الذين يفدون إلى المستعمرة ، لا سيما إن كانوا عزاباً ، إنما يشعرون بوحدة قاتلة ، ولذا تجدهم يعجزون عن مقاومة بعض ألوان الإغراء . ولا يمكننا أن نؤاخذهم على تناسيهم للمهمة النبيلة التى جاءوا من بلادهم من أجلها ، ألا وهى النهوض بهذه البلاد المستعمرة ، فإنهم يصادفون دائماً فى طريقهم خلاسيات صغيرات ممشوقات القوام ومغريات لا يتمنين شيئاً مثلما يتمنين أن يمنحنهم أنفسهن . إن العدل — وأعنى به حكم الرأى العام — يستوجب أن نعذر هؤلاء الاستعماريين الشبان ، أمثال « مارتينو » و « بيران » اللذين صادفا ذات يوم فتاتين ألقيتا بنفسيهما بين أحضانهما .

وعلى أى حال فإن سلوك الشابين قد أصبح بعد وقت قليل موضوع الساعة بمدينة « سان لوى » وأخذ الجميع يتناقشون فيه ويعلقون عليه بشتى الطرق ، وأينما ذهبت فى المشارب ، وأثناء الدعوات ، كنت ترى الألسن تلوك سيرتهما . كانت أوساط البيض ترى فى ظهورهما علانية مع الزنجيات تصرفاً غير لائق يتنافى مع كل مظاهر الترفع التى تستوجبها هيبة المستعمر . ولقد دأب فى الفترة الأخيرة رجال الإدارة من المتزمتين الذين يدافعون عن هيبة الاستعمار الفرنسى — فى الحفلات التى يحتسون فيها كئوس ال « كوكتيل » و « الويسكى » — على أن يضيفوا فى كل مساء إلى السكية التى كانوا قد اعتادوا تعاطيها كأسين يغرقون فيهما أحزانهم بسبب تلك العلاقات الفاضحة التى تسىء إلى بلادهم .

وقد استاء « بيران » و « مارتينو » بدورهما ، بعد أن علما بأمر استهجان البيض لتصرفهما .

وكان « بيران » يعلق على ذلك بقوله فى لهجة مستاءة :

— « فيم يدسون أنوفهم ؟ أنحن أول من أغرى من الفرنسيين خلاسيات مثل « نيني » ؟ إن تصرفنا — على عكس ذلك تماماً — أفضل من تصرفهم ، فقد قطعنا شوطاً لم نضاجع مثلهم فيه زنجيات قذرات من السود ، وليست مثيلات « نيني » من تلك الفئة . ولو أن فرنسا طردت من هنا كل البيض الذين ضاجعوا زنجيات أو مخلطات ، لما وجدنا هنا فتيات كـ « نيني » أو « مادو » فلسن فى حقيقة الأمر إلا نتاجاً لذلك الاتصال بين الفرنسيين والزنوج ، لاشك فى هذا » .

ومرت الأشهر : فبراير ومارس وإبريل ... وبالرغم من تلك السيرة وتفاصيلها التى كانت تلوكها الألسنة والتى لاتنتهى ، فإن حياة الأوربيين بـ «سان لوى» استمرت فى ظاهرها وكأن شيئاً لم يحدث ، ذلك لأن البيض الذين يعيشون فى المستعمرات بارعون فى التستر على الفضائح . إنهم بارعون فى توجيه الضربات وفى تلقيها فى هدوء تام . وهم يرضخون جميعاً لمبدأ وجوب إخفاء كل ما من شأنه التقليل من هيبة المستعمرين . واأسفاه ! كم من الفضائح يراها الرجل الأسود ! ولا يستطيع إلا أن يراها ، اللهم إلا إذا كان أعمى . ولطالما رأى الرجل الأسود — الذى يتهمونه بالخرق ، وبالتالى بالعجز عن التفكير — أشياء سجلها وتذرع بالصمت .

لقد تأهب النادى المدنى لإقامة حفل ساهر بمناسبة قرب حلول عيد الفصح . وبدأت « نيني » و« مادو » منذ أول شهر إبريل تستعدان له بدورهما وهما لاتتكلمان صباح مساء إلا عن ذلك الحفل الراقص وعن زينتهما .

قالت « نيني » : تصورى أن حذائى لم يصل بعد مع أنى أوصيت عليه منذ شهر فبراير وطلبت أن يرسل بالطائرة !

وأجابت « مادو » : وثوبى ! إن لم يصلنى فلن أذهب إلى النادى . لا يمكن أن أذهب إلى النادى بثوب ارتديته فى حفل أول يناير .

— هذا بديهى .

إن عيد الفصح يقع فى الثانى والعشرين من إبريل وكل الخلاسيات ينتظرنه بفارغ الصبر . وأنت ترى فى الشوارع جماعات تثرثر وتتناجى كما تفعل العصافير عند اقتراب الربيع .

— مع من ستذهبان إلى الحفل الراقص ؟ أما عنا فإننا سنصحب « مارتينو » و « بيران » .

— ونحن سنصحب « مارشان » و « برتان » .

ثم تتوالى الأيام ، ثم يصل القطار والطائرة يحملان الأثواب والأحذية والجوارب والأحزمة والقبعات ....

* * *

لقد حل عيدالفصح فى نهاية فترة الصوم. إن اليوم رائع يحمل شتى الوعودوالآمال بالنسبة إلى الأتقياء الذين اتبعوا طواله ماأوصت به الكنيسة . كانت الشمس ساطعة بسامة شأنها كشأن الناس والملائكة الذين تأهبوا للاحتفال بذلك العيد المجيد . إن النواقيس التى أحضرت من روما تدق منذ الصباح : الجو معبق بذكريات من تاريخ القديسين ، مشبع بأشياء تهفو النفوس إلى رؤيتها ، ولعل النفوس ثملة بشعور خفى تزيده عمقاً أصوات النواقيس .

وفى الساعة الثامنة كانت الكنيسة قد امتلأت بالناس. لقد جاء المؤمنون من كل صوب رجالا ونساء وأطفالا من كل لون يرتدون ثياب العيد ، البعض منهم بدافع من إيمانه العميق وجاء الآخرون لمجرد القيام بواجب تفرضه التقاليد . بل هناك نفر أتى لمجرد التباهى بتفصيل ثيابهم الرائعة ، التى أتوا بها من مكان آخر غير مدينة «سان لوى » . وهذا النفر من الناس يتجمع ويقف عند مدخل الكنيسة لمجرد الثرثرة .

وجاءت « نينى » . كانت ترتدى ثوباً جديداً قماشه وتفصيله يتمشيان مع أحدث الأزياء . وكانت ترتدى قفازين أبيضين وتنتعل حذاء من « اللاميه » فضى اللون، وتضع على رأسها قبعة صغيرة أنيقة من طراز لم يعرف بعد بمدينة « سان لوى » ، قبعة بدون حواف تجمع من حولها شعرها المصبوغ باللون البنى الفاتح . وهرولت صديقتها « مادو » للقائها بمجرد أن رأتها . وتبادلت الفتاتان التهنئة ودخلتا الكنيسة معاً .

وعند خروج الناس بعد القداس ازدحم شارع « شولشر » الذى يحف بالكنيسة بالأثواب المتعددة الألوان الصارخة التى تسطع تحت أشعة الشمس . وانقسمت جمهرة الناس التى كانت منذ قليل تذوب داخل الكنيسة فى كتلة متحدة يجمع بينها مثل أعلى موحد ... إلى تجمعات صغيرة تشبه الجزر فى هذا الخضم الزاخر ، جماعات تجمع بينها الطبقة الاجتماعية أو التجانس الذى يقرب بين أفرادها . إن الناس الذين

كانوا سواسية أمام الله لم يصبحوا كذلك بمجرد أن وجدوا أنفسهم بالشارع . ربما كان علينا أن ننتظر ذلك اليوم الذى تحقق فيه جنة الخلد المعجزة فتجمع الناس بألوانهم وأجناسهم ومشاعرهم المتباينة .

إن أهم تلك الجماعات إنما هى جماعات الخلاسيات من الفئتين الأولى والثانية حيث يمكن أن نميز بعض البيض من ذوى « اللون الجميل » . وهناك أيضاً جماعات مختلطة تجمع بين خلاسيات من الفئة الثالثة وفتيات سوادهن فاحم .

— إلى اللقاء هذا المساء .

— اتفقنا .

وتنهال الدعوات : دعوة لتناول الشراب عند « س » ، والعشاء عند فلان أو علان . ولا تنقطع الزيارات طوال النهار ، ويشرب الجميع كئوس الشمبانيا فى فى نخب بعضهم البعض ، أو يعكف على تناول الشراب بشراهة لا معنى لها . إن الإنسان يحب بطبعه أن يعوض بثمن باهظ لحظات التقوى والتضحيات التى يقوم بها لإرضاء الآلهة . وهو إذا ما كفر بالصيام والصلاة — فى يوم واحد — عن كل الذنوب التى ارتكبها طوال السنة ، يعود إلى ارتكاب تلك الذنوب من جديد بهمة ونشاط .

وأخيراً حل المساء وأغرق كل الزينات فى ظلال ليلة اختفى فيها القمر وسكب هدوءه ورقته المتناهية على كل مافى النفوس من نشوة .

إنه ليبدو وكأن أصوات أجهزة الحاكى والراديو تنبعث تلقائيا بفعل قوى خفية . وكنت تسمع غنة البعض وصراخ البعض الآخر . وكانت تتخلل صوت الراديو الذى يذيع آخر الأنباء ومن بعدها ألحاناً من الموسيقى الكلاسيكية ، أصوات البصاق والزغطة . واكتست مدينة « سان لوى » ببهجة العيد فالنوافذ مفتوحة على مصاريعها وتنبثق منها أضواء ساطعة وأنغام الموسيقى ودق على الأيدى بحماسة وجنون وضحكات متشنجة .

ولما كانت البهجة معدية فإن سكان البلد من السود قد أقاموا بدورهم حفلات فى أحيائهم يدقون فيها الطبول وينشدون قصص «سانديای» التى منها هذه الأغنية :

رحل « سانديای » من « سان لوى » إلى « داكار » بـ « ديال ديوب » .

وأقيمت حلقات الرقص على رمال قرى السود الناعمة ، تتخللها دقات الطبول التى تدعو الناس إلى أن يلفوا ويدوروا حول أنفسهم وهم يشمرون عن سيقانهم وأفخاذهم، فتبدو أردافهم المحملة بعقود من اللؤلؤ .

إن « السانديای » قد رحل وربما لن يعود أبداً . والناس تتساءل كيف ترك « ندار » ليذهب إلى « داكار » بـ « ديال ديوب » . كل ما فعله هو أنه دار حول نفسه فحملته أغنية خفيفة فى الفضاء ، ولما سمعت ابنة مدينة « داكار » الصغيرة تلك الأغنية التى تفصح عن معانى التشرد ، شرعت ترقص وتدور حول نفسها بجنون بوحى من الشيطان ، تلك الروح الشريرة التى توحى إلى البشر بألوان البهجة التى يسعون إليها .

أما فى الأوساط الأوربية فالجميع يتأهب للتوجه إلى هذه الحفلة أو تلك ، فهناك حفل راقص بـ « النادى المدنى » وآخر بـ « نادى ضباط الصف » وثالث بـ « نادى سان لوى » .

إن « النادى المدنى » يقع بمدينة « سان لوى » نفسها بشارع « بوركيه » ومحظور دخوله على غير الأوربيين ، فهو وسط يجمع كبار البرجوازيين بالمستعمرة من أطباء ومهندسين وكبار رجال الإدارة ، بل ومن التجار والمدرسين من البيض . والشرط الأساسى للانضمام إليه أن يكون العضو من البيض أو من الموظفين السود الذين يعملون بالجزر . ولا يسمح للخلاسيين بالانضمام إلى عضويته وإن كان يسمح لإخوتهم من أمثال « نينى » و « ريرى » و « لولو » و « نانا » و « نينيت » أن يحضروا إليه بشرط أن يصحبهن رجال بيض من أعضاء النادى وأن يكن تحت حمايتهم إنه وسط مغلق ولكن بالمعنى العريض لتلك التسمية .

أما « نادى ضباط الصف » فهو النادى الوحيد الذى يسمح فيه للبيض والسود بأن يجتمعوا وأن يلهوا معاً وأن يتضاحكوا كما يحدث بين الإخوة . ويجب أن نذكر فى هذا المقام أن العسكريين بالمستعمرات تتسم تصرفاتهم بالتواضع والتفهم، وهى روح لا نجدها لدى الطبقة البورجوازيه التى تتمتع فى هذه المستعمرات بامتيازات لا توجد

في العاصمة الفرنسية نفسها ، وهذا على عكس ما يدعيه الناس من أن العسكريين ليست مهمتهم — كالبورجوازيين المستعمرين — أن ينشروا في المستعمرات مبادئ الحرية والإخاء بين الناس ...

إن « نادى ضباط الصف » لا يقبل لعضويته إلا العسكريين ، دون أى تمييز فى الجنس أو اللون . ويستطيع بعض السود من أصدقاء وأقارب الأعضاء حضور الحفلات التى يقيمها النادى ، وهم يقبلون فيه بلا أى تحفظ أو أية تفرقة ، يقبلون فيه بوصفهم رجالا دون أى اعتبار آخر .

والخلاسيات من الفئتين الأولى والثانية لا يذهبن أبداً إلى ذلك النادى، زاعمات أنهن يتجنبنه إذ يصادفن فيه عدداً كبيراً من الزنوج ومن « الجاويشية » .

أما « نادى سان لوى » الذى يقع بشارع « بليز ديعون » فقد فكر فى إقامته بعض المستوطنين المخلصين الذى أدركوا مدى النفع الذى يمكن تحقيقه بإقامة هـذه الهيئة التى يستطيع سكان البـــلاد الأصليون من المتمدينين عن طريقها أن يلبوا ما تستشعره نفوسهم من رغبات جديدة وتطلعات . إن الشبان السود ، هذه الفئة التى تلبس « القمصان المنشأة وأربطة العنق » ، إنما يهفون إلى أشياء غير الرقص على دقات الطبول ونغمات القيثارات الإفريقية، بل إلى مراقصة الفتيات وتناول المشروبات الروحيـــة الخفيفة ، وحضور الندوات والمحاضرات والحفلات التمثيلية . وشروط الانضمام إلى هذا النادى لا تتسم بروح التعصب .

إن « نينى » و « مادو » ستذهبان إلى « النادى المدنى » دون الشعور بأى حرج ، وستقابلان هناك رجالا مهذبين من البيض وسيدات من المجتمع الراقى . وسيدعوهما الرجال للرقص — إذ ليس هناك راقصات أكثر إثارة والتصاقاً من الخلاسيات — وسيدعونهما كذلك إلى الشراب وإلى الإفراط فيـــه ، ليستمعوا إلى ثرثرتهما وليتلهوا بما تقولانه من تفاهات ، وربما أيضاً لـكى يدفعوهما إلى القيام ببعض الاستعراضات على حلبة الرقص بالنادى .

وصل إلى « نادى سان لوى » بعض الراقصين وبدأت الموسيقى تنبعث من

« الحاكى » ريثما يحين موعد الرقص الصاخب : رقصات الـ « رومبا » والـ « سامبا» ورقصة « التانجو » الحالم . إنهم فائقو الأناقة فى ثيابهم القاتمة وياقاتهم وقمصانهم المنشاة التى تعلوها — فى تعارض لافت للنظر — رءوسهم السوداء بشعورهم التى أحسنوا تصفيفها وأشبعوها بالدهون . أما السيدات والآنسات اللاتى كنت تراهن حول الموائد ، فقد كن بدورهن فائقات الأناقة حسنات الهندام يضارعن فى ذلك الخلاسيات من الفئتين الأولى والثانية . وكن يشعرن فوق ذلك بأنهن فى مجالهن ، فى وسط يعرفن أن فى إمكانهن أن يمرحن فيه دون شعور بأية عقد . وكنت ترى كذلك بعض سكان الجزر من السود وقد فضلوا قضاء سهرتهم في ذلك النادى على التعرض فى النادى الآخر لسخرية البيض وكذلك توطيد الروابط بينهم وبين أبناء جنسهم ، ذلك الجنس الذى لا يذكرونه عادة إلا فى الساعات الحالكة ، أى فى أوقات المحن التى تمر عليهم جميعاً ...

كانت أول رقصة على نغمات الحاكى رقصة الـ « رومبا » ، تلك الرقصة التى تستهوى السنغاليين وتشعرهم بالحنين إلى أوطان بعيدة ليست كأوطانهم تماماً وإن كان شوقهم إلى رؤيتها وإلى موسيقاها الصاخبة شديداً ، فيندفعون فى الرقص حتى ينحل وسطهم وينال منهم الإعياء كل منال ، فهى أنغام تشبه تلك التى كانت تصحب دق الطبول بألحانها المتقطعة التى تستحوذ على الحواس وعلى المشاعر ، والتى كان يرقص عليها أجدادهم الأبعدون .

إن رقصتى الـ « بيجوين » والـ « رومبا » إنما تعتمدان على تناقض ملحوظ : العنف والرقة معاً : رقة الـ « تانجو » البطىء الذى جاءوا به من بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وعنف الـ « بامبولا » الإفريقية التى تتميز بما يصحبها من زفرات عنيفة تدغدغ سلسلة ظهور الرجال عندما تناديهم غرائزهم تحت وطأة الليل والغابة . وربما كانت رقصتا « البيجوين » والـ « رومبا » عند من ابتدعوها مجرد تعبير غير إرادى عن حالة نفسية مبعثها الشعور بالحنين إلى مسقط رءوسهم الذى تسطع فيه الشمس على الدوام والذى يكمن حبهم له فى دمائهم ذاتها . وإن حنينهم هذا لا يمكن أن يعبروا عنه بأنغام عذبة رقيقة لأنه مشوب بلون من الندم أو بذكرى تسممه : ذكرى المنفى الاضطرارى . رقصتا الـ « بيجوين » والـ « رومبـــا » هما التعبير

عن شيء واحد هو تقبل كل ما هو أوربي مع لفظ الرقص الأوربي ذاته والحضارة الأوربية ...

وأخذ الراقصون يندفعون إلى الحلبة ويتنقلون فيها بحركات رشيقة بأردافهم على نغمات تلك الموسيقى « الأفرو أمريكية » الحانيـــة التى تدغدغ حواسهم فيشعرون بالنعاس والتى تدفعهم دفعاً إلى الاستمرار فى الرقص . وال « بامبولا » ، كما يقول المخضرمون ، لها نفس التأثير الشيطانى .

وانتهت رقصة الـ « رومبا » وأخذ الجميع يصفقون بعصبية ... وبدأت الوجوه السمراء تلمع بما سال عليها من عرق وما ارتسم عليها من شعور بالنشوة . ونظر الجميع إلى الحاكى الذى بدأت أنغام الـ « رومبا » تنبعث منه من جديد .

أما فى « النادى المدنى » فإن « نينى » و «مادو» لا تسعدان برقص الـ «بيجوين» أو الـ « رومبا » وإن كانتا مع ذلك تتجاوبان مع غرائزهما الزنجيـــة الـكامنة بدا حلهما .

وفى أثناء الاستراحة القصيرة وصل رجل تصحبه سيدة وآنسة ، ثلاثتهم من البيض « الأصليين » . واستقبلهم رئيس النادى بحفاوة ودعاهم إلى الجـــلوس إلى مائدة حجزت لهم . إنه السيد « كامبيان » وأسرته .

إن السيد « كامبيان » هو الرجل الأبيض الوحيد بـ « سان لوى » الذى يتردد على نادى « سان لوى » . وهو يتمتع بمكانة اجتماعية إذ هو مهندس الطرق والـكبارى ونائب مدير الأشغال العامة بالسنغال . والـكل يعتقد أنه صديق للزنوج ، بل وأكثر حباً من السيد « رودان » المدرس بمدرسة « فايدرب » الذى ألقى بنادى «سان لوى» جهاراً محاضرة عن المساواة بين الأجناس . وطيبة الرجلين إنما هى حديث الجميع يتناولونه بحماسة وحرارة . وعلى أية حال فإن السيد « كامبيان » يتردد كثيراً على النادى ، وقد سنحت له الفرصة للتعرف بكثير من الوطنيين الذين عاملوه بكل احترام وكياسة ، وأشعروه بما يكنونه له من حب وما يشعرون به من شرف لوجوده بينهم .

ثم دارت أنغام الـ « فالس » ... ونهض الراقصون والتفت أذرعتهم حول أعناق

بعضهم البعض ، وأخذوا يلفون ويدورون ويدورون حتى تقطعت أنفاسهم • إن ذلك المشهد يذكرك بقصيدة « فيرلين » : « جياد من خشب » •

إن رقصة الـ « فالس » ـ التى كان يرقصها « سانديای » أصلا والتى لا يصحبها غناء ولا تصفيق والتى لا تؤدى إلى سقوط الراقصين ولا إلى شعورهم بالإغماء جاء بها « سانديای » البيض من بلاد بعيدة على شكل أغنية خفيفة يرقصها اثنان يلتصقان بصدريهما بحيث تندمج أنفاسهما • ورقصة الـ « فالس » بدورها لن تعود ثانية إلى بلاد البرد القارس •

وفى الخارج تجمع الوطنيون . إنهم يشاهدون الراقصين من خلال الستائر المصنوعة من القش ، التى أسدلت على الفجوات وهم يعلقون على مايرون • والبعض منهم بوده أن يرقص الـ « فالس » وأن يشرب شيئاً آخر غير عصير الليمون والشراب ، ولكن قسوة التقاليد وخوفهم من الألسنة اللاذعة كانا يمنعانهم عن تلك المحاولة ـ والفتيات السمراوات اللائى عدن بعد أن رقصن على نغمات الطبول إنما تستهويهن تلك الموسيقى العذبة التى تدفع الراقصين إلى اللف والدوران أكثر مما تستهويهن أغانى « سانديای » ...

وكلما امتدت السهرة ساد المرح فى الحفل ، وحل محل التكلف الذى ظهر به البعض وحرر البعض الآخر من خجله ... وأخذت الكرات المصنوعة من الورق تنهال فوق الراقصين وأخذ الحاضرون يصوبونها إلى جموع الراقصين المتشابكة ووصل الانفعال إلى أقصى مداه .

ثم أشرقت الشمس على تلك الحفلات وهى تدنو من نهايتها . وبزغ الفجر فأضاء كل شيء وقضى إلى حد ما على شاعرية الجو التى كانت تسود قاعات الرقص بما فيها من ناس وأشياء . وانسحب أكثر الحاضرين تحشما ليتواروا فيما تبقى من ظلمات الليل حرصا على إخفاء ما أصابهم من سكر وما أصاب ملابسهم من تجاعيد . وبقى من أثقلتهم الخمر متحدين شروق النهار وما يمكن أن تثيره حالتهم من نقد . سيفرغون فى جوفهم ماتبقى فى مخزن الخمور ، ويلتهمون آخر ما تبقى من المأكولات.

وهم يرون أن الأمر لا يعنى أحداً سواهم ، فاليوم يوم عيد وبهجة يباح فيه التلذذ بالطعام ، ويغتفر فيه كل شيء .

* * *

يحدث بمدينة « سان لوى » غداة عيد الفصح شيء هام من حيث توقيته تتذكره الخلاسيات ويتكلمن فيه كلما حان ميعاد ذلك العيد . لقد تسلمت « نينى » رسالة من رجل أسود يبثها حبه الصادق وولهه . وهذا الحدث الخطير إنما يسبب انفعالا قد يفوق ما يشعر به الناس من هلع عندما تغضب الطبيعة أو عند مرور الشهب بذيولها الطويلة .

وتساءلت « نينى » فى بادىء الأمر عند قراءتها فى أسفل الرسالة اسم « ندياى ما تار » المكتوب بوضوح ، عما إذا كانت لا تحلم . إنه « ندياى ماتار » ... هذا الذى يدعى أنه محاسب الأشغال العامة ، ذلك الرجل الأسود الذى كثيراً ما يحضر إلى مكتب « المقاولات النهرية » حاملا أوراقه .

وهذا الحدث يسبب لـ « نينى » دهشة لاتقل فى عنفها عن ضربة قوية على رأسها بالمطرقة ، فليس هناك أدنى شك فى أن الأمر يتعلق برجل زنجى ، وذلك لأن هذا الاسم ليس فيه أى شيء يوحى بأنه لرجل أبيض حتى إن كان هذا الأبيض روسياً أو هولندياً أو من بلاد الإسكيمو ذاتها .

وبقيت « نينى » مدة طويلة فريسة لذلك الشعور المبهم ، وكانت تحس بعجزها عن تحليل ما اعتراها لكأن قراءة تلك الرسالة قد قضت لديها على المشاعر المعروفة لدى الناس . وأخذت تمعن النظر إلى الورقة الزرقاء الأنيقة الملقاة على الأريكة ، والتى خطت عليها تلك الكلمات الجريئة المتبجحة ، والتى ربما كانت تشهد على أول تطاول من نوعه أمكن أن يفكر فيه زنجى .

ومع ذلك فإن « ندياى ماتار » ... فيما عدا لون بشرته ، لم يكن يتميز بأى شيء فظيع . إن الشاب من « داكار » ، وقد عين بمدينة « سان لوى » بالأشغال العامة بعد حصوله على شهادة المرحلة الأولى من الدراسة الثانوية ، وبعد أن بذل ، دون جدوى ، جهوداً للالتحاق بالمرحلة الثانية . وكل ما ملأ رأسه أفكار ثورية... شأنه فى هذا كشأن الأجيال الإفريقية الحديثة . أما من الناحية المادية ، فهو من أنصار الحياة على النمط الأوربى لما توفره هذه الحياة من راحة وهيبة . وأما من الناحية

الاجتماعية فهو ممن يؤمنون بوجوب إعداد برنامج لإصلاحات ملموسة يطلق عليه اسم « بذل المجهود » ، الجهد الذى يجب أن يبذله المزارع ليتحرر من شقائه ولكى يحصل على محاصيل وفيرة تفوق ما يتطلبه إطار احتياجاته المباشرة الضيق ، والجهد الذى يتحتم بذله على صغار التجار ليصبحوا تجاراً ، والجهد الذى يجب أن يقوم به موظفو مكاتب الحكومة ليجبروا رؤساءهم وبالتالى المستعمر على أن يعاملوهم باحترام. والشاب ضد كل مطالبة تقوم على القوة ولا يكون لها سند من حق تعززه الأعمال البناءة التى لا يمكن نكرانها . وبالرغم مما يوجهه إليه مواطنوه من نقد إذ يتهمونه بالتعالى ، فإنه يعتقد أنه لا يمكن للسنغالى ، وهو لا يزال فى المرحلة الحالية ،أن يطالب بمساواته فى المعاملة بالرجل الأوربى . والمثل الذى يضربه ليدعم به نظريته هو أن الموظفين السود بالرغم من المراكز المرموقة التى يتبوأونها لايحاولون إدخال أى تحسين مادى على حياتهم ، ولا يفعلون شيئا يمكن أن يساعد أولادهم على الظفر بمراكز أعلى من تلك التى يشغلونها . وفى رأيه أن السود ببلده لو أنهم بذلوا مجهوداً ليعيشوا بطريقة كريمة ، كل منهم فى حدود موارده الخاصة ، فإن الإدارة ستشعر بضرورة رفع مرتباتهم إلى المستوى الذى تتطلبه احتياجاتهم والذى يصبون إليه . أهو مخطىء فى وجهة نظره هذه ؟ أفى نظرته هذه نوع من التسامح تجاه الإدارة ؟ ربما ، ولكن هكذا يرى « ندياى ماتار » الوضع على أى حال .

إن ذلك الحب الذى بثه « نينى » منذ قليل كان قد شعر به منذ وقت طويل . لقد حمله بين جوانحه دون أن يجرؤ على الاعتراف به . وهو فى حقيقة الأمر لم يكن يعرف عقلية خلاسيات « سان لوى » حق المعرفة ، وإن كان يشعر بأن بعضهن جميلات جذابات . قد لاحظ أطوارهن العجيبة وما فى كلامهن من تكلف ، ومبالغتهن فى استعمال مسحوق الأرز ، كما أن تفضيلهن الملحوظ لمرافقة البيض كان قد أثار دهشته ، ولكنه على أية حال لم يتصور أن تكون تلك العيوب غير قابلة للاصلاح. وكان الشاب يقول لنفسه مثلا — لكى يبرر تصرفاتهن تلك — إن الخلاسيات لايقبلن بإخوتهم من السود لأن الشبان بـ « سان لوى » إنما يفضلون عادة بنات جنسهم السمراوات ، اللاتى نشأن على عادات البلاد . ولم يكن ليخطر بباله إمكان أن ترفضه هاتيك الخلاسيات بسبب لون بشرته .

لقد أحب « نيني » عندما رآها أول مرة ذهب فيها إلى مكتب « المقاولات النهرية » . أعجبته الخلاسية لأول وهلة ، ومنذ تلك اللحظة عرف الشاب عذاب الحب ، ذلك العذاب اللذيذ ، وشرد خياله فى عالم الأحلام العذبة كما كان يفعل وهو تلميذ صغير. وبقى طويلا على هذه الحال ، وفضل ألا يبوح بحبه خشية أن يهدم تلك السعادة التى كانت توحى إليه بأمل مبهم .وكان يعرف أن ذلك الأمل يمكن أن يتبدد إذا ما اعترف بذلك الحب فى رسالة . على أن نتيجة هذا التصرف — سواء أكانت فى صالحه أو فى غير صالحه — من شأنها أن تضع حداً لذلك الطور من أطوار حياته العاطفية .

توجه ذات يوم إلى مكتب «المقاولات النهرية » كعادته بحكم عمله ... وهناك شاهد الرئيس يؤنب « نيني » وشعر فى الحال بأنه قد نسى لونه الأسود ولم يعد يشعر إلا بمعنى عبودية جنسه التى تربطه بالخلاسية الصغيرة التى يؤنبونها .لقداستشف « ندياى ماتار » من اللهجة الغاضبة القاسية التى كلم بها الرئيس « نيني » النية المبيتة لإذلال أبناء جنسه ، ولذا فقد عزم على أن ينتقم لها . ولـكن بأية وسيلة ياترى...؟ سينتقم لها بأن يتزوجها ، وأن ينقذها من براثن ذلك الوحش الذى يريد استعبادها ... أى من براثن الإدارة الاستعمارية .

كان فى موقفه هذا كـ « دون كيشوت » ، ذلك الفارس الذى كان يرنو إلى إصلاح الأخطاء و نصرة المظلومين ويعتبر نفسه مبعوث العناية الإلهيه الذى يسهر بسلاحه على حماية الأبرياء وذوى الفضيلة .

وقال الشاب محدثاً نفسه : سأنفق كل مرتبي ، وسأبذل جهد طاقتي لإسعادها .

ثم حل عيد الفصح بما يصحبه من أثواب رائعة تضطرب لها قلوب العشاق . إن ذلك الشعور بالشهامة الذى اعتراه قد زاده حماسة أناقة « نيني » بثوبها الرائع وحذائها الأنيق ، اللذين ارتدتهما يوم العيد ، وقد أملى عليه ذلك الإحساس الرسالة الطويلة المقنعة المؤثرة التى باح فيها بحبه .

ووصلت الرساله التى كتبها على ورق أزرق أنيق إلى الفتاة ، وهاهى ملقاة على الأريكة أمام الخلاسية التى أخذت تطيل النظر إليها ، وتتفحصها دون أن تدرك حقيقة مافيها من معان . لماذا ياترى اصطفاها القدر ، هى بالذات ، لذلك العذاب؟ ألم هى سيئة الحظ إلى هذا الحد ، ولم يقع عليها مثل هذا الظلم ؟

ولم تجد ما يمكن أن تهون به من وقع هذه المأساة إلا أن تعزو إرسال ذلك الخطاب إلى رغبة فى الدعابة . وقالت محدثة نفسها : ربما كانت كذبة إبريل متأخرة ولكن يصعب أن تحل الأحلام محل الواقع . هاهو الواقع أمامها ممثلا فى هذه الورقة التى تغطيها كلمات مكتوبة بخط منمق صغير والتى ذيلت باسم كائن حى لا بشبح من الأشباح .

وصاحت « نينى » فجأة : آه ... إن هذا كثير ، كثير جداً ، إن هذا كثير حقاً .

ثم تركت حجرة الاستقبال بانفعال وغضب ، ووضعت قبعة على رأسها وخرجت من البيت دون أن تشعر خالتها وجدتها ، ممسكة بالورقة الزرقاء بيدها المحمومة .

بلغت الساعة الواحدة والنصف تقريباً والشمس تغمر المدينة بحرارتها المحرقة « فتحمص » البيوت العتيقة التى سبق أن أحالتها رياح الصحراء العاتية إلى كتل من الجير ، هذه الشمس تسود أسطح المنازل لا ينازعها فى ذلك منازع ، وتسقط ثقيلة على الأسمنت الذى رصفت به الشوارع ، وتنعكس على الجدران فترهق أعين المارة الذين يحتمون منها تحت قبعاتهم المصنوعة من الفلين أو وراء الجزء المتهدل من جلابيبهم . والناس يشعرون بها حتى داخل بيوتهم ، فهى تؤثر فى هضمهم وتجعل نومهم ثقيلا تتخلله أحلام مروعة .

وعبرت « نينى » الشارع بالرغم من قسوة الشمس ، إلى الناحية التى لا يمكن أن يمنح الظل فيها أكثر من شعور كاذب بالراحة . ووصلت إلى بيت « مادو » الذى يشمله السكون فى تلك الساعة . وصعدت السلم مسرعة فوجدت والدة « مادو » جالسة بالشرفة لتسهر على راحة ابنتها .

إنها زنجية طيبة تلف حول عنقها ملحفة ، وتضع فوق رأسها باروكة كالتى يلبسها سكان البلاد الأصليين . وهى بتواضعها وبساطتها تعتبر على طرفى نقيض مع ابنتها الآنسة « دى ميكى » . لقد أرادت المرأة بعد أن اغتصبها أول رجل أبيض تعرفت به ، وبعد أن حصلت على بعض المال ، أن تتزوج بأكثر من رجل أسود من ذوى المراكز بالمدينة ، ولكن « مادو » كانت تعتبر أن عملا كهذا هو بمثابة حط من شأنها ولذا فقد عارضت فى ثورة رغبة أمها : فمثل هذا الزواج يقضى تماماً على كبريائها ولا يمكن أن تقبل أن تفرض أمها عليها « أباً زنجياً » ، سوف تجعل منها بعملها هذا أضحوكة زميلاتها . واضطرت الأم أن تفرض على نفسها عزوبة أليمة حتى لا تفقد حب ابنتها .

بل إن « مادو » تحرم عليها الخروج لزيارة أقربائها بحى « لودو» أو « سيندونيه »، بل إنها لا تسمح حتى بدخول أى عجوز أسود بيتها ليتجاذب مع أمها أطراف الحديث فيخفف به من وطأة وحدتها أو ليحيطها بحنانه .

وقالت « نيني » بلغة الـ « أولوف » بلهجة سقيمة لتوحى أنها لا تفهم جيداً تلك اللغة : أين « مادو » ؟

وأجابتها الأم بلغة الـ « أولوف » ولـكن بلهجة سليمة : إن « مادو » نائمة .

ودلفت « نيني » دون أن تعبأ بشىء إلى جناح صديقتها ، وأيقظتها بأن أخذت تداعبها وتدغدغها . وعندما بدأت هذه الأخيرة تتثاءب وتتمطى، سلمتها «نيني » الرسالة دون أن تنبس ببنت شفة . وطردت قراءة الرسالة النوم نهائياً من عين « مادو » التي أخذت ملامح وجهها تنم عن انفعالها . وارتسمت ابتسامة على شفتيها الغليظتين اللتين أفقدهما أحمر الشفاه لونهما الحقيقى . ووصلت فى نهاية قراءتها إلى ذيل الخطاب فوقع بصرها على اسم « ندياى ماتار » ، وهنا فتحت عينيها دلالة على الدهشة وفغرت فاها . وشعرت « نيني » التى كانت تتوقع من صديقتها أن تنفجر بالضحك ، بخيبة الأمل ، وسألتها :

— مارأيك فى هذا ؟

وأجابتها صديقتها وهى تصحب كلماتها بحركة تدل على النفى من رأسها الذى يعلوه شعر غزير أكرت غير منسق :

— لا أفهم شيئاً

— إن الأمر واضح كل الوضوح ، إنه زنجى يعترف لى بحبه .

— كيف هذا ؟ إنك تمزحين ولا شك .

— أنا لا أمزح ولا أتخيل شيئاً ، خذى واقرئى الاسم : « ندياى ماتار » ... إنه اسم زنجى كما ترين .

— آه ... أما هذا فعجيب حقاً ! ولـكن أتعرفينه إذن ؟

— نعم يبدو أنى أعرفه ... كثيراً ما يحضر إلى مكتبنا حاملا بعض الأوراق .

وعندئذ انفجرت «مادو» بالضحك وتلاشت دهشتها ، أخذت تضحك فى عصبية ، وارتمت على سريرها، وتقلصت عضلاتها، وتقطعت أنفاسها . وسارت العدوى إلى صديقتها «نينى» التى نسيت غضبها فأخذت تضحك بدورها ، وانغمست الاثنتان فى ذلك اللهو المصطنع الذى أزعج إلى حد ما الأم «فاتو» الجالسة بالشرفة .

تلك هى اللحظة التى يجب إمعان النظر فيها إلى وجه الخلاسية لاستجلاء حقيقتها عندما تتجرد من مساحيقها .

وأخيراً هدأت مظاهر تلك البهجة الشيطانية ، وعادت الفتاتان إلى الحديث من جديد ، وهو حديث فيه تفكه ورغبة فى الثرثرة .

قالت «مادو» : ها أنت قد صدت صيداً ثميناً .

— نعم إنك على حق ، لقد أوقعت زنجياً فى حبائلى ... لم يكن ينقصنى إلا هذا لأضيفه إلى قائمة من أوقعتهم فى شباكى .

والحقيقة أن «نينى» فى استطاعتها أن تتكلم كثيراً عن تلك القائمة الطويلة ، فهى منذ بلغت الخامسة عشرة من عمرها وهى لا تكف عن جمع العشاق كما يجمع البعض طوابع البريد !

وقالت «مادو» : إنى أقترح عليك أن ندرس هذه الرسالة دراسة مستفيضة ، وأن نحاول تحليل كل حرف جاء فيها .

— لا، أرجوك، إن فى هذا تعذيباً لى. آه لو عرفت كم أتألم من وقع هذه الإهانة!

— أتتألمين من هذا الحادث البسيط ؟ آه ! لا تضحكينى ، لكأنك تأخذين الأمر مأخذ الجد .

— لعلك على حق يا «مادو» ولعلى مخطئة إذ أتألم من هذا الأمر ، لكأنى بذلك أضفى على هذا المعتوه شرفاً لا يستحقه ، فهو فى نظرى كـ «باكارى» ذلك العبد الذى عندنا بالبيت .

وشرعت الخلاسيتان فى قراءة الخطاب من جديد ، فقرة فقرة . إن ما أثار

ضحكهما أكثر من غيره هو تلك العبارات التى حاول الشاب الأسود أن يفصح فيها عن حبه وعن عطفه على « نينى » كأن يقول :

« إن الحب الذى أقدمه إليك هو حب نقى وقوى ... وليس فى هذا الحب مظهر الحنان الزائف الذى يمكن أن يحيطك بالأكاذيب والأوهام ... »

أو : « كم أحب أن أراك سعيدة ، تماماً ، فى إطار يتلاءم مع ماتتمتعين به من صفات وحسن ، هذه الأشياء التى أقدرها فيك ... » أو « إنى أعتبر وجودك بمنزلى شرفاً لايضاهيه شرف آخر ، وسعادة لاحد لها. وسأتفانى فى خدمتك بكل روحى ، سيشع حسنك من حولك فيضىء بيتى ، ويسطع ضوءه فى كل أركانه المظلمة ... » أو هذه العبارة « وأنا أعرف على أى حال مدى ماتتمتعين به من أفق واسع ، ومدى رقتك ، بحيث لايمكننى أن أتخيل أن ترفضى بعنف طلب رجل مخلص لايهمه إلا سعادتك ... » .

وبعد أن قرأت الفتاتان هذه العبارات ، وبعد أن علقتا عليها بمنتهى القسوة قالت « مادو » مقترحة :

— عليك أن تعدى له رداً عنيفاً قاسياً يثبط عزيمته وتشمئز له نفسه حتى لايقدم على مثل هذا مهما طال به العمر .

— هذا ما انتويته بالفعل ، وسأطلع « مارتينو » و« بيران» على هذه الرسالة ، لكى يعرفا مايستحقه فى نظرى رجلهما الأسود هذا الذى يدعيان أنه إنسان مهذب محترم .

— يمكننا أن نطلع عليها أيضا « ميمى » و « ريرى » و « نينيت » وكل الصديقات فسيجدن فى هذا حديثاً يتسلين به .

— إلى اللقاء هذا المساء . سأكمل زينتى إذ سيحين موعدنا بعد قليل .

مازالت الشمس فى الخارج محرقة وإن كان الشارع قد بدأ يعج بالموظفين والمستخدمين الذين يعملون بالمكاتب وبالتلاميذ الذين يثرثرون بصوت عال . وبدأت المركبات تمر وهى تطلق آلات التنبيه أوأجراسها بعنف لتبعد المارة عن وسط الشارع .

وفتحت الحوانيت الأبواب المعدنية التى تحجب المعروضات والتى كان يسمع صريرها وارتطامها المفزع .

لقد أعدت « نينى » الفاجرة مفاجأة مسرحية مثيرة برسالتها الغرامية ، فبمجرد أن وصل الرجلان الأبيضان ألقت بالورقة الزرقاء الأنيقة بما عليها من كلمات كتبت بحروف منمقة رقيقة على مكتب « مارتينو » وقالت :

ـــ اقرأ هـذا . ثم وقفت واضعة يديها على خصرها كما تفعل النسوة السود عندما يتحدين بعضهن البعض ، ورسمت على محياها سمات الغضب ، وأخذت تنظر إلى الرجلين اللذين انحنيا وشرعا يقرآن الرسالة الغرامية .

وتأخر ذلك الانفجار الذى كانت تتوقعه « نينى » من الرجلين ، فلم يسخرا بقسوة ومرح ، ولم تر على ملامحهما ما يدل على أنهما ينويان ذلك إذ بقيا هادئين ثابتين ولم تظهر عليهما إلا علامة الدهشة عندما وصلا إلى التوقيع المدون فى آخر الرسالة إذ لم يكونا يتوقعان أن يريا فى ذيل هـذه الرسالة الغرامية الملتهبة اسم « ندياى ماتار » الذى كان يبدو دائماً هادئاً رزيناً .

ورفع « بيران » رأسه وقال مازحاً :

ـــ ما رأيك يا آنسة ؟

كانت « نينى » حتى تلك اللحظة تـكتم غضبها ، ولـكنها عند سماع هذه الـكلمات انفجرت بالسباب والسخرية والشكوى بألفاظ نابية لاتصدر عن فتاة تدعى أنها من أسرة محترمة ، وأنها مهذبة على حد قولها .

ـــ أتسألنى عن رأيى ؟ إن هـذه الرسالة بمثابة سب وإهانة لحقت بى بصفتى « فتاة بيضاء » وهذا الزنجى أحمق ووقح ، وهو يحتاج إلى درس رادع ، وسألقنه ذلك الدرس، وسأعلمه كيف يكون مهذباً وكيف يلزم حدوده ، وسأفهمه أن جلدتنا البيضاء لن تـكون لتلك الحثالة من الزنوج .

إن « نينى » تتـكلم بتلك الحماسة لـكى تطمئن « مارتينو » الذى تتصور أنها بمثابة خطيبة له .

وقاطعها « بيران » بقوله : لماذا أنت ثائرة هكذا؟إن الأمرمع ذلك يبدوطبيعياً .

وأردف « مارتينو » وهو يقلب بعض التقارير التي لم يكملها بعد : « ثم إن الرسالة مكتوبة بأسلوب جميل » . وبهتت « نيني » أمام عدم مبالاة « مارتينو » . كانت قد عقدت عليه آمالا كباراً ، وتصورت أنه يتقدم لنجدتها عندما تقدم على عمل عدائي تجاه ذلك الزنجي الجرىء الوقح .

وأضاف « بيران » : بل إني أعتقد أن الآنسة « نيني » يجب أن تعتبر نفسها سعيدة بأن ترى محاسنها وصفاتها قد امتدحت بهذا الأسلوب الرفيع ، فهذه الرسالة الغرامية تتغنى بجمالك ، وهي دليل على مدى إعجاب الرجال بك ، وأنا أرى — فوق ذلك — أن هذا الشاب الذي يتقدم طالباً يدك ليس بدوره مجرداً من الصفات فهو متعلم وله مركز يسمح له بأن يحقق لك هذه السعادة التي يعدك بها ، وأنا أؤكد لك يا آنسة «نيني» أن أية امرأة ، حتى ولو كانت بيضاء ، لا بد من أن تتأثر بما في هذه الرسالة من حب صادق .

وصدمت « نيني » واحتبست أنفاسها . لقد قال « بيران » : « حتى ولو كانت بيضاء » ، ليست هي إذن بالبيضاء ، إنها ...

وقالت : إني أرى ياسيد « بيران » أنك تسخر مني . ربما لست بيضاء ، ولكني لن أتزوج أبداً من زنجي حتى ولو كان رئيساً للجمهورية .

وأجابها « بيران » : إن هذا من حقك يا آنسة « نيني » ، وهو حق لايناقشك فيه أحد ، وأنا أعتذر على كل حال عن الإفصاح عن رأيي في موضوع لايتعلق في الحقيقة إلا بك وبالسيد « ندياي ماتار » .

— أوه ... لست غاضبة كما تعرف ، ولكني دهشت فقط من كونك تسلم بمبدأ زواجي من رجل زنجي .

وهنا قال « بيران » ليضع حداً لتلك المناقشة :

— إني أطلب عفوك وصفحك عن هذا الإثم ، وأنا على أتم الاستعداد لأن أضم صوتي إلى صوتك ، ولأن أعلن في كل مكان وبصوت عال أن هذا الزنجي فظ ووقح ومجنون .

— أوه ... لم أعد طفلة ، وفى إمكانى أن أتكفل وحدى بأن ألزمه حده ، وأنا أؤكد لك أنه لن يشعر بالرغبة مرة أخرى فى أن يعيد الكرة مع امرأة أخرى.

ولم ينبس « مارتينو » فى تلك الأثناء ببنت شفة ، ودس أنفه فى الأوراق التى أمامه . ماجدوى أن يقول المرء الحقيقة لتلك الخلاسية الصغيرة التى تسمح له ، على أى حال، بقضاء أوقات طيبة وممتعة ؟

وشعرت « نينى » بالاستياء من صمته هذا وعدم تعليقه على موضوع بهذا القدر من الأهمية وأحست إحساساً مبهماً بأنه ربما لم يكن يشعر نحوها بذلك الحب المتأجج غيرة الذى كانت تتصوره .

وفى الساعة الخامسة مساء — وهى ساعة الخروج من المكاتب — مرت « نينى » كعادتها على بيت « مادو » لتصطحبها ... وأسرعت الاثنتان بإبلاغ كل الصديقات بما حدث : « نينيه » و « ميمى » و « ريرى » و « نانا » و « نينيت » وكل من على شاكلتهن .

وعلمت كل خلاسيات المدينة بما حدث وكان لتلك الرسالة الغرامية البسيطة بينهن دوى كدوى الفضيحة . وقد فكرت بعض الخلاسيات المسنات اللاتى بلغهن الخبر فى أن يرفعن دعوى على ذلك الأسود أمام القضاء ليطالبنه برد شرف . كان وقع الخبر عليهن كالصاعقة ، وقد أثار مايشبه ريحاً عاتية هبت محملة بالتعليقات والمبالغات والذم والتوعد والسب فاكتسحت أمامها كل ماعداها من الأخبار اليومية، وهددت بإثارة أزمة هستيرية . وتوعدت الخلاسيات بأنهن سيكتبن إلى رئيس مكتب «الأشغال العامة » وإلى حاكم المستعمرة ليطلعنهما على سلوك هذا الأسود كى يتخذا ضده إجراءات تأديبية رادعة .

وأخذت الفتيات بدورهن تتناقشن فيما يجب عمله ، كل منهن تجهد ذهنها لتهتدى إلى أقصى عبارات السخرية وأعنفها لكى يحررن رداً يجىء كالصاعقة ، رداً من تلك الردود التى يقول عنها السود إنها « تصرع الذبابة إذا لمستها » .

ولما كانت تلك الخلاسيات يتحين الفرصة ليعبرن عن مشاعر الحسد والكراهية الكامنة فى نفوسهن ، فلم يجدن أى عناء فى الاهتداء إلى الكلمات القاسية التى يمكن أن تجرح الرجل الزنجى وتدمى أديمه الأسود .

وقدمت الرسالة التى حررتها « نانا » الطالبة بالسنة النهائية بمدرسة « فايديرب » للسيد « درو » مفتش البوليس وعشيق « نينيه » — وهى خلاسية تعمل على الآلة الكاتبة مثل « نيى » — ليبدى رأيه فيها . وقــد رأى الرجل أن عبارات الشكوى بالغة العنف ، ولذا أشار بتعديلها مع الإبقاء على التحذير الذى ورد فى نهايتها والذى جاء به : « وإذا ماعدت إلى كتابة تلك الألفاظ النابية التى تفصح عن تلك الحالة المرضية التى تدفعك إلى أن تنسى نفسك فسأطلب من السيد « درو » مفتش البوليس الذى أطلق عليه من هم على شاكلتك لقب « الرجل الأبيض بالغ القسوة » أن يؤدبك » .

وأخذت الخلاسيات يقرأن الرد ويضحكن ويسخرن ويصخبن ، وقد أجمعن على أن أسلوبه لطيف للغاية . . وبعثن بالرسالة فى نفس اليوم ، وأخذن يترقبن اليوم التالى بفارغ الصبر حتى تصل الرسالة إلى « ندياى ماتار » حاملة إليه الدليل الحى على ما يمكن أن تفكر فيه الخلاسية وأن تفعله عندما يتراءى لأحد أن يخدش حياءها.

* * *

الطقس حار الآن ، شديد الحرارة بمدينة « سان لوى » . وقد دأب السود على السهر فى الشوارع وفى الميادين التى بأحيائهم يتحادثون ويصخبون . إن الوحى ينزل عليهم مصحوباً بتلك الرغبة فى الصخب التى يغذيها طلوع القمر وذلك الهواء المنعش الذى يهب من كل مكان فى الليل ، وكذا اختفاء الشمس الذى يشعر الناس بنوع من التسامح وراحة النفس .

إن « نيى » تذهب كل مساء إلى الشاطئ ، فقد حل موسم الاستحمام وأدخل شيئاً جديداً على حياة رجال المستعمرات القاسية إن العشاق لم يعودوا يتجهون شطر منطقة « سور » للنزهة وللقضاء على مايشعرون به من سأم تحت ظلال الأشجار وفى الأركان الهادئة المتناثرة بالريف ، ولم يعودوا يسلكون تلك الطرق التى يعلوها الغبار المؤدية إلى « خور » أو إلى « ليبار » ، بل هم قد احتلوا الآن شاطئ المحيط حيث تهب من عرض البحر نسمات عليلة تزيل صداعهم وتهون عليهم أثر ما يعتريهم من شعور بالحزن ليس له مايبرره ، ذلك الشعور الذى يصاحب موجات الحرارة .

أما الصيادون بـ « جت ندار » فهم يضطرون إلى ترك عروق الخشب التي يقضون عليها نهارهم ناظرين إلى البحر، فليس فى استطاعتهم البقاء هنا فى ذلك الموسم ليتناقشوا جماعات وليتكهنوا بمرور أسراب الأسماك . إنهم يعدون زوارقهم وينقلونها إلى المنطقة التي لاتستهوى المستحمين والأسر البرجوازية التي تقيم بالمستعمرة ، وينظفون منطقة الاستحمام المتاخمة للمحيط ، ويسوون رمال الشاطىء ، ويقيمون عليها المقاهى والأكواخ لتستضيف بدلا منهم أفواجاً أخرى من البشر وعيوناً أخرى زرقاء وخضراء وسوداء وبنية اللون ، عيوناً جميلة يأتى أصحابها إلى ذلك المكان ليشاهدوا تلاطم الأمواج وليستمتعوا بما يوحى به الأفق الجميل وغروب الشمس الرائع على البحر من معان شعرية جميلة .

لقد جاءت « نينى » و « مادو » اليوم إلى الشاطىء وهما ترتديان زياً خفيفاً جداً أعد خصيصاً لرياضة الشواطىء ، وهاهو شعرهما يتراقص فى الهواء وها هما ذراعا هما تكسوهما المساحيق. لقد وصلتا إلى الشاطىء وسماتهما تنطق بمعنى الانتصار والزهو وكأنهما قد وصلتا إلى بلد تغزوانه بشبابهما وزينتهما . إن ذلك الخليط من البشر الذى قد احتل الشاطىء لايشعرهما بالخجل بل إنهما على العكس — لشعورهما أن البيض وبعض السود ممن على شاكلة « ندياى ماتار » ينظرون إليهما — تحاولان التظاهر بتحررهن الذى يفصحان عنه بضحكاتهما العالية المرحة وبحركات مسرحية مضحكة تشبه حركات القرود ، فهما تجريان وتقفزان وتأتيان بحركات عنيفة وتعبران جماعات من مواطنيهم السود ثم تصافحان هنا وهناك بعض الأيدى الممدودة ، وتعودان لتستلقيا على الرمال الناعمة بالقرب من « مارتينو » و « بيران » اللذين ينتظرانهما دائماً فى نفس المكان .

إن تأثير هواء البحر ينشط خيالهما ويدفعهما إلى الكلام عن شواطىء رائعة لم ترياها فى يوم من الأيام ، اللهم إلا فى أحلامهما ، أو أنهما سمعتا عنها هنا أوهناك فى الحفلات التي دعيتا إليها عند أسر المستعمرين ، كشاطىء « فلوريدا » الذى تعتبر مقارنته بشاطىء « سان لوى » كالمقارنة بين كل شىء ولاشىء ، وشاطىء « نيس » حيث يتجمع صفوة الأغنياء وصفوة محبي العيش الرغد والمتع ، وشاطىء « مونت كارلو » حيث ينفق الأثرياء الأمريكيون ثروات طائلة . وهما تتغنيان أحياناً بجمال الزوابع

القاسية التى تهب على شواطئ مقاطعة « بريتانيا » أو على طول الساحل اللازوردى . وهما تنهيان حديثهما هذا بالشكوى وبصب لعناتهما على ذلك الحظ القاسى الذى يسمرهما بأرض إفريقيا حيث لا تتمكنان من أن تحييا حياتهما كما تريدان ، وحيث الشواطئ صغيرة تفتقر إلى أسباب التسلية وإلى الفخامة . وأحياناً عر جمع من السود يرتدون حللهم فيتحول حديثهما إلى الكلام فى أمر هؤلاء الزنوج الذين يزحمون الشاطئ ، وتقولان إنهما قد عبرتا للسيد « درو » مفتش البوليس عن اشمئزازهما من هذا الأمر ، وإنه قد وعدهما — ليطيب خاطرهما — بأن يقوم بعملية تطهير ، ولكن الصحافة المحلية اهتمت بالأمر وبدأت تطلب من المفتش العاشق أن يذكر الأسباب التى استوجبت طرد السود من الشاطئ ، وكانت الإجابة عن هذا السؤال محرجة للغاية ولذا فقد فضل السيد « درو » عدم الرد .

إن الشاطئ هو المكان الوحيد ، على ما يبدو ، الذى يختلط فيه البيض والخلاسيون والسود دون تمييز بينهم ، وإن كان كل جنس من تلك الأجناس يشعر تجاه الجنس الآخر أو الجنسين الآخرين بكراهية خفية واحتقار ، وهو شعور لا يظهرونه إلا فى بعض المناسبات النادرة ، بل إن دور الخيالة نفسها قد فرق فيها بين الأجناس الأمر الذى ارتضاه السود فأمكن تحقيق المعجزة بأن خصصت حفلات للبيض وأخرى للوطنيين بأن جعلت رسوم الدخول فى النوع الأول باهظة ، تبلغ أربعة أضعاف تلك التى تبيح الدخول فى النوع الثانى . ولم ير ساكن البلد الأصلى فى ذلك الإجراء الذى يبدو عادلا فى مظهره ومنطقياً إلا تصرفاً فيه مراعاة لقلة إمكانياته المادية . وهكذا أمكن لمن هن على شاكلة « نينى » و « مادو » حضور تلك الحفلات المخصصة للبيض ، عندما يكن فى صحبتهم وأن يستمتعن بما يشاهدن من أفلام « رائعة » على حد تعبيرهن ، دون أن يفسد عليهن بهجتهن وجود الزنوج غير المرغوب فيهم ، هؤلاء الذين يحلو لهم التجول على الشاطئ بسحنهم القاتمة التى توحى بجو الشانق القبض .

ومنذ تلك الرسالة الغرامية التى بعث بها « ندياى ماتار » والضجة الكبرى التى أثارتها ، والخلاسيات تتمادين فى التعالى على السود . إن قصة ذلك الحب التى

أفصح عنه الشاب بجرأة قد ضاعفت على ما يبدو تلك الكراهية الوراثية التى يشعرن بها نحو من كانت بشرتهم فى لون الأبنوس . وقد أصبحت الخلاسيات بعد ذلك الحادث يتجنبن كل اختلاط يمكن أن يتيح للرجل الزنجى أن يعجب بهن أو أن يرغب فيهن .

إن جمهور الشاطىء هادىء فيما عدا بعض المجموعات الصاخبة التى تنبعث من ناحيتها الضحكات المرحة التى تنقلها الريح من حين إلى حين. والرجال والنساء الذين يستلقون على الرمال يصغون فى سكون إلى صوت المحيط اللانهائى ، ويتذوقون ذلك الشعور بالراحة الذى توحى به فى المساء نسمة البحر فى تلك البلاد الاستوائية . وهناك نفر آخر من الناس يتحادثون ويتكلمون فى أمور تبدأ عادة على الشاطىء ثم تستمر فى طريق عودتهم ، ولا تنتهى إلا عندما يجلسون إلى مائدة العشاء . وهناك فريق الشبان البيض يجرون ويطاردون بعضهم البعض ويتماسكون ثم يسقطون على الرمال الناعمة وهم يلهثون . وهناك كذلك أطفال يمسكون بجراف وبجرادل ويحاولون بناء جدران بيوت وهمية أو يحفرون خنادق حول الحفر العميقة فيوحون بجو الحروب مفصحين بعملهم هذا عن غريزة حب البقاء الكامنة فى الإنسان منذ نعومة أظفاره ، والتى تتجسم فى هاتين الكلمتين : الهجوم والدفاع . وعلى مقربة يسمع صوت الحاكى الذى ينبعث من الكازينو وصوت الفرقة الموسيقية من داخل الكوخ داعيين المتنزهين إلى الدخول لتناول كأس على نغمات الموسيقى . وهناك بعض مناضد قد شغلت فعلا وبعض راقصين قلائل يتنقلون على حلبتى الرقص .

وها هى الشمس تختفى وراء الأفق ، وها هو الليل يرخى سدوله فى هدوء . ويبدأ الناس فى ترك الشاطىء فى جماعات فيبدو خاوياً ويأخذ الناس فى التوافد على الكازينو وعلى الكوخ فيمتلئان بهم . إن « نينى » و « مادو » تفضلان الكوخ لمجرد التظاهر بالأرستقراطية ، وهما تعتقدان أن من الأليق التردد على مرقص تكون فيه فرقة موسيقية لأن الفرقة الموسيقية تضفى على المكان جواً وفوراً لا يتوفر عندما يدور الرقص على نغمات الحاكى . ولقد أكسبهما تفضيلهما هذا الكوخ مودة ساقى المشرب بالكوخ ، وهى مودة قد تكون مخلصة أو مجرد تظاهر ، فالرجل لا يألو جهداً ليكتسب رضاء عملائه ، والخلاسيتان يشرفهما جداً ما يظهره من اهتمام بشأنهما وما تتسم به تصرفاته إزاءهما من عدم الكلفة ...

لقد اعتاد كل من « نيني » و « مادو » و « بيران » و « مارتينو » أن يجلسوا حول مائدة بالكوخ ليشربوا كئوس الـ « بورتو » والـ « مانداران » وبعض المشروبات المثلجة المكونة من مزيج من عصير الفاكهة والخمر والسكر ، وليرقصوا ويثرثروا . تلك هى الحيـاة بالمناطق الاستوائية كما كان يراها الفيلسوف الألمانى « نيتشة » . وذلك النمط من الحياة لا يمكن أن ينـاله التغير إذا ما اتسم بالتحرر والتجرد من أى وازع . كان الرجـلان الأبيضان يندفعان بغير وعى فى الطريق المؤدية إلى الاستدانة ، وهما لن يستطيعا بعملهما هـذا أن يدخرا أى شىء يجدانه عندما يحين موعـد عودتهما إلى فرنسا . أما الخلاسيتان فإن سلوكهما وشهيتهما الشرهة كانتا شيئاً طبيعياً ، فهما بمثابة هبة من السماء تهبط على الرجال البيض الذين يصلون المستعمرة ، ودورهما هو مساعدة هؤلاء الرجال على تحمل قسوة الحياة التى تفرضها عليهم إقامتهم تحت هذه الشمس الغريبة عليهم .

والحقيقة أن « بيران » كان المشجع على الاستمرار فى هذا النمط من الحيـاة ؛ لأن « مارتينو » كان أكثر منه تحفظاً وميلا إلى الهدوء . إن « بيران » هو الذى يراقص « نيني » و « مادو » كلا منهما بدورها ، وهو الذى يدفعهما إلى ذلك المرح الصاخب وإلى الإفـــراط فى الشراب ، وهو يلهو بثرثرتهما ومبالغتهما فى وصف مشاعرهما .

كانت « نيني » و « مادو » تتعمدان إظهار مدى ما تتمتعان به من تحرر ومن حرية وكانتا تبالغان فى هذا حتى إنهما كانتا تحاولان جذب الأنظار إليهما بأن ترقصا وحدهما على الحلبة رقصة الـ « بيجوين » أو الـ « رومبا » وهما تهزان أردافهما بشكل مبالغ فيه لا حياء فيه ، الأمر الذى دفع « بيران » إلى أن يقول لهما ذات مرة مطرياً فى لهجة تبدو مخلصة :

« يمكنـكما أن تعملا بعلب الليل لمراقصة الزبائن ، فقد تصبحان أيضاً نجمتين لا معتين » أما أن تـكونا « غانيتين بعلب الليل » ... فلا ، على الأرجح ، ولـكن لا بأس من أتصبحا « نجمتين لا معتين » .

آه ! نعم ، نجوم مثل « جوزيفين » تلك التى تتمتع بشهرة عالمية أو من نجوم السينما كتلك اللواتى يلمعن فى الأفلام بما يتمتعن به من محاسن وجمال ورشاقة

واللاتى يعجب بهن العالم بأسره ... إن ذلك الإطراء العابر بما فيـه من سخرية قد دفع « نينى » إلى الاستغراق فى الأحلام اللذيذة والاستسلام لشعور بنشوة كالحمى ، فقد استلقت فى ذلك المساء على الأريكة اللينة بمخدعها وأخـذت تتخيل نفسها فى حجرة من حجرات الفنانات بـكل ما فيها من أسباب الترف التى تتمتع بها النجوم اللامعة .

لقد حملها خيالها عبر المسافات الشاسعة إلى حيث اللاهى الـكبرى كملهى الوليدو » وال « مونبارناس » و الـ « فولى بيرجير » ، وأخذت تتخيل الأصوات الضئيلة التى تصل إليها من الشارع ، وكأنها أصوات الترحيب والتصفيق وصيحات الاستحسان التى تحيط بها . ثم هاهى تتخيل نفسها — هى « نينى » الخلاسية الصغيرة بمدينة « سان لوى » — تحت وابل من الأضواء الساطعة تنقل محاسنها من إطار الواقع إلى عالم الأحلام .هاهو جمهور غفير من علية القوم يصفق لها ويهلل ، وها هم مصورو السينما يحيطون بها ويسلطون عليها أضواء عدساتهم ، وهاهن سيدات المجتمع الراقى يصوبن عليها عدسات مناظيرهن المتعددة الأشكال والألوان ، ثم هاهى الصحف تتكلم عنها بعناوين ضخمة ، وهاهى صورها تظهر على شاشة السينما بكل بلاد العالم ... لقد أصبحت ذات شهرة تملأ الآفاق ، وهاهى لاتتردد إلا على شواطئ « نيس » و« مونت كارلو » بصحبة رجال من علية القوم ، وهاهم الدوقات وكبار رجال المال يدعونها إلى بيوتهم ، وهاهى تنتقل بالطائرة بين باريس وبرلين وفيينا وطوكيو ...

نعم ... نجمة لامعة ... إن كان هذا ممكناً .

إلا أن « نينى » و « مادو » لا تـكتفيان بالذهاب كل مساء إلى شاطئ البحر وباحتساء كئوس الخمر بالـكوخ ، وبعمل كل مايجعلها تستحقان لقب الغانيات والنجوم اللامعة، ذلك اللقب العذب الساحر، بل هما تذهبان فى صباح أيام الآحاد إلى الشاطئ لتقضيا تحت الشمس ساعتين أو ثلاث ساعات بلباس البحر أو بالسروال القصير. وهما تذهبان إلى هناك فى الساعة التى تعرفيها ربات البيوت السوداوات حاملات سلالهن تحت إبطهن وهن يعبرن جسر « سرفاتيوس » متجهات إلى سوق « جت ندار ». إن الشمس فى تلك الساعة تـكون فى خمس مجراها والأشعة التى ترسلها إلى المدينة تـكون مائلة وذات حرارة محتملة .

وأنت ترى الخلاسيتين على الرمال وهما متكئتين بأيديها أو مستلقيتين على ظهريهما أو جنبيهما أو على بطنيهما وهما تغيران من وضعهما باستمرار . إن هذا يسمى بحمام شمس فى « فرنسا » وعلى الساحل اللازوردى ، وقد دأبت السيدات المشهورات اللائى تجئن إلى تلك الشواطئ من جميع أنحاء العالم على ممارسة هذه التمرينات .

والخلاسيتان تستسلمان هكذا لقبلات الشمس وهن مستلقيتان فى هذا الوضع على الرمال الناعمة كالسعالى العاشقة . والشمس بدورها تلقى بنيرانها على جلدهما المشدود الذى يزخر بحيوية الشباب فتلسعهما لسعات رفيقة لذيذة تداعب عمود كل منهما الفقرى ومؤخرتهما كما تدفع بالحرارة إلى دمائهما فتتسرب إلى جميع أجزاء جسميهما وتثير فيهما الغرائز الكامنة . إن الشمس تبهر أعينهما وتطلق أمامها سراباً من الأمواج المضيئة التى تتمدد وتنكمش ثم تختفى .

إلا أن هذا الشعور بالنشوة شيء ثانوى بالنسبة إليهما، فما تريده « نينى » و« مادو » إنما هو عمل سحرى ، أو هو تأثير كيميائى لأشعة الشمس يغير لون بشرتهما . إن اللون الذهبى الذى تكسو به الشمس أجساد المستحمين هو اللون المفضل فى هذه الأيام، ولكن صديقتينا الخلاسيتين تنسيان أنهما سمراوان إلى حد ما وأن تأثير حمامات الشمس سيكون سيئاً عليهما و « مادو » بصفة خاصة تنسى هذه الحقيقة التى مؤداها أنها ثلاثة أرباع سوداء . وقد لفت السيد « بيران » نظرهما مرة إلى ذلك بلباقة إذ قال :

— كنت أفضل ألا يتغير لون الآنستين « نينى » و « مادو » — أو على الأصح ألا يصبح قاتماً أكثر مما هو الآن ... فأجابته « مادو » : « يبدو أنك لا تفهم كثيراً فى هذه الأشياء ، فإن جلداً كجلد « نينى » إنما يأخذ ببطء تحت تأثير الشمس لوناً ذهبياً ، أما جلدى أنا فيأخذ لون الشيكولاتة الفاتح ... كجلد « نينيه » مثلا » . وعقدت الدهشة لسان السيد « بيران » ففغر فاه الذى بدا عميقاً كالهاوية .

* * *

تحتفظ « نينى » كأية خلاسية تحترم نفسها بسجلين للصور فاخرين يحويان كل ما يتعلق بحياتها منذ بلغت الخامسة عشرة من عمرها ، بل وذكرياتها قبل تلك السن . ويتغنى أحد هذين السجلين بكل ما فى حياتها العامة من أحداث تعتز بها ، أما الآخر

فيسجل مشاهد عجيبة بحياتها الخاصة . الأول يمكن أن تعرضه على أى زائر فهويضم صوراً للأسرة ترجع إلى عهد جدودها البيض : جد وأعمام وعمات عن طريق النسب ... والآخر يحوى صوراً لـ « نينى » منذ نعومة أظفارها ...

وهى فى أيام الاستقبال إنما تفحر بتقديم هذا السجل الأخير للزوار حيث يندهش كل من يراه إذ لا يرى فيه أى أثر لدم زنجى بين الأجداد ... ولننصت إلى « نينى » وهى تقدم نفسها من خلال الصور التى تتوالى عبر هذا السجل :

— إن هذه الصورة تمثلنى وأنا فى المهد ... كانت أمى تقول لى إننى كنت طفلة دائمة الحركة والصخب والبكاء ، وإن شيئا واحداً كان يمكن أن يسكتنى وأن يدفع النوم إلى جفنى ، ألا وهو صوت « البيانو » ... وهاأنا هنا أحبو على أربع والعب مع « ديك » ، وهو كلب أصيل نادر يبدو أنه كان يحبنى كل الحب ويقضى ليله بالقرب منى ... أما هنا فكنت قد بلغت الثانية من عمرى : وهم يقولون إننى كنت فى تلك السن قاسية متجهمة ، ولكن المثل أصاب عندما قال : « إن الزمن يطوى الماضى دون عودة » . وقد كبرت مع الأيام . ها أنا هنا فى السن التى احتفلوا فيها بأول « مناولة » لى ، كنت فى الحادية عشرة وكنت تلميذة بالدير حيث كانت تشرف على الراهبة « روزالى » وهى طيبة وإن اتسمت تصرفاتها بالصرامة . كم كانت حازمة !

وكذا وكذا ...

كانت الصور صادقة فى تصورها لتفتح شباب « نينى » من ربيع إلى ربيع فى ذلك الإطار الإفريقى كما كانت تتغنى بجمالها . وهكذا تتوالى فى مخيلتنا صور ماضينا التى تعود بنا إلى أول ذكرياتنا بالحياة .

إن أجمل صور « نينى » هى تلك التى تمثلها منذ بلغت الخامسة عشرة من عمرها .

ها هى تظهر فى إحداها فى صحبة « فانى » زميلتها بالدير التى تعيش الآن بصحبة جاويش أوروبى فى مكان ما بإفريقيا الاستوائية ، وهاهى فى صورة أخرى وحدها تمسك بحقيبة يد ، وهى أول هدية قدمها إليها محب ، وكان صف ضابط أوروبى . أما فى هذه فهى تظهر ممتطية صهوة جواد ومرتدية سروالا للركوب ؛ إنها هنا فى صحبة السيد « بريان » (الملحق بالخدمات المدنية) الذى كان شديد الولع بركوب الخيل . آه!

هاهى هنا ترتدى ثوباً حريرياً يلتصق بجسمها الممشوق وله ذيل طويل . ياله من منظر رائع ! . لـكأن ضوءاً خفياً يغمرها من عل فى شكل مخروطى .

وتتوالى الصور ، الـكبيره منها والصغيرة ، صور يغمرها الضوء ، وأخرى قاتمة. إن توالى هذه الصور يوحى إليك بأنها صورة واحدة لخيوط تتراقص ، وإن نمت جميعها عن ملامح صديقتنا الخلاسية .

ونصل أخيراً إلى آخر صورة بتلك المجموعة ، وهى تمثل « نينى » فى ثوب العيد عندما بلغت الثانية والعشرين . وهى تقول هنا وفى صوتها نبرة تدل على الحزن :

— إنها الأخيرة وقد التقطها لى السيد « فيليب » فى ثانى يوم من أعياد الفصح.

إن آخر صورة بالمجموعة تمثل« نينى » وهى فى حالتها الراهنة ... ذلك ماوصلت إليه بعد اثنتين وعشرين سنة . إن الحياة ولاشك شىء تافه . ولعلك تشعر بالرغبة فى إعادة تصفح تلك المجموعة ، لا لأنها تتميز بشىء يستهوى النفس أوبشىء فريد فى نوعه وإنما لأنها تستعرض سنوات من الحياة مرت ولم يتبق منها إلا هذا : صور على سبيل التذكار ...

أما المجموعة الثانية فهى تمثل ناحية أخرى من حياة « نينى » ، أى الوجه الآخر بمعنى أصح . وا أسفاه ! إن ذلك الجانب الآخر قاتم من الوجهة الخلقية ، ولا تسمح « نينى » برؤية تلك المجموعة إلا لعشاقها الذين تمنحهم ذلك الحق .

إن تلك المجموعة تشبه الأشياء التى تقدسها وتحتفظ بها بعيداً عن الهواء والنور. الأشياءالتى يفوح منها عطر قديم وإن ظل أخاذاً قوياً يضفى عليها رائحة للماضى . إن تلك الصور لاتستعرض الذكريات الباردة الباهتة، وإنما تفوح منها ذكريات لها شذا أخاذ ترتبط بمشاهد غرامية : لقد التقطت فى أجواء تفوح منها رائحة الغرائز، وهى تمثل مشاهد ماجنة . ها هى هذه المشاهد تتوالى،مفصحة عما كانت عليه حياة «نينى» الخاصة فتثير ذكرى أحداث معينة فى مناسبات خاصة ، أوتوحى بأخرى بهتت مع الزمن ، ولم يعد يعلق بالذهن منها إلا سراب ضئيل .

وهناك بين صفحات المجلد أشياء تافهة حفظت بين الصور ، وضغطت بين طيات

الورق وتهشمت أو تحولت إلى تراب كالذى يتبقى من رفات الموتى : خصلات من الشعر الأسود والأشقر أو الأحمر تفوح منها رائحة الشباب والصحة ، أو أزهار اقتطفت ذات ربيع ، ذبلت وفقدت ألوانها وعطرها ، أو أوراق شجر ضئيلة جفت حتى لم يبق منها إلا هيكلها ، أو عروق ضئيلة هزيلة . «إن الزمن يطوى الماضى دون عودة....»

والعشاق بدورهم يرحلون ولايعودون ، والجزء الأول من ذلك المجلد إنما يسجل مرورهم عبر حياة « نينى » . وهذا الجزء يحفظ ذكرى صف الضابط الشاب بوجهه المشرق البرىء وابتسامته اللطيفة التى تفصح عن ثقته فى نفسه . إنه فى زيه العسكرى الفضفاض المزين بالشرائط العريضة يشبه الأطفال عندما يلبسون زى البحارة . لقد كان أول عشيق لها ثم تسجل الصفحات مرور عشيق آخر بزى عسكرى كذلك محلى بالقصب ، وتزين قبعته خيوط ذهبية مزدوجة يبهت أمامه زى سالفه . إن سمات هذا العشيق الثانى توحى بأنه كان أكثر رجولة وأكثر تجربة ، فنظرته متسلطة ، وقامته فارعة مستقيمة . أما الثالث فيرتدى قميصاً وهو لم يشأ أن يظهر فى الصورة سوى رأسه وصدره ، وهو متين البنيان كهرقل ، وإن خففت من قسوة سماته تلك الابتسامة العريضة التى تشيع فى وجهه من أذنه اليسرى إلى أذنه اليمنى . وها هو الرابع : إن شكله يوحى بأنه رجل باريسى يفتقد جو بلاده ، ويحاول تحت وهج الشمس أن يحتفظ بذلك الوقار وتلك الهيبة التى يتمتع بها من ينتمون إلى الطبقة البورجوازية الراقية بفرنسا .

وتقول « نينى » بصوت خفيض حزين : كم أحببت ذلك الرجل ! لقد أحبته فعلا ولكنها لم تفهمه أبداً . جاء الرجل إلى مخدع « نينى » فى زى أنيق باريسى ، وأخذ ينظر إلى ما حوله بنظرات زائغة ، ثم استسلم لعناقها ولمساتها . لم تكن دماؤه حارة ، ولم يكن الذنب ذنبه إذن إذ ترك لـ « نينى » القيام بالجزء الأكبر مما كان يقتضيه منهما لقاؤهما وعناقهما من انفعال وحرارة .

ثم هاهو الخامس ... والسادس ... والثانى عشر . وكلها وجوه لاتتميز بشىء بالذات ، وجوه باسمة أو عابسة ترتسم عليها سمات ذلك الاستسلام الذى تفرضه عليها الحياة بالمستعمرات أو فى أوضاع فيها تكلف الجد أو فيها تظاهر وادعاء . وبكل رأس من تلك الرءوس شىء معين استهوى « نينى » الصغيرة لفترة من الفترات . أما السيد

« بيران » فله صورة بتلك المجموعة وهو يمسك بمضرب التنس ، ويبتسم بوقاحة .
أما السيد « مارتينو » فلم تكن له صورة إذ أنه لم يقبل أبداً الوقوف أمام عدسة التصوير .

وكثيراً ما قالت له « نيني » التي تهوى جمع الصور : كم أنت غريب الأطوار !
وفى كل مرة كان « مارتينو » يهز كتفيه ويقنع نظرته ليخفى شعوره بالضيق .

وعند هذا الحد تنتهى تلك السلسة الطويلة من العشاق والمحبين ، وكثير منهم لم تدم العلاقة معهم أكثر من يوم أو ليلة ، أو على أكثر تقدير بضعة أسابيع حاولوا خلالها أن يتغلبوا على مايشعرون به من سأم فى تلك البلاد الاستوائية . ثم ترى بعد تلك المجموعة أوراقاً خفيفة شفافة لم تمسسها يد فى انتظار ما ستأتى به الأيام فى عالم الغد الجديد . إن تلك الأوراق بمثابة فترة انتقالية جديدة . و « نيني » تحب أن تباغت الناس بمفاجآتها ، وأن تتلذذ بمشاهدة تأثيرها فيمن يقربونها . إن من يتصفح ذلك السجل يتصور أن الاوراق الباقية خالية من الصور ، ولكنه إذا ماقلب تلك الأوراق الخفيفة الرقيقة فوجىء بظهور الجزء الأعلى من جسد عار ممتلىء يبرز من صدره ثديان ناهدان مستديران تعلوهما نقطتان سوداوان مشحونتان بالإغراء .

وهنا تبدأ مملكة العراة بما فيها من عرى برىء الى ألوان العرى الفاضحة . هاهى « نيني » عارية تماماً وتدير رأسها لتخفى وجهها . لابد أن تلك الصورة قد التقطت فى سن كانت تشعر فيها بحياء الأنثى ، أى بعد خروجها من الدير . كانت فى تلك السن لاتزال على شيء من التحفظ ، تشعر بخوف غريزى من أثر التربية الدينية ... ثم هاهى عارية تماماً وهى تخفى أسفل بطنها بقطعة من القماش عليها مربعات كبيرة صارخة ، وهى تبتسم ابتسامة صغيرة شيطانية كتلك التى ترتسم على شفاه بنات الهوى .

إن تلك الصور التى يظهر على محياها فيها بعض الشعور بالخجل قليلة جداً ، وهى بمثابة عتبة عند باب معرض للأجسام العارية : أجساد عارية فى عنفوان شبابها ونضارتها تدعو إلى ارتكاب الخطيئة وتمثل عالماً لايوصف ، وربما كان فى وصفه مايلهب صفحات هذه القصة ويشعل فيها النيران .

و« نيني » عندما تعرض ذلك الجزء من السجل تبتسم دون تعليق ، وترتسم على

تحياها ابتسامة ساخرة. إنها تحتفظ لنفسها بسر المناسبات التى التقطت فيها تلك الصور ...

هكذا حياة الخلاسيات . إنهن لا تحتفظن من شبابهن ومن مغامراتهن الغرامية المتتالية إلا بتلك الأشباح التى يضفين عليها الحياة والحركة حتى ليبدو عليها أنها تشعر بما يشعر به الناس من رغبات ومن أحاسيس قوية . هذه الأشباح تشيع فى قلوبهن التى أدركتها الشيخوخة بعض الحرارة عندما تحسسن باليأس يستحوذ عليهن ، بعد أن يفرغن مافى كئوسهن من خمر . وحياتهن لامعنى لها بدون تلك السجلات المصورة فهى تؤكد لهن بالرغم مما فى ذلك من مغالطة للواقع الملموس : « على أى حال لقد كنتن جميلات . كان لكن عشاق من خيار الناس ، فلقد كان هذا أميراً ببلده وذاك رجلا له مكانة بالسنغال ، أما ذلك الرجل الآخر فقد كان رقيقاً فى حبه وهذا كان يتحلى بكذا من الصفات الطيبة ، وذلك بكذا وكذا من المميزات ...

إن الحياة فى نظر « نينى » رحلة لاتنتهى وحياتها مطية يمتطيها كل من تدفع بهم الأقدار إلى طريقها ، ثم تطويهم الأيام ويبتلعهم النسيان . هناك شىء واحد سوف يبقى فى روحها متماسكاً ثابتاً لاتمحوه الأيام ، شىء يشبه اللوم لمن رحلوا وهو شعور كثيراً مايدفعها إلى الانغماس فى الرذيلة لتغرق فيها أحزانها .

* * *

هناك شائعة تتناقلها الألسنة بمدينة « سان لوى » منذ بضعة أيام ، وما يحدث الآن كالذى حدث عندما تجرأ الزنجى وبعث برسالته الغرامية التى بقيت عالقة بالأذهان فقد انتشرت شائعة أخذت تغزو الأحاديث وتفتح مجالا لشتى التعليقات ، وأصبحت شاغل الخلاسيات الشاغل ، فإن عالم خلاسيات « سان لوى » إنما هو بمثابة مجتمع قائم بذاته منطو على نفسه شأنه كشأن الجماعة التى تؤم النادى المدنى . وهناك ، داخل ذلك العالم المحدود ، بعض أخبار يتداولها الناس لأنها تصادف هوى من نفوسهم وأخرى يتناقلونها لما تحدثه فى قلوبهم من أنواع الانزعاج وخيبة الأمل . وقد بدأ الأمر بتناقل الخبر من أذن إلى أذن فى تكتم فتنفرج له أسارير سيدات مجتمع الخلاسيات المسنات، أويضىء نظراتهن التى خبا فيها نور الأمل ، وكانت الفتيات عند سماعه تتسع عيونهن وتنفرج شفاههن الغليظة من شدة فرحتهن . كن بدورهن يتناقلنه وهن يعلقن عليه بقولهن : أوه ! أهذا صحيح ؟ وكيف عرفت ، أهذا ممكن ... ؟ إن هذا لرائع ... كم هذا جميل ! ...

إن الخبر الذى تتناقله الأفواه بمدينة « سان لوى » منذ شهر ، عيد سعيد ، بل هو أجمل من كل الأمانى التى تراود النفوس فى مجتمع الخلاسيات. إنه بمثابة تتويج لحلم من أحلامهن يحقق لهن ماتصبون إليه من عظمة وامتياز ، وهو وضع إن دل على شىء فعلى أن الخلاسيات ممن على شاكلة « نينى » و « نانا » و « نينيت » إنما يعشن خارج إطار ظروف بلدهن .

إن حلمهن الكبير الذى يعشن من أجل تحقيقه هو الزواج من رجل أبيض من الأوربيين ويمكن أن نقول إن كل جهود هن إنما تبذل فى سبيل إدراك هذا الهدف، وهو هدف لايدركنه أبداً . إن حاجتهن إلى الإتيان بحركات مهولة وحبهن الضحك المتظاهر ،وحركاتهن المتكلفة المدروسة ، تلك الحركات المسرحية التى تجعلهن أضحوكة فى نظر الناس ، إنما هى نتيجة لتلك الحالة المرضية التى تدفعهن إلى التعالى والتعاظم . إن مايحتجن إليه هورجل أبيض ،أبيض تماماً ولاشىء غير هذا. وهن جميعاً ينتظرن تحقيق تلك الأمنية طوال حياتهن وإن كان هذا بعيد الاحتمال . والشيخوخة تدركهن وتفاجئهن وهن فى هذا الترقب الطويل وتلقى بهن فى العزلة الأليمة حيث يتحولن إلى الاستسلام والتعالى .

إن الخبر يثلج صدور الجميع ... فالسيد « داريفيه » ، وهو رجل أبيض تماماً ملحق « بإدارة الخدمات المدنية » ، قد طلب يد « ديديه » الخلاسية التى تتأرجح بين السواد والبياض . أهذا ممكن ! .

ويطير الخبر من بيت إلى بيت ويغزو الشارع فتتباطأ له خطوات الخلاسيات المسرعة ، ويتجمعن فى حلقات كما يحدث عند اقتراب عيد الفصح . والخبر يحدث فى « نينى » أثراً غير متوقع ، فيه تناقض ظاهر ، فهى طبعاً ، فى حضور رفيقاتهـا ، تشاركهن فرحتهن عندما يباركن الخبر ويشكرن الله على طيبته وعدله ، وتشاركهن فى الصياح وفى الحركات وكأن سعادتها لا تشوبها شائبة،وإن كانت تشعر فى أعماقها أن ذلك الزواج « غير الطبيعى » يدهشها ويخيب أملهـا فهى عاجزة عن تصوره : كيف تأتى لـ « ديديه » وهى أسود منها مرتين أن تجد لنفسها زوجاً أبيض ، وهى ما زالت بعد فى الثامنة عشرة من عمرها ! إن الغيرة تنهش قلبها ، ولو كان فى مقدورها أن تستميل إليها كل الأرواح التى تسكن الماء والغابات لتمنع ذلك الزواج

لفعلت عن طيب خاطر . إن خالتها وجدتها ليستا بدورهما راضيتين عما حدث ، فهما تعتقدان أن ليست هناك فتاة فى أسر الخلاسيات جميعاً بمدينة « سان لوى » أحق من ابنتهما « فرجينى » بشرف التزوج برجل أبيض محترم : وهما تعلقان بقولهما :

— لقد ربيناها أحسن تربية ، وأعددناها لتعيش فى أرقى أوساط المجتمع .

ولكن إزاء من تشعران بالحنق والثورة ؟ إن السيد « داريفيه » لا يعرفها على الإطلاق . أما « نينى » فقد دأبت منذ بلغت الخامسة عشرة على أن تمنح نفسها دون تحفظ وبلا احتشام ، وكانت تأمل من تصرفها هذا أن تلقى من بين هذا العدد الكبير من الرجال قلباً يعترف لها بجميلها ، قلباً كريماً يبقى وفياً لعهدها . أما عن زينتها فلم يكن هناك ما يمكن أن تؤاخذ عليه ، فقد كانت دائماً حسنة الهندام ، أنيقة . ماذا ينقصها إذن ؟

ومنذ أعلنت خطبة السيد « داريفيه » و « ديديه » أخذا يتجولان فى الشوارع ويعلنان فرحتهما . وأخذت السيدات الخلاسيات المسنات ، وهن يرينهما فى الشوارع من أعلى شرفاتهن ، يطلقن زفرات تدل على انتقادهن ، وهى طريقتهن فى الإفصاح عن عدم رضائهن عن تصرف الخطيبة وكن يقلن :

— هل رأيتها ؟ كم هى متبجحة ! كم هى مجردة من الإحساس !

— ألا تشعر بالخجل وهى ترمى بنفسها هكذا بين ذراعى الرجل ، وعلانية فى الشارع ؟

ومن شرفة إلى شرفة ، يتبادلن التعليقات التى تطير ككرات التنس ، وهى تعليقات ثقيلة مفعمة بالأفكار القاتمة .

أما الفتيات فكن أقل قسوة وهن يتقابلن كل مساء ببيت « ديديه » حيث يلقى منهن السيد « داريفيه » عدداً كبيراً ، وكل منهن تريد أن تلفت نظر الرجل الأبيض . وهن يقدمن الفطائر ويجعلنه يأكلها بالطريقة التى تلقم بها العصافير صغارها ويحطن به كالنحل بطنينهن .

إن الخالة « سيلفى » تظن أن هاتيك الفتيات إنما يغازلن صهرها المقبل ولذا

فهى تتذمر فى كل مرة تسمع فيهـا الصرير الذى تحدثه فى السلم خطوات الشلة المرحة .

أما فى مكتب «القاولات النهرية» ففى كل صباح وفى كل مساء كانت الأحاديث تدور حول نفس الموضوع التافه ، حول زواج «ديديه»! وفى الشارع إن رأيت جمعاً صاخباً من الفتيات فحديثهن بالتأكيد عن ذلك الزواج وإذا ما تكلمن عن الأسفار والرحلات أوعن السياحة أدى الحديث بهن إلى الـكلام عن رحلة شهر العسل التى ستقوم بها « ديديه » ، وإذا ما كان الطقس حاراً ثقيلا فإن ذلك يكون مدعاة إلى الـكلام عن يوم زفاف « ديديه » وعن أن مثل هـذا الطقس فى ذلك اليوم يكون شيئاً غير مستحب .

إن « مارتينو » يشعر بالضيق من ذلك الحديث الممل الذى فاق الحد ولذا فهو يلوذ بالصمت وإن كان بين الحين والحين يطلق زفرة تفصح عن مدى مايشعر به من سأم . أما « بيران » وقد دأب على السخرية من كل شىء وعلى ألا يأخذ أى شىء مأخذ الجد ، فإنه يجد فى ذلك الحديث مدعاة للتفـكه .

ولمدة خمسة عشر يوما وأكثر ، وفى كل مناسبة ، لم تـكف «نينى» عن التحدث عن الزواج . لقد حضرت أكثر من زواج بين فتيات من مواطناتها ورجال من البيض : كزواج « كارو بول » من جاويش فى فرقة مشاة المستعمرات ، وزواج « فين كلير » من موظف تابع « لهيئة الخدمات المدنية » ، وزواج « رن بالا » من موظف يعمل بالتجارة .

— أوه ! يالها من زيجات موفقة ويا لهم من رجال ! إن أحداً لا يعرف كما تعرف هى ما ستـكون عليه تصرفات زوج « ديديه » المقبل .

— إنه كما قلت لـكما فتى لطيف له قلب كريم وطيبته لا حد لها . وهو على شىء من التحفظ ، فالرجال الجادون متحفظون . ثم كم هو يحب « ديديه » ! ويقال إنه اعتزم أن يتزوجها لمجرد حاجته إلى الشعور بالانسجام فى حياته ، ولمـا بين أفـكارهما من تقارب ، وهو قد اعتزم ذلك خاصة تحت إلحاح فـكرة ورثها عن أجداده ، فالسيد « داريفيه » من أسرة فرنسية كريمـة وكان يجب أن يكتب اسمه

مسبوقاً بهذين الحرفين « دى »[1] كـ « دارتانيان » و « داميان » ولكنه يفضل أن يكتبه فى كلمة واحدة ، فهو رجل بسيط ومتواضع ... وكذا وكذا وكذا .

إن « نينى » تعرف شيئاً آخر عن السيد « داريفيه » ، تعرف أنه رجل شديد المراس يعمل دون كلل أو ملل . سوف يدخل ذات يوم مدرسة «فرنسا عبر البحار» لتؤهله لأن يكون من كبار رجال الإدارة بالمستعمرات . وسوف يكلف عندئذ بتولى السلطة فى إحدى القاطعات بالسنغال أو بالسودان أو فى « غينيا » ، وسوف تصبح « ديديه » ملكة فى تلك القاطعة وسوف يتسنى لها أن يكون فى خدمتها خمسون زنجية أو أكثر ، وسوف يكون فى إمكانها عندئذ أن تلقى القبض على من تشاء ، وأن تسجن من تشاء من الناس وسوف تحصل على البيض دون مقابل وعلى الماعز والأبقار دون أن تدفع ثمنها كما سينحنى أمامها الناس ويركعون .

إلا أن التفكير فى ذلك المركز الذى سوف تنعم به « ديديه » ، والذى تحسد عليه إنما يقض مضجع « نينى » المسكينة ويعذبها . وذات يوم ، فى حضرة الرجلين الأبيضين ، وكانا يتكلمان عن ذلك الزفاف ويمتدحانه ، خرجت من فم « نينى » عبارة تفصح عن غيرتها ومدى حنقها إذ قالت : لا شك أن « ديديه » قد وفقت وأن حظها كبير وإن كنت أفضل أن أتزوج رجلا يذهب بى بعيداً عن هنا فأنا أشعر أننى لم أولد لأقضى بقية حياتى فى هذه البلاد .

وفى اليوم الخامس والعشرين من شهر يونيو أعلنت « نينى » أن الزفاف سيكون بعد يومين .

* * *

كان ذلك اليوم يوم سبت كأيام السبت الأخرى ، مليئاً بالأمل فى الغد . إن ذلك اليوم فى نظر الخلاسيات يوم مشهود ، وهن يعجبن من رؤية الناس وهم يسيرون فى الشوارع بدون مبالاة ويقبلون على أعمالهم اليومية ، بل ويندهشن لرؤية الحوانيت المفتوحة والتجار وهم يباشرون عمليات البيع ويعجبن لرؤية سيارات

---

(١) كل الأسماء العريقة تسبق بهذين الحرفين .

النقل وهى تروح وتغدو محملة بالبضائع . إن مثل ذلك النشاط الذى يدب فى المدينة، فى يوم مشهود كهذا، إنما يشعرهن بالإشفاق .

لقد طلبت الخلاسيات جميعاً من رؤسائهم بالمكاتب الإذن بالتغيب عن أعمالهن وستتعطل بسبب هذا كتابة عشرات من التقارير على الآلة الكاتبة كانت معدة لبريد يوم الاثنين. إن الآلات الكاتبة ترقد فى سبات عميق إلى جانب أكوام الورق. ويخيم على جميع المكاتب سكون مزعج وإن كان يوحى بمعنى عميق . ويبدو أن هذه المكاتب حين تفتقر إلى أصوات الآلات الكاتبة وضجيجها ودقاتها ، يسودها الجمود وتتجرد من حياتها .

لقد قربت الساعة من الثامنة صباحاً وتجمعت عند مداخل الكنيسة جموع من الوطنيات من جميع الأعمار وارتدت الصغيرات منهن زى أيام الاحتفالات والمناسبات الهامة: قطعة من القماش يسترن بها نصفهن الأسفل يعلوها قميص، ويلففن حول وسطهن قطعة أخرى من القماش يعقدنها فى عقدة متينة . إن ذلك الزى يفصح عن رغبتهن الأكيدة وعن إصرارهن على الإتيان بحركات عنيفة ، وعلى أن تغنين — حتى تبح أصواتهن — بأشياء تذكر الناس بأمجاد الآباء والأجداد . إن ابنة جلدتهن تتزوج اليوم ويجب أن تقفن لتحيتها باسم كل من سبقنها فى هذا ممن ترقدن فى مدافن « سور » و « تيا كاندياى » .

وقبل التاسعة بقليل ترك الموكب بيت الخالة «سيلفى» بحى « لودو » . كان الموكب مكوناً من رتل من السيارات محملة بالأثواب الجميلة والأزهار ، وسار الركب فى شارع « أندريه ليبون » فى صمت جنائزى . إن الخلاسيات الصغيرات اللاتى يملأن تلك السيارات إنما يجتزن لحظة مليئة بالأحاسيس قلما يشعر بها الرجل فى حياته . لقد استحوذ عليهن شعور بالنشوة أخرس ألسنتهن ، أو ما يشبه الدوار : دوار من أثر تلك السعادة التى لم يعتدنها ، وهى سعادة غامرة تشبه الجنون تسربت إلى أفهامهن التى لم تتعود مثل تلك الأمور . إن الناس جميعاً ينظرون إليهن وهن بدورهن ينظرن إلى الناس فى الطريق دون أن يرينهم ، فإن عيونهن تحملق فى الأرصفة وفى البيوت التى تمر أمامهن ببطء بفتحاتها دون أن ترى شيئاً .

إن حقائق العالم الخارجي أصبحت لا تصل إلى عقولهن وإن كانت تبدو لهن كالأحلام، فالأحياء والأشياء قد أصبحت بالنسبة إليهن أشباحاً ساكتة لا اسم لها. إن العالم بأسره، فى نظر تلك الخلاسيات، قد تركز فى ذلك الشارع الطويل الضيق المستقيم، وإن عيونهن التى غللها الانفعال والتى أسكرتها نشوة الانتصار لم تعد ترى ذلك الطريق الذى يؤدى إلى المجد وإلى الانتصارات الكبرى إلا خلال غيمة خفيفة .

وأخيراً هاهو ميدان مقر الحكومة . لقد اتسعت أمامهن الآفاق . ووصلت إلى أسماع الخلاسيات أصوات أمواج البحر فضلا عما كن يسمعنه من ضجيج محركات السيارات، وأخذ كل ذلك يطن بقوة فى آذانهن، واتجهت السيارات إلى اليسار فبدا أن العالم قد تلاشى وراء خط من الماء يشبه عرقاً من الزئبق . كنت ترى هناك، عن بعد، الأرض وهى تلتقى بالسماء، وربما كان الموكب يتجه إلى نقطة ذلك اللقاء حيث نعيم الفردوس . ولكن هاهى أول سيارة تتوقف، ثم تقف الثانية، ثم الأخريات وهنا تتحدد معالم الدنيا من جديد وتتضح حقيقتها فتتعرف العيون على الكنيسة القائمة أمامها بأعمدتها والشرفة المحيطة بها وتشرع الأجراس فجأة تدق بعنف.

إن جموع المصلين من الخلاسيين سيؤدون اليوم صلواتهم بمزيد من العرفان لجميل المولى، وهم يرون أحد أحلامهم تحقق: الزواج برجل أوربى أو بسيدة أوربية وإمكان التلون رويداً رويداً باللون الأبيض واجتياز سور الألوان الذى يفصل بين عالم الخلاسيين وأجدادهم الغربيين .

وتمتلئ أرجاء الكنيسة بأصوات تفوح منها نضارة الشباب، وإن رنينها الذى يسبح فى أركان المكان على أجنحة رقيقة ليسمو بضع لحظات بمشاعر المؤمنين ويباعد بينهم وبين التفكير فيما يحدث على الأرض .

وفى خارج الكنيسة تتزاحم جموع من النساء السود اللاتى ينتظرن انتهاء المراسيم إن لهن بدورهن الحق فى أن يقلن كلمتهن فى تلك المناسبة فهى فى نظرهن لا تخص الخلاسيات فحسب إذ يعتقدن بسذاجة أنهن بمثابة شبائن لهن، وهن يصررن دون ماضغينة أو أفكار خفية على أن يثبتن أن « ديديه » ليست من أصل مغمور أو من منبت مجهول .

هاهن بعض النساء المسنات اللائى تجردن من أسنانهن يتمتمن بالتهانى وبعض عبارات تقليدية توارثنها من أم لبنت متغنيات بشجرة عائلة الفتاة ، ولكنهن لا يجرؤن على رفع أصواتهن ، فهناك حارس الأمن الذى يفرض الهدوء من حول الكنيسة وهو رجل أسود ضخم كهرقل يرتدى الملابس البيضاء ، يروح ويغدو فى صرامة أمام صفوف المتفرجين .

وبعد ساعة من الزمان خرج الموكب من الكنيسة وكان يتكون من صف من الرجال والنساء يتأبط كل منهم ذراع الآخر . كان البعض منهم من البيض . . رجال بيض يتأبطون أذرعة سيدات من البيض ، وآخرون يتأبطون أذرعة خلاسيات . وهنا بدت على الجماهير المحتشدة على الرصيف المقابل للكنيسة حركة تراجع كالموج المنحسر . أما الخلاسيات المولعات بالتباهى والتظاهر فقد أخذن يرفعن قاماتهن وينفخن صدورهن .

وأخذ كل رجل وامرأة يستقلان السيارة التى كانا قد أتيا بها ، وعاد الموكب من جديد من حيث أتى بنفس السرعة التى كان يسير بها من قبل .

واخذ الأطفال السود (من الفتيان والفتيات) يجرون هنا وهناك وأخذ نفر من الرجال الذين لا عمل لهم ، والسيدات اللائى جئن لتحية « السيدة الشابة » فى ذلك اليوم المشهود ، يتفرقون وتشتت جموعهم .

وهنا بدأت السيدات المسنات المحافظات على التقاليد الموروثة يرفعن أصواتهن وأخذن يصرخن فى عرض الشارع ، فالشارع ملك للجميع وليس هناك مجال لمؤاخذتهن مادام الوقت نهاراً . . ووجب عليهن إذن أن يقمن بواجبهن وأن يصرخن متغنيات بهذه العبارات : « لقد قمت بواجبك ياابنتنا . أنجب « أنتيو سار » « فارا مانسيه » ، وجاءت « فارا مانسيه » بـ « جيدل ديو » الذى أنجب « تيانيه فول »، ووضعت « تيانيه فول » « ايزابيل ديو » التى أنجبت بدورها « سيلفى » و « جان » و « بولين جراس » التى ولدتك .

إن « أنتيو » و « فارا مانسيه » قد ووريا التراب بمدافن « والو » ، أما « جيدل ديو » و « تيانيه فول » فقد دفنا بـ « تيا كانداى » ، وقد دفنت « إيزابيل ديو » بـ « تييم » ، كما دفن « بولين » و « جان » بمدافن الأروبيين .

إن تلك العبارات من المديح المؤثر سوف تهز ولا شك مشاعر « ديديه » التى تجرى فى عروقها دماء سوداء غزيرة . . وأضفن : « إن أنتيو سار » كانت أميرة و « فارامانسيه » كان ملكا ، أما جدك فقد كان ملك فرنسا .

وقد قرنت تلك الحارسات لأسرار أسرة « ديديه » ومنبتها المجيد كلماتهن بالإشارة فأخذن يشرن بإبهامهن إلى السماء فى حركات مجنونة ، وكأنهن يستشهدن على أقوالهن بالله وبالتاريخ ، وكن يردفن : إن « إنتيو » إنما كانت تتحلى بصفات الفرسان .

وصل الموكب فى تلك الأثناء إلى منزل الخالة « سيلفى » حيث استقبله جمهور غفير من الوطنيين بتهليل ساذج ، وأخذ رجل البوليس المكلف حفظ النظام يفسح طريقاً للمدعوين الذين أخذوا يعبرون البوابة المقوسة ، كل رجل تصحبه امرأة ويصعدون درجات السلم وهم يثرثرون . .

وسار ماتبقى من هذا الحفل سيراً طبيعياً ، وقد حضرت الخلاسيات الاستقبال الذى قدمت فيه الشمبانيا والمشهيات والذى تخلله الرقص ، وهن يرسمن على وجوههن سمات الجد ، يتصرفن كـ « بورجوازيات » حقيقيات ، ثم أعقب هذا الغذاء وكان فاخراً ... آه ! كان منظرهن جديراً بالمشاهدة فقد كن يرتدين أثواباً لها ذيول طويلة يجررنها وراءهن ، أثواباً كالتى كانت تلبسها مدام « دى بومبادور » . لقد كن يرفعن قاماتهن ويشددن صدورهن ويحاولن بابتسامات فاجرة إغراء الرجال الذين يراقصنهم والذين كانوا يرتدون ملابس السهرة . أما أثناء الغذاء فقد كن يتفاخرن بمهارتهن فى الأكل بالشوكة والسكين وفى أكل سمك اﻟ « لانجوست » ، ويتكلفن الرقة وهن يطلبن الملح أو الفلفل ، كما كن يتكلفن الابتسام بطريقة توحى بأنهن يألفن الأجواء الأرستقراطية الفرنسية ، ويقصصن قصصاً وهن يأتين بحركات من أفواههن وعيونهن ، وحكايات يحشونها بالمداعبات والفكاهات وهى حكايات كثيراً مايلعب فيها الخيال دوراً كبيراً .

وقضى الجميع يومى السبت والأحد فى الرقص والأكل والشرب دون هوادة أو توقف . وكانت جموع الوطنيين تحتشد أمام باب بيت الخالة « سيلفى » لسماع أنغام الموسيقى المنبعثة من « الحاكى » ، ولمشاهدة الراقصين الذين لم تكن تظهر منهم

إلا رءوسهم المتعددة الألوان.وطوال يومى السبت والأحد كانت الأزياء التى ترتديها الخلاسيات تتتابع ، فقدكن يتنافسن فيها ويغيرنها بحماسة وجنون ... كم أفرغن من زجاجات العطر ومن علب المساحيق فى تلك المناسبة ! كان جو القاعة مشبعاً برائحة الخمور ، كما كانت تفوح فيه روائح من شتى الأنواع . وكان كل ذلك يسكر الجميع ويشعرهم بإحساس من النشوة .

ولكن الحياة لاتسير على هذا المنوال إذ لها وجهان . والملاحظ أن فى أعقاب أيام اللهو تأتى أيام تسودها الكآبة . وهذا ما شعرت به « نينى » بقسوة عندما وجـــدت نفسها يوم الاثنين جالسة أمام آلتها الكاتبة وبجوارها أكوام من التقارير كتبت عليها هذه العبارات : « هام » و « عاجل » و « هام جداً » ، « يعد لبريد الثلاثاء » ... إلخ .. وهى تشعر بمايشبه الأسف على أنها قد انغمست فى اللهو لقد أبى جسدها كله أن يبذل أى مجهود ، وهى تشعر برغبة ملحة فى التثاؤب ، وهى تتمطى . إن «نينى» تبحث فى قلبها عن شىء من الأمل ومن الشجاعة ولكن دون جدوى ، كأنها استنفدت فى هذين اليومين المليئين بالأفراح كل قدرات التمتع التى يمكن أن تمنح للكائن البشرى ، كما تشعر بثقل تلك اللحظات من الصخب التى لم ينجم عنها إلا إرهاق أعصابها ... وفى تلك الحالة من الأرق العصبى الذى أحدثه إفراطها فى اللهو فى الليلتين الماضيتين بدا لها العمل وكأنه اختراع شيطانى تفتق عنه ذهن الناس .

وفى مساء الاثنين سمع فى بيت الخالة « سيلفى » لغـط بصوت عال وصخب يصم الآذان ملأ أرجاء البيت ... أيكون ذلك استعداداً لحفلات صاخبة جديدة أم هو مجرد لغط مثلما يحدث فى أعقاب الأفراح ؟ لا ... فالواقع أنه كانت هناك مشاجرات بين الخلاسيات المسنات وتصفية لما بينهن من حساب ، وكان ذلك أمراً متوقعاً .

لقد نشب صراع قبيل زواج « ديديه » بين أسرتها وبين بعض الأسر المدعوة ، وكان سبب سوء التفاهم هو سوء توزيع الشبان فى مصاحبة الشابات ، الأمر الذى أثار فى النفوس ضغائن لم يظهرها الجميع ، وانتظروا اليوم التالى للزواج لينفجروا وليفصحوا عما فى قلوبهم .

كان من بين الرجال المدعوين ثلاثة من الخلاسيين يتمتعون ببعض الهيبة من

أصدقاء أسرة «ديديه» أومن أقربائها الأقربين . وقد وجدت الأسرة أنه من الطبيعى أن يطلب منهم مصاحبة « صوفى » و « نانا » و « نينيه » وهن من خلاسيات الفئة الأولى. وقد نتجت عن ذلك فضيحة مدوية . لقد رفضن بادئ ذى بدء حضور حفل الزواج وانتحلن أعذاراً لا تقنع بحال من الأحوال ، ثم أخبرن جداتهن وخالاتهن بتلك الإهانة التى لحقت بهن فتجهمن بدورهن عند سماع الخبر، وتساءلن: لماذا يكون هناك معياران ولماذا يختار رجال من البيض للبعض منهن ، وهن من مستوى اجتماعى أدنى ، بينما يختار خلاسيون ، وهم من السود على أى حال ، لمصاحبة أخريات تضعهن أسماء أسرهن فى أعلى المراتب ؟ إن فضيحة كهذه كان لا يمكن أن تمر كذلك دون أن تسجل فى أرشيف حياة « البورجوزيات » بمدينة «سان لوى» ، ودون أن تعلن على الملأ . وقد اعتزمت تلك الأسر أن ترد على تلك النية المبيتة لإذلالها باللجوء إلى سلاح الفضيحة دفاعاً عن هيبتها التى أرادوا النيل منها ، كما قررت أن تقول لتلك الأسرة التى أهانتها رأيها فيها صراحة .

وقد عمدت أربع من عجائز الخلاسيات ، يوم الاثنين ، أى فى اليوم التالى للفرح ، إلى اقتحام بيت الخالة « سيلفى » ، وأحطن بها طالبات منها إيضاحاً لما فعلته. ومثل هذا التصرف له فى لغة الـ « أولوف » اسم هو : « المجابهة»، والمجابهة إنما تعنى تحدى المعتدى وتبادل العبارات القاسية معه بغية التنفيس عما فى النفس ، وإرغامه على التزام حدوده. . .وقد تكون مناقشة الأمر فى السر أمراً أفضل ولكن هذه الوسيلة قد تحجب الحقيقة عن مجتمع السود ومجتمع الخلاسيين على السواء ، بينما هن ينشدن إسماع النساء اللاتى يمررن فى الشارع ، والأسر الخلاسية المجاورة ، ما سيقلنه فى حق الأسرة المعتدية وكان هذا الإعلان شيئاً هاماً للغاية يهدف إلى أن يعرف الناس فى اليوم التالى مكانة كل أسرة من المختلطين بمدينة « سان لوى » .

— أى نعم ، أما عنا فنحن نعرف تماماً سبب ذلك التصرف ... إن من كان غطاؤه قصيراً يشده بكل قوته لكى يغطى به نفسه . أى مكانة لكم بمدينة « سان لوى » ؟ لن تصلوا أبداً إلى مستوى ركبة من أردتم إهانتهم والتقليل من شأنهم ... وكل سكان « سان لوى » من الرجال والنساء ، من البيض والخلاسيين وحتى من السود ، يعرفون قدرنا ويعرفون قدركم . لستم إلا طبقة حقيرة من سلالة العبيد ... وكذا ... وكذا ...

ودامت تلك المشاجرات حتى غروب الشمس وحتى أرخى الليل سدوله .

يا للخلاسيات المسنات المسكينات ! يا للعوانس اللاتى ضحين بشبابهن ! يا لتلك الأسر التى جرحت وأهينت !

* * *

هكذا احتفل بزواج « ديديه » الخلاسية الصغيرة القيمة بمدينة « سان لوى » من السيد « داريفيه » الملحق بإدارة « الخدمات المدنية » ومن رجال الإدارة فى المستقبل بالمستعمرات كما يدعون . وإن ذلك الزواج لهو غاية الغايات من الوجهة الإنسانية ، إذ يبدو أنه يحقق إلى حد ما التقارب بين الأجناس ، وأنه مثـــل حى لاندماجها بعضها فى بعض .ولـكننا نتساءل : أليس فى هذا الزواج إلا نواح طيبة ؟ لا بالتأكيد: إن كل تلك الخلاسيات الصغيرات المقيمات بـ « سان لوى » — وقد شجعهن ما أصاب إحداهن من حظ سعيد — إنما يأملن أن يكون مصيرهن كمصير « ديديه ». وسوف تنتظرن طوال حياتهن رجلا كالسيد « داريفيه » ... ، وإن كان لن يأتى أبداً . ثم سوف تدركهن الشيخوخة .

* * *

إن ذكرى ذلك الزواج السعيد قد تلاشت كما تتلاشى كثير من الأحداث الأخرى التى تعبر الحياة على جناح طير يمر ولا يعود ، ثم لا يذكر الناس تلك الأحداث إلا لمجرد حاجتهم إلى إيجاد موضوع يتحدثون فيه ، أوهم يذكرونه فى حديث عابر . ولـكن ذلك الحدث قد بذر — بعد أن تلاشى من ذاكرة الناس — نواة لفـكرة ثابتة فى أذهان بعض العجائز التى تمتلىء بالخزعبلات لما طبعن عليه من حب الدس والتآمر ، وهى بذرة تنمو وتـكبر مع مرور الزمن . لماذا يكيل الناس بكيلين ؟ ... لقد تبلورت الفـكرة فى ذهن « هيلين » العجوز جدة « نينى » . إن حفيدتها تربطها، منذ خمسة أشهر ، صداقة بالسيد « مارتينو » ، ذلك الرجل الذى يبدو أنه يتمتع بصفات ممتازة ... مالذى يمنع إذن السيد «مارتينو» من أن يتزوج حفيدتها ؟ وأخذت هذه الفـكرة تلح عليها كما يلح عذاب الضمير . وأخذت العجوز تقلبها فى رأسها على كل وجوهها . وكان رأسها هذا بارعاً فى استنباط الأفـكار وإيجاد التناسق فيما بينها . كانت عندما تستيقظ من نومها تفكر فى ذلك الأمر ، كما كانت هذه الفـكرة

تراودها عندما تبدأ صباحها بالتثاؤب ، وتصحبها وهي تحتسي قدحاً من القهوة، وفي ذهابها لحضور القداس ، وتلح عليها فتفسد ذلك الصفاء الذي يشرد فيه ذهنها وهي تتجه إلى الله ، وتملأ ذلك المكان الذي كانت تخصصه للعناية بواجباتها الدينية . إنها فكرة تملأ نفسها وتحيق بها .

ولكن ما العمل ؟ لقد اهتدت أخيراً والسعادة تغمر قلبها ، بعد أن فكرت طويلا في تلك المشكلة ، وبعد أن توصلت إلى حلول لها يستحيل تنفيذها ، إلى وسيلة كانوا يلجأون إليها قديماً ... تتنافى مع العلم الحديث وتؤتي ثمارها في الظلام . فكرت في اللجوء إلى ما يقوم به الأولياء[١] من أعمال خارقة .

إن هؤلاء الذين يمارسون ذلك العلم المستمد من السماء إنما يسمون بالأولياء[٢] . وهم قد تبحروا في فهم أجزاء من حقيقة الحياة تعجز عن إدراكها الآلات والأجهزة العلمية . والناس لايرونهم أبداً فهم يقبعون داخل صوامعهم المظلمة ويحيطون أنفسهم بالمعرفة وبالألغاز ، ويبدو أنهم على صلة مباشرة بالموتى وبالسماء . إن أذرعتهم ، على مايبدو ، طويلة وهي تمكنهم من التنقيب في الماضي والحاضر والمستقبل ما أرادوا التنقيب ، ليبحثوا عن أسرار الحياة الإنسانية ، وليحولوا مجرى هذه الحياة. وعيونهم نصف الناعسة المغلقة إنما تصل بنظرها إلى أعماق لاتصل إليها عيوننا ، أما أفواههم فهي تنطق بعبارات مبهمة لها سحر وقوة يؤثرون بها في مصير الناس .

يوجد في ضاحية « سور » ، في مكان منعزل هادئ ، كوخ أحد هؤلاء السحرة من الـ« ماندنج »[٣] والجميع يعرف أن الـ « ماندنج » من سلالة الـ « فيتيشيست » ؛ ومن هنا يعتبرون أناساً قد ملكوا ناصية علم جد خطير ، وأنهم على أهبة الاستعداد دائما للانتقام ولبث البلبلة في نفوس من يرغبون في إيذائه. والناس يدعون أن هؤلاء السحرة يحملون أحجبة في أمكنة خفية من أجسامهم تحميهم من المعتدين. ويقال إن حجاباً كهذا له قوة خارقة إلى حد أن أي شخص، إذا تراءى له الاعتداء على رجل من عشيرة الـ « ماندنج » ، سقط على الأرض في الحال وأصابته آلام فظيعة كالمغص تعقبها مظاهر مخجلة . وفي استطاعة رجال الـ « ماندنج » أن يصيبوا الناس بالأمراض أو أن يصرعوهم وهم على مسافة بعيدة منهم حتى ليصعب تصديق كل هذا . وهذه القوة الخفية تسمى « كورتيه » .

---

(١) ربما كان المقصود بهذا اللفظ السحرة لا الأولياء .

(٢) انظر الحاشية السابقة

(٣) وهم الذين أقاموا إمبراطورية (مالي)

و« إيلين » العجوز على اتصال بكثير من الوطنيات اللائى يأتمرن بأمرها وهن على بينة من كل مايجرى فى مدينة« سان لوى » بأسرها . وذات مساء حالك الظلام خرجت من بيتها الرمادى اللون الذى يقع على ضفة فرع النهر الصغير ، بمجرد أن غابت الشمس وعند البدء فى إضاءة مصابيح الشارع . ولم يلحظها أحد وهى تسير فى حذاء الأسوار العالية ثم وهى تعبر الشارع الصغير المؤدى إلى جسر « فايد هرب » مارة بالمدرسة . وكان هناك شاهد واحدعليها هو « باكارى » الصغير ،ذلك الشيطان الصغير الذى يسكن معهم فى ذلك البيت .و « باكارى »عندما يلزم الأمر يصبح أبكم ويتصرف كالآلة دون تفكير .لقد دربوه على أن ينسى فى الحال كل مايراه أو يسمعه ، بل ودربوه أيضاً على أن يقول أحياناً عكس مارأى أوسمع .

وأدركت « إيلين » العجوز جسر « فايدهرب » وهى تنساب كالشبح بين جموع الناس واختارت — حتى لايشعر بها أحد — الإفريز الذى يقع فى الناحية الجنوبية ، والذى لايطرقه إلا رواد الليل .

إن النهر يمتد عن يمينها إلى مالانهاية ، وهو يعكس على صفحته السوداء الأنوار القليلة الخافتة التى تحف بالإفريز . وقد بدا النهر أمامها ، وكأنه حاجز يناصبها العداء، ثم بدت لها مجموعة من الأشباح ومن الأشجار الكثيفة ترمز إلى قرية « سور » .

قرية « سور » ...لقد وصلت إليها بعدقليل ، وهى تسير بتلك الخطوات الوئيدة التى يتميز بها من أدركتهم الشيخوخة ، أى بخطوات تتناسب مع اتزان تفكيرهم .

لم يلحظها أحد لسبب بسيط هوأن كل من يمر فى تلك اللحظة كان مشغولا بأفكاره ، وكانت تلك الأفكار تباعد بينه وبين التفكير فى غيره من الناس ، فأحدهم يحمل خبر وفاة أحد أقربائه ، والآخر يسرع الخطى إلى حيث يلقى حبيبته ، ومنهم من يتذوق رقة تلك الليلة الهادئة .وهناك عمليات حسابية لاتنتهى تشغل تفكير البعض أوأحاسيس عنيفة تعترى البعض الآخر وتشل تفكيرهم .

و « إيلين » العجوز بدورها مشغولة بفكرة تلح عليها .هاهى تعبر قرية « سور » فى هدوء وتصل إلى حى « نديولوفين » أى إلى مملكة الأسرار والأرواح الهائمة .

وفجأة خرجت من بين طيات الظلام امرأة سوداء اتجهت نحوها وهى تتمتم

بكلمات تدل على أن المرأتين قد انثويتا شيئاً . وسارت المرأتان يتبعهما « باكارى » إلى حيث تقع بعض أشجار متناثرة في غير تناسق . وتقدمتا في ظلمة الليل التي ابتلعتهما، ثم وصلتا آخر الأمر أمام كوخ حقير مهجور ... كان هناك ضوء باهت يرتعش بداخله ، وكان المكان يوحي بأنه بؤرة للأعمال السحرية .

إن الليلة حالكة والسكون من حول الكوخ شامل مقبض . لم تكن تسمع شيئاً ولا حتى نباح كلب أو بكاء طفل رضيع أو ضحكة أو سعال يشعرك بأن كائناً من الكائنات يسكن ذلك المكان .

أما « باكارى » الصغير ، الذى ورث عن أجداده الإيمان بالخرافات ، فقد ارتسم الفزع في عينيه المفتوحتين في هذا الظلام الدامس وأخذ يتفرس في أشجار الغابة التي كان يخيل إليه أنها تتحرك وتتراقص عن بعد ، وأن هناك أصواتاً تهيم في ذلك السكون وتطن في أذنيه .

وتقدمت المرأة السوداء وطرقت الباب فأجابها صوت كالأنين لا يمكن أن يكون لكائن بشرى ، كأنه ينبعث من داخل قبر .

ودفعت المرأة السوداء باباً مصنوعاً من الغاب المجدول يفتح على أغوار من الظلام يضيئها ضوء خافت هزيل ويتحرك في طياتها جسم ينحنى على الأرض ...

ودعا الساحر المرأتين للجلوس بإشارات بطيئة للغاية دون أن ينطق بكلمة ، فليس من دأب الساحر أن يكلم الناس مباشرة . إن صرامة المذاهب التي يدين بها والتي يحاول أن يخضع لها أعضاء جسمه وحواسه تحظر عليه أى اتصال ببنى الإنسان، وأى كلام معهم .

وفى تلك الأثناء أخذت « إيلين » العجوز تدير بصرها ببلاهة داخل الكوخ . إن جدرانه التي يغطيها الطين، والتي كانت فيما مضى رمادية ، أصبحت شديدة القذارة وتتخللها حفر عميقة . ورأت في أحد الأركان تلا من الكتب المقدسة تغطيها جلود الماعز ألقيت فوقها في استرخاء سبحة ضخمة لحاجبات سوداء حجمها غير عادى ، ورأت على الأرض شيئاً يشبه الأريكة هو الآخر مغطى بالكتب المقدسة ، كما رأت هنا وهناك بعض عصافير الـ « كاناريا » وزهرية وزجاجات ملأى بمواد غريبة تزدحم بها أرض الكوخ المصنوعة من الطين .

وفى خارج الـكوخ اعترت « باكارى » نوبة عارمة من الخوف جعلته يرتجف من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه . إن كل تلك القصص الرعيبـــة ، التى كان يقصها أجـداده عن الشياطين والسحرة الجالسين فى الليالى الحالـكة عند مداخل الغابات التى تحوى أشياء مخيفة ، أخذت تلح على خياله وتطارد أفـكاره المبلبلة . كانت أوصاله ترتعد عند اهتزاز أشباح الأشجار بفعل الريح ،وكان يخيل إليه أن هناك أرواحاً خفية معادية لبنى الإنسان تتراقص حولها ، وكان يتنازع قلبـه الفزع الذى يفقده صوابه وخوفه من تأنيب « إيلين » العجوز التى كان يخشى كلماتها اللاذعة ، ولذا فقد فـكر فى التغلب على فزعه وحاول أن يفـكر فى شىء آخـر وفى مكان آخر : أخذ يفـكر بالطبع فى البيت الصغير الذى يسبح هناك فى ضوء المصابيح الـكهربائية التى تنفى وجود الـكائنات غير المرئية ، وفى بهجة حى « لودو » ، وفى رفاقه الصغار ، وفى الموسيقى التى تنبعث أنغامها يوم الأحـد بين جنبات ميدان مقر الحـكومة . ولـكن فـكره الذى شرد بعيداً لم يمنع جسمه من أن يشعر بتأثير ذلك المـكان الفزع على حواسه التى تؤول كل شىء بألوان من التهويل ... وشرع « باكارى » الصغـير يصفر برفق ، بمنتهى الرفق ، حتى لم يستطع هو نفسه سماع نغم الأغنية الذى ينبعث من بين شفتيه غير اللاهثتين . كان يلتمس بهـذه الوسيلة أن يتهمك جسمه فى نوع من النشاط يمكن أن ينقـذه من ذلك الـكابوس الذى يخيم على تفـكيره وهو فى حالة اليقظة . ومع ذلك زاد خوفه وزادت حواس الصبى الأسود الصغير حدة . إنه ليبدو له الآن أن كتلا من الظل تقترب منه ، وأنها ترتفع بعد ذلك صوب السماء ثم تختفى ، وهو يستشعر فى نفس الوقت وجود أياد ضخمة بجواره تتأهب لأن تطبق عليه وتطحنه بين راحتيها . والتصق بالجدار المشيد من الطين وانـكمش تحت المظلة التى تغطى الـكوخ وتمتد خارجه،وهو يشعر أنه فى هذا الوضع يتجنب كل الأرواح الشريرة التى يمكن أن تفاجئه من الخلف .

أواه !.. أى حظ هذا الذى أقحمه فى تلك النزهة الليلية إلى مكان مخيف وخطر كهذا ؟ ورفض كدأبه ، ولا سيما فى تلك اللحظة ، أن يتساءل عن أصل نشأته وعن تلك المـآسى التى لحقت به بوصفه خادماً صغيراً يعمل تحت رحمـة سيداته وسطوتهن العمياء . إنه يستسلم للقدر الذى أراد له أن يكون بلا أسرة وبلا بيت ... وعندما ستهب تلك الشياطين أو هؤلاء السحرة فى ظلمة ذلك الليل الذى تسكنه

قوة شريرة للقبض على روحه ، سوف يكون ذلك لحسن حظه إذ لن يتبقى منه شيء ، ولن تنال منه « نيني » بشراستها ولا الخالة « هورتنس » بصرامتها ، ولن تتمكنا من النيل منه وإرضاء شهوة الأذى فى نفسيهما . سوف يحصل أخيراً على الراحة .

ولما واتته تلك الفكرة فجأة استمد من ذلك الاستسلام قوة وكف عن الإحساس بالخوف ، وأخذ ينتظر .

وفى تلك الأثناء كان الـ « ماندنج » يتناقش مع المرأة السوداء و « إيلين » العجوز فى مشكلة « نيني » و « مارتينو » . إن المرأة السوداء هى التى تكفلت بشرح الموضوع ، وقد أكدت لل « ماندنج » أنها بمثابة أخت لـ « إيلين » العجوز وألحت فى تأكيدها هذا حتى يصدقها الرجل ولا يشك فى قولها . قالت المرأة : لقد صحبت إليك أختى ، وبالرغم من أن لونها أفتح من لونى فنحن من نفس الأسرة ، ولنا نفس الأجداد من حيث أصلنا الأسود ، ونحن شخص واحد لا فرق بينى وبينها ، ويجب أن تفعل من أجلها ما كان يمكن أن تفعله من أجلى لو أننى كنت فى نفس حالتها .

وأمنت « إيلين » العجوز على ذلك الكلام بدون تحفظ فهى تعترف مخلصة بتلك القرابة الوطيدة التى تربطها بالمرأة السوداء ، على عكس « نيني » التى يعميها عن رؤية تلك الحقيقة لونها الأبيض . وترى « إيلين » أن الغاية تبرر الوسيلة وأنه لا غضاضة فى أن توافق على هذا القول فى حضرة ساحر من عشيرة الـ « ماندنج » لا يبوح أبداً بسر يسهل الأمور فى ذلك الظرف .

وأردفت المرأة السوداء فى صراحة مؤلمة :

— إن حفيدتها على علاقة برجل أوروبى ، والرجال الأوروبيون كما نعلم جميعاً ليسوا إلا أوغاداً دأبوا على خداعنا . حفيدتها إذن على صلة برجل أوروبى ، ومن الأفضل أن يتزوجها ما دام قد عرفها بـ « أسرار الحياة » .

وبقى الساحر مدة طويلة دون أن ينبس بكلمة ثم نطق أخيراً ، وهو يوجه حديثه للمرأة السوداء ولـ « إيلين » العجوز ، بهذه الكلمات :

— إن الأمر يبدو لى على جانب عظيم من الأهمية ، لا سيما أنك أنت يا « خادى »

التى تعرضينه إذ أن صلتى بك تعتبر من أقوى الصلات التى تربطنى بالناس فى هـذا البلد ، ولـكن يجب أن أخبرك بأن حل هذه المسألة ليس بالشىء السهل الميسور . لا بد لى من دخول الـ « خلوة » . وربما كانت السيدة تجهل معنى الـ « خلوة » هذه ولـكن فى إمكانك يا « خادى » أن تبصريها به . ويجب أن أبقى فى هـذه الخلوة أسبوعاً كاملا قبل أن أتمكن من إخباركما إذا كانت الأرواح التى بيـدها الأمر تقف فى صفـكما أو ضدكما . وليس فى إمكانى أن أعطيـكما هذا المساء أى رأى فيما يتعلق بهذه المسألة . وأنا أطلب من السيدة أن تعود بعد أسبوع بصحبتك لمعرفة قرار الأرواح بعد أن أكون قد التمست رأيها بالصلوات .

ولم يرض المرأة السوداء أن تترك « إيلين » العجوز هكذا تعود من حيث أتت ، ولا زاد لها إلا ذلك الوعد المبهم ، ولذا قالت :

— أتعتقد يا سيدى أن الأرواح ستـكون فى صفنا ؟

وأجابها الساحر : الله وحده هو الآمر الناهى .

وانسحبت المرأة السوداء و « إيلين » العجوز بعـد أن حـددتا ميعاداً مع الـ « ماندنج » تعودان فيه فى الأسبوع التالى .

ولما شعر « باكارى » الصغير بعـودة سيدته هب واقفاً بأدب جدير بخادم صغير أحسنت تربيته .

وبدا طريق المودة أقـل طولا فى نظر « إيلين » العجوز ، سواء كان ذلك لأنها سبقت أن سلـكته من قبـل أو لأن الساحر قـد أعطاها بعض الأمل دون أن يشعر .

مازالت « إيلين » العجوز تدير فى رأسها الزاخر بالخيال أفـكاراً مشوشة تتضح ثم تتصادم وتهدم بعضها بعضاً . إن بعض تلك الأفـكار تصور حفل تـكريم تظهر فيه « نينى » فى مـكان الصدارة وقد ارتسمت على محياها علامات السعادة والتشفى ، وبعضها تشير إلى مستقبل قاتم يظهر فيه السيد «مارتينو» وعلى محياه علامات السخرية حتى ليصعب التعرف عليه وهو يستقل ذات يوم قطار « داكار » عائداً إلى بلده فرنسا ، تاركا « نينى » فى حالة حمل وبلا سند . .

ولمدة طويلة أخذت تلك الأفكار المتضاربة تلح على رأس « إيلين » العجوز أثناء عودتها ولم توجه كلمة واحدة لـ « باكارى » الصغير الذى شعر بالسعادة لابتعاده عن ضاحية « نديولوقين » التى خيل إليه أنها تحتوى على أسرار مخيفة للغاية .

وفى هذا المساء لم يتكلموا فى بيت « نينى » إلا عن الساحر وعن الأرواح . وأخذت «إيلين» العجوز — التى تؤمن إيماناً راسخاً بذلك الوسيط الذى يعتبر بمثابة همزة وصل بين الله وبين الإنسان — تصف بالتفصيل معالم ذلك المكان وشكل الرجل الذى يسكنه .

وانتابها مايشبه التعطش إلى صور الماضى ، وأحست برغبة فى تفخيم الأشياء وإلباسها ثوباً من الأبهة وكأنها فى رؤيا . وأخذ الإيمان العميق بالخرافات الذى ورثته عن أجدادها يصبغ حديثها بألوان من المبالغة والتهويل ، وقالت :

— ليس هذا المكان مكاناً عادياً . إن المدافن بما يسودها من برودة مخيفة تعتبر أقل صرامة منه ، وإن كان هناك مكان يصلح للخلوة بالأرواح والانزواء فهو ذلك الكوخ المرعب . والحقيقة أن هؤلاء الذين يدعون أن لاشىء هناك خارج نطاق ماتراه العين وتلمسه اليد لأدعياء مضحكون ، فهناك بالتأكيد كائنات تحيط بنا وتعيش بيننا وتتربص لنا وتتلصص علينا . لقد أحسست إحساساً قوياً بأن فى كوخ الساحر إنما توجد أرواح تمزج أنفاسها الساخنة بأنفاسنا . وليسامحنى الله إذ شككت لحظة فى وجود تلك الأرواح . إن إيمانى المسيحى القوى قد تعرض لأن ينتابه الوهن لإلحاح تلك الفكرة على ، ولكنى سوف أبتهل إلى الله قبل أن آوى إلى فراشى فى صلوات إضافية ليغفر لى تلك الهفوة . وقالت الخالة « هورتنس » : إن قضيتنا مشروعة وسوف يسامحنا الله على هفواتنا فهو العليم بنقاء سريرتنا . وسألت « نينى » وهى أكثر منهما واقعية : ولكن على أية صورة سيكون حجابه ؟ إنى أعرف تماماً السيد « مارتينو » فهو شديد الفضول وسيكتشف بعد قليل أى شىء سأحمله على جسمى ، ولذا أفضل أن يعطينى الساحر بعض الماء المقدس . يالسخرية القدر ! إن « نينى » التى تدعى أنها « فتاة بيضاء » كان لايمكن لها أن تتعامل مع ساحر أسود لو لم يتعلق الأمر بصلتها برجل أبيض وهى عادة تسخر

بضحكات عالية من تلك الأحجبة التى يعلقها السود فى أعناقهم ، وهى عندما تـكون فى صحبة البيض تدعى أنها عاجزة عن تصديق مايدعيه السود من وجود الشياطين والسحرة الذين يلتهمون أرواح الناس .

لقد قالت ذات يوم لـ « بيران » : كم هو مضحك أن يؤمنوا بتلك الأحجبة القذرة ، بتلك الأكياس المليئة بالبق ! إن هذا ليفوق خيالى ، أيمكن أن يتصوروا أن ماء قذراً كماء المقدس يمكن أن يغير ما رسمه القدر ، وأن يؤخر حدوث شيء ؟ إن هذا لهو الجنون بعينه .

وأجابها « بيران » فى سخرية : — ولماذا تحملين إذن الأيقونات .

— أوه ! إن الأيقونات شيء آخر . إنها شيء نظيف ، ثم أنها شيء قد باركه الله وسيدنا يسوع المسيح ... لعلك لانريد أن تقارن تلك الأيقونات التى تحمل صورة سيدنا بهذه الأكياس المليئة بالقذارة والبق .

وسكت « بيران » وشعر قلبه المرح بالسعادة من ذلك الحوار .

ومع ذلك فإننا سواء لجأنا إلى الـكلمات المقدسة أم إلى الأحجبة والماء المقدس التى ذكرتها «نينى» إنما نحاول الاتصال بالأرواح . وعلى أية حال فهاهى «إيلين» العجوز قد تركت بيتها بالمدينة لتذهب إلى ضاحية « نديوفولين » حيث الليل حالك السواد وحيث توجد أكياس المسحوق الرمادى، وحيث الماء المقدس وهى أشياء يجب استبعادها من الناحية الصحية .

ولـكن هيهات أن نـكتشف تلك الحقيقة الـكامنة داخل النفس البشرية .

وبعد أن مر أسبوع عادت « إيلين » العجوز إلى ضاحية « نديوفولين » لتعرف من الساحر رد الأرواح .

بدأ الشك لحظة يراود قلب الخلاسية العجوز . ولـكن ليس من الجائز لمن يعرف قدر قدسية هؤلاء السحرة ومقدرتهم على الاتصال بالأرواح عندما يختلون بأنفسهم ، أن يشك فى نتيجة اتصالهم بتلك الأرواح التى « لاتكذب أبدا » .

وكانت خطوات « إيلين » العجوز فى تلك المرة نشيطة سريعة فقد كانت تسير بخفة وتتراقص كالشبح . لقد كانت فى تلك الحالة النفسية التى تعترى من يتوقعون

سماع خبر يمكن أن ينقذهم إلى الأبد من شر يتوقعونه أو أن يقضى عليهم فى الحال .
وكان « باكارى » يتبعها عن كثب وكان الخوف يغزو قلبه كلما تقدم فى السير نحو ضاحية « نديولوفين » المظلمة الكثيفة التى تحف بها الأشجار .

إن الخوف من الغابات الكبيرة التى تسبح فى السكون ، ومن الأماكن التى تتكاثف فيها الأشجار شيء غريزى لدى الصبي الأسود الصغير وأثر من آثار الوراثة تمكن من نفسه باطراد بفعل خيال الجدات المسنات الخصب اللائى لا يكففن عن الكلام عن الجن والسحرة طوال الليل ..

ووجدت « إيلين » العجوز المرأة السوداء واقفة فى نفس الساعة ونفس المكان الذى قابلتها فيه فى المرة السابقة منذ سبعة أيام . وحيتها المرأة ومدت يدها وهى تثنى ركبتها فيما يشبه الركوع .

وكما حدث منذ سبعة أيام ابتلعهما الظلام واختفتا وراء أوراق الأشجار الكثيفة .

وأثلج صدر « إيلين » العجوز خبر أن الأرواح إنما تقف فى جانبها . وأخذ الـ « ماندنج » يشرح ويطيل فى شرح تفاصيل لقائه بالأرواح ، وسرد ما لمسه منها من تحفظ وتجهم ، كما شرح كيف أمكنه إقناعها بعد جهد جهيد وبعد إلحاح .

وقال فى النهاية : المهم أننا قد حصلنا على ما نريد . سوف يذوب قلب « نيى » وقلب الرجل الأبيض معاً كما يذوب الهواء مع الضوء ، والموت وحده هو ، الذى يضع حداً لكل شيء ، وهو الذى يمكنه أن يفرق بينهما .

وسلم «إيلين» العجوز عن طريق المرأة السوداء ثلاث زجاجات مليئة بالـ «سفارا» (وهو ماء مقدس أعد بطريقة خاصة) ثم زودها بالبيانات اللازمة لاستعمال كل من تلك الزجاجات .

— يجب على الصغيرة أن تستحم بماء الزجاجة الأولى مرة واحدة ... وعليها فى كل صباح ، قبل أن يصل إلى عينيها أى شعاع من أشعة الشمس ، أن تأخذ فى بطن يدها قليلا من الماء الموجود بالزجاجة الثانية لتبلل به وجهها . أما عن السائل الموجود

بالزجاجة الثالثة فيجب أن يسكب فى طعام يتحتم أن يأكله الرجل الأبيض بأية صورة من الصور وبأى ثمن .

ولم يبق إلا الاتفاق على ثمن ما أداه الساحر من أعمال . إن « إيلين » العجوز مستعدة للتضحية بكل غال ، وكانت هى البادئة بالكلام عن مسألة النقود هذه ، وهى من الأمور الحساسة ولا سيما فيما بين الإفريقيين عندما تربط بينهم صلة أو يجمع بينهم تعارف .

وبدأ الـ « ماندنج » يتكلم ، وأخذ يطيل فى الحديث وهو يأتى بحركات بطيئة يريد أن يفصح بها عن عدم مبالاته بالمسائل المادية . قال الرجل .

— كان ذلك العمل طويلا مضنياً . وقد اقتضانى أن أصلى كثيراً ، وأنت تجهلين ولا شك أن الأرواح تكره أن يزعجها أحد فى مأواها الهادئ . وكل محاولة من قبل الساحر للاتصال بها والاسترشاد برأيها إنما هى مجازفة لا يقدم عليها إلا القليلون . ومن الممكن يا سيدتى أن يجن المرء فى بحر الأيام السبعة التى يقضيها فى خلوة مع مخلوقات شرسة شريرة يمكن أن تظهر له بأشكال لا حصر لها لكى تخيفه أو لكى تشككه فى قدرتها . وقد تختفى عند أية هفوة يرتكبها أو إذا ما شرد لحظة أو قد تفقده صوابه إلى الأبد ... وأفضل أن أفهمك أخيراً أن ذلك العمل لا يقدر بمال . وإذا كنت قد قمت به فلأن « خادى » التى تربطنى بها صلات قديمة هى التى جاءت بك إلى ، ولأن القضية التى تدافعين عنها تبدو لى قضية عادلة ... إن عملا كالذى أديته من أجلك لم يكن فيما سبق يدفع عنه أجر بالنقود ، وبالنقد الورق بالذات . لم تكن هناك إذن أوراق نقد . كان أمراء وملوك الزمن الغابر — الذين كنا نزوى فى « خلوة » من أجلهم — يدفعون لنا أو بمعنى أصح كانوا يكافئوننا بمنحنا عبيداً أو ثيراناً أو قطعاناً من الماعز . وقد ولى ذلك الزمن ... ولو أنى أردت فى أيامنا هذه قبض ثمن أولئك العبيد أو تلك الثيران أو قطعان الماعز بأوراق النقد لا حتجت إلى أكياس لنقل ذلك المال من عندك إلى بيتى . ولكن ذلك لم يطرأ على بالى إذ على الساحر النزيه فى أيامنا هذه أن يعمل لله ولخدمة الناس قبل أن يفكر فى طيبات الدنيا ...

لقد أحسن فيما قال وكان بليغاً ... وأعجبت « إيلين » العجوز بذكاء الساحر

وبحكمته . ثم قال الساحر « إن ما يكلفه ذلك العمل الذى أديته مع مراعاة عدم إرهاقك ... » وهنا نظرت « إيلين » العجوز ، التى ظهر الضيق عليها بوضوح لعجزها عن تقدير قيمة ما أداه الـ « ما ندنج » من عمل ، إلى المرأة السوداء كمن تطلب منها أن تأتى لنجدتها . وتدخلت المرأة بسرعة قائلة :

— يا سيدى الساحر . إنى أعتذر لك فقريبتى عاجزة عن تقدير قيمة الخدمة التى أديتها وهى تخشى أن تخطئ إن هى فعلت . أنا واثقة من أنها لا تحب أن تسلبك حقك بإعطائك أقل مما يستحقه عملك ... وعلى أية حال فيجب ألا يكون الفرق شاسعاً بين ما عليها أن تضحى به وبين ... قيمة ما أديته من عمل ...

وأجاب الرجل : بكل تأكيد ... ولكنك أنت يا « خادى » التى اعتدت ذلك النوع من الأعمال ، والتى عرفت حقيقة الحياة التى نحياها ونوع العمل الذى نؤديه لخدمة الناس ، لعلك تستطيعين تقدير قيمة سهر تلك الليالى السبع والصلوات المتواصلة والزجاجات الثلاث التى سلمتها للسيدة منذ لحظة قصيرة .

ونزلت المرأة السوداء من فوق الأريكة التى كانت تجلس عليها بجانب « إيلين » العجوز وجاءت تجلس على الأرض بجانب الساحر ، وأخذت تسر بأشياء فى أذنه . وتناقشا طويلا بصوت خافت وكانا ينطقان بكلمات سريعة لم تفهم الخلاسية العجوز معناها ، ثم نهضت المرأة السوداء وعادت لتجلس بجانب الجدة « إيلين » وأخذت تسر إليها فى أذنها ببعض الكلمات .

وقالت : « إيلين » : لقد اتفقنا ياسيدى الساحر . لقد أخبرتنى « خادى » أنك تطلب خمسة الآف فرنك وعشرين متراً من قماش الشبيكة

— هذا صحيح ياسيدتى وثقى أن ذلك الثمن أقل ما يمكن أن أطلبه .

— إنى أقدر الأمر ياسيدى الساحر وأشكرك شكراً جزيلا . وأنا أشكر « خادى » هى الأخرى فهى قريبة مخلصة ، ولولاها ما كان لى حظ التعرف بك والانتفاع بعلمك .

وأجابها الـ « ماندج » بوقار : ليساندنا الله وليكلل جهودنا بالنجاح .

وعقبت « إيلين » العجوز والمرأة السوداء بقولهما : آمين .

واتفقوا على أن تتولى « خادى » مهمة قبض الخمسة الآلاف فرنك وأن تتسلم العشرين متراً من النسيج القطنى الخفيف .

* * *

وفى اليوم التالى استحمت « نينى » بماء الزجاجة الأولى . ومنذ ذلك اليوم بدأت تبلل وجهها فى كل صباح بماء الزجاجة الثانية ، قبل أن ترى عيناها أولى أشعة الشمس .

إن استعمال الماء المقدس عند السحرة والمعالجين الإفريقيين شىء مألوف ، ليس لتجنب آلام البدن أوشفائها فحسب وإنما لتجنب ألوان الأذى الخفية والشرور التى يمكن أن تسببها لنا بعض كائنات خفية تحيط بنا وتقحم نفسها فى حياتنا لتؤثر على نفوسنا ؛ وهى أعمال يأتى بها الجن والسحرة . ويصعب علينا شرح الطريقة التى يلجأ إليها أساتذة ذلك «العلم الأسود» ليبطلوا — عن طريق ذلك الماء المقدس — فعل أعمال السحر التى تهدف أولا وأخيراً إلى الإقلال من قدرات الإنسان وحيويته ومن اتزانه العقلى . وهناك أناس كثيرون قضى عليهم وجنوا تماماً بسبب فزعهم من رؤية ابتسامة قاتلة ترتسم على فم جن أوعين ساحر ممن يلتهمون أرواح الناس فى الليل تحت ظل شجرة كثيبة أوحتى فى وضح النهار ، فيشعرون بدوامة تطيح بعقولهم ... إن هؤلاء الناس — بفعل مايصيب عقولهم من دخل عند تلك الرؤية — يخلعون ملابسهم ويتنكرون لآدميتهم ، ويتكلمون لغة جديدة وتتقمص الأرواح أجسادهم فتقيم بينهم وبين الناس جداراً سميكاً . وهم فى ذهولهم هذا يهيمون ويسمون إلى ادراك الآفاق التى يسمعون منها ضحكات شيطانية تنبعث من أفواه الذين قد تقمصوا أرواحهم . ولابد من ماء مقدس مصنوع من بعض النباتات يصلى عليه بتلاوة آيات قرآنية لإعادتهم إلى حظيرة الآدميين ، وهو ماء يقضى على كل الشرور وآثار السحر ويعيد إلى ضحايا الجن والسحرة شخصياتها الطبيعية وهذه القدرة الإنسانية والاجتماعية مثل أندادهم .

أما بالنسبة إلى « نينى » فالحال تختلف ، ذلك لأنها لم تصب بالجنون ولاتطاردها عين ساحر . إن كل ما أصابها إنما هو حبها لرجل ... أبيض ، أوهى بمعنى أصح تود

أن تستحوذ على ذلك الرجل . وفى تلك الحالة أيضاً كانت فى حاجة إلى نوع أو إلى أنواع من الماء المقدس جاءتها بها الجدة « إيلين » من ضاحية « نديولوفين » .

إن تلك الأنواع من الماء المقدس يجب ألا تعمل للطرد وإنما للجذب . وفى هذه الحالة أيضاً يصعب شرح الوسيلة التى يلجأ إليها السحرة . ولذا يجب أن نسلم بأن أنواع الماء المقدس التى صنعها « ماندنج » ضاحية « نديولوفين » لها تأثير سحرى ، وأن لها — أو هذا هو المفروض — قدرة على التأثير فى « مارتينو » بحيث تعميه فيحس بجمال وجاذبية « نينى » . وتفسير ذلك الأمر بالغ التعقيد ولذا لا يحاول السحرة أو المعالجون الإفريقيون تفسيره أبداً ...

أما استعمال محتويات الزجاجة الثالثة فقد كان مشكلة يصعب إيجاد حل لها . كان لابد من إيجاد وسيلة لكى يأكل « مارتينو » طعاماً مخلوطاً بذلك السائل . وعلى كل حال لقد اهتدت « نينى » بسرعة إلى الحل . لم يحدث أبداً أن تناول « مارتينو » الطعام فى بيتها وليس هناك مبرر لأن يرفض دعوة إلى تناول الطعام ، لاسيما أن الاحتفال بذكرى « ١٤ يوليو » العيد القومى ، قد قرب .

وأخبرت « نينى » جدتها وخالتها بالفكرة التى راودت ذهنها فترددتا فى بادئ الأمر فى الموافقة عليها إذ خشيتا أن يرفض الرجل الأوروبى قبول الدعوة وما فى ذلك الرفض من إهانة . وهما تعرفان أن غالبية البيض إنما يجب رجاؤهم والتوسل إليهم لكى يقبلوا دعوة توجه إليهم فى بيئة غير أوربية . وهما لا تقبلان أن تقللا من قدرهما بالتعرض إلى احتمال رفض دعوتهما ، وإن سنهما لتفرض عليهما تجنب أية إهانة ...

ولكن ماجدوى كل ذلك العناء إذن — اللجوء إلى الساحر ، ودفع خمسة آلاف فرنك ، وثمن عشرين متراً من نسيج قطنى — إذا كانت « نينى » عاجزة عن التوفيق فى إقناع « مارتينو » بقبول دعوة توجهها إليه !

وذات يوم قالت « نينى » لـ « مارتينو » ولـ « بيران » بشجاعة استمدتها من ثقتها فى تأثير قوى السحر الخفية :

— ماذا سيفعل هذان السيدان فى ليلة « ١٤ يوليه » ؟

وأجابها « بيران » : ماذا يمكننا أن نفعل غير الاستسلام للملل؟... اللهم إلا إذاما ، كعادتنا ...

وقاطعته « نيني » بقولها : لا ، إن ذلك الأمر قد أصبح رتيباً مملا . لقد قررت أن نقضي ليلة الثالث عشر من يوليو ببيتي وأخطرت بذلك جدتي وخالتي : العشاء يوما إلى ذلك ، ثم كل ماتريدان .

وقال « مارتينو » وهو ينظر إلى « بيران » طالبا موافقته :

— حسناً ! إني موافق .

وأردف « بيران » : لا بأس . لا مانع لدى ، بل إني أرحب بالفكرة .

وأجابت « نيني » : كان هذا أقل ما أنتظره منكما . قالتها وهي تشعر بنشوة النصر .

وبالرغم منها اتجه تفكيرها إلى تلك القوة القهرية التي يتميز بها نوعا الماء اللذان قدمهما الـ « ماندنج » ...

ومنذ ذلك اليوم الذي وافق فيه الرجلان الأبيضان على قبول الدعوة بدأت الاستعدادات بشكل غير مألوف ، ودب النشاط في أرجاء البيت : من تنظيف إلى غسل إلى تلميع . وأخفيت قطع الأثاث البالية والمقاعد غير السليمة . لقد أرادت « نيني » أن تبعث إلى الحياة ذلك الجو العائلي الذي عاش فيه كل هؤلاء المستعمرين من ذوي اليسار ، وكل ضباط البحرية الذين منحوا أسماءهم الخفاقة تلك الخلاسيات اللائي يسمين : « نيني » و « ميمي » و « نينيت » ...

ولم يكن في مقدور « ياكاري » الصغير أن يزيل بمفرده ماترا كم من قذارة على « درابزين » السلم وعلى سور الشرفة وعلى الجدران بفعل الزمن والريح وما تحمله من غبار تأتي به من كل مكان ، ولذا ألحق لمساعدته رجلان أسودان كان كل أجرهم أن يتناولوا مايتبقى من الطعام الذي يقدم للأسرة .

بعد أقل من أسبوع سيلمع كل شيء ، وستر تاح إلى كل شيء أنظار المدعوين .

* * *

إن ليلة « ١٣ يولية » ليلة مليئة بالأمل ... فهى تبشر ، كـكل الليالى التى تسبق الأعياد ، بعد صاخب كله متع بالنسبة إلى الشباب ، كما تبشر المتزنين والمرهقين دواماً بغد يستمتعون فيه بالراحة .

إن الشوارع ترفرف على جنباتها الأعلام الفرنسية ، وقد أقيمت فى ميدان مقر الحـكومة منابر مزينة . إن ذلك اليوم يوحى بحدث تاريخى يشترك السود فى إحيائه عن طيب خاطر لمجرد أن الاحتفال به يتيح لهم الظهور فى الشارع بملابسهم الأنيقة، والرقص والتظاهر والتأنق ...

وفى الصباح الباكر ذهبت « فاتوفال » وهى ابنة خالة لـ « نينى » إلى سوق « جت ندار » فى صحبة « باكارى » الصغير . لقد طلبت منها الخالة « هورتنس » التى تتميز عن « إيلين » العجوز بمهارتها فى إعداد ألوان الطعام ، أن تشترى كذا وكذا ... كميات كبيرة من الخضر لأن البيض يحبون أكلها ، وكميات من اللحم لأن البيض من أكلة اللحوم، ودجاجتين لأن الولائم لا تنجح أبداً إذا خلت من صنف من الطيور .

واستمعت « فاتوفال » بأذن صاغية إلى إرشادات الخالة « هورتنس » ... ، ثم ذهبت إلى سوق « جت ندار » حيث الأكوام ، التى وضعت فى غير نظام والتى يعلوها الغبار ، من اللحوم والأسماك والخضر الطازجة أو الجافة والجلود المدبوغة والشعور المستعارة المصنوعة من الصوف أو من القنب . . ولما كانت الفتاة معتادة على المساومة فقد نجحت فى الحصول على مشترياتها بنصف الثمن المعروض .

وعادت « فاتو » إلى البيت وهى تتهادى كما تفعل نساء الـ « أولوف » اللائى يعرفن كيف يبرزن محاسنهن وكانت تفصح عن رضائها تلك الحركات التى تأتيها بعصا صغيرة تمررها يدها يمنة ويسرة على أسنانها الـكبيرة البيضاء المتلامسة . وكان « باكارى » الصغير يسير خلفها حاملا سلة مليئة بالأطعمة ينوء بحملها .

وأثناء مرورهما فوق جسر « سيرفاسيوس » أطلت الدجاجتان بعنقيهما وكأنهما تنظران نظرة أخيرة إلى النهر الذى يشكل شريطاً رمادياً عريضاً . ورفع كلب أجرب فمه الأسود الذى يسيل منه اللعاب نحو شرائح اللحم الوردية اللون التى كانت ترى من خلال فتحات السلة ، وكان يبدو على الخضر نفسها أنها تأسف لافتقار

المكان إلى عنز تثير إعجابه بنضرتها . أما الأسماك ذات اللون الرمادى الذى يشبه لون المعدن فقد بدا — عندما أحست بنسمة تشيع فيها روح الماء — أنها تحرك ببطء زعانفها ، أما سمكة الـ « لانجوست » الحمراء فقد حركت ذيلها الذى يشبه المروحة .

لقد أبت الخالة « هورتنس » أن تعهد بإعداد تلك الوجبة الفخمة إلى أيد غير ماهرة ، وهى تعرف أن بنات اليوم — ومن بينهن « نينى » — إنما يتباهين بأنهن يجهلن كل شىء عن فن الطهى . إن الطهى فى نظرهن من الأعمال التى لا تتناسب إلا مع نساء يكن من عامة الناس ، فنحن نعيش فى عصر لا بد أن تكون المرأة فيه طاهيتها وخادمها وغسالتها على أقل تقدير .

أما فى زمن الخالة « هورتنس » فقد كانت نظرة الناس مختلفة تماماً فيما يتعلق بدور المرأة والصفات التى يجب أن تتحلى بها . لقد كانت الفضيلة الأولى التى يطلبون توافرها فى المرأة هى إتقانها لجميع الأعمال المنزلية . كان أقصى شىء تتفاخر به هو براعتها فى إعداد ألوان ممتازة من الطعام ، لذيذة الطعم ، تنافس بها غيرها من النساء وكان النساء فى جيل الخالة « هورتنس » يتباهين فيما بينهن بمهارتهن فى طهى نوع من الطيور المستأنسة أو البرية كما يتنافس الفتيات من جيل « نينى » فى تقليد نساء أوربا من البيض اللاتى يتغربن عن بلادهن .

وانهمكت الخالة « هورتنس » فى العمل فى ساعة مبكرة من بعد الظهر ، وكان يعاونها « فاتوفال » و « باكارى » ، وامتلأ البيت برنين الآنيــة وهمس القدور وأزيز الغليان وفاحت فى البيت رائحة اللحوم التى تطهى بالتوابل والخضروات والصلصة التى كانت توحى بجو المطاعم الفاخرة .

وعندما حل المساء كانت كل الأصناف معدة ، ولم يبق إلا إعداد المائدة وهى مهمة دقيقة كانت تحتاج إلى مهارة « نينى » ومعاونة صديقتها « مادو » .

وبعد أن زينت « نينى » و « مادو » المائدة ، ورتبتا الفوط على شكل تيجان ، نسقتا المقاعد وأدوات المائدة ، وعينتا المكان المخصص لكل مدعو ... بعد ذلك كله اتجهتا إلى المطبخ لتمتعا ناظريهما بما أعدته الخالة « هورتنس » من أصناف الطعام

التى أطلقت عليها أسماء غريبة طنانة : كذا على الطريقة الإنجليزية ، وكذا على الطريقة السويسرية ، وكذا على طريقة المغول ، وكذا على الطريقة التشيكية ... إن ما أعدته إنما يدل على دراية واسعة بفن الطهى .

ونظرت الخالة « هورتنس » إلى « نينى » و « مادو » وهى تضع يديها فى خصرها وكان لسان حالها يقول « مارأيكما ؟ أفى استطاعتكما أن تفعلا مثل هذا ؟» .

وهتفت « مادو » وكأنها تكهنت بما تفكر فيه الخالة « هورتنس » :

— ياله من توفيق !

وعقبت « نينى » على قول صديقتها بقولها : إن خالتى لاتبارى عندما يتعلق الأمر بإعداد وليمة فاخرة جديرة بالملوك .

ولاداعى لأن نذكر أن الخالة « هورتنس»، وهى اليقظة التى لايفوتها شىء ، لم تنس أن تسكب الماء المقدس الذى كان فى الزجاجة التى أعطاها ال « ماندنج » إياها فى أحد ألوان الطعام التى تكونت الوليمة منها .

وارتدى « باكارى » ملابس جديدة ، أما « فاتوفال » فقد ارتدت قميصاً مطرزاً ناصع البياض ، ولفت وسطها بقطعة من القماش بيضاء كذلك ولكن بها خطوط سوداء .

واقتربت اللحظة الحاسمة ، لحظة وصول الرجلين الأبيضين بهيبتهما وبتلك الهالة التى تحيط بهما . يجب أن يكون كل شىء معداً أحسن إعداد لاستقبالهما .

وتصل إلى الأسماع ، عن طريق البابين اللذين يطلان على الشرفة ناحية النهر ، موجات متقطعة من الأصوات تحملها الريح الآتية من جهة البحر من الميادين الصاخبة بـ« جت ندار » إلى حيث تقع المدينة التى يخيم عليها السكون . هناك أصوات عديدة تأتى من تلك الأماكن تقطع حبل السكون الذى يسود المدينة بمجرد أن يرخى الليل سدوله . وهناك على ساحل البحر يؤدى الناس بعض أعمال فى الليل تفصح عنها أصوات اصطكاك المعادن بعضها ببعض وهدير مياه البحر تحت أقدام جمهرة من الناس تحجبها عن الرؤية ظلمة الليل . ويسمع أحياناً فى الشارع صوت أحد

المارة وهو يتنحنح بقوة ليسلك حنجرته التى جفت إثر صلاة المغرب الطويلة بالمسجد أو من أثر إفراطه فى تناول جوز الـ « كولا » .

وفى هذا الجزء الهادئ من حى « لودو » تحدث أقل الأصوات صدى قوياً مزعجاً كنباح كلب يزوم لدهشته من ظل أحد المارة أو لرؤية شبح يمر ويختفى ، أو صوت مدو تطلقه فتاة تنادى من فى المنزل المقابل . إن أسماع الخلاسيتين مرهفة لدرجة أنها التقطت بعد لحظة صوت خطوات ترتطم بالأرض ،فهبطتا درجات السلم مسرعتين ، واندفعتا إلى الشارع ، حيث وجدتا نفسيهما ، عند عتبة الباب ، أمام « مارتينو » و « بيران » وجها لوجه . يا لانفعالهما ! إن « نينى » و« مادو » تستقبلانهما بمرح كمرح مضحكى السيرك وبضحكات كضحكات القرود الفتونة وتهجمان على الشابين الأبيضين ، وتمسكان بهما ، وتهزانهما وتقبلانهما فى وجل ، وتقودانهما نحو السلم . ويدرك الجميع الحجرة المعدة للاستقبال والطعام بعد أن صعدوا درجات السلم جرياً تقريباً . ويبهر الرجلان بلمعان الآنية النحاسية الصفراء وبلون الأريكة والوسائد الأحمر الصارخ، كما يبهرهما بصفة خاصة لون مفرش المائدة الأبيض الناصع ، والأكواب البلورية ، وأدوات المائدة التى يتراقص عليها ضوء قوى يسقط من إحدى الثريات .

وفى الحال ، ودون أن تعطى للزائرين فرصة ليستردوا أنفاسهما جاءت « نينى » بجدتها وبخالتها لتقدمهما للضيفين . إن العجوزين قد تعرفتا من قبل بـ « مارتينو » ولذا فهما تشدان على يده بحرارة وتحييانه بابتسامة لطيفة . أما « بيران » فهما لم ترياه من قبل ولذا فقد استقبلتاه بعبارات رقيقة وضحكات عصبية ، وبالغتا فى تحيته كما تفعل العجائز .

وبدأت « نينى » بتقديم بعض الشراب والمشهيات فقد كان الطقس شديد الحرارة يشعر بالظمأ . وأخذ الجميع يشربون ويقصون أحداث اليوم وهى لاتخرج عن أشياء مألوفة تافهة وإن أفسحت للخلاسيتين مجالا للتعليق والثرثرة . ومن عادة الخلاسيات أن يفرطن فى الحديث بمناسبة وبدون مناسبة — إن شعارهن هو الكلام والإفراط فى الكلام حتى لايكن كهاتيك الزنجيات الخجولات اللائى يعلن الرجال صحبتهن ،

الكلام عن أى شئ وعن كل شئ ، حتى يثبتن أنهن على علم بكل مايدور فى عصرهن .

— آه لهؤلاء الزنوج ! إن أمرهم عجيب حقاً ، وهم يشبهون تماماً الأطفال . هاهى الشوارع قد ازدحمت بهم ... أرأيتما كيف يجرون ذات اليمين وذات اليسار ، وكيف يتكلمون بصوت عال ، وكيف يرفعون أذرعهم إلى السماء ؟ تباً لهم . إن تصرفاتهم تلك إنما تدل على سوء تربيتهم وتجردهم من الذوق . وهم يجدون فى كل ظرف مجالا للافراط فى إظهار فرحتهم ، وهم يفعلون ذلك بشكل غريزى يفصح عن حيوانيتهم . ألم تلحظا شيئاً ؟ إنهم يستفيدون من جميع الأعياد : الأعياد الوطنية ورمضان الذى يقدم إليهم فرصة يحشون فيها بطونهم بالأعشاب واللحوم ، وليسيروا فى الشارع بخيلاء . وهم فى أعياد المسيحيين أو فى أعياد الجمهورية الفرنسية يملأون الشوارع والميادين وينظمون حلقات للرقص على قرع الطبول تصدر عنها أصوات مزعجة ، ويغنون بأعلى أصواتهم ...

— ولكن بهذه المناسبة ، مارأيكما فى الصراع الكورى ؟ إن ذلك الجنس الأصفر المدعى ساذج للغاية فى تصوره أن بإمكانه التغلب على الأمريكيين ... إن « البارومتر » اليوم يشير إلى ارتفاع شديد فى ضغط الهواء . ياله من جو سيئ للطيارين ! وكذا وكذا ...

وبعد تناول الشراب والمشهيات بدأت الرءوس تدور قليلا ولذا وجب الإسراع فى تناول الطعام ...

ليس الجلوس إلى المائدة بالشىء السهل بالنسبة إلى الخلاسية عندما يكون هناك من يمثلون الجنس الأبيض ، فهم يلحظون أبسط الأخطاء وينتقدون بعض الهفوات التى تتعارض مع التقاليد الغربية . يجب على الخلاسية أن تعرف أصول اللياقة فى التأهب للجلوس وكيفية الجلوس ذاتها ، إذ يجب أن تبدو على سجيتها وهى تشد وسطها وتبرز صدرها كما يجب أن تبدو ماهرة فى تحريك أصابعها ومرفقيها وعينيها وكيف تحرك شفتيها وهى تناغى المدعوين ، هذا تارة وذاك تارة أخرى ...

وتعتذر الجدة « إيلين » والخالة « هورتنس » عن مشاركتهم طعامهم فإن سنهما لم تعد تسمح لهما بالقيام بدور المضيفات .

قالت « إيلين » العجوز : إنكما تدركان أيها السيدان أنه يسمح لمن فى مثل سنى بالاعتذار عن صحبة الشباب . إن جو الولائم يسيء ألى أعصابى ... ووجودى ، على أية حال ، لا يمكن أن يلقى إلا ظلالا قاتمة على جو الشباب المرح .

وتنسحب المرأة فى خطوات وئيدة وهى تضحك ضحكات مرتعشة .

واعتذرت الخالة « هورتنس » بدورها عن مشاركتهم الطعام ، قائلة إن عليها الإشراف على هؤلاء الخدم السود الذين لابدمن ملاحظتهم. ثم أضافت: وأنابدورى قد بدأت أنحدر على السفح الآخر من الحياة ، وقد آن الأوان لأن أعتزم الرحيل عن هذا العالم الجميل ...

إن الجدة « إيلين » والخالة « هورتنس » لم تعودا تتطلعان إلا إلى ألوان من سعادة الآخرة ... ولكن من يتصورهما تعيستين فى إذعانهما هذا إنما يخطىء خطأ كبيراً فهما راضيتان إذ أديتا رسالتهما على الأرض على خير وجه . أليس أفضل ما يمكن أن يصبو إليه المرء فى هذه الدنيا هو أن يولد ويترعرع ويحيا تبعاً لما عليه مثله الأعلى ؟...أما ما تبقى لهما من العمر فىتلك السن المتقدمة فهما تكرسانه لله لكى تحصلا على راحة الضمير قبل أن ترحلا عن هذا العالم ...

وبينما كان الشابان والفتاتان يثرثرون فى انتظار الحساء وألوان الطعام عادت الخالة « هورتنس » إلى المطبخ لكى تؤنب « باكارى » الصغير على كسله ولاشك ، فقد سمعوها توجه إليه بعض الملاحظات بلهجة جادة قاسية . وانتهزت « نينى » هذه الفرصة لتصف شخصية خادمها الصغير الأسود فى خطوطها العريضة .

— إنه ابن عبد كان يعمل فيما سبق فى خدمة الأسرة . كان متفانياً فى إخلاصه ولقد توفى منذ بضع سنوات فجأة ، فارتأينا أن نحسن صنعاً بأن نأخذ الطفل من أمه لنعلمه ولنربيه تربية تتناسب مع وسطه ...أو بمعنى أصح لنلقنه العادات الطيبة... إذ أن الناس من هذا الجنس ليست لديهم أية تربية على الإطلاق ... ولكن وا أسفاه ! ها نحن قد حاولنا أن نلقنه مبادىء النظافة والصراحة والاجتهاد فى العمل ولكن يبدو أنه يزداد بلادة . لا يمكن الوصول إلى أية نتيجة مع هؤلاء الناس ...

وقال « بيران » : كنت أعتقد أن الرق قد ألغى ، حتى فى إفريقيا .

وأجابته « نينى » : لقد حدث هذا من الناحية الرسمية ، أى أن هذا هو المكتوب على الورق . وعلى أية حال فما زلنا نحتفظ بعبيدنا وهم يعتبرون أنفسهم سعداء لوجودهم فى حمايتنا . لماذا تصرون على القضاء على نظام قام منذ نشأة الخليقة ؟ أتتصورون إمكان رفع هؤلاء الناس إلى مستوانا وإلى مستوى حضارتنا بعد القضاء على مركب النقص الذى يشعرون به تجاهنا ؟ فى رأيى أن هذه النظرية وهم وخيال .

وهتفت « مادو » : إنها دعوة إلى حكم الغوغاء ...

وقال « بيران » : إنكما تصران إذن على بقاء الرق ... وأضاف مازحاً : إنكما تستحقان تقديمكما للمحاكمة .

وأجابت « نينى » : ولكن ماذا تريدون ؟ أتريدون منح الحرية لأناس لا يفهمون معناها ولا يرغبون حتى فيها ؟ حاول أن تطرد عبداً من لدى سيده من سكان البلاد : سوف تعجز عن ذلك إذ سوف يعود إليه ويقسم على أن يخلص له . إنكم تجهلون حقيقة هى أن وضعهم هذا كـ « عبيد » إنما يتيح لهم أن يعيشوا فى رغد سادتهم دون أن يرهقوا أنفسهم كثيراً . نحن الذين نبصرهم ، ونرسلهم إلى المدارس ، ونزوجهم وندفنهم عندما يموتون .

وقال « مارتينو » الذى كان يتابع الحديث حتى تلك اللحظة دون أن ينطق بكلمة : أحقاً ؟

ودخلت فى تلك اللحظة « فاتو » السوداء الجميلة . ودهش الرجلان الأبيضان من رقة ملامحها ونقائها وقد وجدا عناء فى إخفاء دهشتهما . لم يكن الرجلان قد شاهداها حتى هذه اللحظة . إن فى استدارة جسدها المشوق تحت ذلك الضوء الساطع — وإن أخفتها ملابسها التى أعدت بذوق سنغالى رفيع — شيئاً جذاباً بل شيئاً من الجلال .

وهتف « بيران » : إنها جد مليحة تلك الفتاة .

وعقب « مارتينو » مؤمناً : نعم إن جاذبيتها طاغية . وأخذ الشابان يمزحان مع « فاتو » التى ابتسمت لهما برقة وإن ضايقها قليلا وجود « نينى » و « مادو » فقد

كانت تحس بما لديها نحوها من شعور عدائى .

وعندما انسحبت الفتاة سأل « بيران » :

— أتلك الفتاة الرائعة عبدة بدورها ؟

وأجابته « نينى » التى ضايقها مزاح الرجلين الخارج عن أصول اللياقة بقولها :

— إنها « ابنة البيت » .

إن لفظ « ابن » بمدينة « سان لوى » مرادف لكلمة « عبد » . وكانت الخلاسيات يخلعن تلك التسمية المضحكة على كل أسود يعيش تحت سقف بيتهن أو يصادف مروره عند هن حتى لا يفقدن ذلك المركز الذى كن يتصورن أنهن يتمتعن به فى نظر الأوربيين .

وللمرة الثانية قال « بيران » بقسوة أدمى بها قلب « نينى » :

— يا آنسة « نينى » ، إنى أعتذر لك ولكنى كنت أحب أن تكون لدى مائة عبدة كـ « فاتو » هذه . لو أن هذا أتيح لى لكنت أكبر سكان هذه البلاد شأناً ولبدوت كأفخم باشوات إفريقيا .

وأجابته « نينى » : إن هذا الأمر يتوقف عليك أنت فما أكثر الزنجيات اللائى يشبهن « فاتو » بمدينة « سان لوى » . وسيكون لديك منهن ما تريد .

— سأبادر منذ غد بالحصول على لقب مواطن .

— ولم لا يكون ذلك فى هذا المساء ؟

— إن الوقت متأخر وليست هناك حاجة ملحة إلى ذلك .

وأضافت « نينى » التى شعرت بأن غضبها المكتوم على الرجلين الأبيضين قد بدأ يتلاشى : سوف تبقى على الدوام رجلا مهزاراً يا سيد « بيران » .

وتوالت الأصناف الفاخرة كما توالى الشراب الفاخر وزاد الصخب وشرع الجميع — ومن بينهم « نينى » و « مادو » — يتلهون بـ « فاتو فال » ، وأخذت الخلاسيتان يناديانها بلغة الـ « أولوف » بطريقة جعلتها تضحك حتى سالت الدموع من عينيها ، بينما أخذ الرجلان يقذفانها بكرات من لباب الخبز ويقولان لها :

— من منا تحبين يا « فاتو » ؟

فيقول « بيران » : ليس زميلى بالرجل الأبيض الجميل ، أليس كذلك ؟ لا شك أنك تحبيننى أنا ...

يا لها من حفلة مرحة بمناسبة يوم « ١٣ يوليو » ! لقد احتجت الخلاسيتان كثيراً على صديقيهما حتى يدفعاها إلى الأكل . وعندما صعد تأثير الخمر إلى الرءوس بدأت الضمائر تتحرر من القيود .

— إن « فاتو فال » ليست إلا « ابنـــة البيت » ... وهى ليست جميلة على الإطلاق . وهل يمكن أن نجـد جمالا لدى الزنجيات ؟ إنهن لا يراعين فى حياتهن مبادىء الصحة والنظافة ولهن رائحة كريهة تزكم الأنوف من بعيد ...

وقالت إحداهما : — متى ستحصل على عطلتك يا سيد « بيران » ؟ كم أتوق إلى « العودة » ... إلى فرنسا ولا سيما إلى « بانام » . وأردفت الأخرى : كم نضيع وقتنا فى هذا البلد اللعين ! إن سهرة كهذه بباريس يمكن أن تختتم بطريقة ممتعة فى حى « مونمارتر » أو فى « بيجال » ...

ها هما تتـكلمان عن باريس و « مونمارتر » و « بيجال » ... وليست لديهما إلا فكرة مبهمة عن كل ذلك ، إلا ما يشبه السراب .

وقالت « نينى » : كم هو مزعج « باكارى » هذا ! لست أدهش لأنك لم تأكل إلا قليلا جداً ، فإن ذلك الولد قذر جداً ...

وأجابها « بيران » وهو يتحسس معدته المنتفخة : أتسمين هــذا « أكلا قليلا جداً » ؟ إنى أريد — على العكس — أن أهنىء « فاتو » و « باكارى » على ما أعداه من طعام فهل لك أن تناديهما .

وهنا أجابت « نينى » بسذاجة : — لو كان هناك شخص يستحق التهنئة فهو ليس « باكارى » ولا « فاتو » وإنما خالتى « هورتنس » .

— ليس هذا بالعمل المناسب إذ أن المرء لا يهنىء من هم أكبر منه سناً وإنما يعجب بهم ...

وعادت « فاتوفال » فى تلك اللحظة لتحمل آخر ماتبقى على المائدة من أدوات . وأمسك « بيران » بذراعها وقال :

— إنك فتاة رائعة ، وأنت ماهرة فى خدمة الناس . وأنا معجب بك جداً . انتظرى قليلا ، سأثبت لك مقدار إعجابى هذا ..

وأخرج من جيبه ورقتين من أوراق النقد ، إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة ، وأردف :

— هذه لك وتلك لـ « باكارى » .

وقالت « فاتو » وهى تنحنى فى شبه ركعة تأدباً منها واعترافاً بالجميل : شكراً ياسيدى .

وفعل « مارتينو » نفس الشىء فحصلت « فاتو » الجميلة هكذا على مبلغ محترم من المال .

وعلقت « نينى » على هذا بلهجة فيها مزيج من الجد والدعابة : إذا كنتما تأتيان إلى بيتى لتفسدا خدمى فلن أدعوكما أبداً .

وانتهت تلك السهرة الممتعة بالذهاب للكازينو ... بعد أن استأذن الشابان من الخلاسيتين العجوزين وبعد أن شكراهما بحرارة شديدة أوحى بها إليهما سكرهما .

تحتفل مدينة « سان لوى » بذكرى ١٤ يوليو بنفس الطريقة التى يحتفل بها فى جميع المستعمرات الفرنسية التى وراء البحار ... فى ساعة مبكرة من الصباح تتجمع جموع غفيرة من الناس بميدان مقر الحكومة الذى تزدان أرجاؤه بالأعلام وبشارات وحدات الجيش المختلفة انتظاراً للاستعراض الذى تقوم به هذه الوحدات . ويمر هذا العرض أمام حاكم الإقليم وكبار رجال الجيش والشخصيات المدنية البارزة .

وتمر كل القوات التى تعسكر بثكنات « سان لوى » بما لديها من معدات ، أمام منصة وجمهور تملؤه الحماسة وتزدحم به الأرصفة .

وبعد انتهاء الاستعراض وتسليم الأوسمة — الذى أصبح عادة وتقليداً — يتشتت

الناس ويسرعون إلى حيث أعدت لهم ، فى أماكن متفرقة ، أنواع مختلفة من التسلية كسباق الدراجات وسباق الأكياس وأعمدة عالية يجب أن يتسلقها من يريد الحصول على هدية من الهدايا المعلقة أعلاها، إلى غير ذلك من الألعاب: وكل تلك الاستعراضات تنتزع من قلوب الجماهير صيحات المرح والحماسة التى تضيع وسط دقات الطبول التى لاتنتهى والتى لاغنى عنها بالنسبة للرجل الإفريقى ، إذ أن سماعها يؤثر فيه أعمق التأثير .

وبعد الظهر ، حين تكون حرارة النهار قد تلاشت ، يعد سباق للقوارب يضفى على احتفالات مدينة « سان لوى » طابعاً محلياً فريداً .

وتصل تباعاً زوارق « جت ندار » التى يستقلها رجال أشداء يجدفون وهم وقوف . إن تلك الزوارق طويلة ورفيعة ، وهى تشبه الأسماك فى حركتها ، والجماهير تستقبلها بالتهليل والصياح والناس يتدافعون ليشاهدوا عن قرب هؤلاء الرجال ذوى العضلات البارزة القوية الذين ينم على حميتهم ذلك العرق الذى ينساب على وجوههم ذات فتحات الأنوف الواسعة المرتجفة .

وبعيداً عند التقاء النهر بالأفق — فى تلك الناحيه التى يبدو أن مجرى النهر ينتهى فيها لتبدأ بعده سهول « موريتانيا » — كنت ترى عوامة مثبتة تحمل علماً من ثلاثة ألوان .

وعند إشارة البدء تنطلق الزوارق تاركة وراءها أخاديد يملوها الزبد . إن المجدفين إنما يجدفون بفن ومهارة ، بروح عالية من التعاون .

وهناك منافسات بين كل من الأسر والأحياء بعضها ببعض ، أوذكرى انتصار أحرز فى العام الماضى ، وينبغى المحافظة عليه هذا العام بأى ثمن — أوهزيمة يتحتم الثأر لها — وكلها أسباب تدعو المتنافسين إلى التجديف دون هوادة ، وهم يشكلون فى كل زورق جسماً واحداً ، جسماً واحداً يخضع لنفس الحركة وتحركه نفس الروح ، هى الروح التى يتوقف عليها نتيجة السباق .

وتنبعث من الأرصفة ضوضاء تصم الآذان يزيد من حدتها وبهجتها دقات الطبول المسعورة .

وكلما ابتعدت الزوارق عن الشاطئ ضاق نطاق الرؤيا وبدا أن هذه الزوارق

يقترب بعضها من البعض الآخر . وبعد قليل لا ترى العين إلا كتلاً مستطيلة تتقدم فى حركات متناسقة تتتابع فى مكان محدود مشبهة فى حركتها زحف الديدان الغليظة .

وبعد أن تلف الزوارق حول العوامة تعود من حيث أتت ، ويكبر حجمها كلما اقتربت من نقطة الوصول. والناس يتبينون عندئذ بوضوح أول زورق وآخر زورق، ويصل صراخ الجماهير إلى ذروته . ويرفع المتصرون بخيلاء مجاديفهم فى الهواء — إنهم رائعون فى وقفتهم تلك والعرق يبلل أجسادهم — ويطلقون بدورهم صيحات النصر . وتستقبلهم جموع أصدقائهم بنشوة مجنونة وهم يكادون يقذفون بأنفسهم فى الماء ليعانقوهم...

وبعد خمس عشرة دقيقة تمر الزوارق من جـــديد تحت جسر « فايد هرب » متجهة إلى « جت ندار » حيث يحتفل — تبعاً للتقاليد الموروثة فى الأحياء المختلفة — بتلك المناسبة ، فيظهر البعض فرحتهم الغامرة ويفصح البعض الآخر عما فى أنفسهم من إحساس أليم قاتل .

ويتفرق المشاهدون ، وتخلو أرصفة النهر حيث لا يرى بعد قليل إلا عدد من القوارب الشراعية المنعزلة الهادئة وهى تواصل — فى حركة رتيبة بطيئة — تأرجحها فوق صفحة النهر .

الجزء الثانى

إن المخلوقات التى خلقها الله من لحم من أبناء آدم وحواء إنما تجهل كل شىء عن الألغاز التى تحلق فوق رءوسها فى مملكة الفضاء حيث تعيش مخلوقات أخرى لم تخلق مثلها من لحم. ولذا فإن أحداً لم يشعر بأن تلك الأرواح التى لا تكذب أبداً، قد بدأت حملتها منذ ذلك الوعد الذى قطعه الساحر الـ «ماندنج» على نفسه. ولعل «نينى» هى الوحيدة التى تكهنت بتلك الحقيقة فى ضوء سلوك عشيقها إزاءها وبعض تصرفاته، وإن تعلقت ببعض الأمور البسيطة التافهة. إن الرجل فى الحقيقة قد بدأ يتكلم أكثر مما كان يفعل من قبل، كما بدأ يحيط «نينى» باهتمامه وعنايته بطريقة تفصح عن تطور فى شعوره نحوها وهو يعبر لها عما فى نفسه، ويحكى لها ما صادفه من مرارة فى حياته السابقة، كما يحاول أن يجد عندها سنداً يقوى روحه المعنوية. وكل هذه التصرفات إنما تشير إلى أن عمل الساحر قد بدأ يؤتى ثماره.

ولكن الصعاب التى ستصادفها الأرواح للتأثير فى «مارتينو» ولإخضاعه سوف تكون كبيرة لأن البيض يقاومون بشدة عمل القوى الخفية التى يتمتع بها سحرة إفريقيا السوداء الذين يشهد لهم بالمهارة. وقد حيرت هذه الحقيقة أئمة السود خلال مناقشاتهم، عندما بدأوا يتساءلون: كيف تسنى للبيض أن يحتلوا البلد وأن يحكموه، بالرغم من تلك المياه المقدسة التى تفقد الناس صوابهم، وتلك الأحجبة التى تشل حركة الجسد والروح، وتلك المساحيق التى تمتص الحياة فى الحال من الكائن الحى — سواء كان إنساناً أو نباتاً.

كم كانت دهشة رجال «العلم الأسود» كبيرة عندما ظهر لأول مرة ذوو «الآذان الحمراء» على تلك الأراضى التى كان يعيش فيها رجال أشداء وعندما تبينوا أن هؤلاء الدخلاء أقوى من رجالهم العظام المحجبين، فقد استطاعوا أن يبيدوا رجالهم بحركة بسيطة من أصابعهم على زناد صغير!

لقد هب هؤلاء الرجال الأشداء جميعاً للدفاع عن أرض أجدادهم وتمددوا بطول أجسامهم الطويلة النحيلة على أرض غاباتها وأخذوا يطلقون ضحكات السخرية

والاحتقار ويصقون من بين أسنانهم ويفرغون كل ما فى جعبتهم من وسائل الدفاع مدفوعين إلى ذلك بثقتهم العمياء فى قواهم الخفية .

ومع ذلك،وبالرغم من ذلك «العلم الأسود» وما يحويه من أسرار فظيعة تمكن ذوو « الآذان الحمراء » من هدم غابات الأجداد ، ومن شق طرق فيها ، ومن تسليط أضواء قوية على الأشجار تبهر الفكر قبل العين مثلما يفعل البرق . إن ذوى « الآذان الحمراء » قد استطاعوا أن يقحموا أنفسهم فى مداولات الناس وفى شئون حياتهم الخاصة ولما لجأ الناس إلى أئمتهم الكبار عجز هؤلاء عن إيجاد تفسير لذلك كما عجزوا عن عمل أى شىء .

وعلى أى حال إذا كان الرجل الأبيض يتمتع بمناعة ضد أعمال السحر بشتى ألوانها فالسبب فى هذا هو أنه هو بدوره ساحر . إن لون أدعه الأبيض يقربه من شكل الملاك وذكاءه الذى يبتدع تلك العجائب التى تعجز عيوننا عن تصديقها يجعلانه فى مصاف الأرواح الشريرة شديدة البأس — سواء كانت أشباحاً تراها العين أو تخفى على العين .

إن « نينى » تتصور أن الأرواح قد تغلبت على عدم مبالاة « مارتينو »، وتصورها هذا يجعلها تبالغ فى تفسير تصرفات تافهة أتى بها الرجل فى المكتب ، وهى تنقل إلى جدتها ، التى بذلت جهداً كبيراً فى تلك المسألة ، كل كلمة ينطق بها « مارتينو » وكل حركة تصدر عنه ، لتطمئنها ، وتجعلها على بينة من جميع خطوات النجاح الذى أحرز فى ذلك المشروع .

وهكذا نرى كيف أن الوهم — تلك الكرة البللورية الساحرة — يضفى على الأحداث السابقة وعلى تلك التى نتوقع حدوثها ألواناً وبهاء تغير من معالمها ...

ولكن بقاءها هكذا مستسلمة للأحداث لأن معالم النصر ترتسم فى الأفق ، إنما هو ضرب من السذاجة . لقد أحبت « نينى » « مارتينو » حتى هذه اللحظة بتحفظ ولم ترض أن تستسلم له كلية بالطريقة الساذجة الإباحية التى كانت تلجأ إليها فى صباها . كانت قد أدركت السن التى يجب على الفتاة فيها أن تحسب حساباً لكل شىء ، ولذا فقد تعمدت أثناء عناقها أن تجعله يتشكك بألوان من المتع لم تمنحه منها

إلا النزر اليسير . ولـكن أترك الرجل الأبيض نفسه تنخدع بهذه الأنواع من اللذة المبتورة ؟ يمكننا أن نقول على أى حال إنه قـد زاد عشقاً وتعلقاً بـ « نينى » . أما « نينى » ، وقد شعرت بذلك ، فهى تحرص الآن على استغلال كل أسلحتها لـكى تحتفظ بقلب هذا الرجل الأبيض الذى ربما أصبح — إذا لم تـكن حذرة — الرجل رقم كذا الذى يخدعها .

إن لدى الخلاسية أسلحة إغراء قوية ، وهى تدين بذلك إلى نوعين من الوراثة: وراثة جاءتها من أصلها الزنجى تتيح لها فى مجالات الحب أن تقوم بحركات تتسم بالبطء والمرونة تخفى فى رقتها مزيجاً من الضعف والقوة يستهوى النفس ، ووراثة جاءتها من أصلها الغربى تطعم الأولى بما اكتسبته من تربيتها الفرنسية ، تلك التى تلقتها أو التى تقلدها : من ملابس زاهية الألوان ، هفهافة وطيعة فى الوقت ذاته ، تبرز بدقة استدارات جسمها الجميلة وحركات أعضائها ، إلى ذخيرة لغوية أغنى من جميع اللهجات الإفريقية الرنانة ، إلى رشاقة فى طريقة الوقوف والسير والتعانق ،زد على ذلك تلك الأصباغ الحمراء المعدة لطلاء الشفاه والتى تزيد شكل الوجه والفم إغراء وتفصح عن شراهتهما .

وذات ليلة لطيفة كان الطقس فيها حاراً والنجوم تضىء كبد السماء ، خرجت « نينى » فى صحبة حبيبها إلى نزهة على شاطئ البحر . إن البحر فى « سان لوى » يتخذ فى مثل تلك الليالى لوناً كلون المداد . إن قمم الأمواج البيضاء تأتى إلى الشاطئ لتتـكسر على فيالق ضخمة من الـ « كابوريا » يبدو عليها التحفظ ، والشاطئ الضيق اللامع يمتد إلى اليمين وإلى اليسار ، ثم يتلاشى وراء ظلمات الليل ، والعين تغطس بنظرها فى الفضاء الشاسع ثم تتوقف مبهورة . إن الإنسان الذى يتصور أنه قد ساد العالم وأنه قد استطاع فى بعض الأماكن أن يغزو الفضاء بفضل ذكائه وشخصيته ، والذى يتباهى بمواهبه وبقدرته على التغلب على الطبيعة ، إنما يشعر فجأة أمام تلك الصحراء السائلة ووسط صوت البحر المخيف بأنه تافه الشأن وبأن نبضات قلبه قد توقفت وهو يشعر عندئذ بضآلته وبأنه لايساوى شيئاً ويتبين بإحساسه الداخلى المرهف قيمة ذاته وهو فى تلك اللحظات يسبح بحمد الله ويتمتم بعبارات من التمجيد يستوحيها من أعماق كيانه وهو شعور يتولد مما يلمسه من تناقض بين ضآلته وعظمة الـكون الذى يسبح فيه .

وقالت « نيني » فجأة : إنى أخاف البحر فى الليالى المظلمة .

وأجاب « مارتينو » : ماذا دهاك ؟ إن البحر جميل هكذا . انظرى إلى تلك الأمواج التى لاتكف عن الصعود والهبوط وإلى تلك الحياة الزاخرة التى يبدو أنها تدب فى أرجاء هذا البحر الذى يتميز بقوة ونظام فائقين .

وفاجأ « مارتينو » نفسه وهى تشرد أمام منظر البحر كما يفعل الأطفال . إنه يعرف أنه شاعر ، شاعر صامت ، وخصوصاً فى حضرة صديقه « بيران » الذى يسخر من كل شيء ولا سيما من الأحاسيس المرهفة . إن فى إمكانه بجانب تلك الخلاسية الشابة التى تحبه وتصغى إليه فى رفق وحنان أن يترك العنان لأفكاره ولقلبه ليسبحا فى ذلك الفضاء وليمتزجا إلى حين بالموج والليل اللذين يتعانقان فى سكون فى ضمات رفيقة .

واقتربت الخلاسية منه ووضعت رأسها على كتفه بحيث تمكنه من شم عطر خصلات شعرها الفاحم التى ترفرف فى الهواء . وأخذ الاثنان يشاهدان فى سكون تلك اللوحة الفخمة الممتدة أمام أعينهما التى تشرد بنظرها فى ظلمات الليل .

وأخيراً قالت « نيني » : هانحن بمفردنا ياحبيبى ، بمفردنا أمام الطبيعة .

ثم أخذت تبحث عن عبارات عميقة المعنى أو شاعرية ولكنها لم تجد شيئاً ولذا هزت رأسها وقالت :

— على أية حال لقد زاد حبى لك ياحبيبى . ولكن هناك سؤالا لا أجرؤ على توجيهه إليك خشية أن يسمم حبنا ...

وسأل « مارتينو » وعيناه شاردتان : — وما هو هذا السؤال ؟

— أتعرف ياحبيبى كم أحبك ؟ إنى لا أريد الافتراق عنك ... فى إمكانك أن تسعدنى بأن تأخذنى بعيداً عن هذا البلد ... سوف ترى ، سنكون سعداء عندئذ .

وللحظة تصور الرجل أنه يسمع صوت موسيقى عذبة تمتزج بصوت البحر ، وامتلأ قلبه بالحب والشفقة ، وضم إليه الخلاسية بقوة وقال وعيناه ماتزالان تتوهان فى ظلمة الليل :

— نعم ياصغيرتى ، ياعصفور الجزر ، سوف أتزوجك ، لاتخشى شيئاً ، سوف تصبحين زوجتى .

وحين سمعت « نينى » تلك الكلمات صارت كالشيء اللين الذى يستجيب لكل شيء ولم تعد تفكر فى ساحر الـ « ماندنج » ولا فى هيبتها بصفتها « فتاة بيضاء » ولا حتى فى جبال فرنسا ، ذلك البلد الذى تفتقده والذى لم تعرفه بعد . لقد أصبحت لأول مرة فى حياتها كائناً بشرياً تجرد من كل تكلف ، إنساناً متواضعاً مستجيباً . ، لكأنها نسيت تلك القوى التى كانت تشدها فى تلك البيئة وذلك الموقف الذى يجعلها ضائعة بين جنسين أنجباها ويبدو أنهما يتنكران لها .

وعلى أية حال فإن المصير الذى جعل منها ماهى عليه الآن قد فرضته الحياة عليها . لم تكن إلا فتاة صغيرة قذف بها القدر — عند خروجها من الدير — إلى خضم الحياة وقد اضطرت عندئذ إلى أن تلعب دورها ، شأنها فى هذا كشأن الأخريات . وإذا كان القدر قد قسا عليها فليس الذنب ذنبها . إن الخطأ فى ذلك يقع على الحياة ذاتها التى لم تبال بها وتجاهلتها ...

— أهذا صحيح ياحبيبى ؟ أحقاً ستتزوجنى أمام أعين سكان « سان لوى » أجمعين ؟ إن لى منافسات كثيرات وإذا ما هجرتنى بعد علاقتنا الطويلة التى يعرفها الجميع فستكون قد حكمت على بالموت من شدة الحزن أو بأن أترك هذا البلد .

وقال « مارتينو » : لن أقول إلا تلك الكلمة وأنا أتمسك بها : إنى أحبك يا « نينى » لم تخافين إذن ؟ هل تشكين فى إخلاصى ؟

— أنا لا أشك ياحبيبى ولكنى أخاف هؤلاء الذين جبلوا على الشر والذين تملأ قلوبهم الغيرة . إنك تجدهم فى جميع الأوساط ..

وعقب « مارتينو » الذى ضايقه إصرار « نينى » بقوله :

— أيمكن أن نتكلم فى شيء آخر ؟ لقد وعدتك ولن أرجع عن كلمتى . سوف أتزوجك . ثم أردف وهو يضمها بين ذراعيه بقوة ، وكان ذلك فى نظر « نينى » بمثابة العهد المقدس . « هل تطمئنين الآن ؟ »

وأحاط البحر ذلك الوعد بالزواج بهديره . كم رأى من مواقف عاطفية وكم استمع التي اعترافات وإلى عهود : المخلص منها والزائف ! لـكم شاهد من مناظر غرامية كانت وليدة النشوة والرغبة الملحة فى الامتلاك . إن البحر بعد كل ماشاهد وسمع أصبح لايبالى بما يرى أويسمع ، وإن كان يحسن وفادة العشاق جميعاً ، دون تفرقة بينهم ، فتحيطهم أمواجه الهادرة بنفس الأنغام التى تدغدغ حواسهم وتحنو على مافى رءوسهم من خزعبلات .

* * *

إن الإدارة المحلية ، بعد أن تركت الشركات الخاصة تحلبها كما تحلب البقرة الحلوب دون أن تنجح فى إتمام ماتعهدت بإنجازه من مشاريع ، هبت ذات يوم من رقادها الطويل كاللبؤة الثائرة ، وألغت بجرة قلم كثيراً من العقود التى أبرمتها مع تلك الشركات سواء منها ماألغته باستصدار أحكام من المحاكم أو إدارات القضايا أو حتى بدون تلك الإجراءات . ولقد شملت تلك التصفية المفاجئة شركة « المقاولات النهرية » ووجد « مارتينو » و « بيران » نفسيهما فجأة مضطرين للعودة إلى فرنسا أو للبحث عن عمل آخر بنفس البلد .

كان الخبر سيئاً للغاية ولـكنهما استقبلاه بدون انفعال بل وبعدم مبالاة ، فقـد كانت الوظيفتان اللتان يشغلانها بشركة المقاولات النهرية لاتوازى راتبيهما ، إذ أن هذين الراتبين قد حددا على نفس الأساس الذى يتعامل بمقتضاه فى بلدهما مع بعض مميزات لم تـكن تبرر مجيئهما إلى إفريقيا لإضاعة وقتهما وشبابهما فيها . ولم تـكن هناك فوق ذلك أخطار يتعرضان لها فى الغابات الإفريقية تضفى على إقامتهما لون المغامرة فيتصوران إنهما قد قاما بأعمال بطولية أو أنهما من الرواد فيتقبلان من أجلها كل التضحيات . لا ، لم يؤديا منذ وصولهما إلى تلك القارة إلا عملا كتابياً تافهاً مملا يحبسهما طوال النهار بين جدران أربعة فى مدينة لاهى بالعاصمة ولا هى بالمستعمرة .

كانا فى طفولتهما يحلمان بقارة يملؤها البعوض والحيوانات المفترسة والزنجيات الشهيات . . كانا يحلمان بإفريقيا السوداء على أنها توحى للانسان بأن يتفوق على ذاته بأن يصبح قادراً على الـكفاح من أجل المثل العليا ، ومن أجل الخلق والتغيير ، كانا يحلمان بإفريقيا التى لمعت فيها أسماء رنانة كـ « برازا » و « ستانلى » و « شفايتزر »

وقد وجدا بدلا من ذلك قارة تجردت من سحرها وأصبحت الحيوانات المفترسة فيها أندر من تلك التي كانا يريانها بحديقة الحيوان بـ « فانسين » حيث لا بعوض يقاومانه أو أى شيء يصارعانه فى هذا المناخ ، وحيث لم يجدا من النساء إلا مخلطات من نوع « نينى » و « مادو » . أما إخوتهن من الزنجيات فكن يعاملن الرجل الأبيض بعدم مبالاة تكاد تكون عدائية .

أية خسارة يمكن أن يأسفا عليها بالرحيل عن إفريقيا هذه التى كانت تتشبه بأوروبا يوم بعد يوم ؟

لقد أخطر مدير « القاولات النهرية » موظفيه ذات يوم ، دون مواراة كعادته ، بقرار وزير المستعمرات الذى وصله من مقر الحكومة المركزية بـ « داكار » والذى يقول فيه :

— لقد فشلت مهمتنا ، وقد أعفيتم من العمل مع منحكم مرتب ستة أشهر وإعادتكم بالمجان إلى بلدكم . وليس هذا بسبب خطأ وقع من أحد : لا منكم ولا منى ، ولكن هذا ماحدث . وأنا أشكركم جميعاً على تعاونكم المخلص ، ويجب أن تستمروا فى أعمالكم بالإدارة كالعادة حتى تصل القرارات التى تمكنكم من الرحيل . . إنى أشكركم وفى إمكانكم أن تعودوا إلى أعمالكم .

يصعب علينا وصف مدى تأثر « نينى » بتلك الضربة القاتلة التى أصابتها . إن أول فكرة راودت خيالها لم تكن مع ذلك تلك التى كنا نتصورها : أى فكرة زواجها بـ « مارتينو » . إن مادهمها فى الحال وقبل أى تفكير إنما هو فقدانها لوظيفتها . وهكذا نرى أن أول مانفعله عندما يتهددنا الخطر إنما هو التمسك الغريزى بما نشعر أنه أهم شيء فى حياتنا ومع ذلك فإن « نينى » نفسها قد أدركت بعد لحظة أن من السذاجة الانزعاج على فقدانها وظيفتها . فى إمكانها أن تجد وظيفة أخرى فى مكان آخر ، فهى من هذا البلد ، كما أنها من أسرة محترمة من المخلطين ، ومن المحال أن تبقى طويلا بدون عمل بمدينة « سان لوى » إذ أنهم فى جميع الأحوال سينظرون بعين الاعتبار إلى مركزها الاجتماعى وإلى مواهبها . لقد أدركت أن المشكلة الحقيقية بالنسبة إليها إنما هو « مارتينو » الذى وعدها رسمياً بالزواج . وهى تفكر ، بمنطق الفتاة الطيبة ، فى أن بإمكانها أن تجد له وظيفة لا تقل على أسوأ تقدير عن تلك التى كان يشغلها بـ « القاولات النهرية » . أما عن « بيران » فليدبر أمره بنفسه .

وبينما هى فى شرودها هذا الملىء بالمتناقضات أغلق « بيران » الباب بقوة وقال لـ « نينى » التى شعرت بقشعريرة فى بدنها :

— إن العمل بالمشاريع ليس عملا مضموناً ولا سيما لصغار الموظفين ، فإذا ما نجح المشروع استفاد منه الكبار وأثروا ، أما عند الفشل فإن الصغار هم الذين يدفعون الثمن . إن الأمر يتم كما يحدث فى الجيش ، فإن المجد والصيت العريض يلحق بالقائد أما الصلبان الخشبية[1] والسيقان الخشبية فهى دائماً من نصيب الجندى الشجاع . أتعرفين لماذا طلبنا المدير إلى مكتبه ؟ لقد طلبنا ليخطرنا بأنه لم تعد هناك حاجة إلينا . لقد انتهى الأمر ويجب علينا أن نعد حقائبنا لنرحل .

وأجابت « نينى » وهى تتنهد فقد دهمها الخبر بشكل مؤلم :

— أيمكن هذا ؟ أهى غلطتكم إن كانت الشركة قد أخطأت ؟ إنى واثقة من أن وراء كل ماحدث شراً جاءكم من قبل شخص ما .

وهنا قال « بيران » وهو يملأ غليونه بعصبية : لا داعى للاستياء من شىء تافه كهذا . إن المميزات القليلة التى يمنحوننا إياها لاتستحق منا الأسف ، ثم إن فى استطاعتنا أن نجد فى فرنسا فى هذه الآونة عملا أفضل .

وسألته « نينى » فى دهشة : كيف هذا ؟ أتعودان إلى فرنسا ؟

فأجاب : وماذا يمكننا أن نفعل هنا بدون عمل ؟

وقالت « نينى » فى لهجة مشبعة بالاقتناع : إن إيجاد عمل هنا شىء ميسور لاسيما للأوربيين ، ولاسيما إن كانت لديهم ضمانات .

— أهذا رأيك ؟ ولكن ماهى الضمانات التى لدينا ؟

— أنتم ملمون بدقائق عملكم ثم قد أثبتم جدارة فيه !

— إن كل هذا لاقيمة له . ثم كيفما كان الأمر فمن الأفضل لنا أن نعود إلى بلدنا . هانحن قد قضينا سنتين ونصف فى هذا المناخ القاسى فى وحدة أليمة وفى هذا الكفاية .

---

(١) التى تعلو مقابر الشهداء .

وترددت «نيني» فى توجيه سؤال كان يلهب شفتيها ، سؤال أوحى به إليها تكرار كلمة نحن التى كررها «بيران» فى سياق حديثه . وقررت أخيراً توجيه سؤالها ليطمئن قلبها .

— هل يرحل السيد «مارتينو» كذلك ؟

وأجابها «بيران» بلهجة مرحة : أعتقد ذلك ، اللهم إلا إذا كان ينوى البقاء لبعض أعمال خاصة .

وحاولت «نيني» أن تتظاهر بعدم المبالاة ، ولكن الصدمة كانت عنيفة وقدزاد من عنفها عدم مبالاة ذلك الذى سبب لها تلك الصدمة . وقالت متلعثمة :

— هل خرج السيد «مارتينو» إذن ؟ إنى لا أراه فى أى مكان . لعله مازال عند المدير ...

ولم يسمع «بيران» — الذى انحنى فى شرود على أوراقه — ذلك السؤال الموجه إليه ...

ولما عاد «مارتينو» بعد لحظة إلى المكتب لم تستطع «نيني» أن تتبين أى شيء على أساريره المستغلقة . لقد بقى كعهده الرجل الساكن الهادئ الذى لا يهزه شيء ولا حتى ذلك الإعفاء المفاجئ . لقد جلس إلى منضدته وشرع يعمل أو تظاهر بالعمل. وبقيت «نيني» ساكتة بدورها فهى لم تتعود التحدث معه بدون كلفة أثناء وجودهما بالمكتب ، ولكنها أخذت تراقبه من طرف عينها محاولة التكهن بما سيفعله من خلال نظراته وبما يرتسم من معان على جبهته العريضة الخالية من التجاعيد .

وعند الظهيرة، حين حلت ساعة الخروج ، لم تهتد إلى الكلمات اللطيفة المرحة التى دأبت على أن توجهها له عند افتراقهما ، لكأنها قد خشيت اليوم أن تكلمه فى أى موضوع كان ، وإن احتفظت فى قلبها — الذى مازال يملؤه الحنان والثقة — بشعاع من الأمل ، وإن كانت تعتقد أن أحداث اليوم ربما أثارته فتتسبب فى القضاء على هذا الشعاع ...

وخرجت من المكتب وهى مشغولة البال وأخذت تسير تحت شمس الظهيرة اللافحة وهى تفكر فى ذلك الخبر المؤلم الذى لم يكشف عنه النقاب ساحر الـ «ماندنج» فى حديثه مع الأرواح ، وهو الذى ورث أسرار القوى الخفية .

إن « نيني » قد اكتشفت سراً مؤكداً ستهاجم به جدتها وخالتها اللتين ما زالتا تعتقدان فيما يقوله السحرة السود من خرافات . إنها لم تصدق أبداً تلك الخرافات ، ولكنها دأبتا على إسكاتها كلما حاولت إقناعهما ، وكانت حجتهما هى تجاربهما السابقة فى ذلك المجال . لتحاول جدتها وخالتها ، بمساعدة ساحرهما أن تستبقياه . أما عنها هى فقد نفضت يدها من هذا الموضوع معتبرة نفسها غير مسئولة عما يحدث .

ولما وصلت إلى شرفة منزلها أعدت مشهداً أليماً تفاجئ به العجوزين اللتين لم تعد تربطهما بالحياة إلا روابط ضعيفة هشة وأعلنت فجأة هذا الخبر المؤلم :

— إنى أعرفكما أنهم قد ألغوا العقد المبرم مع « القاولات النهرية » ذلك المكتب الذى أعمل به . لقد طردونا جميعاً : « مارتينو » و « بيران » وأنا والشلة بكامل هيئتها . وأنبئكما فى هذه المناسبة بأن « مارتينو » مضطر إلى العودة إلى فرنسا ...

وتظاهرت « نيني » مرة أخرى بعدم المبالاة ونزعت حقيبة يدها وقفازها ومعطفها القصير .

وصدمت الرأتان فى بادئ الأمر من ذلك الخبر الفاجئ ولم تجدا ما تجيبان به ، ثم سألت الخالة « هورتنس » :

— ولكن الأمر لا يبدو أن يكون مشروعاً ، أليس كذلك ؟

وأجابتها « نيني » بلهجة تدل على الغيظ : لا ، ليس مشروعاً فإن المدير قد استدعى الجميع فى هذا الصباح ليخبرهم بأن عليهم أن يعدوا حقائبهم ...

وهنا تدخلت الجدة « إيلين » قائلة : لا يعنى كل هذا أى شيء يا ابنتى . لقد أصاب الشاعر الفرنسى حين قال : « إن المسافة بين الشفاه والكأس طويلة »[1] .

وقالت الفتاة : ولكن « مارتينو » راحل على أى حال .

---

(1) Il y a loin de la coupe aux lèvres .

— صبراً يا ابنتى . لا يمكن أن نقطع بشىء ..

— إنى لا أقطع بشىء وإنما أقرر الحقيقة فقط .

— ولكن لم يحدث شىء بعد يا ابنتى . لماذا تثورين هكذا ؟

— إن كل ذلك إنما هو فى عالم الغيب الذى لا يصل إليه تفكيرك .. اعتبرى أن كل شىء سيتم على خير وجه فيما يخص علاقتك بـ « مارتينو » .

وتناولت الجدة والخالة و « نينى » غذاءهم فى ذلك اليوم بدون شهية ودون أن أن يبدو فى لهجتهن ذلك الأمل الذى كانت تنفرج له أسارير الجميع ، والذى كان يرسم البهجة على وجهى العجوزين اللتين ظهر عليهما الآن الغم والأسى .

إن الأخبار تنتشر بمدينة « سان لوى » أسرع من تيار الكهرباء فى الأسلاك النحاسية الصغيرة ، والفضول إنما ينبت ويزدهر فيها كالنبات البرى الطويل : ولو أن الملك « ميداس »[1] عاد إلى الحياة فى هذه الجزيرة السعيدة التى يعرف الناس فيها كل شىء وهو ما زال فى مهده ، لما وجد صعوبة فى الصفح عن حلاقه الطيب ، لأنه كان سيسمع عندئذ إشاعات تتعلق بأسرار الناس : اتهامات خطيرة لا أساس لها من الصحة فى أغلب الأحيان أو أسرار تنقلها الريح من الممرات داخل البيوت ومن الغرف الملحقة . لو أن ذلك الملك عاد إلى الحياة فى تلك الجزيرة لوجد فيها أبطالا فى فن التشهير : وجوهاً قلقة مشدودة تتشمم رائحة إشاعة أو خبر سيئ ، وأناساً يتعطشون لتلقى الخبر والتهويل فيه ونشره واستخدامه لإثارة فضيحة من الفضائح ، ولرأى كيف أن لحناً خافتاً يتغنى بالحب قد تتولد عنه إشاعة تطير بأجنحة فتملأ الدنيا ، وكيف أن حديثاً بريئاً يدور فى جمع من الأصدقاء قد تنجم عنه استنتاجات خطيرة مبالغ فيها تصل إلى سجلات الأمن العام بالمستعمرة ...

لقد حدث شىء كان لابد أن يحدث بعد تناول الغداء بقليل إذ فوجئت « نينى » بزيارة غير متوقعة قامت بها ثلاث من زميلاتها من بينهن « مادو » اللطيفة ذات الشعر المجعد . وتكهنت « نينى » فى الحال بالهدف من تلك الزيارة ، ولكى

---

(١) هو ملك جاء ذكره فى الأساطير رأت الآلهة أن تلصق برأسه أذنى حمار وكان الرجل يخفى ذلك التشوه على الجميع ما عدا حلاقه الذى دفن السر فى حفرة ولكن النبات الذى نبت فى ذلك المكان كان يعيد على مسامع المارة : إن للملك ميداس أذنى حمار ..

لا يسبقنها فقد بادرت بإعلان النبأ فى غير مبالاة ، وفى سخرية تعجبت لها الزائرات الثلاث . وقلن فى صوت واحد : لقد علمنا بالخبر هـذا الصباح . وأجابت « نينى » وهى تحاول أن تضحك بمرح : هذا الصباح ؟ آه ! إن سكان « سان لوى » هؤلاء يثيرون العجب .

وقالت « مادو » مؤمنة : إنهم أقوى مما تتصورين ... وقد جئنا للتهوين عليك فى موقفك هذا العصيب .

وأجابتها « نينى » بلهجة منتصرة : ولـكنى لست فى وقت عصيب أو أن هذا لم يحدث بعد .

وقالت « مادو » : آه ... هـذا حسن . إن كانت الأمور تسير على هواك فهذا هو المهم .

— نعم ، إن الأمور لم يفسدها لحسن الحظ هذا الحادث المفاجئ ، بل إن الأمر على عكس ذلك تماماً ، وأنا أشكركن كثيراً على مجيئكن ، فهو يؤكد لى أنـكن مهتمات بكل مايصيبنى ، ولو كان هناك شىء خطير بالنسبة إلى فى ذلك التغيير المفاجئ لوجدت عزاء كبيراً فى هذه اللفتة الـكريمة التى صدرت عنكما وفى مجيئـكن لنجدتى .. وعلى أية حال مادامت الأمور قد سارت هكذا فيجب على ألا أخفى عنكن شيئاً . لقد ألغى العقد المبرم بين إدارة المقاولات والإدارة المحلية . أما عنى فقد رشحت للعمل فى مكان آخر وإن كنت لا أعرفه بعد .

وقالت « مادو » : آه ! هذا حسن ، إن هذا هو سبب مجيئنا ، فإن الحصول على عمل أصبح من أصعب الأمور ولاسيما بالنسبة إلينا نحن فتيات البلد كل الوظائف على مايدو قد حجزت لزوجات ضباط الصف بل ولزوجات كبار الموظفين الذين يحصلون على مرتبات ضخمة ، والذين يعيشون هم وأسرهم فى رغد العيش .

وهنا قالت « ليا » : نعم ، إن هذا صحيح ، فتلك السيدات الصغيرات يأخذن منا كل شىء . سنضطر بعد قليـــل إلى العمل عندهن خادمات لـكى نكسب عيشنا .

وسألت « تيتى » : وبهذه المناسبة ، هل يعود السيد « مارتينو » إلى فرنسا ؟

— نعم سيرحل فهو مضطر للرحيل، ولو إلى حين ، ليرتب بعض أعمال كان قد بدأها هناك .. أوه ! إن « مارتينو » من عشاق المستعمرات . لقد قال لى إنه لم يعد فى استطاعته الحياة بعيداً عن هذا البلد ..

وقالت «ليا» : لابد أنه جد شغوف بهذا البلد ! ها أنا أحاول — منذ ولدت — الرحيل عنه دون رجعة .

وقالت « نينى » مؤمنة : وأنا أيضاً .

— إن كل ذلك يتوقف على وجهة نظر كل منا ... وعلى أية حال فإن «مارتينو» شاب ، بينما أنتن ياصديقاتى العزيزات ...

— لسن إلا فتيات ، أليس كذلك ؟ هذا أمر مفهوم .

وقالت « ليا » فى خبث : لابد أن لدى « مارتينو » أسباباً تجعله يفضل البقاء فى إفريقيا .

وأردفت « نينى » موضحة : إن لكل منا أعذاره على أية حال .

وقالت « مادو » معلقة : إن كل شىء يكون حسناً إن أدى إلى نتيجة حسنة .

وسألت « نينى » صديقتها « مادو » : على فكرة يا «مادو» ، ألم يكلمك السيد « بيران » فى هذا الأمر من قبل ؟

— لالم يكلمنى فيه إطلاقاً ولكن لم السؤال ؟

— لأنه صديق السيد « مارتينو » الحميم ، ولأننا صديقتان لاتفترقان أبداً .

— إنك تعرفين ياصديقتى العزيزة أنى لا أرى السيد « بيران » إلا لماماً . وفى آخر مرة تقابلنا فيها لم يكن يعرف بدون شك شيئاً عما سيحدث .

وهنا قالت « نينى » وهى تضرب فخذيها بيديها : — أواه يا « مادو » منذ متى أصبحت كتومة ؟

— إنى أؤكد لك يا « نينى » أنى لم أذكر لك إلا الحقيقة .

وقصت «نينى» على زميلاتها الثلاث ،اللائى جئن بنية السخرية منها ، هذه القصة لـكى توقعهن فى الفخ :

— لقد حدثنى « مارتينو » طويلا هذا الصباح . وليس عندى ما أخفيه عنكن مما قاله ، فأنا واثقة من أن سعادة إحدانا أوشقاءها إنما تشاركها فيها الأخريات . حسناً ... لقد أكد لى « مارتينو » أنه يـكفيه التوجه إلى الوزارة لـكى يحصل على وظيفة ملحقة بالإدارة المدنية ، إذا ما أراد ، فهو حاصل على ليسانس الحقوق وعلى دبلوم فى الاقتصاد السياسى . وقد قال إنه لولاى لتطلع إلى وظيفة سكرتير بإحدى السفارات إذ أن أباه رجل دبلوماسى تجوز له كلمة مسموعة فى مكاتب شارع «أودينو». وسوف يعود إذن بعد ستة أشهر ليتبوأ مركزاً أقل أهمية من وظيفة سكرتير بإحدى السفارات ، وهو إنما يفعل ذلك لـكى يحقق أعز أمانيه : الوفاء بوعد الزواج الذى قطعه على نفسه .

وصاحت « مادو » قائلة : آه ! أهو قد وعدك بالزواج بمثل هذا التأكيد ؟

— نعم لقد وعدنى به بشكل لارجعة فيه ، وكنت أتصور ياصديقتى أنك أول من عرف الأمر ، وإنه ليدهشنى أن أراك تتصنعين الدهشة الآن .

— أتصنع الدهشة ! لا ، ليس الأمر كذلك على الإطلاق ياصديقتى العزيزة . ويجب أن تعترفى أنت نفسك بأن أحدنا لم يحدد أبداً للآخر حقيقة موقفنا من «مارتينو» و « بيران » .

— ربما كنت على حق ، والأمر باختصار هو كما ذكرته ، لـكن سوف أنتظر عودته .

وقالت «ليا» : أحب أن أسدى إليك نصيحة . ألا تعتقدين أن الحرص إنما يقتضى منك إعلان خطبتكما قبل رحيله إلى فرنسا ؟ إنك تعرفين ماللخطبة من قيمة ، فهى تترك أثراً أوما يشبه أخدوداً يؤدى بنا إلى الزواج . ويجب ألا نثق كثيراً فى وعود الزواج . إن عدداً قليلا جداً من الأوربيين ممن وعدوا فتيات من هذا البلد بالزواج قد عادوا ليتزوجوا منهن .

وأجابت « نينى » فى شبه عصبية : ليست لدى أية اقتراحات أقدمها له فيما يتعلق بهذا الموضوع ، فأنا واثقة من حبه لى ومن أنه لن يخدعنى أبداً . وهذا كاف على الأقل بالنسبة إلى ، أنا التى يعنينى الأمر .

وقالت « ليا » متراجعة : — فى هذه الحال يكون كل شىء على ما يرام .

ولما كانت ساعة العودة الى المكتب قد حانت . فقد انسحبت زميلات « نينى » الثلاث بعد أن حاولن بطريقة صاخبة أن يؤكدن لها مدى ما يشعرن به من مودة نحوها وهن يخفين بمهارة زيفهن .

وبقيت « نينى » بمفردها ، وارتسمت على وجهها سمات الجد ، وأخذت تنسق غرفة نومها وهى شاردة ، وبقيت تائهة فى تأملاتها ..

* * *

لماذا ياترى يهتم الناس بحياة الآخرين ؟ ألا تكفيهم متاعبهم الخاصة التى يقاسون منها كل يوم ؟... كان هذا مافكرت فيه« نينى » بعد خروج زميلاتها، وكانت تشعر بالإرهاق إذ اضطرت إلى إعمال فكرها لتصمد أمام هجوم صديقاتها . إنها تشعر بالاشمئزاز من الناس فهم يسعدون لمصائب الغير ، وهم يتمنون فى كل لحظة التاعب للآخرين ، تحدوهم فى ذلك فكرة شيطانية تصور لهم أن مايقلل من شأن الآخرين إنما يكبر من شأنهم. إن كل تعاليم الأديان منذ تلك التى تبشر بالإحسان إلى تلك التى تقول : « أحبوا بعضكم بعضاً » لاتزال عاجزة عن التأثير فى كائنات غارقة حتى آذانها فى الشر . إن قانون الناس مستمد من قانون الغابة ، والمجتمعات الراقية هى أكثر المجتمعات شراسة فى العلاقات بين أفرادها . إن حب الناس للآخرين لا وجود له إلا بقدر تبعيتهم لهم ، فعندما يجتمع شخصان،أو ثلاثة أشخاص، يتآمرون على رابعهم.

إن الأفكار السوداء تملأ رأس « نينى » ، وهى تقلب تلك الأفكار فى رأسها الصغير المعذب .

وفجأة اعترتها ثورة جاءت رد فعل متأخر لما كانت تشعر به ، وهبت واقفة . ماذا تنوى يا ترى ؟ ... لقد فكرت فى الذهاب لمقابلة « مارتينو » بعد ظهر ذلك اليوم لتطلب إليه أن يؤكد ما سبق أن وعد به ، فهى لا تحب أن تصبح أضحوكة فى مدينـــة « سان لوى » بأسرها ، وأن تكون فريسة سهلة للألسن الشريرة ،

ولكن ماذا عساها تقول له ؟ هل تخبره بأن الناس قد بدأوا يسخرون منها وأن زميلاتها قد جئن يستفسرن عن مصير علاقتها به ؟ وهل يمكن أن يدفع مثل هذا القول « مارتينو » إلى زيادة شيء على ما سبق أن قال وكرر : « سأتزوجك وستصبحين زوجتي الشرعية » ؟ لا . يجب أن أتغلب على تلك النزعة الساذجة . وتنهدت « نيني » إذ شعرت بأن شخصيتها الأخرى قد خلصتها من وازع كرامتها .

وعلى أية حال فإن «مارتينو» قد انتهز فرصة تغيب «بيران»،في ساعة متأخرة بعد الظهر ، ليكلمها عن ذلك الموقف الذى نجم عن إلغاء عقد الشركة غير المتوقع ، وقال :

— إن ما حدث لا علاقة له بمشاريعنا . صحيح أنني أعود إلى فرنسا ولكني سأرجع منها بعد قليل . ولكنى أطلب منك أن تحتفظي بهذا السر . سأمر على أسرتك قبل رحيلي لأودعها ، وهذا أقل ما يفرضه على الواجب .

— ومتى ستحضر إلى بيتنا ؟

— لست أدرى ... بمجرد أن يخطرونا رسمياً بميعاد رحيلنا . لم يعد أمامنا — على ما أعتقد — إلا أيام قليلة .

ودخل « بيران » في تلك اللحظة . وسأله « مارتينو » . أهناك جديد ؟

— لا شيء . كنت قد خرجت لشراء علبة سجائر . إن أمامنا الآن أوقات فراغ طويلة لا نعرف كيف نستغلها ... وعلى فكرة يا آنسة « نيني » ، أعتقد أنه يجب أن نقيم حفلة فاخرة قبل أن ندير ظهورنا لهذه المدينة الجميلة التي تغنى بها « لوتى » .

وقال « مارتينو » : كم من حفلات أقمنا يا عزيزى ،ولكن صحيح أنك تتحدث عن حفل وداع ...

— نعم إنى أعنى ذلك ، أعنى حفلة حقيقية ، أليس كذلك يا آنسة « نيني » ؟

— بالتأكيد ، إن هذا أقل ما يمكن عمله فقد قضينا وقتاً طويلا معاً . وقال « مارتينو » وهو يضحك برفق : — إن « بيران » سوف يفقدك صوابك .

وقال « بيران » : ولكن أين سنقيم هذا الحفل ؟ فى البيت أم فى مشرب على الساحل ؟ ... ها كم ، إن لدى فكرة قد لاتكون عبقرية ولكنها عملية : رحلة خلوية ! هذ أفضل مايمكن عمله .

وأردف « مارتينو » : أوه ! لقد قمنا برحلات خلوية كثيرة أيضاً .

— من الصعب إرضاؤك ياصديقى . إن كل شىء فى الحياة سبق أن عمل مرة ومرات ... إن ذلك يذكرنى بسؤال من أسئلة امتحان الـ « بكالوريا » : « كل شىء سبق أن قيل مرة ومرات منذ وجد على الأرض الناس الذين يفكرون » ... إن ما أفكر فيه إنما هو رحلة خلوية عجيبة فريدة فى نوعها ، وأعنى بذلك رحلة مع الآنسة « نينى » وكل الفتيات المختلطات فى هـذا البلد . مارأيك فى هذه الفكرة يا آنسة ؟

— فى رأيى أن الأفضل فى حالة احتفالنا برحيلكما إلى فرنسا أن يتم ذلك فيما بيننا نحن الأربعة الذين عاشرنا بعضنا البعض:السيد «مارتينو» وأنت«ومادو» وأنا .

— إن هذا بديع وفكرتك هذه إنما تدل على منتهى الحكمة .

وفى الأسبوع السابق لرحيل « مارتينو » و« بيران » حاول هـذان الأخيران أن يستمتعا بوقتهما إلى أقصى حد ، فقد قضيا تلك الأيام فى الزيارات والذهاب إلى كل مكان وفى الأكل والشرب . كنت تصادفهما فى جميع مقاهى « سان لوى » وفى صحبتهما « نينى » و « مادو » اللتان لم يعد لهما الوقت الكافى للتزين . كان ذلك الأسبوع أسبوعاً استوائياً بمعنى الكلمة قضوه فى استنفاد كل ما فى طاقتهم .

أما زميلات « نينى » و « مادو » فقد سرهن أن يرين ذلك الصخب وذلك الانفعال الزائد من قبل الفتاتين إذ كن يعرفن أن كل ذلك إنما يمهد لنهاية الفيلم ، وكن يقلن :

— إنهما تستنفدان آخر طلقاتهما ، وهذا كل ماسيتبقى لهما .

وفى نهاية الأسبوع استقل الرجلان الأبيضان القطار ليصلا إلى« داكار »فى نفس المساء حيث تقلع طائرة تابعة لشركة « إير فرانس » فى حوالى الحادية عشرة مساء .

وبذلت « نينى » مجهوداً جباراً وهى على رصيف المحطة حتى لاتجهش بالبكاء

بينما بقيت صديقتها « مادو » هادئة غير مبالية . إن الأمر بالنسبة إليها لا يعدو أن يكون مغامرة كبقية المغامرات وصلت إلى نهايتها ولا شيء أكثر من ذلك. لم تذهب إلى الحد الذي وصلت إليه صديقتها « نيني » في طريق المشاريع الجادة والآمال الخداعة . إنها تعرف أنها ستمنح نفسها دائماً للبيض ولكنها تتجنب خداع نفسها ومداعبة الآمال الكاذبة . إن الحب بالنسبة إليها ليس إلا نوعاً من الرياضة .

وعندما تحرك القطار حاملا العشيقين هرعت « مادو » إلى مساندة « نيني » لتساعدها على الخروج من المحطة بمظهر كريم .

* * *

وتابعت « نيني » رجلها « مارتينو » بخيالها. لقد تخيلته في « داكار » وهو يستقل الطائرة ضمن عدد من المسافرين عائدين مثله إلى العاصمة الفرنسية ، وراحت تتخيله هو ذاته مجرداً عن حياته السابقة وعن الحياة التي عاشها في تلك الأيام الأخيرة . إنها تراه سابحاً في آفاق جديدة ، وترى حياته وهي تسلك طريقاً جديدة . وهي تجد صعوبة كبيرة في إقناع نفسها بأن حاضراً حياً كهذا، حاضراً زاخراً بالحياة كهذا الذي يعيشه حبيبها يمكن أن يتعثر في أذيال ماض هو الآن في عداد الأموات . لاشك في أن « مارتينو » و « بيران » يتحدثان الآن في شيء آخر وهما يسبحان في الهواء ، ولاشك في أن مدينة « سان لوى » إنما تبدو لهما الآن شيئاً بعيداً متضائلا . أما عن الحنين فهي لاتستطيع أن تفترض وجود شيء منه لدى « مارتينو » وهو لايزال على متن الطائرة المقلة له . ربما شعر بهذا فيما بعد ، بعد وصوله الى فرنسا ، وبعد أن تتبلور في أعماقه ذكرياته بإفريقيا .

هذا ما كانت تحلم به « نيني » وهي حبيسة غرفة نومها .

وفجأة ، وبدون ماسبب معقول ، وجدت « نيني » نفسها نهباً لأزمة عصبية حادة. وشعرت بأن قلبها مثقل بالهم وآخذت نفسها على موقف الاستجداء الذي اتخذته إزاء « مارتينو » وإزاء الرجال البيض جميعاً . إنها ثائرة ضد الطبيعة وضد الحياة وضد الناس وضد السعادة والبهجة ، ضد البيض والسود على السواء ، وامتلأ قلبها بالمرارة. لماذا تكون دائما الفتاة التي تشتهي وتستجدي وتتوسل ؟ أهي متسولة تطلب الحب؟ إنها تفكر في أن تختفي من وجه الأرض ، في أن تذهب إلى مكان ما — وإن كانت لاتعرف إلى أين تذهب — حتى تتمكن روحها ، طالما بقيت على قيد الحياة ، من تذوق طعم الراحة دون أن تشتهي شيئاً ، ودون أن تتطلع إلى شيء ، لعلها

تتمكن بتلك الطريقة من الهرب من سخرية الناس ومن قسوة بنات جنسها الشريرات اللائى يتفرجن عليها ويبتسمن ساخرات من محنتها واللاتى تجرأن على المجيء إلى بيتها ليسألنها عن أسرار قلبها . إن تلك الأكذوبة التى تعيش فيها والأكذوبة التى تعيش فيها بنات جنسها من الخلاسيات ، قد ظهرت لها الآن بوضوح ، وقد زادت من جسامة تلك الأكذوبة خيبة الأمل التى سببها لها رحيل حبيبها المفاجئ . ولكن لقد فات الأوان لإمكان إصلاح مافات من حياتها ، وهناك استحالة فى أن تصبح شيئاً آخر . إن القدر قد حكم عليهن جميعاً بأن يعشن حياة بوهيمية يضيئها بين الفينة والفينة شعاع أمل ، أو يسممها شعورهن بأنهن من المخلطات اللائى لاينتمين إلى مجتمع بالذات .

إن ذلك الضغط الذى تشعر به فى رأسها وذلك الشرود الذى أصبح عندها كالحالة المرضية قد نجما عن انفعال وعن إرهاق جسدى داما أياماً طويلة ونالا منها فى آخر الأمر . كانت تصل إلى أسماعها أصوات مضطربة تأتيها من الشارع الذى خلا من المارة فتشعر بكآبة شديدة تستسلم بعدها للحزن ، وهولون من الحزن فيه ما يشبه الخدر اللذيذ . هاهى مهجورة من جديد . كم من الوقت ستبقى على تلك الحالة ياترى؟ لقد شعرت بطريقة مبهمة أن الحياة إنما تسير على وتيرة واحدة . هاهى الطبيعة ، فى الخارج ، على ماهى عليه لم يطرأ عليها أى تغيير بالرغم من رحيل « مارتينو » وبالرغم من همومها هى ، وهاهى القطط ذات الأعضاء المرنة تستسلم على طول الجدران لألوان من العناق المصحوب بالزفير ، وهاهم السود يدقون الطبول كعادتهم فى كل مساء ، أماهى « نينى » فهى الوحيدة العاجزة عن تذوق شاعرية الوجود فى ذلك المساء .

* * *

لقد شعرت « إيلين » العجوز بخيبة أمل كبيرة ولم تفصح عما بها لأحد ولا حتى لابنة أختها « هورتنس » . وكانت الصدمة قوية لدرجة أنها أصيبت بالمرض . ولعل سنها من ناحية وسوء الأحوال الجوية من ناحية أخرى ، فى ذلك الموسم ، قد اضطراها — فضلا عن ذلك السبب النفسى — إلى أن تبقى طريحة الفراش . كان ذلك الموسم هو فترة التحول بين موسم هطول الأمطار وما يصحبها من حرارة وبين شتاء إفريقيا الذى يستمر ثلاثة أو أربعة أشهر والذى يشعر الصغار والكبار فيه بقشعريرة تحت ملابسهم الخفيفة .

إن ما أصاب الجدة « إيلين » لم يزعج فى بادئ الأمر «نينى » ولا خالتها ، فمن الطبيعى فى مثل سنها أن تعتل صحتها . ولقد استدعينا على كل حال الدكتور « فينو » الذى تسميه « نينى » بـ « طبيب العائلة » .

وحضر الدكتور « فينو » على وجه السرعة فى صحبة « نينى » فى سيارة طويلة وسريعة تشبه كلاب الصيد . وبعد أن فحص عن المريضة فرك يديه وقال .

— ليس بالأمر شىء خطير ولاحق بالنسبة إلى سنها ، ولكن يجب أن تسهرا على ألا تصاب بالبرد فى أية لحظة من لحظات النهار أو الليل .

وأجابته « نينى » : حسناً يادكتور . ويجدر بالذكر فى هذا المقام يادكتور أننا قد نصحناها دائماً بالذهاب إلى « فيشى » لتقضى بها ستة أشهر للاستشفاء ولكنها كانت دائماً ترفض .

وهنا قال الدكتور « فينو » . إن قضاء ستة أشهر للاستشفاء بـ « فيشى » إنما يكلف الشىء الكثير يا آنسة .

— وماذا فى ذلك ؟ كانت الأسرة ستتكفل بالنفقات ، فلدينا عمارات وطائفة أخرى من الممتلكات ..

— على أية حال اتبعا إرشاداتى بكل دقة فأنا أعتقد أن من الممكن إنقاذها إذا لم ترتكب أية هفوة حتى نهاية العلاج الذى سأخضعها له .

وخرج الدكتور « فينو » فى خطوات عريضة متزنة ، ودلف إلى سيارته اللامعة الطويلة التى تشبه كلاب الصيد .

وأثناء الليل كانت الجدة « إيلين » تفصح عن آلامها ببعض أنات خفيفة تكاد لا تسمع ، ولم تأت بأية حركة عضلية تدل على أى رد فعل . لقد استنفدت الحياة كل ما تبقى من نشاط فى ذلك الجسم فأصبح فريسة سهلة للمرض والموت . كان يبدو لـ « نينى » أحياناً ، أثناء الليل ، أن كل شى قد انتهى وأن روح جدتها قد راحت تلحق بأرواح كل اللائى كن يرقدن هناك فى مدافن « سور » . ومع ذلك فإن المرأة العجوز مازالت حية ومازال قلبها يدق برفق بالقدر الذى يسمح به ما تبقى لها من قوة ..

وعاد الدكتور « فينو » فى اليوم التالى حاملا زجاجات وأنابيب ، وأشار إلى طريقة استعمالها وإلى مواعيد إعطائها . وجس نبض المريضة وقاس ضغطها ونصح بألا يسببوا لها أى انفعال . ولكى يعوضها عن بعض قواها المتداعية حقنها بحقنة جعلتها تئن ثم رحل بعد أن قال لـ « نينى » ولخالتها :

— أرجو أن تستد عيانى إذا ماجد جديد .

إذا جد جديد ؟ .. أى جديد ياترى ؟ يالها من كلمة فظيعة ! هل اشتد عليها المرض أم إنها ستموت ؟ وماذا يمكن أن يفعله الطبيب حينذاك ؟

ومر بعد زيارة الطبيب الثانية يومان أو ثلاثة أيام بقيت حالة المريضة خلالهما على ما هى عليه . لقد نفذت تعليمات الطبيب بكل دقة .

وفى اليوم الرابع أصيبت المريضة بتشنجات مفاجئة أفقدت « نينى » وخالتها « هورتنس » صوابهما . وأخذت المرأة العجوز تنازع وتصيح وتنادى وتبكى كالطفل الرضيع .

وهبت « إيلين » العجوز من فراش مرضها وشرعت تقذف بعصبية بكل ماكانت تصل إليه يداها من زجاجات وأدوية الطبيب الأبيض ، وتلقى بها على الحائط فتصدر عنها ضوضاء فظيعة .

كانت المرأة تصيح قائلة : لا أريد هذه الأشياء ، لا أريدها ! إنها جميعاً تتقمصها روح الشيطان الذى يريد أن يختطف روحى . إن أرواح أجدادى تؤكد لى ذلك وأنا أسمعها بوضوح . إنى أراهم الآن ... أحضروا لى الساحر الـ « ماندنج » ، فهو الوحيد القادر على إنقاذى من الشيطان . لا أريد أن أرى رجلا أبيض فى هذا البيت بعد هذه اللحظة . هيا أسرعوا فى إحضار الساحر الـ « ماندنج » ... يجب أن تضحيا من أجلى كما فعلوا من قبل مع جدتى « ديجان » ، أميرة « سين » والروح المحركة لـ « سانجومار » .. وإلا فسأموت .

وعادت إلى البكاء وسالت من مآقيها عبرات ساخنة تتخللها زغطة . كانت كطفل فى الثانية من عمره يبكى لينال ما يطلبه .

وصاحت من جديد بعد لحظة من التداعى : لا أريد رجالا من البيض هنا بعد الآن . لقد كذبوا علينا واعتدوا على شرفنا وأنزلونا إلى مرتبة أقل من مرتبتنا . لقد أوغروا صدور ذوينا من السود بالغيرة والحقد تجاهنا كما أغضبوا أرواح أجدادنا الذين نبجلهم . وها هم الآن يريدون أن يعالجونى ! .. آه ! آه ! آه !

وأخذت العجوز تضحك وكأن قوى خفية لم تخطر على بال قد أعادت إليها كل حيويتها وكل صفاء ذهنها .

وأمام ذلك المشهد المرعب انخرطت « نينى » فى البكاء وقالت لخالتها :

— أعتقد أن الأمر قد انتهى فقد بدأت تهذى ..

وقالت خالتها : إنها لا تهذى على الإطلاق . لابد من أن ننفذ كل طلباتها حتى الرمق الأخير ، وما دامت تلح فى طلب الساحر الـ « ماندنج » فسأرسل « باكارى » إلى « خادى » بـ « نديولوفين » .

وقالت « نينى » محذرة : ولكن ياخالتى ، لقد كذب علينا ذلك الساحر من قبل ها هو « مارتينو » قد رحل بالرغم من تأكيدات الساحر بأنه لن يرحل عن « سان لوى » قبل أن يتزوجنى .

وأجابت الخالة « هورتنس » فى وقار : هذا شىء وذلك شىء آخر . إن جدتك فى هذه اللحظة — وهى دعامة أسرتنا — مريضة ، وهى تطلب منا تنفيذ رغبتها ، ولذا فإنه يجب علينا أن ننسى كل شىء حتى نلبى رغبتها هذه .

وجاء الساحر فى نفس ذلك الصباح الذى طلبوه فيه وجلس فترة طويلة بجانب فراش المريضة ، ثم طلب منهم أن يختلى بنفسه ، فقادته الخالة « هورتنس » إلى مكان مهجور كئيب كدست فيه قطع أثاث محطمة عفا عليها الزمن ، لم تر النور منذ قرابة نصف قرن .

وبقى الـ « ماندنج » وقتاً طويلا جداً فى ذلك المكان الكئيب الذى كان يشبه إلى حد ما كوخه المظلم المنعزل الذى يقع بحى « نديولوفين » .

وفى هذه الأثناء شرد فكر « نينى » وخالتها « هورتنس » فى آفاق بعيدة وإن

توقف عند بعض أشياء كانت تنبثق من الغياهب فجأة فتعجزان عن فهم كنهها أو إبعادها عن مخيلتهما . إن تلك الأفكار التي راودت خيالهما كانت متناقضة ساخرة، أو تحمل معنى أمل مبهم ، وإن كانت تتسم جميعها بما تتسم به الألغاز من غموض . نعم إن كل ذلك إنما هو لغز فليس هناك شيء مؤكد ولا شيء صحيح أو خاطيء . كان هناك شيء واحد يعترض طريق المستقبل بجناحه القاتم ، ألا وهو المصير المظلم الذى سوف يحجب وراءه ذات يوم الفكر الإنسانى ليقذف به إلى الهاوية أو ليبخره . ليس هناك شيء صحيح أو شيء خاطيء ، ومادام الأمر كذلك فلم نحاول تفسير ما غمض علينا من أمور العالم والحياة ، وأن نستنبط من تجاربنا البسيطة ، التى دأبت ظروف الحياة على مناقضتها وتسفيهها ، قوانين ندعى أنها لا تخطيء ؟ ولم نحاول دائماً البحث عن الحقيقة فى اتجاه واحد بينما نغمض أعيننا عن المجالات الأخرى ؟ ليس هناك مايدهش فى تصرف الجدة « ايلين » وفى رفضها اللجوء إلى الطبيب الأبيض بمثل ذلك العنف . وعلى أية حال ، أليس ما يتعلق بالجسد وما يتعلق بالروح مرتبطين كل الارتباط ؟ إن الأديان تؤكد اتصال الروح بالمادة . والخالة «هورتنس» شديدة الإيمان ،أما الطبيب الأبيض فهو يعالج مرضاه بعناصر يأخذها من عالم الطبيعة . ولكن هناك أيضاً — فوق مستوى المادة — الروح التى لا يمكن إنكارها : والروح لها الاعتبار الأول بالنسبة للمادة . والخالة « هورتنس » تعتقد أن فى مثل سن الجدة « إيلين » يمكن للمادة ، فى أى شكل من أشكالها ، أن تخمد ما تبقى من حياة الروح ، كما تأتى الريح العاتية على الشعلة الضعيفة التى تضيء وتخبو . والخالة تقول لنفسها فى النهاية إن المرضى فى مثل تلك السن يتمتعون بصفاء ذهن غير عادى حتى إن من واجبنا أن نعتبر أن الرؤيا التى تهبط عليهم وما يهذون به ألوان من الوحى تأتينا من لدن الله فى أشكال مقنعة .

وطرأت على ذهن « نيني » فكرة عبرتها كالصاعقة . « إن جدتى على أية حال طاعنة فى السن ، وليس هناك شيء يمكن أن تنتظره من الحياة ... » وتقفز « نيني » من مكانها عندما تراودها تلك الفكرة ، وتؤاخذ نفسها على أنانيتها أو على تبلد عاطفتها ، بل إنه ليخيل إليها أن شخصاً ما ، وربما كان خالتها نفسها ، قد سمعها وهى تفكر فى ذلك الأمر المخجل . وهنا تمتمت بين أسنانها بعبارة مبهمة لعلها كانت التكفير عن هذا الذنب .

وقالت الخالة « هورتنس » منزعجة : ماذا دهاك يا « فرجيني » ؟

وشعرت « نيني » بأنها قد وقعت في الفخ . ولكنها ببديهة حاضرة تستحق الإعجاب وجهت بدورها هذا السؤال :

— هل تعتقدين مخلصة ياخالتي أنه من الممكن أن تعالج جدتي بواسطة شيء آخر غير عناية الأطباء ؟

وأجابتها خالتها : دون شك ، دون شك . هناك أمور تفوق إدراكنا ، وإن كنا لا نصدقها بسهولة لمجرد أن حواسنا لا تصل إليها . ومع كل فلا يمكن لأحد أن ينكر تلك المعجزات التي تتم بمدينة «لورد»(١) ، ففي كل عام يتم شفاء الناس في «لورد» فيرى من فقدوا بصرهم ويسمع من فقدوا حاسة السمع ويشفى البعض من جنونهم ويعود إلى بعض المعجزة نشاط أعضائهم أو تعود إليهم قدرتهم على السير ، وهذا أمر لا ينكره أحد .

— هذا صحيح ولكن أتعتقدين أن من الممكن أن يتم نفس الشيء بواسطة ساحر أسود ؟

— ولم لا ؟ . . . إن الأرواح هي الأرواح ، وإن كانت الأرواح بمدينة « لورد » قد وصلت إلى تلك النتائج فهناك أرواح أخرى يمكن أن تأتي بالمعجزات في أماكن أخرى . يجب ألا ننفي كلية وجود « السحر الأسود » . إننا لا نعرف شيئاً يا « فرجيني » ، لا شيء على الإطلاق . إن كل شيء إنما يفوق إدراكنا .

وقررت « نيني » ألا توجه أسئلة أخرى . لقد نجحت في إخفاء تلك الفكرة الشيطانية التي راودت ذهنها ، تلك الفكرة المجردة من الاحترام وإن عبرت عن حقيقة يحسن عدم ذكرها . إن هذا يكفي .

وبعد لحظة دخل الساحر قاعة الاستقبال دون أن يصدر عنه أي صوت . ونهضت الخالة « هورتنس » لتقوده إلى غرفة المريضة ، ولكنه أوقفها بحركة ماهرة وقال :

---

(١) بفرنسا . وهناك آلاف من الناس يحجون إليها كل عام للتبرك .

ــ لا ، أفضل أن نبقى هنا حتى لا نزعج السيدة . يجب أن نتجنب إزعاجها فهى فى حالة خطيرة من المرض . ومن الأفضل على أية حال ألا تسمع ما سأقوله لكم بشأن حالتها .

ونظر من ركن عينه إلى « نينى » وارتسمت على شفتيه ابتسامة تناسب المجال. وقال :

ــ لا شك فى أن ما قمت به أخيراً من أعمال كان يتعلق بالآنسة ؟

ــ نعم إنها حفيدة السيدة المريضة كما أنها ابنة أختى. وبهذه المناسبة أيها الساحر ، أتعتقد أن الأمور سوف تسير سيراً حسناً فيما يتعلق بحالتها هى ؟

ــ الله هو القادر على كل شىء ، ولكن إذا لم يأت عملى بنتيجة فستكون تلك هى المرة الأولى التى أخطىء فيها .

ثم أردف وهو يحيد بحديثه عن وجهته :

ــ أما عن السيدة المريضة ، فقد أخبرتنى الأرواح أنها وإن كانت طاعنة فى السن إلا أن عمرها لم ينته بعد . هذا ملخص كل ما أخبرتنى به . وعندئذ سألت الأرواح : وماذا هناك إذن ، غير السن ، يمكن أن يهدد بالقضاء عليها ؟ وأجابت : « لا شىء » ولكنى أردفت : بلى ، بلى ، هناك شىء ما يهدد حياتها ما دام مرضها لا علاقة له بالسن ، إنك أنت نفسك أيتها الأرواح التى أفصحت عن هذا . وهنا أجابت : « لا شىء يتهددها ولكن كل شىء قد تخلى عنها » ، هكذا قالت الأرواح . ثم سألتها : ماذا تعنين بـ « كل شىء » ؟ فأجابت : « ذلك الذى يساعد الإنسان على الحياة ، وهو أهم من دمه ولحمه » . ــ وماذا تعنين بذلك ، أرجو أن تتكلمى بوضوح . فأجابت « لم تهتم أبداً برفات أجدادها الأقدمين وبأرواحهم التى كانت تسير بجانبها وتحميها طوال حياتها . ولماذا تطلبون الآن من تلك الأرواح أن تستمر فى السهر عليها والعناية بها » ؟ وهنا سألتها : ــ إنك أيتها الأرواح إنما تتحدثين عن رفات أجدادها ، ولكن أى أجداد تعنين ؟ فأجابت « أجدادها من ناحية أمها ، وهى تعرف هذه الحقيقة على أية حال » . فقلت : « أهى تعرف هذه الحقيقة ؟ » . فأجابت : « نعم ، إنها تعرفها حق المعرفة ، وهى لم تجهلها فى أى

وقت من الأوقات ، ولكنها دأبت دائماً على إنكار أن لها أجـداداً من تلك الناحية » . وسألت : « وماذا يطلبون منها الآن حتى تحصل على عفوكن وتتمكن من الوقوف على قدميها ؟ » فأجابتنى الأرواح : « هـذا شىء لا نعرفه ، فقلت فى إلحاح : « بلى ، إنكن تعرفن . أخبرننى بما يجب أن تفعله أو بما يجب أن يعمل من أجلها » ، فأجبن : « ربما كانت الفرصة قد فاتت الآن » . فقلت : « لا ، لم تفت ما دامت لم تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد » . وسكتت الأرواح لحظة ثم قالت :

— « مادمت تصر ، فقل للمريضة أو لمن تبقى لها من الأهـل أن يقدموا على التضحيات التالية : أن يشتروا ثوراً أسود أو أحمر لا يشوب لونه أى لون آخر ، ويجب أن يذبح فى أحـد أيام الاثنين أو الخميس ، كما يجب أن تشرب المريضة من دمه ، وأن يدهن جسمها بهـذا الدم من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها ، وأن يستعمل لحم الثور كله فى طهى صنف واحد من الطعام يوزع كحسنة على الفقراء والجيران . ويجب أن تقرع الطبول لمدة ثمانية أيام متتالية سواء فى منزل المريضة أو فى منزل أحد الأقرباء يكون من عصبها .

وانزعجت « نينى » مما سمعت ونظرت إلى خالتهـا وصاحت بالفرنسية بالرغم منها قائلة :

— ولكن هذا شىء يستحيل عمله تماماً .

وأجابتها الخالة « هورتنس » برفق : إنى أطلب منك السكوت يا « فرجينى » . ثم قالت موجهة كلامها إلى الساحر : — إننا على استعداد للاقدام على أية تضحية من أجل إنقاذ السند الوحيد الذى تبقى لنا من أسرتنا . ولكن هناك فيما طلبته الأرواح أشياء سوف يصعب علينا عملها . لست فى حاجة إلى أن أخبرك أننا لسنا من البيض وكذلك لسنا من السود. هناك أشياء يمكن أن يفعلها البيض فى بيوتهم صراحة دون حرج ولا شعور بالخجل ، كما أن هناك أشياء يقوم بها السود كل يوم فى بيوتهم وتشعرهم بالزهو عنبتهم. وكل هذه الأعمال والمظاهر أشياء محرمة علينا نحن الخلاسيين. إن شراء الثور الذى تشير إليه، وذبحه فى مكان آخر، وتوزيع لحمه على سبيل الإحسان... كل هذه الأشياء ميسورة بشرط ألا يعرف أحد من الناس ـ لا من البيض ولا من السود ـ اسم من قدمت هذه الضحية ، أما بقية ما تطلبه الأرواح منا فليس فى وسعنا أن نتصور

إمكان إنجازه ... وعلى كل حال نحن ننبئك صراحة أن ليس لنا أقرباء مقربون يمكن الاعتماد عليهم فى كتمان الأمر ، وفى تحمل مسئولية إنجاز هذه الأعمال على الوجه الأكمل .

وقال الساحر : إنى أدرك تماماً مدى شعوركما بالحرج . ولكن هذه هى رغبة الأرواح التى استشرتها ، وهى أهم الأرواح بالنسبة إلى ذلك الموضوع لأنها أرواح أجدادكن السود .

وسألته الخالة « هورتنس » : وما العمل إذن ؟

— لست أدرى ! ... ربما اللجوء إلى الصلاة ، ومحاولة إقناع الأرواح بطلب أشياء أخرى تكون فى مقدوركن ... ولكن الصلوات على كل حال لاتعدو أن تكون مجرد صلوات أى مجرد طلبات للتشفع . وكيفما كانت الصلاة فلا يمكن التكهن بعدها بشىء بصورة قاطعة ، وعلى كل حال فإن ماتحمله لكن أرواح أسرتكن من السود من ضغينة إنما يرجع إلى زمن سحيق يجعل من الصعب الحصول من تلك الأرواح على بعض التساهل .

وأعقب هذا الكلام صمت ثقيل أخذت « نينى » تعجب خلاله إعجاباً خفياً بذلك الساحر ، لا بفضل علمه الذى ما زالت تنكره ، إنما بفضل صراحته وأمانته . وقالت فى نفسها :

— ربما كان الرجل قد رأى بوضوح الأمور المتعلقة بمسألة « مارتينو » ، وإلا لكان قد قال ما يراه بصراحة كما يفعل الآن .

ثم رفع الساحر رأسه وتنهد وقال مختتماً حديثه :

— لقد تعرفت بالسيدة المريضة بفضل إحدى معارفى من الـ « أولوف » تدعى « خادى » ، وهى التى جاءت بى إلى هذا البيت . وسوف أقضى ليالى — اعترافاً منى بفضلها — فى الصلاة من أجلها حتى يشفيها الله وتقف على قدميها . ولكنى لن أطلب منكم شيئاً ، أى شىء على الإطلاق ، نظير ذلك العمل ، فأنا أريد أن أفعل هذا من قبيل العرفان بالجميل والإخلاص لصديقتى « خادى » . ونهض وطلب أن يرى المريضة مرة أخرى قبل رحيله . واستحال الرجل فى حضرة « إيلين » العجوز رجلا آخر ، إذ عادت إليه سمات الساحر المعتز بقوته . وقال للجدة « إيلين » بلهجة قاطعة ، وبصوت هادىء لا تردد فيه :

— يا سيدتى اطمئنى . إن الله قادر على كل شىء . إنى أعـرف أن المرض قاس بالنسبة لمن كن فى مثل سنك . ولـكن هـذه المحنة ستمر بسلام فقد اتفقت معى أرواح أجدادك على نوع من التضحية ، وسأسهر على تنفيذ رغبتها فى بيتى كما سأقوم بعمل يشفيك . سأسهر طوال الليـــل والنهار حتى أخرجك فى أقرب فرصة من هذه المحنة التى تعانينها .

وأجابت « إيلين » العجوز همساً وهى تغمز بعينيها :

— أشكرك كثيراً .

وانحنى الساحر وحياها بأن قرب يده من صدره ، ثم انسحب فى هدوء إلى حجرة الاستقبال .

وصحبته الخالة « هورتنس » إلى الباب وشكرته وهى تضع شيئاً فى يده . ورفض الرجل فى بادئ الأمر ولـكنه قبل أخيراً .

وبعد ساعة ، ودون أن تخـبر خالتها ، أسرعت « نينى » إلى عيادة الدكتور « فينو » الذى كان قد انتهى فى ذلك الوقت من الصباح من فحص مرضاه . وحين رآها الرجل رفع يديه بحركة غير إرادية وكأنه يدافع عن نفسه ضد هجوم مباغت، ثم اقترب منها وقال لها فى صوت رقيق :

— لابد أنك قدحضرت من أجل جدتك!... وتردد فى توجيه سؤاله المألوف: « كيف حالها الآن ؟ » وإن كان قد اعتاد كل المفاجآت التى يصدم بها الموت أمهر الأطباء ، فقد خشى أن تخبره الفتاة بأن المرأة العجوز ، تلك الحلامية المسكينة التى رآها ، قد قضت نحبها .

وأجابت « نينى » دون أن تنتظر منه سؤالا : نعم لقد جئت من أجلها . أفى إمكانك أن تحضر فى الحال ياسيدى الطبيب ؟ ... إن حالة جدتى تزداد سوءاً .

— ماذا أصابها منذ شخصت حالتها ؟ هل انفعلت انفعالاً شديداً ؟ صبراً ، سأفحصها فى الحال .

واختفى الدكتور « فينو » لمدة خمس دقائق فى دورة المياه ، ثم عاد وهو يقول : هيا بنا يا آنسة .

واستقلا سيارته الطويلة التى انطلقت بكل سرعتها ...

وسألها الدكتور « فينو » وهو يقود سيارته : ماذا حدث لجدتك ؟

— منذ انقطعت عن المجيء إلى بيتنا ياسيدى الطبيب عمدت خالتى إلى استدعاء السحرة لنعرض عليهم حالة جدتى ، وقد جاءوا وأخذوا يمرون أمامها بملابسهم القذرة وسحنهم المتوحشة . وقد ثرت ضد هذا العمل ، ولكن ليست لى الكلمة العليا فى هذا البيت ...

وسأل الدكتور « فينو » منزعجاً : سحرة؟ أرجو على الأقل ألا يكونوا قد أعطوها أى دواء عن طريق الفم ؟ إنى أعرف وصفاتهم، وأنا أعترف أن بعضها ممتاز إذا ما أعطيت بمقدار معقول ، ولكن أغلب تلك الوصفات إنما هى سموم حقيقية .

وأجابت « نينى » : لا ياسيدى ، لقد منعتهم من إعطاء جدتى أى دواء من تلك الأدوية التى يخرجونها من ملابسهم القذرة .

— لقد أحسنت صنعاً . آه ! هانحن قد وصلنا على ما أعتقد .

— لا ياسيدى الطبيب ، مازالت أمامنا مسافة قصيرة ، إن بيتنا يقع فى التقاطع المقبل عن اليسار ناحية النهر .

وضرب الدكتور « فينو » جبهته بيده وقال :

— هذا صحيح . سوف أبقى ما حييت رجلا شارداً .

وصلا أخيراً إلى بيت أسرة «ميرل» الصغير الذى خيم عليه الحزن. ولما سمعت الخالة «هورتنس» صوت محرك السيارة أمام الباب ألقت نظرة على الشارع فشعرت بالضيق إذ رأت « نينى » فى صحبة الدكتور « فينو » .

وقد اضطرت المرأة إلى استقبال الطبيب بأدب ، وكانت تصرفاتها حياله تنم عن المجاملة والاعتراف بجميله .

— لقد جاءتنى الآنسة لتخبرنى بأن حالة السيدة لم تتحسن . ولما كانت قد مرت أيام طويلة دون أن تصلنى أخبار عن حالتها فقد تصورت أنها تحسنت . هل يمكننى أن أفحصها فى الحال ؟

وردت الخالة «هورتنس» من فورها قائلة : «بالتأكيد ياسيدى» ، وإن خشيت فى دخيلة نفسها أن تؤدى هذه الزيارة إلى انفجار « إيلين » العجوز فى ثورة عدائية كتلك التى حدثت منذ بضعة أيام .

ولحسن الحظ دخل الدكتور « فينو » ووقف أمام المريضة فلم تفعل شيئاً عندما قالت لها الخالة « هورتنس » : إن الدكتور « فينو » قد حضر . ففتحت عينيها قليلا ، وألقت إليه بنظرة فيها عدم مبالاة يمكن أن نعزوها إلى حالتها المرضية وإلى ضعفها المتناهى .

ولما بدأ الطبيب يتحسس أعضاءها ويمر بيده على جسمها ، قالت فى صوت ضعيف رقيق :

— لست أريد حقنة اليوم ...

وأجابها الدكتور « فينو » برفق : لن أحقنك اليوم ، اطمئنى . وبعد أن فحصها الطبيب فحصاً دقيقاً استأذن فى الرحيل وهو يقول مازحاً :

— أريد أن أراك واقفة على قدميك فى الأسبوع القادم ، هذا أمر من الطبيب . لقد تقدمت بى السن أنا بدورى ولكنى أكافح من أجل الاستمرار فى الحياة . يمكنك أن تعيشى ، ويجب أن تعيشى ، وسوف تعيشين ، صدقينى .

وفى حجرة الاستقبال أدلى إلى الخالة « هورتنس » بإرشادات جديدة ، دون أن يشير بكلمة إلى مسألة السحرة التى كلمته عنها « نينى » .

ولكن ما إن سمعت الخالة « هورتنس » صوت السيارة وهى تبتعد حتى استدارت إلى « نينى » ، وقالت لها وهى تضع يديها فى خصرها ، وقد احمر وجهها الذى ارتسم عليه الغضب والشر .

— من طلب منك إحضاره ؟ أجيبينى عن سؤالى ، من طلب منك هذا ؟

— لقد ذهبت لإحضاره لأن هناك من يريدون قتل جدتى بالالتجاء إلى السحرة ، وليس كل مايقومون به إلا شيئاً مضحكاً .

— هناك من يريد قتل جدتك ! من هم « هـؤلاء » ؟ هل تقدرين مدى خطورة كلماتك يا« فرجيني » ؟ إنى أتساءل : منذ متى أصبحت تحبين جدتك إلى هذا الحد ؟

— لقد أحببتها دائماً .

— إنك تـكذبين بتبجح ... وأرجو على كل حال ألا تدفعينى إلى قول أشياء خطيرة . وفى رأيى أن كل مافعلناه إنما كان بقصد إنقاذ جدتك التى هى « خالتى » قبل أى شىء آخر : سواء ماقمت به أنت بالتجائك إلى أطبائك البيض أو مافعلته أنا بالتجائى إلى السحرة وإياك أن تغضبينى يا« فرجينى » .

وتحاشت « نينى » ذلك الحديث الذى أصبح مشبعاً بالمرارة،وذهبت إلى غرفتها . ورفضت فى المساء الظهور فى حجرة الطعام ، واضطرت الخالة « هورتنس » إلى أن تتناول عشاءها بمفردها ، وقد قام بخدمتها « باكارى » المخلص .

* * *

وبعد ثلاثة أيام لفظت « إيلين مـيرل » العجوز أنفاسها الأخيرة فى هدوء عن اثنين وسبعين سنة .

وقد سببت تلك النهاية — التى لا يمـكن أن نقول عنها إنها مبـكرة — لنينى أزمة نفسية هستيرية مصحوبة بالصياح والزعطة ، ولفت ذلك أنظار الجارات من المخلطات والسود اللاتى جئن فى الحال تعزون بيت الميتة . ودخلت بعضهن من باب المطبخ بحجة أنهن جئن لنجدة الأسرة المنـكوبة ، بينما بقيت الأخريات عند عتبة الباب ، ولم تجرؤن على اقتحام البيت .

وانتشر خبر وفاة الجدة « إيلين » بسرعة فى أرجاء مدينة « سان لوى » وكأنه انفجار . وبالرغم من أن الساعة كانت مبـكرة فقد توجهت وفود من الأقرباء الذين تربطهم بالأسرة قرابة بعيدة إلى حد ما ، وجموع من المعارف، إلى بيت أسرة«ميرل». كانوا جميعاً يسيرون فى صمت وكانت السيدات يتشحن غلالة سوداء .

إن باب البيت ، الذى كان مغلقاً طوال ساعات النهار،قدفتح اليوم على مصراعيه . وكانت صفوف الناس لاتـكف عن الدخول والخروج فى سكون لايشوبه إلا زحف

النعال على الأرض . وفى البيوت المجاورة وقفت نساء وفتيات سوداوات لم يطردن بعد النوم عن جفونهن يتفرجن وهن يضعن أيديهن فى خصورهن ، وكأن مايرينه مشهد نادر يثير فضولهن . إن ذلك التطفل الذى ينم عن فساد الذوق كان سيثير ولا شك ثائرة « نينى » لو أنها لم تكن حبيسة غرفتها ، إذ كانت ترفض مقابلة أى شخص فى ذلك اليوم العصيب .

وحدد ميعاد الدفن : سيكون فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى ، وهم يعدون له عدته ...

ومن حين إلى حين كانت تصل بعض النساء من السود اللائى تربطهن بأسرة « ميرل » صلة قرابة يشك فى أمرها ، وهن يصرخن ويولولن . إن الواجب فى تلك المناسبات يقتضى إظهار مدى مافى القلوب من حزن ، سواء كان ذلك الحزن حقيقياً أو زائفاً ، وذلك بالإفراط فى الصراخ والبكاء للتدليل على الأسى لفقدان شخص عزيز ، ولمشاركة الأسرة فى أحزانها. ولا يمكنك أن تصادف فى الأوساط الإفريقية — فى أى مكان — مأتماً بدون صراخ وولولة وبدون صيحات مسعورة ومشاهد أليمة لأناس يغشى عليهم ويسقطون فى حركات هستيرية ، ولا حتى فى دنيا الخلاسيين بمدينة « سان لوى » ...

وفى صباح اليوم التالى سمع صوت النواقيس الصاخب ، وهو صوت متقطع أخذ يدوى فى أرجاء مدينة « سان لوى » . لقد تمت مراسم الجناز التى أحيطت بأفضل مظهر إذ صلى على روح الفقيدة بتلك الكنيسة العتيقة التى شيدت على طراز يرجع الى عهد الإمبراطورية الثانية ، والتى سبق أن احتفل فيها بـ «مناولة» الجدة « إيلين» فى طفولتها ، والتى كانت تتردد عليها هذه الأخيرة فى صباها للمشاركة فى مراسم القداس .

وفى أثناء القداس كان تفكير الخالة « هورتنس » فى ذلك المكان الذى يقع عن يسارها — والذى سيبقى خالياً ماعاشت — يلح عليها ويعذبها ، اللهم إلا إذا شغلته « نينى » يوماً ما بعد أن تتقدم بها السن بدورها . ولكن لو أن ذلك حدث، فأين ستكون هى حينئذ ؟ إن هذه الفكرة الثانية التى تمخضت عنها فكرتها الأولى جعلتها تجهش بالبكاء ، بل جعلت عبراتها تزداد انهماراً . إن الحياة لاتساوى شيئاً،

لا شىء على الإطلاق . ذلك هو مصيرنا جميعا ، ولن يعارض أى حى مشيئة الله ، ولو كان أكثر الناس علماً ودراية بأسرار السماء : كل من عليها فان ...

وعند الخروج من الكنيسة سارت « نينى » بجانب خالتها فى مقدمة الجنازة يتبعها قرابة ستة من أبناء الأعمام والخيلان ومن أقربائها الأبعدين . إن المسافة بين الكنيسة ومدافن « سور » طويلة يستغرق قطعها وقتاً طويلا ، وكان السير فى الجنازة فظيعاً قاتلا . إن أشق ما ينوء به كاهل الإنسان إنما هو مشهد الموت الممثل فى نعش ساكن ، وسيره وراء جثمان . إنه حج تعس إلى مكان ترقد فيه كائنات كانت فيما سبق تفكر مثلنا ، وتشتهى مثلنا ، ويعلوها الطموح ، ثم لم تعد الآن إلا حبيسة بروز بيضاء من التراب كورت ووضعت فى صفوف بعيـــداً عن المجتمعات البشرية وكأنها صناديق تحوى فى جوفها اللعنة .

وبعد تلاوة آخر المزامير[1] وبعد أن ألقيت على النعش آخر قطرة من الماء المقدس ، أدخل نعش « إيلين » العجوز الأسود فى مقبرة منخفضة ، وأسرع البناءون — الذين كانوا ينتظرون وهم يمسكون بمسطارهم فى أيديهم — بإغلاق المدفن على الجثة إلى الأبد ...

ها هى روح أخرى قد تركت هذا العالم ، وهى روح محملة بالتجارب كانت فيما سبق تزخر بالأمل الكاذب . ها هو كتاب آخر يحترق بما كان يحوى من أسرار وهو كتاب كان كفيلا بأن يكون موسوعة ضخمـــة تضم الكثير عن تاريخ « خلاسيات » الزمن الغابر اللائى كن يعشن فيه كربات القصور الحقيقيات يحيط بهن الخدم والعبيد . لقد ولى ذلك الزمن الذى كانت فيه هذه الخلاسيات من أهل البلد ، بملابسهن المزينة بالشرائط ، يدرن رءوس الرجال البيض القلائل ممن كانوا يأتون إلى السنغال تحت اسم المستعمرين ، ويفقدنهم صوابهم ، ذلك الزمن الذى كان السود يعرفون فيه حدودهم ويحترمونها دون احتجاج .

إن أحداً لا يلمس مدى ما سببه من فراغ رحيل الجـدة « إيلين » مثلما تلمسه « نينى » والخالة « هورتنس » . كانت روح ذلك البيت ، وكانت فى مثل عمر تلك

---

(١) والمقصود بها مزامير « داود » .

الجدران الرمادية وذلك السلم المتداعي وقطع أثاثه التي عفا عليها الزمن . ولكن هناك ما هو أهم ، فالجدة « إيلين » كانت العقل المدبر الواعي كما كانت الفكر المصيب في ذلك البيت . كان في استطاعة « نيني » في ظل جدتها أن تنام قريرة العين وكأنها تتفيأ ظل روح مباركة . أما الآن فلم يتبق إلا الخالة « هورتنس » التي ليس لها ما كان لجدتها من تجارب ولا من شخصية قوية .

جاءت جموع من النساء السود — مثلما حدث في يوم الدفن — ليقمن بواجب العزاء ، وكن متشحات ملابس الحداد من أعلى رءوسهن إلى أخمص أقدامهن ، فقد كن يلففن رءوسهن بملافع سوداء لها لمعة وبريق ، كما كن يرتدين أثواباً في لون الأبنوس تفوح منها رائحة العفن الشبيهة بتلك التي تنتشر من قاع الحقائب ، ويتحلين بأحجار الكهرمان الأسود . إن أغلبهن يدعين ارتباطهن بصلة قرابة قديمة بالفقيدة ، وهن يتفانين في مساعدة الخالة « هورتنس » التي تجد — على العكس من « نيني » — عزاء كبيراً في صحبتهن .

كانت « نيني » تتجنب الاستقبال إذ كانت تعتبر وجود هاتيك النسوة شيئاً غير مرغوب فيه . وكانت تفضل الالتجاء إلى غرفة نومها للتهرب من عبارات المجاملة التي كن يؤكدن بها مشاعرهن المخلصة نحوها ، تلك العبارات التي كانت تعتبرها غير مناسبة .

ولكن عزلتها لم تحمها تماماً من صخبهن ، فقد كان يصلها — من بين ضلفتي الباب الذي يصل غرفتها بحجرة الاستقبال — ضجيج أصواتهن المبحوحة التي كانت تتخللها صرخات مفزعة . كانت النساء تتكلمن عن تاريخ أسرة « ميرل » ، وعن أيام مجدها وعن مسراتها كما كن يصفن ما أقامته الأسرة من حفلات في شتى المناسبات : مناسبات ميلاد أطفالها وحفلات الزواج والأعياد وكذلك عن مآتمها وكن يصحبن أقوالهن بالتنهدات العميقة ، وكانت تتخلل تلك الأحاديث لحظات سكون يشردن أثناءها باحثات فيها عن ذكريات أخرى . وسمعت « نيني » بوضوح بعض عباراتهن . وتساءلت : لم كل هذه الضوضاء ما دامت الجدة « إيلين » قد ذهبت بلا رجعة ؟ ولماذا تقبل خالتها « هورتنس » مثل تلك المشاهد البربرية التي تتيح لتلك النساء من السود فرصة يؤكدن فيها قرابتهن بأسرة « ميرل » ؟ كانت « نيني » حانقة على

خالتها « هورتنس » التى كان يبدو أنها تجد عزاء وسنداً لها فى ذلك المجتمع الزنجى بدلا من أن تعمل على صد هاتيك النسوة وعلى فصم كل علاقة تربطها بذلك المجتمع. إنها تشعر بألم دفين من ذلك التضامن الذى لا مفر منه والذى نجم عن امتزاج أسرتها ببعض الدم الأسود وعن تلك الصلات القديمة التى لا جدوى من ورائها والتى حلا لأفراد أسرتها أن يبقوا عليها وأن يوطدوا من أواصرها .

وعلى أية حال لقد تسبب موت الجدة « إيلين » فى مضاعفة ما تشعر به « نينى» من بغضاء تجاه ذلك المجتمع الزنجى الذى يتكاثر عدد أفراده ويتضاعف بسرعة . بل إنها لتتصور أن جدتها « إيلين » ربما لم تدركها المنية لو أنها كانت قد عاشت فى بلد آخر غير السنغال ، فى أوروبا مثلا ؟ ولذلك فإن كل صوت كان يصدر عن امرأة سوداء ويصل إلى أسماع « نينى» من بين أصوات المتحدثين فى قاعة الاستقبال ، كان يبدو لها وكأنه مشبع بالسخرية والشماتة ويعبر عن نية خبيثة .

وكانت ذكرى الساحر بدورها تشعرها بالضيق. لا شك فى أن هذا الساحر دجال حقير . وأخذت هذه الفكرة تعذبها ؛ ففى الحقيقة ألم يكن فى استطاعته — لو أنه كان قديراً — أن يتكهن بموت « إيلين » العجوز ؟ بل هناك ما هو أدهى : لم لم يتكهن برحيل « مارتينو » وبأحداث كثيرة أخرى وقعت فيما بعد عندما ذهبت جدتها لاستشارته ؟ إذن فهناك شك كبير فى كل ما قاله وأكده ، وفى فاعلية تلك المياه المقدسة التى أمر بأن تمزج بطعام « مارتينو » وأن يدهن بها وجه «نينى» وذراعاها . إن تفكيرها فى تلك الأحداث قد أكد شكوك « نينى » وسبب لها يأساً قاتلا . إنها تشعر بأن ماضيها قد انفصل عنها . هناك هوة عميقة تفصل بين ما كانت عليه حياتها فى رفقة « مادو » و « مارتينو » و « بيران » منذ أقل من سنة ، وبين تلك الأحداث التى دهمتها على غير انتظار . كانت تشعر بأن الحب قد خدعها وأنه لم تعد لها كرامة وأنها لم تعد تتطلع إلى شىء وأن زميلاتها يتسقطن أخبارها وأن الساحر الـ « ماندنج » قد كذب عليها ، وأنها لم تعد تشعر بأن تحت قدميها أرضاً ثابتة يمكنها أن تقف عليها لتقفز من جديد .

* * *

تسلمت « نينى» بعد بضعة أيام بطاقتين من بطاقات البريد إحداهما من «مارتينو»

والأخرى من « بيران » وكانتا تمثلان منظرين لميناء « مارسليا » وتحملان كلمات رقيقة وإن شابها الغموض ... ووعد « مارتينو » فى رسالته بأن يبعث برسالة أخرى عما قريب . وبالرغم من أن « نينى » كانت تتوقع مثل ذلك التصرف الرقيق، وهو شىء عادى مألوف على أية حال ، فإنها قد وجدت فى تلك اللفتة بعض العزاء . لعل كل شىء لم يفسد بعد من جراء تلك الأحداث الفاجئة . وشرعت تتمسك بأهداب الأمل من جديد . وعادت إليها ابتسامة الأمل والكفاح من أجل الحياة ، ذلك الكفاح الذى لا ينتهى ، كما عاد إليها الشعور بالثقة والانتصار تجاه زميلاتها .

كانت تهتف كلما صادفت إحداهن أو إحدى معارفها ممن كن يبدين اهتمامهن بعلاقتها بـ « مارتينو » قائلة : لقد وصلتنى منه أخبار .

وعلى أية حال لقد حدث بعد قليل أن أعاد إلى « نينى » أملها فى المستقبل ، فقد تسلمت ذات صباح استدعاء من إدارة موظفى الحكومة . وقفزت فى الحال نحو خالتها لتريها الطلب ولكى تشركها فى فرحتها بما تتوقعه من حظ سعيد ستناله بعد قليل . وأسرعت ترتدى ملابسها وإن فعلت هذا بعناية محاولة أن تضفى على زى الحداد أقصى ما يمكنها من أناقة يمكن أن تبرز محاسنها .

لا شك فى أن شخصاً ما سيستقبلها وسوف تتمكن من غزو قلبه . أليس على المرأة أن تبقى دائماً فى كل مكان جلادة لقلوب الرجال ؟ وعلى أية حال سوف يغفر لها « مارتينو » تلك الغزوات البريئة التى ستقدم عليها فى غيابه . ثم إنه لا يمكن التكهن بما سيكون عليه تفكير الرجل الأبيض — عندما يعود إلى بلده فى إجازة — فيما يختص بحياة المستعمرات وبالعشيقات اللائى تركهن هناك . إن لـ « نينى » على العموم تجارب مرة فى هذا الموضوع . لا بد لها من تمهيد الطريق أمامها ، ومن أن تستحوذ على عاشق جديد ، ومن الاعتماد على وعد جديد بالزواج خوفاً من ألا يعود « مارتينو » .

واستقبلها فى إدارة المستخدمين ، للأسف ، رجل مسن قصير القامة يبدو أنه كاتب . يا لخيبة الأمل ! لقد نهض الرجل من مقعده ببطء وبذلك الأدب الذى يتحلى به رجال الإدارة ، وحياها وطلب منها الجلوس ، ثم شرع يتفرس وينقب فى حزمة من الأوراق وهو يوجه إليها أسئلته :

— هل أتشرف بالحديث مع الآنسة « فرجينى ميرل » ؟

— نعم يا سيدى .

— هل كنت تعملين على الآلة الكاتبة بإدارة « المقاولات النهرية » تلك الشركة التى ألغى عقدها ؟

— بالضبط يا سيدى .

— حسناً ! لقد اهتديت إلى ما كنت أبحث عنه .

ثم أخذ يقلب الأوراق التى أمامه بيده المرتعشة ورفع بصره إلى « نينى » وشرع يقول فى لهجة خطابية :

— حسناً ! لقد رشحت ووصلتنا توصية بشأنك ، أوصتنا بك بحرارة شخصية تصر على ألا تفصح عن اسمها . وهكذا لن تتعدى بمعرفة اسم ذلك الرجل الذى يتمنى لك هذا الخير والذى يقدم الدليل على ذلك بتعيينك فى الإدارة ، فلن أخبرك به ولن تخبرك به إدارتى . ويكفيك أن تعرفى أننا مستعدون لأن نتعاقد معك بأفضل ما لدينا من شروط ، بنفس المرتب ونفس الامتيازات التى نمنحها الموظفين الذين يعملون على الآلة الكاتبة بالحكومة . ولدينا بيانات دقيقة عنك وشهادات تجعلنا نقـــدم بشجاعة على تعيينك ولا نتردد فى ذلك .

وأتى بحركة من رأسه كأنه يسأل بها رأى الخلاسية فى كل هذا ، وأجابت الفتاة :

— ولكنى ياسيدى كان يسعدنى أن أعرف أولا ذلك الشخص ...

— لاقيمة لهذا ياآنسة كما قلت من قبل . وهذا غير ممكن على أية حال . وبدلا من ذلك أعطينى موافقتك إذا كنت تتمسكين بهذه الوظيفة التى نعرضها عليك .

— إنى متمسكة بها دون أدنى شك ، فها أنا بلا عمل منذ قرابة ثلاثة أشهر ، ولسنا من الأغنياء ، ثم إننى فوق ذلك قد فقدت جدتى ...

— حسناً ، اتفقنا إذن . وأخرج الرجل عندئذ من أحد أدراج مكتبه عقداً من الفئة « أ » وشرع يقرأ نصوصه بتفخيم ساذج . ورأت « نينى » أن الشروط التى ينصون عليها فى ذلك العقد إنما هى نفس الشروط التى يعين بها الموظفون الأوربيون ، وملأتها هذه الحقيقة فخراً .

ولما كان التاريخ اليوم العاشر من الشهر فقد طلب رئيس المستخدمين من «نينى» أن تتسلم عملها فى اليوم الخامس عشر .

وأخذ لسان الخلاسية يلهج بالشكر . وأفصح اللون الوردى الذى اكتسبه وجهها عن الامتنان العميق الذى يعتمل بقلبها وداخل أحشائها .

وأردف الرجل : «يجب ياآنسة ألا تشكرينى أنا وإنما ذلك المجهول الذى أراد أن يخدمك .. وإن كنت لا تعرفينه . هيا ياآنسة تشجعى وتقبلى تهانئى . سوف أقابلك كثيراً أثناء تأديتك وظيفتك»

ونهض الرجل ومد يده إلى « نينى » التى ضغطت عليها ، واستأذنت فى الخروج بينما كانت ابتسامة عريضة ترتسم على شفتيها الغليظتين الحمراوين .

وعادت « نينى » مسرعة إلى منزلها حيث كانت الخالة «هورتنس» تنتظرها بقلق. وقد تجنبت أية ثرثرة فى الطريق .

ليس من الحكمة والحذر أن نقص على الناس ما يصادفنا من حظ ، فضلا عن عين الحسد وتقولات الأشرار التى يمكنها أن تفسد ما نشعر به من سعادة ؛ هناك أيضاً مؤامرات الحاقدين والحاسدين التى قدتقضى على أنجح المشاريع . إن «الجريدةالرسمية» ستشير إلى ذلك العقد ، وستثبت بشكل نهائى تلك الوظيفة التى حصلت عليها « نينى » ، وعندئذ يمكن أن تنفث الأعين والألسن الشريرة كل سمومها ، وأن يعض الحاقدون والحاسدون أصابع الندم .

ولما علمت الخالة « هورتنس » بما صادف ابنة أختها من حظ ، أخذت تتفلسف كما تفعل أية سيدة سوداء وتقول :

— كنت أعرف أن الله لن يتركنا أبداً . إن مشاعرنا النقية ونياتنا الحسنة تجاه كل من يحيطون بنا ، وشدة إيماننا بالله... كل هذه الأشياء لابد أن تكون ، ياصغيرتى العزيزة ، بمثابة زاد لنا . وإذا ماأراد بك أحد الناس شراً فحاولى أن تعامليه بالحسنى ولا تشعرى تجاهه إلا بأفضل المشاعر .

لم ترد من قبل على لسان الخالة « هورتنس » عبارات أكثر نبلا من تلك التى

نطقت بها الآن . وتتميز الخالة على « نينى » بأن بها بقية من حكمة الزنوج ودعوتهم إلى حب الغير .

وقالت « نينى » : إن ما يحيرنى حقاً إنما هو ذلك اللغز الذى تحيط به نفسها تلك الشخصية التى طلبت تعيينى بالإدارة .

وقالت الخالة «هورتنس» معلقة : ربما كان مديرك السابق أوصديقاً لـ«مارتينو» إن كل شىء جائز .

وأردفت « نينى » مصححة ذلك القول : لقد ذكروا أنها شخصية ، وهو لفظ لا ينطبق على هؤلاء .

— ربما كان رجلا من رجال السياسة ؟

وقالت « نينى » مذعورة : من السود إذن ؟

— قلت لك إن كل شىء جائز .

— ولكنى لا أعرف أحداً من السود ، لا من رجال السياسة ولا من غير رجال السياسة .

— ومع ذلك ...

لم تكمل الخالة « هورتنس » عبارتها . ما الذى كانت تنوى قوله ؟ إنها تفضل أن تحتفظ لنفسها بما كانت تفكر فيه حتى لا تجرح كبرياء ابنة أختها ، ولكى لا تثير عراكاً يسمم جو الثقة الذى يسود البيت الصغير فى ذلك اليوم .

ولما نشرت « الجريدة الرسمية » بتاريخ ١٤ من أكتوبر نص العقد الذى أبرمته الحكومة المحلية مع « نينى » سادت مدينة « سان لوى » موجة من الانفعال غير عادية أخذت تغزو أوساط الخلاسيين وتخرجها من حالة الخمول التى كانت تخيم عليها .

إن الحكومة فى الحقيقة تبرم ثلاثة أنواع من العقود تسمى بالعقد « أ » والعقد « ب » والعقد « ج » . والصيغة الأولى مخصصة عادة للموظفين الأوربيين الذين يقيمون بالبلد : قدامى العسكريين أو تجار قدامى تقاعدوا ، آنسات أو سيدات ممن يعمل أزواجهن أو آباؤهن موظفين أو تجاراً أو مقاولين أو عسكريين . أما فئة

الخلاسيين فإن الحكومة عادة تخصص لهم العقود من الفئة « ب » وشروطها أقل من جميع النواحي من تلك النصوص عليها فى العقود من الفئة « أ » .

أما السود الذين يضطرون إلى الحصول على عقد العمل وإلى كسب عيشهم فهم لا يتطلعون عادة إلا إلى الحصول على عقد من الفئة «ج» التى تدخل فى نطاق ما يسمى بـ « الكادر المحلى » ، اللهم إلا إذا كان طلب الوظيفة ممن ولدوا بجزر الهند الغربية أو بإحدى المناطق الخاضعة لمجموعة المستعمرات التى يمتزج فيها عنصر السود بالعنصر الأوربى . لا داعى للعجب إذن إذا كان تعيين « نينى » بعقد من الفئة « أ » المخصص للموظفين المثبتين بالحكومة قد أثار ثائرة بنات جنسها : لقد حاولن دون جدوى الاهتداء إلى أسباب ذلك التعيين الذى لا يبرره شىء : لا ثقافة «نينى» ولا معلوماتها الفنية ولا أقدميتها بأجهزة الإدارة . وأخذ بعض سيدات مسنات من المخلطات عين منذ قرابة عشرين سنة فى مختلف الإدارات يتنهدن من الأسى ، وكن يعلقن على ذلك بقولهن :

— ما باليد حيلة ! إن الكفاءة ومايؤديه المرء من خدمات لم يعد لهما أية قيمة . إن الذى يجدى هو الشباب والجمال وفن اجتذاب الرجل .

أما الفتيات من نفس وسط « نينى » الاجتماعى فلم يجدن مايواسين به أنفسهن . إن البعض منهن من أمثال « مادو » و «ريرى » و « نانا » و « نانيت » لهن عقود ترجع إلى قرابة خمس سنوات أوست للعمل بالإدارة ومازلن حتى الآن — بالرغم من كفايتهن ومن محاسنهن — يعملن حيث بدأن بالفئة « ب » .

وكما حدث عندما تجرأ الرجل الزنجى وأفصح عن حبه ، أخذن يتجمعن هنا وهناك ليهاجمن بدون تحرج ذلك الظلم الذى وقع عليهن .

— إن هذا أمر غير مقبول ! أتعين مثل تلك الفتاة بالفئة « ا » وهى التى لم تضع قدمها من قبل بإدارة الحكومة والتى لا يمكنها أن تقدم أى ضمان يبرر تعيينها ولا حق فى الفئة « ب » ؟ لا ، إن هذا لا يمكن قبوله والسكوت عليه .

هل يهاجمن إدارة الحكومة ؟ هل يرفعن الأمر إلى « إدارة قضايا الحكومة » ؟

هل يقدمن استقالتهن ؟ لقد أخذن يناقشن تلك الإجراءات الواحد تلو الآخر ، ولكن يصعب فى مثل تلك الأمور الحصول على إجماع الآراء . إن غالبية تلك الفتيات بطبيعتهن مسالمات غير شريرات كأبناء أعمامهن السود، ولذا فقد اكتفين بالمجاهرة بما يشعرن به من غبن ، وبرفع الأيدى والصخب وإن لم يجد كل ذلك شيئاً .

وتسلمت «نينى» عملها فى صباح اليوم الخامس عشر كما هو منصوص فى العقد . لقد وصل حنق زميلاتها إلى أقصى مداه عندما علمن أن «نينى» قد ألحقت بمكتب السكرتير الخاص بالحكومة بدلا من أن تعمل بالقاعة الكبرى كالأخريات . وشرعن جميعاً فى البحث عن سر هذا اللغز الذى رجحن أنه يعود إلى أسباب عاطفية ، وهو الجانب الوحيد الكفيل بتبرير ذلك التفضيل الفاضح الذى نالته تلك الموظفة السابقة على الآلة الكاتبة بشركة (المقاولات النهرية). كان ذلك يوضح الأمر ويفسره ، فالآنسة جذابة كما أنها لا تتمسك كثيراً بأهداب الفضيلة . وعلى كل حال أليست محقة فى ذلك؟

وقالت «ميميه» دون أن تذكر تفاصيل : إن البعض لا تصلن إلى أعلى السلم ولكنهن يصلن بمفردهن ، وكانت ممن واصلن دراستهن وممن قرأن «سيرانو دى برجراك» .

وانتظرت «مادو» صديقتها «نينى» فى ساعة الخروج من المكاتب ، وقالت لها : اسمحى لى بأن ألومك ياصديقتى العزيزة ، أتخفين عنى أنك حصلت على هذه الوظيفة الجديدة فى حين أننا كنا أول أمس معاً وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث مدة طويلة ؟

— لم أخف عنك الحقيقة كما تحاولين التهويل ياصديقتى العزيزة . لقد فكرت ولاشك فى أن أخبرك بأننى أنتظر تعيينى فى إحدى الوظائف . بل إنى أعتقد أننى أخبرتك بالأمر ، نعم ، لقد حدث هذا بالضبط يوم جئت مع «نينى» و «ليا» لتهونن على بعد رحيل «جان» . إنى أذكر ذلك الحديث تماماً الآن . ولم أكلمك فى الأمر بعد ذلك بالطبع لأنه لم يكن لدى أية بيانات محددة ثم إنه فى مثل هذه الظروف التى نجتازها ...

— كفاك يا صديقتى العزيزة ، لا تحاولى الكلام عن الظروف التى نجتازها ...

إنى أعتقد أن ليس هناك ما يمكن أن تخفيه «فيرجينى دى ميرل» عن «مادلين

دى ميكيه ، ولاحق فى الظروف التى تجتازها . وهنا قالت « نينى » التى فضلت التراجع : إنى أطلب صفحك ياصديقى العزيزة .

— حسناً ، بعد أن عاتبتك وقسوت عليك، اسمحى لى الآن بأن أهنئك ياعزيزتى.

— أرجو ألا تذكرى هذا الأمر فى الشارع ياصديقتى العزيزة ، أرجوك . لقد وصلنى كثير من التعليقات التى قصدبها الإساءة إلى ، وتقولات كثيرة عن أمر لايخص أحداً سواى ، وأنا أفضل أن تكلمينى فى هذا عندما نصل إلى البيت .

— كما تريدين ، ولكن لابد أن أهنئك .

إن حرارة شهر أكتوبر تجعل ساعات مابعد الظهر ثقيلة غير محتملة . وفى السادسة مساء تثقل على النفس تلك الموجات من الحرارة التى تكون قد اشتدت طوال النهار ، والتى لم تكتسحها بعد النسمة التى تهب من البحر فى المساء : ومع ذلك فإنك ترى فى تلك الساعة الشوارع وقد ازدحمت بجماعات من الناس تسعى وراء النزهة والمتعة كما تراهم فى شرفات المقاهى حيث يحاول الرجال نسيان همومهم أو التغلب على مايشعرون به من ملل .

وقالت « مادو » : إنك محقة يا « نينى » فى الكلام عن تلك التعليقات التى يقصد منها الإساءة إليك ، وعن تقولات الناس . إن الدنيا مليئة بالحقد ونفوس الناس مليئة بالشر . هل تعرفين بهذه المناسبة أنه بناء على اقتراح تقدمت به سيدة أنت تعرفينها جيداً — السيدة « ب » — تريد كل هاتيك السيدات المسنات اللائى يعملن بالحكومة تقديم شكوى .

— شكوى ضد من ؟

— أعنى أنهن يردن الاحتجاج ... إنهن يرين أن من الظلم أن تعينى — أنت الشابة التى ليست لها أية أقدمية بأعمال الإدارة — بعقد من الفئة « ا » الخاصة بالموظفين المثبتين فى الوقت الذى مازلن هن فيه — بالرغم من سنهن ومن أقدميتهن — منسيات بالفئة « ب » .

— إن هذا الأمر من شأنهن إذا كان فى مقدورهن إلغاء قرار حكومى وفسخ عقد من عقود العمل . فليحاولن إذا أردن . وعلى أية حال فليست المسنات وحدهن

هن اللائى يحتججن على عقد العمل الذى منحتنى إياه الحكومة ، فانا أعرف أن هناك شابات لم يسعدهن كثيراً تعيينى هذا .

— أوه ! إن كل شخص فى هذه الحياة ياصديقتى يحصل على ما هو مقدر له .

— هذه الحقيقة للأسف لاتهدئ دائماً من ثورة النفوس الحزينة .

وحاولت « نينى » ، التى كانت تشعر بذلك النصر الذى أحرزته ، أن تغير مجرى ذلك الحديث الذى يمكن أن يصبح مؤلماً ، وقالت :

— هيا ياصديقتى العزيزة ، لنترك الناس وشأنهم يتقولون ولنحتفل بهذا الحظ الذى هبط على من السماء

— آه ! أكان الأمر مفاجأة بالنسبة إليك أيضاً ؟ قصى على كيف حدث .

— ليست هناك ألغاز . كنت قد قدمت طلباً منذ بعض الوقت ، ولقد وعدونى خيراً ولكنى لم أكن آمل كثيراً فى الحصول على أى شىء . ثم كانت المفاجأة ، فقد حصلت على أكثر مما كنت أتوقع .

— إنك لم تكلمينى أبداً عن ذلك الطلب .

— ومع ذلك فقد كان من البديهى ياصديقتى العزيزة أن أحاول ، بعد أن فقدت وظيفتى بـ (المقاولات النهرية) ، البحث عن عمل آخر . إن كل ماحدث هو أننى نسيت أن أقول لك إنى قدمت طلباً . هذا كل مافى الأمر .

وفتحت « نينى » زجاجة « شمبانيا » وملأت منها ثلاث كئوس قدمت إحداها للخالة « هورتنس » وهى تقول :

— إننا نحتفل بهذه المناسبة فيما بيننا ياخالتى العزيزة .

— مما يؤسف له أن جدتك ليست معنا لتشاركك فرحتك .

— وا أسفاه ياخالتى العزيزة! إن السعادة لاتكمل أبداً ولو أن «جان» كان هنا لهنأنى بدوره فى هذه المناسبة .

كانت « مادو » تتمنى أن تعرف سر ذلك التعيين المفاجئ وحقيقته .. ولكن «نينى» ، وكانت لأول مرة فى حياتها تشعر بوجوب الحذر ، لم ترغب فى الإفصاح عن

سرها . وعلى أية حال ، أ كان فى إمكانها أن تخبر شخصاً آخر غير خالتها بأنها تدين بتلك الوظيفة لوساطة شخص مجهول ؟ كانت تتهرب من الأسئلة وتجيب عنها بطريقة غامضة . ولما تبينت « مادو » أن صديقتها تصر على الصمود والإنكار ، لم تجد فى النهاية بداً من أن تبتلع لعابها وأن تقاوم تعطشها للحصول على بيانات . ولكنها كانت عاجزة عن إغفال موضوع « نينى » هذا الذى كان يثيرها ويشعرها بالغيرة ، ولذا فقد لمحت إلى موضوع آخر يتعلق بمكتب السكرتير الخاص الذى ألحقت به « نينى » قائلة :

— كيف وجدته ؟

— أوه ! لم أقض معه إلا يوماً واحداً ويصعب على الحكم عليه . على أية حال فإنه يبدو لطيفاً ، هذا كل ما يمكننى قوله الآن ولكن ربما كان على شىء من التحفظ والانطواء .

— هل هناك عمل كثير ؟

— إلى حد ما .

— يبدو أنه متزوج وإن كان مع ذلك حديث السن . آه ! هل يعيش مع زوجته هنا بالمستعمرة ؟

وأردفت « مادو » : « نينى » ، ربما ثار « جان » إذا تصور أنك تعملين فى مكتب واحد مع رجل حديث السن وأنيق . .

— هل تتصورين أن من الممكن أن يهتم بى ذلك الرجل المتزوج الذى يعيش مع زوجته هنا بالمستعمرة ؟

— إن هذا السؤال سيمكنك أن تجيبى عنه بعد قليل .

وانفجرت « مادو » بالضحك وكانت ضحكتها غريبة وعلا وجه صديقتها بعض الاحمرار . .

إن حياة « نينى » العاطفية تقع فى مهب ثلاثة تيارات : الفترة الأخيرة من علاقتها بـ « مارتينو » ، تلك العلاقة التى أصبحت قوية وطيدة قبيل سفره ، وجهلها بشخصية

ذلك الشخص الذى يرجع إليه الفضل فيما أصابها أخيراً من نعمة والذى كان من حقها ومن الأفضل لها أن تعرف اسمه ، وصفته ، ثم — وهذا هو الأهم — هذه المأساة العاطفية التى سوف يؤدى إليها حتما اتصالها اليومى بالسكرتير الخاص . وإذا كان ذلك الرجل متزوجاً فإن هذا — فى رأى « بادو » — لا يمنع من أن يكون من أصعب الأمور على الفتاة ألا تبالى برئيسها الشاب أو أن توفق فى عدم إثارة اهتمامه .

إن « نينى » مازالت تنتظر الرسالة التى وعدها بها « مارتينو » فى البطاقة التى بعث بها إليها . أما أن تقول إن فكرها كان يحوم دائماً حول الرجل الذى كانت هى عشيقته ، والذى دامت علاقتها به أكثر مما دامت مع أى شخص آخر ، فإن ذلك يكون مغايراً للواقع . إنها لم تحبه أكثر مما أحبت سواه من الرجال ولكنه كان الوحيد الذى وعدها وعداً قاطعاً بالزواج . وعلى كل حال فكيفما كان تدفق رغباتها الحسية وخلقها الذى جبل على سرعة التحول وعدم الاستقرار ، فإن الشيء الذى تميزت به حياتها كلها إنما هو اهتمامها بالحصول على رجل تستأثر به كل الاستئثار ويمكنها أن تدعوه بـ « يازوجى » وأن تصبح زوجة له بحكم الشرع والقانون . ستحاول مؤقتاً أن تقنع قلبها باحتمال حدوث مثل ذلك الزواج ، ولكن دون أن تسمح لهذا الأمل بأن يملك عليها مشاعرها وبأن يفسد حياتها .

إن مشكلة ذلك المجهول الذى تدين له بمركزها الجديد ، قد بدأت تشغل بالها فى أوقات وحدتها وشرودها . أية مصلحة تلك التى دفعت هذا الرجل المجهول إلى إبداء كل ذلك الاهتمام بشأنها ؟ هل كان يتصور أنه بتصرفه هذا يمكنه أن يمهد الطريق أمام علاقة غرامية ؟ أم هو قد اهتم بها لمجرد شعور لديه بالشفقة عليها ؟ واستبعدت « نينى » بشدة هذا الافتراض الثانى ، فهى لا تقبل أن يشعر الناس نحوها بالشفقة ، ذلك لأنها شابة ذكية وجميلة ، وهى مقتنعة بذلك ، وقد اعتزمت أن تخوض معركة الحياة بمفردها وبكل ما أوتيت من وسائل ، حتى ولو أدى بها ذلك أحياناً إلى هزيمة صغيرة . إنها تود أن تقنع نفسها بأن تصرف ذلك الرجل المجهول لم تمله عليه ، على العكس ، إلا قوة وسحر ما وهبت لها الطبيعة ، وهى تتوقع على كل حال أن ذلك الفارس المقنع الذى أحسن إليها والذى ألقى إليها بحلقة الإنقاذ فى غياهب الليل ، سوف يكشف لها ذات يوم عن شخصيته ليقطف ثمار ما تدين له به

من عرفان بالجميل ... ولـكن ها هى فـكرة ملحة وغير متوقعـة ، فـكرة قاسية وسريعة تسطع أمام خيالها : ماذا تـكون الحال لو اتضح أنها تدين بذلك المركز لرجل أسود ، لو أن ذلك المحسن المختفى ليس سوى رجل من أهالى البلد ؟ وابتسمت « نينى » ابتسامة صفراء حاولت بها أن تؤكـد مدى سخف هذه الفـكرة التى راودتهـا . وهى لذلك تحاول إيجاد الأسباب التى تنفى أن ذلك المجهول رجلا من السود . وعادت من جديد إلى التفـكير فى فارسها الجميل المقنع ، فى تلك الشخصية التى تشبه شخصيات القصص والتى ربما كانت تهيم دون كلل أو ملل وراء كل خطوة تخطوها ، والتى تطيل فترة انتظارها لتزيد من فرص النجاح فى الحصول على قلب « نينى » .

أما السكرتير الخاص الذى لم يصبح رئيسها إلا منذ ثمانى وأربعين ساعة فقـد بدأت « نينى » تتفحصه وتدرسه وتزنه . إنها تحاصره بفـكرها فى صمت كجدران قلعة .

ولما كانت ذات تجارب عديدة فى فن الإغراء ، فقد حاولت فى بادىء الأمر أن تقارن بين ذلك الرجل والرجال الآخرين ممن كانوا عشاقها بالأمس : أيهم أكثر شبهاً به من حيث الشـكل أو المظهر أو الخلق ؟ لو أن « نينى » وفقت فى العثور على ذلك الشبه دون أن تخطىء ، لسهل عليها الأمر ولاكتفت حينئذ باللجوء إلى نفس وسيلة الإغراء التى نجحت عن طريقها فى إيقاع شبيهه فى حبائلها .

لاشك فى أن السكرتير الخاص يمتاز بنفس جدية رجل كـ « مارتينو » وتحفظه ولـكن الظروف وتضافرها الذى أتاح لـ « نينى » أن تشد هذا الأخير إليها فى آخر الأمر تختلف الآن كل الاختلاف ، فقد كان هناك فى الماضى « بيران » ، وعزوبة « مارتينو » وتلك الزمالة التى تزيل كل حرج فى المعاملة بين أشخاص يعملون فى مكتب واحد . وعلى كل حال فإن « نينى » تخفى الآن أسلحتها بدافع من الحرص ، وهى تـكتفى بأن تسكر رئيسها الجديد بمـا تضعه من عطور تهدهد الحواس ، وباستغلال بعض صفات تتمتع بهـا محاولة إبرازها أمامه . وإذا كانت فترة الحداد تمنعها من ارتداء الأثواب التى تستهوى العيون ، فهى تعتقد أن ليس من العدل أن تضحى بـكل شىء من أجل تقليد عائلى بال ، ولذا فقد جاءت إلى المـكتب فى اليوم التـالى بعـد أن أفرطت فى تجميل وجهها بالمساحيق بحيث صارت تفوح منها رائحة عطر الـ « أوبيجان » .

و الـ «مولينار »(١) التى كان المرء يشمها عن بعد ، ولم تسائل نفسها عما إذا كان من المحتمل أن يزعج ذلك الحمام من العطور مزاج رئيسها .

إن السكرتير الخاص مشغول عادة بالإعداد لمقابلات كبار الشخصيات مع الحاكم وبكتابة التقارير وبالصعود والنزول . وقد قال لـ « نيني » فى أول يوم — ضمن نصائح أخرى متعلقة بالعمل أسداها إليها بلهجة لاصرامة فيها أو تبسط :

— لابد أن أقول لك إننا فى ممارسة أعمالنا الدقيقة هذه نحتاج إلى كثير من التحفظ والحرص .

وقد أجابته بقولها : أوه ياسيدى السكرتير الخاص ، يمكنك أن تعتمد على فى ذلك كل الاعتماد فأنا أعرف كيف أضبط لسانى .

ولكن أول شىء أزعج « نيني » هو ذلك الاتصال المباشر بهيئة الوظفين من السود الذين يعملون بالحكومة ، وكانوا عديدين، وهم يروحون ويغدون ، وكذلك اتصالها بالوطنيين الذين يقضون وقتهم كله فى طلب مقابلة الحاكم

وقد أمسكت مع ذلك عن إظهار شعورها هذا العدائى امام السكرتير الخاص . ألم تره من قبل وهو يستقبل — بأدب جم تعجبت له كل التعجب — رجالا من سكان الأحراش يرتدون ثياباً مهلهلة ؟ نعم لقد رأته ينهض ويتقدم منهم ويستقبلهم كما يستقبل الرجال المتحضرون ، ويدعوهم للجلوس ويسرع باستدعاء المترجم ، ويدون بكل دقة مطالبهم . إن « نيني » قد أدركت منذ تلك اللحظة أنها تتعامل مع رجل من الناصرين للزنوج : هاهو رجل آخر يخدع بسذاجة الزنوج الحمقاء وبما يبدو عليهم من طيبة ؟ هاهو رجل آخر يسهم فى إعطائهم فكرة عن أنفسهم مبالغ فيها ، ومفهوماً خاطئاً لما لهم من حقوق وامتيازات .

إن « نيني » تنتهز فرصة تغيب السكرتير الخاص لتتنفس قليلا عما تشعر به من مرارة بإساءة معاملة السود وبإلزامهم حدودهم. إن هؤلاء الناس قد طبع أغلبهم على الخجل، وهم مجردون من كل لباقة ، وقد وجدت فيهم الخلاسية « نيني » خير ضحايا يمكن

---

(١) هما عطران من أغلى العطور الفرنسية وأشهرها .

أن تصب عليها جام غضبها لتشبع رغبة الانتقام التى تعتمل فى قلبها. وبعد مرور يومين على تعيينها ، جاء رجل أسود طويل القامة ، جميل المحيا ، حسن الهندام — أعاد إلى ذهنها صورة « ندياى ماتار » البغيضة على نفسها — وقدم نفسه طالباً السكرتير الخاص الذى كان متغيباً . وتعمدت « نينى » أن تتركه يطرق الباب مدة طويلة ، ثم رفعت رأسها فجأة وقالت له :

— عجبا ! الأفضل أن تدخل بدلا من أن تستمر هناك فى طرق الباب . إن أمامى عملا كثيراً ، وليست لدى أية رغبة فى سماع موسيقاك هذه .

ولكن الرجل ، بدلا من أن ينهزم أمامها ومن أن يعتذر لها بتواضع ، تحفز للهجوم ، رأجابها بلهجة متعالية :

— أصغى إلى ياسيدتى ، لم يسبق لنا أن حرسنا الأبقار معاً .

وقالت « نينى » ساخرة : « لم يكن لى أبداً أقارب من الرعاة ياصديقى المسكين » واضطر الرجل إلى أن يكظم غيظه .

ولما نزل السكرتير الخاص وقابل ضيفه بابتسامته اللطيفة ماداً إليه يده مرحباً ، أبى الرجل أن يشكو من ذلك الحادث التافه وآثر السكوت إذ اعتبر أن كلاماً فى موضوع كهذا يعتبر من الصغائر .

واقتنعت « نينى » بأنها الوحيدة القادرة على الصمود أمام هؤلاء السود وعلى إشعارهم بحقيقة وضعهم .

وكان يحلو لها أحياناً ، فى زياراتها لأصدقائها ، أن تقول : إن مركزى يسمح بأن أتغلب عليهم وأن أوقفهم عند حدهم .

ها هى خمسة عشر يوماً ، بل يزيد ، قد انقضت على عملها معاً ، لم يتبادلا أثناءها إلا العبارات التى يقتضيها العمل ، وكانا خلالها ينفصلان فى الظهر وفى المساء ، ويلتقيان بالمكتب فى مواعيد العمل ، ولم يقم فى تلك الفترة بين « نينى » ورئيسها الشاب إلا ذلك النوع من الصلة الذى تفرضه طبيعة الأعمال الإدارية . كان الرجل جم النشاط ، مفرط الإخلاص لعمله كسكرتير خاص ، ولم يكن لديه ما يدفعه إلى

أن يرى الأمور فى صورة أخرى . وكثيراً ما تزعجه « نبى » وتشغله عن عمله بتفاهات ، كأن تسأله إيضاحاً إضافياً عن ناحية خاصة بالعمل ، مدفوعة إلى ذلك برغبتها فى التقرب منه وفى التأثير عليه بما يشع من جسدها من حرارة مسكرة . إلا أن الرجل لم ير فى لهفتها هذه إلا مجرد رغبة مخلصة من الخلاسية فى القيام بعملها على خير وجه فى أدائه دون التعرض لأية هفوة . وكان فى كل مرة يجيبها عما تسأله عنه وإن عاتب نفسه على أنه لم يكن واضحاً دقيقاً فى المرات السابقة .

إن السكرتير الخاص هو إحدى الدعامات التى يقوم عليها روتين المكاتب الإدارية . وهذا الصنف من الرجال يبدو كأنه لا يفكر بعقله ولا يعبر بأسارير وجهه . واللوائح بالنسبة إليهم هى الدستور الذى يؤمنون به أو هى بمثابة خطة جامدة يخضعون لها أبسط ما يأتون من حركات فيما يبذلون من نشاط يتعلق بأناس لديهم عواطف ومثل أعلى . وهى نوع من القدر يسيطر عليهم ويتخلصون منه كالآلات الصماء . وهؤلاء الرجال على استعداد لأن يضحوا بآبائهم وأمهاتهم ، من أجل هذه الضرورة التى هى نزوة كذلك تستأثر باهتمامهم بالجمال والحب .

كانت « نبى » ورئيسها يضطران فى بعض الأمسيات إلى البقاء حتى ساعة متأخرة بعد مواعيد الانصراف بسبب اقتراب الانتخابات التى تضاعف من اتصالات الحاكم بالشخصيات المرموقة بالبلد ، ومقابلاته التى تقتضى أن يقدم السكرتير الخاص تقارير عديدة مفصلة عن ألوان النشاط الخفية التى تقوم بها الحكومة .

إن هيئة الموظفين من البيض والسود قد رحلت وتركت مكاتبها بعد أن لعن كل واحد منهم — سراً أو جهراً — تلك الأماكن التى يستعبد فيها الإنسان والتى يقضى فيها أوقاتاً عصيبة ثقيلة على نفسه .

لقد أصبحت ممرات مقر الحكومة فى تلك الساعة موحشة وقد يخشى المرء أن يطرقها لولا أنه يصادف فيها — من حين إلى حين — شبح جندى أسود من المكلفين بالحراسة وهو يمر بمكنسته بشكل شاعرى على البلاط الذى يغطى أرضيتها مؤكداً بوجوده أن الأمن مستتب فى أرجاء المكان .

وفجأة سمع وقع خطوات سيدة ، وهى خطوات صدر عنها صوت مسموع ملح

تجاوبت أصداؤه فى أرجاء مقر الحكومة حتى وصلت إلى مسكن الحاكم الذى يقع فى أعلى المبنى .

ولم يستطع السكرتير الخاص ـ الذى كان غارقاً فى العمل بين أوراقه وملصقات الدعاية ومشابكه والسطور التى يخطها باللون الأحمر والأزرق ـ أن يكتم صيحة تدل على اليأس وقال :

ـ كنت أعرف أن « آديل » ستحضر لاصطحابى .

ورفع ذراعيه فى حركة معناها : لا بأس، فلقد أنجزت الشطر الأهم من العمل، سنكمل ذلك غداً .

وفجأة سمع صوت غاضب يقول :

ـ ما هذا يا « مارسيل » ! أتتركنى أنتظرك هكذا حتى هذه الساعة المتأخرة ؟ هذه أول مرة يحدث لك فيها هذا يا حبيبى .

واندفعت سيدة شابة داخل المكتب .

كانت المرأة قصيرة القامة ، شقراء ، جميلة ، متأنقة ، ولكن بدون تكلف . لم تكن تصبغ وجهها بأية مساحيق ، لا أحمر شفاه أو كحل ، واندفعت نحو زوجها وأحاطت كتفيه بذراعيها المستديرتين بلهفة وحب وغمرته بقبلاتها .

ـ لماذا تقتل نفسك فى العمل ياحبيبى ؟ إنك الشخص الوحيد الذى بقى فى هذا المكان المقفر حتى هذه الساعة . هيا ، أرجوك أن تترك كل هذا . إنك تعرف جيداً أنهم ينتظروننا هذا المساء عند« بابى »

وأتت المرأة بحركة كما لو كانت ستبعثر الأوراق التى كان ينحنى عليها زوجها . ثم رفعت قامتها ، واستدارت قليلا واضعة يديها فى خصرها ، وأخذت تنظر بعدم مبالاة إلى « نينى » التى كانت تدير لها ظهرها .

ورفع الرجل ذراعيه دلالة على شعوره بالإرهاق ، وتثاءب دلالة على الرضا والاطمئنان ونهض برشاقة وعانق زوجته وهو يقول .

— اغفرى لى ياحبيبتى فإنى مرهق بالعمل فى هذه الأيام ، سنرحل حالا . ثم وجه حديثه إلى « نينى » قائلا :

— أرجو المعذرة يا آنسة إذا كنت قد احتجزتك اليوم حتى تلك الساعة المتأخرة. يمكنك أن ترحلى الآن ، أرجوك أن تسلمينى مفاتيحك .

وجمعت « نينى » أوراقها بسرعة ، وأغلقت أدراجها وسلمت الرجل المفاتيح فوضعها فى جيبه ، وأعطى ذراعه لزوجته لتتأبطها وقال :

— أسعدت مساء يا آنسة .

— أسعدت مساء ياسيدى السكرتير الخاص .

وابتعد الرجل وزوجته ، وسمع وقع خطواتهما لحظة وهى تدوى فى أرجاء المكان، ثم وهو يتلاشى فى نهاية الممر .

إن تلك المرأة ، بالرغم من جمالها وأناقتها ، ثقيلة على قلب « نينى » لأسباب كثيرة أولها أنها لم تتنازل حتى بتحيتها ، ولا بالالتفات إليها ، ولا بإشعارها بأنها قد أحست بوجودها فى مكتب السكرتير الخاص . ثم هناك أيضاً ذلك الحب المغالى فيه والمتسم بالأنانية الذى تحيط به زوجها، والذى يبدو لها هى فاجراً مضحكاً. إن السيدات المحترمات فى نظر « نينى » أكثر تحشماً وتحفظاً فى إظهار حبهن . لابد أن تلك المرأة من العاهرات أو أنها فتاة التقطها زوجها من الطريق . هكذا فكرت «نينى» لتنتقم من زوجة رئيسها . لو أنها اكتفت بعدم تحيتها لهان الأمر ولكنها لم تبد أية حركة تدل على غيرتها من وجود « نينى » فى مكتب زوجها ، ولو أنها فعلت ذلك لشعرت « نينى » ببعض الزهو فى دخيلة نفسها . لكن لم يبد عليها إلا عدم المبالاة وثقة فيها تعال وحب لزوجها لاتشوبه شائبة .

وعلى مائدة العشاء قصت « نينى » على خالتها ماحدث لها ، وأفصحت عما تشعر به من عداء لتلك النساء البيض الأوربيات اللاتى يتغربن عن بلادهن . وأجابتها الخالة « هورتنس » بقولها :

— لقد كن فيما مضى أكثر لطفاً فى معاملتهن لبنات البلد ، ولم يكن هناك

منهن فى ذلك الوقت إلا نفر قليل ، أما الآن فإن عددهن كبير بالمستعمرة وهن لذلك يتصورن أنهن أعظم شأناً منا .

ولكن « نينى » امتدحت الرجل ، وقالت إنه أصيل ، حسن التربية ، مجامل رقيق ، ممتاز ، وأردفت :

— لاشك فى أنهما من بيئتين مختلفتين فى فرنسا . وحقيقة الأمر أن الرجل والمرأة كليهما من طبقة « البرجوازية الصغيرة » التى تقيم بضواحى باريس . ولكن « نينى » تحاول أن تحكم على مابدا عليهما فى لحظة من اللحظات ، وهى تنسى فى حكمها هذا أن المرأة هى المرأة بما طبعت عليه من أنانية لاحد لها ، ومن قسوة غريزية ، كما تنسى مع ذلك أن رئيسها ليس بالرجل الذى تتصوره وأنه لايعدو أن يكون موظفاً يخضع خضوعاً أعمى لبعض مبادئ تبدو جميلة فى نظر الخلاسيات جميعاً ، الجميلات منهن والقبيحات ، وفى نظر السود الذين يسكنون الأحراش أو الغابة ، وباختصار فى نظر الجميع . حدث فى ذلك المساء أن استعادت « نينى » فى مخيلتها — وهى مستلقية فى فراشها — ذكرياتها البعيدة ، وغطست فى ذلك الماضى البعيد كالغطاس الساذج الذى يريد أن يصغى إلى صوت الأمواج التى غمرت حياته . لقد أخذت تنصت إلى صوت نفسها وإلى ذلك الصوت الذى يصدر عن أعماقها فيثبت لها أنها مازالت تعيش ؟ إنها ترى نفسها وهى تهيم على غير هدى فى هذه الحياة . وأخذت صور الماضى والحاضر تتوالى وتتكدس فى مخيلتها ، ولكنها شعرت بأن ليس لها دخل فى كل ماحدث ويحدث لها . لقد أحست إحساساً غامضاً أن كل متناقضات حياتها قد أوشكت أن تدرك النهاية ، وكأن هناك نهاية يمكن أن تصل إليها حياتنا على هذه الأرض . لقد أحبت وداعب الأمل خيالها ، لقد أعطت من ذاتها لكى تشد الناس إليها ، ولكن كل ماتبقى من رماد بعد هذه التضحية إنما ينساب من أصابعها ويتبخر كالحلم ... ولكن هل لها ذنب فى كل هذا ؟

ونامت « نينى » هادئة النفس ، مطمئنة ، وكأنها تطفو على محيط الحياة بما توالى عليه من أزمنة وتقاليد وأحداث ، وكل هذا هو المسئول عما يصادفنا فى عالمنا هذا من آلام أو سعادة .

* * *

إن رسالة « مارتينو » لم تصل بعد . فبماذا يمكن تفسير ذلك ؟

هناك تفسيران فى رأى « نينى » لا ثالث لهما . أولهما أن « جان » ربما كان مريضاً : فإن الإقامة الطويلة بالمستعمرات تعقبها دائماً ، بعد العودة إلى فرنسا ، بعض إصابات بالبرد تصيب الكليتين وتسبب تضخماً بالكبد . لقد سمعت « نينى » كثيراً عن مثل هذا . وهناك أيضاً نوع من الحمى كثيراً ما يصيب مثل هؤلاء الناس فيعانون منه أسبوعاً كاملا . ولو كان السبب أحد هذين الأمرين لأمكن « نينى » أن تهدأ بالا ، لأن « جان » شاب متين البنية لا تؤثر فيه كثيراً مثل تلك الأمراض الطفيفة . أو لعله كذلك يسعى ليعين فى وظيفة بالمستعمرات ، وليس هذا بالأمر السهل ، بل إنه يقال إن مثل هذه المساعى لدى وزارة فرنسا لما وراء البحار[1] إنما تصطدم بعقبات لاحد لها ، فهناك عدد لا يحصى من الطلبات التى تنهال عليها ، ولذا فقد اضطرت إدارة المستعمرات إلى أن تطالب أصحابها بأن يكونوا من حملة شهادات معينة وبتقديم بعض الضمانات وبالقيام بإجراءات عديدة معقدة .

و « نينى » تود لو استطاعت أن تبدأ « جان » بالكتابة بعد أن راود فكرها هذان الاحتمالان ، ولكنها تجهل عنوانه فى الوقت الحاضر ، وقد قال لها لحظة رحيله :

ـــ إن ما يضايقنى هو أن ليس فى إمكانى أن أعطيك عنواناً ثابتاً مؤكداً ، إذ لست متأكداً إن كنت سأقيم بعد وصولى عند ذوى بمقاطعة الـ « يون » كما أنى لم أحجز مكاناً لى بالفندق بباريس حيث سأبقى بعض الوقت للسعى وراء تعيينى .

إذن فيتحتم على « نينى » أن تستسلم للأمر ، وأن تنتظر وتنتظر .

وذات مساء ، أثناء عودتها بمفردها إلى بيتها ـــ إذ أن « مادو » لم تأت منذ ثلاثة أيام لمقابلتها عند خروجها من المكتب ـــ قابلت صدفة جمعاً صغيراً من زميلاتها مكوناً من « ليا » و « ريرى » و « نانا » . كان يبدو على الفتيات الثلاث أنهن ينضحن بالبشر ، وكان المارة يتساءلون عن سبب تلك البهجة وذلك الصخب .

---

(١) وزارة المستعمرات .

وعندما اقتربت « نيني » منهن زدن ضحكاً وصخباً . وشعرت « نيني » وهي ترى ذلك الصخب أنها قد تلقت صفعة ، فقد أحست فجأة بأن قلبها ينقبض وأدركت أن الأمر إنما يعنيها . وقالت لهن ضاحكة وهي تتغلب على هواجسها :

ـــ هيا يا بناتي ، كفا كن صخباً . ألا ترين أن الناس ينظرون إليكن وأنتن تصرخن هكذا كمن تقمص الشيطان أرواحهن ؟ ماذا هناك إذن ؟

فقالت « ريري » : إن ما يضحكنا حكاية لها العجب يا عزيزتي .

وكانت « ليا » و « نانا » في تلك الأثناء تنظران إليها بطريقة مؤلمة وهما تنفجران بالضحك .

ـــ حكاية عجيبة ؟

ـــ نعم حكاية عجيبة حقاً ، لا يمكن تصديقها . تصوري ... إن الأمر يتعلق بفتاة (بيضاء بالطبع) باعت روحها ـ وما إلى ذلك بالطبع ـ لشيطان أسود مقابل كسب مادي تافه ! باعت روحها للشيطان كما فعل الدكتور « فوست » مع إبليس .

وقالت « نيني » وقد طمأنها ذلك الحديث : لا شك في أن ذلك حدث في قصة أو حكاية خرافية أو أن الأمر شيء من هذا القبيل ؟

ـــ لا ، للأسف ، إن الأمر إنما يتعلق بحقيقة واقعة ، ملموسة ، بحدث حقيقي يا عزيزتي ...

وأضافت « ليا » : بحكاية حدثت في أيامنا هذه ، إنه حادث قريب ، عمل فاضح .

ـــ لست أفهم شيئا مما تقلنه ... وأعتقد أني لو استمعت إليكن مدة أطول لجننت بدوري . هيا اشددن على يدي فسأتركبكن .

وتركتهن « نيني » واستأنفت سيرها .

وقالت لها « نانا » في شبه تحد : أتخيفك حكايتنا إلى هذا الحد ؟

ولم تلتفت « نيني » ، ولكنها أحست مع ذلك إحساساً مبهماً بأن سخريتهن تلك إنما تعنيها هي بالذات . ولكن لم يا ربي تشعر بذلك الإحساس المبهم ؟ ليست هناك

أية صلة لها بتلك القصة السخيفة ، والجميع يعرف ماضيها وحاضرها ومدى اعتزازها بكرامتها وتمسكها بمبادئ الشرف . ليست لهـا أية علاقة بتلك القصة . إلا أن « نيني » — منذ ذلك الانفعال الذى سببه تعيينها والتعليقات الجارحة التى أثارها ذلك التعيين — أصبحت متحفظة تسىء الظن بالجميع ؛ إن أقل دعابة من قبل زميلاتها تثير فى نفسها الشكوك . وقالت تحدث نفسها : إنهن تردن فى هذه المرة كذلك أن تنلن منى .

وجاءت « مادو » فى نفس تلك الليلة لزيارتها . آه ! إن الأمور مع « مادو » ربما اتضحت على الأقل .

واعتذرت كل من الصديقتين للأخرى عن عـدم مقابلتها خلال الأربعة الأيام المنصرمة .

وقالت « نيني » :

— إن العمل الذى أقوم به الآن شاق للغاية . تصورى أننى بقيت مع رئيسى بالمكتب منذ يومين إلى مابعد السابعة مساء وحمداً لله أن مثل هذه الأيام التى تقتضى بقائى إلى ساعات متأخرة ليست كثيرة ، إذ لا يمكننى أن أتحمل مثل هذا الإرهاق. ولكن يبدو أنهم يعدون للانتخابات ياعزيزتى ، وبالطبع يجب أن أكتب على الآلة الكاتبة كل الخطب والمناقشات التى ستدور فى هذه الانتخابات وقالت «مادو»: إننا تقريباً فى نفس هذه الحال وأنت تعرفين أن نهاية العام أسوأ فترات العمل بالنسبة إلينا ، إذ يجب اختتام السنة المالية وإعـداد عدد لا ينتهى من الحافظات والقوائم وما شابه ذلك ، استعداداً للسنة القادمة . وأنا بدورى لم أعد أترك مكتبى إلا حين يكتمل الليل . ثم توقفت عن الكلام وأردفت بعد برهة قصيرة فى صوت خفيض وبلهجة جادة للغاية :

— اسمعى ياصديقتى العزيزة ، كنت أحب أن أحدثك فى موضوع يبدو لى خطيراً فاضحاً يتوقف عليه شرفك كفتاة . ولكن يجب أن تقسمى لى بأن تصدقينى القول حتى النهاية وبألا تبوحى بما سأخبرك به ... لقد رأيت أنه ليس من واجبى — وأنا أعز صديقاتك — أن أكتم عنك بعض أشياء تخصك تلوكها الألسن من حولى فى كل مكان طوال النهار . واستحوذ على « نيني » قلق فظيع وشعور مؤلم بأن «مادو» هذه التى تدعى أنها أحسن صديقاتها إنما تعمل بكل ما أوتيت من قوة لكى تشقيها .

إن « نيني » لاتحب الموضوعات الخطيرة والعبارات الغامضة التي تخفي أشياء وراءها، وهي-أكثر من هذا-تكره الفضائح . وربما كانت لها عيوب كالناس جميعاً ولكنها صريحة لاتلف ولا تدور . إنها ، لضعف شخصيتها وبحكم طبيعتها الشاردة ، إنما يحلو لها أن تعبر الحياة وهي ترفرف كالفراشة متجنبة كل مامن شأنه أن يعكر صفوها؛ وشد ماتكره أن يهتم الناس بها ويشثونها . وماذا تملك إذا كان يحلو للناس أن يلوكوا سيرتها . إن كل مايقولونه عنها لايهمها طالما لم يصل إلى أسماعها ، إذ مافائدة أن يعكر المرء دمه لمجرد « تقولات » تافهة ... ؟ ولكن تلك العادة في التهرب من الحقيقة لم تعد ممكنة الآن في حضرة شاهد سمع مايقوله الناس . إن كل تهرب في هذه اللحظة قد يؤكد لهذا الشاهد صحة مايقال . وعلى أية حال فماذا يقولون ياترى؟ .

وأطلقت « نيني » صرخة تدل على اليأس وسألت :

— بماذا يتقولون علي الآن ، وما الذي يتمشدقون به من حولك ؟ أخبريني بحق السماء .

— ألم تسمعي أي شيء خلال هذين اليومين ؟ ألا تعرفين شيئاً حقاً ؟

— لا ، لم أسمع شيئاً على الإطلاق .

— حسناً ، ألم تلاحظي شيئاً غريباً ؟ لابد أنك لاحظت شيئاً ، فإن مدينة « سان لوي » هي بلد الفضائح والتقولات ، ومن المحال أن تثار ضوضاء بهذا الحجم ولا يصلك أي صدى منها .

— وإذا كانت تلك التقولات لاتعنيني ؟

— أوه ! إنها تعنيك ... لا يمكن ألا تبالي بها .

— ولم أبالي بها ؟

— على كل حال إذا كنت تصرين على تجاهل الأمر فليس أمامي إلا أن أرحل حاملة سري .

— ومادمت ترين أن الأمر يهمني فلماذا إذن لاتفصحين عما عندك دون لف ودوران ؟

— لاتثورى ياصديقتى العزيزة ، لم تطرأ على بالى فكرة إيلامك ، ولكن من واجبى أن أخبرك بما تجهلين ، سواء لأنك أهم شخص يعنيه الأمر ،أو لأنك لاتختلطين اختلاطاً كافياً بمجتمع بنات جلدتنا . إن لهن — صدقينى — ألسنة كألسنة الأفاعى...

إن هذه الملاحظة الأخيرة التى أبدتها «مادو» أنارت الطريق أمام « نينى » وأتاحت لها فهم ماتلمح إليـه صديقتها ومايخفيه حديثها ؛ تأكدت فى الحال أن هناك علاقة بين ماتلمح إليه « مادو »وبين تلك الحكايات العجيبة التى كانت تضحك « ليا » و« ريرى» و « نانا » منذ قليل .

— لست أفهم تماماً ماتقصدين بحديثك هذا ، ولكن حدث فى حوالى الساعة السادسة ، أثناء عودتى من العمل ، أن صادفت فى طريق شلة « ليا » . وكانت فى صحبتها « نانا » و « ريرى » ، وكن يصرخن فى الشارع مثلما تفعل المتوحشات ،وقد قصصن على ماسمينه « حكايات عجيبة » ، وهى حكايات سخيفة إلى أقصى حد .

— آه ! لقد وصلنا إلى ما أقصده : أهى حكاية فتاة من مدينتنا باعت نفسها لشيطان أسود للحصول على كسب مادى وبعض الرفاهية ؟

— نعم تلك هى الحكاية .

وتنهدت « مادو » وهى تهز رأسها ذا الشعر المجعد .

— حسناً ! ألا تعرفين يا صديقتى العزيزة إلى من تشير تلك القصة المختلقة ؟

— لا ، وكيف أعرف ؟

— إنى يا « فرجينى » عاجزة عن وصف ما أشعر به من ألم لإصرارك على إخفاء جزء هام من حياتك ومن شئونك عنى بالرغم من صداقتنا التى تربطنا منـذ وقت طويل . نعم ، إنى أعرف تماماً أن هناك أموراً خاصة لا يبوح المرء بهـا ولا حتى لأبيه أو لأمه . ولكن عندما تكون لك صديقة ... فلكى تفيدك صداقتها بشىء ، كأن تدافع عنك عندما يهاجمك الناس فى غيبتك ، إن كان ذلك الدفاع يحتاج إلى الأدلة اللازمة ، ولو أنك أخبرتنى بصراحة منـذ البداية بالحقيقة الكاملة المتعلقة بحصولك على وظيفتك لا ستطعت الدفاع عنك .

— أوه ! اسمعى يا « مادلين » . لا تحاولى أن تتخيلى أشياء حيث لا شىء على الإطلاق . أية حقيقة تلك التى تريدين معرفتهـــا ؟ ألم أخبرك كيف حصلت على وظيفتى ، وأنى قد حصلت عليها بناء على طلب عادى تقدمت به كما تفعل الأخريات؟ اسمعى ، لا تضايقينى أكثر من ذلك . أنا لا أحب التلميحات . إذا كانت لديك أخبار فلتفصحى عنها بصراحة ، وكفى اتهامى بدون سبب .

— نعم عندى ما أطلعك عليه . ومادمت تؤكدين ما سبق أن قلته عن كيفية حصولك على وظيفتك ، فإن هناك شيئاً يستغلق على فهمه . فإما أنك تخدعيننى عن قصد ، وإما أن ما تحكينه لا أساس له من الصحة . أتريدين منى أن أخبرك بكل شىء وبدون مجاملة ؟

— أرجوك أن تخبرينى بكل شىء ، تكلمى .

وهنا شرعت « مادو » تفرغ كل ما فى جعبتها قائلة :

— حسناً . أتعرفين إشاعة يروجونها فى المدينـــة ؟ إنهم يدعون أنك تدينين بوظيفتك لرجـل أسود ، أو على الأرجح لرجال سود . وهم يقولون إن العمدة هو أول من سعى لدى السلطات ولدى الحاكم لحصولك على تلك الوظيفة . أما الذى دفعه إلى هذا — أى الرجل الذى طلب من العمدة أن يتوسط من أجلك — فليس إلا ذلك العاشق الذى سبق أن طلب يدك والذى لم أعد أذكر اسمه المعقد . بل إنهم يقولون أيضاً ، ولـكنى أفضل عدم الخوض فى هذا ...

وقالت « نينى » التى استولت عليها رجفة خفيفة إذ صدمت مما سمعت :

— تـكلمى ، أريد أن أعرف كل شىء .

— إنهم يضيفون أنك قد قبلت سراً عروض ذلك الأسود عندما أعاد الـكرة ووعدك بأن يساعدك فى الحصول على وظيفة محترمة ، بعد أن ألغى عقد « المقاولات النهرية » وبعد أن وجدت نفسك بدون عمل . لقد بذلت كل ما أوتيت من قوة — بدون شك — لـكى أنـكر كل هذه الاتهامات ، ولـكى أؤكد أنك لا يمكن أن

تقدمى على ذلك العمل الحقير . ولكن هل يمكن أن تقاومى فكرة قد تسلطت على الأذهان ومؤامرة دبرت بكل هذا الحذق ؟

ولم يغم على « نينى » ، ولم تصدر عنها صرخة واحدة تعبر بها عن استيائها ، بل نهضت بهدوء واتجهت إلى باب غرفة نومها وقالت :

— سأستدعى خالتى . إن هذا الحديث إنما يجب أن نشركها فيه ، إذ أنه ليس من تلك الأحاديث التى يمكن أن تبقى سراً بيننا . ما داموا الآن يريدون التعريض باسم أسرتى فإن تلك الاتهامات الباطلة إنما تعنى كذلك كل أفراد هذه الأسرة .

وخرجت وعادت بعد لحظة تتبعها الخالة « هورتنس » . وقالت « مادو » وهى تنهض :

— أسعدت مساء يا خالتى . وسألت العجوز قبل أن تجلس وهى تئن على مقعد وثير : ماذا هناك يا أولادى ؟

— يا خالتى ، لقد أخبرتنى « مادو » بأشياء على قدر كبير من الخطورة ، وقد أصررت على أن تعيد سردها فى حضرتك .

— أوه ! أرجوك يا « فرجينى » ، لا تقحمى الخالة « هورتنس » فى هذه الحكاية المضحكة . وعلى أية حال فلماذا تبالين بكل ما يحكونه ما دام كل هذا غير صحيح ، ومادام ضميرك مطمئناً ؟

لقد ضايق « مادو » وجود المرأة العجوز إذ أنها تشعر نحوها باحترام كبير ، وشعرت فجأة بالخجل وهى ترى نفسها تقوم بدور الواشية ، ولكنها على أية حال نفذت ما فرضته عليها « نينى » وأعادت سرد حكايتها من أولها ، وذكرت دقائقها كما فعلت منذ قليل .

وقالت الخالة « هورتنس » وهى فى أشد حالات الانزعاج :

— ومن ذا الذى اخترع هذه الفرية ؟

وأجابت « مادو » : لا يمكن أن أحـدد مصدر تلك الإشاعة . إنك تعلمين أنه لا يمكن أبداً معرفة مصدر تلك التقولات .

وصاحت العجوز بصوت يرتجف من شدة ما تشعر به من استياء :

ــ إن ذلك عمل من أعمال التشهير . إن « فرجينى » لم تقابل أحداً ولم تسع إلى أحد للحصول على تلك الوظيفة . أكل الفتيات اللائى يعين كل يوم بإدارة الحكومة يستسلمن للسود أو للبيض ليحصلن على وظائفهن ؟ لماذا يسعون إلى النيل من هذه الصبية التى لم تحاول أن تؤذى أحـداً ؟ لماذا يسعون إلى النيل من سمعتها بكل ثمن ؟ حقاً إنه لا يوجد رجل فى هذا البيت تحتمى به ، وحقاً إننى قد تقدمت فى السن وإننى عاجزة عن الدفاع عنها ، ولـكننا سوف نرى .

وشرعت الخالة « هورتنس » تجهش بالبـكاء ، ولـكنها مع ذلك استمرت فى حديثها قائلة :

ــ إنك تعرفين جيداً يا « مادلين ميكيه » أن أسرة « ميرل » ليست من الأسر التى يمكن أن ينالوا من سمعتها ومن شرفها . إن كل الرجال وكل النساء الذين حملوا هذا الاسم قد شرفوه بعملهم واستقامتهم وشرفهم . إننا نعرف جيـداً الأسر التى ولد أطفالها سفاحاً ، وكيف اغتصب بعض أجداد من يحملون أسماء يتباهون بها اليوم ، تلك الأسماء التى لاحق لهم فى أن يحملوها . وليست تلك حالتنا نحن فى أسرة « ميرل » . إن فى إمكاننا أن نسير فى شوارع «سان لوى» رافعات رءوسنا .

وبدأت « مادو » تتصور أن المرأة العجوز إنما تحنق عليها هى ، وإزاء هـذه الشحنة الفظيعة من الغضب ، التى يبدو أنها تصبها عليها مباشرة ، ودت لو استطاعت الأرض أن تبتلعها .

واختتمت الخالة « هورتنس » حديثها بقولها : ومما يؤسف له حقاً هو عجزك عن ذكر مصدر تلك الإشاعة الـكاذبة . وفى رأيى أنك مادمت تجهلين مصدرها ، ومادمت عاجزة من مساعدة صديقتك على غسل تلك الإهانة فقد كان من الأصوب أن تحتفظى بما سمعت لنفسك .

ونهضت وهى تجر رجليها المصابتين بالنقرس . ولما عادت إلى غرفتها أخـذت

تفكر فى الشر الذى يمكن أن يتفتق عنه خيال الإنسان . ها هى تقولات وإشاعات كاذبة خطيرة لا حصر لها ولا تمت إلى الحقيقة بأية صلة ، حكايات بعيدة عن الواقع بعد النهار عن الليل ، قد نجمت عن محاولة بسيطة قامت بها سراً ، وإن كانت قد فعلت ذلك بكل شرف لتساعد ابنة أختها فى الحصول على وظيفة .

فالحقيقة هى أنه عقب وفاة الجدة « إيلين » انتهزت الخالة « هورتنس » فرصة فترة الحداد التى تعاقب فيها على بيتها عدد من المعارف والأهل ، فأسرت إلى إحدى بنات أعمامها من السود بشىء عن « نينى » ، وكان ابن تلك المرأة زعيماً سياسياً معروفاً ، وصديقاً يحسب له عمدة المدينة كل حساب . وبناء على الحديث الذى جرى بين الخالة « هورتنس » وبنت عمها ، استقبل الرجل الخلاسية العجوز التى شرحت له الموقف قائلة :

— لا بد أن أمك قد كلمتك عن صلات القرابة التى تربطنا . إن لنا نفس الجد من ناحية الأصل الـ « أولوف » ، هو « كومبا — نار — ديوب » الذى رحل عن الـ « أوالو » ليأتى إلى « سان لوى » التى استقر بها قبل أن يغزو « فيد هيرب » البلاد بوقت طويل . وقد يطول بنا الحديث إذا حاولنا الكلام عن الشعب الثلاث التى أنجبها ذلك الجد العظيم . وأمك التى تعتز بأسرتها ولا تهمل أبداً فى القيام بواجباتها تجاه أفراد تلك الأسرة من الـ « أولوف » أو الخلاسيين لابد أنها قد كلمتك عنه كثيراً .

وكان طبيعياً ، عندما فقدت أختك « فرجينى » وظيفتها بعد إلغاء عقد الشركة التى كانت تعمل بها ، أن أفكر فى الحال فى أنه ربما أمكنك أن تؤدى لنا خدمة جليلة ، بحكم صلاتك ، بإيجاد عمل لها فى إحدى إدارات الحكومة . إن أمك — عندما كلمتها فى هذا الأمر — عاتبتنى قليلا وقالت : إننى لا أخفى عنك يا « هورتنس » أنه مما يؤلمنى أن أرى ذلك التباعد الذى أرادت أن تتسم به دائما العلاقات بين بيتينا . وإذا كنتم من الخلاسيين ونحن من الـ « أولوف » فإن ذلك كان مجرد صدفة لا دخل لأحد فيها ، ولكن ذلك لا يمنع أننا من أصل واحد . ولو أنكم أشركتمونا فى مشاكلكم وفى كثير من متاعبكم العائلية ، لاستطعنا فى حالات كثيرة أن نضع وسائلنا

المتواضعة تحت تصرفكم . لا شك فى أن سواعدكم قوية طويلة ولكن هناك أماكن لا يمكن أن تصل إليها تلك السواعد .

« ولقد وافقت والدتك فيما ذهبت إليه ولكن ما قولك ؟ إن فتيات اليوم مختلفات عنا تماماً ، وهن يحاولن أن يتجاهلن ما كان يربط بيننا من علاقات فى الماضى ويتصورن أن الاعتراف بتلك القرابة إنما يقلل من شأنهن . ونحن المسنات — سواء عن ضعف منا أو بسبب إفراطنا فى الحنان ـ كثيراً ما نستسلم لهن .

وأجابها الرجل : إننى أفهم ماتعنيه تماماً . إن تلك الفتيات من عصر غير عصرنا وإن مانفعله من أجلهن نحن السود الذين تربطنا بهن صلة القربى ، أو ما يمكن أن نفعله من أجلهن ، يجب ألا تكون له علاقة بتصرفاتهن ، وهى تصرفات تستحق المؤاخذة من جوانب كثيرة إن العمدة صديق حميم لى وسأطلب منه فى الحال أن يتوسط فى ذلك لدى الحاكم ، والعلاقات بينهما حسنه للغاية . وبالطبع سوف يبقى الأمر سراً بيننا ، إذا كنت ترغبين فى ذلك ، فأنا أفهم تماماً عقلية تلك الآنسات . ربما كان يسوء « فرجينى » أن يعنى بشئونها رجل أسود ، حتى ولو كان من أقربائها ، وأن يجد لها عملا .

وشعرت الخالة « هورتنس » بالحرج عندما أبدى الرجل هذه الملاحظة ، فقد أصاب وأثبت أنه يرى الأمور بوضوح .

وقد تتساءل أولا : كيف تسرب هذا السر ؟ ثم من عسى أن يكون قد فضح الأمر ونقله إلى الناس ؟ ، وأخيراً من يكون ذلك الذى جعل الألسن تلوكه وتضخمه إلى حد أنها تخوض فيه بطريقة بشعة كما تفعل الآن ؟

أخذت الخالة « هورتنس » توجه تلك الأسئلة لنفسها ، ولكن فجأة دخلت « نينى » غرفتها وصاحت :

« سوف أصل إلى معرفة حقيقة هذا الموضوع . إن حصولى على تلك الوظيفة عن طريق شخص توسط لى ، لم أنجح فى التعرف عليه ، لشىء قد أثار شكوكى ،

وكان من الأفضل أن أرفض تلك الوظيفة . وأنا أؤكد لك أننى سأبادر منذ غد إلى معرفة حقيقة ذلك الأمر . وإذا وجدت أى دليل على أن وراء ذلك التعيين يداً سوداء فسأقدم استقالتى فى الحال .

— لاتفقدى صوابك يا « فرجينى » . إنى أشعر بأن « مادلين » هذه ، التى تدعين أنها أعز صديقة لك ، لها يد فى تلك الحملة .

— إنى متأكدة أن « مادو » لم تفعل شيئاً سوى أنها نقلت إلى ما سمعت . ولا يمكننى بأية حال أن أحملها مسئولية ما يتقولون به على فى هذه اللحظة .

ولم تحاول الخالة « هورتنس » أن تخدع نفسها فهى تعرف أن الموقف خطير وأن « نينى » كفيلة بتنفيذ ماهددت به ، أى بتقديم استقالتها . ولا شك أن مدخراتهن المتواضعة وإيرادهن الذى يحصلن عليه من إيجار عمارة صغيرة تقع فى جنوب المدينة ورثنها عن أسرتهن ، يمكن أن تعينهما على العيش مدة طويلة وفى حدود متواضعة .

ولكن كم ستدوم بطالة « نينى » فى هذه المرة ، بعد أن تقدم استقالتها بتلك الطريقة المنافية للذوق والتى ربما أثارت الحاكم ضدها ؟ إن الخالة «هورتنس» تأمل على أية حال ألا تندفع « نينى » فى تصرفها وأن تعود إلى رشدها أثناء الليل .

وفى اليوم التالى نهضت « نينى » من فراشها وتزينت كما تعودت أن تفعل كل يوم ، وتوجهت إلى عملها دون أن تشير إلى الموضوعات التى أثيرت فى اليوم السابق . ولما رأتها خالتها هادئة تصورت أنها قد راجعت نفسها وهدأت بالا .

وفى المكتب شرعت « نينى» فى العمل مباشرة واستأنفت الدق على آلتها الكاتبة دون أن تبدو عليها أية علامة تفصح عن عصبيتها . ثم فجأة توقفت عن العمل واستدارت نحو السكرتير الخاص الذى كان يدير لها ظهره وقالت :

— إنى أستأذنك ياسيدى فى أن أزعجك فى هذه اللحظة التى قد تكون مستغرقاً فيها فى العمل . ولكن بودى أن أطلب منك بياناً صغيراً ، أستميحك العذر فى أن أوجه إليك سؤالا :

— تفضلي يا آنسة . إذا كان بإمكانى أن أؤدى لك أية خدمة فلا تترددى فى الطلب .

— أريد أن أعرف ياسيدى الظروف التى عينت فيها بالحكومة بصفة موظفة بعقد .

وبعد لحظة من التفكير هز السكرتير الخاص كتفيه وقال وهو يأتى بحركة تدل على عجزه عن الإجابة :

— وا آسفاه يا آنسة ! صدقينى إن قلت لك إنى أجهل كل شىء عن هذا الأمر مثلك تماماً . إن كل ماأعرفه هو أنك ألحقت بمكتبى لتحلى محل سيدة تدعى « مدام ريمى » تقدمت بها السن وأوشك عقدها على الانتهاء . ولكن ربما أمكنك أن تستوضحى السيد مدير المستخدمين فى هذا الشأن ، أليس هو الذى أشرف على توقيعك على العقد ؟ .

— بلى ياسيدى ولكنه رفض أن يخبرنى باسم الشخص الذى أدين له بوظيفتى هذه .

— آسف يا آنسة ، ولكنه الشخص الوحيد الذى يمكنه أن يعطيك ذلك البيان .

— هل يمكن ياسيدى السكرتير الخاص أن تأذن لى بالتغيب لأطلب مقابلته ؟

— بكل تأكيد يا آنسة ... إنى أعلم أنك لست متأخرة فى عملك وأنك على كل حال سوف تعوضين أى تأخير .

وتركت « نينى » آلتها الكاتبة وراحت تطلب مقابلة الرجل العجوز قصير القامة الذى استقبلها بأدب جم فى أول يوم ، والذى عينها بعقد .

وبمجرد أن رآها الرجل العجوز — الذى اعتاد سماع ثرثرة الموظفين واحتجاجاتهم على ماينالهم من عسف ، والذى ألف مايرتسم على وجوههم من علامات الضيق — لحظ شيئاً غير عادى يرتسم على وجه الخلاسية فسألها فى لهجة تكاد تكون ودية :

— أية خدمة يمكن أن أؤديها لك يا آنسة ؟

— لقد جئت ياسيدى مدير المستخدمين لأطلب منك مرة أخرى أن تخبرنى باسم ذلك الشخص الذى أدين له بهذه الوظيفة التى أشغلها .

ورفع العجوز القصير رأسه ، وقطب جبينه علامة على تفكيره العميق ثم دق بقبضته الصغيرة على مكتبه الأنيق وقال :

— آه . نعم ! ما اسمك ؟

— « فرجينى ميرل » .

ودق الجرس فحضر رجل أبيض لابد أنه يقوم بوظيفة السكرتير :

— هل تتكرم بإعطائى ملف ...

فقالت « نيتى » : « فرجينى ميرل »

— نعم ملف الآنسة : « فرجينى ميرل »

وقال الرجل مؤمناً : فى الحال ياسيدى المدير .

وبعد أقل من دقيقة كان الملف على مكتب المدير .

— ماذا تطلبين يا آنسة ؟

— معرفة اسم ذلك الشخص ، أوه ، عفواً ! اسم الرجل الذى أدين له بوظيفتى .

— ولكن يبدولى يا آنسة أنى سبق أن قلت لك وكررت أنه يصر على إخفاء شخصيته .

— سوف أضطر فى هذه الحالة ياسيدى المدير أن أقدم لك استقالتى . إن الناس فى المدينة بأسرها يسخرون منى ، وهم يتهمونني بأشياء قبيحة .

— أوه ! هذا شىء لايمكن تصوره ... أهم يتهمونك بأشياء قبيحة لأنك قد حصلت على وظيفة جميلة ؟ ولكن لم هذا ؟ إن البيانات التى حصلنا عليها تمنحك الحق فى أن تنالى هذه الوظيفة ، ومعلوماتنا مستقاة من خير المصادر . لم يرتكب أى شىء مخالف للقانون لا من قبلك ولا من قبلنا . الناس إذن بهذه القسوة ؟ اسخرى منهم

أنت يا آنسة ولاتبـالى بـكل مايقولونه واحتفظى بوظيفتك — مهما قالوا . ماذا ؟ أتريدين الاستقالة لأن هناك أناساً ينهش قلوبهم الحسد والغيرة يتقولون عليك ؟

وأجابت « نينى » مؤمنة : هذا صحيح ياسيدى المدير ، ولـكن ألا يمـكننى على الأقل أن أعرف اسم ذلك الرجل الذى أوصى بى لدى الإدارة ؟

— إن كل ما يمكن أن أقوله لك فى هذا الصدد — وعلى أية حال لا قيمة لذلك على الإطلاق — هو أن هذا الرجل له مكانة فى بلدكم ، وأعنى بذلك أنه إفريقى ذو مركز ممتاز ، ويمكنك أن تطمئنى إلى أنه قد ساعدك دون أن يطلب شيئاً من وراء مساعدته هذه .

وصاحت « نينى » وهى فى أشد حالات الاستياء : إفريقى ؟

— أهدئى يا آنسة . لماذا تعجبين ؟ هل تخشين أن يلحقك أى أذى بسبب ذلك التوسط ؟

وصاحت « نينى » فى العجوز القصير الذى بدا الخوف على ملامحه : — ياسيدى المدير ، لا يمكننى أن أقبل أن أكون مدينة بوظيفتى لرجل أسود ، حتى ولو كان ذلك الرجل من أشهر رجال جنسه . إنى أعتذر عن ذلك ولـكن سأقدم استقالتى فى الحال .

وبعد أن تركت « نينى » مكتب مدير المستخدمين ، عادت إلى مـكتب السكرتير الخاص الذى تعمل به وحررت استقالتها فى أسطر قلية كتبتها على الآلة الـكاتبة من نسختين ووقعت عليها باسمها وسلمتها لرئيسها .

ودهش السكرتير الخاص وسألها : كيف يا آنسة ، أتستقيلين ؟

— نعم ياسيدى . كان لابد من ذلك . إنهم يقولون فى كل مـكان بالمدينة إننى أدين بوظيفتى لرجل أسود ، وها أنا قد علمت منذ قليل أن هذا القول صحيح وهم على أية حال يتقولون بأشياء قبيحة ... وليس فى إمـكانى أن أسكت أكثر من ذلك على مثل تلك الإهانة وأنا على أية حال مخطوبة ، وخطيبى — وهو الآن بفرنسا — لن يتأخر فى العودة إلى المستعمرة . وسوف نتزوج عندئذ ، وأهدأ بالا ، ولن أحتاج إلى أن أعمل .

— هل تقبلين منى نصيحة يا آنسة ؟ ... فـكرى قليلا قبل أن ترسلى هـذه الاستقالة .

— لقد فـكرت طويلا فى الأمر ياسيدى السكرتير الخاص .

ومنذ تلك اللحظة أخذت الأحداث تتوالى بسرعة ، وأخذ مصير « نينى » يتخذ شكلا جديداً نهائياً ...

وثارت الخالة « هورتنس » عندما أخبرتها ابنة أختها بأمر استقالتها وخلعت عن نفسها القناع الذى لبسته حتى الآن لكيلا تصدم شعور الخلاسية الصغيرة . إنها تتهمها بأنها حمقاء صغيرة تتمسك بوهم من الأوهام ، وهى تذكرها بدون مواراة بأصلها ، وتهاجم ذلك الغرور الذى أعماها ومنعها من معرفة حقيقة نفسها ، وباختصار تريد أن توقفها عند حدها .

وقالت المرأة أخيراً : نعم ، أنا التى تحاملت على نفسى لأبحث لك عن وظيفة عن طريق أحد أقربائنا السود ؛ ... نعم رجل أسود ، لتعرفى هذه الحقيقة الآن . ماذا أصبحنا الآن فى هذا البلد ، نحن الخلاسيين ؟ إننا لم نعد إلا أقلية ضئيلة ، وكل السلطات أصبحت الآن فى أيدى هؤلاء الناس . وها أنتن ، يابنات الجيل الجديد اللائى تدعين أنكن « متطورات » ، تتعامين عن هذه الحقيقة ... والآن ، بعد أن تحاملت على نفسى وأخذت أتجه يميناً ويساراً كالشيطانة لأجد لك وظيفة ، ها أنت تقضين على كل شىء وتبددينه مع الريح ... أتطلبين منى مع هذا أن أهنئك ، وأن أتقبل ذلك الذى فعلته بصدر رحب ؟ إن الاتهامات الباطلة التى يوجهونها إليك تشقينى كما تشقيك ، ولكن ذلك لايبرر أن تقدمى استقالتك بتلك الطريقة العنيفة الحمقاء ... دبرى أمرك بنفسك الآن ، فها أنا أحذرك ، ليس فى إمكانك الاعتماد على ابتداء من هذه اللحظة . وسكتت الخالة « هورتنس » وقد خنقتها العبرات .

إن « نينى » التى كانت تتصور أن فى إمكانها الاعتماد على خالتها « هورتنس » التى تعتبرها ملاذها الأخير — وعلى اسم أسرتها الذى كان يبجله الجميع — تشعر الآن بالضياع ، ولذا فقد آثرت أن تستسلم وأن تنتظر .

إن لحظات انفرادها بخالتها أثناء الوجبات قد أصبحت حزينة كئيبة .

إن « نينى » تنهض من فراشها فى ساعة مبكرة من الصباح وتتكئ بمرفقها على سور الشرفة ، وقد استبدبها الحزن والألم ، وهى تشاهد وهى فى وقفتها تلك ، نفس المناظر المؤذية المخجلة التى تتوالى على ضفة فرع نهر الـ « سنغال » الصغير . إنها لاتشعر بأية عاطفة أو بأية قوة تربطها بتلك الكائنات ، وبتلك الأشياء ، وبتلك العادات التى تبدو منافية لكل تقاليد الحياه المتحضرة ...

وبعد بضعة أيام تلقت « نينى » التى لاتقرأ أبداً والتى لاتهتم بالاستفسار عن أى

شى ، عدداً من صحيفة « بارى — داكار » وهى صحيفه إخبارية يقبل على قراءتها كثير من الأوربيين ومن الإفريقيين الذين يسمون بالـ « متحضرين » . وتعجبت « نينى » من وصول تلك الصحيفة إليها وكانت مغلفة بعناية ، كما كتب على الشريط الذى يحيط بها اسمها وعنوانها . وتكهنت بأن هناك شيئاً يخصها قد جاء بالصحيفة. وفضت الغلاف، وأخذت تدير صفحاتها بطريقة آلية . وقد لفتت نظرها فقرة محاطة بإطار أحمر ، وقرأت تحت عنوان : « أخبار عن الإدارة من فرنسا ومن مستعمرات ماوراء البحار » الخبر التالى: ... السيد« جان— بول— مارتينو» الذى عين مهندساً بالأشغال العامة بقرار وزارى يعود إلى إفريقيا الاستوائية الفرنسية فى صحبة زوجته. وطوت « نينى » الصحيفة ووضعتها برفق ، دون أن تنبس بكلمة ، فى درج المنضدة الصغيرة التى بجوار فراشها .

لعلها ، فى ظروف أخرى، كانت قد تسوق الخبر إلى خالتها وترتمى بين أحضانها وهى تجهش بالبكاء باحثة بين ذراعيها عما يهون من ألمها العميق. ولكن ما يرتسم على وجه خالتها الآن إنما يدفعها إلى إخفاء كل شىء فيما يتعلق بأخبار هامة كهذه ، تتعلق بأمر سبب لجدتها « إيلين » ولخالتها « هورتنس » قلقاً شديداً خلال أيام طويلة وأسابيع تزيد على عامين .

وفى ذلك المساء جلست « نينى » إلى المائدة بنفس الأدب المفتعل والتحفظ الذى دأبت عليه فى الفترة الأخيرة ، وتناولت عشاءها دون أن تشير إلى شىء ، ثم عادت إلى غرفتها .

ولم تذق طعم النوم ، ولكن الأرق أفادها إذ جاءها بالحل السعيد ودلها على الطريق المؤدية إلى الخلاص : يجب أن ترحل عن هذا البلد الذى لم تتذوق فيه معنى السعادة فى يوم من الأيام ، يجب أن ترحل ، وأن تنسى كل ما حدث ، وأن تجعل الناس ينسونها .

وفى اليوم التالى، دون أن تخطر أحداً بما انتوته ، ودون أن تسأل خالتها رأيها، توجهت إلى مسجل العقود الذى يشرف على أمور أسرة « ميرل » وطلبت منه أن

يبيع ، فى أقرب وقت ممكن ، العمارة التى بجنوب المدينة والتى تملكها بحكم القانون . ولم يجد المسجل ما يعترض به أو سبباً لرفض هذا الطلب فإن « نينى » قد بلغت سن الرشد ، وهى بحكم القانون المالكة الوحيدة لهذه العمارة .

وقد تمت إجراءات البيع بشكل يستحق الإعجاب ، وتم البيع كذلك بالتراضى بين البائع والمشترى وهو بيت تجارى وضع يده على العمارة .

وهكذا أصبح فى حوزة « نينى » ثروة تتيح لها أن تدور حول الأرض .

ولما انتهى كل شىء أخطرت خالتها برحيلها المقبل ، ووضعتها بكل وقاحة أمام الأمر الواقع ، وأفصحت عن رغبتها فى الرحيل عن إفريقيا .

وقالت المرأة المسكينة وهى تجهش بالبكاء وقد أوشكت أن تصاب بالإغماء : أفعلت ذلك يا « فرجينى » ؟ ومن ذا الذى سمح لك بهذا ؟

— لم أعد طفلة يا خالتى ، ويمكننى التصرف فى مثل هذه الأمور دون إذن من أحد . لقد كنت الوريثة الوحيدة لتلك العمارة التى بيعت . ولقد بلغت سن الرشد منذ وقت طويل . لم يكن الأمر إذن ليعنى شخصاً سواى .

— آه ! آه ... ! ولكن مادمت تملكين كل شىء فلماذا لا تبيعين إذن هذا البيت الذى نسكنه ؟

— إن الأمر مختلف إذ ليس لى فى هذا البيت إلا حقوق محدودة . وعلى أية حال فإن لدى ما يكفينى من المال الآن لكى أتمكن من إنجاح مشاريعى .

— وهل يمكن أن أعرف شيئاً عن مشاريعك هذه ؟

— إننى بكل بساطة لا أطلب إلا الرحيل والبعد عن إفريقيا .

— آه ! لقد فهمت ... إنك تريدين الذهاب إلى فرنسا لتطاردى عشيقك الأبيض ، أليس كذلك ؟ ... أيتها العاهر !

— لن أطارده هو ما دام قد تزوج ، ما دام يعود إلى إفريقيا الاستوائية.

الفرنسية فى صحبه زوجته .. ثم أرجوك ياخالتى ألا تلجئى إلى هذه الكلمات الغليظة فى حديثك معى . لقد سبق السيف العذل . إن السباب لا يمكن أن ينال منى الآن ولا يمكن أن يوهن عزيمتى ومن الأفضل أن أتركك عندما تحين لحظة رحيلى ونحن متصافيتان .

— أتصافى مع من ؟ مع فتاة منحرفة منكرة للجميل فاسدة الخلق مثلك ؟

وأجابت « نينى » وهى تهم بالنهوض لتضع حداً لهذا الحديث :

— لعلى هكذا فعلا بفضل ما توارثته عن أجدادى الأبعدين .

وفى اليوم التالى استأجرت « نينى » سيارة أجرة وعنيت طوال النهار بشئونها .

وفى المساء ركبت القطار إلى « دا كار » لتستقل منها الطائرة ؛ وقد فعلت ذلك فى هدوء . ولم يدر بذلك أحد أو ، بمعنى أصح ، لم يدر بأمر ذلك الهرب أحد سوى خالتها ، فلقد أخفته حتى على صديقتها « مادو » إذ أصبحت الآن تخشى لسانها الذى يشبه لسان الأفعى وميلها إلى النيل من الآخرين .

ومنذ وصلت إلى « دا كار » بدأت « نينى » تشعر بأن عالماً جديداً يحيط بها ، عالماً زاخراً بالمحلات التجارية السابحة فى النور وبالمطاعم المضاءة بنور الـ « نيون » ، وبالشوارع التى تعج بسيارات تروح وتغدو فى صخب . إن كل شىء هنا مختلف عنه فى مدينة « سان لوى » العتيقة اللائى بالإشاعات والتقولات .

وبعد أربع وعشرين ساعة من وصولها إلى « دا كار » توجهت « نينى » إلى مطار « يوف » لتستقل الطائرة التابعة لشركة « إيرفرانس » التى تقوم برحلة منتظمة بين « دا كار » والعاصمة الفرنسية .

وشعرت « نينى » لحظة صعودها إلى الطائرة بخوف غريزى يستولى عليها : إن تلك أول مرة لها تسافر فيها على متن طائرة . وداخل الطائرة المضاءة بأنوار ساطعة وحيث تلمع كل الأدوات الحديدية وتلك المصنوعة من النحاس والألومنيوم ، احتلت « نينى » مكاناً يقع بجانب مقعد شاب حديث السن ، أشقر الشعر ، هو نموذج لرجل

إنجليزى من أصل ساكسونى . إن كل المسافرين من البيض ، وأغلبهم — وهم يعرون بـ « داكار » مروراً عابراً — جاءوا من بلاد أمريكا اللاتينية .

وفجأة سمع صوت محركات الطائرة الصاخب الذى يشق الهواء الساكن ، وأخذت الطائرة تهتز كالحيوان الثائر ، ثم شعرت « نينى » بأن الطائرة قد تركت مكانها وابتعدت عن المطار ثم توقفت من جديد . وبعد لحظة انطلقت الطائرة بأقصى سرعتها ، وبذلت مجهوداً جباراً لتنفصل عن الأرض ، ثم شرعت تطير فى الهواء .

وأسفل الطائرة التى كانت تشق ظلمات الليل كانت إفريقيا التى تسبح فى الغياهب تتمطى وتفر من الأعين . وحاولت « نينى » أن ترى من خلال النافذة التى تقع عن يمينها — وربما لآخر مرة — مشهداً من مشاهـــد تلك الأرض التى تزخر بالألم والشكوى والدموع ، حيث يعانى الإنسان من قسوة الحياة بدلا من أن يسودها ، ولكن موجات الظلام القاتمة كانت تخفى بين طياتها أسطح الأكواخ المدببة وسقوف العشش ، ومجموعات الأشجار المتناثرة فى الصحراء ، والساحل الذى يمتد على طول البحر ، والذى لا يرى منه شىء .

وبعد لحظات ظهرت المضيفة وقالت موجهة حديثها للمسافرين :

— إن شركة « إير فرانس » ترحب بكم وإن البيانات التى جاءتنا من الأرصاد تؤكد أن الأحوال الجوية حسنة للغاية ، ولم يعد أمامنا إلا أن نتمنى لكم رحلة سعيدة .

﴿ تمت ﴾

* * *

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦

